
شرح
نهج البلاغة
لابن أبي الحديد
محمد إبراهيم
دار الكتاب العربي
بغداد



شرح نهج البلاغة

ابن أبي الحديد

٩ ـ ١٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

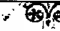
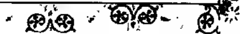
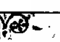


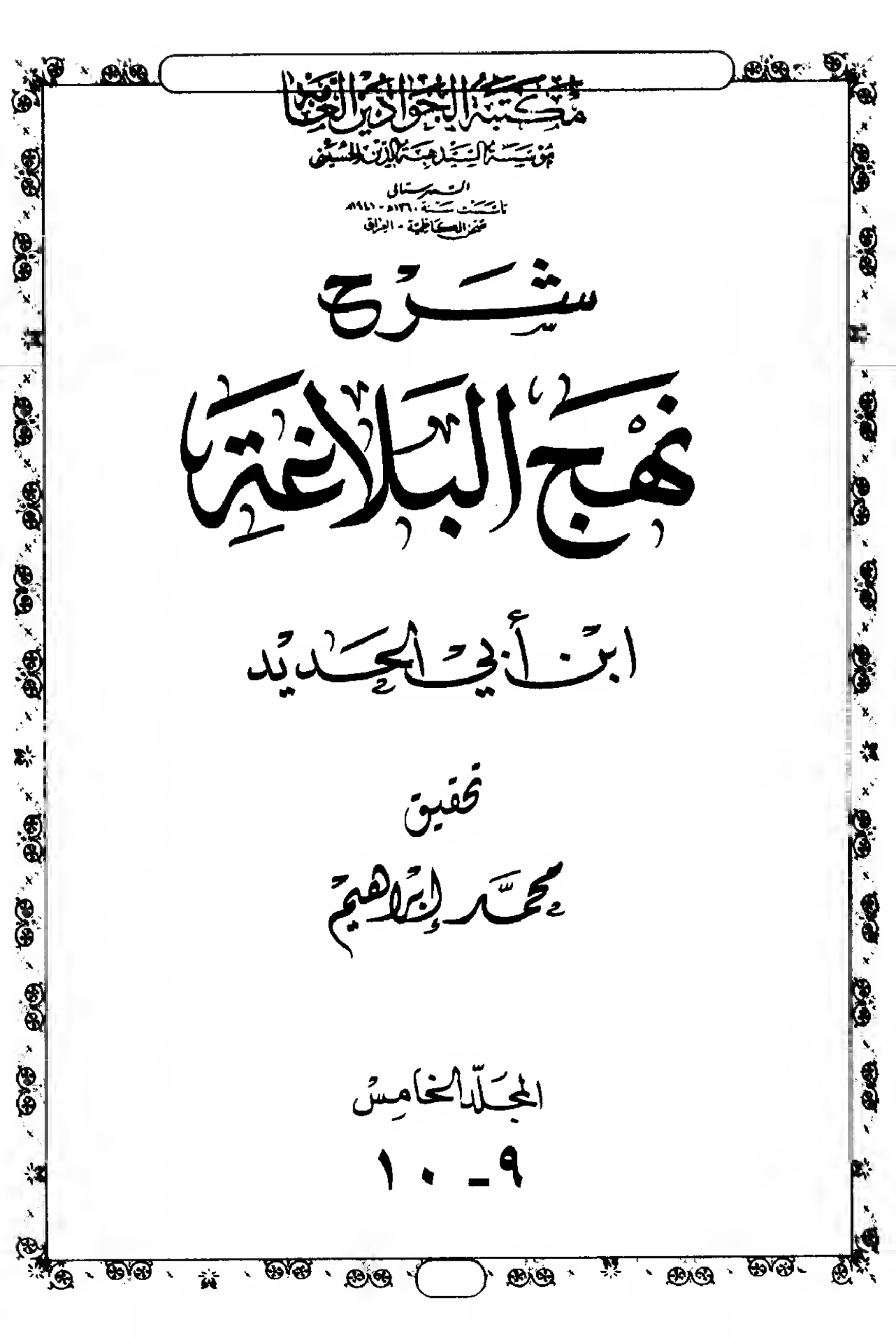
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان
خلوي: ٠٣/٩٤٢١١٦١ - ٠٣/٨١٥٤٢٥ ، تلفاكس: ٧٢٧٦٤٠٨٠
http://www.Dar-ALamira.com
email:info@dar-alamira.com



دار الكتاب العربي
بغداد - شارع المتنبي
تلفون: ٤١٥٤٥٦١ - ٠٧٩٠١٤١٩٣٧٥



شرح نهج البلاغة

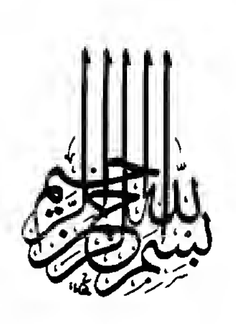
ابن أبي الحديد

تحقيق

محمد إبراهيم

المجلد الخامس

٩ - ١٠





الحمد لله الواحد العدل

ذكر ما شجر بين علي عليه السلام وعثمان

واعلَم أنّ هذا الكتاب يستدعي منّا أن نذكُر أطرافاً مِمّا شجَر بين أمير المؤمنين عليه السلام وعثمان أيام خلافته، إذْ كان هذا الكلام الذي شرحناه من ذلك النَّمَط، والشيء يُذكر بنظيره، وعادتُنا في هذا الشرح أن نذكرَ الشيء مع ما يناسبه ويقتضي ذكرَه.

قال أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ في كتاب «أخبار السقيفة»: حدثني محمد بن منصور الرماديّ، عن عبد الرزاق، عن معمَر، عن زياد بن جَبَل، عن أبي كعب الحارثيّ - وهو ذو الإداوة، قال أبو بكر أحمد بن العزيز: وإنما سمّيَ ذا الإداوة لأنّه قال: إني خرجتُ في طلب إبلٍ ضوالّ، فتزوّدتُ لبناً في إداوة، ثم قلت في نفسي: ما أنصفتُ ربّي! فأين الوضوء؟ فأرقتُ اللّبن وملأتها ماء، فقلت: هذا وضوء وشراب، وطفِقْت أبغي إبلِي، فلما أردتُ الوضوء اصطبيتُ من الإداوة ماء فتوضّأت، ثم أردتُ الشّرب، فلمّا اصطببتُها، إذا لبن فشربت، فمكثت بذلك ثلاثاً: فقالت له أسماء النّحرانية: يا أبا كعب، أحقِيناً كان أم حليباً: قال: إنّك لبطّالة! كان يعصم من الجوع ويروِي من الظمأ، أما إنّي حَدّثت بهذا نفراً من قومي، منهم عليّ بن الحارث سيّد بني قنان، فلم يصدّقني، وقال: ما أظنّ الذي تقول كما قلت! فقلت: الله أعلمُ بذلك. ورجعت إلى منزلي، فبتّ ليلتِي تلك، فإذا به صلاةَ الصبح عَلَى بابي، فخرجت إليه، فقلت: رحمك الله! لم تعنّيت؟ ألا أرسلتَ إليّ فآتيَك، فإنّي لأحقّ بذلك منك قال: ما نمت اللّيلة إلا أتاني آتٍ فقال: أنت الّذي تكذّب مَنْ يحدّث بما أنعم الله عليه! قال أبو كعب: ثم خرجت حتى أتيت المدينة، فأتيت عثمانَ بن عفّان وهو الخليفة يومئذٍ فسألتُه عن شيء من أمْر ديني، وقلت: يا أميرَ المؤمنين، إنّي رجلٌ من أهل اليمن من بني الحارث بن كعب، وإنّي أريدُ أن أسألك فأمُر حاجبَك ألاّ يحجُبَني، فقال: يا وثّاب، إذا جاءك هذا الحارثيّ فأْذَنْ له. قال: فكنت إذا جئت، فقرعت الباب، قال: مَنْ ذا؟ فقلت: الحارثيّ. فيقول: ادخل، فدخلت يوماً فإذا عثمان جالس، وحوله نفرٌ سكوت لا يتكلّمون، كأنّ على رؤوسهم الطير، فسلّمت ثم جلست، فلم أسأله عن شيءٍ لِمَا رأيتُ من حالهم وحاله، فبينَا أنا كذلك إذْ جاء نفرٌ، فقالوا: إنّه أبى أتى أن يجيء. قال: فغضب وقال: أبى أن يجيء! اذهبوا فجيئوا به، فإنْ أبَى فجرّوه جرًّا.

قال: فمكثت قليلاً، فجاؤوا ومعهم رجل آدم طُوال أصلع، في مقدّم رأسه شعرات، وفي قفاه شعرات، فقلت: مَنْ هذا؟ قالوا: عمّار بن ياسر، فقال له عثمان: أنتَ الذي تأتيك رسلُنا فتأبَى أن تجيء! قال: فكلّمه بشيء لم أدرِ ما هو، ثم خرج. فما زالوا ينفضّون من عنده حتى ما بَقِيَ غيري فقام، فقلت: والله لا أسألُ عن هذا الأمر أحداً أقول حدّثني فلان حتى أدرِي ما يصنع. فتبعتُه حتى دخل المسجد، فإذا عمّار جالس إلى سارية، وحوله نفر من أصحاب رسول الله ﷺ يبكون، فقال عثمان: يا وثّاب عليّ بالشُّرَط، فجاؤوا، فقال: فرّقوا بين هؤلاء، ففرّقوا بينهم.

ثم أقيمت الصلاة، فتقدّم عثمان فصلّى بهم، فلما كبّر قالت امرأة من حُجْرتها: يأيّها الناس. ثم تكلّمت، وذكرت رسول الله ﷺ، وما بعثَه الله به، ثم قالت: تركتم أمر الله، وخالفتم عهده... ونحو هذا، ثم صمتَتْ وتكلّمت امرأة أخرى بمثل ذلك، فإذا هما عائشة وحفصة.

قال: فسلّم عثمان، ثم أقبل على الناس، وقال: إنّ هاتيْن لَفتّانتان، يحلّ لي سبُّهما، وأنا بأصلهما عالم. فقال له سعد بن أبي وقّاص: أتقولُ هذا لحبائب رسول الله ﷺ! فقال: وفيمَ أنت! وما هاهنا، ثم أقبل نحو سعد عامداً ليضربه، فانسلّ سعد. فخرج من المسجد، فاتّبعه عثمان، فلقِيَ عليًا عليه السلام بباب المسجد، فقال له عليه السلام: أين تريد؟ قال: أريد هذا الّذي كذا وكذا - يعني سعد يشتِمه - فقال له عليّ عليه السلام: أيّها الرجل، دعْ عنك هذا. قال: فلم يَزلْ بينهما كلام، حتى غضبا، فقال عثمان: ألستَ الّذي خلّفك رسول الله ﷺ له يوم تَبُوك[1]! فقال عليّ: ألستَ الفارّ عن رسول الله ﷺ يوم أُحُد!

قال: ثم حَجَز النّاس بينهما. قال: ثم خرجتُ من المدينة حتى انتهيتُ إلى الكوفة فوجدت أهلها أيضاً وقع بينهم شرّ، ونشبوا في الفتنة، وردّوا سعيدَ بن العاص فلم يَدَعُوه يدخل إليهم. فلمّا رأيتُ ذلك رجعتُ حتى أتيت بلادَ قومي.

وروى الزُّبير بن بكّار في كتاب «الموفّقيات»[2] عن عمّه، عن عيسى بن داود، عن رجاله، قال: قال ابنُ عباس رحمه الله: لما بنى عثمان دارَه بالمدينة، أكثرَ النّاس عليه في ذلك فبلغه، فخطَبَنا في يوم جمعة، ثم صلّى بنا، ثم عاد إلى المِنبر، فحمِد الله وأثنى عليه،

---

(١) وهو اليوم الذي أعطى رسول الله ﷺ فيه علياً وسام الأنبياء وشبهه بالنبي هارون حيث قال له: أنت مني بمنزلة هارون من موسى غير أنه لا نبي بعدي.

(٢) الموفقيات في الحديث: للزبير بن بكار الأسدي المتوفى سنة (٢٥٦هـ)، «كشف الظنون» (٢/ ١٩١٠).

وصلّى عَلَى رسوله، ثم قال: أمّا بعدُ، فإنّ النعمة إذا حدثَتْ حدث لها حُسّاد حَسْبَها، وأعداء قَدْرَها، وإنّ الله لم يحدِثْ لنا نعماً لَيَحْدُث لها حسّاد عليها، ومنافسون فيها، ولكنّه قد كان من بناء منزلنا هذا ما كان إرادة جمع المال فيه، وضمّ القاصية إليه، فأتانا عن أناس منكم أنّهم يقولون: أخذ فيْئنا، وأنفق شيئنا، واستأثر بأموالنا، يمشون خَمَراً، وينطقون سِرًّا، كأنّا غُيّب عنهم، وكأنهم يهابون مواجَهتنا، معرفةً منهم بدُحوض حجّتهم، فإذ غابوا عَنّا يرُوح بعضهم إلى بعض بذكرنا. وقد وجدوا عَلَى ذلك أعواناً من نظرائهم، ومؤازرين من شبابهم، فبعداً بعداً! ورغماً رغماً. ثم أنشد بيتين كأنه يومىء فيهما إلى عليّ عليه السلام:

توقد بنارٍ أينما كُنتَ واشتعِلْ ... فلستَ تَرى مما تعالج شافَيا
تشُطّ فيقضي الأمرَ دونَك أهلُه ... وشيكاً، ولا تُدعَى إذا كنت نائيا

ما لِي ولفيئِكم وأخذ مالكم. ألستُ من أكثر قريش مالاً، وأظهرهم من الله نعمة. ألم أكنْ على ذلك قبل الإسلام وبعده. وهبُوني بنيتُ منزلاً من بيت المال، أليس هو لي ولكم. ألم أقِمْ أمورَكم، وأني من وراء حاجتكم! فما تفقدون من حقوقكم شيئاً، فلمَ لا أصنع في الفضل ما أحببت، فلمَ كنتُ إماماً إذاً. ألا وإنّ من أعجب العجَب، أنّه بلغني عنكم أنكم تقولون: لنفعلنّ به ولنفعلنّ. فبِمَنْ تفعلون، لله آباؤكم. أبنقَد البقاع، أم بفقع القاع! ألست أحراكم إن دعا أن يُجاب، وأقمَنكم إن أمَرَ أنْ يُطاع. لهفي عَلَى بقائي فيكم بعد أصحابي، وحياتي فيكم بعد أترابي! يا ليتني تقدّمت قبل هذا، لكنّي لا أحبُّ خلاف ما أحبه الله لي عزّ وجلّ، إذا شئتم فإنّ الصادق المصدّق محمداً صلى الله عليه وسلم قد حدّثني بما هو كائن من أمري وأمركم، وهذا بدء ذلك وأوّله، فكيف الهرب مما حتّم وقدّر! أما إنّه عليه السلام قد بشّرني في آخر حديثه بالجنّة دونكم، إذا شئتُم فلا أفلح من نَدِم!

قال: ثمّ همّ بالنزول فبُصر بعليّ بن أبي طالب عليه السلام ومعَه عمّار بن ياسر رضي الله عنه، وناسٌ من أهل هواه يتناجوْن، فقال: إيهاً إيهاً! أسِراراً لا جهازاً! أما والّذِي نفسي بيده ما أحنِق عَلَى جِرّة، ولا أوتَى من ضعف مِرّة، ولولا النّظر لي ولكم والرّفق بي وبكم، لعاجلتكم، فقد اغتررتم، وأقلتم من أنفسِكم.

ثم رفع يديْه يدعو ويقول: اللهمّ قد تعلم حُبّي للعافية فألبِسْنيها، وإيثاري للسلامة فآتِنيها.

قال: فتفرّق القوم عن عليّ عليه السلام، وقام عديّ بن الخيار، فقال: أتمّ الله عليك يا أميرَ المؤمنين النعمة، وزادك في الكرامة، والله لأنْ تَحسَد أفضلُ من أن تَحْسُد، ولأن تُنافَس أجلّ من أنْ تنافِس! أنت والله في حَسَبِنا الصميم، ومنصبنا الكريم، إن دَعَوتَ أجِبْت، وإن أمرت أطِعت، فقل نفعل، وادعُ تُجَبْ، جُعِلت الخِيرَة والشّورى إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليختارُوا لهم ولغيرهم، وإنهم ليروْنَ مكانك، ويعرفون مكان غيرك، فاختاروك منيبين طائعين،

غير مكرهين ولا مجبَرين، ما غيّرت ولا فارقت، ولا بذلت ولا خالفت، فعلامَ يقدمون عليك وهذا رأيهم فيك! أنت والله كما قال الأول:

إذهب، إليك فما للحسو ... دِ إلاّ طلابُك تحت العثارِ[1]
حكمت فما جُرتَ في خلّةٍ ... فحكمُك بالحق بادي المنار
فإن يسبعوك فسِرًّا وقد ... جَهَرْت بسيفك كلّ الجهارِ

قال: ونزل عثمان فأتى منزله، وأتاه الناس وفيهم ابن عباس، فلما أخذوا مجالسهم، أقبل علَى ابن عباس، فقال: ما لي ولكم يابن عباس! ما غراكم بي، وأولعكم بتعقب أمري! أتنقِمون عليّ أمرَ العامة، أتيتُ من وراء حقوقهم، أم أمركم؟ فقد جعلتُهم يتمنّوْن منزلتكم! لا والله لكن الحسد والبغي وتثوير الشرّ وإحياء الفتن! والله لقد ألقى النبيّ صلى الله عليه وسلم إليّ ذلك، وأخبرني به عن أهله واحداً واحداً، والله ما كذَبت ولا أنا بمكذوب.

فقال ابن عباس: على رِسْلِك يا أمير المؤمنين، فوالله ما عهدتك جَهراً بسِرّك، ولا مظهراً ما في نفسك، فما الذي هيّجك وثوّرك! إنّا لم يولعنا بك أمر، ولم نتعقّبْ أمرَك بشيء، أُتيتَ بالكذب، وتُسوّق عليك بالباطل. والله ما نقمنا عليك لنا ولا للعامة، قد أوتيتَ من وراء حقوقنا وحقوقهم، وقضيتَ ما يلزمك لنا ولهم، فأما الحسد والبغْي وتثوير الفتن، وإحياء الشرّ فمتى رضيتْ به عِتْرة النبيّ وأهل بيته! وكيف وهم منه وإليه! على دين الله يثوّرون الشرّ، أم على الله يحيون الفتن، كلاّ ليس البغي ولا الحسد من طباعهم. فاتّئِدْ يا أميرَ المؤمنين وأبصِرْ أمرك، وأمسك عليك، فإن حالتك الأولَى خير من حالتك الأخرى! لعمري أن كنتَ لأثيراً عند رسول الله، وأن كان ليفضي إليك بسره ما يطويه عن غيرك، ولا كذبت ولا أنت بمكذوب، اخسَأ الشيطان عنك ولا يركبْك، واغلب غضَبك ولا يغلبك، فمَا دعاك إلى هذا الأمر الذي كان منك!

قال: دعاني إليه ابنُ عمّك عليّ بن أبي طالب، فقال ابن عباس: وعسَى أن يكذِبَ مبلّغُك! قال عثمان: إنه ثقة، قال ابن عباس: إنه ليس بثقةٍ مَنْ بلّغ وأغرى. قال عثمان: يابن عباس، آلله إنّك ما تعلم من عليّ ما شكوتُ منه؟ قال: اللهم لا، إلا أن يقول كما يقول الناس، وينقِم كما ينقمون، فمن أغراك به وأولعك بذكره دونهم! فقال عثمان: إنما آفتي من أعظم الداء الذي ينصب نفسه لرأس الأمر، وهو عليٌّ ابن عمك، وهذا والله كلّه من نكده وشؤمه. قال ابن عباس: مهلاً، استثْن يا أمير المؤمنين، قلْ: إن شاء الله، فقال: إن شاء الله. ثم قال: إني

---

(١) العثار والعاثور: المهلكة من الأرضين، وما أُعِدّ ليقع فيه أحد. القاموس مادة (عثر).

أنشدك يابن عباس الإسلام والرَّحِم فقد والله غلبِت وابتليت بكم، والله لوددت أن هذا الأمر كان صار إليكم دوني فحملتموُه عني، وكنت أحدَ أعوانِكم عليه، إذاً والله لوجدتموني لكم خيراً ممّا وجدتكم لي، ولقد علمتُ أنّ الأمر لكم، ولكنّ قومكم دفعوكم عنه واختزلوه دونكم، فوالله ما أدري أدَفعوه عنكم أم دفعوكم عنه!

قال ابن عباس: مهلاً يا أمير المؤمنين، فإنا ننشدك الله والإسلامَ والرَّحِم، مثل ما نشدتنا، أن تطمع فينا وفيك عدوًا، وتُشمِت بنا وبك حسوداً! إنّ أمرَك إليك ما كان قولاً، فإذا صار فعلاً فليس إليك ولا في يديك. وإنّا والله لنخالفنّ إن خولفنا، ولننازعنّ إن نوزعنا، وما تمنيّك أن يكون الأمر صار إلينا دونك إلا أن يقول قائل منا ما يقوله الناس، ويعيب كما عابوا! فأمّا صرف قومنا عنّا الأمرَ فعن حسدٍ قد والله عرفته، وبغيٍ قد والله علمته، فالله بيننا وبين قومنا! وأما قولك: إنك لا تدري أدفعوه عنّا أم دفعونا عنه! فلَعمري إنك لتعرف أنه لو صار إلينا هذا الأمر ما زدنا به فضلاً إلى فضلنا، ولا قدْراً إلى قدرنا، وإنا لأهلُ الفضل وأهل القدر، وما فَضَل فاضلٌ إلا بفضلنا، ولا سبَق سابق إلا بسبقنا، ولولا هدينا ما اهتدى أحد، ولا أبصرُوا من عمًى، ولا قصدوا من جَوْر.

فقال عثمان: حتى متى يابن عباس، يأتيني عنكم ما يأتيني! هبوني كنتُ بعيداً، أما كان لي من الحقّ عليكم أنّ أراقب وأن أناظر! بلَى وربّ الكعبة، ولكنَّ الفرقة سهّلت لكم القول فِيّ، وتقدّمت بكم إلى الإسراع إليّ. والله المستعان.

قال ابنُ عباسٍ: مهلاً، حتى ألقَى عليًا ثم أحمِل إليك على قَدْر ما رأى. قال عثمان: افعل فقد فعلت، وطالما طلبت فلا أطلَب، ولا أجاب ولا أعتب.

قال ابن عباس: فخرجت فلقيتُ عليًا، وإذا به من الغضب والتلظّي[1] أضعاف ما بعثمان، فأردتُ تسكينَه فامتنع، فأتيتُ منزلي وأغلقت بابي واعتزلتهما.

فبلغ ذلك عثمان، فأرسل إليّ، فأتيته وقد هدأ غضبُه، فنظر إليّ ثم ضحك، وقال: يابن عباس، ما أبطأ بكَ عنّا! إنّ تركك العوْد إلينا لدليلٌ على ما رأيت عند صاحبك، وعرفت من حاله، فالله بيننا وبينه! خُذْ بنا في غير ذلك.

قال ابن عباس: فكان عثمان بعد ذلك إذا أتاه عن عليّ شيء، فأردتُ التكذيب عنه يقول: ولا يوم الجمعة حين أبطأتَ عنّا وتركت العوْد إلينا! فلا أدرِي كيف أردّ عليه.

---

(١) التلظي: تلظَّت النار: التهبت. اللسان، مادة (لظي).

وروى الزُّبيرُ بن بكار أيضاً في «الموفقيات»، عن ابن عباس رحمه الله، قال: خرجتُ من منزلي سَحَراً أسابِق إلى المسجد، وأطلب الفضيلة، فسمعت خَلْفي حِسًّا وكلاماً، فتسمّعتُه فإذا حِسُّ عثمان وهو يدعو ولا يَرى أن أحداً يسمعه، ويقول: اللهمَّ قد تعلم نيَّتي فأعنّي عليهم، وتعلم الذين ابتليتُ بهم من ذَوِي رَحمي وقرابتي، فأصلحْني لهم، وأصلحهم لي.

قال: فقصَّرْت من خطوتي وأسرع في مشيته، فالتقينا فسلّم، فرددت عليه، فقال: إني خرجت ليلتّنا هذه أطلب الفَضْل والمسابقة إلى المسجد، فقلت: إنه أخرجني ما أخرجك، فقال: والله لئن سابقتَ إلى الخير، إنّك لمنْ سابقين مباركين، وإني لأحبُّكم وأتقرب إلى الله بحبّكم، فقلت: يرحُمك الله يا أميرَ المؤمنين! إنَّا لنحبُّك ونعرف سابقتك وسنّك وقرابتك وصهرك. قال: يابن عباس، فما لي ولابن عَمّك وابن خالي! قلت: أيّ بني عمومتي وبني أخوالك؟ قال: اللهم اغفر! أتسأل مسألة الجاهل! قلت: إن بني عمومتي من بني خؤولتك كثير، فأيّهم تعني؟ قال: أعني عليًا لا غيره، فقلت: لا والله يا أمير المؤمنين، ما أعلم منه إلا خيراً، ولا أعرف له إلا حسناً. قال: والله بالحرَي أن يستر دونك ما يظهره لغيرك، ويقبض عنك ما ينبسط به إلى سواك.

قال: ورُمِينا بعمّار بن ياسر، فسلّم، فرددت عليه سلامه، ثم قال: مَنْ معك؟ قلت: أمير المؤمنين عثمان، قال: نعمْ، وسلّم بكنيته، ولم يسلّم عليه بالخلافة، فردّ عليه، ثم قال عَمّار: ما الذي كنتم فيه، فقد سمعت ذَرْواً منه؟ قلت: هو ما سمعتَ، فقال عمّار: رُبَّ مظلوم غافل، وظالم متجاهل! قال عثمان: أما إنّك من شُنَّائِنا وأتباعهم، وايمُ الله، إنَّ اليدَ عليك لمنبسِطة، وإنّ السبيل إليك لَسهْلة، ولولا إيثار العافية، ولم الشّعث لزجرتُك زجرةً تكفي ما مضى، وتمنع ما بقِيَ.

فقال عمّار: والله ما أعتذِر من حبّي عليًا، وما اليدُ بمنبسطة، ولا السَبيل بسهلة، إني لازم حجّة، ومقيم على سنة، وأمّا إيثارك العافيةَ ولَمّ الشعث، فلازم ذلك. وأما زجْري فأمسِكْ عنه، فقد كفاك معلّمي تعليمي. فقال عثمان: أمَا والله إنك ما علمتُ من أعوان الشرّ الحاضّين عليه، الخذَلة عند الخير، والمثبّطين عنه. فقال عمّار: مهلاً يا عثمان، فقد سمعتَ رسول الله ﷺ يصِفني بغير ذلك، قال عثمان: ومتى؟ قال: يوم دخلتُ عليه منصرَفَه عن الجمعة، وليس عنده غيرك، وقد ألقى ثيابه، وقعد في فُضُله، فقبّلتُ صدرَه ونحرَه وجبهته، فقال: «يا عمار، إنّك لتحبّنا وإنّا لنحبّك، وإنك لمن الأعوان على الخير المثبّطين عن الشرّ»[1]، فقال عثمان: أجلْ ولكنّك غيّرت وبدّلت، قال: فرفع عمّار يدعو، وقال: أمّنْ يابنَ عباس، اللهمّ مَنْ غَيّر فغيّر به! ثلاث مرات.

---

(١) أخرجه أحمد في مواقف الشيعة: ١/ ١٥٩.

قال: ودخلنا المسجدَ، فأهوى عمّار إلى مصلاّه، ومضيت مع عثمان إلى القِبْلة، فدخل المحراب، وقال: تلبّثْ عليّ إذا انصرفنا، فلما رآني عمّار وحدي أتاني، فقال: أمَا رأيتَ ما بلغ بي آنفاً؟ قلت: أما والله لقد أصعبْتَ به وأُصْعِب بك، وإن له لسنَّه وفضلَه وقرابته، قال: إنّ له لذلك، ولكن لا حقّ لمن لا حقّ عليه. وانصرف.

وصلّى عثمان، وانصرفت معه يتوكّأ عليّ، فقال: هل سمعتَ ما قال عمّار؟ قلت: نعم، فسرّني ذلك وساءني، أمّا مساءته إيّاي فما بلغ بك، وأما مسرّته لي فحلمك واحتمالُك. فقال: إن عليًّا فارقَني منذ أيامٍ على المقاربة، وإن عمّاراً آتيه فقائل له وقائل، فابدُره إليه، فإنّك أوثق عنده منه وأصدق قولاً، فألق الأمرَ إليه على وجهه، فقلت: نعم.

وانصرفت أريد عليًّا عليه السلام في المسجد، فإذا هو خارج منه، فلمّا رآني تفجّع لي من فَوْت الصَّلاة، وقال: ما أدركتها! قلت: بلى، ولكنّي خرجت مع أمير المؤمنين، ثم اقتصصْتُ عليه القصّة، فقال: أمَا والله يابنَ عباس، إنه ليقرف قَرْحةً، ليحورَنّ عليه ألمها. فقلت: إن له سنَّه وسابقتَه، وقرابتَه وصهره، قال: إنّ ذلك له، ولكن لا حقّ لمن لا حقّ عليه.

قال: ثم رهقَنا عَمّار، فبشّ به عليّ، وتبسّم في وجهه، وسأله، فقال عمّار: يابن عباس، هل ألقيت إليه ما كنّا فيه؟ قلت: نعم، قال: أما والله إذاً لقدْ قلتَ بلسان عثمان، ونطقت بهواه! قلتُ: ما عدوتُ الحقّ جُهْدي، ولا ذلك من فعلي، وإنك لتعلم أيّ الحظّيْن أحبّ إليّ، وأيّ الحقّين أوجبُ عليّ!

قال: فظنّ عليّ أن عند عمار غيرَ ما ألقيتُ إليه، فأخذ بيده وترك يدي، فعلمت أنّه يكره مكاني، فتخلّفت عنهما، وانشعب بنا الطريق، فسَلكاه ولم يدعُني، فانطلقتُ إلى منزلي، فإذا رسول عثمان يدعوني، فأتيتُه، فأجد ببابه مَرْوان وسعيد بن العاص، في رجالٍ من بني أميّة، فأذِن لي وألطفني، وقرّبني وأدْنَى مجلسي، ثم قال: ما صنعت؟ فأخبرته بالخبر عَلَى وجهه وما قال الرجل، وقلت له - وكتمته قوله: «إنه ليقرِف قرْحةً ليحورنّ[1] عليه ألمُها» - إبقاءً عليه، وإجلالاً له، وذكرتُ مجيء عمار، وبَشَّ عليّ له، وظنّ عليّ أن قِبَله غيْر ما ألقيت عليه، وسلوكهما حيث سلكا. قال: وفعلاً؟ قلت: نعم. فاستقبل القبلة، ثم قال: اللهمّ ربّ السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، الرحمن الرحيم، أصلِح لي عليًّا، وأصلحني له! أمّنْ يابنَ عباس، فأمّنت. ثم تحدّثنا طويلاً، وفارقته وأتيت منزلي.

وروى الزّبير بن بكّار أيضاً في الكتاب المذكور، عن عبد الله بن عباس، قال: ما سمعتُ

(١) أي ليرجعن. اللسان، مادة (حور).

من أبي شيئاً قطّ في أمر عثمان يلومُه فيه ولا يعذِرُه، ولا سألته عن شيء من ذلك مخافَة أن أهجُم منه على ما لا يوافقه، فإنّا عنده ليلةً ونحن نتعشّى، إذْ قيل: هذا أمير المؤمنين عثمان بالباب، فقال: ائذنوا له، فدخل فأوسع له على فراشِه، وأصاب من العشاء معه، فلما رُفِع قام مَنْ كان هناك، وثبتّ أنا. فحمِد عثمان الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد يا خالُ، فإنّي قد جئتُك أستعذِرك من ابن أخيك عليّ، سبّني، وشهرَ أمري، وقطع رحمِي، وطعن في ديني، وإني أعوذ بالله منكم يا بني عبد المطّلب! إن كان لكم حق تزعمون أنّكم غبتم عليه، فقد تركتموه في يديّ، مَنْ فعلَ ذلك بكم، وأنا أقربُ إليكم رحِماً منه! وما لمت منكم أحداً إلا عليًا، ولقد دعيتُ أن أبسط عليه، فتركته لله والرّحِم، وأنا أخاف ألا يتركني فلا أتركه.

قال ابن عباس: فحمِد أبي الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد يابن أختي، فإن كنتَ لا تحمَد عليًا لنفسِك فإنّي لا أحمدك لعلّي، وما عليٌّ وحده قال فيك، بل غيره، فلو أنك اتّهمت نفسك للناس، اتّهم الناس أنفسهم لك، ولو أنك نزلتَ مما رُقِيت وارتقوا مما نزلوا، فأخذتَ منهم وأخذوا منك، ما كان بذلك بأس. قال عثمان: فذلك إليك يا خال، وأنت بيني وبينهم. قال: أفأذكُر لهم ذلك عنك قال: نعم، وانصرف، فما لَبِثْنا أن قيل: هذا أمير المؤمنين قد رَجع بالباب، قال أبي: ائذنوا له، فدخل فقام قائماً، ولم يجلس، وقال: لا تعجل يا خالِ حتى أوذِنَك، فنظرنا فإذا مرْوان بن الحكم كان جالساً بالباب ينتظره حتى خرج، فهو الذي ثناه عن رأيه الأول، فأقبل عليّ أبي، وقال: يا بني، ما إلى هذا من أمره شيء، ثم قال: يا بنيّ، أملك عليك لسانَك حتى ترى ما لا بدّ منه، ثم رفع يديه، فقال: اللهمّ اسبِق بي ما لا خير لي في إدراكه. فما مرّت جمعة حتى مات رحمه الله[1].

وروى أبو العباس المبرد في «الكامل»[2] عن قنبر مولى عليّ عليه السلام قال: دخلت مع عليّ على عثمان، فأحبّا الخلوة، فأومأ إليّ عليّ عليه السلام بالتنحّي، فتنحّيت غير بعيد، فجعل عثمان يعاتبه وعليّ مطرِق، فأقبل عليه عثمان، وقال: ما لك لا تقول! قال: إن قلتُ لم أقل إلا ما تكره، وليس لك عندي إلا ما تحبّ.

قال أبو العباس: تأويلُ ذلك: إن قلتُ اعتددت عليك بمثل ما اعتددتَ به عليّ، فلَذَعَكَ عتابي، وعقدي ألا أفعل - وإن كنت عاتباً - إلا ما تحبّ.

---

(١) أخرجه ابن شبة النمري في تاريخ المدينة: ٣/ ١٠٤٧.
(٢) الكامل في اللغة: لأبي عباس محمد بن يزيد المعروف بالمبرد النحوي، المتوفى سنة (٢٨٥هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٣٨٢).

وعندي فيه تأويل آخر، وهو: أنّي إن قلت واعتذرت فأيّ شيء حسّنته من الأعذار لم يكن ذلك عندك مصدَّقاً، ولم يكن إلا مكروهاً غير مقبول، والله تعالى يعلم أنه ليس لك عندي في باطني وما أطوي عليه جوانحي إلاّ ما تحبّ، وإن كنتَ لا تقبل المعاذير التي أذكرها، بل تكرهها وتنبو نفسك عنها.

وروى الواقدي في كتاب «الشورى» عن ابن عباس رحمه الله، قال: شهدت عِتَاب عثمان لعليّ عليه السلام يوماً، فقال له في بعض ما قاله: نشدتك الله أن تفتح للفرقة باباً! فلعهدي بك وأنت تطيع عتيقاً وابن الخطاب طاعتَك لرسول الله صلى الله عليه وآله، ولستَ بدون واحد منهما، وأنا أمسّ بك رَحِماً، وأقرب إليك صهراً، فإن كنتَ تزعم أنّ هذا الأمر جعله رسول الله صلى الله عليه وآله لك، فقد رأيناك حين تُوفّي نازعت ثم أقررت، فإن كانا لم يركبا من الأمر جدَداً، فكيف أذعنت لهما بالبَيْعة، وبَخَعْتَ بالطاعة! وإن كانا أحسنا فيما وليا، ولم أقصّر عنهما في ديني وحسبي وقرابتي، فكن لي كما كنت لهما.

فقال عليّ عليه السلام: أما الفرقة، فمعاذ الله أن أفتح لها باباً، وأسهل إليها سبيلاً، ولكني أنهاك عمّا ينهاك الله ورسوله عنه، وأهديك إلى رشدك، وأما عتيق وابن الخطاب فإن كانا أخذا ما جعَله رسول الله صلى الله عليه وآله لي، فأنت أعلم بذلك والمسلمون، وما لي ولهذا الأمر وقد تركته منذ حين! فأمّا ألا يكون حقّي بل المسلمون فيه شرَعٌ فقد أصاب السهم الثُّغرة، وأمّا أن يكون حقي دونهم فقد تركتُه لهم، طبت به نفساً، ونفضت يدي عنه استصلاحاً. وأما التّسوية بينك وبينهما، فلستَ كأحدهما، إنهما وليا هذا الأمر، فظلفا أنفسهما وأهلهما عنه، وعُمْتَ فيه وقومك عَوْم السابح في اللّجة، فارجع إلى الله أبا عمرو، وانظر هل بقي من عُمرك إلا كظِمْء الحمار! فحتى متى وإلى متى! ألا تنهي سفهاء بني أمية عن أعراض المسلمين وأبشارهم وأموالهم! والله لو ظَلَم عاملٌ من عمالك حيث تغرب الشمس لكان إثمه مشتركاً بينه وبينك.

قال ابن عباس: فقال عثمان: لك العتبَى، وأفعل وأعْزِلُ من عمّالي كلّ مَنْ تكرهه ويكرهه المسلمون، ثم افترقا. فصدّه مروان بن الحكم عن ذلك، وقال: يجترىءُ عليك النّاس، فلا تعزل أحداً منهم!

وروى الزبير بن بكار أيضاً في كتابه، عن رجال أسندَ بعضهم عن بعض، عن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، قال: أرسلَ إليّ عثمان في الهاجرة، فتقنّعت بثوبي، وأتيته، فدخلت عليه وهو على سريره، وفي يده قضيب، وبين يديه مال دَثِر: صُبْرتان من ورِقٍ وذهب، فقال: دونك خُذْ

من هذا حتى تملأ بطنك فقد أحرقتني. فقلت: وصلتْك رَحِم! إن كان هذا المال ورثته، أو أعطاكه معطٍ، أو اكتسبته من تجارة، كنتُ أحدَ رجلين: إما آخذ وأشكر، أو أوفّرَ وأُجْهَد، وإن كان من مال الله وفيه حقّ المسلمين واليتيم وابن السبيل، فوالله مالك أن تعطينيه ولا لي أن آخذه. فقال: أبيتُ والله إلا ما أبيتَ. ثم قام إليّ بالقضيب فضربني، والله ما أردّ يده، حتى قضى حاجته، فتقنّعت بثوبي، ورجعت إلى منزلي، وقلت: الله بيني وبينك إن كنتُ أمرتُك بمعروفٍ أو نهيت عن منكر!

وروى الزبير بن بكّار، عن الزهري، قال: لما أتي عمرُ بجوهر كسرى، وضع في المسجد، فطلعت عليه الشمس فصار كالجمْر، فقال لخازن بيت المال: وَيْحك! أرِحْني من هذا، واقسمه بين المسلمين، فإن نفسي تحدّثني أنّه سيكون في هذا بلاء وفتنة بين الناس، فقال: يا أميرَ المؤمنين، إنْ قسّمته بين المسلمين لم يسعهم، وليس أحد يشتريه لأن ثمنه عظيم، ولكن ندعه إلى قابل، فعسى الله أن يفتح على المسلمين بمالٍ فيشتريه منهم من يشتريه. قال: ارفعه فأدخله بيت المال. وقتِل عمر وهو بحاله، فأخذه عثمان لما ولّي الخلافة فحلّى به بناته.

قال الزبير: فقال الزهريّ: كلٌّ قد أحسن، عمر حين حَرَم نفسَه وأقارِبه، وعثمان حين وصل أقارِبَه.

قال الزّبير. وحدّثنا محمد بن حرب، قال: حدّثنا سفيان بن عُيَينة، عن إسماعيل بن أبي خالد، قال: جاء رجل إلى عليّ عليه السلام يستشفِع به إلى عثمان، فقال: حمّال الخطايا! لا والله لا أعود إليه أبداً. فآيسه منه.

وروى الزبير أيضاً، عن شداد بن عثمان، قال: سمعت عَوْف بن مالك في أيام عُمر، يقول: يا طاعون خذني، فقلنا له: لم تقول هذا، وقد سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «إنّ المؤمن لا يزيدُه طول العمر إلا خيراً»[1]! قال: إني أخاف سِتًّا: خلافَةَ بني أميّة، وإمارة السّفهاء من أحداثهم، والرّشوة في الحكم، وسفْك الدم الحرام، وكثيرة الشُّرَط، ونَشْأً ينشأ، يتخذون القرآن مزامير.

وروى الزّبير عن أبي غسّان، عن عمر بن زياد، عن الأسود بن قيس، عن عبيد بن حارثة،

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٣٤٥٣).

قال: سمعت عثمان وهو يخطب، فأكبّ الناس حوله، فقال: اجلِسوا يا أعداء الله! فصاح به طلحة: إنهم ليسوا بأعداء الله، لكنهم عبادُه، وقد قرؤوا كتابه.

وروى الزّبير، عن سفيان بن عيينة، عن إسرائيل عن الحسن، قال: شهدتُ المسجد يوم جمعة، فخرج عثمان، فقام رجل، فقال: أنشد كتاب الله! فقال عثمان: اجلس، أما لِكتاب الله ناشدٌ غيرك! فجلس، ثم قام آخر فقال مثل مقالته، فقال: اجلس، فأبى أن يجلس، فبعث إلى الشُّرَط ليُجلِسوه، فقام الناس فحالوا بينهم وبينه، قال: ثم ترامَوْا بالبطحاء، حتى يقول القائل: ما أكاد أرى أديم السماء من البطحاء.

فنزل عثمان، فدخل دارَه ولم يصلّ الجمعة.

المشاجرة بين عثمان وابن عباس بحضور علي

وروى الزّبير أيضاً في «الموفقيات» عن ابن عباس رحمه الله، قال: صلّيت العصر يوماً، ثم خرجت فإذا أنا بعثمان بن عفّان في أيّام خلافته في بعض أزقّة المدينة وحده، فأتيته إجلالاً وتوقيراً لمكانه، فقال لي: هل رأيتَ علياً؟ قلت: خلّفته في المسجد، فإن لم يكن الآن فيه فهو من منزله، قال: أما منزله فليس فيه فابغِه لنا في المسجد. فتوجّهنا إلى المسجد، وإذا عليٌّ عليه السلام يخرج منه، قال ابن عباس: وقد كنت أمس ذلك اليوم عند عليّ، فذكر عثمان وتجرّمه عليه، وقال: أما والله يابنَ عباس، إن من دوائه لقطع كلامه، وترك لقاته. فقلت له: يرحمك الله! كيف لك بهذا! فإن تركتَه ثم أرسل إليك فما أنت صانع؟ قال: أعتلّ، وأعتلّ، فَمن يَقْسِرني! قال: لا أحد.

قال ابن عباس: فلما تراءينا له وهو خارج من المسجد، ظهر منه من التفلّت والطلب للانصراف ما استبان لعثمان، فنظر إليّ عثمان، وقال: يابن عباس، أما ترى ابنَ خالنا يكره لقاءنا! فقلت: ولِمَ وحقّك ألزم، وهو بالفضل أعلم! فلما تقارَبا رماه عثمان بالسّلام، فردّ عليه، فقال عثمان. إنْ تدخلْ فإياك أردنا، وإن تمضِ فإيّاك طلَبنا. فقال عليّ: أي ذلك أحببتَ؟ قال: تدخل، فدخلا وأخذ عثمان بيده، فأهوى به إلى القِبْلة، فقصّر عنها، وجلس قُبَالتها، فجلس عثمان إلى جانبه، فنكصتُ عنهما، فدعَواني جميعاً، فأتيتهما، فحمِد عثمان الله، وأثنى عليه، وصلى على رسوله، ثم قال: أما بعد يا بنيّ خاليّ وابنيْ عمّي، فإذْ جمعتكما في النداء فسأجمعكما في الشّكاية، عن رضايَ على أحد كما، ووجْدي على الآخر. إني

أستعذِركما من أنفسكما، وأسألكما فيئتَكُما، وأستوهبكما رَجْعتَكما، فوالله لو غالبني الناس ما انتصرت إلا بكما، ولو تهضّموني ما تعزّزت إلا بعزّكما. ولقد طال هذا الأمرُ بيننا حتى تخوّفت أن يجوزَ قدرَه، ويعظُم الخطر فيه، ولقد هاجَنِي العدوّ عليكما، وأغراني بكما، فمنعني الله والرحِم مما أراد، وقد خلوْنا في مسجد رسول الله ﷺ وإلى جانب قبره، وقد أحببتُ أنْ تظهِرَا لي رأيكما فيّ، وما تنطويان لي عليه وتصدُقا، فإنّ الصدق أنْجى وأسلم، وأستغفر الله لي ولكما.

قال ابن عباس: فأطرق عليّ عليه السلام، وأطرقت معه طويلاً، أمّا أنا فأجللتُه أن أتكلّم قبله، وأمّا هو فأراد أن أُجيب عنّي وعنه. ثم قلت له: أتتكلم أم أتكلم أنا عنك؟ قال: بل تكلم عنّي وعنك. فحمِدت الله وأثنيت عليه، وصلّيت على رسوله، ثم قلت: أمّا بعد يابنَ عمّنا وعَمّتنا، فقد سمعنا كلامك لنا، وخلْطَك في الشكاية بيننا على رِضاك - زعمتَ - عن أحدنا ووجْدك على الآخر، وسنفعل في ذلك، فنذمّك ونحمَدك، اقتداءً منك بفعلك فينا، فإنّا نذمّ مثلَ تهمتك إيانا على ما اتّهمتنا عليه بلا ثقة إلا ظنًّا، ونحمَد منك غير ذلك من مخالفتك عشيرتَك، ثم نستعذرك من نفسك استعذارك إيانا من أنفسنا، ونستوهبك فيئتَك، استيهابك إيانا فيئتنا ونسألك رجْعتك مسألتك إيانا رجعتنا، فإنا معاً أيّما حمِدت وذممت منا، كمثلك في أمر نفسك، ليس بيننا فرق ولا اختلاف، بل كلانا شريك صاحبه في رأيه وقوله، فوالله ما تعلمنا غير معذرين فيما بيننا وبينك، ولا تعرِفنا غير قانتين عليك، ولا تجدُنا غيرَ راجعين إليك، فنحنُ نسألك من نفسك مثل ما سألتَنا من أنفسنا. وأمّا قولك: لو غالبتْني الناسُ ما انتصرتُ إلاّ بكما، أو تهضموني ما تعزّزت إلا بعزكما، فأين بنا وبك عن ذلك، ونحن وأنت كما قال أخو كنانة:

بـدا بُـحـتُـرٌ مـا رام نـال، وإن يُـرَمْ ... يـخُـضْ دونه غـمْـراً من الـفر رائـمهْ[1]
لـنـا ولـهـم منّـا ومنـهـم عـلـى الـعِـدَا ... مـراتـب عـزٍّ مـصـعِـدات سـلالـمهْ

وأما قولك في هَيْج العدوّ وإياك علينا، وإغرائه لك بنا، فوالله ما أتاك العدوّ من ذلك شيئاً إلا وقد أتانَا بأعظمَ منه، فمنعنا مما أرادَ ما منعكَ من مراقبة الله والرحِم، وما أبقيت أنت ونحن إلا على أديانِنا وأعراضنا ومروءاتنا، ولقد لعمْرِي طال بنا وبك هذا الأمر حتى تخوّفنا منه على أنفسنا، وراقبنا منه ما راقبت.

وأما مساءلتك إيانا عن رأينا فيك، وما ننطوِي عليه لك، فإنّا نخبرك أنّ ذلك إلى ما تحبّ، لا يعلم واحدٌ من صاحبه إلا ذلك، ولا يقبل منه غيرَه، وكلانا ضامنٌ على صاحبه ذلك وكفيلٌ به، وقد برّأتَ أحدَنا وزكيّته، وأنطقت الآخر وأسكتّه، وليس السقيمُ مِنّا ممّا كرهت بأنطقَ من البريء فيما ذكرت، ولا البريء منا ممّا سخِطْتَ بأظهرَ من السقيم فيما وصفت، فإمّا جمعتَنا في

(١) الفر: الروغان والهرب. القاموس، مادة (فرر).

الرضا، وإمّا جمعتَنا في السخط، لنجازِيَك بمثل ما تفعل بنا في ذلك، مكايلة الصاع بالصاع، فقد أعلمناكَ رأينا، وأظهرنا لك ذاتَ أنفسنا، وصدَّقْناك، والصدق كما ذكرت أنجى وأسلم، فأجِبْ إلى ما دعوتَ إليه، وأجْلِلْ عن النقضِ والغدْر مسجدَ رسول الله صلى الله عليه وآله وموضع قبره، واصدق تنجُ وتسلم، ونستغفر الله لنا ولك.

قال ابنُ عباس: فنظر إلى عليّ عليه السلام نظرَ هيْبة، وقال: دعْهُ حتّى يبلغ رضاه فيما هو فيه، فوالله لو ظهرت له قلوبُنا، وبدت له سرائرنا، حتى رآها بعينه كما يسمعُ الخبرَ عنها بأذنه، ما زال متجرّماً منتقماً، والله ما أنا ملقىً على وَضَمة، وإني لمانع ما وراء ظهري، وإن هذا الكلام لمخالفةٌ منه وسوء عشرة.

فقال عثمان: مَهلاً أبا حسن، فوالله إنك لتعلم أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وصفَني بغير ذلك يوم يقول وأنت عنده: «إنّ من أصحابِي لقوماً سالمين لهم، وإن عثمان لمنهم، إنّه لأحسنُهم بهم ظنًّا، وأنصحُهم لهم حبًّا». فقال عليٌّ عليه السلام: فتصدّقْ قوله صلى الله عليه وآله بفعلك، وخالفْ ما أنت الآن عليه، فقد قيل لك ما سمعتَ، وهو كافٍ إن قبِلْتَ.

قال عثمان: فتثِق يا أبا الحسن؟ قال: نعم أثق ولا أظنّك إلاّ فاعلاً، قال عثمان: قد وثقت وأنت ممن لا يَخفِرُ صاحبه، ولا يكذّب لقيله.

قال ابن عباس: فأخذتُ بأيديهما، حتى تصافحا وتصالحا وتمازحا، ونهضت عنهما، فتشاورا تآمراً وتذاكراً، ثم افترقا، فوالله ما مرّت ثالثة حتّى لقيَني كلّ واحدٍ منهما، يذكر من صاحبه ما لا تبركُ عليه الأبل. فعلمتُ أن لاَ سبيل إلى صلحهما بعدها.

وروى أحمد بن العزيز الجوهريّ في كتاب «أخبار السقيفة» عن محمد بن قيس الأسديّ، عن المعروف بن سويد، قال: كنت بالمدينة أيّام بويع عثمان، فرأيت رجلاً في المسجد جالساً، وهو يَضفِق بإحدى يديه على الأخرى، والناس حوله، ويقول: واعجبًا من قريش واستئثارهم بهذا الأمر على أهل هذا البيت، معدن الفضل، ونجوم الأرض، ونور البلاد! والله إنّ فيهم لرجلاً ما رأيت رجلاً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله أولَى منه بالحقّ، ولا أقضَى بالعدل، ولا آمَرَ بالمعروف، ولا أنهى عن المنكر، فسألت عنه فقيل: هذا المقداد، فتقدّمت إليه، وقلت: أصلحك الله! مَن الرجل الذي تذكر؟ فقال: ابن عمّ نبيك رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بن أبي طالب!

قال: فلبثتُ ما شاء الله ثم إنّي لقيت أبا ذرّ رحمه الله، فحدّثته ما قال المقداد، فقال: صدق، قلتُ: فما يمنعكم أن تجعلوا هذا الأمر فيهم! قال: أَبَى ذلك قومهم، قلت: فما يمنعكم أن تُعينُوهم! قال: مه لا تَقُلْ هذا، إياكم والفرقة والاختلاف!

قال: فسكتّ عنه، ثمّ كان من الأمر بعدُ ما كان[1].

وذكر شيخُنا أبو عثمان الجاحظ في الكتاب الذي أورد فيه المعاذير عن أحداث عثمان، أنّ عليًّا اشتكى، فعاده عثمان من شكايته، فقال عليّ عليه السلام:

وعائدةٍ تعودُ لغيرِ وُدٍّ تودّ لو أنّ ذا دَنَفٍ يموتُ

فقال عثمان: والله ما أدري أحياتُك أحبّ إليّ أم موتك! إن مِتّ هاضني[2] فقدُك، وإن حييت فتنتني حياتك، لا أعدِم ما بقيتَ طاعناً يتخذك رديئة يلجأ إليها.

فقال عليٌّ عليه السلام: ما الذي جعلني دريئةً للطاعنين العائبين! إنّما سوء ظنّك بي أحلّني من قلبك هذا المحلّ، فإنْ كنتَ تخاف جانبي فلك عليّ عهدُ الله وميثاقه أن لا بأس عليك منّي، ما بلَّ بَحْرٌ صوفةً، وإني لك لراعٍ، وإني عنك لمحامٍ، ولكن لا ينفعني ذلك عندك. وأما قولك: «إن فقدي يَهيضُك»، فكَلّا أن تُهاض لفقدي، ما بَقِيَ لك الوليد ومروان.

فقام عثمان فخرج.

وقد روي أن عثمان هو الذي أنشدَ هذا البيت، وقد كان اشتكى، فعاده عليّ عليه السلام فقال عثمان:

وعائدةٍ تعودُ بغيرِ نُصْحٍ تودّ لو أنّ ذا دَنَفٍ يموتُ

وروى أبو سعد الآبيّ في كتابه عن ابن عباس، قال: وقع بين عثمان وعليٍّ عليه السلام كلام، فقال عثمان: ما أصنع، إنْ كانت قريش لا تحبّكم، وقد قتلتم منهم يوم بَدْرٍ سبعين، كأنّ وجوههم شُنوف[3] الذهب، تصرع أنفهم قبل شفاههم!

وروى المذكور أيضاً أن عثمان لما نقَم النّاس عليه ما نقَموا، قام متوكّئاً على مَرْوان فخطب النّاس، فقال: إنّ لكل أمّة آفة، ولكلّ نعمة عاهة، وإنّ آفة هذه الأمّة، وعاهة هذه النعمة، قوم عَيّابون طعّانون، يظهِرُون لكم ما تحبُّون، ويسرّون ما تكرهون، طَغَام مثل النّعام، يتْبَعُون أوّل ناعق، ولقد نقَموا عليّ ما نقَموا عَلَى عمر مثله، فقَمعهم ووَقَمهم وإنّي لأقربُ ناصراً، وأعزّ نفراً، فما لي لا أفعلُ في فضول الأموال ما أشاء!

وروى المذكور أيضاً أنّ علياً عليه السلام اشتكى، فعاده عثمان، فقال: ما أراك أصبحت إلا

---

(١) أخرجه الجوهري في السقيفة وفدك: ٨٣.

(٢) هاضني: ردني في مرضي. اللسان، مادة (هيض).

(٣) شنوف: جمع شنف: الذي يلبس في أعلى الأذن، والذي في أسفلها القرط. اللسان، مادة (شنف).

ثقيلاً! قال: أجلْ، قال: والله ما أدري أموتُك أحبّ إليّ أم حياتُك! إنّي لأحبُّ موتَك، وأكره أن أعيش بعدك، فلو شئتَ جعلتَ لنا من نفسك مخرجاً، إمّا صديقاً مسالماً وإما عدوًّا مغالباً، وإنك لكما قال أخو إياد:

جَرَتْ لما بيننا حبلُ الشَّموسِ فلا ... يأساً مبيناً نرى منها ولا طَمعا

فقال عليّ عليه السلام: ليس لك عندي ما تخافه، وإن أجبتك لم أُجِبك إلاّ بما تكرهه.

وكتب عثمان إلى عليّ عليه السلام حين أحيط به، أما بعد: فقد جاوزَ الماءُ الزُّبى، وبلغ الحِزام الطُّبْيَيْن، وتجاوز الأمر فيّ قدْرَه، فطمِع فيّ من لا يدفعُ عن نفسه.

فإنْ كُنتُ مأكولاً فكن خيرَ آكلٍ ... وإلاّ فأدركني ولمّا أُمَزَّقِ

وروى الزّبير خبر العيادة على وجه آخر قال: مرِض عليّ عليه السلام، فعاده عثمان ومعه مَرْوان بن الحكم، فجعل عثمان يسأل عليًّا عن حاله، وعليّ ساكتٌ لا يجيبه، فقال عثمان: لقد أصْبَحْتَ يا أبا الحسن مِنّي بمنزلة الولد العاقّ لأبيه! إن عاش عَقّه، وإن مات فجعه، فلو جعلتَ لنا من أمرك فَرَجاً، إما عدوًّا أو صديقاً، ولم تجعلنا بين السماء والماء! أمَا والله لأنا خيرٌ من فلان وفلان، وإن قتِلتُ لا تجد مثلي، فقال مروان: أما والله لا يُرام ما وراءنا حتى تَتَواصَلَ سيوفُنا، وتقطع أرحامنا.

فالتفت إليه عثمان، وقال: اسكتْ لاسكتّ! وما يُدخلك فيما بيننا!

وروى شيخنا أبو عثمان الجاحظ، عن زيد بن أرقم، قال: سمعتُ عثمان وهو يقول لعليّ عليه السلام: أنكرتَ عَلَيَّ استعمالَ معاوية، وأنت تعلم أن عُمَر استعمله! قال عليٌّ عليه السلام: نشدتُك الله! ألا تَعلم أنّ معاويةَ كانَ أطوعَ لعمر من يَرْفَأ غلامه! إنّ عمرَ كان إذا استعمل عاملاً وطىء على صِماخِه، وإنّ القومَ ركبوك وغلبوك واستبدُّوا بالأمر دونك فسكت عثمان.

أسباب المنافسة بين علي عليه السلام وعثمان

قلت: حدثني جعفر بن مكي الحاجب رحمه الله، قال: سألت محمد بن سليمان حاجب الحجّاب - وقد رأيت أنا محمداً هذا، وكانت لي به معرفة غير مستحْكمة، وكان ظريفاً أديباً، وقد اشتغل بالرياضيّات من الفلسفة، ولم يكن يتعصّب لمذهب بعينه - قال جعفر: سألتُ عمّا

عنده في أمر عليّ وعثمان، فقال: هذه عداوة قديمة النَّسب بيْن عبد شمس وبين بني هاشم، وقد كان حرْب بن أميّة نافَرَ عبدَ المطلب بن هاشم، وكان أبو سفيان يحسُد محمداً ﷺ وحارَبُه، ولم تزل الثّنْتان متباغضتين وإن جَمعتْهما المنافيّة. ثم إنّ رسول الله ﷺ زوّج علياً بابنته، وزوّج عثمان بابنته الأخرى، وكان اختصاصُ رسول الله ﷺ لفاطمة أكثرَ من اختصاصه للبنت الأخرى، وللثّانية التي تزوّجها عثمان بعد وفاة الأولى، واختصاصه أيضاً لعليّ وزيادة قربه منه وامتزاجه به واستخلاصه إيّاه لنفسه، أكثرَ وَأعظَمَ من اختصاصه لعثمان. فنفَس عثمان ذلك عليه، فتباعدَ ما بين قلبيْهما، وزاد في التباعد ما عساه يكون بين الأختيْن من مُباغضة أو مشاجرة أو كلام ينقَلُ من إحداهما إلى الأخرى، فيتكدّر قلبُها على أختها، ويكون ذلك التكّدير سبباً لتكدير ما بين البعلين أيضاً، كما نشاهده في عصرنا وفي غيره من الأعصار، وقد قيل: ما قَطَع من الأخَوَيْنَ كالزّوجتين. ثم اتفّق أن عليًا عليه السلام قَتَلَ جماعةً كثيرة من بني عبد شمس في حروب رسول الله ﷺ، فتأكّد الشنآن[1]، وإذا استوحشَ الإنسانُ من صاحبه استوحش صاحبُه منه. ثم مات رسول الله ﷺ، فصبَا إلىٰ عليّ جماعة يسيرة لم يكن عثمان منهم، ولا حضر في دار فاطمة مع مَنْ حضر من المخلّفين عن البيعة، وكانت في نفس عليّ عليه السلام أمورٌ من الخلافة لم يمكنْه إظهارُها في أيام أبي بكر وعمر، لقوّة عمر وشدته، وانبساط يده ولسانه، فلما قتِل عمر وجَعَل الأمر شورى بين السّتة، وعدل عبد الرحمن بها عن عليّ إلى عثمان، لم يملكْ عليّ نفسَه، فأظهر ما كان كامناً، وأبدى ما كان مستوراً، ولم يزل الأمر بتزايد بينهما، حتى شرف وتفاقم، ومع ذلك فلم يكن عليّ عليه السلام لينكر من أمره إلا منكَراً، ولا ينهاه إلا كما تقتضي الشريعة نهيه عنه، وكان عثمان مستضعفاً في نفسِه، رِخْواً قليل الحزم، واهيَ العقْدة، وسلّم عنانَه إلى مرْوان يصرّفه كيف شاء، الخلافة له في المعنى ولعثمان في الاسم. فلما انتقضَ على عثمان أمرُه، استصرخ عليًا وَلاَذَ به، وألقى زمام أمرِه إليه، فدافع عنه حيث لا ينفع الدّفاع، وذبّ عنه حينَ لا يغني الذّبّ، فقد كان الأمرُ فسد فساداً لا يُرْجَى صلاحه.

قال جعفر: فقلت له: أتقول إنّ عليًا وجَد من خلافة عثمان أعظم مما وَجَده من خلافة أبي بكر وعمر؟ فقال: كيف يكون ذلك، وهو فرع لهما، ولولاهما لم يصل إلى الخلافة، ولا كان عثمان ممن يطمع فيها من قبل، ولا يخطر له ببال! ولكن هاهنا أمر يقتضي في عثمان زيادَة المنافسة، وهو اجتماعهما في النسب، وكونُهما من بني عبد مناف، والإنْسَانُ ينافِس ابن عمّه الأدنى أكثر من منافسة الأبعد، ويهوّن عليه من الأبعد ما لا يهوّن عليه من الأقرب.

قال جعفر: فقلت له: أفتقول: لو أنّ عثمان خُلِع ولم يقتَل، أكان الأمرُ يستقيم لعليّ عليه السلام إذا بويع بعد خلعه؟ فقال: لا، وكيف يتوّهم ذلك بل يكون انتقاض الأمور عليه وعثمان حيّ

(١) الشنآن: البغض. القاموس، مادة (شنأ).

مخلوع أكثرَ من انتقاضها عليه بعد قتله؛ لأنّه موجود يُرجَى ويُتوقّع عَوْده، فإن كان محبوساً عَظُم البلاء والخطْب، وهتف الناس باسمه في كلّ يوم، بل في كلّ ساعة، وإن كان مُخَلّى سِرْبُهُ، وممكناً من نفسه، وغير محولٍ بينه وبين اختياره، لجأ إلى بعض الأطراف، وذكر أنه مظلوم غُصِبت خلافتُه، وقهِر على خلع نفسه، فكان اجتماع الناس عليه أعظَمَ، والفتنة به أشدّ وأغلظ.

قال جعفر: فقلت له: فما تقول في هذا الاختلاف الواقع في أمر الإمامة من مبدأ الحال، وما الذي تظنّه أصله ومنبَعه؟ لا أعلم لهذا أصلاً إلا أمرين: أحدُهما: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أهمَل[1] أمر الإمامة فلم يصرّح فيه بأحدٍ بعينه[2]، وإنما كان هناك رَمْزٌ وإيماء، وكناية وتعريض، لو أراد صاحبُه أن يحتجّ به وقت الاختلاف وحالَ المنازعة يُقم منه صورة حجّة تُغْني، ولا دلالة تحسِب وتكفي، ولذلك لم يحتجّ عليٌّ عليه السلام يوم السقيفة بما وردفيه[3]؛ لأنه لم يكن نصًا جلياً يقطع العذر، ويوجب الحجة، وعادة الملوك إذا تمهّد مُلْكُهم، وأرادوا العَقْد لولد من أولادهم، أو ثقةٍ من ثقاتهم، أن يصرّحوا بذكره، يخطبوا باسمه على أعناق المنابر، وبين فواصل الخطب، ويكتبوا بذلك إلى الآفاق البعيدة عنهم، والأقطار النائية منهم، ومَنْ كان منهم ذا سرير وحصن ومدنٍ كثيرة، ضرب اسمه عَلَى صفَحات الدنانير والدراهم مع اسم ذلك الملك، بحيث تزول الشبْهة في أمره، ويسقُط الارتياب بحاله، فليس أمرُ الخلافة بهيّن ولا صغيرٍ ليتركَ حتى يصيرَ في مظنّة الاشتباه واللّبس، ولعلّه كان لرسول الله صلى الله عليه وآله في ذلك عذرٌ لا نعلمه نحن، إمّا خشيةً من فساد الأمر، أو إرجاف المنافقين، وقولهم: إنّها ليس بنبوّة وإنما هي مُلْك به أوْصَى لذريته وسلالته، ولمّا لم يكن أحدٌ من تلك الذرّية في تلك الحال صالحاً للقيام بالأمر لصِغر السنّ، جعله لأبيهم، ليكون في الحقيقة لزوجته التي هي ابنته ولأولادِهِ منها من بعده.

وأمّا ما تقوله المعتزلة وغيرُهم من أهل العدْل: إنّ الله تعالى علم أنّ المكلّفين يكونون عَلَى ترك الأمر مهمَلاً غير معيّن أقرب إلى فعل الواجب وتجنّب القبيح. قال: ولعلّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن يعلم في مرضِه أنّه يموت في ذلك المرض، وكان يرجو البقاء فيمهّد للإمامة قاعدة واضحَةً. ومما يدلّ عَلَى ذلك أنّه لما نوزع في إحضار الدواة والكتِف ليكتب لهم ما لا يضلّون

---

(١) معاذ الله أن يهمل النبي صلى الله عليه وآله هذا الأمر بل لا يجوز له، وأي عاقل يترك منزله أو عمله الصغير من دون خليفة أو نائب يقوم مقامه، أو ليس موسى غاب عن قومه أربعين يوماً فقال لهارون اخلفني في قومي.

(٢) عجباً أو ليس حادثة الغدير وتنصيبه ولياً عليهم في حجة الوداع كاف لمن أراد؟!

(٣) انظر الإمامة والسياسة لابن قتيبة: ١/ ٢٩-٢٩، والاحتجاج للطبرسي: ١/ ٧٤-٨٣-١١٧، وفضائل الصحابة لأحمد: ٢/ ٦٨٥.

بعده، غضِب وقال: اخرجوا عنّي، لم يجمعهم بعد الغضب ثانية ويعرّفهم رشدَهم، ويهديهم إلى مصالحهم، بل أرجأ الأمر إرجاءَ مَنْ يرتقب الإفاقة، وينتظر العافية.

قال: فبتلك الأقوال المحجمة، والكنايات المحتملة، والرموز المشتبهة، مثل الحديث خَصْف النعل، ومنزلة هارون من موسى، ومَنْ كنت مولاه، وهذا يعسوب الدين، ولا فتًى إلاّ عليّ، وأحبّ خلقك إليك، وما جرى هذا المجرى، مما لا يفصِل الأمر، ويقطع العذر ويُسكِت الخصم، ويفحم المنازع، وَثَبت الأنصار فادّعتها، ووَثَب بنو هاشم فادّعَوْها، وقال أبو بكر: بايعوا عمرَ أو أبا عبيدة، وقال العبّاس لعليّ: امدد يدك لأبايعك، وقال قوم ممن رَعَف به الدّهر فيما بعد، ولم يكن موجوداً حينئذ: إنّ الأمر كان للعباس لأنّه العمّ الوارث، وإن أبا بكر وعمر غصباه حقّه، فهذا أحدهما.

وأما السبب الثاني: للاختلاف، فهو جَعْل عمرَ الأمر شورى في الستّة، ولم ينصّ عَلَى واحدٍ بعينه، إمّا منهم أو من غيرهم، فبقِيَ في نفس كلّ واحد منهم أنه قد رُشّح للخلافة وأهّل للملك والسلطنة، فلم يزل ذلك في نفوسهم وأذهانهم مصوّراً بين أعينهم، مرتَسِماً في خيالاتهم، منازعة إليه نفوسهم، طامحة نحوه عيونُهم، حتى كان من الشّقاق بين علي وعثمان ما كان، وحتى أفضى الأمرُ إلى قتل عثمان. وكان أعظم الأسباب في قتله طلحة، وكان لا يشكّ أنّ الأمر له من بعده لوجوه، منها سابقته، ومنها أنه ابن عمّ لأبي بكر، وكان لأبي بكر في نفوس أهل ذلك العصر منزلة عظيمة، أعظم منها الآن. ومنها أنه كان سَمْحاً جواداً، وقد كان نازع عمر في حياة أبي بكر، وأحبّ أن يفوّض أبو بكر الأمرَ إليه من بعده، فما زال يفتِل في الذّروة والغارب في أمر عثمان، وينكّر له القلوب، ويكدّر عليه النفوس، ويغري أهل المدينة والأعراب وأهل الأمصار به. وساعده الزُّبير، وكان أيضاً يرجو الأمرَ لنفسه، ولم يكن رجاؤهما الأمرَ بدون رجاء عليّ، بل رجاؤهما كان أقوى؛ لأنّ علياً دحضَه الأوّلان، وأسقطاه، وكسرا ناموسه بيْن الناس، فصار نسياً منسيًّا، ومات الأكثر ممّن يعرف خصائصه التي كانت في أيام النبوّة وفضله، ونشأ قوم لا يعرفونه ولا يرونه إلا رجلاً من عُرْض المسلمين، ولم يبق له مما يمتّ به إلاّ أنه ابن عمّ لرسول، وزوْج ابنته، وأبو سِبْطَيْه، ونُسِيَ ما وراء ذلك كله، واتفق له من بُغْض قريش وانحرافها ما لم يتّفق لأحد، وكانت قريش بمقدار ذلك البغض تحبّ طلحة والزُّبير؛ لأنّ الأسباب الموجبة لبغضهم لم تكن موجودةً فيهما، وكانا يتألّفان قريشاً في أواخر أيام عثمان، ويعِدانهم بالعطاء والإفضال، وهما عند أنفسهما وعند الناس خليفتان بالقوّة لا بالفعل؛ لأن عمر نصّ عليهما وارتضاهما للخلافة، وعمر متّبع القول مرضيّ الفعال، موفّق مؤيّد مطاع، نافذ الحكم في حياته وبعد وفاته، فلما قتِل عثمان، أرادها طلحة، وحَرَص عليها، فلولا الأشتر وقوم معه من شُجعان العرب جعلوها في عليّ لم تصل إليه

أبداً، فلما فاتت طلحة والزبير، فتقا ذلك الفتق العظيم عَلَى عليّ، وأخرجا أم المؤمنين معهما، وقصدا العراق، وأثارا الفتنة، وكان من حرب الجمل ما قد علم وعرف، ثم كانت حرب الجمل مقدّمةً وتمهيداً لحرب صِفّين، فإنّ معاوية لم يكن ليفعل ما فعل، لولا طمعُه بما جرى في البصرة، ثم أوْهَم أهلَ الشام أنّ عليًّا قد فَسَق بمحاربة أم المؤمنين، ومحاربة المسلمين، وأنه قتل طلحة والزبير، وهما من أهل الجنّة، ومَنْ يقتل مؤمناً من أهل الجنّة فهو من أهل النار، فهل كان الفساد المتولّد في صِفّين إلا فرعاً للفساد الكائن يوم الجمل! ثم نشأ مِن فساد صِفّين وضلال معاوية كلّ ما جرى من الفساد والقبيح في أيام بني أميّة، ونشأت فتنة ابن الزبير فرعاً من فروع يوم الدار؛ لأن عبد الله كان يقول: إنّ عثمان لما أيقن بالقتل نَصّ عليّ بالخلافة، ولي بذلك شهود، ومنهم مروان بن الحكم أفلا ترى كيف تسلسلت هذه الأمور فرعاً عَلَى أصل، وغصنا من شجرة، وجَذْرة من ضِرام! هكذا يدور بعضه عَلَى بعض، وكله من الشورى في الستّة.

قال: وأعجب من ذلك قول عمر وقد قيل له: إنك استعملت يزيد بن أبي سفيان وسعيد بن العاص ومعاوية وفلاناً وفلاناً من المؤلّفة قلوبهم من الطُّلَقاء وأبناء الطلقاء، وتركت أنْ تستعمل عليًّا والعباس والزبير وطلحة! فقال: أمّا عليّ فأنبَهُ من ذلك، وأما هؤلاء النفر من قريش، فإني أخاف أن ينتشروا في البلاد، فيُكثروا فيها الفساد، فمن يخاف من تأميرهم لئلا يطمعوا في الملك، ويدّعيه كلّ واحد منهم لنفسه، كيف لم يَخَفْ من جعلهم ستّة متساوِين في الشورى، مرشحين للخلافة! وهل شيء أقربُ إلى الفساد من هذا! وقد روي أنّ الرشيد رأى يوماً محمداً وعبد الله ابنيْه يلعبان ويضحكان، فسرّ بذلك، فلما غابا عن عينه بكى، فقال له الفضل بن الربيع: ما يبكيك يا أمير المؤمنين، وهذا مقامُ جَذل لا مقام حُزن؟ فقال: أما رأيتَ لعبهما ومودّة بينهما؟ أما والله ليتبدلَنّ ذلك بغضاً وشنَفاً[1] وليختلسنّ كلّ واحد منهما نَفْس صاحبه عن قريب، فإن الملك عقيم. وكان الرشيد قد عقد الأمر لهما عَلَى ترتيب، هذا بعد هذا، فكيف مَنْ لم يرتِّبوا في الخلافة، بل جعلوا فيها كأسنان المشط!

فقلت أنا لجعفر: هذا كلّه تحكيه عن محمد بن سليمان، فما تقول أنت؟ فقال:

إِذَا قَالَتْ حَذامِ فَصَدِّقُوهَا ... فَإنّ القَوْلَ مَا قَالَتْ حَذامِ

(١) الشَّنَف: الكره والبغض. اللسان، مادة (شنف).

١٣٦ - ومن كلام له عليه السلام في أمر البيعة

الأصل: لَمْ تَكُنْ بَيْعَتُكُمْ إِيَّايَ فَلْتَةً، وَلَيْسَ أَمْرِي وَأَمْرُكُمْ وَاحِداً، إِنِّي أُرِيدُكُمْ لله وَأَنْتُمْ تُرِيدُونَنِي لِأَنْفُسِكُمْ.

أَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَعِينُونِي عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَأَيْمُ ٱلله لَأُنْصِفَنَّ ٱلْمَظْلُومَ وَلَأَقُودَنَّ الظَّالِمَ بِخِزَامَتِهِ، حَتَّىٰ أُورِدَهُ مَنْهَلَ ٱلْحَقِّ وإن كَانَ كَارِهاً.

الشرح: الفَلْتة: الأمر يقع عن غير تدبّر ولا رويّة، وفي الكلام تعريض ببيعة أبي بكر، وقد تقدّم لنا في معنى قول عمر: «كانت بيعة أبي بكر فَلْتة وقى الله شرّها» كلام.

والخِزامة: حلْقه من شعر تُجعلُ في أنف البعير، ويُجعل الزمام فيها.

وأعينُوني على أنفسكم: خذوها بالعدل، واقْمَعوها على اتّباع الهوى، وازْدَعُوها بعقولكم عن المسالك التي تُرْدِيها وتوبقُها، فإنّكم إذا فعلتم ذلك أعنتموني عليها؛ لأنّي أعظكم وآمركم بالمعروف، وأنهاكم عن المنكر، فإذا كبحْتُم أنفسكم بلجام العقل الداعي إلى ما أدعو إليه، فقد أعنتموني عليها.

فإن قلت: ما معنى قوله «أريدكم لله وتريدونني لأنفسكم»؟

قلت: لأنه لا يريد من طاعتهم له إلا نصرة دين الله والقيام بحدوده وحقوقه، ولا يريدهم لحظّ نفسه، وأمّا هم فإنهم يريدونه لحظوظ أنفسهم من العطاء والتقريب، والأسباب الموصّلة إلى منافع الدنيا.

وهذا الخطاب منه عليه السلام لجمهور أصحابه، فأمّا الخواصّ منهم فإنّهم كانوا يريدونه للأمر الذي يريدهم له من إقامة شرائع الدين وإحياء معالمه.

١٣٧ - ومن كلام له عليه السلام في شان طلحة والزبير

الأصل: وَٱلله مَا أَنْكَرُوا عَلَيَّ مُنْكراً، وَلاَ جَعَلُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ نِصْفاً، وَإِنَّهُمْ لَيَطْلُبُونَ حَقًّا هُمْ تَرَكُوهُ، وَدَماً هُمْ سَفَكُوهُ، فَإِنْ كُنْتُ شَرِيكَهُمْ فِيهِ، فَإِنَّ لَهُمْ نَصِيبَهُمْ مِنْهُ، وَإِنْ كَانُوا وَلُوهُ دُونِي فَمَا ٱلطَّلِبَةُ إِلاَّ قِبَلَهُمْ. وَإِنَّ أَوَّلَ عَدْلِهِمْ لَلْحُكْمُ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَإِنَّ مَعِي لَبَصِيرَتِي، مَا لَبَسْتُ وَلاَ لُبِسَ عَلَيَّ.

وَإِنَّهَا لِلْفِئَةُ ٱلْبَاغِيَةُ فِيهَا ٱلْحَمَا وَٱلْحُمَةُ، وَالشُّبْهَةُ المُغْدَفَةُ. وَإِنَّ ٱلْأَمرَ لَوَاضِحٌ، وَقَدْ زَاحَ ٱلْبَاطِلُ عَنْ نِصَابِهِ، وَٱنْقَطَعَ لِسَانُهُ عَنْ شَغْبِهِ. وَايْمُ ٱللهِ لَأُفْرِطَنَّ لَهُمْ حَوْضاً أنا مَاتِحُهُ، لاَ يَصْدُرُونَ عَنْهُ بِرِيٍّ، وَلاَ يَعُبُّونَ بَعْدَهُ فِي حِسْيٍ.

الشرح: النَّصْفُ: الإنصاف، قال الفرزدق:

ولكنَّ نِصْفاً لو سببتُ وسَبَّنِي ... بنُو عبدِ شَمْسٍ مِنْ قُرَيشٍ وَهَاشِمِ

وهو على حذف المضاف، أي ذا نِصْفٍ، أي حكَماً منصفاً عادلاً يحكم بيني وبينهم.

والطَّلِبة: بكسر اللام: ما طلبتَه من شيء. ولبَست على فلان الأمر، ولُبِس عليه الأمر، كلاهما بالتخفيف.

والحَمأ: الطين الأسود، قال سبحانه: ﴿مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[1].

وحُمَة العقرب: سمّها، أي في هذه الفئة الباغية الضلالُ والفساد والضرر، وإذا أرادت العربُ أن تعبّر عن الضلال والفساد قالت: الحَمْءُ، مثله الحمْأة بالتاء، ومن أمثالهم: «ثَأطَةٌ مدّت بماء»، يُضرب للرجل يشتدّ مُوقه وجهله، والثَّأطة: الحمْأة، وإذا أصابها الماء ازدادت فساداً ورطوبة.

ويروَى فيها: «الحما» بألف مقصورة وهو كناية عن الزُّبير؛ لأن كل ما كان بسبب الرجل فهم الأحماء، وأحدهم «حما» مثل قفا وأقفاء، وما كان بسبب المرأة فهم الأخاتن، فأما الأصهار فيجمع الجهتين جمعاً. وكان الزُّبير ابن عَمّة رسول الله صلى الله عليه وآله، وقد كان النبيّ صلى الله عليه وآله أعلم عليًّا بأنّ فئة من المسلمين تبغي عليه أيّام خلافته، فيها بعضُ زوجاته وبعض أحمائه، فكنَى عليّ عليه السلام عن الزَّوْجة بالحُمَة وهي سمّ العقرب، ويروى: «والحَمء» يضرب مثلاً لغير الطيِّب ولغير الصافي، وظهر أنّ الحمْء الذي أخبر النبي صلى الله عليه وآله بخروجه مع هؤلاء البغاة هو الزّبير ابنُ عمته. وفي الحما أربع لغات: حَمَا مثل قفا، وحَمْء مثل كَمْء، وحَمُو مثل «أبو»، وحم مثل أبٍ.

قوله عليه السلام: «والشبهة المغدَفة» أي الخفيّة، وأصله المرأة تُغْدِف وجهها بقناعها، أي تستره. وروي: «المُغدِفة» بكسر الدال، من أغدف الليل، أي أظلم.

وزاح الباطل، أي بَعُد وذهب، وأزاحه غيره

وعن نصابه: عن مركزه ومقرّه، ومنه قول بعض المحدّثين:

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٢٦.

قد رجع الحقُّ إلى نصابِهِ وأنت من دون الورى أولَى بِهِ

والشّغْب، بالتسكين: تهييج الشرّ، شَغَب الحقد بالفتح شَغْباً، وقد جاء بالتحريك في لغة ضعيفة، وماضيها شغِب، بالكسر.

ولَأُفرِطنّ لهم حوضاً، أي لأملأنّ، يقال: أفرطتُ المزادة أي ملأتها، وغدير مفرَط، أي ملآن.

والماتح، بنقطتين من فوق: المستقِي من فوقُ، وبالياء: ماليء الدّلاء من تحت.

والعَبّ: الشرب بلا مصّ كما تشرب الدابّة: وفي الحديث: «الكُبَاد من العَبّ»[1].

والحِسْي: ماء كامنٌ في رمل يحفَر عنه فيستخرَج، وجمعه أحساء.

يقول عليه السلام: والله ما أنكروا عليَّ أمراً هو منكَر في الحقيقة، وإنّما أنكروا ما الحجة عليهم فيه لا لهم، وحملَهم على ذلك الحسد وحبّ الاستئثار بالدنيا والتفضيل في العطاء، وغير ذلك مما لم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يراه ولا يستجيزه في الدين. قال: ولا جعلوا بيني وبينهم نِصْفاً، يمني وسيطاً يحكم ويُنصف، بل خرجوا عن الطاعة ستة، وإنهم ليطلبون حقاً تركوه، أي يظهرون أنهم يطلبون حقاً بخروجهم إلى البصرة وقد تركوا الحق بالمدينة.

قال: ودماً هم سفكوه، يعني دم عثمان، وكان طلحة من أشدّ الناس تحريضاً عليه، وكان الزّبير دونه في ذلك.

روي أنّ عثمان قال: ويلي على ابن الحضرميّة - يعني طلحة - أعطيتُه كذا وكذا بُهاراً ذهباً، وهو يروم دمي يحرّض على نفسي، اللّهم لا تمتّعه به ولَقِّه عواقب بغيه.

وروَى الناس الذين صنّفوا في واقعة الدّار أنّ طلحة كان يوم قتل عثمان مقنَّعاً بثوب قد استتر به عن أعين الناس، يرمي الدار بالسهام، ورووا أيضاً أنه لما امتنع على الذين حَصَرُوه الدخول من باب الدار، حملَهم طلحة إلى دارٍ لبعض الأنصار، فأصعدهم إلى سطحها، وتسوّروا منها على عثمان داره فقتلوه.

ورووا أيضاً أنّ الزبير كان يقول: اقتلوه فقد بدّل دينكم. فقالوا: إن ابنك يحامِي عنه بالباب، فقال: ما أكره أن يقتَل عثمان ولو بُدِيء بابني، إن عثمان لجيفةٌ على الصراط غداً.

وقال مرْوان بن الحكم يوم الجمل: والله لا أترك ثأري وأنا أراه، ولأقتلنّ طلحة بعثمان، فإنه قتله. ثم رماه بسهم فأصاب مأبِضَه، فنزف الدم حتى مات.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ٢٨٤)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ١١٥).

ثم قال عليه السلام : إن كنت شريكَهم في دم عثمان، فإن لهم نصيبَهم منه، فلا يجوز لهم أن يطلبوا بدمه وهم شركاء فيه، وإن كانوا وَلُوه دوني، فهم المطلوبون إذَنْ به لا غيرهم.

وإنما لم يذكر القسم الثالث، وهو أن يكون هو عليه السلام وليّه دونهم؛ لأنه لم يقل به قائل، فإنّ النّاس كانوا على قولَيْن في ذلك: **أحدهما**: أنّ عليًّا وطلحة والزبير مَسّهم لَطْخٌ من عثمان، لا بمعنى أنهم باشروا قتْله، بل بمعنى الإغراء والتحريض، **وثانيهما**: أنّ عليًّا عليه السلام بريء من ذلك، وأنّ طلحة والزبير غير بريئَيْن منه.

ثم قال: وإنّ أوّل عدلهم لَلْحُكم على أنفسهم، يقول: إن هؤلاء خرجوا ونقضوا البيْعة، وقالوا: إنّما خرجنَا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإظهار العدل وإحياء الحقّ وإماتة الباطل، وأوّل العدلَ أن يحكُموا على أنفسهم، فإنّه يجب على الإنسان أن يقضيَ على نفسه ثم على غيره، وإذا كان دم عثمان قبلهم، فالواجب أن ينكروا على أنفسهم قبل إنكارهم على غيرهم.

قال: وإن معي لبصيرتي، أي عقلي، ما لَبَسْتُ على الناس أمرهم ولا لُبِس الأمر عليّ، أي لم يلبسه رسول الله صلى الله عليه وآله عليّ بل أوضحه لي وعرّفنيه.

ثم قال: وإنها للفئة الباغية، لام التعريف في «الفئة» تشعِر بأنّ نصًّا قد كان عنده: أنه ستخرج عليه فئة باغية، ولم يعيَّن له وقتها ولا كلّ صفاتها، بل بعض علاماتها، فلما خرج أصحاب الجمل ورأى تلك العلاماتِ موجودة فيهم، قال: وإنّها للفئة الباغية، أي وإنّ هذه الفئة، أي الفئة التي وُعِدت بخروجها عليّ، ولولا هذا لقال: «وإنها لفئة باغية»، على التنكير.

ثم ذكر بعض العلامات، فقال: إنّ الأمر لواضح، كلّ هذا يؤكّد به عند نفسه وعند غيره أنّ هذه الجماعة هي تلك الفئة الموعود بخروجها، وقد ذهب الباطلُ وزاحَ، وخرِس لسانه بعد شَغْبه.

ثم أقسم ليملأنّ لهم حوضاً هو ماتحه، وهذه كناية عن الحرب والهيجاء وما يتعقّبهما من القتل والهلاك. لا يصدرون عنه بريّ، أي ليس كهذه الحياض الحقيقية التي إذا وَرَدَها الظمآن صَدَر عن رِيّ ونقع غليله، بل لا يصدُرون عنه إلا وهم جَزَر السّيوف، ولا يعبّون بعده في حِسْي لأنهم هلكوا، فلا يشربون بعده البارد العذْب.

وكان عمرو بن الليث الصفّار أمير خراسان أنفذ جيشاً لمحاربة إسماعيل بن أحمد السامانيّ، فانكسر ذلك الجيش وعادوا إلى عمرو بن الليث، فغضب ولَقِيَ القوّاد بكلام غليظ، فقال له بعضهم: أيها الأمير، إنه قد طُبِخَ لك مِرْجَلٌ عظيم، وإنما نلنا منه لُهمة يسيرة والباقي مذخور لك، فعلام تتركه! اذهب إليهم فكُلْه. فسكت عمرو بن الليث عنه ولم يجب.

ومرادنا من هذه المشابهة والمناسبة بين الكنايتين.

الأصل: منه: فَأَقْبَلْتُمْ إِلَيَّ إِقْبَالَ ٱلْعُوذِ المَطَافِيلِ عَلَى أَوْلاَدِهَا، تَقُولُونَ: ٱلْبَيْعَةَ ٱلْبَيْعَةَ! قَبَضْتُ كَفِّي فَبَسَطْتُمُوهَا، وَنَازَعْتُكُمْ يَدِي فَجَاذَبْتُمُوهَا.

اللَّهُمَّ إِنَّهُمَا قَطَعَانِي وَظَلَمَانِي، وَنَكَثَا بَيْعَتِي، وَأَلَّبَا النَّاسَ عَلَيَّ. فَاحْلُلْ مَا عَقَدَا، وَلاَ تُحْكِمْ لَهُمَا مَا أَبْرَما، وَأَرِهِمَا المَسَاءَةَ فِيمَا أَمَلاَ وَعَمِلاَ. وَلَقَدِ ٱسْتَثَبْتُهُمَا قَبْلَ ٱلْقِتَالِ، وَٱسْتَأْنَيْتُ بِهِمَا أَمَامَ ٱلْوِقَاعِ، فَغَمَطَا النِّعْمَةَ وَرَدَّا ٱلْعَافِيَةَ.

الشرح: العُوذ: النّوق الحدِيثات النّتاج، الواحدة عائذ، مثل حائل وحُول، وقد يقال ذلك للخَيْل والظّباء، ويجمع أيضاً على «عُوذان» مثل راعٍ ورُعيان، وهذه عائذة بيّنة العُؤوذ، وذلك إذا ولدت عن قريب، وهي في عياذها، أي بِحُدثانِ نَتاجها.

والمطافيل: جمع مُطْفِل، وهي التي زال عنها اسمُ العِياذ ومعها طِفْلُها، وقد تسمّى المطافيل عُوذاً إلى أن يبعد العهد بالنّتاج مجازاً، وعلى هذا الوجه قال أمير المؤمنين: «إقبال العوذ المطافيل»، وإلا فالاسمان معاً لا يجتمعان حقيقةً، وإذا زال الأول ثبت الثاني.

قوله: «وألّبا الناس عَلَيّ» أي حَرّضا، يقال: حسود مؤلّب.

واستثبتُهما، بالثاء المعجمة بثلاث: طلبت منهما أن يَثُوبا أي يرجعا، وسمّي المنزل مَثَابة لأن أهله ينصرفون في أمورهم ثم يثوبون إليه، ويروى: «ولقد استَتَبْتُهما»، أي طلبت منهما أن يتوبا إلى الله من ذنبهما في نقض البيعة.

واستأنيت بهما، من الأناءة والانتظار.

والوِقاع، بكسر الواو: مصدر واقعتهم في الحرب وِقاعاً، مثل نازلتهم نِزالاً، وقاتلتهم قِتالاً.

وغمَط فلان النعمة، إذا حَقَرها وأزرى بها غمْطاً، ويجوز «غمِط» النّعمة بالكسر والمصدر غيرُ محرّك ويقال: إن الكسر أفصح من الفتح.

يقول عليه السلام: إنكم أقبلتم مزدحمين كما تقبل النُّوق إلى أولادها، تسألونني البيعة فامتنعت عليكم حتى علمت اجتماعكم فبايعتُكم. ثم دعا عليّ على طلحة والزبير بعد أن وصفهما بالقطيعة والنكث والتأليب عليه، بأن يَحُلّ الله تعالى ما عقدا، وألاّ يحكم لهما ما أبرما، وأن يريَهما المساءة فيما أمّلا وعملا.

فأما الوصف لهما بما وصفهما به، فقد صدق عليه السلام فيه، وأمّا دعاؤه فاستجيب له، والمساءة التي دعابها هي مساءة الدنيا لا مساءة الآخرة، فإن الله تعالى قد وعدهما على لسان

رسوله بالجنّة، وإنما استوجباها بالتّوبة التي ينقلها أصحابنا رحمهم الله في كتبهم عنهما، ولولاها لكانا من الهالكين.

١٣٨ - ومن خطبة له عليه السلام يومىء فيها إلى ذكر الملاحم

الأصل: يَعْطِفُ ٱلْهَوَى عَلَى ٱلْهُدَى، إِذَا عَطَفُوا ٱلْهُدَى عَلَى ٱلْهَوَى، وَيَعْطِفُ الرَّأْيَ عَلَى ٱلْقُرْآنِ، إِذَا عَطَفُوا ٱلْقُرْآنَ عَلَى الرَّأْيِ.

الشرح: هذه إشارة إلى إمامٍ يخلقه الله تعالى في آخر الزمان، وهو الموعود به في الأخبار والآثار، ومعنى «يعطف الهوى» يقهره ويثْنِيه عن جانب الإيثار والإرادة، عاملاً عَمَل الهدى، فيجعل الهدى قاهراً له، وظاهراً عليه.

وكذلك قوله: «ويعطف الرأي على القرآن»، أي يقهر حكم الرأي والقياس والعمل بغَلَبة الظنّ عاملاً عمل القرآن.

وقوله: «إذا عطفوا الهدى» و«إذا عطفوا القرآن» إشارة إلى الفِرَق المخالفين لهذا الإمام المشاقّين له، الذين لا يعملون بالهدى بل بالهوى، ولا يحكمون بالقرآن بل بالرأي.

الأصل: منها: حَتَّى تَقُومَ ٱلْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ، بَادِياً نَوَاجِذُهَا، مَمْلُوءَةً أَخْلاَفُهَا حُلْواً رَضَاعُهَا، عَلْقَماً عَاقِبَتُهَا.

أَلاَ وَفِي غَدٍ - وَسَيَأْتِي غَدٌ بِمَا لاَ تَعْرِفُونَ - يَأْخُذُ ٱلْوَالِي مِنْ غَيْرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِىءِ أَعْمَالِهَا، وَتُخْرِجُ لَهُ ٱلأَرْضُ أَفالِيذَ كَبِدِهَا، وَتُلْقِي إِلَيْهِ سِلْماً مَقَالِيدَهَا، فَيُرِيكُمْ كَيْفَ عَدْلُ السِّيرَةِ، وَيُحْيِي مَيِّتَ ٱلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ.

الشرح: الساق: الشدّة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾(١).

والنواجذ: أقصى الأضراس، والكلام كناية عن بلوغ الحرب غايتَها، كما أنّ غاية الضحك أن تَبْدُو النواجذ.

(١) سورة القلم، الآية: ٤٢.

قوله: «مملوءةً أخلافها»، والأخلاف للناقة حلمات الضرع، واحدها خِلْف.

وكذلك وقوله: «حلوا رضاعها، علقماً عاقبتها» قد أخذه الشاعر، فقال:

الحـربُ أوّلَ مـا تـكـون فـتـيّـةً ... تـسـعـى بـزيـنـتـهـا لـكـلّ جَـهـولِ

حتى إذا اشتعلتْ وشبّ ضِرَامُها ... عـادتْ عـجـوزاً غـيـر ذات حـلـيـلِ

شَـمْـطـاءُ جَـزّت رأسَـهـا وتـنـكّـرت ... مـكـروهـةً لـلـشـمّ والـتـقـبـيـل

وهو الرَّضاع بالفتح، والماضي رضِع بالكسر، مثل سمِع سماعاً، وأهل نجد يقولون: «رَضَع» بالفتح «يرضِع» بالكسر رَضْعاً، مثل ضرب يضرِب ضرباً، وأنشدوا:

وَذمُّوا لنا الدّنيا وهم يَرْضِعُونها ... أفـاويـقَ حـتـى مـا يـدرّ لـهـا ثُـعْـلُ

بكسر الضاد.

فصل في الاعتراض

وقوله: «ألاَ وفي غدٍ» تمامه «يأخذ الوالي» وبين الكلام جملة اعتراضية، وهي قوله: «وسيأتي غدٌ بما لا تعرفون» والمراد تعظيم شأن الغد الموعود بمجيئه، ومثل ذلك في القرآن كثير، نحو قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝٧٦ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝٧٧﴾[1]، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ هو الجواب المتلقَّى به قوله: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾، وقد اعترض بينهما قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، واعترض بين هذا الاعتراض قوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾؛ لأنك لو حذفته لبَقِي الكلام على إفادته، وهو قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ عَظِيمٌ﴾، والمراد تعظيم شأن ما أقسم به من مواقع النجوم، وتأكيد إجلاله في النفوس، ولا سيما بقوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾[2]؛ فقوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ اعتراض، والمراد التنزيه. وكذلك قوله: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[3]، فـ «لَقَدْ علِمتم» اعتراض، والمراد به تقرير إثبات البراءة من تهمة السرقة.

وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾[4] فاعترض بين «إذا» وجوابها بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾، فكأنه أراد أن يجيبهم عن دعواهم، فجعل الجواب اعتراضاً.

ومن ذلك قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ

(١) سورة الواقعة، الآيات: ٧٥ - ٧٧.
(٢) سورة النحل، الآية: ٥٧.
(٣) سورة يوسف، الآية: ٧٣.
(٤) سورة النحل، الآية: ١٠١.

لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ﴾[1] فاعترض بقوله: ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ بين ﴿وَصَّيۡنَا﴾ وبين الموصَى به، وفائدة ذلك إذْكارُ الولَد بما كابدتْه أمه من المشقّة في حمله وفصاله.

ومن ذلك قوله: ﴿وَإِذۡ قَتَلۡتُمۡ نَفۡسٗا فَٱدَّٰرَٰٔتُمۡ فِيهَاۖ وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ۝٧٢ فَقُلۡنَا ٱضۡرِبُوهُ بِبَعۡضِهَاۚ﴾[2] فقوله: ﴿وَٱللَّهُ مُخۡرِجٞ مَّا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ﴾ اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه، والمراد أن يقرّر في أنفس السامعين أنّه لا ينفع البشرَ كتمانُهم وإخفاؤهم لما يريد الله إظهاره.

ومن الاعتراض في الشعر قول جَرير:

وَلَقَدْ أرانِي - والجديدُ إلى بِلًى - ... في موكِبٍ بيضِ الوجوه كرامِ

فقوله: «والجديد إلى بلًى» اعتِراض، والمراد تعزيته نفسه عمّا مضى من تلك اللذات.

وكذلك قول كُثَيِّر:

لو أنّ الباخِلين - وأنتِ منهم - ... رأوكِ تعلّموا منكِ المِطالا

فقوله: «وأنتِ منهم» اعتراض، وفائدته ألاّ تظن أنها ليست باخلة.

ومن ذلك قول الشاعر:

فلو سألتْ سَراةَ الحيِّ سلْمَى ... على أنْ قد تلوّن بي زَماني

لخبّره ذَوُو أحسابِ قومي ... وأعدائي فكلٌّ قد بَلاَني

بِذَبِّيَ الذم عن حَسَبِي وَمَالِي ... وَزَبُّونات أشْوَسَ تَيَّحانِ

وإنّي لاَ أزالُ أخا حَرُوبٍ ... إذَا لم أجْنِ كُنتُ مَجنَّ جاني

فقوله:

على أنْ قد تلوّن بي زماني

اعتراض، وفائدته الإخبار عن أنّ السنّ قد أخذت منه وتغيّرت بطول العمر أوصافُه. ومن ذلك قول أبي تمام:

رَدَدْتَ رَوْنقَ وجهي في صحيفتِهِ ... ردّ الصّقالِ بَهاءَ الصّارِمِ الخذِمِ[3]

وما أبالِي - وَخَيْرُ القول أصدقُه - ... حقَنتَ لي ماء وجهي أم حقنت دمي

فقوله: «وخَيْر القولِ أصْدَقه» اعتراض، وفائدته إثبات صدقه في دعواه أنه لا يبالي أيّهما حقن.

فأما قول أبي تمام أيضاً:

وإنّ الْغِنَى لي إن لحظتَ مطالبي ... من الشعر - إلا في مديحك - أطوعُ

(١) سورة لقمان، الآية: ١٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٧٢.

(٣) الخذم: القاطع. القاموس، مادة (خذم).

فإنّ الاعتراض فيه هو قوله: «إلا في مديحك» وليس قوله: «إنْ لحظت مطالبي» اعتراضاً كما زعم ابن الأثير الموصليّ؛ لأنّ فائدة البيت معلّقة عليه؛ لأنه لا يريد أنّ الغني لي على كل حال أطوع من الشِّعْر، وكيف يريد هذا وهو كلام فاسد مختلّ! بل مراده أنّ الغني لي بشرط أن تلحظ مطالبي من الشعر أطوعُ لي، إلاّ في مديحك، فإنّ الشعر في مديحك أطوع لي منه، وإذا كانت الفائدة معلّقة بالشرط المذكور لم يكن اعتراضاً. وكذلك وَهم ابن الأثير أيضاً في قول امرىء القيس:

فلو أنّ ما أسْعَى لأدنى معيشةٍ ... كفاني ولم أطْلبْ قليلٌ من المالِ
ولكِنّما أسْعَى لمجدٍ مؤثَّلٍ ... وقد يدركُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالِي

فقال: إن قوله: «ولم أطلبْ» اعتراض، وليس بصحيح؛ لأنّ فائدة البيت مرتبطة به، وتقديره: لو سعيتُ لأن آكلَ وأشرب لكفاني القليل، ولم أطلب الملْك، فكيف يكون قوله: ولم أطلب الملك اعتراضاً، ومن شأن الاعتراض أن يكون فضلةً تردُ لتحسين وتكملة، وليست فائدته أصلية!

وقد يأتي الاعتراض ولا فائدة فيه، وهو غير مستحسَن، نحو قول النابغة:

يقولُ رجالٌ يجهلونَ خليقَتِي ... لعلّ زياداً - لا أبالكَ - غافلُ

فقوله: «لا أبالك»، اعتراض لا معنى تحته هاهنا، ومثله قول زهير:

سئِمتُ تكاليفَ الحياةِ وَمَنْ يعشْ ... ثمانينَ حَوْلاً - لا أبا لكَ - يسأمِ

فإن جاءت «لا أبالك» تعطي معنى يليق بالموضع فهي اعتراض جيد، نحو قول أبي تمام:

عِتَابَكِ عَني - لا أبَالكِ - وَاقْصِدِي

فإنه أراد زجرها وذمّها لما أسرفت في عتابه.

وقد يأتي الاعتراض على غايةٍ من القبح والاستهجان، وهو على سبيل التقديم والتأخير، نحو قول الشاعر:

فَقَدْ والشَّكُ بَيَّنَ لِي عَنَاءٌ ... بِوَشْكِ فِرَاقِهِمْ صُرَدٌ فَصِيحُ[1]

تقديره: فقد بَيّن لي صُرَدٌ يصيح بوشْك فراقهم، والشك عناء، فلأجل قوله: «والشك عناء» بين «قد» والفعل الماضي، وهو «بيّن» عد اعتراضاً مستهجَناً.

والمثال هذا للعرب كثير

قوله عليه السلام: «يأخذ الوالي من غيرها عُمّالها على مساوىء أعمالها» كلام منقطع عما قبله،

(١) الصرد: طائر ضخم الرأس يصطاد العصافير. القاموس، مادة (صرد).

وقد كان تقدم ذكر طائفة من الناس ذات ملك وإمْرَة، فذكر عليه السلام أنّ الواليَ - يعني الإمام الذي يخلقه الله تعالى في آخر الزمان - يأخذ عمال هذه الطائفة على سوء أعمالهم. وعلى هاهنا متعلقة بـ «يأخذ» التي هي بمعنى «يؤاخذ» من قولك: أخذته بذنبه، وآخذته، والهمز أفصح.

والأفاليذ: جمع أفلاذ، وأفلاذ جمع فِلْذ، وهي القطعة من الكبد، وهذا كناية عن الكنوز التي تظهر للقائم بالأمر، وقد جاء ذكر ذلك في خبر مرفوع في لفظة: «وقاءت له الأرض أفلاذ كبدها»، وقد فسر قوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾[1] بذلك في بعض التفاسير.

والمقاليد: المفاتيح.

الأصل: منها: كأنّي بِهِ قَدْ نَعَقَ بِالشّام، وَفَحَصَ بِرَايَاتِهِ فِي ضَوَاحِي كُوفَانَ، فَعَطَفَ عَلَيْهَا عَطْفَ الضَّرُوسِ، وَفَرَشَ ٱلْأَرْضَ بالرُّؤوسِ. قَدْ فَغَرَتْ فَاغِرَتُهُ، وَثَقُلَتْ فِي الأَرْضِ وَطْأَتُهُ، بَعِيدَ ٱلْجَوْلَةِ، عَظِيمَ الصَّوْلَةِ.

وَٱللهِ لَيُشَرِّدَنَّكُمْ فِي أَطْرَافِ ٱلْأَرْضِ حَتَّى لاَ يَبْقَى مِنْكُمْ إلاَّ قَلِيلٌ كَالْكُحْلِ فِي العَيْنِ، فَلاَ تَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى تَؤُوبَ إِلَى ٱلْعَرَبِ عَوَازِبُ أَحْلاَمِهَا.

فَالْزَمُوا السُّنَنَ ٱلْقَائِمَةَ، وَالآثَارَ ٱلْبَيِّنَةَ، وَٱلْعَهْدَ ٱلْقَرِيبَ الَّذِي عَلَيْهِ بَاقِي النُّبُوَّةِ، وَٱعْلَمُوا أَنَّ الشَّيْطَانَ، إنَّمَا يُسَنِّي لَكُمْ طُرُقَهُ لتتّبعوا عَقِبَهُ.

الشرح: هذا إخبار عن عبد الملك بن مَرْوان وظهوره بالشام وملْكه بعد ذلك العراق، وما قتلَ من العرب فيها أيّامَ عبد الرّحمن بن الأشعث، وقتله أيام مصعب بن الزبير.

ونعق الرعي بغنمه، بالعين المهملة، ونَغَق الغراب بالغين المعجمة. وفحص براياته هاهنا: مفعول محذوف تقديره: وفحص الناسع براياته، أي نحّاهم وقلّبهم يميناً وشمالاً.

وكوفان: اسم الكوفة. وضواحيها: ما قرب منها من القرى. والضَّروس: الناقة السيّئة الخلُق تعضّ حالبها، قال بشر بن أبي خازم:

عَطَفْنَا لَهُمْ عَطفَ الضَّروسِ مِن الملاَ   بشهْبَاء لا يمشي الضَّرَاءَ رقِيبُها

وقوله: «وفرش الأرض بالرؤوس»: غطّاها بها كما يغطّي المكان بالفراش.

وفغرت فاغرتُه، كأنه يقول: فتح فاه، والكلام استعارة، وفَغَر «فَعَل» يتعدّى ولا يتعدّى.

وثقُلتْ في الأرض وطأته، كناية عن الجوْر والظلْم.

---

(١) سورة الزلزلة، الآية: ٢.

بعيد الجولة: استعارة أيضاً، والمعنى أنّ تطواف خيوله وجيوشه في البلاد، أو جوَلان رجاله في الحرب على الأقران طويل جداً لا يتعقّبه السكون إلا نادراً.

وبعيد منصوب على الحال، وإضافته غير مَحْضة.

وعوازب أحلامها: ما ذهب من عقولها، عزَبَ عنه الرأي، أي بعُد.

ويسنّى لكم طرقَه، أي يسهل. والعقِب، بكسر القاف: مؤخّر القدم، وهي مؤنثة.

فإن قلت: فإنّ قوله: «حتى تؤوب» يدلّ على أن غاية ملكه أن تؤوب إلى العرب عوازب أحلامها، وعبد الملك مات في ملكه ولم يزُل الملك عند بأوْبَةِ أحلام العرب إليها فإنّ فائدة «حتى» إلى، وهي موضوعة للغاية.

قلت: إن مُلك أولاده مُلكه أيضاً، وما زال الملك عن بني مَرْوان حتى آبت إلى العرب عوازب أحلامها، والعرب هاهنا: بنو العباس ومن اتّبعهم من العرب أيام ظهور الدولة، كقحطبة بن شبيب الطائيّ وابنيه: حُميد والحسن، وكبني رزتني، بتقديم الراء المهملة، الذين منهم طاهر بن الحسين وإسحاق بن إبراهيم المصعبيّ، وعِدادهم في خُزاعة وغيرهم من العرب من شيعة بني العباس. وقد قيل: إن أبا مسلم أيضاً عربيّ أصله، وكلّ هؤلاء وآبائهم كانوا مستضعفين مقهورين مغمورين في دولة بني أمية، لم ينهض منهم ناهضٍ، ولا وثب إلى الملك واثبٍ، إلى أن أفاء الله تعالى إلى هؤلاء ما كان عَزَب عنهم من إبائهم وحميّتهم، فغاروا للدّين والمسلمين من جَوْر بني مروان وظلمهم، وقاموا بالأمر، وأزالوا تلك الدولة التي كرهها الله تعالى، وأذِنَ في انتقالها.

ثم أمرهم عليه السلام بأن يلزموا بعد زوال تلك الدولة الكتابَ والسنة، والعهد القريب الذي عليه باقي النبوّة - يعني عهده وأيامه عليه السلام. وكأنّه خاف من أن يكون بإخباره لهم بأنّ دولة هذا الجبار ستنقضي إذا آبت إلى العرب عوازب أحلامها، كالأمر لهم باتباع ولاة الدولة الجديدة في كلّ ما تفعله، فاستظهرَ عليهم بهذه الوصية، وقال لهم: إذا ابتذلت الدَولة، فالزموا الكتاب والسنّة، والعهد الذي فارقْتكم عليه.

١٣٩ - ومن كلام له عليه السلام في وقت الشورى

الأصل: لَنْ يُسْرِعَ أَحَدٌ قَبْلِي إِلَى دَعْوَةِ حَقٍّ، وَصِلَةِ رَحِمٍ، وَعَائِدَةِ كَرَمٍ، فَاسْمَعُوا قَوْلِي، وَعُوا مَنْطِقِي. عَسَى أَنْ تَرَوْا هَذَا ٱلأَمْرَ مِنْ بَعْدِ هَذَا ٱلْيَوْمِ، تُنْتَضَى فِيهِ السُّيُوفُ، وَتُخَانُ فِيهِ ٱلْعُهُودُ، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُكُمْ أَئِمَّةً لِأَهْلِ الضَّلاَلَةِ، وَشِيعَةً لِأَهْلِ ٱلْجَهَالَةِ.

الشرح: هذا من جملة كلام قاله عليه السلام لأهل الشورى بعد وفاة عمر.

وقد ذكرنا من حديث الشورى فيما تقدّم ما فيه كفاية، ونحن نذكر ها هنا ما لم نذكره هناك، وهو من رواية عوانة، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبيّ في كتاب «الشورى»، و«مقتل عثمان»، وقد رواه أيضاً أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ في زيادات كتاب «السقيفة» قال:

لما طُعِن عمرُ جَعَل الأمرَ شورى بين ستّة نفر: عليّ بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن مالك، وكان طلحة يومئذٍ بالشام، وقال عمر: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قُبِض وهو عن هؤلاء راضٍ، فهم أحقُّ بهذا الأمر من غيرهم، وأوصى صُهَيب بن سنان، مولى عبد الله بن جُدْعان - ويقال: إنّ أصلَه من حيّ من ربيعة بن نزار، يقال لهم عَنَزة - فأمره أن يصلّيَ بالناس حتى يرضَى هؤلاء القومُ رجلاً منهم، وكان عمر لا يشكّ أنّ هذا الأمر صائر إلى أحد الرّجُلين: عليّ وعثمان، وقال: إنْ قدِم طلحة فهو معهم، وإلاّ فلْتختَرِ الخمسةُ واحداً منها. وروي أن عمر قبل موته أخرج سعد بن مالك من أهل الشورى، وقال: الأمر في هؤلاء الأربعة، ودعُوا سعداً عَلَى حاله أميراً بين يَدَيِ الإمام. ثم قال: ولو كان أبو عبيدة بن الجرّاح حَيًّا لما تخالجتْني فيك الشكوك، فإن اجتمع ثلاثة على واحد فكونوا مع الثلاثة، وإن اختلفوا فكونوا مع الجانب الذي فيه عبد الرحمن.

وقال لأبي طلحة الأنصاريّ: يا أبا طلحة، فوالله لطالما أعزّ الله بكم الدين، ونصر بكم الإسلام، اختر من المسلمين خمسين رجلاً، فائت بهم هؤلاء القوم في كلّ يوم مَرّة، فاستحِثُّوهم حتى يختاروا لأنفسهم وللأمّة رجلاً منهم.

ثم جمع قوماً من المهاجرين والأنصار - فأعلمهم ما أوصَى به، وكتب في وصيّته أن يولّيَ الإمام سعدَ بن مالك الكوفة، وأبا موسى الأشعريّ؛ لأنه كان عزل سعداً عن سَخْطَةٍ فأحبّ أن يطلب ذلك إلى مَنْ يقوم بالأمر من بعده استرضاء لسعد.

قال الشعبي: فحدثني من لا أتّهمه من الأنصار - وقال أحمد بن عبد العزيز الجوهريّ: هو سهل بن سعد الأنصاري - قال: مشيت وراء عليّ بن أبي طالب حيثُ انصرف من عند عمر، والعباس بن عبد المطلب يمشي في جانبه، فسمعتُه يقول للعباس: ذهبتْ منّا والله! فقال: كيف علمت؟ قال: ألا تسمعه يقول: كونوا في الجانب الذي فيه عبد الرحمن؛ لأنّه ابنُ عمّه، وعبد الرحمن نظير عثمان وهو صهره، فإذاً اجتمع هؤلاء! فلو أن الرجلين الباقيْين كانا معي لم يغنيا عنّي شيئاً، مع أنّي لست أرجو إلا أحدهما، ومع ذلك فقد أحبّ عمر أن يعلمنا أنّ لعبد الرحمن عنده فضلاً علينا. لعمرُ الله ما جعل الله ذلك لهم علينا، كما لم يجعله لأولادهم على أولادنا. أما والله لئن عمر لم يمت لأذكرنّه ما أتى إلينا قديماً، ولأعلمته سوء رأيه فينا، وما أتى إلينا

حديثاً، ولئن ماتَ - وليموتَنّ - ليجتمعنّ هؤلاء القوم على أن يصرِفوا هذا الأمر عنّا، ولئن فعلوها - وليفعلُنّ - ليرونني حيث يكرهون، والله ما بي رغبة في السلطان، ولا حبّ الدنيا، ولكن لإظهار العدل، والقيام بالكتاب والسنّة.

قال: ثمّ التفتّ فرآني وراءه، فعرفت أنه قد ساءه ذلك، فقلت: لا تُرَعْ أبا حسن! لا والله لا يستمع أحدٌ الذي سمعتُ منك في الدنيا ما اصطحبنا فيها، فوالله ما سمعه منّي مخلوق حتى قبض الله عليًّا إلى رحمته.

قال عوانة: فحدثنا إسماعيل، قال: حدّثني الشعبيّ، قال: فلما مات عمر، وأدرِج في أكفانه، ثم وضِع ليصلّى عليه، تقدّم عليّ بن أبي طالب، فقام عند رأسه، وتقدّم عثمان فقام عند رجليه، فقال عليّ عليه السلام: هكذا ينبغي أن تكون الصلاة، فقال عثمان: بل هكذا، فقال عبد الرحمن: ما أسرع ما اختلفتم! يا صُهَيْب، صلّ عَلَى عمر كما رضِيَ أن تصلّيَ بهم المكتوبة، فتقدّم صُهيب فصلّى عَلَى عمر.

قال الشعبيّ: وأُدخِل أهل الشورى داراً، فأقبلوا يتجادلون عليها، وكلّهم بها ضنين، وعليها حريص، إمّا لدنيا وإمّا لآخرة، فلما طال ذلك قال عبد الرحمن: مَنْ رجلٌ منكم يخرِجُ نفسَه عن هذا الأمر، ويختار لهذه الأمّة رجلاً منكم، فإنّي طيّبةٌ نفسِي أن أخرُج منها، وأختار لكم؟ قالوا: قد رضينا، إلاّ عليّ بن أبي طالب فإنّه اتهمَه وقال: أنظر وَأرَى. فأقبل أبو طلحة عليه، وقال: يا أبا الحسن، ارْضَ برأي عبد الرحمن، كانَ الأمر لك أو لغيرك، فقال عليّ: أعطِني يا عبدَ الرحمن موثِقاً من الله لتؤثرنّ الحقّ، ولا تتّبع الهوى، ولا تمِلْ إلى صِهْرٍ ولا ذي قَرابة، ولا تعملْ إلا لله، ولا تألُو هذه الأمة أن تختارَ لها خيرَها.

قال: فحلفَ له عبد الرحمن بالله الّذي لا إله إلا هو، لأجتهدنّ لنفسِي ولكم وللأمّة، ولا أميلُ إلى هوًى ولا إلى صهر ولا ذِي قرابة.

قال: فخرج عبدُ الرحمن، فمكث ثلاثة أيام يشاوِر الناس، ثم رجع واجتمع الناس، وكثروا عَلَى الباب لا يشكّون أن يبايع عليّ بن أبي طالب، وكان هَوَى قريش كافّة ما عدا بني هاشم في عثمان، وهَوَى طائفة من الأنصار مع عليّ وهوى طائفة أخرى مع عثمان، وهي أقلّ الطائفتين، وطائفة لا يبالُون: أيهما بُويع.

قال: فأقبل المقداد بن عمرو والناس مجتمعون، فقال: أيّها الناسُ، اسمعوا ما أقول، أنا المقداد بن عمرو، إنّكم إن بايعتم عليّاً سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عثمان سمعنا وعصينا، فقام عبد الله بن أبي ربيعة بن المغيرة المخزوميّ، فنادى: أيّها الناس، إنّكم إن بايعتم عثمان سمعنا وأطعنا، وإن بايعتم عليًّا سمعنا وعصينا. فقال له المقداد: يا عدوّ الله وعدوّ رسوله وعدوّ

كَتابه، ومتى كان مثلك يسمع له الصالحون! فقال له عبد الله: يابنَ الحليف العسيف[١]، ومتى كان مثلك يجترىء على الدخول في أمرِ قريش!

فقال عبد الله بن سعد بن أبي سَرْح: أيّها الملأ، إن أردتم ألاّ تختلف قريش فيما بينها، فبايعوا عثمان، فقال عمّار بن ياسر: إن أردتم ألاّ يختلف المسلمون فيما بينهم فبايعوا علياً، ثم أقبل عَلَى عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فقال: يا فاسق يابن الفاسق، أأنتِ ممّن يستنصِحه المسلمون، أو يستشيرونه في أمورهم! وارتفعت الأصوات ونادى منادٍ لا يُدْرَى مَنْ هو! فقريش تزعم أنه رجل من بني مخزوم والأنصار تزعم أنه رجل طوال آدم[٢] مشرف على الناس - لا يعرفه أحد منهم: يا عبد الرحمن، فرِّغ من أمرك، وامضِ عَلَى ما في نفسك فإنه الصواب.

قال الشعبيّ: فأقبل عبد الرحمن عَلَى عليّ بن أبي طالب، فقال: عليك عهد الله وميثاقه، وأشدّ ما أخذ الله على النبيّين من عهد وميثاق: إن بايعتك لتعمَلَنّ بكتاب الله وسنّة رسوله، وسيرة أبي بكر وعمر! فقال عليّ عليه السلام: طاقتي ومبلغ علمي وجهد رأيي، والناس يسمعون.

فأقبل عَلَى عثمان، فقال له مثل ذلك، فقال: نعم لا أزولُ عنه ولا أدعُ شيئاً منه.

ثم أقبل عَلَى عليّ فقال له ذلك ثلاث مرات، ولعثمان ثلاث مرات، في كلّ ذلك يجيب عليّ مثل ما كان أجاب به، ويجيب عثمان بمثل ما كان أجاب به.

فقال: ابسُط يدك يا عثمان، فبسط يده فبايعه، وقام القوم فخرجوا، وقد بايعوا إلاّ عليّ بن أبي طالب، فإنّه لم يبايع.

قال: فخرج عثمان عَلَى النّاس ووجهه متهلّل، وخرج عليّ وهو كاسف البال مظلِم، وهو يقول: يابنَ عوف، ليس هذا بأوّل يومٍ تظاهر تمْ علينا، مِن دفعِنا عن حقّنا والاستئثار علينا! وإنها لسنّة علينا، وطريقة تركتموها.

فقال المغيرة بن شعبة لعثمان: أما والله لو بُويع غيرك لما بايعناه، فقال عبد الرحمن بن عوف: كذبتَ، والله لو بويع غيره لبايعتَه، وما أنت وذاك يابن الدبّاغة! والله لو وليَها غيره لقلتَ مثَل ما قلت الآن، تقرّباً إليه وطمعاً في الدنيا، فاذهب لا أبا لك!.

فقال المغيرة: لولا مكانُ أمير المؤمنين لأسمعتُك ما تكره. ومضيا.

قال الشعبيّ، فلما دخل عثمان رَحْله دخل إليه بنو أميّة حتى امتلأت بهم الدار، ثم أغلقوها عليهم، فقال أبو سفيان بن حَرْب: أعندكم أحد من غيركم؟ قالوا: لا، قال: يا بني أميّة،

---

(١) العسيف: الأجير، والعبد المستهان به. القاموس، مادة (عسف).
(٢) الآدم من الناس: الأسمر. اللسان مادة (آدم).

تلقّفوها تلّقف الكرة، فوالّذي يحلِف به أبو سفيان ما من عذاب ولا حساب، ولا جنّة ولا نار، ولا بعث ولا قيامة!

قال: فانتهره عثمان، وساءه بما قال، وأمر بإخراجه.

قال الشعبي: فدخل عبدُ الرحمن بن عوف على عُثْمان، فقال له: ما صنعت! فوالله ما وفّقت حيث تدخل رحلك قبل أنْ تصعد المنبر، فتحمَد الله وتثني عليه، وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتعِدُ النّاس خيراً.

قال: فخرج عثمان، فصعِد المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: هذا مقام لم نكن نقومه، ولم نعدّ له من الكلام الذي يقام به في مثله، وسأهيىء ذلك إن شاء الله، ولن آلو أمّةَ محمد خيراً، والله المستعان.

ثم نزل.

قال عوانة: فحدّثني يزيد بن جرير، عن الشعبيّ، عن شقيق بن مسلمة، أنّ عليّ بنَ أبي طالب، لما انصرف إلى رحْله، قال لبني أبيه: يا بني عبد المطّلب، إنّ قومَكم عادوْكم بعد وفاة النبيّ كعداوتهم النبيّ في حياته، وإن يطِعْ قومُكم لا تؤمَّروا أبداً، ووالله لا ينيب هؤلاء إلى الحقّ إلا بالسيف.

قال: وعبد الله بن عمر بن الخطاب، داخلٌ إليهم، قد سمع الكلام كلّه فدخل، وقال: يا أبا الحسن، أتريد أنت أتضرب بعضهم ببعض! فقال: اسكت ويحك! فوالله لولا أبوك وما ركب منّي قديماً وحديثاً، ما نازعني ابنُ عفّان ولا ابنُ عوف. فقام عبد الله فخرج.

قال: وأكثَر النّاس في أمرِ الهُرْمزان وعبيد الله بن عمر، وقتله إياه، وبلَغ ما قال فيه عليّ بن أبي طالب. فقام عثمان فصعد المنبر، فحمِد الله وأثنى عليه، ثم قال: أيّها الناس، إنّه كان من قضاء الله أنّ عُبيد الله بن عمر بن الخطاب أصاب الهرمزان، وهو رجل من المسلمين، وليس له وارثٌ إلا الله والمسلمون، وأنا إمامكم وقد عفوْت، أفتعفُون عن عبيد الله ابن خليفتكم بالأمس؟ قالوا: نعم، فعفا عنه، فلما بلغ ذلك عليًّا تضاحك، وقال: سبحان الله! لقد بدأ بها عثمان! أيعفُو عن حقّ امرىء ليس بواليه! تالله إنّ هذا لهو العجَب! قالوا: فكان ذلك أوّل ما بدا من عثمان مما نقِم عليه.

قال الشعبيّ: وخرج المِقْداد من الغدِ، فلقِيَ عبد الرحمن بن عوف، فأخذ بيده، وقال: إن كنت أردت بما صنعت وجهَ الله، فأثابك الله ثواب الدنيا والآخرة، وإن كنت إنّما أردت الدنيا فأكثر الله مالك. فقال عبد الرحمن: اسمعْ، رحمك الله، اسمع! قال: لا أسمع والله، وجذب

يده من يده، ومضى حتى دخل على عليّ عليه السلام، فقال: قم فقاتل حتى نقاتلَ معك، قال عليّ: فبمن أقاتل رحمك الله! وأقبلَ عَمّار بن ياسر ينادي:

يا ناعيَ الإسلام قم فانْعَهُ   قد مات عرفٌ وبدا نُكْرُ

أما والله لو أن لي أعواناً لقاتلتُهم، والله لئن قاتلهم واحد لأكونَنّ له ثانياً. فقال عليّ: يا أبا اليقظان، والله لا أجِدُ عليهم أعواناً، ولا أحبّ أن أعرِّضكم لما لا تطيقون. وبقي عليه السلام في داره، وعنده نفر من أهل بيته، وليس يدخل إليه أحد مخافة عثمان.

قال الشعبيّ: واجتمع أهلُ الشورى عَلى أن تكونَ كلمتُهم واحدة على مَنْ لم يبايع، فقاموا إلى عليّ، فقالوا: قم فبايع عثمان، قال: فإنْ لم أفعل، قالوا: نجاهدُك، قال: فمشى إلى عثمان حتى بايعه، وَهو يقول: صدق الله ورسوله. فلما بايع أتاه عبدُ الرحمن بن عوف، فاعتذَر إليه، وقال: إن عثمان أعطانا يده ويمينه، ولم تفعل أنت، فأحببتُ أن أتوثّق للمسلمين، فجعلتُها فيه، فقال: إيهاً عِنك! إنّما آثرتَه بها لتنالها بعده، دقّ الله بينكما عطرَ مَنْشِم.

قال الشعبيّ: وقدم طلحة من الشام بعد ما بويع عثمان، فقيل له: رد هذا الأمر حتى ترى فيه رأيك، فقال: والله لو بايعتم شرّكم لرضيتُ، فكيف وقد بايعتم خيرَكم! قال: ثم عَدَا عليه بعد ذلك وصاحبه حتى قتلاه، ثم زعما أنهما يطلبان بدمه.

قال الشعبيّ: فأمّا ما يذكُره الناس من المناشدة، وقول عليّ عليه السلام لأهل الشورى: أفيكم أحد قال له رسول الله صلى الله عليه وآله كذا، فإنه لم يكن يوم البيعة، وإنما كان بعد ذلك بقليل، دخل عليٌّ عليه السلام عَلَى عثمان وعنده جماعة من الناس، منهم أهلُ الشورى، وقد كان بلغه عنهمَ هناتٌ وقوارصُ، فقال لهم: أفيكم أفيكم! كلّ ذلك يقولون لا، قال: لكنّي أخبركم عن أنفسكم، أمّا أنت يا عثمان ففررتَ يوم حُنَين، وتولّيت يوم التقى الجمعان، وأمّا أنت يا طلحة فقلت: إنْ مات محمد لنركضنّ بين خلاخيل نسائه كما ركض بين خلاخيل نسائنا، وأمّا أنتَ يا عبد الرحمن، فصاحب قراريط، وأما أنت يا سعد فتدقّ عن أن تذكر.

قال: ثم خرج فقال عثمان: أما كان فيكم أحدٌ يردّ عليه! قالوا، وما منعك من ذلك وأنت أمير المؤمنين! وتفرّقوا.

قال عوانة: قال إسماعيل: قال الشعبيّ: فحدثني عبد الرحمن بن جندَب، عن أبيه جندب بن عبد الله الأزديّ، قال: كنت جالساً بالمدينة حيث بويع عثمان، فجئت فجلست إلى المقداد بن عمرو، فسمعته يقول: والله ما رأيت مثلَ ما أتى إلى أهل هذا البيت! وكان عبد الرحمن بن عوف جالساً، فقال: وما أنت وذاك يا مقداد! قال المقداد: إنّي والله أحبّهم لحبّ رسول الله صلى الله عليه وآله، وإني لأعجب من قريش وتطاوُلهم على النّاس بفضل رسول الله، ثمّ انتزاعهم

سلطانه من أهله. قال عبد الرحمن: أمّا والله لقد أجهدتُ نفسي لكم. قال المقداد: أما والله لقد تركتَ رجلاً من الذين يأمُرون بالحق وبه يعدلون! أما والله لو أنّ لي على قريش أعواناً لقاتلتهم قتالي إياهم ببدر وأُحُد. فقال عبد الرحمن: ثكلتك أمّك، لا يسمعنّ هذا الكلامَ الناس، فإني أخاف أن تكون صاحب فتنة وفُرقة.

قال المقداد: إنّ مَنْ دعا إلى الحقّ وأهله وولاة الأمر لا يكون صاحب فتنة، ولكنْ مَنْ أقحم الناس في الباطل، وآثر لهوى على الحق، فذلك صاحب الفتنة والفُرْقة.

قال: فتربّد وجهُ عبد الرحمن، ثم قال: لو أعلم أنك إيايَ تعني لكان لي ولك شأن.

قال المقداد: إياي تهدّد يا بنَ أمّ عبد الرحمن! ثم قام عن عبد الرحمن، فانصرف.

قال جندب بن عبد الله: فاتّبعتُه، وقلت له: يا عبد الله، أنا مِنْ أعوانِك، فقال: رحمك الله! إنّ هذا الأمر لا يغني فيه الرجلان ولا الثلاثة، قال: فدخلت من فوري ذلك عَلَى عليّ عليه السلام، فلما جلست إليه، قلت: يا أبا الحسن، والله ما أصاب قومُك بصرف هذا الأمر عنك، فقال: صَبْرٌ جميل والله المستعان.

فقلت: والله إنك لصبور! قال: فإنْ لم أصبِرْ فماذا أصنع؟ قلت: إني جلست إلى المقداد بن عمرو آنفاً وعبد الرحمن بن عوف، فقالا كذا وكذا، ثم قام المقداد فاتّبعته، فقلت له كذا، فقال لي كذا. فقال عليّ عليه السلام: لقد صدَق المقداد، فما أصنع؟ فقلت: تقومُ في الناس فتدعوهم إلى نفسك، وتخبرهم أنّك أولى بالنبيّ صلى الله عليه وآله، وتسألهم النّصر على هؤلاء المظاهرين عليك، فإن أجابك عشرة من مائة شَدَدْتَ بهم على الباقين، فإن دانوا لك فذاك، وإلاّ قاتلتَهم وكنت أوْلَى بالعذر، قُتِلتَ أو بقيت، وكنت أعْلَى عند الله حجّة.

فقال: أترجو يا جندب أن يبايعَني من كلّ عشرة واحد؟ قلت أرجو ذلك، قال: لكني لا أرجو ذلك، لا والله ولا من المائة واحدة وسأخبرك، إنّ الناس إنما ينظرون إلى قريش فيقولون: هم قوم محمد وقبيلُه. وأما قريش بينها فتقول: إنّ آل محمد يروْن لهم على الناس بنبوّته فضلاً، ويروْن أنهم أولياءُ هذا الأمر دون قريش، ودون غيرهم من الناس، وهم إن وَلُوه لم يخرج السلطان منهم إلى أحد أبداً، ومتى كان في غيرهم تداولتْه قريش بينها، لا والله لا يدفَعُ الناسُ إلينا هذا الأمر طائعين أبداً!

فقلت: جعلت فداك يابن عمّ رسول الله! لقد صدعْتَ قلبي بهذا القول، أفلا أرْجع إلى المصر، فأوذِنُ الناس بمقالتك، وأدعو النّاس إليك؟ فقال: يا جندب ليس هذا زمان ذاك.

قال: فانصرفتُ إلى العراق، فكنت أذكر فضل عليّ على الناس فلا أعدم رجلاً يقول لي ما أكره، وأحسن ما أسمعه قول مَنْ يقول: دع عنك هذا وخذ فيما ينفعك، فأقول: إنّ هذا مما ينفعني وينفعك، ف[illegible] ويدَعني.

وزاد أبو بكر أحمد بن عبد العزيز الجوهري: حتى رُفِع ذلك من قولي إلى الوليد بن عُقْبة، أيام ولينا فبعث إلي فحبسني حتى كُلِّم فيّ، فخلّى سبيلي.

وروى الجوهريّ، قال: نادى عمّار بن ياسر ذلك اليوم: يا معشرَ المسلمين، إنا قد كُنّا وما كنّا نستطيع الكلام، قلّة وذلّة، فأعزّنا الله بدينه، وأكرمنا برسوله، فالحمد لله رب العالمين. يا معشرَ قريش، إلى مَتَى تصرفون هذا الأمرَ عن أهل بيت نبيكم! تحوّلونه هاهنا مرّة، وهاهنا مرّة! ما أنا آمن أن ينزعه الله منكم ويضعه في غيركم، كما نزعتموه من أهله ووضعتموه في غير أهله!

فقال له هاشم بن الوليد بن المغيرة: يابن سميّة، لقد عَدَوْتَ طوْرك وما عرفتَ قدرك، ما أنت وما رأت قريش لأنفسها! إنك لستَ في شيء من أمرها وإماراتها، فتنحّ عنها.

وتكلّمت قريش بأجمعها، فصاحوا بعمار وانتهروه، فقال: الحمد لله رب العالمين، ما زال أعوانُ الحقّ أذلاء! ثم قام فانصرف[1].

١٤٠ - ومن كلام له عليه السلام في النهي عن غيبة الناس

الأصل: وَإِنَّمَا يَنْبَغِي لأَهْلِ ٱلْعِصْمَةِ وَالْمَصْنُوعِ إِلَيْهِمْ فِي السَّلاَمَةِ أَنْ يَرْحَمُوا أَهْلَ ٱلذُّنُوبِ وَالْمَعْصِيَةِ، وَيَكُونَ الشُّكْرُ هُوَ ٱلْغَالِبَ عَلَيْهِمْ وَالْحَاجِزَ لَهُمْ عَنْهُمْ، فَكَيْفَ بِالْعَائِبِ الَّذِي عَابَ أَخَاهُ، وَعَيَّرَهُ بِبَلْوَاهُ. أَمَا ذَكَرَ مَوْضِعَ سَتْرِ الله عَلَيْهِ مِنْ ذُنُوبِهِ مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنَ الذَّنْبِ ٱلَّذِي عَابَهُ بِهِ! وَكَيْفَ يَذُمُّهُ بِذَنْبٍ قَدْ رَكِبَ مِثْلَهُ! فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رَكِبَ ذَلِكَ الذَّنْبَ بِعَيْنِهِ فَقَدْ عَصَى ٱللهَ فِيمَا سِوَاهُ، مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهُ.

وَايْمُ ٱللهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ عَصاهُ فِي ٱلْكَبِيرِ، وَعَصَاهُ فِي الصَّغِيرِ، لَجُرْأَتُهُ عَلَى عَيْبِ النَّاسِ أَكْبَرُ.

يَا عَبْدَ ٱللهِ، لاَ تَعْجَلْ فِي عَيْبِ أَحَدٍ بِذَنْبِهِ، فَلَعَلَّهُ مَغْفُورٌ لَهُ، وَلاَ تَأْمَنْ عَلَى نَفْسِكَ صَغِيرَ مَعْصِيَةٍ، فَلَعَلَّكَ مُعَذَّبٌ عَلَيْهِ. فَلْيَكْفُفْ مَنْ عَلِمَ مِنْكُمْ عَيْبَ غَيْرِهِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ عَيْبِ نَفْسِهِ، وَلْيَكُنِ الشُّكْرُ شَاغِلاً لَهُ عَلَى مُعَافَاتِهِ مِمَّا ٱبْتُلِيَ غَيْرُهُ بِهِ.

الشرح: ليس في هذا الفصل من غريب اللغة ما نشرح.

(١) أخرجه الجوهري في السقيفة وفدك: ٩٢، وأخرجه محمد طاهر القمي في كتاب الأربعين: ٢١٩.

في ذم الغيبة والاستماع إلى المغتابين

ونحن نذكر مما وردَ في الغيبة لُمَعاً نافعة عَلَى عادتنا في ذكْر الشيء عند مروونا على ما يقتضيه ويستدعيه.

وقد ورد في الكتاب العزيز ذمّ الغيبة. قال سبحانه: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾(١).

وقال رسول الله ﷺ: «لا تحاسَدُوا ولا تباغضوا ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً وكونوا عباد الله إخواناً»(٢).

وروى جابر وأبو سعيد عنه ﷺ: «إيّاكم والغيبة، فإن الغيبة أشدّ من الزّنى، إنّ الرجلَ يزني فيتوبُ الله عليه، وإنّ صاحبَ الغيبة لا يُغْفَرُ له حتى يغفر له صاحبه»(٣).

وروى أنس عنه ﷺ: «مررت ليلةَ أُسرِيَ بي، فرأيت قوماً يخمشِون وجوهَهم بأظافيرهم، فسألت جبريل عنهم، فقال: هؤلاء الذين يغتابون الناس»(٤).

وفي حديث سَلْمان، قلت: يا رسول الله، علّمْنِي خيراً ينفَعني الله به، قال: «لا تحقِرَنّ من المعروف شيئاً، ولو أوفضت من دلوك في إناء المستقي، والْقَ أخاك ببشْرٍ حَسَن، ولا تغتابَنّه إذا أدبر»(٥).

وفي حديث البَرَاء بن عازب: خَطَبنا رسول الله ﷺ حتى أسمعَ العواتِقَ في بيوتهنّ، فقال: «ألا لا تغتابُوا المسلمين، ولا تتبّعوا عوراتهم، فإنّه مَنْ يتتبّع عورَة أخيه تتبّع الله عورته، ومَنْ يتبع الله عورته يفضحه في جوف بيته»(٦).

وفي حديث أنَس أنّ رسول الله ﷺ قال في يوم صوم: «إنّ فلانة وفلانة كانتا تَأكلان اليوم شحْمَ امرأةٍ مسلمة - يعني الغيبة - فمرْهما فليتّقيا، فقاءت كلّ واحدة منهما عَلَقة دم»(٧).

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الأدب، باب: ما ينهى من التدابر والتحاسد (٦٠٦٤)، ومسلم، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها (٢٥٦٢)، بدون قوله: «ولا يغتب بعضكم بعضاً».

(٣) أخرجه هناد في «الزهد» (١١٧٨)، وذكره السيوطي في الجامع الصغير (٢٩١٩)، ونسبه لأبي الشيخ في التوبيخ، والمتقي الهندي في «كنز العمال» (٨٠٢٦)، وكذلك نسبه لأبي الشيخ.

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب: في الغيبة (٤٨٧٨)، وأحمد في «مسنده» (١٢٩٢٧).

(٥) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٥٢٢)، وأحمد في «مسنده» (١٥٥٢٥)، والطبراني في «الكبير» (٦٣٨٥).

(٦) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: الغيبة (٤٨٨٠)، وأحمد في «مسنده» (١٩٢٧٧).

(٧) أخرج بنحو البيهقي في «شعب الإيمان (٦٧٢٢)، والطيالسي في «مسنده» (٢١٠٧).

وفي الصّحاح المجَمع عليها أنّه ﷺ مرَّ بقبرين جديدَيْن، فقال: «**إنّهما ليعذَّبان وما يعذَّبان بكبير، أمّا أحدُهما، فكان يغتاب الناس، وأمّا الآخر فكان لا يتنزّه من البوْل**»، ودعا بجريدة رطْبة فكسرها اثنتين - أو قال: دعا بجريدتين - ثم غرسهما في القبرين - وقال: «**أَما إنه سيهُون من عذابهما ما دامَتَا رطبتَيْن**»[(١)].

وفي حديث ابن عباس أنّ رجلين من أصحابه اغتابا بحضرته رجلاً، وهو يمشي ﷺ، وهما يمشيان معه، فمرّ على جيفةٍ، فقال: «**انهشا منها**»، فقالا: يا رسول الله، أو ننهش الجيفة! فقال: «**ما أصبتُما من أخيكما أنتنُ من هذه**»[(٢)].

وفي حديث أبي هريرة: «مَنْ أكل لحمَ أخيه حيًّا قُرّب إليه لحمه في الآخرة، فقيل له: كلْه ميتاً كما أكلتَه حيًّا، فيأكله ويضجّ ويكلح»[(٣)].

وروي أن رَجُلين كانا عند باب المسجد، فمرّ بهما رجل كان مخنّثاً، فترك ذلك، فقالا: لقد بقيَ عنده منه شيء، فأقيمت الصلاة، فصّليا مع الناس، وذلك يجول في أنفسهما فأتيا عطاء بن أبي رباح، فسألاه، فأمرهما أن يعيدا الوضوء والصلاة، وإن كانا صائمين أن يقضيا صيام ذلك اليوم.

وعن مجاهد: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾[(٤)]، الهُمَزَة: الطعّان في الناس، واللُّمْزة: النَّمّام.

وعن الحسن: والله لَلْغيبة أسرعُ في دين المؤمن من الأكلة في الجسد.

بعضهم: أدركنا السَّلف وهم لا يروْن العبادة في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض الناس.

ابن عباس: إذا أردْتَ أن تذكُرَ عيوب صاحبك، فاذكُر عيوبك. وهذا مشتقّ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام.

أبو هريرة: يبصر أحدُهما القَذَى في عين أخيه، ولا يبصِرُ الجذْع في عين نفسه! وهذا كالأول.

الحسن: يابن آدم، إنّك إن قضيتَ حقيقة الإيمان فلا تَعِب النّاس بعيب هو فيك حتى تبدأ

(١) أخرجه البخاري، كتاب الوضوء، باب: ما جاء في غسل البول (٢١٨)، ومسلم، كتاب: الطهارة، باب: الدليل أن نجاسة البول (٢٩٢).
(٢) أخرجه النسائي في السنن الكبرى: ٤/٢٧٨ رقم ٧١٦٧.
(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١٦٥٦)، وذكره في كنز العمال (٨٠٤٥)، وعزاه للخرائطي في مساوىء الأخلاق.
(٤) سورة الهمزة، الآية: ١.

بإصلاح ذلك العيب من نفسك، فإذا فعلتَ ذلك كان شغلك في خاصة نفسك. وأحبّ العباد إلى الله مَنْ كان هكذا.

ويروى أنّ المسيح عليه السلام مرّ على جيفة كلب، فقال بعضُ التلامذة: ما أشدّ نتنه! فقال المسيح: ما أشد بياض أسنانه! كأنه نهاهم عن غيبة الكلب ونبّههم إلى أنه لا ينبغي أن يُذكر من كلّ شيء إلا أحسنُه.

وسمع عليّ بن الحسين عليه السلام رجلاً يغتاب آخر، فقال: إنّ لكلّ شيء إداماً، وإدام كلاب الناس الغِيبة.

وفي خطبة حجّة الوداع: «أيها الناس، إنّ دماءكم وأموالكم وأعراضَكم عليكم حرام كحُرْمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. إنّ الله حَرّم الغِيبة كما حَرّم المال والدم»[1].

عمر: ما يمنعكم إذا رأيتم مَنْ يخرِق أعراض الناس أن تعرّبوا عليه، أيْ تقبّحُوا قالوا: نخاف سفهه وشرّه، قال: ذلك أدنى ألاّ تكونوا شهداء.

أنس يرفعه: «مَنْ مات على الغيبة حُشِر يوم القيامة مزرّقة عيناه، ينادي بالويل والندامة، يعرف أهله ولا يعرفونه».

وقال هشام بن عبد الملك في بعض ولد الوليد بن عُقْبة:

أبلغ أبا وهبٍ إذا ما لقِيتَهُ ... بأنكَ شَرّ الناسِ غَيْباً لصاحبِ
فتبدي له بشراً إذا ما لقيتَه ... وتلسعه بالغيْب لسْعَ العقاربِ

مَرّ الشعبيّ بقومٍ يغتابونه في المسجد، وفيهم بعض أصدقائه، فأخذ بُعضادَتِي الباب، وقال:

هنيئاً مريئاً غير داءٍ مُخامرٍ ... لعَزّةَ مِنْ أعراضِنا ما استحلّتِ

ومن كلام بعض الحكماء: أبصر الناس بالعَوار المِعوار، هذا مثل قول الشاعر:

وأجْرَأ من رأيتُ بظهرِ غيبٍ ... عَلَى عيبِ الرجال ذَوُو العيوب

قيل لشبيب بن شَبّة بن عقال: ما بال عبد الله بن الأهتم يغتابك وينتقصك! قال: لأنه شقيقي في النّسب، وجاري في البلد، وشريكي في الصنعة.

دخل أبو العيناء على المتوكّل، وعنده جلساؤه، فقال له: يا محمّد كلّهم كانوا في غيبتك منذ اليوم، ولم يبق أحد لم يذمُمك غيري، فقال:

---

(١) أخرجه بدون الشطر الأخير: البخاري، كتاب العلم، باب: قول النبي صلى الله عليه وآله: «رب مبلغ أرعى من سامع» (٦٧)، ومسلم، كتاب الحج، باب: حجة النبي صلى الله عليه وآله (١٢١٨).

إذا رضيتْ عَنّي كَرامُ عشيرتِي فلا زالَ غَضْبَاناً عَليّ لِئامُها

قال بعضهم: بتّ بالبصرة ليلةً مع المسجديّين، فلما كان وقت السَّحَر، حرّكهم واحد، فقال: إلى كمْ هذا النوم عن أعراض الناس!

وقيل لشاعر وصله بعضُ الرؤساء، وأنعم عليه: ما صنع بك فلان؟ قال: ما وَفَتْ نعمتُه بإساءته، منعني لذة الثَّلْب وحلاوة الشكوى.

أعرابيّ: مَنْ عاب سَفِلَة فقد رفعه، ومن عاب شريفاً فقد وضع نفسه.

نظر بعضُ السَّلف إلى رجل يغتاب رجلاً، وقال: يا هذا، إنك تملي على حافظيكَ كتاباً، فانظر ماذا تقول!

ابن عباس: ما الأسد الضارِي على فريسة بأسرعَ من الدنيء في عِرْض السَّرِيّ. بعضهم:

ومطروفة عيناه عن عَيْب نفسه فإنْ لاح عيبٌ من أخيه تبصّرا

وقالت رابعة العَدوِيّة: إذا نصح الإنسان لله أطلعه تعالى على مساوىء عمله، فتشاغل بها عن ذكر مساوىء خلقه.

قال عبد الله بن عُروة بن الزبير لابنه: يا بنيّ، عليك بالدّين، فإنّ الدنْيا ما بنتْ شيئاً إلا هدَمه الدين، وإذا بنَى الدّين شيئاً لم تستطع الدنيا هدمَه، ألا ترى عليّ بن أبي طالب وما يقول فيه خطباء بني أمية من ذَمّهِ وعيبه وغيبته! والله لكأنما يأخذون بناصيته إلى السماء! ألا تراهم كيف ينْدُبون موتاهم، ويرثيهم شعراؤهم، والله لكأنما يندبون جِيفَ الحُمُر!

ومن كلام بعض الصالحين: الورع في المنطق أشدّ منه في الذهب والفضة؛ لأنّك إذا استودعك أخوك مالاً لم تجُد بك نفسُك لخيانته فيه، وقد استودعك عِرْضه وأنت تغتابه، ولا تبالي. كان محمد بن سيرين قد جعل على نفسه، كلما اغتاب أحداً أن يتصدّق بدينار، وكان إذا مدح أحداً قال: هو كما يشاء الله، وإذا ذمّه قال: هو كما يعلم الله.

الأحنف: فيّ خَلّتان: لا أغتاب جليسي إذا قام عَنّي، ولا أدخل بين القوم فيما لم يدخلوني فيه.

قيل لرجل من العرب: مَن السيّد فيكم؟ قال: الذي إذا أقبل هِبْناه، وإذا أدبر اغتبْناه.

قيل للربيع بن خُثَيْم: ما نراك تعيب أحداً! فقال: لست راضياً على نفسي، فأتفرّغ لذكر عيوب الناس! ثم قال:

لنفسيَ أبكِي لستُ أبكِي لغيرها لنفسيَ في نفسِي عن النّاس شاغل

عبد الله المبارك: قلت لسفيان: ما أبعد أبا حنيفة من الغِيبة! ما سمعته يغتاب عدوًّا، قال: هو والله أعقل من أن يسلّط على حسناته ما يذهبُ بها.

سئل فُضَيل عن غِيبة الفاسق، فقال: لا تشتغِلْ بذكره، ولا تعوّد لسانك الغِيبة، اشغَل لسانك بذكر الله، وإياك ذكر الناس، فإنّ ذكر الناس داء، وذكر الله دواء.

بعض الشعراء:

ولستُ بذي نيربٍ في الصديقِ   خؤونَ العشيرية سبّابَها
ولا مَنْ إذا كان في مجلس   أضاع القبيلَة واغتابَها
ولكن أبجّلُ ساداتِها   ولا أتعلّم ألقابها

وكان يقال: الغيبة فاكهة القرّاء.

وقيل لإسماعيل بن حمّاد بن أبي حنيفة: أي اللّحمان أطيب؟ قال: لحوم الناس، هي والله أطيَب من لحوم الدجاج والدّراج - يعني الغيبة.

ابن المغيرة: لا تذكر الميّت بسوء، فتكون الأرض أكتَم عليه منك.

وكان عبد الملك بن صالح الهاشميّ إذا ذُكِر عنده الميّت بسوء، يقول: كُفّوا عن أسارى الثّرى.

وفي الأثر: سامعُ الغِيبة أحد المغتابيْن.

أبو نواس:

ما حطّك الواشونَ من رُتبَةٍ   عندي وما ضرّك مغتابُ
كأنهم أثنوا ولم يعلَموا   عليك عندي بالّذي عابوا

الحسن: ذمُّ الرجل في السرّ، مدحٌ له في العلانية.

عليّ عليه السلام: الغِيبة جَهْد العاجز، أخذه المتنبي فقال:

وأكبِر نفسي عن جزاءٍ بغيبةٍ   وكلّ اغتيابٍ جُهْدُ مَنْ ماله جُهْدُ

بلغ الحسن أنّ رجلاً اغتابه، فأهدى إليه طبقاً من رُطَب، فجاءه الرجل معتذراً، وقال: أصلحك الله! اغتبتُك فأهديت لي! قال: إنّك أهديت إليّ حسناتِك، فأردت أن أكافئك.

أتى رجلٌ عمرو بن عبيد الله، فقال له: إن الأسواريّ لم يزلْ أمس يذكُرك ويقول: عمرو الضّال، فقال له: يا هذا، والله ما رعيتَ حقّ مجالسة الرجل حين نقلتَ إلينا حديثه، ولا رعيت حقّي حين بلّغتَ عن أخي ما أكرهه. أعلِمْه أنّ الموت يعمّنا، والبعث يحشرنا والقيامة تجمعنا، والله يحكم بيننا.

واعلم أنّ العلماء ذكروا في حدّ الغِيبة: أنْ تذكُرَ أخاك بما يكرهه لو بلغه، سواء ذكرت نقصاناً في بدنه، مثل أن تقول: الأقرع، أو الأعور، أو في نَسبه نحو أن تقول: ابن النَبطيّ وابن

الإسكاف أو الزّبال أو الحائك أو خُلُقه، نحو سيء الخلُق أو بخيل أو متكبِّر، أو في أفعاله الدنيئة نحو قولك: كذّاب وظالم ومتهاون بالصلاة، أو الدنيوية نحو قولك: قليل الأدب متهاون بالنّاس، كثير الكلام، كثير الأكل، أو في ثوبه كقولك: وسِخ الثياب، كبير العمامة، طويل الأذيال.

وقد قال قوم: لا غِيبةَ في أمور الدين؛ لأنّ المغتاب إنما ذمّ ذمّهُ الله تعالى، واحتجّوا بما روي أنه ذِكر لرسول الله ﷺ امرأةٌ وكثرة صومها وصلاتها، ولكنها تؤذي جارتَها، فقال: «هي في النار»[١]، ولم ينكِر عليهم غيبتَهم إياها.

ورُوِي أنّ امرأةً ذكِرت عنده عليه السلام بأنها بخيلة، فقال: «فما خيرها إذن»! وأكثر العلماء على أنّ الغيبة في أمور الدين محرَّمة أيضاً، وادّعوا الإجماع على أنّ من ذَكَر غيره بما يكرهه فهو مغتاب، سواء أكان في الدّين أو في غيره. قالوا: والمخالف مسبوق بهذا الإجماع، وقالوا: وقد روي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «هل تدرون ما الغيبة»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «ذكرك أخاك بما يكرهه»، فقائل قال: أرأيت يا رسول الله، إن كان ذلك في أخِي؟ قال: «إن كان فيه فقد اغتبتَه، وإن لم يكن فقد بهتَه»[٢].

قالوا: وَرَوى مُعاذ بن جبل أنّ رجلاً ذُكِر عند رسول الله ﷺ، فقال قوم: ما أعجزَه! فقال ﷺ: «اغتبتم صاحبَكم»، فقالوا: قلنا ما فيه، فقال: «إن قلتم ما ليس فيه فقد بهتّموه»[٣].

قالوا: وما احتجّ به الزاعمون أن لا غيبة في الدّين، ليس بحجّة؛ لأن الصحابة إنما ذكرتْ ذلك في مجلِس رسول الله ﷺ لحاجتها إلى تعرف الأحكام بالسؤال، ولم يكن غرضُها التنقُّص.

واعلم أنّ الغيبة ليست مقصورة على اللّسان فقط، بل كلّ ما عرّفت به صاحبَك نقصَ أخيك فهو غيبة، فقد يكون ذلك باللسان، وقد يكون بالإشارة والإيماء، وبالمحاكاة، نحو أنْ تمشي خلْف الأعرج متعارجاً، وبالكتاب، فإنّ القلم أحدُ اللسانين.

وإذا ذكر المصنِّف شخصاً في تصنيفه، وهجّن كلامه، فهو غيبة. فأما قوله: «قال قوم كذا»، فليس بغيبة؛ لأنه لم يعيّن شخصاً بعينه.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٩٣٨٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: البر والصلة، باب: تحريم الغيبة (٢٥٨٩)، والترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في الغيبة (١٩٣٤)، وأبو داود، كتاب: الأدب، باب: في الغيبة (٤٨٧٤)، وأحمد في «مسنده» (٧١٠٦).

(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/٣٩)، وأبو يعلى في «مسنده» (٦١٥١)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٦٧٣٤).

وكان رسول الله ﷺ يقول: «ما بالُ أقوام يقولون كذا!»[١]، فكان لا يعيّن، ويكون مقصودُه واحداً بعينه.

وأخبث أنواع الغيبة غيبة القُرّاء المرائين، وذلك نحو أن يُذْكر عندهم إنسان، فيقول قائلهم: الحمد لله الذي لم يبلنا بدخول أبواب السلطان، والتبذّل في طلب الحُطَام، وقصده أن يفهِم الغير عيب ذلك الشخص، فتخرج الغيبة في مخرج الحمد والشكر لله تعالى، فيحصل من ذلك غيبة المسلم، ويحصل منه الرياء، وإظهار التعفّف عن الغيبة وهو واقع فيها، وكذلك يقول: لقد ساءني ما يذكَر به فلان، نسأل الله أن يعصمَه، ويكون كاذباً في دعوى أنّه ساءه، وفي إظهار الدعاء له، بل لو قصد الدّعاء له لأخفاه في خلوة عقِب صلواته، ولو كان قد ساءه إساءة أيضاً إظهارُ ما يكرهه ذلك الإنسان.

واعلم أنّ الإصغاء إلى الغِيبة على سبيل التعجّب كالغيبة، بل أشدّ؛ لأنه إنما يظهر التعجّب ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة، فيندفع فيها حكاية، يستخرج الغيبة منه بذلك، وإذا كان السامع الساكت شريك المغتاب، فما ظنّك بالمجتهد في حصول الغيبة، والباعث على الاستزادة منها! وقد روي أن أبا بكر وعمر ذكرا إنساناً عند رسول الله، فقال أحدهما: إنه لنؤوم، ثم أخرج رسول الله ﷺ خبزاً قَفَاراً، فطلبا منه أُدماً، فقال: قد ائتدمتما، قالا: ما نعلمه، قال: «بلى بما أكلتما من لحم صاحبكما»[٢]، فجمعهما في الإثم، وقد كان أحدهما قائلاً والآخر مستمِعاً، فالمستمِع لا يخرج من إثم الغيبة إلا بأن ينكِر بلسانه، فإن خاف فبقلبه، وإن قَدَر على القيام أو قَطْع الكلام بكلام آخرَ لزمه ذلك، فإن قال بلسانه: اسكت وهو سريدٌ للغيبة بقلبه، فذلك نفاق، ولا يخرِجه عن الإثم إلاّ أن يكرهُه بقلبه، ولا يكفي أن يشير باليد، أي اكفف، أو بالحاجب والعين، فإنّ ذلك استحقار للمذكور، بل ينبغي أن يذبّ عنه صريحاً، فقد قال رسول الله ﷺ: «من أُذِلّ عنده مؤمن وهو يقدر على أن ينصرَه فلم ينصره، أذلّه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق»[٣].

واعلم أنّ الأسباب الباعثة على الغِيبة على أمور: منها شفاء الغيظ، وذلك أن يجرِي من الإنسان سبب يغضب به عليه آخر، فإذا هاج غضبه تشفّى بذكر مساوئه، وسبق إليها لسانه بالطبع

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب في حسن العشرة (٤٧٨٨).

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء (٣/ ١٨٠)، وقال العراقي في تخريجه: أخرجه أبو العباس الدغولي في الآداب من رواية عبد الرحمٰن بن أبي ليلى مرسلاً نحوه.

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٥٥٥٥)، والطبراني في «الكبير» (٥٥٥٤).

إن لم يكن هناك دين وازع، وقد يمنع تشفّي الغيظ عند الغضب، فيحتقن الغضب في الباطن، فيصير حِقْداً ثابتاً، فيكون سبباً دائماً لذكر المساوىء.

ومنها موافقة الأقران ومساعدتهم على الكَلاَم، فإنّهم إذا اجتمعوا ربّما أخذوا يتفكّهون بذكر الأعراض، فيرى أنه لو أنكر أو قطع المجلس استثقلوه، ونفَرُوا عنه فيساعدهم، ويرى ذلك من حسن المعاشرة، ويظنّ أنه مجاملة في الصحبة. وقد يغضب رفقاؤه من أمرٍ فيحتاج إلى أنْ يغضب لغضبهم، إظهاراً للمساهمة في السرّاء والضرّاء فيخوض معهم في ذكر العيوب والمساوىء.

ومنها أن يستشعر من إنسان أنّه سيذمّه ويطول لسانه فيه، ويقبّح حاله عند بعض الرؤساء، أو يشهد عليه بشهادة فيبادرَه قبل أن يقبّح حاله، فيطعن فيه ليسقط أثر شهادته عليه. وقد يبتدىء بذكر بعض ما فيه صَادقاً ليكذِب عليه بعد ذلك، فيروج كذبه بالصدق الأول.

ومنها أن ينسب إلى أمرٍ فيريد التبرّؤ منه، فيذكر الذي فعله، وكان من حقّه أن يبرّىء نفسَه، ولا يذكر الذي فعله، لكنّه إنما يذكر غيره تأكيداً لبراءة نفسه، وكيْلاَ يكونَ تبرّؤاً مبتوراً، وربما يعتذر بأن يقول: فلان فعله، وكنت شريكاً في بعض الأمر ليبرّىء نفسه بعض البراءة.

ومنها المباهاة وحبّ الرياسة، مثل أن يقول: كلامُ فلان ركيك، ومعرفته بالفنّ الفلانيّ ناقصة، وغرضه إظهار فضله عليه.

ومنها الحسد وإرادة إسقاط قَدْر مَنْ يمدحه الناس بذكر مساوئه؛ لأنه يشقّ عليه ثناء النّاس عليه، ولا يجدُ سبيلاً إلى سدّ باب الثناء عليه إلا بذكر عيوبه.

ومنها اللعب والهزل والمطايبة وتزجية الوقت بالضّحِك والسخرية، فيذكر غيره بما يضحك الحاضرين على سبيل الهزء والمحاكاة.

واعلم أن الذي يقوّي في نفسي أنّ الغيبة لا تكون محرّمة إلا إذا كانت على سبيل القصْد إلى تنقّص الإنسان فقط وغضّ قدره، فأمّا إذا خرجت مخرجاً آخر، فليست بحرام، كمن يظلمه القاضي ويأخذ الرّشوة على إسقاط حقوقه، فإن له أن يذكر حالَه للسلطان متظلّماً من حَيْف الحاكم عليه، إذ لا يمكنه استيفاء حقوقه إلا بذلك، فقد قال ﷺ: «مَطْل الغنيّ ظلم»(١)، وقال: «ليّ الواجد يحلّ عقوبته وعِرْضه»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الحوالات، باب: الحوالة وهل يرجع في الحوالة (٢٢٨٧)، ومسلم، كتاب: المساقاة، باب: تحريم مطل الغني (١٥٦٤).

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً، كتاب: الاستقراض وأداء الديون، باب: لصاحب الحق مقال، والنسائي، كتاب: البيوع، باب: مطل الغني (٤٦٨٩)، وأبو داود، كتاب: الأقضية، باب: في الحبس في الدين وغيره (٣٦٢٨).

وكذلك النهي عن المنكر واجب، وقد يحتاج الإنسان إلى الاستعانة بالغير على تغييره وردّ القاضي إلى منهج الصلاح فلا بدّ له أن يشرح للغير حال ذلك الإنسان المرتكِب المنكر، ومَن ذكَر الإنسان بلقب مشهور فعرِف عن عيبه، كالأعرج والأعمش المحدّثين، لم يكن مغتاباً إذا لم يقصد الغضّ والنقص. والصحيح أنّ المجاهر بالفسق لا غيبة له، كصاحب الماخور والمخنّث: ومن يدعو الناس إلى نفسه ابنة، وكالعشّار والمستخرج بالضرب، فإن هؤلاء غير كارهين لما يذكرون به، وربما تفاخروا بذلك، وقد قال النبي ﷺ: «من ألقى جلباب الحياء عن وجهه، فلا غيبة له»[1]، وقال عمر: ليس لفاجر حرمة، وأراد المجاهرَ بالفسق، دون المستتر. وقال الصّلت بن طريف: قلت للحسن رحمه الله: الرجل الفاجر المعلن بالفجور غير مراقب، هل ذِكْري له بما فيه غيبة؟ فقال: لا، ولا كرامة له!

واعلم أنّ التوبة من الغِيبة تكفّر عقابها، والتوبة منها هي الندم عليها، والعزم على ألا يعود، فإن لم يكن الشخص المذكور قد بلغته الغيبة، فلا حاجة إلى الاستحلال منه، بل لا يجوز إعلامه بذلك، هكذا قال شيخنا أبو الحسين رحمه الله؛ لأنه لم يؤلمه فيحتاج إلى أن يستوهب منه إثمَ ذلك الإيلام، وفي إعلامه تضييق صَدْرِه، وإدخال مشقّة عليه، وإن كان الشخص المذكور قد بلغته الغيبة، وجَب عليه أن يستحلّه ويستوهبَه. فإن كان قد مات سقط بالتوبة عقاب ما يختصّ بالباريء سبحانه من ذلك الوقت، وبقي ما يختصّ بذلك الميّت لا يسقط حتى يؤخذ العِوض له من المذنب يوم القصاص.

١٤١ - ومن كلام له عليه السلام في النهي بسوء الظن

الأصل: ومن كلام له عليه السلام **أَيُّهَا النَّاسُ، مَنْ عَرَفَ مِنْ أَخِيهِ وَثِيقَةَ دِينٍ وَسَدَادَ طَرِيقٍ، فَلاَ يَسْمَعَنَّ فِيهِ أقاوِيلَ ٱلرِّجالِ، أَمَا إِنَّهُ قَدْ يَرْمِي الرَّامِي، وَتُخْطِىءُ السِّهامُ، وَيُحِيلُ ٱلْكَلامُ، وَبَاطِلُ ذلِكَ يَبُورُ، وَٱللهُ سَمِيعٌ وَشَهِيدٌ. أَمَا إِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَ ٱلْحَقِّ وَٱلْبَاطِلِ إلاَّ أَرْبَعُ أصابعَ.**

فسُئِل عليه السلام عن معنى قوله هذا، فجَمعَ أصابَعه ووضعَها بَيْنَ أُذُنه وعينِه ثمّ قال: ٱلْبَاطِلُ أَنْ تَقُولَ: سَمِعْتُ وَٱلْحَقُّ أَنْ تَقُولَ: رَأَيْتُ.

---

(١) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢١٠)، والشهاب في «مسنده» (٤٢٦)، وابن أبي الدنيا في «مكارم الأخلاق» (١٠٢)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٥٩٢٥).

الشرح: هذا الكلام هو نَهْيٌ عن التسرّع إلى التصديق بما يقال من العيب والقدْح في حقّ الإنسان المستور الظاهر، المشتهرَ بالصلاح والخير، وهو خلاصة قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾[١]. ثم ضرب عليه السلام لذلك مثلاً، فقال: قد يرمي الرامي فلا يصيب الغرض، وكذلك قد يطعن الطاعن فلا يكون طعنه صحيحاً، وربّما كان لغرض فاسدٍ أو سمعه ممّن له غرض فاسداً، كالعدوّ والحسود، وقد يشتبِه الأمر فيُظنّ المعروف منكَراً، فيعجَل الإنسان بقول لا يتحققه، كمن يرى غلام زيد يحمل في إناء مستورٍ مغطًّى خلًّا، فيظنه خمراً.

قال عليه السلام: «ويُحيل الكلام»، أي يكون باطلاً، أحال الرجلُ، في منطقه، إذا تكلّم الّذي لا حقيقة له، ومن الناس من يرويه: «ويُحِيك الكلام» بالكاف، من قولك: ما حاك فيه السيف، ويجوز «أحاك» بالهمزة، أي ما أثّر، يعني أنّ القول يؤثّر في العِرْض وإن كان باطلاً، والرواية الأولى أشهر وأظهر.

ويبور: يفسد. وقوله: «وباطل ذلك يبور»، مثل قولهم: للباطل جولة، وللحق دولة، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[٢].

والإصبع مؤنثة، ولذلك، قال: «أربع أصابع» فحذف الهاء.

فإن قلت: كيف يقول عليه السلام: الباطل ما يُسمع والحق ما يرى، وأكثر المعلومات إنما هي من طريق السماع، كعلمنا الآن بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله بما بلغنا من معجزاته التي لم نرها، وإنما سمعناها!

قلت: ليس كلامه في المتواتر من الأخبار، وإنما كلامه في الأقوال الشاذّة الواردة من طريق الآحاد، التي تتضمّن القَدْح فيمن قد غلَبت نزاهته، فلا يجوز العدولُ عن المعلوم بالمشكوك.

---

١٤٢ - ومن كلام له عليه السلام في وضع المعروف في غير أهله

الأصل: ولَيْسَ لِوَاضِعِ المَعْرُوفِ في غَيْرِ حَقِّهِ، وَعِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ ٱلحَظُّ فِيما أَتَى إِلاَّ مَحْمَدَةُ ٱللِّئَامِ، وَثَنَاءُ ٱلأَشْرَارِ، وَمَقَالَةُ ٱلجُهَّال، ما دَامَ مُنْعِماً عَلَيْهِمْ: ما أَجْوَدَ يَدَهُ! وَهُوَ عَنْ ذَاتِ ٱللهِ بَخِيلٌ.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٦.
(٢) سورة الإسراء، الآية: ٨١.

فَمَنْ آتَاهُ اللهُ مالاً فَلْيَصِلْ بِهِ الْقَرَابَةَ، وَلْيُحْسِنْ مِنْهُ الضِّيَافَةَ، وَلْيَفُكَّ بِهِ الأَسِيرَ والْعَانِي، وَلْيُعْطِ مِنْهُ الْفَقِيرَ وَالْغَارِمَ، وَلْيَصْبِرْ نَفْسَهُ عَلَى الْحُقُوقِ وَالنَّوَائِبِ، ابْتِغَاءَ الثَّوَابِ، فَإِنَّ فَوْزاً بِهَذِهِ الْخِصَالِ شَرَفُ مَكَارِمِ الدُّنْيَا، ودَرْكُ فَضَائِلِ الآخِرَةِ، إِنْ شَاءَ اللهُ.

الشرح: هذا الكلام يتضمّن ذمّ من يُخرج ماله إلى الفتيان والأقران والشعراء، ونحوهم، ويبتغي به المدحَ والسمعة، ويعدل عن إخراجه في وجوه البر وابتغاء الثواب، قال عليه السلام: ليس له من الحظّ إلا محمَدة اللئام وثناء الأشرار، وقولهم: ما أجود يده! أي ما أسمحه! وهو بخيل بما يرجع إلى ذات الله - يعني الصدقات وما يجري مجراها من صلة الرَّحم والضيافة وفكّ الأسير والعاني، وهو الأسير بعينه، وإنما اختلف اللفظ.

والغارم: مَنْ عليه الديون ويقال: صَبَر فلان نفسَه على كذا مخفّفاً، أي حبسها، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾[1].

وقال عنترة يذكر حرباً:

فصبرتُ عارفةً لذلك حُرّةً ... ترسُو إذا نفس الجبان تَطَلّعُ

وفي الحديث النبويّ في رجل أمسك رجلاً، وقتله آخر فقال عليه السلام: «اقتلُوا القاتل واصبِرُوا الصابر»[2]، أي احبسُوا الذي حبسه للقتل إلى أن يموت.

وقوله: «فإن فَوْزاً»: أفصح من أن يقول: «فإنّ الفوز» أو فإنّ في الفوز كما قال الشاعر:

إنّ شِواءً ونشوةً ... وخَبَبَ البازل الأمونِ

من لذّةِ العيْش، والفتى ... للدّهر، والدّهرُ ذو شؤون

ولم يقل: «إن الشواء والنّشوة»، والسرّ في هذا أنه كأنه يجعل هذا الشواء شخصاً من جملة أشخاص، داخلة تحت نوع واحد، ويقول: إنّ واحداً منها أيّها كان فهو من لذّة العيش، وإن لم يحصل له كلّ أشخاص ذلك النوع، ومراده تقرير فضيلة هذه الخصال في النفوس، أي متى حصل للإنسان فوزٌ ما بها، فقد حصل له الشرف، وهذا المعنى وإن أعطاه لفظة «الفوز» بالألف واللام إذا قصد بها الجنسية إلا أنه قد يسبق إلى الذهن منها الاستغراق لا الجنسية، فأتى بلفظةٍ لا توهِم الاستغراق، وهي اللفظة المنكرة، وهذا دقيق، وهو من لباب علم البيان.

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.

(٢) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٥٠)، وذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٣٩٨٣٩)، وعزاه لأبي عبيد في غريب القرآن.

١٤٣ - ومن خطبة له عليه السلام في الاستسقاء

الأصل: أَلاَ وَإِنَّ الأَرْضَ الَّتِي تَحْمِلُكُمْ، وَالسَّمَاءَ الَّتِي تُظِلُّكُمْ، مُطِيعتَانِ لِرَبِّكُمْ وَمَا أَصْبَحتَا تَجُودَانِ لَكُمْ بِبَرَكَتِهِمَا تَوَجُّعاً لَكُمْ، وَلاَ زُلْفَةً إِلَيْكُمْ، وَلاَ لِخَيْرٍ تَرْجُوَانِهِ مِنْكُمْ، وَلَكِنْ أُمِرَتَا بِمَنَافِعِكُمْ فَأَطَاعَتَا، وَأُقِيمتَا عَلَى حُدُودِ مَصَالِحِكُمْ فَقَامتَا.

إِنَّ ٱللهَ يَبْتَلِي عِبادَهُ عِنْدَ الأَعْمالِ السَّيِّئَةِ بِنَقْصِ الثَّمَرَاتِ، وَحَبْسِ ٱلْبَرَكَاتِ، وَإِغْلاَقِ خَزَائِنِ ٱلْخَيْرَاتِ، لِيَتُوبَ تَائِبٌ، وَيُقْلِعَ مُقْلِعٌ، وَيَتَذَكَّرَ مُتَذَكِّرٌ وَيَزْدَجِر مُزْدَجِرٌ.

وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ الاسْتِغْفَارَ سَبَباً لِدُرُورِ الرِّزْقِ وَرَحْمَةِ ٱلْخَلْقِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّـٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَـٰرًا﴾(١).

فَرَحِمَ ٱللهُ ٱمْرَأً ٱسْتَقْبَلَ تَوْبَتَهُ، وَٱسْتَقَالَ خَطِيئَتَهُ، وَبَادَرَ مَنِيَّتَهُ!

ٱللَّهُمَّ إِنَّا خَرَجْنَا إِلَيْكَ مِنْ تَحْتِ الأَسْتَارِ وَالأَكْنَانِ، وَبَعْدَ عَجِيجِ ٱلْبَهَائِمِ وَٱلْوِلْدَانِ، رَاغِبِينَ فِي رَحْمَتِكَ، وَرَاجِينَ فَضْلَ نِعْمَتِكَ، وَخَائِفِينَ مِنْ عَذَابِكَ وَنِقْمَتِكَ.

ٱللَّهُمَّ فَاسْقِنَا غَيْثَكَ، وَلاَ تَجْعَلْنَا مِنَ ٱلْقَانِطِينَ، وَلاَ تُهْلِكْنَا بِالسِّنِينَ، وَلاَ تُؤَاخِذْنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ!

ٱللَّهُمَّ إنا خَرَجْنَا إِلَيْكَ نَشْكُو إِلَيْكَ مَا لاَ يَخْفَى عَلَيْكَ، ٱلْجَأَتْنَا المَضَايِقُ ٱلْوَعْرَةُ، وَأَجَاءَتْنَا المَقَاحِطُ المُجْدِبَةُ، وَأَعْيَتْنَا المَطَالِبُ المُتَعَسِّرَةُ، وَتَلاَحَمَتْ عَلَيْنَا ٱلْفِتَنُ المُسْتَصْعَبَةُ.

ٱللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ أَلا تَرُدَّنَا خَائِبِينَ، وَلاَ تَقْلِبَنَا وَاجِمِينَ، وَلاَ تُخَاطِبَنَا بِذُنُوبِنَا، وَلاَ تُقَايِسَنَا بِأَعْمَالِنَا.

ٱللَّهُمَّ ٱنْشُرْ عَلَيْنَا غَيْثَكَ وَبَرَكَتَكَ، وَرِزْقَكَ وَرَحْمَتَكَ، وَٱسْقِنَا سُقْيا نَافِعَةً مُرْوِيَةً مُعْشِبَةً، تُنْبِتُ بِهَا مَا قَدْ فَاتَ، وَتُحْيِي بِهَا مَا قَدْ مَاتَ، نَافِعَةَ ٱلْحَيَا، كَثِيرَةَ ٱلْمُجْتَنَى، تُرْوِي بِهَا ٱلْقِيعَانَ، وَتُسِيلُ ٱلْبُطْنَانَ، وَتَسْتَوْرِقُ ٱلأَشْجَارَ، وَتُرْخِصُ ٱلأَسْعَارَ، إِنَّكَ عَلَى مَا تَشَاءُ قَدِيرٌ.

---

(١) سورة نوح، الآيات: ١٠ - ١٢.

الشرح: تظلّكم: تعلو عليكم، وقد أظلّتني الشجرة واستظلّت بها. والزُّلْفة: القربة، يقول إنّ السماء والأرض إذا جاءتا بمنافعكم - أمّا السماء فبالمطر، وأمّا الأرض فبالنّبات - فإنهما لم تأتيا بذلك تقرُّباً إليكم، ولا رحمةً لكم، ولكنهما أُمِرَتا بنفعكم فامتثلتا الأمر؛ لأنه أمرُ مَنْ تجب طاعته، ولو أُمِرَتا بغير ذلك لفعلتاه. والكلام مجاز واستعارة؛ لأنّ الجماد لا يؤمر، والمعنى أنّ الكلّ مسخّر تحت القدرة الإلهية، ومرادُه تمهيدُ قاعدةِ الاستسقاء، كأنه يقول: إذا كانت السماء والأرض أيام الخصْب والمطر والنبات لم يكن ما كان منهما محبّة لكم، ولا رجاء منفعةٍ منكم، بل طاعة الصانع الحكيم سبحانه فيما سخّرَهما له، فكذلك السماء والأرض أيام الجدْب وانقطاع المطر وعدم الكلأ، ليس ما كان منهما بغضاً لكم، ولا استدفاعَ ضرر يُخاف منكم، بل طاعة الصانع الحكيم سبحانه فيما سخّرَهما له، وإذا كان كذلك فبالحرى ألاّ نأمل السماء ولا الأرض، وأن نجعل آمالنا معلّقة بالملك الحقّ المدبّر لهما، وأن نسترحِمَه وندعُوَه ونستغفرَه، لا كما كانت العرب في الجاهلية يقولون: مُطِرنا بنوْء كذا، وقد سخِط النَّوء الفلانيّ على بني فلان فأمحلوا.

ثم ذكر عليه السلام أنّ الله تعالى يبتلي عبادَه عند الذنوب بتضييق الأرزاق عليهم، وحبس مطر السماء عنهم، وهذا الكلام مطابق للقواعد الكلامية؛ لأنّ أصحابنا يذهبون إلى أنّ الغلاء قد يكون عُقوبة على ذنْب، وقد يكون لطفاً للمكلّفين في الواجبات العقليّة وهو معنى قوله: «ليتوب تائب..»، إلى آخر الكلمات. ويُقلع: يكفّ ويمسِك.

ثم ذكر أنّ الله سبحانه جعل الاستغفار سبباً في دُرور الرزق، واستدل عليه بالآية التي أمر نوح عليه السلام فيها قومه بالاستغفار، يعني التوبة عن الذنوب، وقدم إليهم الموعِد بما هو واقع في نفوسهم، وأحبّ إليهم من الأمور الآجلة، فمنّاهم الفوائد العاجلة، ترغيباً في الإيمان وبركاته، والطاعة ونتائجها، كما قال سبحانه للمسلمين: ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾[1]، فوعدهم بمحبوب الأنفس الذي يروْنه في العاجل عياناً ونقداً لا جزاءً ونسيئة. وقال تعالى في موضع آخر: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[2]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾[3] وقال تعالى: ﴿وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾[4].

الثواب والعقاب عند أهل الكتاب

وكلّ ما في التوراة من الوعد والوعيد فهو لمنافع الدّنيا ومضارّها، أما منافعها فمثل أنْ

(١) سورة الصف، الآية: ١٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٩٦.
(٣) سورة المائدة، الآية: ٦٦.
(٤) سورة الجن، الآية: ١٦.

يقول: إن أطعتم باركت فيكم، وكَثّرت من أولادكم وأطلْتُ أعماركم، وأوسعت أرزاقكم، واستبقيتُ اتّصال نسلكم، ونصرتُكم على أعدائكم، وإن عصيتم وخالفتم اختَرمْتُكم ونقصّتُ من آجالكم وشَتتُّ شملَكم، ورميْتكم بالجوع والمحْلِ، وأذللت أولادكم، وأشمتّ بكم أعداءكم، ونصرت عليكم خصومكم، وشرّدتكم في البلاد، وابتليتكم بالمرض والذلّ، ونحو ذلك.

ولم يأت في التوراةِ وعد ووعيد بأمرٍ يتعلّق بما بعد الموت. وأمّا المسيح عليه السلام، فإنّه صرح بالقيامة وبعث الأبدان، ولكن جعل العقاب روحانيًا، وكذلك الثواب، أما العقاب فالوحشة والفزع وتخيّل الظلمة وخبث النّفس وكدرها وخوف شديد، وأمّا الثواب فما زاد على أن قال: إنهم يكونون كالملائكة، وربما قال: يصعدون إلى ملكوت السماء، وربما قال أصحابه وعلماء مِلّته: الضوْء واللّذة والسرور والأمن من زوال اللذة الحاصلة لهم. هذا هو قول المحقّقين منهم، وقد أثبت بعضُهم ناراً حقيقيّة، لأن لفظة «النار» وردت في الإنجيل، فقال محققوهم: نار قلبيّة، أي نفسيّة روحانية، وقال الأقلّون: نار كهذه النار. ومنهم من أثبت عقاباً غير النار وهو بدنيّ، فقال: الرّعدة وصَرير الأسنان، فأمّا الجَنّة بمعنى الأكل والشرب والجماع، فإنه لم يقل منهم قائل به أصلاً، والإنجيل صرّح بانتقاء ذلك في القيامة تصريحاً لا يبقى بعده ريب لمرتاب، وجاء خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله فأثبت المعادَ على وجه محقّق كامل، أكمل ممّا ذَكره الأوّلان، فقال: إنّ البدن والنفس معاً مبعوثان، ولكلٍّ منهما حظ في الثواب والعقاب.

وقد شرح الرئيس أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا هذا الموضع في رسالة له في المعاد، تعرف «بالرسالة الأصحوية» شرحاً جيّداً، فقال: إنّ الشّريعة المحمّدية أثبتت في القيامة ردّ النّفس إلى البدن، وجعلت للمثاب والمعاقَب ثواباً وعقاباً بحسب البدن والنفس جميعاً، فكان للمثاب لذّات بدنيّة من حور عين وولدان مخلّدين وفاكهة مما يشتهون، وكأس لا يصدّعون عنها ولا ينزُفون، وجنّات تجري من تحتها الأنهار، من لبنٍ وعسل وخمر وماء زلال، وسرُرٍ وأرائك وخيام وقِباب، فَرْشُها من سُندس وإستبرق، وما جرى مجرى ذلك. ولذْات نفسانيّة من السرور ومشاهدة المَلَكوت والأمنِ من العذاب والعلم اليقينيّ بدوام ما همّ فيه، وأنّه لا يتعقبّه عدم ولا زَوال، والخلوّ عن الأحزان والمخاوف وللمعاقَب عقاب بدنيّ، وهو المقامع من الحديد، والسلاسل، والحريق والحميم والغِسْلين والصُّراخ والجلود الّتي كلّما نضِجت بدّلوا جلوداً غيرها، وعقاب نفسانيّ من اللعن والخِزْي والخجل والندم والخوف الدائم واليأسي من الفَرج، والعلم اليقيني بدوام الأحوال السيّئة التي هم عليها.

قال: فوفّت الشريعة الحكْمَة حقّها من الوعد الكامل، والوعيد الكامل، وبهما ينتظم الأمر، وتقوم المّلة، فأمّا النصارى وما ذهبوا إليه من أمر بعث الأبدان، ثم خلوّها في الدار الآخرة من المطعم والملبس والمشرب والمنكح، فهو أركُّ ما ذهب إليه أرباب الشرائع

وأسخفه، وذلك أنّه إن كان السبب في البعث، هو أنّ الإنسان هو البدن، أو أنّ البدن شريك النفس في الأعمال الحسنة والسيئة، فوجب أن يبعث، فهذا القول بعينه إن أوجب ذلك، فإنه يوجب أن يثاب البدن، ويعاقب بالثواب والعقاب البدنيّ المفهوم عند العالم، وإن كان الثواب والعقاب روحانياً، فما الغرض في بعث الجسد؟ ثم ما ذلك الثواب والعقاب الروحانيان! وكيف تصوّر العامة ذلك حتى يرغبوا ويرهبوا! كلاّ بل لم تصورّ لهم الشريعة النّصرانية من ذلك شيئاً، غير أنّهم يكونون في الآخرة كالملائكة، وهذا لا يفي بالتّرغيب التام، ولا ما ذكروه من العقاب الروحانيّ - وهو الظلمة وخبث النفس - كافٍ في الترهيب والذي جاءت به شريعة الإسلام حسن لا زيادة عليه.

انقضى كلام هذا الحكيم.

فأمّا كون الاستغفار سبباً لنزول القطر ودرور الرزق، فإنّ الآية بصريحها ناطقة به، لأنّها أمرٌ وجوابه، قال: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾[1]، كما تقول: قم أكرمْك، أي إن قمت أكرمتك. وعن عمر أنّه خرج يستسقي، فما زاد على الاستغفار، فقيل له: ما رأيناك استسقيت! فقال: لقد استسقيت بمجادِيح السماء التي يُستنزل بها المطر.

وعن الحسن أنّ رجلاً شكا إليه الجذب، فقال: استغفر الله، فشكا آخرُ إليه الفقر، وآخر قلّة النسل، وآخر قلّة ريْع أرضه، فأمرهم كلّهم بالاستغفار، فقال له الربيع بن صبيح: رجال أتوْك يشكون أبواباً، ويشكون أنواعاً فأمرتهم كلّهم بالاستغفار، فتلا له الآية.

قوله: «استقبل توبته» أي استأنفها وجدّدها. واستقال خطيئته: طلب الإقالة منها والرحمة. وبادر منيّته: سابق الموت قبل أن يدهمه.

قوله عليه السلام: «لا تُهلكْنا بالسنين» جمع: سَنَة، وهي الجذب والمحْل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾[2]، وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «اللّهمّ اجعلها عليهم سنين كسِني يوسف»[3]، والسّنة لفظ محذوف منه حرف، قيل إنه الهاء، وقيل الواو، فمن قال: المحذوف هاء، قال: أصله «سَنْهة» مثل جَبْهة؛ لأنهم قالوا: نخلة سَنْهاء، أي تحمل سَنَة ولا تحمل أخرى، وقال بعض الأنصار:

---

(١) سورة نوح، الآيتان: ١٠، ١١. (٢)سورة الأعراف، الآية: ١٣٠.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: يهوي بالتكبير حين يسجد (٨٠٤)، ومسلم، كتاب: المساجد ومواضع الصلاة، باب: استحباب القنوت في جميع الصلوات إذا نزلت بالمسلمين نازلة (٦٧٥).

فليست بسنهاء ولا رُجَّبيَّةٍ   ولكنْ عرايا في السنين الجوائح

ومن قال أصلها الواو، احتجّ بقولهم: أسنَى القومُ يُسنون إسناءً، إذا لبثوا في المواضع سَنَة، فأمّا التصغير فلا يدلّ على أحد المذهبين بعينه؛ لأنه يجوز سُنَيَّة وسُنَيْهة، والأكثر في جمعها بالواو والنون «سِنون» بكسر السين كما في هذه الخطبة، وبعضهم يقول: «سُنُون» بالضم.

والمضايق الوَعْرة، بالتسكين، ولا يجوز التحريك، وقد وَعُر هذا الشيء بالضم وُعورة، وكذلك توعّر، أي صار وَعْراً، واستوعرتُ الشيء: استصعبتَه.

وأجاءتنا: ألجأتنا، قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾(١).

والمقاحط المجدبة: السّنون الممحلة، جمع مَقْحَطة.

وتلاحمت: اتصلت.

والواجم: الذي قد اشتدّ حزنُه حتى أمسك عن الكلام، والماضي «وَجَم» بالفتح يجِم وُجُوماً.

قوله: «ولا تخاطبنا بذنوبنا، ولا تقايسنا بأعمالنا»، أي لا تجعل جوابَ دعاتنا لك ما تقتضيه ذنوبنا، كأنه يجعله كالمخاطِب لهم، والمجيب عمّا سألوه إياه، كما يفاوض الواحدُ منّا صاحبَه ويستعطفه، فقد يجيبه ويخاطبه بما يقتضيه ذنبُه إذا اشتدّت موجدته عليه ونحوه.

ولا تقايسنا بأعمالنا، قِسْتُ الشيء بالشيء إذا حذوتَه ومثّلته به، أي لا تَجعل ما تجيبنا به مقايساً ومماثلاً لأعمالنا السّيئة.

قوله: «سُقْيَا ناقعة» هي «فُعْلَى» مؤنثة غير مصروفة.

والحيا: المطر. وناقعة مروية: مسكّنة للعطش، نَقَع الماء العطش نَقْعاً ونُقوعاً سكّنه، وفي المثل: «الرّشْف أنقَع» أيْ أنَّ الشراب الذي يُرْشَف قليلاً قليلاً أنجع وأقطع للعطش، وإن كان فيه بطء. وكثيرة المجتنى، أي كثيرة الكلأ، والكلأ: الذي يجتنى ويرعى. والقِيعان: جمع قاعٍ، وهو الفَلاَة. والبُطنان: جمع بَطْن، وهو الغامض من الأرض، مثل ظَهْر وظُهْران وعَبْد وعُبدان.

---

١٤٤ - ومن خطبة له عليه السلام في بعثة الأنبياء

الأصل: بَعَثَ رُسُلَهُ بِمَا خَصَّهُمْ بِهِ مِنْ وَحْيِهِ، وَجَعَلَهُمْ حُجَّةً لَهُ عَلَى خَلْقِهِ، لِئَلاَّ تَجِبَ ٱلْحُجَّةُ لَهُمْ بِتَرْكِ ٱلإِعْذَارِ إِلَيْهِمْ، فَدَعَاهُمْ بِلِسَانِ الصِّدْقِ إِلَى سَبِيلِ ٱلْحَقِّ.

---

(١) سورة مريم، الآية: ٢٣.

أَلاَ إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى قَدْ كَشَفَ ٱلْخَلْقَ كَشْفَةً، لاَ أَنَّهُ جَهِلَ مَا أَخْفَوْهُ مِنْ مَصُونِ أَسْرَارِهِمْ وَمَكْنُونِ ضَمَائِرِهِمْ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَهُمْ: أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً، فَيَكُونَ ٱلثَّوَابُ جَزَاءً، وَٱلْعِقَابُ بَوَاءً.

أَيْنَ ٱلَّذِينَ زَعَمُوا أَنَّهُمْ الرَّاسِخونَ فِي ٱلْعِلْمِ دُونَنَا، كَذِباً وَبَغْياً عَلَيْنَا، أَنْ رَفَعَنَا ٱللهُ وَوَضَعَهُمْ، وَأَعْطَانَا وَحَرَمَهُمْ، وَأَدْخَلَنَا وَأَخْرَجَهُمْ، بِنَا يُسْتَعْطَى ٱلْهُدَى، وَيُسْتَجْلَى ٱلْعَمَى.

إِنَّ ٱلْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ، غُرِسُوا فِي هَذَا ٱلْبَطْنِ مِنْ هَاشِمٍ، لاَ تَصْلُحُ عَلَى سِوَاهُمْ، وَلاَ تَصْلُحُ ٱلْوُلاَةُ مِنْ غَيْرِهِمْ.

الشرح: أول الكلام مأخوذ من قوله سبحانه: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[2].

فإن قلت: فهذا يناقضُ مذهبَ المعتزلة في قولهم بالواجبات عقلاً، ولو لم تبعث الرسل!

قلت: صحّة مذهبهم تقتضي أن تُحمل عمومُ الألفاظ على أنّ المراد بها الخصوص، فيكون التأويل: لئلا يكون للناس على الله حجّة فيما لم يدلّ العقل على وجوبه ولا قبحه، كالشرعيّات، وكذلك: «وما كنا معذّبين حتى نبعث رسولاً» على ما لم يكن العقل دليلاً عليه حتى نبعثَ رسولاً.

الإعذار: تقديم العذر. ثم قال: إن الله تعالى كشف الخلْق بما تعبّدهم به من الشرعيّات على ألسنة الأنبياء، ولم يكن أمرُهم خافياً عنه، فيحتاج إلى أن يكشفَهم بذلك، ولكنّه أراد ابتلاءهم واختبارهم، ليعلم أيُّهم أحسن عملاً، فيعاقب المسيء، ويثيب المحسن.

فإن قلت: الإشكال قائم؛ لأنّه إذا كان يعلم أيُّهم يحسن، وأيُّهم يسيء فما فائدة الابتلاء؟ وهل هو إلا محض العبث!

قلت: فائدة الابتلاء إيصال نَفْع إلى زيد لم يكن ليصحّ إيصاله إليه إلا بواسطة هذا الابتلاء، وهو ما يقوله أصحابنا: إنّ الابتلاء بالثواب قبيح، والله تعالى يستحيل أن يفعل القبيح.

قوله: «وللعقاب بَوَاء» أي مكافأة، قالت ليلى الأخيليّة:

فإن تكنِ القتلى بَواءً فإنّكم فتًى ما قتلتم آلَ عوف بنَ عامر

وأبأت القاتل بالقتيل واستبأته أيضاً، إذا قتلته به، وقد باء الرجل بصاحبه، أي قُتل به وفي

(١) سورة النساء، الآية: ١٦٥.

(٢) سورة الإسراء، الآية: ١٥.

المثل: «باءت عَرَارٌ بكَحْلَ» وهما بقرتان، قتِلت إحداهما بالأخرى وقال مهلهل لبُجير لما قتل: «بُؤبشِسْعِ نعل كليب».

قوله عليه السلام «أين الذين زعموا»، هذا الكلام كناية وإشارة إلى قوم من الصحابة كانوا ينازعونه الفضل، فمنهم مَنْ كان يدّعي له أنه أفرَض، ومنهم من كان يدعي له أنه أقرأ، ومنهم كان يدّعي له أنه أعلم بالحلال والحرام. هذا مع تسليم هؤلاء له أنه عليه السلام أقضى الأمة، وأنّ القضاء يحتاج إلى كلّ هذه الفضائل، وكلْ واحدةٍ منها لا تحتاج إلى غيرها، فهو إذنْ أجمع للفقه وأكثرهم احتواء عليه، إلاّ أنّه عليه السلام لم يرض بذلك ولم يصدق الخبر الذي قيل: «أفرَضكم فلان» إلى آخره فقال: إنّه كذب وافتراء حمل قوماً على وضعه الحسدُ والبغي والمنافسة لهذا الحيّ مَن بني هاشم، أن رفعهم الله على غيرهم، واختّصهم دون مَنْ سواهم.

وأنْ هاهنا للتعليل، أي «لأنْ» فحذف اللام التي هي أداة التعليل على الحقيقة، قال سبحانه: ﴿لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾[1]: وقال بعض النحاة لبعض الفقهاء الزاعمين أن لا حاجة لِلفقه إلى النحو: ما تقول لرجل قال لزوجته: أنت طالق إن دخلت الدار؟ فقال: لا يقع إلاّ بالدخول، فقال: فإن فتح الهمزة؟ قال: كذلك، فعرّفه أنّ العربيّة نافعة في الفقه، وأنّ الطلاق منجّز لا معلّق، إن كان مرادُه تعليل الطلاق بوقوع الدخول لاشتراطه به.

ثم قال: «بنا يُستعطى الهُدَى، أي يطلب أن يعطَى، وكذلك «يستجلى» أي يطلَبُ جِلاؤه.

ثم قال: إنّ الأئمة من قريش... إلى آخر الفصل.

هل يتوجب أن يكون الأئمة من قريش؟

وقد اختلف الناس في اشتراط النسب في الإمامة، فقال قوم من قدماء أصحابنا: إنْ النسب ليس بشرط فيها أصلاً، وإنها تصلح في القرشيّ وغير القرشيّ إذا كان فاضلاً مستجمعاً للشرائط المعتبرة، واجتمعت الكلمة عليه، وهو قول الخوارج.

وقال أكثرُ أصحابنا وأكثرُ الناس: إنّ النسب شرط فيها، وأنها لا تصلح إلا في العرب خاصّة، ومن العرب في قريش خاصة. وقال أكثرُ أصحابنا: معنى قول النبي صلى الله عليه وآله: «الأئمة من قريش»[2] إنّ القرشيّة شرط إذا وُجِد في قريش من يصلح للإمامة، فإن لم يكن فيها مَنْ يصلح، فلبست القرشية شرطاً فيها.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٨٠.

(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١١٨٩٨)، والحاكم في «المستدرك» (٦٩٦٢)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ١٢١)، والنسائي في «السنن الكبرى» (٥٩٤٢)، والطبراني في «الأوسط» (٣٥٢١).

وقال بعضُ أصحابنا: معنى الخَبر أنه لا تخلُو قريش أبداً ممنّ يصلح للإمامة، فأوجبوا بهذا الخبر وجود مَنْ يصلُح من قريش لها في كلّ عصر وزمان.

وقال معظم الزّيدية: إنها في الفاطميّين خاصة من الطالبيّين، لا تصلُح في غير البطنَيْن، ولا تَصحّ إلاّ بشروط أن يقومَ بها ويدعو إليها فاضل زاهد عالم عادل شجاع سائس. وبعض الزيديّة يجيز الإمامة في غير الفاطميّين من ولد عليّ عليه السلام، وهو من أقوالهم الشاذّة.

وأما الراونديّة فإنّهم خَصّصُوها بالعبّاس رحمه الله وولده من بين بطون قريش كلها، وهذا القول هو الّذِي ظهر في أيام المنصور والمهديّ، وأما الإمامية فإنهم جعلوها ساريةً في ولد الحسين عليه السلام في أشخاص مخصوصين، ولا تصلح عندهم لغيرهم. وجعلها الكيّسانية في محمد بن الحنفيّة وولده، ومنهم مَنْ نقلها منه إلى ولد غيره.

فإن قلت: إنك شرحت هذا الكتاب على قواعد المعتزلة وأصولهم، فما قولك في هذا الكلام وهو تصريح بأنّ الإمامة لا تصلح من قريش إلا في بني هاشم خاصّة، وليس ذلك بمذهب للمعتزلة، لا متقدّميهم ولا متأخّريهم!

قلت: هذا الموضع مشكل، ولي فيه نظر، وإن صحّ أن علياً عليه السلام قاله، قلتُ كما قال؛ لأنه ثبت عندي أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنه مع الحق، وإنّ الحق يدور معه حيثما دار»[1]، ويمكن أن يتأوّل ويطبّق على مذهب المعتزلة، فيحمل على أن المراد به كمالُ الإمامة كما حمِل قوله صلى الله عليه وسلم: «لا صلاة لجارِ المسجد إلا في المسجد»[2]، على نفي الكمال، لا على نفي الصّحة.

الأصل: منها: آثَرُوا عَاجِلاً، وَأَخَّرُوا آجِلاً، وَتَرَكُوا صَافِياً، وَشَرِبُوا آجِناً، كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى فَاسِقِهِمْ وَقَدْ صَحِبَ الْمُنْكَرَ فَأَلِفَهُ، وَبَسِيءَ بِهِ وَوَافَقَهُ، حَتَّى شَابَتْ عَلَيْهِ مَفَارِقُهُ، وَصُبِغَتْ بِهِ خَلاَئِقُهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ مُزْبِداً كَالتَّيَّارِ لاَ يُبَالِي مَا غَرَّقَ، أَوْ كَوَقْعِ النَّارِ فِي الْهَشِيمِ لاَ يَحْفِلُ مَا حَرَّقَ.

أَيْنَ الْعُقُولُ الْمُسْتَصْبِحَةُ بِمَصَابِيحِ الْهُدَى، وَالأَبْصَارُ اللاَّمِحَةُ إِلَى مَنَازِلِ التَّقْوَى! أَيْنَ الْقُلُوبُ الَّتِي وُهِبَتْ للهِ، وَعُوقِدَتْ عَلَى طَاعَةِ اللهِ! ازْدَحَمُوا عَلَى الْحُطَامِ، وَتَشَاحُّوا عَلَى

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٣٨/ ٤٠، وأخرجه المولى حيدر في المناقب: ٤١٠.

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٩٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٣/ ٥٧)، والربيع في «مسنده» (٢٥٦)، وعبد الرزاق في «المصنف» (١٩١٥).

ٱلْحَرَامِ، وَرُفِعَ لَهُمْ عَلَمُ ٱلْجَنَّةِ وَالنَّارِ، فَصَرَفُوا عَنِ ٱلْجَنَّةِ وُجُوهَهُمْ، وَأَقْبَلُوا إِلَى النَّارِ بِأَعْمَالِهِمْ، وَدَعَاهُمْ رَبُّهُمْ فَنَفَرُوا وَوَلَّوْا، وَدَعَاهُمُ الشَّيْطَانُ فَاسْتَجَابُوا وَأَقْبَلُوا!

الشرح: آثروا: اختاروا. وأخّروا: تركوا الآجن: الماء المتغيّر. أجَن الماء يأجُن ويأجِن.

وبَسِيء به: ألفه، وناقة بَسُوء: أَلِفت الحالب ولا تمنعه. وشابت عليه مفارقه: طال عهده به مُذ زَمن الصّبا حتى صار شيخاً. وصبِغت به خلائقه ما صارت طبعاً لأنّ العادة طبيعة ثانية.

مُزبداً، أي ذو زَبَدٍ، وهو ما يخرج من الفم كالرّغوة، يضرب مثلاً للرجل الصائل المقتحم.

والتيّار: معظم اللجّة، والمراد به هاهنا السّيل. والهشيم: دقاق الحطَب.

ولا يحفَل، بفتح حرف المضارعة؛ لأن الماضي ثلاثي، أي لا يبالي.

والأبصار اللامحة: الناظرة. وتشاحُّوا: تضايقوا، كلٌّ منهم يريد ألاّ يفوته ذلك، وأصله الشحّ وهو البخل.

فإن قلت: هذا الكلام يرجع إلى الصحابة الذين تقدّم ذكرهم في أوّل الخطبة!

قلت: لا، وإن زعم قوم أنّه عناهم، بل هو إشارة إلى قوم ممّن يأتي من الخلَف بعد السلَف، ألا تراه قال: كأنّي أنظرُ إلى فاسقهم قد صحب المنكر فألفه، وهذا اللفظ إنما يقال في حقّ من لم يوجَد بعد، كما قال في حقّ الأتراك: «كأنّي أنظُر إليهم قوماً كأنّ وجوهَهم المجانّ»[1]، وكما قال في حقّ صاحب الزنج: «كأنّي به يا أحنف قد سار في الجيش»[2]، وكما قال في الخطبة التي ذكرناها آنفاً: «كأني به قد نَعَق بالشام» يعني به عبد الملك. وحوشي عليه السلام أن يعني بهذا الكلام الصحابة؛ لأنهم ما آثروا العاجل، ولا أخّروا الآجل، ولا صحبوا المنكر، ولا أقبلوا كالتيّار، لا يبالي ما غرّق، ولا كالنار لا تبالي ما أحرقَتْ، ولا ازدحموا على الحُطام، ولا تشاحُّوا[3] عَلَى الحرام، ولا صَرَفوا عن الجنّة وجوههم، ولا أقبلوا إلى النار بأعمالهم، ولا دعاهم الرحمن فولّوا، ولا دعاهم الشيطان فاستجابوا. وقد علم كلّ أحدٍ حُسْنَ سيرتهم، وسَدَاد طريقتهم وإعراضَهم عن الدنيا وقد ملوكها، وزهدَهم فيها وقد تمكّنوا منها، ولولا قوله: «كأنّي أنظر إلى فاسقهم» لم أبعد أن يعنيَ بذلك قوماً ممّن عليه اسم

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه: ٨/ ١٨٤. وأخرجه الترمذي في سننه رقم: ٢٣١٢.

(٢) أخرجه الطبرسي في تفسير مجمع البيان: ٥/ ٣٥٣.

(٣) الشح: البخل، وتشاحوا على الأمر: شح بعضهم على بعض حذر فوته. القاموس، مادة (شحح).

الصحابة وهو رديء الطريقة، كالمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص، ومَرْوان بن الحكم، ومعاوية، وجماعة معدودة أحبُّوا الدنيا واستغواهُم الشَّيطان، وهم معدودون في كتب أصحابنا ومن اشتغل بعلوم السيرة والتواريخ عرفهم بأعيانهم.

١٤٥ - ومن خطبة له عليه السلام في شؤون الدنيا والناس

الأصل: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنْتُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا غَرَضٌ تَنْتَضِلُ فِيهِ الْمَنَايَا، مَعَ كُلِّ جَرْعَةٍ شَرَقٌ، وَفِي كُلِّ أَكْلَةٍ غَصَصٌ، لاَ تَنَالُونَ مِنْهَا نِعْمَةً إِلاَّ بِفِرَاقِ أُخْرَى، وَلاَ يُعَمَّرُ مُعَمَّرٌ مِنْكُمْ يَوْماً مِنْ عُمُرِهِ إِلا بِهَدْمِ آخَرَ مِنْ أَجَلِهِ، وَلاَ تُجَدَّدُ لَهُ زِيَادَةٌ فِي أَكْلِهِ، إِلاَّ بِنَفَادِ مَا قَبْلَهَا مِنْ رِزْقِهِ، وَلاَ يَحْيَا لَهُ أَثَرٌ، إِلاَّ مَاتَ لَهُ أَثَرٌ، وَلاَ يَتَجَدَّدُ لَهُ جَدِيدٌ، إِلاَّ بَعْدَ أَنْ يَخْلَقَ لَهُ جَدِيدٌ، وَلاَ تَقُومُ لَهُ نَابِتَةٌ، إِلاَّ وَتَسْقُطُ مِنْهُ مَحْصُودَةٌ وَقَدْ مَضَتْ أُصُولٌ نَحْنُ فُرُوعُهَا، فَمَا بَقَاءُ فَرْعٍ بَعْدَ ذَهَابِ أَصْله!

الشرح: الغَرَض: ما ينصَب ليُرمَى، وهو الهدف وتنتضِل فيه المنايا: تترامى فيه للسَّبْق، ومنه الانتضال بالكَلاَم وبالشعْر، كأنه يجعل المنايا أشخاصاً تتناضل بالسهام، من الناس مَنْ يموت قتلاً، ومنهم مَنْ يموت غرقاً، أو يتردى في بئرٍ، أو تَسقط عليه حائط، أو يموت على فراشه.

ثم قال: «مع كل جَرْعة شَرَق، وفي كلّ أكلة غَصص»: بفتح الغين، مصدر قولك: غَصِصْتَ يا فلان بالطعام، وروي: «غُصَص» جمع غُصّة، وهي الشجا، وهذا مثل قول بعضهم: المنحة فيها مقرونة بالمحنة، والنعمة مشفوعة بالنقمة. وقد بالغَ بعض الشعراء في الشكوى، فأتى بهذه الألفاظ، لكنه أسرف، فقال:

حَظِّي من العيشِ أكْلٌ كلُّه غَصَصٌ ... مرّ المذاق، وشربٌ كلّه شَرَقُ

ومراد أمير المؤمنين عليه السلام بكلامه أنّ نعيم الدنيا لا يدوم، فإذا أحسنتْ أساءت، وإذا أنعمت أنقمت.

ثم قال: «لا ينالون منها نعمة إلا بفراق أخرى»، هذا معنى لطيف، وذلك أنّ الإنسان لا يتهيّأ له أن يجمع بين الملاذّ الجسمانية كلّها في وقت، فحال ما يكون آكلاً لا يكون مجامعاً، وحال ما يشرب لا يأكل، وحال ما يركب للقَنَص والرّياضة، لا يكون جالساً على فراش وثير ممهد، وعلى هذا القياس لا يأخذ في ضَرْب من ضُروب الملاذّ إلاّ وهو تارك لغيره منها.

ثم قال: «ولا يعمّر معمّر منكم يوماً من عمره إلا بهدم آخر من أجله»، وهذا أيضاً لطيف؛ لأنّ المسرور ببقائه إلى يوم الأحد لم يصل إليه إلا بعد أن قضى يوم السبت وقَطَعه، ويوم السبت من أيام عمره، فإذاً قد هدم من عمره يوماً، فيكون قد قرب إلى الموت؛ لأنه قد قطع من المسافة جزءاً.

ثم قال: «ولا تجدّد له زيادة في أكله إلا بنفاذ ما قبلها من رزقه»، وهذا صحيح فإنّ فسّرنا الرزق بما وصل إلى البطن على أحد تفسيرات المتكلمين، فإن الإنسان لا يأكل لقمة إلا وقد فرغ من اللقمة التي قبلها، فهو إذاً لا يتجدد له زيادة في أكله إلا بنفاذ ما قبلها من رزقه.

ثم قال: «ولا يحيا له أثر، إلا مات له أثر»، وذلك أنّ الإنسان في الأعمّ الأغلب لا ينتشر صيتُه ويشيع فضُله إلا عند الشيخوخة، وكذلك لا تعرف أولاده ويصير لهم اسم في الدنيا إلا بعد كبره وعلو سنه، فإذاً ما حيي له أثر إلا بعد أن مات له أثر، وهو قوّته ونشاطه وشبيبته، ومثله قوله: «ولا يتجدّد له جديد، إلا بعد أن يخلَق له جديد».

ثم قال: «ولا تقوم له نابتة إلاّ وتسقط منه محصودة»، هذه إشارة إلى ذهاب الآباء عند حدوث أبنائهم في الأعمّ الأغلب، ولهذا قال: «وقد مضت أصولٌ نحن فروعها فما بقاء فرع بعد ذهاب أصله»، وقد نظر الشعراء إلى هذا المعنى، فقالوا فيه وأكثروا، نحو قول الشاعر:

فإنْ أنتَ لم تصدُقْكَ نفسك فانتسبْ … لَعلَّك تهديكَ القُرون الأوائلُ
فإنْ لم تجِدْ من دونِ عَدْنَانَ والداً … ودون مَعدٍّ فَلْتَزَعْكَ العواذِلُ[1]

وقال الشاعر:

فعدّدت آبائي إلى عِرْق الثّرى … فدعوتهم فعلمت أن لم يسمعوا
لابدّ من تلفٍ مصيب فانتظرْ … أبِأرضِ قومِك أم بأخرى تُصرَعُ!

وقد صرّح أبو العتاهية بالمعنى، فقال:

كلّ حياة إلى مماتٍ … وكلّ ذي جِدّةٍ يحولُ
كيف بقاء الفروع يوماً … وقد ذَوَتْ قبلَها الأصولُ!

الأصل: منها: وَمَا أُحْدِثَتْ بدعَةٌ إلاَّ تُرِكَ بِهَا سُنَّةٌ، فَاتَّقُوا اَلْبِدَعَ، وَاَلْزَمُوااَلْمَهْيَعَ. إِنَّ عَوَازِمَ الأُمُورِ أَفْضَلُهَا، وَإِنَّ مُحْدَثَاتِهَا شِرَارُهَا.

---

(١) زعا: عدل وأنصف. اللسان، مادة (زعور).

الشرح: البِدْعة: كل ما أحدِث مما لم يكنْ على عهد رسول الله ﷺ، فمنها الحَسن كصلاة التراويح، ومنها القبيح كالمنكرات التي ظهرت في أواخر الخلافة العثمانية، وإن كانت قد تُكُلّفت الأعذار عنها.

ومعنى قوله عليه السلام: «ما أحدِثَتْ بدعة إلا تُرِكَ بها سنّة»، أنّ من السنَّة ألاّ تحدث البدعة، فوجود البدعة عدمٌ للسنّة لا محالة.

والمهيَع: الطريق الواضح، من قولهم: أرض هيعة، أي مبسوطة واسعة، والميم مفتوحة وهي زائدة:

وعوازم الأمور: ما تقادم منها، من قولهم: عجوزٌ عوْزم أي مسنّة، قال الراجز:

لقد غدوتُ خلَقَ الثيابِ ... أحمِلُ عِدْلين من التّرابِ

لِعَوْزَمٍ وصِبْيَةٍ سِغابِ ... فآكلٌ ولا حَسّ وآبي

ويجمع «فوعل» على فواعل، كدورق، وهَوْ جل، ويجوز أن يكون «عوازم» جمع عازمة، ويكون فاعل بمعنى مفعول، أي معزوم عليها، أي مقطوع معلوم بيقين صحتها، ومجيء «فاعلة» بمعنى «مفعولة» كثيرة، كقولهم: عيشة راضية بمعنى مرضيّة، والأوّل أظهر عندي؛ لأنّ في مقابلته قوله: «وإن محدَثاتها شرارها»، والمحدَث في مقابلة القديم.

---

١٤٦ - ومن كلام له عليه السلام

وقد استشاره عمر في الشخوص لقتال الفرس بنفسه

الأصل: إِنَّ هَذَا ٱلأَمْرَ لَمْ يَكُنْ نَصْرُهُ وَلاَ خُذْلاَنُهُ بِكَثْرَةٍ وَلاَ بِقِلَّةٍ، وَهُوَ دِينُ ٱللهِ ٱلَّذِي أَظْهَرَهُ، وَجُنْدُهُ ٱلَّذِي أَعَدَّهُ وَأَمَدَّهُ، حَتَّى بَلَغَ مَا بَلَغَ، وَطَلَعَ حَيْثُما طَلَعَ، وَنَحْنُ عَلَى مَوْعُودٍ مِنَ ٱللهِ، وَٱللهُ مُنْجِزٌ وَعْدَهُ، وَنَاصِرٌ جُنْدَهُ، وَمَكَانُ ٱلْقَيِّمِ بِالأَمْرِ مَكَانُ ٱلنِّظَامِ مِنَ ٱلْخَرَزِ، يَجْمَعُهُ وَيَضُمُّهُ، فَإِنِ ٱنْقَطَعَ ٱلنِّظَامُ تَفَرَّقَ وَذَهَبَ، ثُمَّ لَمْ يَجْتَمِعْ بِحَذَافِيرِهِ أَبَداً.

وَٱلْعَرَبُ ٱلْيَوْمَ وَإِنْ كَانُوا قَلِيلاً فَهُمْ كَثِيرُونَ بِالإِسْلاَمِ، عَزِيزُونَ بِالاجْتِمَاعِ، فَكُنْ قُطْباً وَٱسْتَدِرِ ٱلرَّحَى بِالْعَرَبِ، وَأَصْلِهِمْ دُونَكَ نَارَ ٱلْحَرْبِ، فَإِنَّكَ إِنْ شَخَصْتَ مِنْ هَذِهِ ٱلأَرْضِ ٱنْتَقَضَتْ عَلَيْكَ ٱلْعَرَبُ مِنْ أَطْرَافِهَا وَأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ مَا تَدَعُ وَرَاءَكَ مِنَ ٱلْعَوْرَاتِ أَهَمَّ إِلَيْكَ مِمَّا بَيْنَ يَدَيْكَ.

إِنَّ الأَعَاجِمَ إِنْ يَنْظُرُوا إِلَيْكَ غَداً يَقُولُوا: هَذَا أَصْلُ ٱلْعَرَبِ، فَإِذَا ٱقْتَطَعْتُمُوهُ ٱسْتَرَحْتُمْ، فَيَكُونُ ذَلِكَ أَشَدَّ لِكَلَبِهِمْ عَلَيْكَ وَطَمَعِهِمْ فِيكَ.

فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ مَسِيرِ ٱلْقَوْمِ إِلَى قِتَالِ ٱلْمُسْلِمِينَ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ، وَهُوَ أَقْدَرُ عَلَى تَغْيِيرِ مَا يَكْرَهُ، وَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ عَدَدِهِمْ، فَإِنَّا لَمْ نَكُنْ نُقَاتِلُ فِيمَا مَضَى بِالْكَثْرَةِ، وَإِنَّمَا كُنَّا نُقَاتِلُ بِالنَّصْرِ وَٱلْمَعُونَةِ.

الشرح: نظام العِقْد: الخيط الجامع له، وتقول: أخذته كلّه بحذافيره، أي بأصله، وأصل الحذافير أعالي الشيء ونواحيه، الواحد حِذْفار.

وأصْلِهم نار الحرب: أجعلهم صالين لها، يقال: صليتُ اللحم وغيره أصْليه صَلْياً، مثل رميته أرميه رَمْياً، إذا شويته، وفي الحديث أنه ﷺ أُتِيَ بشاة مَصْليّة[1]، أي مشوّية. ويقال أيضاً: صليت الرجل نَاراً إذا أدخلتَه النار وجعلته يصلاّها، فإن ألقيتَه فيها إلقاء كأنّك تريد الإحراق قلتَ: أصليتُه بالألف، وصلّيته تصلية، وقرىء ﴿وَيَصَلَّىٰ سَعِيرًا﴾[2] ومن خفّف فهو من قولهم: صَلِيَ فلان بالنار - بالكسر - يَصْلَى صِلِيًّا احترق، قال الله تعالى: ﴿هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾[3] ويقال أيضاً: صَلِيَ فلانٌ بالأمر، إذا قاسى حَرّه وشدَّته، قال الطُّهَوِيّ:

وَلاَ تَبْلَى بَسَالَتُهم وإنْ هُمْ صَلُوا بالحرب حيناً بعد حينِ

وعلى هذا الوجه يحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام وهو مجاز من الإحراق، والشيء الموضوع لَهَا هذا اللفظ حقيقة.

والعورات: الأحوال التي يخاف انتقاضها في ثَغْر أو حرب، قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾[4]. وٱلكَلَب: الشرّ والأذى.

وقعة القادسية

واعلم أنّ هذا الكلام قد اختلف في الحال التي قاله فيها لعمر، فقيل: قاله له في غَزَاة القادسيّة، وقيل في غَزَاة نهاوَنْد. وإلى هذا القول الأخير ذهب محمد بن جرير الطبريّ في «التاريخ الكبير». وإلى القول الأول ذهب المدائنيّ في كتاب «الفتوح»، ونحن نشير إلى ما جرى في هاتين الوقعتيْن إشارة خفيفةً على مذهبنا في ذكر السِّيَر والأيام.

فأما وقعة القادسيّة فكانت في سنة أربعَ عشرة للهجْرة، استشار عمر المسلمين في أمر

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الصوم، باب: ما جاء في كراهية يوم الشك (٦٨٦)، والنسائي، كتاب: الصيام، باب: صيام يوم الشك (٢١٨٨).
(٢) سورة الإنشقاق، الآية: ١٢.
(٣) سورة مريم، الآية: ٧٠.
(٤) سورة الأحزاب، الآية: ١٣.

القادسيّة، فأشار عليه عليّ بن أبي طالب - في رواية أبي الحسن عليّ بن محمد بن سيف المدائنيّ - ألاّ يخرج بنفسه، وقال: إنّك إن تخرُجْ لا يكنْ للعجم هِمّةٌ إلا استئصالك، لعلمهم أنّك قطبُ رحا العرب، فلا يكون للإسلام بعدها دوْلة. وأشار عليه غيره من الناس أن يخرُج بنفسه، فأخذ برأي عليّ عليه السلام.

وروى غيرُ المدائنيّ أن هذا الرأي أشارَ به عبد الرحمن بن عوف، قال أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ: لما بدا لعمر في المقام بعد أنْ كان عزم على الشخوص بنفسه، أمّر سعد بن أبي وقّاص على المسلمين، وبعث يَزْدَجِرْد رستمَ الأرمنيّ أميراً على الفرس، فأرسل سعدٌ النّعمانَ بن مقرّن رسولاً إلى يزدَجِرد، فدخل عليه، وكلّمه بكلام غليظ، فقال يَزْدَجِرد: لولا أنّ الرُّسل لا تقتَل لقتلتُك، ثم حَمّله وَقراً من تراب على رأسه، وساقه حتى أخرجه من باب من أبواب المدائن، وقال: ارجع إلى صاحبك، فقد كتبتُ إلى رستم أن يَدفنه وجنده من العرب في خندَق القادسيّة، ثم لأشغلنّ العرب بعدها بأنفسهم، ولأصيبنّهم بأشدّ مما أصابهم به سابور ذو الأكتاف. فرجع النّعمان إلى سعد فأخبره، فقال: لا تخفْ، فإن الله قد ملّكنا أرضَهم تفاؤلاً بالتراب.

قال أبو جعفر: وتثبّط رستم عن القتال وكرهه، وآثر المسالمة، واستعجله يزدَجِرْد مراراً، واستحثه على الحرب، وهو يدافع بها، ويرى المطاولة. وكان عسكره مائةً وعشرين ألفاً وكان عسكر سعد بضعاً وثلاثين ألفاً، وأقام رستمُ بريداً من الرجال، الواحد منهم إلى جانب الآخر، من القادسيّة إلى المدائن، كلّما تكلّم رستم كلمة أدّاها بعضُهم إلى بعض، حتى تصل إلى سمع يزدَجِرْد في وقتها، وشهد وقعة القادسيَّة مع المسلمين طُلَيحة بن خويلد، وعمرو بن معديكرب والشمّاخ بن ضرار، وعَبَدة بن الطبيب الشاعر، وأوْس بن معن الشّاعر، وقاموا في النّاس يُنشدونهم الشّعر ويُحرّضونهم، وقرن أهلُ فارس أنفسهم بالسّلاسل لئلا يهربوا، فكان المقرّنون منهم نحو ثلاثين ألفاً، والتحم الفريقان في اليوم الأوّل، فحملت الفِيَلة التي مع رستم على الخيل فطحنتها، وثبت لها جمع من الرّجالة، وكانت ثلاثة وثلاثين فيلاً، منها فيل الملك، وكان أبيضَ عظيماً، فضربت الرجال خراطيم الفيَلة بالسيوف فقطعتها، وارتفع عُواؤها، وأصيبَ في هذا اليوم - وهو اليوم الأول - خمسمائة من المسلمين، وألفان من الفرس. ووصل في الثاني أبو عبيدة بن الجراح من الشّام في عساكر من المسلمين، فكان مدداً لسعد، وكان هذا اليوم على الفرس أشدّ من اليوم الأوّل، قتل من المسلمين ألفان، ومن المشركين عشرة آلاف. وأصبحوا [illegible] اليوم الثالث على القتال، وكان عظيماً على العرب والعجم معاً، وصبر الفريقان، وقامت [illegible] اليوم، وتلك الليلة جمعاء لا ينطِقُون، كلامُهم الهرير[1]، فسمّيت ليلة الهرير.

---

(١) هرير الكلب: صوته و[illegible] صبره على البرد. اللسان، مادة (هرر).

وانقطعت الأخبار والأصوات عن سعد ورستم، وانقطع سعد إلى الصلاة والدّعاء والبكاء، وأصبح الناس حَسْرَى لم يغمضوا ليلتّهم كلّها، والحرب قائمة بعد إلى وقت الظهر، فأرسل الله تعالى ريحاً عاصفاً في اليوم الرابع، أمالت الغبار والنَّقْع على العجم، فانكسروا، ووصلت العرب إلى سرير رستم، وقد قام عنه ليركب جملاً، وعلى رأسه العلم، فضرب هلال بن علقمة الحِمْل الذي رُستم فوقه، فقطع حباله، ووقع على هلال أحد العدلين، فأزال فَقَار ظهره، ومضى رستَم نحو العقيق، فرمى نفسه فيه، واقتحم هلال عليه، فأخذ برجله، وخرج به يجرّه حتى ألقاه تحت أرجُل الخيل، وقد قتله وصعد السرير، فنادى: أنا هلال، أنا قاتل رستَم، فانهزمت الفرس، وتهافتوا في العقيق، فقتِل منهم نحو ثلاثين ألفاً، ونهبت أموالُهم وأسلابهم، وكانت عظيمة جدًّا، وأخذتِ العربُ منهم كافوراً كثيراً، فلم يعبثوا به؛ لأنهم لم يعرفوه، وباعوه من قوم بملْح، كيلاً بكيل، وسرُّوا بذلك وقالوا: أخذنا منهم ملحاً طيّباً، ودفعنا إليهم ملحاً غير طيّب، وأصابوا من الجامات من الذهب والفضة ما لا يقع عليه العدّ لكثرته، فكان الرجل منهم يعرِض جامَيْن من ذهب على صاحبه، ليأخذ سنه جاماً واحداً سن فضة يعجبه بياضها ويقول: من يأخذ صَفراوَيْن ببيضاء!

وبعث سعد بالأنفال والغنائم إلى عمر، فكتب إلى سعد: لا تتبع الفُرْس، وقِف مكانك واتّخذه منزلاً. فنزل موضعَ الكوفة اليوم واختطّ مسجدَها، وبنى فيها الخطَط للعرب.

فأمّا وقعة نَهاوند، فإنّ أبا جعفر محمد بن جرير الطبريّ ذكر في كتاب التاريخ، أنّ عمر لما أراد أن يغزوَ العجم وجيوش كسرى وهي مجتمعة بنهاوند، استشار الصحابة، فقام عثمان فتشهّد، فقال: أرى يا أميرَ المؤمنين أن تكتب إلى أهل الشام فيسيروا من شامهم، وتكتبَ إلى أهل اليمن فيسيروا من يمَنهم، ثم تسير أنت بأهل هذين الحرَمَيْن إلى المصريْن: البصرة والكوفة، فتلقَى جمعَ المشركين بجمع المسلمين، فإنك إذا سرتَ بمن معك ومَنْ عندك، قلّ في نفسك ما تكاثر من عدد القوم، وكنتَ أعزّ عزًّا وأكثر، إنك لا تستبقِي من نفسك بعد اليوم باقية، ولا تمتّعُ من الدنيا بعزيز، ولا تكون منها في حرز حريز. إنّ هذا اليوم له ما بعده، فاشهد بنفسِك ورأيك وأعوانك، ولا تغِبْ عنه.

قال أبو جعفر: وقام طلحة، فقال: أمّا بعد يا أمير المؤمنين، فقد أحكمتْك الأمور، وعجمتْك البلايا، وحنّكتك التجارب، وأنت وشأنك، وأنت ورأيك، لا ننبو في يديك، ولا نَكلُ أمرَنا إلا إليك، فأمرْنا نُجِبْ، وادعنا نُطِعْ، واحملنا نركبْ، وقُدْنا ننقَدْ، فإنك وليّ هذا الأمر، وقد بلوْتَ وجرّبت واختبرت، فلم ينكشفْ شيء من عواقب الأمور لك إلا عن خيار.

فقال عليّ بن أبي طالب عليه السلام: أمّا بعد، فإنّ هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرةٍ

ولا قلّة، إنما هو دين الله الذي أظهره، وجنده الذي أعزّه وأمدّه بالملائكة، حتى بلغ ما بلغ، فنحن على موعودٍ من الله، والله منجزٌ وعدَه، وناصر جنده، وإنّ مكانك منهم مكانُ النظام من الخرَز، يجمعه ويمسكه، فإن انحلّ تفرّق ما فيه وذهب، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً، والعرب اليوم وإن كانوا قليلاً فإنهم كثير عزيز بالإسلام، أقم مكانك واكتب إلى أهل الكوفة، فإنهم أعلامُ العرب ورؤساؤهم، وليشخص منهم الثلثان، وليقم الثلث، واكتُبْ إلى أهل البصرة أن يمدُّوهم ببعض مَنْ عندهم، ولا تُشخص الشام ولا اليمن، إنّك إن أشخصت أهل الشام مِنْ شامهم، سارت الروم إلى ذراريّهم، وإنْ أشخَصت أهلَ اليمن من يمنِهم سارت الحبشة إلى ذراريّهم، ومتى شخصتَ من هذه الأرض انقضتْ عليك العرب من أقطارها وأطرافها، حتى يكون ما تدع وراءك أهمّ إليك مما بين يديك من العَوْرات والعيالات. إنّ الأعاجم إن ينظروا إليك غداً قالوا: هذا أميرُ العرب وأصلهم، فكان ذلك أشدَّ لكلَبهم عليك. وأمّا ما ذكرتَ من مسير القوم، فإنّ الله هو أكرهُ لسيرهم منك، وهو أقدر على تغيير ما يكره، وأمّا ما ذكرت من عددهم فإنّا لم نكن نقاتل فيما مضى بالكثرة، وإنما كُنّا نقاتل بالصبر والنصر.

فقال عمر: أجلْ! هذا الرأي، وقد كنت أحبّ أن أتابع عليه، فأشيروا عليّ برجل أولّيه ذلك الثَّغر. قالوا: أنت أفضل رأياً، فقال: أشيروا عليّ به، واجعلوه عراقيًّا قالوا: أنت أعلم بأهلِ العراق، وقد وَفَدُوا عليك، فرأيتَهم وكلّمتهم. قال: أما والله لأولّينّ أمرَهم رجلاً يكون عمّداً لأوّل الأسِنّة، قيل: ومن هو يا أمير المؤمنين؟ قال: النعمان بن مقرّن، قالوا: هو لها.

وكان النّعمان يومئذٍ بالبصرة، فكتب إليه عمر، فولاّه أمرَ الجيش.

قال أبو جعفر: كتب إليه عمر: سِرْ إلى نهاوَنْد، فقد وليّتُك حربَ الفيروزان - وكان المقدّم على جيوش كسرى - فإن حَدَث بك حدَثٌ فعلى الناس حُذيفة بن اليمان، فإن حدث به حدث فعَلى الناس نعيم بن مقرّن، فإن فتح الله عليكم فاقِسمْ على الناس ما أفاء الله عليهم، ولا ترفع إليّ منه شيئاً، وإن نكث القوم فلا تراني ولا أراك، وقد جعلتُ معك طُلَيحة بن خويلد، وعَمرو بن معديكرب، لعلمهما بالحرب، فاستشرهما ولا تولّهما شيئاً.

قال أبو جعفر: فسارَ النّعمان بالعرب حتى وافى نَهاوند، وذلك في السنّة السابعة من خلافة عمر، وتراءى الجمعان، ونشب القتال، وحَجَزهم المسلمون في خنادقهم، واعتصموا بالحصون والمدُن، وشقّ على المسلمين ذلك، فأشار طليحة عليه، فقال: أرى أنْ تبعث خيلاً ببعض القوم وتحمّشهم(١)، فإذا استحمشوا خرج بعضهم، واختلطوا بكم فاستطرِدوا لهم، فإنّهم يطمعون بذلك، ثم تعطف عليهم حتى يَقْضِيَ الله بيننا وبينهم بما يحبّ.

(١) تحمشهم: تغضبهم. اللسان، مادة (حمش).

فقعل النعمان ذلك، فكان كما ظنّ طليحة، وانقطع العجم عن حصونهم بعض الانقطاع، فلما أمعنوا في الانكشاف للمسلمين حَمَلَ النّعمان بالناس، فاقتتلوا قتالاً شديداً لم يسمع السامعون مثله، وزلَق بالنعمان فرسه فصرِع وأصيب، وتناول الراية نعيم أخوه، فأتى حذيفة لها فدفعها إليه، وكتَم المسلمون مُصابَ أميرهم، واقتتلوا حتى أظلم الليل، ورجعوا والمسلمون وراءهم، فعمِيَ عليهم قصدُهم فتركوه، وغشيَهم المسلمون بالسيوف، فقتلوا منهم ما لا يحصى، وأدرك المسلمون الفيروزانَ وهو هارب، وقد انتهى إلى ثنِيّة مشحونة ببغال موقَرة عسلاً، فحبسته على أجَلِهِ، فقتل، فقال المسلمون: إن لله جنوداً من عسل.

ودخل المسلمون نهاوند فاحتوَوْا على ما فيها، وكانت أنفالُ هذا اليوم عظيمة، فحمِلت إلى عمر، فلما رآها بكى، فقال له المسلمون: إنّ هذا اليوم يوم سرور وجذَل، فما بكاؤك؟ قال: ما أظنّ أنّ الله تعالى زَوَى هذا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر إلا لخيرٍ أراده بهما، ولا أراه فتحه عليّ إلا لشرٍّ أُريدَ بي، إنّ هذا المال لا يلبث أن يفتِن الناس.

ثم رفع يده إلى السماء يدعو ويقول: اللهمّ اعصمنْي ولا تكِلْني إلى نفسي، يقولها مراراً، ثم قسمه بين المسلمين عن آخره[1].

١٤٧ - ومن خطبة له عليه السلام في الغاية من بعثة الرسول

الأصل: فَبَعثَ ٱللهُ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم بِٱلْحَقِّ، لِيُخرِجَ عِبَادَهُ مِنْ عِبَادَةِ ٱلْأَوْثَانِ إِلَى عِبَادَتِهِ، وَمِنْ طَاعَةِ ٱلشَّيْطَانِ إِلَى طَاعَتِهِ، بِقُرْآنٍ قَدْ بَيَّنَهُ وَأَحْكَمَهُ، لِيَعْلَمَ ٱلْعِبَادُ رَبَّهُمْ إِذْ جَهِلُوهُ، وَلِيُقِرُّوا بِهِ بَعْدَ إِذْ جَحَدُوهُ، وَلِيُثْبِتُوهُ بَعْدَ إِذْ أَنْكَرُوهُ، فَتَجَلَّى لَهُمْ سُبْحَانَهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونُوا رَأَوْهُ بِمَا أَرَاهُمْ مِنْ قُدْرَتِهِ، وَخَوَّفَهُمْ مِنْ سَطْوَتِهِ. وَكَيْفَ مَحَقَ مَنْ مَحَقَ بِٱلْمَثُلَاتِ، وَٱحْتَصَدَ مَنِ ٱحْتَصَدَ بِٱلنَّقِمَاتِ!

الشرح: الأوثان: جمع وَثَن، وهو الصَّنَم، ويجمع أيضاً على وُثُن، مثل أسَد وآساد وأسْد، وسمي وَثَناً لانتصابه وبقائه على حال واحدة، من قولك: وثَنَ فلان بالمكان، فهو واثن، وهو الثابت الدائم.

قوله: «فتجلّى سبحانه لهم»، أي ظهر من غير أن يُرَى بالبصر، بل بما نبّههم عليه في القرآن من قِصص الأولين، وما حَل بهم من النقمة عند مخالفة الرسل.

---

(١) انظر تاريخ الطبري: ٣/ ٢١٩.

والمَثُلات، بضم الثاء: العقوبات.

فإن قلت: ظاهر هذا الكلام أنّ الرسول عليه الصلاة والسلام بُعث إلى الناس ليقِرُّوا بالصانع ويثبتوه، وهذا خلاف قول المعتزلة، لأنّ فائدة الرسالة عندهم هي إلطاف المكلّفين بالأحكام الشرعيّة المقرّبة إلى الواجبات العقلية، والمبعّدة من المقبّحات العقلية، ولا مدخلَ للرسول في معرفة الباريء سبحانه؛ لأنّ العقل يُوجبها، وإن لم يبعث الرسل!

قلت: إنّ كثيراً من شيوخنا أوجبوا بعثة الرسل، إذا كان في حثّهم المكلّفين على ما في العقول فائدة، وهو مذهب شيخنا أبي عليّ رحمه الله، فلا يمتنع أن يكون إرسال محمد ﷺ إلى العرب وغيرهم، لأنّ الله تعالى علم أنّهم مع تنبيهه إياهم - على ما هو واجب في عقولهم من المعرفة - أقربُ إلى حصول المعرفة، فحينئذ يكون بعثه لطفاً، ويستقيم كلام أمير المؤمنين.

الأصل: وَإِنَّهُ سَيَأْتِي عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي زَمَانٌ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ أَخْفَى مِنَ ٱلْحَقِّ، وَلاَ أَظْهَرَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ، وَلاَ أَكْثَرَ مِنَ ٱلْكَذِبِ عَلَى ٱللهِ وَرَسُولِهِ، وَلَيْسَ عِنْدَ أَهْلِ ذَلِكَ ٱلزَّمَانِ سِلْعَةٌ أَبْوَرَ مِنَ ٱلْكِتَابِ إِذَا تُلِيَ حَقَّ تِلاَوَتِهِ، وَلاَ أَنْفَقَ مِنْهُ إِذَا حُرِّفَ عَنْ مَوَاضِعِهِ، وَلاَ فِي ٱلْبِلاَدِ شَيْءٌ أَنْكَرَ مِنَ ٱلْمَعْرُوفِ، وَلاَ أَعْرَفَ مِنَ ٱلْمُنْكَرِ، فَقَدْ نَبَذَ ٱلْكِتَابَ حَمَلَتُهُ، وَتَنَاسَاهُ حَفَظَتُهُ، فَٱلْكِتَابُ يَوْمَئِذٍ وَأَهْلُهُ طَرِيدَانِ مَنْفِيَّانِ، وَصَاحِبَانِ مُصْطَحِبَانِ، فِي طَرِيقٍ وَاحِدٍ لاَ يُؤْوِيهِمَا مُؤْوٍ، فَٱلْكِتَابُ وَأَهْلُهُ فِي ذَلِكَ ٱلزَّمَانِ فِي ٱلنَّاسِ وَلَيْسَا فِيهِمْ، وَمَعَهُمْ وَلَيْسَا مَعَهُمْ؛ لِأَنَّ ٱلضَّلاَلَةَ لاَ تُوَافِقُ ٱلْهُدَى وَإِنِ ٱجْتَمَعَا.

فَاجْتَمَعَ ٱلْقَوْمُ عَلَى ٱلْفُرْقَةِ، وَٱفْتَرَقُوا عَنِ ٱلْجَمَاعَةِ، كَأَنَّهُم أَئِمَّةُ ٱلْكِتَابِ، وَلَيْسَ ٱلْكِتَابُ إِمَامَهُمْ، فَلَمْ يَبْقَ عِنْدَهُمْ مِنه إِلاَّ ٱسْمُهُ، وَلاَ يَعْرِفُونَ إِلاَّ خَطَّهُ وَزَبْرَهُ، وَمِنْ قَبْلُ مَا مَثَّلُوا بِالصَّالِحِينَ كُلَّ مُثْلَةٍ، وَسَمَّوْا صِدْقَهُمْ عَلَى ٱللهِ فِرْيَةً، وَجَعَلُوا فِي ٱلْحَسَنَةِ عُقُوبَةَ ٱلسَّيِّئَةِ، وَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِطُولِ آمَالِهِمْ، وَتَغَيُّبِ آجَالِهِمْ، حَتَّى نَزَلَ بِهِمُ ٱلْمَوْعُودُ ٱلَّذِي تُرَدُّ عَنْهُ ٱلْمَعْذِرَةُ، وَتُرْفَعُ عَنْهُ ٱلتَّوْبَةُ، وَتَحُلُّ مَعَهُ ٱلْقَارِعَةُ وَٱلنِّقْمَةُ.

الشرح: أخبر عليه السلام أنّه سيأتي على الناس زمان من صفته كذا وكذا، وقد رأيناه ورآه مَن كان قبلنا أيضاً، قال شُعبة إمام المحدّثين: تسعة أعشار الحديث كذب. وقال الدارقطني: ما الحديث الصحيح في الحديث إلا كالشعرة البيضاء في الثور الأسود. وأمّا غلبة الباطل على الحقّ حتى يخفى الحق عنده، فظاهرة.

وأبور: أفسد، من بار الشيء، أي هلك. والسلعة: المتاع، ونبذ الكتاب: ألقاه ولا يؤويهما: لا يضمّها إليه، وينزلهما عنده.

والزَّبر: مصدر زبرت أزبُر بالضم، أي كتبت، وجاء يزبِر بالكسر، والزِّبْر بالكسر: الكتاب وجمعه زبور، مثل قِدْر وقدور، وقرأ بعضهم: ﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾[1]، أي كتبا. والزَّبُور، بفتح الزاي: الكتاب المزبور، فَعُول بمعنى مفعول، وقال الأصمعيّ: سمعت أعرابياً يقول: أنا أعرف بِزِبْرَتي أي خطي وكتابتي.

ومَثَلوا بالصالحين، بالتخفيف: نَكَّلُوا بهم، مثَلت بفلان أمثُل بالضمّ مَثْلاً بالفتح وسكون الثاء، والاسم المُثْلة بالضم، ومن روى «مَثّلوا» بالتشديد، أراد جَدَعوهم بعد قتلهم.

«وعلى» في قوله: «وسمّوا صدقهم على الله فرية»، ليست متعلّقة بصدقهم، بل بفرية، أي وسمّوا صدقهم فرية على الله، فإن امتنع أنْ يتعلق حرف الجرّ به لتقدّمه عليه، وهو مصدر، فليكن متعلّقاً بفعل مقدّر دلّ عليه هذا المصدر الظاهر. وروي: «وجعلوا في الحسنة العقوبة السيئة» والرواية الأولى بالإضافة أكثر وأحسن.

والموعود هاهنا: الموت. والقارعة: المصيبة تقرَع، أي تلقي بشدّة وقوة.

الأصل: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ، إِنَّهُ مَنِ ٱسْتَنْصَحَ ٱللهَ وُفِّقَ، وَمَنِ ٱتَّخَذَ قَوْلَهُ دَلِيلاً هُدِيَ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، فَإِنَّ جَارَ ٱللهِ آمِنٌ، وَعَدُوَّهُ خَائِفٌ.

وَإِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لِمَنْ عَرَفَ عَظَمَةَ ٱللهِ أَنْ يَتَعَظَّمَ، فَإِنَّ رِفْعَةَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا عَظَمَتُه أَنْ يَتَوَاضَعُوا لَهُ، وَسَلاَمَةَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَا قُدْرَتُهُ أَنْ يَسْتَسْلِمُوا لَهُ. فَلاَ تَنْفِرُوا مِنَ ٱلْحَقِّ نِفَارَ ٱلصَّحِيحِ مِنَ ٱلأَجْرَبِ، وَٱلْبَارِىءِ مِنْ ذِي السَّقَمِ.

وَٱعْلَمُوا أَنَّكُمْ لَنْ تَعْرِفُوا الرُّشْدَ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي تَرَكَهُ، وَلَنْ تَأْخُذُوا بِمِيثَاقِ ٱلْكِتَابِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَقَضَهُ، وَلَنْ تَمَسَّكُوا بِهِ حَتَّى تَعْرِفُوا الَّذِي نَبَذَهُ. فَالْتَمِسُوا ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ أَهْلِهِ، فَإِنَّهُمْ عَيْشُ ٱلْعِلْمِ، وَمَوْتُ ٱلْجَهْلِ، هُمُ ٱلَّذِينَ يُخْبِرُكُمْ حُكْمُهُمْ عَنْ عِلْمِهِمْ، وَصَمْتُهُمْ عَنْ مَنْطِقِهِمْ، وَظَاهِرُهُمْ عَنْ بَاطِنِهِمْ، لاَ يُخَالِفُونَ الدِّينَ وَلاَ يَخْتَلِفُونَ فِيهِ، فَهُوَ بَيْنَهُمْ شَاهِدٌ صَادِقٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٥٥.

الشرح: من استنصح الله: من أطاع أوامره وعلم أنّه يهديه إلى مصالحه، ويردّه عن مفاسده ويرشده إلى ما فيه نجاته، ويصرفه عمّا فيه عَطَبُه.

والتي هي أقوم: يعني الحالة والخَلّة التي اتّباعها أقوم، وهذا من الألفاظ القرآنية، قال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾[1]. والمراد بتلك الحالة المعرفة بالله وتوحيده ووعدِ له.

ثم نهى عيه السلام عن التكبر والتعظّم وقال: إنّ رفعةَ القَومِ الذِينَ يعرفون عظمة الله أن يتواضَعُوا له. وما هاهنا، بمعنى أيّ شيء، ومن روى بالنصب جعلها زائدة. وقد ورد في ذم التعظم والتكبّر ما يطول استقصاؤه، وهو مذموم على العباد، فكيف بمنْ يتعظّم على الخالق سبحانه وإنه لمن الهالكين! وقال رسول الله ﷺ لمّا افتخر: «أنا سيّد ولدِ آدم»، ثم قال: «ولا فَخْر»[2]، فجهر بلفظة الافتخار، ثمّ أسقط استطالة الكبر، وإنّما جهر بما جهر به؛ لأنه أقامه مقام شكر النعمة والتحدّث بها، وفي الحديث المرفوع عنه ﷺ: «إنّ الله قد أذهبَ عنكم حَمِيَّة الجاهلية وفخرَها بالآباء، الناس بنو آدم، وآدم من تراب، مؤمن تقيّ، وفاجر شقيّ لينتهِيَنَّ أقوامٌ يفخرون برجال، إنّما هم فحمٌ من فحم جهنم، أو ليكونُنّ أهون على الله من جُعلان تدفع النّتن بأنفها»[3].

قوله: «واعلَمُوا أنّكم لن تعرفوا الرّشد حتى تعرفوا الذي تَرَكه»، فيه تنبيه على أنه يجب البراءة من أهل الضلال، وهو قول أصحابنا جميعهم، فإنّهم بين مكفّر لمن خالف أصول التوحيد والعدْل - وهم الأكثرون - أو مفسّق، وهم الأقلون، وليس أحدٌ منهم معذوراً عند أصحابنا وإن ضلّ بعد النظر، كما لا تعذر اليهود والنصارى إذا ضلّوا بعد النظر.

ثم قال عليه السلام: «فالتمسوا ذلك عند أهله»، هذا كناية عنه عليه السلام، وكثيراً ما يسلك هذا المسلك، ويعرِّض هذا التعريض، وهو الصادق الأمين العارف بأسرار الإلهيّة.

ثم ذكر أنّ هؤلاء الذين أمَرَ باتّباعهم ينبيء حكمهم عن علمهم؛ وذلك لأنّ الامتحان يظهر خبيئة الإنسان.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٩.

(٢) أخرجه بالشطر الأول منه مسلم، كتاب: الفضائل، باب: تفضيل نبينا على جميع الخلق (٢٢٧٨)، ويكامله أخرجه الترمذي كتاب: تفسير القرآن، باب: ومن سورة بني إسرائيل (٣١٤٨)، وابن ماجه، كتاب: الزهد، باب: ذكر الشفاعة.

(٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: في التفاخر بالأحساب (٥١١٦)، وأحمد في «مسنده» (١٠٤٠٢).

ثم قال: «وصمتهم عن نطقهم»، صمت العارف أبلغُ من نطق غيره، ولا يخفى فضل الفاضل وإن كان صامتاً.

ثم ذكر أنّهم لا يخالفون الدّين لأنهم قُوّامه وأربابه، ولا يختلفون فيه؛ لأنّ الحق في التوحيد والعدل واحد، فالدين بينهم شاهد صادق يأخذون بحكمه، كما يؤخذ بحكم الشاهد الصادق.

وصامت ناطق؛ لأنه لا ينطق بنفسه بل لا بدّ له من مترجم، فهو صامت في الصورة، وهو في المعنى أنطق الناطقين؛ لأن الأوامر والنواهي والآداب كلّها مبنيّة عليه، ومتفرّعة عليه.

١٤٨ - ومن كلام له عليه السلام في ذكر أهل البصرة

الأصل: كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا يَرْجُو الأَمْرَ لَهُ، وَيَعْطِفُهُ عَلَيْهِ دُونَ صَاحِبِهِ، لاَ يَمُتَّانِ إِلَى ٱللهِ بِحَبْلٍ، وَلاَ يَمُدَّانِ إِلَيْهِ بِسَبَبٍ.

كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا حَامِلُ ضَبٍّ لِصَاحِبِهِ، وَعَمَّا قَلِيلٍ يَكْشِفُ قِنَاعَهُ بِهِ.

وَٱللهِ لَئِنْ أَصَابُوا الَّذِي يُرِيدُونَ لَيَنْتَزِعَنَّ هَذَا نَفْسَ هَذَا، وَلَيَأْتِيَنَّ هَذَا عَلَى هَذَا.

قَدْ قَامَتِ ٱلْفِئَةُ ٱلْبَاغِيَةُ فَأَيْنَ الْمُحْتَسِبُونَ! قَدْ سُنَّتْ لَهُمُ السُّنَنُ، وَقُدِّمَ لَهُمُ ٱلْخَبَرُ، وَلِكُلِّ ضَلَّةٍ عِلَّةٌ، وَلِكُلِّ نَاكِثٍ شُبْهَةٌ.

وَٱللهِ لاَ أَكُونُ كَمُسْتَمِعِ اللَّدْمِ، يَسْمَعُ النَّاعِيَ، وَيَحْضُرُ ٱلْبَاكِيَ، ثُمَّ لاَ يَعْتَبِرُ.

الشرح: ضمير التثنية راجعٌ إلى طَلْحةَ والزُّبيرِ رضي الله عنهما. ويمتّان: يتوسّلان، الماضي ثلاثيٌ، مَتّ يَمُتُّ بالضم والضَّبّ: الحقد والمحتسبون: طالبوا الحِسْبة، وهي الأجر. ومستمع اللّدْم كناية عن الضبُع، تسمع وقع الحجر بباب جُحرها من يد الصائد فتنخذِل وتكفّ جوارحَها إليها حتى يدخل عليها فيربطها، يقول: لا أكون مقرًّا بالضيم راغناً، أسمع النّاعي المخبِر عن قتل عسكر الجمل الحكيم بن جبلة وأتباعه، فلا يكون عندي من التغيير والإنكار لذلك، إلا أن أسمعه وأحضر الباكين على قتلاهم.

وقوله: «لكل ضلّة علّة، ولكل ناكث شُبهة» هو جواب سؤال مقدّر، كأنه يقول: إن قيل: لأيّ سبب خرج هؤلاء؟ فإنّه لا بدّ أن يكون لهم تأويل في خروجهم، وقد قيل: إنهم يطالبون بدم عثمان، فهو عليه السلام قال: كلّ ضلالة فلا بدّ لها من علّة اقتضتها، وكلّ ناكثٍ فلا بدّ له من شبهة يستنِد إليها.

وقوله: «ليتنزعَنّ هذا نفس هذا» قول صحيح لا ريبَ فيه؛ لأنّ الرياسة لا يمكن أنْ يدبّرها اثنان معاً، فلو صحّ لهما ما أراداه لوثب أحدهما على الآخر فقتله، فإن الملك عقيم، وقد ذكَرَ أربابُ السّيرة أنّ الرجلين اختلفا من قَبْلِ وقوع الحرب، فإنهما اختلفا في الصلاة، فأقامت عائشة محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير، يصلي هذا يوماً، وهذا يوماً، إلى أن تنقضيَ الحرب.

ثم إنّ عبد الله بن الزبير ادّعى أن عثمان نصّ عليه بالخلافة يوم الدار، واحتجّ في ذلك بأنه استخلفه على الصلاة، واحتجّ تارة أخرى بنصٍّ صريح زعمه وادّعاه، وطلب طلحة من عائشة أن يسلِّم الناسُ عليه بالإمْرة، وأدلَى إليها بالتيميّة، وأدلى الزبير إليها بأسماء أختها، فأمَرت الناس أنْ يسلّموا عليهما معاً بالإمْرَة.

واختلفا في تولّي القتال، فطلبه كلّ منهما أولاً، ثم نكَلَ كلٌّ منهما عنه وتفادَى منه.

وقد ذكرنا في الأجزاء المتقدمة قطعة صالحة سن أخبار الجمل.

وقعة يوم الجمل

وروى أبو مخنف، قال: لما تزاحَفَ الناس يومَ الجمل والتقَوْا، قال عليّ عليه السلام لأصحابه: لا يرمِينّ رجل منكم بسهم، ولا يطعن أحدكم فيهم برمح، حتى أحدث إليكم، وحتى يبدؤوكم بالقتال وبالقتل. فرمى أصحاب الجمل عسكر عليّ عليه السلام بالنّبل رمياً شديداً متتابعاً، فضجّ إليه أصحابه، وقالوا: عقرتْنا سهامهم يا أمير المؤمنين. وجيء برجل إليه، وإنه لفي فُسطاطٍ له صغير، فقيل له: هذا فلان قد قُتِل. فقال: اللهمّ اشهد، ثم قال: أعْذِروا إلى القوم، فأتيَ برجل آخر فقيل: وهذا قد قتل: فقال: اللهمّ اشهد، أعْذِروا إلى القوم، ثم أقبل عبد الله بنُ بدَيْل بن ورقاء الخُزاعيّ وهو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، يحمل أخاه عبد الرحمن بنَ بُدَيْل، قد أصابه سهم فقتله، فوضعه بين يدي عليّ عليه السلام، وقال: يا أميرَ المؤمنين، هذا أخي قد قتِل، فعند ذلك استرجع عليٌّ عليه السلام، ودعا بدِرْع رسول الله صلى الله عليه وآله ذات الفُضُول فلبسها، فتدلّت بطنه فرفعها بيده، وقال لبعض أهله، فحزم وسطَه بعمامة، وتقلّد ذا الفقار، ودفع إلى ابنه محمد رايةَ رسول الله صلى الله عليه وآله السوداء، وتعرف بالعُقاب، وقال لحسن وحسين عليهما السلام: إنما دفعت الراية إلى أخيكما. وتركتكما لمكانكما من رسول الله صلى الله عليه وآله.

قال أبو مخنف: وطاف عليّ عليه السلام عَلَى أصحابه، وهو يقرأ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1]. ثم قال: أفرَغَ الله علينا وعليكم الصبر، وأعزّ لنا ولكم

(١) سورة البقرة، الآية: ٢١٤.

النصر، وكان لنا ولكم ظهيراً في كلِّ أمر. ثم رفع مصحفاً بيده، فقال: مَنْ يأخذ هذا المصحف، فيدعوهم إلى ما فيه، وله الجنة؟ فقام غلام شابّ اسمه مسلم، عليه قَبَاء أبيض، فقال: أنا آخذُه، فنظر إليه عليّ وقال: يا فَتى، إن أخذته، فإنّ يدك اليمنى تقطع، فتأخذه بيدك اليسرى فتقطع، ثم تضرب بالسيف حتى تقتل فقال: لا صبر لي على ذلك، فنادى عليّ ثانية، فقام الغلام، وأعاد عليه القول، وأعاد الغلام القول مراراً، حتّى قال الغلام: أنا آخذه، وهذا الذي ذكرتَ في الله قليل، فأخذه وانطلق، فلما خالطهم ناداهم: هذا كتابُ الله بيننا وبينكم. فضربه رجلٌ فقطع يده اليمنى، فتناوله باليسرى فضربه أخرى فقطع اليسرى، فاحتضنه فضربوه بأسيافهم، حتى قتل فقالت أم ذريح العبديّة في ذلك:

يا ربّ إنّ مسلماً أتاهُمُ ... بمصحفٍ أرسله مولاهُمُ
للعدل والإيمان قد عادهمُ ... يتلو كتابَ الله لا يخشاهُمُ
فخضبوا من دمه ظُبَاهُمُ ... وأمّهم واقفةٌ تَرَاهُمُ
تأمرُهم بالغيّ لا تنهاهُمُ

قال أبو مخنف: فعند ذلك أمر علي عليه السلام ولده محمداً أن يحمَل الراية، فحمل وحمل معه النّاس، واستحرّ القتلُ في الفريقين وقامت الحرب على ساق.

مقتل طلحة والزبير

قال: فأما طلحة، فإنّ أهلَ الجمل لما تضعضعوا قال مروان: لا أطلُب ثأر عثمان من طلحة بعد اليوم! فانتحى له بسهم فأصاب ساقه، فقطع أكحَله، فجعل الدم يَبِضُّ[1]، فاستدعى مِنْ مولًى له بغلة، فركبها وأدبر، وقال لمولاه: ويحك! أما من مكانٍ أقدِر فيه على النزول، فقد قتلني الدم! فيقول له مولاه: انجُ، وإلاّ لحقك القوم، فقال: بالله ما رأيت مصرَع شيخ أضيعَ من مصرعي هذا! حتى انتهى إلى دار من دُور البصرة، فنزلها ومات بها.

وقد رُوِي أنه رُمِي قبل أنْ يرميَه مروان، وجرح في غير موضع من جسده.

وروى أبو الحسن المدائنيّ أنّ علياً عليه السلام مرّ بطلحة، وهو يكيدُ بنفسه، فوقف عليه وقال: أما والله إن كنتُ لأبغض أنْ أراكم مصرّعين في البلاد، ولكن ما حتم واقع، ثم تمثّل:

وما تدري إذا أزْمَعت أمراً ... بأيّ الأرض يدركك المقِيلُ
وما يدري الفقير مَتَى غِناهُ ... ولا يدري الغنيّ متى يَعِيلُ!
وما تدري إذا ألقحت شَوْلاً ... أتُنْتَجُ بعد ذلك أم تَحِيلُ

(١) يَبِضُّ: يخرج قليلاً قليلاً. القاموس، مادة (بضض).

وأما الزُّبير فقتله ابن جُرموز غيلةً بوادي السباع، وهو منصرف عن الحرب، نادم على ما فرّط منه، وتقدّم ذكر كيفية قتله فيما سبق.

وروى الكلبيّ، قال: كان العِرْق الذي أصابه السهم إذا أمسكه طلحة بيده استمسك، وإذا رفع يده عنه سال، فقال طلحة: هذا سهم أرسله الله تعالى، وكان أمرُ الله قَدَراً مقدوراً، ما رأيت كاليوم دم قرشيّ أضيع!

قال: وكان الحسن البصريّ إذا سمع هذا وُحِكي له، يقول: ذُقْ عَقْعَق[1]!

وروى أبو مخنف، عن عبد الله بن عوف، عن نافع، قال: سمعت مَرْوان بن الحكم يقول: أنا قتلتُ طلحة.

وقال أبو مخنف: وقد قال عبد الملك بن مروان: لولا أن خبرني أنّه رمَى طلحة فقتله، ما تركت تيْميًّا إلا قتلتُه بعثمان قال: يعني أنّ محمد بن أبي بكر وطلحة قتلاه، وكانا تَيميَّين.

قال أبو مخنف: وحدّثنا عبد الرحمن بن جُندَب، عن أبيه جندب بن عبد الله، قال: مررتُ بطلحة، وإنّ معه عصابة يقاتل بهم، وقد فَشَتْ فيهم الجراح، وكَثَرَهُم الناس، فرأيتُه جريحاً، والسيف في يده، وأصحابه يتصدّعون عنه رجلاً فرجُلاً، واثنين فاثنين، وأنا أسمعه، وهو يقول: عبادَ الله، الصبرَ الصبرَ، فإنّ بعد الصبر النّصر والأجر، فقلت له: النّجاء النجاء! ثكلتك أمّك! فوالله ما أجِرت ولا نُصِرت، ولكنك وُزِرْتَ وخسرت، ثم صِحْتُ بأصحابه، فانذعروا عنه، ولو شئتُ أن أطعنه لطعنته، فقلت له: أما والله لو شئت لجدّلتك في هذا الصعيد، فقال: والله لهلكت هلاك الدنيا والآخرة إذَن! فقلت له: والله لقد أمسيتَ وإنّ دمك لحلال، وإنّك لمن النادمين، فانصرف ومعه ثلاثة نَفَر، وما أدري كيف كان أمره إلاّ أنّي أعلم أنّه قد هلك.

وروي أنّ طلحة قال ذلك اليوم: ما كنت أظن أنّ هذه الآية نزلت فينا: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾[2].

وروى المدائنيّ، قال: لما أدبر طلحة وهو جريح يرتاد مكاناً ينزله، جعل يقول لمن يمرّ به من أصحاب عليّ عليه السلام: أنا طلحة، من يجيرني! يكررها. قال: فكان الحسن البصريّ إذا ذكر ذلك يقول: لقد كان في جوار عريض[3].

---

(١) العقعق: العَاقّ. اللسان، مادة (عقق).

(٢) سورة الأنفال، الآية: ٢٥.

(٣) أخرجه السيد مرتضى العسكري في أحاديث أم المؤمنين عائشة: ١/ ٢٢٨.

١٤٩ - ومن كلام له عليه السلام قبل موته

الأصل: أَيُّهَا النَّاسُ، كُلُّ امْرِىءٍ لاَقٍ ما يَفِرُّ مِنْهُ فِي فِرَارِهِ. الأَجَلُ مَساقُ النَّفسِ، وَالْهَرَبُ مِنْهُ مُوَافاتُهُ.

كَمْ أَطْرَدْتُ الأَيَّامَ أَبْحَثُها عَنْ مَكْنُونِ هَذَا الأَمْرِ، فَأَبَى اللهُ إلاَّ إخْفاءَهُ. هَيْهات! عِلْمٌ مَخْزُونٌ.

أَمَّا وَصِيَّتِي، فاللهُ لاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً، ومحمداً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسلَّم فَلاَ تُضَيِّعُوا سُنَّتَهُ، أَقِيمُوا هَذَيْنِ الْعَمُودَيْنِ، وَأَوْقِدُوا هَذَيْنِ الْمِصْباحَيْنِ، وخَلاَكُمْ ذَمٌّ ما لَمْ تَشْرُدُوا. حُمِّلَ كُلُّ امْرِىءٍ مِنكم مَجْهُودَهُ، وَخُفِّفَ عَنه الْجَهَلَةِ. رَبٌّ رَحِيمٌ، ودِينٌ قَوِيمٌ، وَإمامٌ عَلِيمٌ.

أنا بِالأمْسِ صاحِبُكُمْ، وأنا الْيَوْمَ عِبْرَةٌ لَكُمْ، وغَداً مُفارِقُكُمْ! غَفَرَ اللهُ لِيَ وَلَكُمْ! إنْ ثَبَتَتِ الْوَطْأَةُ في هَذِهِ الْمَزَلَّةِ فَذاكَ، وَإنْ تَدْحَضِ الْقَدَمُ، فَإنَّا كُنَّا في أَفْياءِ أَغْصانٍ، ومَهَبِّ رِياحٍ، وَتَحْتَ ظِلِّ غَمامٍ. اضْمَحَلَّ في الْجَوِّ مُتَلَفَّقُها، وعَفا في الأَرْضِ مَخَطُّها.

وإنَّما كُنْتُ جاراً جاوَرَكُمْ بَدَنِي أَيَّاماً، وسَتُعْقَبُونَ مِنِّي جُثَّةً خَلاَءً، ساكِنَةً بَعْدَ حَرَاكٍ، وصامِتَةً بَعْدَ نُطْقٍ. لِيَعِظْكُمْ هُدُوئي، وخُفُوتُ إطْرَاقِي، وسُكُونُ أطْرَافي، فإنَّهُ أَوْعَظُ لِلْمُعْتَبِرِينَ مِنَ الْمَنْطِقِ الْبَلِيغِ، والْقَوْلِ الْمَسْمُوعِ.

وَدَاعِي لَكُمْ وَدَاعُ امْرِىءٍ مرْصَدٍ لِلتَّلاَقِي! غَداً تَرَوْنَ أَيَّامِي، ويُكْشَفُ لَكُمْ عَنْ سَرَائِري، وتَعْرِفُونَنِي بَعْدَ خُلُوِّ مَكانِي، وقِيامِ غَيْرِي مَقامِي.

الشرح: اطردتُ الرجل، إذا أمرتَ بإخراجه وطردِه، وطردتُه إذا نفيتَه وأخرجتَه، فالإطراد أدلّ على العزّ والقهر من الطرد، وكأنه عليه السلام جعل الإيام أشخاصاً يأمر بإخراجهم وإبعادهم عنه، أي ما زِلْتُ أبحث عن كيفيّة قتلي، وأيّ وقت يكون بعينه، وفي أيّ أرض يكون، يوماً يوماً، فإذا لم أجده في اليوم أطردته واستقبلت غده، فأبحث فيه أيضاً فلا أعلم، فأبعده وأطرده، وأستأنف يوماً آخر، هكذا حتى وقع المقدور. وهذا الكلام يَدُلّ على أنه لم يكن يعرف حال قتله معرفة مفصّلة من جميع الوجوه، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أعلمه بذلك علماً مجملاً؛ لأنّه قد ثبت أنه صلى الله عليه وآله قال له: «ستضرَب على هذه - وأشار إلى هامته - فتخضَب منها هذه -

وأشار إلى لحيته»[١]، وثبت أنه ﷺ قال له: «أتعلم مَنْ أشقى الأولين»؟ قال: نعم، عاقر الناقة، فقال له: «أتعلم مَنْ أشقى الآخِرين»؟ قال: لا، قال: «من يضربك هاهنا، فيخضب هذه»[٢].

وكلام أمير المؤمنين عليه السلام يدلّ على أنّه بعد ضرب ابن مُلجم له لا يقطع على أنه يموت من ضربته، ألا تراه يقول: إن ثبتت الوطأة في هذه المزلّة فذاك، وإن تدحَض فإنّما كُنّا في أفياء أغصان، ومهابّ رياح، أي إن سلمتُ فذاك الذي تطلبونه، يخاطب أهلَه وأولاده، ولا ينبغي أن يقال: «فذاك ما أطلبه»؛ لأنه عليه السلام كان يطلب الآخرة، أكثر من الدنيا. وفي كلامه المنقول عنه ما يؤكّد ما قلناه، وهو قوله: «إن عشتُ فأنا وليّ دمي، وإن مِتّ فضربة بضربة».

وليس قوله عليه السلام: «وأنا اليوم عِبْرة لكم، وغداً مفارقكم» وما يجري مجراه من ألفاظ الفصل بناقض لما قلنا، وذلك لأنّه لا يعني غداً بعينه، بل ما يستقبل من الزمان، كما يقول الإنسان الصحيح: أنا غداً ميّت، فمالي أحرص على الدنيا! ولأنّ الإنسان قد يقول في مرضه الشديد لأهله وولده: ودّعْتُكم وأنا مفارقكم، وسوف يخلو منزلي منّي، وتتأسّفون عَلَى فراقي، وتعرفون موضعي بعدي، كله على غَلَبة الظنّ، وقد يقصد الصالحون به العظة والاعتبار وجذب السامعين إلى جانب التقوى، وردْعهم عن الهوى وحبّ الدنيا.

فإن قلت: فما تصنع بقوله عليه السلام لابن ملجَم:

أُرِيــدُ حِـبَــاءَهُ وَيُــرِيــدُ قَــتْــلِـي عَـذِيـرَكَ مِـن خَـلِـيـلِـكَ مِـنْ مُـرَادِ[٣]

وقول الخلّص من شيعته: فهلاّ تقتله! فقال: فكيف أقتل قاتلي! وتارة قال: إنّه لم يقتلني، فكيف أقتل من لم يقتُل! وكيف قال في البطّ الصائح خَلْفه في المسجد، ليلة ضرَبه ابن ملجم: دعوهنّ. فإنهنّ نوائح. وكيف قال تلك الليلة: إنّي رأيت رسول الله ﷺ، فشكوتُ إليه، وقلت: ما لقيتُ من أمتك من الأود واللّدد! فقال: ادع الله عليهم، فقلت: اللّهم أبدلْني بهم خيراً منهم، وأبدِلْهم بي شرًّا مني! وكيف قال: إني لا أُقتَلُ محارباً، وإنما أُقتَل فَتْكاً وغيلة، يقتلني رجلٌ خامل الذكر. وقد جاء عنه عليه السلام من هذا الباب آثار كثيرة.

قلت: كلّ هذا لا يدلّ على أنه كان يعلم الأمر مفصّلاً من جميع الوجوه، ألا ترى أنه ليس

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٥٩٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٨/ ٥٨)، والطبراني في «الكبير» (١٧٣).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧٣١١)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٨٥)، والبزار في «مسنده» (١٤٢٤).

(٣) عذيرك: أي هات من يعذرك. السان، مادة (عذر).

في الأخبار والآثار ما يدلّ على الوقت الذي يقتل فيه بعينه، ولا على المكان الذي يقتل فيه بعينه! وأما ابنُ ملجم، فمن الجائز أن يكون علم أنه هو الذي يقتله، ولم يعلم علماً محققاً أن هذه الضربة تزهَق نفسه الشريفة منها، بل قد كان يجوز أن يُبِلّ ويُفيق منها، ثم يكون قتله فيما بعد عَلَى يد ابن ملجم، وإن طال الأمد. وليس هذا بمستحيل، وقد وقع مثله، فإنّ عبد الملك جرح عمرو بن سعيد الأشدق في أيام معاوية على منافرةٍ كانت بينهما فعفا عمرو عنه، ثم كان من القَضاء والقدر أنّ عبد الملك قتل عمراً أيضاً بيده ذبحاً، كما تذبح الشاة.

وأما قوله في البط: «دعوهنّ فإنهن نوائح» فلعلّه علم أنه تلك الليلة يصاب ويجرح، وإن لم يعلم أنّه يموت منه والنوائح قد ينحنَ على المقتول وقد ينحن على المجروح، والمنام والدّعاء لا يدلّ على العلم بالوقت بعينه، ولا يدلّ على أن إجابة دعائه تكون على الفور لا محالة.

ثم نعود إلى الشرح.

أمّا قوله: «كلّ امْرِىء لاق ما يفرّ منه في فراره»، أي إذا كان مقدوراً، وإلاّ فقد رأينا مَنْ يفرّ من الشيء ويسلم؛ لأنه لم يقدّر، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[1]، وقوله: ﴿لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾[2] ومن قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ﴾[3]، وفي القرآن العزيز مثل هذا كثير.

قوله: «والأجل مَسَاق النفس» أي الأمر الذي تساق إليه، وتنتهي عنده، وتقف إذا بلغتْه فلا يبقى له حينئذ أكلة في الدنيا.

قوله: «والهرب منه موافاتُه»، هذا كلام خارج مخرج المبالغة في عدم النّجاة، وكون الفرار غيرَ مغْنٍ ولا عاصم من الموت، يقول: الهرب بعينه من الموت موافاة للموت، أي إتيان إليه، كأنه لم يرتض بأن يقول: الهارب لا بدّ أن ينتهيَ إلى الموت، بل جعل نفس الهرب هو ملاقاة الموت.

قوله: «أبحثها» أي أكشفها، وأكثر ما يستعمل «بحث» مُعَدًّى بحرف الجر، وقد عدّاه هاهنا إلى «الأيام» بنفسه وإلى «مكنون الأمر» بحرف الجرّ، وقد جاء: بحثت الدّجاجة التراب، أي نبشته.

قوله: «فأبى الله إلا إخفاءه، هيهات علم مخزون»! تقديره: هيهات ذلك! مبتدأ وخبره، هيهات اسم للفعل، معناها بعد، أي علْم هذا العيب علم مخزون مصون، لم أطلّع عليه.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٨.
(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٥٤.
(٣) سورة الجمعة، الآية: ٨.

فإن قلت: ما معنى قوله: «كم اطردت الأيام أبحثها»؟ وهل عِلم الإنسان بموته كيف يكون، وفي أيّ وقت يكون، وفي أيّ أرض يكون، مما يمكن استدراكه بالنظر والفكر والبحث؟

قلت: مراده عليه السلام أنّي كنت في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله أسأله كثيراً عن هذا الغيب، فما أنبأني منه إلا بأمور إجمالية غير مفصّلة، ولم يأذن الله تعالى في إطّلاعي على تفاصيل ذلك.

قوله: «فالله لا تشركوا به شيئاً» الرواية المشهورة «فالله» بالنصب، وكذلك «محمداً» بتقدير فعل؛ لأنَّ الوصية تستدعي الفعل بعدها، أي وحّدُوا الله، وقد روي بالرفع، وهو جائز على المبتدأ والخبر.

قوله: «أقيموا هذين العمودين، وأوقدوا هذين المصباحين، وخَلاَكم ذمّ ما لم تشرُدوا»، كلام داخلٌ في باب الاستعارة، شبّه الكتاب والسنّة بعمودَيِ الخيْمة، وبمصباحَيْن يُستضاء بهما. وخَلاَكم ذمٌّ: كلمة جاريةٌ مجرى المثل، معناها: ولاَ ذمّ عليكم، فقد أعذرتمُ. وذمّ، مرفوع بالفاعلية، معناه: عَدَاكم وسقَط عنكم.

فإن قلت: إذا لم يشركوا بالله ولم يضيّعوا سنة محمد صلى الله عليه وآله فقد قاموا بكلّ ما يجب، وانتهوْا عن كلّ ما يقبّح، فأيّ حاجة له إلى أن يستثني ويقول: «ما لم تشردوا»، وإنما كانَ يحتاج إلى هذه اللفظة لو قال: وصيّتي إليكم أن توحّدوا الله، وتؤمنوا بنبوّة محمد صلى الله عليه وآله، كان حينئذٍ يحتاج إلى قوله: «ما لم تشردوا» ويكون مرادُه بها فعلَ الواجبات، وتجنّب المقبحات؛ لأنّه ليس في الإقرار بالوحدانية والرسالة العمل، بل العمل خارج عن ذلك، فوجب إذا أوصى أن يوصِيَ بالاعتقاد والعمل، كما قال عمر لأبي بكر في واقعة أهل الرِّدّة: كيف تقاتلهم وهم مقرّون بالشهادتين، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أمرت بأن أقاتلَ النّاس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله»[1]، فقال أبو بكر: إنه قال تتمة هذا: «فإذا هم قالوها عَصموا مني دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها». وأداء الزكاة من حقها!

قلت: مراده بقوله: «ما لم تشردوا» ما لم ترجعوا عن ذلك فكأنه قال: خلاكم ذمّ إن وحّدتم الله واتّبعتم سنة رسوله، ودمتم على ذلك ولا شبهة أنّ هذا الكلام منتظم، وأنّ اللفظتين الأولبين ليستا بمغنيتين عن اللفظة الثالثة وبتقدير أن يغنيا عنه، فإنّ في ذكره مزيد تأكيد وإيضاح غير موجودين لو لم يذكر، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾[2]، وليس لقائل أن يقول: مَنْ لا يخشى الله لا يكون مطيعاً لله والرسول، وأيّ حاجة

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ (٢٥)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (٢١).

(٢) سورة النور، الآية: ٥٢.

به إلى ذكر ما قد أغنى اللفظُ الأول عنه! قوله: «حُمِّل كلّ امرىء مجهوده، وخُفِّفَ عن الجهلة»، هذا كلام متّصل بما قبله؛ لأنّه لما قال: «ما لم تشردُوا» أنبأ عَن تكليفهم كلّ ما وردت به السّنة النبوية: وأن يدوموا عليه، وهذا في الظاهر تكليفُ أمورٍ شاقة، فاستدرك بكلامٍ يدلّ على التخفيف، فقال: إن التكاليف على قَدْرِ المكلّفين، فالعلماء تكليفهم غير تكليفُ العامة، وأرباب الجهل والمبادىء كالنساء وأهل البادية وطوائف من النّاس، الغالبُ عليهم البلادة وقلّة الفهم، كأقاصي الحبشة والتّرك ونحوهم، وهؤلاء عند المكلفين غير مكلّفين، إلا بحمل التوحيد والعدل، بخلاف العلماء الذين تكليفهم الأمور المفصّلة وحلّ المشكلات الغامضة. وقد روي «حَمَلَ» على صيغة الماضي، و«مجهودَه» بالنصب، و«خَفّفَ» على صيغة الماضي أيضاً، ويكون الفاعل هو الله تعالى المقدّم ذكره، والرواية الأولى أكثر وأليق.

ثم قال: «ربّ رحيم» أي ربّكم رب رحيم. ودين قويم، أي مستقيم. وإمام عليم، يعني رسول الله ﷺ، ومن الناس من يجعل «ربّ رحيم» فاعل «خفّف» على رواية من رواها فعلاً ماضياً وليس بمستحسن لأنّ عطف «الدين» عليه يقتضي أن يكون الدين مخففاً، وهذا لا يصحّ.

ثم دعا لنفسه ولهم بالغفران.

ثم قسّم الأيام الماضية والحاضرة والمستقبلة قسمةً حسنة، فقال: «أنا بالأمس صاحبكم، وأنا اليوم عِبْرة لكم، وغدا مفارقكم» إنما كان عبرةً لهم لأنهم يرونه بين أيديهم ملقىً صريعاً بعد أن صَرَعَ الأبطال، وقتل الأقران، فهو كما قال الشاعر:

أكّالُ أشلاءِ الفَوارِس بالقَنا ... أضحى بهنّ وشِلْوه مأكول

ويقال: دَحَضت قدمُ فلان، أي زلّت وزَلَقت.

ثم شبّه وجوده في الدنيا بأفياء الأغصان ومهابّ الرياح وظلال الغمام، لأنّ ذلك كلّه سريع الانقضاء لإثبات له.

قوله: «اضمحلّ في الجوّ متلفّقُها، وعَفَا في الأرض مَخَطُّها»، اضمحلّ ذهب، والميم زائدة، ومنه الضّحْل وهو الماء القليل، واضمحلّ السحاب: تقشّع وذهب، وفي لغة الكلابيين امضحلّ الشيء بتقديم الميم. ومتلفقّها: مجتمعها، أي ما اجتمع من الغيوم في الجو، والتلفيق: الجمع: وعَفَا: دَرَس، ومخطّها: أثرها، كالخطة.

قوله: «وإنما كنتُ جاراً جاوركم بَدَني أياماً»، في هذا الكلام إشعاراً بما يذهب إليه أكثر العقلاء من أمر النّفس، وأنّ هويّة الإنسان شيء غير هذا البدَن.

وقوله: «ستعقَبون مِنّي» أي إنما تجدون عَقيب فقدي جُثّة، يعني بدناً خلاء، أي لا رُوح فيه، بل قد أقفر من تلك المعاني التي كنتم تعرفونها وهي العقل والنطق والقوّة وغير ذلك. ثم

وَصف تلك الجُثّة فقال: «ساكنة بعد حَرَاك» بالفتح، أي بعد حَرَكة «وصامتة بعد نطق». وهذا الكلام أيضاً يُشعِر بما قلناه من أمرِ النّفس، بل يصرّح بذلك، ألا تراه قال: «استعقبون مني جثّة»، أي تستبدلون بي جثّة صفتها كذا، وتلك الجثّة جثته عليه السلام، ومحال أن يكون العِوَض والمعوّض عنه واحداً، فدلّ على أنّ هويّته عليه السلام التي أعقِبنا منها الجثّة غير الجثّة.

قوله: «ليعظكم هدوّي»، أي سكوني، وَخفوت إطراقي، مثله خَفَت خُفوتاً سكن، وَخفت خُفاتاً مات فجأة. وإطراقه: إرخاؤه عينيه ينظر إلى الأرض، لضعفه عن رفع جفْنه، وسكون أطرافه: يداه ورجلاه ورأسه عليه السلام.

قال: «فإنه أوعظ للمعتبرين من المنطق البليغ، والقول المسموع»، وصدق عليه السلام! فإن خَطْباً أخرس ذلك اللسان، وَهدّ تلك القُوَى لخطبٌ جليل، ويجب أن يتعظ العقلاء به. وما عسى يبلغ قول الواعظين بالإضافة إلى مَنْ شاهد تلك الحال، بل بالإضافة إلى من سمعها، وأفكر فيها، فضلاً عن مشاهدتها عِياناً! وَفي هذا الكلام شَبَهٌ من كلام الحكماء الذين تكلموا عند تابوت الإسكندر فقال أحدهم: حرّكَنا بسكونه.

وقال الآخر: قد كان سيفك لا يجف، وكانت مراقيك لا ترام، وكانت نقِماتك لا تؤمَن، وكانت عطاياك يُفرَح بها، وكان ضياؤك لا ينكشف، فأصبح ضوءك قد خَمَد، وأصبحت نقماتك لا تخشى، وَعطاياك لا تُرجى، وَمَراقِيك لا تُمْنَعُ، وسيفك لا يقطع.

وقال الآخر: انظروا إلى حلم المنام كيف انجلى، وإلى ظِلّ الغمام كيف انسلى!

وقال آخر: ما كان أحوجَه إلى هذا الحلم، وإلى هذا الصبر والسكون أيام حياته!

وقال آخر: القدرة العظيمة التي ملأت الدنيا العريضة الطويلة، طُوِيَتْ في ذراعين.

وقال الآخر: أصبح آسرُ الأسراء أسيراً، وقاهر الملوك مقهوراً. كان بالأمس مالكاً، فصار اليوم هالكاً.

ثم قال عليه السلام: «وَدّعتكم وَداع امرىءٍ مرصَداً للتّلاقي»، أرصدته لكذا، أي أعددته له، وفي الحديث: «إلاّ أن أرصدَه لدينٍ عَلَيّ»[1]. والتلاقِي هاهنا: لقاء الله. ويروى: «وداعِيكم» أي وداعي إياكم، والوَداع مفتوح الواو.

ثم قال: «غداً ترون أيامي، ويكشف لكم عن سرائري، وتعرفونني بعدَ خلوّ مكاني، وقيام غيري مقامي»، هذا معنًى قد تداوله الناس قديماً وحديثاً، قال أبو تمام:

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الاستئذان، باب: من أجاب لبيك وسعديك (٦٢٦٨)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة (٩٩١).

رَاحَــتْ وُفُــودُ الأرْضِ عَــنْ قَـبْـرِهِ فــارغــةَ الأيــدي مِــلاَءَ ٱلْـقُـلُـوبْ

قــد عــلــمــت مــا رزئــت إنــمــا يُـعـرف قـدرُ الـشـمـس بـعـد الـغـروبْ

وقال أبو الطيب:

ونَـذمّـهـمْ وَبِـهِـمْ عَـرَفْـنَـا فـضـلَـهُ ويــضــدّهــا تــتــبــيّــن الأشــيــاءُ

ومن أمثالهم:

الـضـدّ يـظـهـر حـسـنـه الـضـدّ

ومنها أيضاً: لولا مرارة المرض لم تعرف حلاوة العافية.

وإنما قال عَلَيْهِ السَّلامُ: «ويكشف لكم عن سرائري»؛ لأنهم بعد فقده وموته يظهر لهم ويثبت عندهم إذا رأوا وشاهدوا إمرة مَنْ بعده، أنه إنما كان يريد بتلك الحروب العظيمة وجه الله تعالى، وألاّ يظهر المنكر في الأرض، وإن ظنّ قوم في حياته أنّه كان يريد الملك والدنيا.

١٥٠ - ومن خطبة له عَلَيْهِ السَّلامُ ويومىء فيها إلى الملاحم

الأصل: وَأَخَذُوا يَمِيناً وَشِمَالاً ظَعْناً فِي مَسَالِكِ ٱلْغَيِّ، وَتَرْكاً لِمَذَاهِبِ الرُّشْدِ، فَلاَ تَسْتَعْجِلُوا مَا هُوَ كَائِنٌ مُرْصَدٌ، وَلاَ تَسْتَبْطِئُوا مَا يَجِيءُ بِهِ ٱلْغَدُ، فَكَمْ مِنْ مُسْتَعْجِلٍ بِمَا إِنْ أَدْرَكَهُ وَدَّ أَنَّهُ لَمْ يُدْرِكْهُ. وَمَا أَقْرَبَ ٱلْيَوْمَ مِنْ تَبَاشِيرِ غَدٍ!

يَا قَوْمِ، هَذَا إِبَّانُ وُرُودِ كُلِّ مَوْعُودٍ، وَدُنُوٌّ مِنْ طَلْعَةِ مَا لاَ تَعْرِفُونَ. أَلاَ وَإِنَّ مَنْ أَدْرَكَهَا مِنَّا يَسْرِي فِيهَا بِسِرَاجٍ مُنِيرٍ، وَيَحْذُو فِيهَا عَلَى مِثَالِ الصَّالِحِينَ، لِيَحُلَّ فِيهَا رِبْقاً، وَيُعْتِقَ فِيهَا رِقًّا، وَيَصْدَعَ شَعْباً، وَيَشْعَبَ صَدْعاً، فِي سُتْرَةٍ عَنِ النَّاسِ، لاَ يُبْصِرُ ٱلْقَائِفُ أَثَرَهُ، وَلَوْ تَابَعَ نَظَرَهُ، ثُمَّ لَيُشْحَذَنَّ فِيهَا قَوْمٌ شَحذَ ٱلْقَيْنِ النَّصْلَ، تُجْلَى بِالتَّنْزِيلِ أَبْصَارُهُمْ، وَيُرْمَى بالتفسير فِي مَسَامِعِهِمْ، وَيُغْبَقُونَ كَأْسَ ٱلْحِكْمَةِ بَعْدَ الصَّبُوحِ.

الشرح: يذكر عَلَيْهِ السَّلامُ قوماً من فرق الضلال أخذوا يميناً وشمالاً، أي ضلّوا عن الطريق الوسطى التي هي منهاج الكتاب والسنة، وذلك لأنّ كلّ فضيلة وحقّ فهو محبوس بطرَفَيْن خارجين عن العدالة، وهما جانبا الإفراط والتفريط، كالفطانة التي هي محبوسة بالجربزة والغباوة، والشجاعة التي هي محبوسة بالتهوّر والجبن، والجود المحبوس بالتبذير والشحّ، فمن لم يقعْ على الطريق الوسطى وأخذ يميناً وشمالاً فقد ضلّ.

ثم فسّر قوله: «أخذ يميناً وشمالاً»، فقال: «ظعنوا ظعناً في مسالك الغيّ، وتركوا مذاهب الرشد تركاً». ونصب «تركاً» و «ظعناً» على المصدرية، والعامل فيهما من غير لفظهما، وهو قوله: «أخذوا». ثم نهاهم عن استعجال ما هو معدّ، ولا بدّ من كونه ووجوده، وإنما سماه كائناً لقرب كونه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾[1]، ونهاهم أن يستبطئوا ما يجيء في الغد لقرب وقوعه، كما قال:

وإن غـداً لـلـنـاظـريـن قـريـب

وقال الآخر:

غـدٌ مـا غـد مـا أقـرب الـيـوم مـن غـد

وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[2].

ثم قال: كم من مستعجلٍ أمراً ويحرص عليه، فإذا حصل وَدّ أنه لم يحصل! قال أبو العتاهية:

مَـنْ عـاش لاقـى مـا يـسـو ... ءُ مـن الأمـور ومـا يـسـرُّ
ولـرب حَـتْـفٍ فـوقَـه ... ذهـبٌ ويـاقـوت ودُرُّ

وقال آخر:

فـلا تـتـمـنَّـيَـنَّ الـدهـر شـيـئـاً ... فـكـم أمـنـيّـةٍ جـلـبـت مَـنـيّـهْ

وقال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[3]. وتباشير الصبح: أوائله.

ثم قال: يا قومُ قد دنَا وَقت القيامة، وَظهور الفتن التي تظهر أمامها.

وإبّان الشيء، بالكسر وَالتشديد: وَقته وَزمانه، وَكنى عن تلك الأهوال بقوله: «وَدُنُوٌّ من طلعة ما لا تعرفون»؛ لأن تلك الملاحم والأشراط الهائلة غير معهود مثلُها، نحو دابّة الأرض، والدجّال وَفتنته، وَما يظهر على يده من المخاريق وَالأمور الموهِمة، وَواقعة السُّفيانيّ وَما يقتل فيها من الخلائق الذين لا يحصَى عددهم.

ثم ذكر أن مهديّ آل محمد ﷺ، وهو الذي عني بقوله: «وإنّ مَنْ أدركَها منّا يسري في ظلمات هذه الفتن بسراج منير»، وهو المهديّ، وأتْباع الكتاب والسنة.

ويحذُو فيها: يقتفي ويتّبع مثال الصالحين، ليحلّ في هذه الفتن. وربِقاً: أي حبلاً معقوداً.

ويعتِقُ رِقًّا، أي يستفِكّ أسْرَى، وينقذ مظلومين من أيدي ظالمين.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٣٠.
(٢) سورة هود، الآية: ٨١.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ١٦.

ويصدَع شَعباً، أي يفرّق جماعة من جماعات الضلال. ويشعَبُ صَدْعاً: يجمع ما تفرّق من كلمة أهل الهدى والإيمان.

قوله عليه السلام: «في سترة عن الناس»، هذا الكلام يدلّ على استتار هذا الإنسان المشار إليه، وليس ذلك بنافع للإمامية في مذهبهم، وإن ظنوا أنه تصريح بقولهم، وذلك لأنّه من الجائز أن يكون هذا الإمام يخلقه الله تعالى في آخر الزمان، ويكون مستتراً مدة، وله دعاء يدعُون إليه، ويقرّرون أمره، ثم يظهر بعد ذلك الاستتار، ويملك الممالك، ويقهر الدّول، ويمهّد الأرض، كما ورد في قوله: «لا يبصر القائف»، أي هو في استتار شديدٍ لا يدركه القائف، وهو الذي يعرِف الآثار، والجمع «قَافة»، ولا يعرف أثره ولو استقصى في الطلب، وتابع النّظر والتأمل.

ويقال: شَحَذْتُ السّكين أشحَذُه شَحْذاً، أي حدّدتَه، يريد: لَيُحَرّضنّ في هذه الملاحم قوم على الحرب وقتل أهل الضلال، ولتُشحَذنّ عزائمهم كما يشحَذ الصَّيْقل السيف، ويرقّق حَدّه.

ثم وصف هؤلاء القوم المشحوذِي العزائم، فقال: تجْلَى بصائرُهم بالتنزيل، أي يكشف الرَّيْن والغطاء عن قلوبهم بتلاوة القرآن وإلهامهم تأويلَه ومعرفة أسراره.

ثم صرّح بذلك فقال: «ويرمي بالتفسير في مسامعهم»، أي يكشف لهم الغطاء، وتخلَق المعارف في قلوبهم، ويلهَمون فَهمَ الغوامض والأسرار الباطنة، ويغبَقون كأسَ الحكم بعد الصّبوح، أي لا تزال المعارف الربّانية والأسرار الإلهية تفيض عليهم صباحاً ومساءً، فالغَبوق كناية عن الفَيْض الحاصل لهم في الآصال، والصبّوح كناية عمّا يحصل لهم منه في الغَدَوات، وهؤلاء هم العارفون الذين جمعوا بين الزهد والحكمة والشجاعة، وحقيق بمثلهم أن يكونوا أنصاراً لوليّ الله الذي يجتبيه، ويخلقه في آخر أوقات الدنيا، فيكون خاتمة أوليائه، والذي يلقي عصا التكليف عنده.

الأصل: منها: وَطَالَ ٱلْأَمَدُ بِهِمْ لِيَسْتَكْمِلُوا ٱلخِزْى، وَيَسْتَوْجِبُوا ٱلْغِيَرَ، حَتَّى إِذَا ٱخْلَوْلَقَ ٱلْأَجَلُ، وَٱسْتَرَاحَ قَوْمٌ إِلَى ٱلْفِتَنِ، وَٱشْتَالُوا عَنْ لَقَاحِ حَرْبِهِمْ، لَمْ يَمُنُّوا عَلَى ٱللهِ بِالصَّبْرِ، وَلَمْ يَسْتَعْظِمُوا بَذْلَ أَنْفُسِهِمْ فِي ٱلْحَقِّ، حَتَّى إِذَا وَافَقَ وَارِدُ ٱلْقَضَاءُ ٱنْقِطَاعَ مُدَّةِ ٱلْبَلَاءِ، حَمَلُوا بَصَائِرَهِمْ عَلَى أَسْيَافِهِمْ، وَدَانُوا لِرَبِّهِمْ بِأَمْرِ وَاعِظِهِمْ.

الشرح: هذا الكلام يتّصل بكلام قبله، لم يذكره الرضيّ رحمه الله، وهو وصف فئة ضالّة قد استولتْ وملَكت، وأملي لها لله سبحانه. قال عليه السلام: وطال الأمدُ بهم ليستكملوا الخزْي، ويستوجبوا الغِيَر، أي النعم التي يغيّرها بهم من نعم الله سبحانه، كما قال: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن

﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[1]، وكما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[2].

حتى إذا اخلولَق الأجَل، أي قارب أمرُهم الانقضاء، من قولك: اخلولق السّحاب، أي استوى، وصار خليقاً بأن يمطر، واخلولق الرسمُ: استوى مع الأرض. واستراح قوم إلى الفتن، أي صبا قومٌ من شيعتنا وأوليائنا إلى هذه الفتة، واستراحوا إلى ضلالها وفتنتها، واتّبعوها.

واشتالوا عن لَقاح حَرْبهم، أي رفعوا أيديهم وسيوفهم عن أن يشبّوا الحرب بينهم وبين هذه الفئة. مهادَنةً لها وسلماً وكراهية للقتال، يقال: شال فلان كذا، أي رفعه، واشتال «افتعل» هو في نفسِه، كقولك: حَجَم زيد عمراً، واحتجم هو نفسُه. ولَقاح حربهم: هو بفتح اللام، مصدر من لَقحت الناقة.

قوله: «لم يمنُّوا»، هذا جواب قوله: «حتى إذا»، والضمير في «يمنُّوا» راجع إلى العارفين الذين تقدّم ذكرهم في الفصل السابق ذكره، يقول: حتى إذا ألقى هؤلاء السّلام إلى هذه الفئة عجزاً عن القتال، واستراحوا من منابذتهم بدخولهم في ضلالتهم وفتنتهم، إمّا تقيَّة منهم، أو لشبهة دخلت عليهم، أنهض الله تعالى هؤلاء العارفين الشجعان الّذين خصّهم بحكمته، وأطلعهم على أسرار ملَكوته فنهضوا، ولم يمنُّوا على الله تعالى بصبرِهم، ولم يستعظموا أن يبذُلوا في الحقّ نفوسَهم، قال: حتّى إذا وافق قضاء الله تعالى وقَدَره كي ينهض هؤلاء بقضاء الله وقدره في انقضاء مدة تلك الفئة، وارتفاع ما كان شَمِل الخلْق من البلاء بملكها وإمْرتها، حَمل هؤلاء العارفون بصائرَهم على أسيافهم. وهذا معنى لطيف، يعني أنّهم أظهروا بصائرهم وعقائدهم وقلوبهم للناس، وكشفوها وجرّدوها من أجفانها، مع تجريد السيوف من أجفانها، فكأنها شيء محمول على السيوف يبصره مَنْ يبصرِ السيوف، ولا ريبَ أنّ السيوف المجرّدة من أجلى الأجسام للأبصار، فكذلك ما يكون محمولاً عليها، ومِن الناس مَنْ فسّرِ هذا الكلام، فقال: أراد بالبصائر جمع بصرة، وهو الدم، فكأنه أراد طلبوا ثأرهم والدماء التي سفكتها هذه الفئة، وكأنّ تلك الدماء المطلوب ثأرها محمولة على أسيافهم التي جَرّدوها للحرب، وهذا اللفظ قد قاله بعض الشعراء المتقدمين بعينه:

رَاحُوا بصائرَهُم علَى أكْتافِهِمْ وبَصِيرَتي يَغْدُو بها عَتَدٌ وأي

وفسّره أبو عمرو بن العلاء، فقال: يريد أنهم تركوا دم أبيهم وجعلوه خَلْفَهم، أي لم يثأروا به، وأنا طلبت ثأري. وكان أبو عبيدة معمَر بن المثنّى يقول في هذا البيت: البصيرة: التّرس أو الدّرع، ويرويه: «حملوا بصائرهم».

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ١٦. (٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨٢.

الأصل: حَتَّى إِذَا قَبَضَ ٱللهُ رَسُولَهُ رَجَعَ قَوْمٌ عَلَى ٱلْأَعْقَابِ، وَغَالَتْهُمُ السُّبُلُ، وَٱتَّكَلُوا عَلَى ٱلْوَلَائِجِ، وَوَصَلُوا غَيْرَ الرَّحِمِ، وَهَجَرُوا السَّبَبَ ٱلَّذِي أُمِرُوا بِمَوَدَّتِهِ، وَنَقَلُوا ٱلْبِنَاءَ عَنْ رَصِّ أَسَاسِهِ، فَبَنَوْهُ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ.

مَعَادِنُ كُلِّ خَطِيئَةٍ، وَأَبْوَابُ كُلِّ ضَارِبٍ فِي غَمْرَةٍ. قَدْ مَارُوا فِي ٱلْحَيْرَةِ، وَذَهَلُوا فِي السَّكْرَةِ، عَلَى سُنَّةٍ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ، مِنْ مُنْقَطِعٍ إِلَى ٱلدُّنْيَا رَاكِنٍ، أَوْ مُفَارِقٍ لِلدِّينِ مُبَايِنٍ.

الشرح: رجعوا على الأعقاب: تركوا ما كانوا عليه، قال سبحانه: ﴿وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾(١).

وغالتهم السُّبُل: أهلكَهُم اختلاف الآراء والأهواء، غاله كذا، أي أهلكه، والسُّبُل: الطرق.

والولائج: جمع وَلِيجة، وهي البِطانَة يتّخذها الإنسان لنفسه، قال سبحانه: ﴿وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً﴾(٢).

ووصلوا غير الرَّحِم، أي غير رحِم الرسول الله صلى الله عليه وآله، فذكرها عليه السلام ذِكْراً مطلقاً غير مضاف للعلْم بها، كما يقول القائل: «أهل البيت»، فيعلم السامع أنه أراد أهلَ بيت الرسول.

وهَجَرُوا السبب، يعني أهلَ البيت أيضاً، وهذه إشارة إلى قول النبي صلى الله عليه وآله: «خَلَّفْتُ فيكم الثَّقَلَين: كتاب الله وعِترتي أهل بيتي، حبْلان ممدودان من السماء إلى الأرض، لا يفترقان حتى يرِدَا عليّ الحوض»(٣)، فعبّر أمير المؤمنين عن أهل البيت بلفظ «السبب» لمّا كان النبي صلى الله عليه وآله قال: «حبْلان»، والسبب في اللغة: الحبل.

عَنَى بقوله: «أمِرُوا بمودّته» قولَ الله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾(٤).

قوله: «ونقلوا البناء عن رصّ أساسه،»، الرّصّ مصدر رَصَصْت الشيء أرصّه، أي ألصقت بعضه ببعض، ومنه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾(٥)، وتَراصّ القوم في الصف، أي تلاصقوا. فبنوْه في غير موضعه! ونقلوا الأمر عن أهله إلى غير أهله.

ثم ذمّهم عليه السلام، وقال: «إنّهم معادن كلّ خطيئة، وأبواب كل ضاربٍ في غَمْرة»، الغمرة: الضّلال والجهل. والضّارب فيها: الداخل المعتقد لها.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤. (٢) سورة التوبة، الآية: ١٦.

(٣) أخرج بنحوه النسائي في «السنن الكبرى» (٨١٤٨)، والطبراني في «الأوسط» (٣٥٤٢)، و«الصغير» (٣٧٦)، و«الكبير» (٤٩٢٢).

(٤) سورة الشورى، الآية: ٢٣. (٥) سورة الصف، الآية: ٤.

قد ماروا في الحيْرة، مارَ يمُور إذا ذهب وجاء، فكأنّهم يسبحون في الحيرة كما يَسْبَح الإنسان في الماء.

وذهَل فلان، بالفتح، يذْهَل. على سنّة من آل فرعون، أي على طريقة، وآل فرعون: أتباعه، قال تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾[1].

من منقطِع إلى الدنيا: لا همّ له غيرها. راكن: مخلِد إليها، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾[2]. أو مفارق للدين مباين: مزايل.

فإن قلت: أيّ فَرْق بين الرَّجُلين؟ وهل يكون المنقطِع إلى الدنيا إلاّ مفارقاً للدين؟

قلت: قد يكون في أهل الضلالَ مَنْ هو مفارق للدين مباين، وليس براكنٍ إلى الدنيا ولا منقطِع إليها، كما نرى كثيراً من أحْبَار النصارى ورهبانهم.

فإن قلت: أليس هذا الفصل صريحاً في تحقيق مذهب الإمامية؟

قلت: لا، بل نحمله على أنه عَنَى عليه السلام أعداءه الذين حاربوه من قريش وغيرهم من أفناء العرب، في أيام صِفّين، وهم الذين نقلوا البناء، وهجروا السبب، ووصلُوا غَير الرَّحِم، واتّكلوا على الولائج، وغالتهم السبُل، ورجعوا على الأعقاب، كعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، ومَرْوان بن الحكم، والوليد بن عُقْبة، وحبيب بن مسلمَة، وبُسْر بن أرطاة، وعبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وحوشب، وذِي الكَلاع، وشُرَحْبيل بن السّمط، وأبي الأعور السلميّ، وغيرهم ممن تقدّم ذكرُنا له في الفصول المتعلّقة بصِفّين وأخبارها، فإنّ هؤلاء نقلوا الإمامة عنه عليه السلام إلى معاوية، فنقلوا البناء عن رصّ أصله إلى غير موضعه.

فإن قلت: لفظ الفصل يشهدُ بخلاف ما تأوّلتَه؛ لأنه قال عليه السلام: حتى إذا قبض الله رسوله رجع قوم على الأعقاب، فجعل رجوعَهم على الأعقاب عَقِيب قَبْض الرسول صلى الله عليه وآله، وما ذكرتَه أنتَ كان بعد قَبْض الرّسول بنيّف وعشرين سنة!

قلت: ليس يمتنع أن يكونَ هؤلاء المذكورون رجعوا على الأعقاب، لـمّا مات رسول الله صلى الله عليه وآله، وأضمَرُوا في أنفسهم مشاقّة أمير المؤمنين وأذاه، وقد كان فيهم مَنْ يتحكّك به في أيام أبي بكر وعمر وعثمان، ويتعرّض له، ولم يكن أحدٌ منهم ولا من غيرهم يُقدِم على ذلك في حياة رسول الله. ولا يمتنع أيضاً أن يريد برجوعهم على الأعقاب ارتدَادهم عن الإسلام بالكلّيّة، فإنّ كثيراً من أصحابنا يطعنون في إيمان بعض مَنْ ذكرناه ويعدّونهم من المنافقين، وقد كان سيفُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقمَعُهم ويردَعُهم عن إظهار ما في أنفسهم من

---

(١) سورة غافر، الآية: ٤٦.

(٢) سورة هود، الآية: ١١٣.

النّفاق، فأظهر قومٌ منهم بعده ما كانوا يضمِرُونه من ذلك، خصوصاً فيما يتعلّق بأمير المؤمنين، الذي وَرَد في حقّه: «ما كنّا نعرفُ المنافِقِين عَلَى عَهْدِ رسول الله إلاّ ببغض عليّ بن أبي طالب»[1]، وهو خَبَرٌ محقّق مذكور في الصّحاح.

فإن قلت: يمنعك من هذا التأويل قوله: «ونقلوا البنَاء عن رصّ أساسه، فجعلوه في غير موضعه»، وذلك لأنّ «إذا» ظرف، والعامل فيها قوله: «رجع قومٌ على الأعقاب» وقد عطف عليه قوله: «ونقلوا البناء»، فإذا كان الرّجوع على الأعقاب واقعاً في الظرف المذكور، وهو وقت قبض الرسول، وجَب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعاً في ذلك الوقت أيضاً؛ لأنّ أحد الفعلين معطوف على الآخر، ولم ينقلْ أحدٌ وقتَ قبض الرسول الله صلى الله عليه وسلم البناءَ إلى معاوية عن أمير المؤمنين عليه السلام، وإنّما نُقِل عنه إلى شخص آخر، وفي إعطاء العطف حقّه إثبات مذهب الإماميّة صريحاً!

قلت: إذا كان الرجوعُ على الأعقاب واقعاً وقت قبْض النبي صلى الله عليه وسلم فقد قمنا بما يجبُ من وجود عامل في الظرف، ولا يجب أن يكون نقل البناء إلى غير موضعه واقعاً في تلك الحال أيضاً، بل يجوز أن يكون واقعاً في زمان آخر، إمّا بأن تكون الواو للاستئناف لا للعطف، أو بأن تكون للعطف في مطلق الحدث لا في وقوع الحدَث في عين ذلك الزّمان المخصوص، كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾[2]، فالعامل في الظرف «استطعما» ويجب أن يكون استطعامهما وقت إتيانهما أهلَها لا محالة. ولا يجب أن تكون جميع الأفعال المذكورة المعطوفة واقعة حال الإتيان أيضاً، ألا ترى أنّ من جملتها «فأقامه» ولم يكن إقامة الجدار حال إتيانهما القرية بل متراخياً عنه بزمان ما، اللّهم إلا أن يقول قائل: أشار بيده إلى الجدار فقام، أو قال له: قم، فقام؛ لأنه لا يمكن أن يجعل إقامة الجدار مقارناً للإتيان إلاّ على هذا الوجه، وهذا لم يكن، ولا قاله مفسر ولو كان قد وقع على هذا الوجه لما قال له: ﴿لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾[3]؛ لأنّ الأجر إنما يكون على اعتمال عمل فيه مشقّة، وإنما يكون فيه مشقّة إذا بناه بيده، وباشره بجوارحه وأعضائه.

واعلم أنّا نحمل كلام أمير المؤمنين عليه السلام على ما يقتضيه سؤدُده الجليل، ومنصبه العظيم، ودينه القويم، من الإغضاء عَمّا سلف ممّن سلف، فقد كان صاحَبَهم بالمعروف بُرْهةً من الدهر، فإمّا أنْ يكون ما كانوا فيه حقَّهم أو حقه، فتركه لهم رفعاً لنفسه عن المنازعة، أو لما رآه من المصلحة، وعلى كلا التقديرين فالواجب علينا أن نطبّق بين آخر أفعاله وأقواله بالنسبة إليهم

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٤٣)، والطبراني في «الأوسط» (٢١٢٥).
(٢) سورة الكهف، الآية: ٧٧.
(٣) سورة الكهف، الآية: ٧٧.

وبين أولها، فإنّ بُعْد تأويل ما يتأوّله من كلامه، ليس بأبعد من تأويل أهل التوحيد والعدل الآيات المتشابهة في القرآن، ولم يمنع بعدها من الخوض في تأويلها محافظةً على الأصول المقررة، فكذلك هاهنا.

١٥١ - ومن خطبة له عليه السلام في التحذير من الفتن

الأصل: وَأَسْتَعِينُهُ عَلَى مَدَاحِرِ الشَّيْطَانِ وَمَزَاجِرِهِ، وَالاِعْتِصَامِ مِنْ حَبَائِلِهِ وَمَخَاتِلِهِ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَنَجِيبُهُ وَصَفْوَتُهُ، لاَ يُؤَازَى فَضْلُهُ، وَلاَ يُجْبَرُ فَقْدُهُ، أَضَاءَتْ بِهِ ٱلْبِلاَدُ بَعْدَ الضَّلاَلَةِ الْمُظْلِمَةِ، وَٱلْجَهَالَةِ ٱلْغَالِبَةِ، وَٱلْجَفْوَةِ ٱلْجَافِيَةِ، وَالنَّاسُ يَسْتَحِلُّونَ ٱلْحَرِيمَ، وَيَسْتَذِلُّونَ ٱلْحَكِيم، يَحْيَوْنَ عَلَى فَتْرَةٍ، وَيَمُوتُونَ عَلَى كَفْرَةٍ.

ثُمَّ إِنَّكُمْ مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ أَغْرَاضُ بَلاَيَا قَدِ ٱقْتَرَبَتْ، فَاتَّقُوا سَكَرَاتِ النِّعْمَةِ، وَٱحْذَرُوا بَوَائِقَ النِّقْمَةِ، وَتَثَبَّتُوا فِي قَتَامِ ٱلْعِشْوَةِ، وَٱعْوِجَاجِ ٱلْفِتْنَةِ، عِنْدَ طُلُوعِ جَنِينِهَا، وَظُهُورِ كَمِينِهَا، وَٱنْتِصَابِ قُطْبِهَا، وَمَدَارِ رَحَاهَا، تَبْدَأُ فِي مَدَارِجَ خَفِيَّةٍ، وَتَؤُولُ إِلَى فَظَاعَةٍ جَلِيَّةٍ، شِبَابُهَا كَشِبَابِ ٱلْغُلاَمِ، وَآثَارُهَا كَآثَارِ السِّلاَمِ، يَتَوَارَثُها الظَّلَمَةُ بِالْعُهُودِ، أَوَّلُهُمْ قَائِدٌ لآخِرِهِمْ، وَآخِرُهُمْ مُقْتَدٍ بِأَوَّلِهِمْ، يَتَنَافَسُونَ فِي دُنْيَا دَنِيَّةٍ، وَيَتَكَالَبُونَ عَلَى جِيفَةٍ مُرِيحَةٍ، وَعَنْ قَلِيلٍ يَتَبَرَّأُ التَّابِعُ من المَتْبُوعِ، وَٱلْقَائِدُ مِنَ المَقُودِ، فَيَتَزَايَلُونَ بِالْبَغْضَاءِ، وَيَتَلاَعَنُونَ عِنْدَ اللِّقَاءِ.

ثُمَّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ طَالِعُ ٱلْفِتْنَةِ الرَّجُوفِ، وَٱلْقَاصِمَةِ الزَّحُوفِ، فَتَزِيغُ قُلُوبٌ بَعْدَ ٱسْتِقَامَةٍ، وَتَضِلُّ رِجَالٌ بَعْدَ سَلاَمَةٍ، وَتَخْتَلِفُ ٱلأَهْوَاءُ عِنْدَ هُجُومِهَا، وَتَلْتَبِسُ الآرَاءُ عِنْدَ نُجُومِهَا.

مَنْ أَشْرَفَ لَهَا قَصَمَتْهُ، وَمَنْ سَعَى فِيهَا حَطَمَتْهُ، يَتَكَادَمُونَ فِيهَا تَكَادُمَ الحُمُرِ فِي ٱلْعَانَةِ. قَدِ ٱضْطَرَبَ مَعْقُودُ ٱلحَبلِ، وَعَمِيَ وَجْهُ ٱلأَمْرِ، تَغِيضُ فِيهَا ٱلحِكْمَةُ، وَتَنْطِقُ فِيهَا الظَّلَمَةُ، وَتَدُقُّ أَهْلَ ٱلْبَدْوِ بِمِسْحَلِهَا، وَتَرُضُّهُمْ بِكَلْكَلِهَا، يَضِيعُ فِي غُبَارِهَا ٱلْوُحْدَانُ، وَيَهْلِكُ فِي طَرِيقِهَا الرُّكْبَانُ، تَرِدُ بِمُرِّ ٱلْقَضَاءِ، وَتَحْلُبُ عَبِيطَ الدِّمَاءِ، وَتَثْلِمُ مَنَارَ الدِّينِ، وَتَنْقُضُ عَقْدَ ٱلْيَقِينِ.

يَهْرُبُ مِنْهَا الأَكْيَاسُ، وَيُدَبِّرُهَا الأَرْجَاسُ. مِرْعَادٌ مِبْرَاقٌ، كَاشِفَةٌ عَنْ سَاقٍ، تُقْطَعُ فِيهَا الأَرْحَامُ، وَيُفَارَقُ عَلَيْهَا الإِسْلاَمُ، بَرِيئُها سَقِيمٌ، وَظَاعِنُهَا مُقِيمٌ.

الشرح: مداحر الشيطان: الأمور التي يُدحَرُ بها، أي يطرد ويبعد، دحرتُه أدْحَرُهُ دُحوراً، قال تعالى: ﴿دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۝﴾[1]، وقال سبحانه: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا﴾[2]، أي مقصًى.

ومزاجره: الأمور يزجربها، جمع مَزْجر: ومَزْجرة، وكثيراً ما يبني عليه السلام من الأفعال «مَفْعلاً» و«مَفْعَلة» ويجمعه، وإذا تأمّلت كلامه عرفت ذلك.

وحبائل الشيطان: مكائده وأشراكه التي يُضِلّ بها البشر. ومخاتله: الأمور التي يخْتِل بها، بالكسر، أي يخدع.

لا يُوازى فضله: لا يساوَى، واللفظة مهموزة، آزيت فلاناً: حاذَيْته، ولا يجوز «وازيته».

ولا يجبر فقدُه: لا يسدّ أحدٌ مسدّه بعده. والجفوة الجافية: غِلَظ الطّبع وبلادة الفهم.

ويستذِلّون الحكيم: يستضيمون العقلاء، واللام هاهنا للجنس، كقوله: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾[3].

يحيوْن على فَتْرة: على انقطاع الوحي ما بين نبوّتين. ويموتون على كَفْرة، بالفتح، واحد الكَفَرات، كالضربة واحدة الضّربات.

ويروى: «ثم إنّكم معشر الناس». والأغراض: الأهداف. وسكَرات النعمة: ما تحدثه النّعم عند أربابها من الغَفْلة المشابهة للسُّكر، قال الشاعر:

خَـمْـسُ سَـكَـرات إذا مُـنِـيَ الـمـرْ ءُ بـهـا صـارَ عُـرْضَـةً لـلـزّمـانِ
سَـكْـرَةُ الـمـال والـحـداثـة والـعِـشْــ ـق وسـكْـر الـشّـراب وَالـسّـلـطـانِ

ومن كلام الحكماء: للوالي سَكْرة لا يُفيق منها إلاّ بالعزْل. والبوائق: الدّواهي، جمع بائقة، يقال: باقَتْهُم الدّاهية بَوْقاً، أي أصابَهم، وكذلك: باقتهم بؤوق على «فَعول»، وابتاقت عليهم بائقة شرّ، مثل انباحت، أي انفتقت، وانباقَ عليهم الدّهر: هجم بالداهية، كما يخرُج الصوت من البُوق، وفي الحديث: «لا يدخل الْجَنّة من لا يأمن جارُه بوائقَه»[4]، أي غوائله وشرّه. والقَتام، بفتح القاف: الغبار. والأقتم: الذي يعلوه قَتمة، وهو لونٌ فيه غبرة وحُمْرة.

والعِشْوة، بكسر العين: ركوب الأمر على غير بيان ووضوح. ويروى: «وتبيّنوا في قَتَام العِشْوة» كما قرىء: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا﴾[5] و﴿فَتَثَبَّتُوا﴾، واعوجاج الفتنة: أخذها في غَيْرِ القَصْد، وعدولها عن المنهج.

---

(١) سورة الصافات، الآية: ٩.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٨.
(٣) سورة الفجر، الآية: ٢٢.
(٤) أخرجه مسلم، كتاب: الإيمان، باب: تحريم إيذاء الجار (٤٦)، وأحمد في «مسنده» (٨٦٣٨).
(٥) سورة الحجرات، الآية: ٦.

ثم كَنَى عن ظهور المستور المخفيّ منها بقوله: «عند طلوع جنينها، وظهور كمينِها»، والجنين: الولد ما دام في البطْن، والجمع أجِنّة، ويجوز ألاّ يكون الكلام كناية بل صريحاً، أي عند طلوع ما استجنّ منها، أي استتر وظهور ما كمن، أي ما بطن.

وكَنَى عن استحكام أمر الفتنة بقوله: «وانتصاب قطبها، ومدار رحاها».

ثم قال: إنّها تبدو يسيرة، ثم تصير كثيرة.

والفظاعة مصدر فظُع بالضم، فهو فظيع أي شديد شنيع تجاوز المقدار، وكذلك أفظَع الرجل فهو مُفظِع، وأُفظِعَ الرجل على ما لم يسمّ فاعله: نزل به أمر عظيم، وأفظعت الشيء: وجدته فظيعاً، ومثله استفظعته، وهذا المعنى كما قال الشاعر:

وَلَرُبَّمَا هَاجَ الكَبِيـ ... ـرَ مِن الأمور لك الصغيرُ

وفي المثل: «الشر تبدؤه صغارهُ»، وقال الشاعر:

فإنّ النَّارَ بالعُودَيْن تُذْكَى ... وَإنَّ الحِرْبَ أوَّلُها كَلاَمُ

وقال أبو تمام:

ربّ قليل جَدًا كثيراً ... كم مطرٍ بَدْؤهُ مَطِيرُ

وقال أيضاً:

لا تذيلنْ صغير هَمّك وانظُرْ ... كم بذي الأثلِ دوحة من قَضِيبِ

قوله: «شِبابها كشِباب الغلام» بالكسر، مصدر شبّ الفرس والغلام يشِبّ ويشَبّ شباباً وشبيباً، إذا قمص ولعب، وأشببتُه أنا، أي هَيّجْتُه.

والسّلام: الحجارة جمع، واحده سَلِمة بكسر اللام، يذكر الفتنة، ويقول: إنّها تبدو في أوّل الأمر وأربابها يمرحون ويشِبّون كما يشِبّ الغلام ويمرح، ثم تؤول إلى أن تعقب فيهم آثاراً، كآثار الحجارة في الأبدان، قال الشاعر:

والحب مثل الحرب أوّلهـ ... ـا التخيّل والنشاطُ

وختامها أم الربيـ ... ـق النّكز والضّربُ الْقَطاطُ

ثم ذكر أن هذه الفتنة يتوارثها قوم من قوم، وكلّهم ظالم، أولهم يقود آخرهم، كما يقود الإنسان القطارَ من الإبل وهو أمامها وهي تتبعه. وآخرهم يقتدِي بأوّلهم، أي يفعل فعلَه، ويحذو حذوَه.

وجيفة مرِيحة: منتنة، أراحت: ظهر ريحُها. ويجوز أن تكون من أراحَ البعير، أي مات، وقد جاء في «أراح» بمعنى أنتن «راح» بلا همز.

ثم ذكر تبرّؤ التابع من المتبوع، يعني يوم القيامة.

فإن قلت: إنّ الكتاب العزيز إنما ذكر تبرؤ المتبوع من التابع في قوله: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا وَرَأَوُا ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾(١)، وهاهنا قد عكس ذلك، فقال: إنّ التابع يتبرّأ من المتبوع!

قلت: إنه قد ورد في الكتاب العزيز مثل ذلك، في قوله: ﴿أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾(٢). ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾(٣)، فقولهم: ﴿لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا مِن قَبْلُ شَيْـًٔا﴾ هو التبرؤ، وهو قوله حكاية عنهم: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٤)، وهذا هو التبرّؤ.

ثم ذكر عليه السلام أنّ القائد يتبرّأ من المقود، أي يتبرّأ المتبوع من التابع فيكون كلٌّ من الفريقين تبرّأ من صاحبه، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾(٥).

ويتزايلون: يتفرّقون.

قوله: «ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرّجوف». طالعها: مقدّماتها وأوائلها، وسمّاها «رَجوفاً» لشدّة الاضطراب فيها.

فإن قلت: ألم تكن قلتَ: إنّ قوله: «عن قليل يتبرّأ التابع من المتبوع» يعني به يوم القيامة، فكيف يقول: «ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة» وهذا إنّما يكون قبل القيامة!

قلت: إنّه لمّا ذكر تنافس الناس على الجيفة المنتنة وهي الدنيا، أراد أن يقول بعده بلا فصل: «ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرّجوف»، لكنه لما تعجّب من تزاحم الناس وتكالبهم على تلك الجيفة، أراد أن يؤكّد ذلك التعجّب، فأتي بجملة معترضة بين الكلامين. تؤكد معنى تعجّبه منهم، فقال: إنّهم على ما قد ذكرنا من تكالُبهم عليها، عن قليل يتبرّأ بعضهم من بعض، ويلعن بعُضهم بعضاً، وذلك أدعى لهم - لو كانوا يعقلون - إلى أن يتركوا التكالُب والتهارُش على هذه الجيفةِ الخسيسةِ. ثم عاد إلى نظام الكلام، فقال: «ثم يأتي بعد ذلك طالع الفتنة الرَّجوف»، ومثلُ هذا الاعتراض في الكلام كثير، وخصوصاً في القرآن، وقد ذكرنا منه فيما تقدّم طرفاً.

قوله: «والقاصمة الزّحوف» القاصمة: الكاسرة، وسماها زَحُوفاً تشبيهاً لمشيها قُدُماً بمشي الدَّبي الذي يهلك الزروع ويبيدها، والزحف: السير على تُؤَدة كسيرِ الجيوش بعضها إلى بعض.

قوله: «وتزيغ قلُوب» أي تميل، وهذه اللفظة والتي بعدها دالّتان على خلاف ما تذهب إليه الإماميّة من أنّ المؤمن لا يكفّر، وناصرتان لمذهب أصحابنا.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٦٦.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ٢٢.
(٣) سورة غافر، الآية: ٧٤.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ٢٣.
(٥) سورة العنكبوت، الآية: ٢٥.

ونجومُها: مصدر نَجَم الشرّ إذا ظهر.

مَنْ أشرف لها: مَنْ صادَمها وقابلها. ومَنْ سعى فيها، أي في تسكينها وإطفائها، وهذا كلّه إشارة إلى الملحمة الكائنة في آخر الزمان.

والتكادُم: التعاضّ بأدنى الفم، كما يكدِم الحمار، كَدَم يكدِم، والمكدَم: المعضّ.

والعانة: القطيع من حُمر الوحش، والجمع عُون.

تغيض فيها الحكمة: تنقُص.

فإن قلت: ليس قوله: «وتنطِق فيها الظلمة» واقعاً في نقيض قوله: «تغيض فيها الحكمة»، فأين هذا مِن الخَطَابة التي هو فيها نسيجُ وحده!

قلت: بل المناقضة ظاهرة؛ لأنّ الحكمة إذا غاضت فيها لم ينطق بها أحد ولا بدّ من نطقٍ ما، فإذا لم تنطق الحكماء وجبَ أن يكون النطق لمن ليس من الحكماء، فهو من الظَّلَمة، فقد ثبت التناقض.

والمِسْحَل: المبرد. يقول: تنحت أهلَ البدْو وتسحتُهم كما يُسحَتُ الحديد أو الخشب بالمبرد. وأهل البدْو: أهلُ البادية، ويجوز أن يريد بالمسْحَل الحلْقة التي في طَرف شَكيم اللّجام المعترضة بإزاء حَلْقة أخرى في الطرف الآخر، وتدخل إحداهما في الأخرى، بمعنى أنّ هذه الفتنة تصدم أهل البدْو بمقدمة جيشها كما يصدِمُ الفارسُ الراجل أمامه بمسْحَل لجام فرسه.

والكَلْكَل: الصدر. وترضّهم: تدقُّهم دقًّا جريشاً.

قوله: «تضيع في غبارها الوُحْدان»، جمع واحد، مثل شابّ وشبّان، وراعٍ ورُعيان، ويجوز «الأُحدان» بالهمز، أي مَنْ كان يسير وحده فإنه يهلك بالكليّة في غبارها، وأمّا إذا كانوا جماعة ركباناً فإنهم يضلّون، وهو أقربُ من الهلاك، ويجوز أن يكونَ الوُحدان جمع أوحد، يقال: فلان أوحد الدّهر، وهؤلاء الوُحدان أو الأحدان، مثل أسود وسُودان، أي يضلّ في هذه الفتنة، وضلالها الذي كنّي عنه بالغبار فضلاء عصرِها وعلماء عهدها، لغموض الشّبهة واستيلاء الباطل على أهل وقتها. ويكون معنى الفقرة الثانية على هذا التفسير أنّ الراكب الذي هو بمظنّة النّجاة لا ينجو. والركْبان: جمع راكب، ولا يكون إلا ذا بعير. قوله: تَرِدُ بمُرّ القضاء، أي بالبوار والهلاك والاستئصال.

فإنه قلت: أيجوز أن يقال للفتنة القبيحة: إنها من القضاء؟

قلت: نعم، لا بمعنى الخلْق بل بمعنى الإعلام، كما قال سبحانه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ﴾[1] أي أعلمناهم، أي ترد هذه الفتنة بإعلام الله تعالى لمن يشاء

(١) سورة الإسراء، الآية: ٤.

إعلامه من المكلّفين أنها أمّ اللّهيم التي لا تبقي ولا تَذَر، فذلك الإعلام هو المرّ الذي لا يبلغ الوصفُ مرارتَه؛ لأنّ الإخبار عن حلول المكروه الذي لا مدفع عنه ولا محيص منهُ، مرٌّ جداً.

قوله: «وتحلُب عَبِيط الدماء»، أي هذه الفتنة يحلبُها الحالب دماً عبيطاً، وهذه كناية عن الحرب، وقد قال عليه السلام في موضع آخر: «أما والله ليحلبنّها دماً، وليتبعنها ندماً» والعبيط: الدم الطريّ الخالص. ثَلَمت الإناء، أثلِمه بالكسر. والأكياس: العقلاء.

والأرجاس: جمع رِجْس، وهو القَذَر والنّجس، والمراد هاهنا الفاسقون، فإمّا أن يكون على حذف المضاف، أي ويدبّرها ذوو الأرجاس، أو أن يكون جعلهم الأرجاس أنفسها، لمّا كانوا قد أسرفوا في الفسق، فصاروا كأنهم الفسق والنجاسة نفسها كما يقال: رجل عَدْل، ورجل رضا.

قوله: «مِرْعادٌ مبراقٌ»، أي ذات وعيد وتهدّد، ويجوز أن يعني بالرّعد صوتَ السلاح وقعقعته، وبالبرق لونَه وضوءه. وكاشفة عن ساقٍ: عن شدّة ومشقة.

قوله: «بريئها سقيم»، يمكن أن يعني بها أنّها لشدّتها لا يكاد الجذي يبرأ منها وينفض يده عنها يبرأ بالحقيقة، بل لا بدّ أن يستثنيَ شيئاً من الفسق والضلال، أي لشدّة التباس الأمر واشتباه الحال على المكلّفين حينئذٍ.

ويمكن أن يعني به أنّ الهارب منها غير ناجٍ، بل لا بدّ أن يصيبه بعض معرّتها ومضرّتها.

وظاعنها مقيم، أي ما يفارق الإنسان من أذاها وشرّها، فكأنه غير مفارق له؛ لأنه قد أبقى عنده ندوباً وعقابيل من شرورها وغوائلها.

الأصل: منها: بَيْنَ قَتِيلٍ مَطْلُولٍ، وَخَائِفٍ مُسْتَجِيرٍ، يَخْتِلُونَ بِعَقْدِ ٱلأَيْمَانِ، وَبِغُرُورِ ٱلإِيمَانِ، فَلاَ تَكُونُوا أَنْصَابَ ٱلْفِتَنِ، وَأَعْلاَمَ ٱلْبِدَعِ.

وَٱلْزَمُوا مَا عُقِدَ عَلَيْهِ حَبْلُ الجَمَاعَةِ، وَبُنِيَتْ عَلَيْهِ أَرْكَانُ الطَّاعَةِ. وَٱقْدَمُوا عَلَى ٱللهِ مَظْلُومِينَ، وَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ ظَالِمِينَ، وَٱتَّقُوا مَدَارِجَ الشَّيْطَانِ، وَمَهَابِطَ ٱلْعُدْوَانِ، وَلا تُدْخِلوا بُطُونَكُمْ لُعَقَ ٱلْحَرَامِ، فَإِنَّكُمْ بِعَيْنِ مَنْ حَرَّمَ عَلَيْكُمُ المَعْصِيَةَ، وَسَهَّلَ لَكُمْ سُبُلَ الطَّاعَةِ.

الشرح: يقال: طُلّ دم فلان فهو مطلول، أي مُهدَر لا يُطْلَب به، ويجوز أطِلّ دمُه، وطلّه الله وأطلّه: أهدره، ولا يقال: طَلّ دم فلان بالفتح، وأبو عبيدة والكسائيّ يقولانه.

ويختِلون: يخدعون بالأيمان التي يعقِدونها ويُقسِمون بها، وبالإيمان الذي يظهرونه ويقرّون به.

ثم قال: «فلا تكونوا أنصار الفِتَن، وأعلام البدع»، أي لا تكونوا ممّن يشارُ إليكم في البدع كما يشار إلى الأعلام المبنيّة القائمة، وجاء في الخبر المرفوع: «كُنْ في الفتنة كابنِ اللّبُون، لا ظهرَ فيركب، ولا ضرْع فيحلب»[1]، وهذه اللفظة يرويها كثير من النّاس لأمير المؤمنين عليه السلام.

قوله: «واقدَموا على الله مظلومين»، جاء في الخبر: «كنْ عبدَ الله المقتول».

ومدارج الشيطان: جمع مَدْرَجة، وهي السبيل التي يدرج فيها. ومهابط العدوان: محالّهُ التي يهبط فيها.

ولُعَق الحرام: جمع لُعْقةٍ، بالضمّ، وهي اسم لما تأخذه الملْعقة، واللَّعقة، بالفتح: المرّة الواحدة.

قوله: «فإنكم بعين من حَرّم»، يقال: أنت بعين فلان، أي أنت بمرأى منه، وقد قال عليه السلام في موضع آخر بصِفّين: «فإنّكم بعين الله، ومع ابن عمّ رسول الله»، وهذا من باب الاستعارة، قال سبحانه: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[2]، وقال: ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾[3].

١٥٢ - ومن خطبة له عليه السلام في صفات الله وأئمة الدين

الأصل: ٱلْحَمْدُ لله الدَّالِّ عَلَى وُجُودِهِ بِخَلْقِهِ، وَبِمُحْدَثِ خَلْقِهِ عَلَى أَزَلِيَّتِهِ، وَبِاشْتِبَاهِهِمْ عَلَى أَنْ لاَ شَبَهَ لَهُ، لاَ تَسْتَلِمُهُ المَشَاعِرُ، وَلاَ تَحْجُبُهُ السَّوَاتِرُ، لاِفْتِرَاقِ الصَّانِعِ والمَصْنُوعِ، وَالحَادِّ وَالمَحْدُودِ، وَالرَّبِّ وَالمَرْبُوبِ، ٱلْأَحَدِ بِلاَ تَأْوِيلِ عَدَدٍ، وَالخَالِقِ لاَ بِمَعْنَى حَرَكَةٍ وَنَصَبٍ، وَالسَّمِيعِ لاَ بِأَدَاةٍ، وَٱلْبَصِيرِ لاَ بِتَفْرِيقِ آلَةٍ، وَالشَّاهِدِ لاَ بِمُمَاسَّةٍ، وَٱلْبَائِنِ لاَ بِتَرَاخِي مَسَافَةٍ وَالظَّاهِرِ لاَ بِرُؤْيَةٍ، وَٱلْبَاطِنِ لاَ بِلَطَافَةٍ.

بَانَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ بِالْقَهْرِ لَهَا، وَالْقُدْرَةِ عَلَيْهَا، وَبَانَتِ ٱلْأَشْيَاءُ مِنْهُ بِالخُضُوعِ لَهُ، وَالرُّجُوعِ إِلَيْهِ. مَنْ وَصَفَهُ فَقَدْ حَدَّهُ، وَمَنْ حَدَّهُ فَقَدْ عَدَّهُ، وَمَنْ عَدَّهُ فَقَدْ أَبْطَلَ أَزَلَهُ، وَمَنْ قَالَ: «كَيْفَ» فَقَدِ ٱسْتَوْصَفَهُ، وَمَنْ قَالَ: «أَيْنَ»، فَقَدْ حَيَّزَهُ، عَالِمٌ إِذْ لاَ مَعْلُومٌ، وَرَبٌّ إِذْ لاَ مَرْبُوبٌ، وَقَادِرٌ إِذْ لا مَقْدُورٌ.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٦١٢)، وحماد في «الفتن» (١٦٦).
(٢) سورة طه، الآية: ٣٩. (٣) سورة القمر، الآية: ١٤.

الشرح: في هذا الفصل أبحاث: أوّلُها في وجوده تعالى، وإثبات أنّ للعالم صانعاً، وهاتان طريقتان في الدّلالة على وجوده الأول سبحانه:

إحداهما: الطريقة المذكورة في هذا الفصل، وهي طريقة المتكلّمين، وهي إثبات أنّ الأجسام محدَثة، ولا بدّ للمحدَث من محدِث.

والثانية: إثبات وجوده تعالى من النظر في نفس الوجود.

وذلك لأنّ الوجود ينقسم بالاعتبار الأول إلى قسمين: واجب وممكن، وكلّ ممكن لا بدّ أن ينتهيَ إلى الواجب؛ لأنّ طبيعة الممكن يمتنع من أن يستقلّ بنفسه في قوامه، فلا بدّ من واجب يستند إليه، وذلك الواجب الوجود الضروريّ الذي لا بدّ منه، هو الله تعالى.

وثانيها: إثبات أزليّته، وبيانه ما ذكره في هذا الفصل، وهو أن العالَم مخلوق له سبحانه حادث من جهته، والمحدَث لا بدّ له من محدِث، فإن كان ذلك المحدِث محدَثاً، عاد القول فيه كالقول في الأول، ويتسلّسل، فلا بدّ من محدِث قديم، وذلك هو الله تعالى.

وثالثها: أنه لا شبيه له، أي ليس بجسم كهذه الأجسام، وبيانه ما ذكر أيضاً أنّ مخلوقاته متشابهة، يعني بذلك ما يريده المتكلّمون من قولهم: الأجسام متماثلة في الجسمية، وأنّ نوع الجسمية واحد، أي لا يخالف جسمٌ جسماً بذاته، وإذا كانت متماثلة صحّ على كلّ واحد منها ما صح على الآخر، فلو كان له سبحانه شبيهٌ منها - أي لو كان جسماً مثلها - لوجب أن يكون محدَثاً كمثلها، أو تكون قديمة مثله، وكلاَ الأمرين محال.

ورابعها: أنّ المشاعر لا تستلمه، وروي «لا تلمسه»، والمشاعر الحواسّ، وبيانه أنه تعالى ليس بجسم لما سبق، وما ليس بجسم استحال أن تكون المشاعر لامسةً له؛ لأنّ إدراك المشاعر مدرَكاتِه مقْصور على الأجسام وهيئاتها. والاستلام في اللغة: لمس الحجر باليد وتقبيله، ولا يهمز؛ لأن أصله من السّلام وهي الحجارة، كما يقال: استنوَق الجملُ، وبعضهم يهمزه.

وخامسها: أنّ السواتر لا تحجبه، وبيانه أن السواتر والحجب، إنّما تحجب ما كان في جهة؛ وذلك لأنها ذوات أين ووضْع فلا نسبة لها، إلى ما ليس من ذوات الأين والوضع.

ثم قال عليه السلام: «لافتراق الصانع والمصنوع»، إشارة إلى أنّ المصنوع من ذوات الجهة والصانع منزّه عن ذلك، بريء عن الموادّ، فلا يلزم فيه ما يلزم في ذوات المادة والجهة.

وسادسها: معنى قولنا: إنه أحد، «أنه ليس بمعنى العدد كما يقوله الناس: أوّل العدد أحد وواحد، بل المراد بأحديّته كونه لا يقبل التجزّؤ، وباعتبار آخر كونه لا ثانيَ له في الربوبية.

وسابعها: أنّه خالق، لا بمعنى الحركة والنَّصَب، وهو التعب؛ وذلك لأن الخالقين منّا يحتاجون إلى الحركة من حيث كانوا أجساماً تفعل بالآلات، والباريء سبحانه ليس بجسمٍ،

ولا يفعل بالآلة، بل كونه قادراً إنّما هو لذاته المقدّسة، لا لأمرٍ زائد عليها، فلم يكن فاعلاً بالحركة.

وثامنها: أنّه سميع، لا بأداة، وذلك لأنّ حاجتنا إلى الحواسّ، إنما كانت لأمرٍ يخصّنا، وهو كوننا أحياء بحياة حالّة في أبعاضنا، والبارىء تعالى حيّ لذاته، فلم يحتجْ في كونه مدركاً إلى الأداة والجارحة.

وتاسعها: أنه بصير لا بتفريق آلة، والمراد بتفريق الآلة هاهنا الشعاع الذي باعتباره يكون الواحد منّا مبصراً، فإنّ القائلين بالشعاع يقولون: إنّه يخرج من العين أجسام لطيفة هي الأشعّة، وتكون آلة للحيّ في إبصار المبَصرات فيتفرّق عليها، فكلّ جسم يقع عليه ذلك الشعاع يكون مبصَراً، والبارىء تعالى بصير لا بشعاع يجعله آلة في الإدراك، ويتفرّق على المرئيات فيدركها به، وذلك لما قدّمناه من أنّه حيّ لذاته، لا بمعنًى، فلا يحتاج إلى آلة وأداة ووصلة تكون كالواسطة بينه وبين المدَركات.

وعاشرها: أنّه الشاهد لا بمماسّة، وذلك لأنّ الشاهد منّا هو الحاضر بجسمه عند المشهود، ألا ترى أنّ مَنْ في الصين لا يكون شاهداً مَنْ في المغرب؛ لأنّ الحضور الجسمانيّ يفتقر إلى القرب، والقرب من لوازم الجسمية، فما ليس بجسم - وهو عالم بكلّ شيء - يكون شاهداً من غير قرب ولا مماسّة، ولا أين مطلوب.

وحادي عشرها: أنّه البائن لا بتراخي مسافة بينونة المفارق عن المادّة بينونة ليست أينيّة، لأنه لا نسبةَ لأحدهما إلى الآخر بالجهة، فلا جرَم كان البارىء تعالى مبايناً عن العالم، لا بمسافة بين الذاتين.

وثاني عشرها: أنّه الظاهر لا برؤية، والباطن لا بلطافة، وذلك لأنّ الظاهر من الأجسام ما كان مرئياً بالبصر، والباطن منها ما كان لطيفاً جداً، إما لصغره أو لشفافيّته، والبارىء تعالى ظاهر للبصائر لا للأبصار، باطن، أي غير مدرك بالحواسّ لأن ذاته لا تقبل المدركيّة إلاّ من حيث كان لَطيف الحجم أو شفّاف الْجرم.

وثالث عشرها: أنّه قال: بان من الأشياء بالقهر لها، والقدرة عليها، وبانت الأشياء منه بالخضوع له، والرجوع إليه، هذا هو معنى قول المتكلّمين والحكماء، والفرق بينه وبين الموجودات كلّها أنه واجب الوجود لذاته، والأشياء كلّها ممكنة الوجود بذواتها، فكلّه محتاجة إليه؛ لأنها لا وجود لها إلاّ به، وهذا هو معنى خضوعها له، ورجوعها إليه. وهو سبحانه غنيّ عن كلّ شيء، ومؤثّر في كلّ شيء، إمّا بنفسه، أو بأن يكون مؤثّراً فيما هو مؤثر في ذلك الشيء، كأفعالنا، فإنه يؤثر فينا، ونحن نؤثر فيها، فإذا هو قاهر لكلّ شيء، وقادر على كلّ شيء. فهذه هي البينونة بينه وبين الأشياء كلّها.

ورابع عشرها: أنّه لا صفة له زائدة على ذاته، ونعني بالصفة ذاتاً موجودة قائمة بذاته، وذلك لأنّ مَنْ أثبت هذه الصفة له فقد حدّه، ومن حَدّه فقد عدّه، ومن عَدّه فقد أبطل أزَله، وهذا كلام غامض، وتفسيره أن مَنْ أثبت له علماً قديماً أو قدرة قديمة، فقد أوجب أن يعلم بذلك العلم معلوماتٍ محدودة، أي محصورة، وكذلك قد أوجب أن يقدر بتلك القدرة على مقدورات محدُودة، وهذه المقدّمة في كُتُب أصحابنا المتكلّمين مما يذكرونه في تقرير أنّ العلم الواحد لا يتعلّق بمعلومَيْن، وأنّ القدرة الواحدة لا يمكن أن تتعلّق في الوقت الواحد من الجنس الواحد في المحلّ الواحد إلا بجزءٍ واحد، وسواء فرض هذان المعنيان قديمين أو محدَثين، فإنّ هذا الحكم لازم لهما، فقد ثبت أنّ مَنْ أثبت المعاني القديمة فقد أثبت الباريء تعالى محدود العالميةِ والقادريّة، ومن قال بذلك فقد عدّه، أي جعله من جملة الجثة المعدودة فيما بيننا كسائر البشر والحيوانات، ومَنْ قال بذلك: فقد أبطل أزله؛ لأن كلّ ذات مماثلة لهذه الذوات المحدَثة، فإنها محدثة مثلها، والمحدث لا يكونو أزلياً.

وخامس عشرها: أنّ من قال: «كيف»، فقد استوصفَه، أي مَنْ قال لزيد: كيف الله؟ فقد استدعى أن يوصف الله بكيفيّة من الكيفيات، والباريء تعالى لا تجوز الكيفيّات عليه، والكيفيّات هي الألوان والطعوم ونحوها، والأشكال والمعاني وما يجري مَجْرَى ذلك، وكلّ هذا لا يجوز إلا على الأجسام.

فإن قلت: ينبغي أن يقول: «فقد وصفه»، ولا يقال: «فقد استوصفه»؛ لأنّ السائل لم يستوصف الله، وإنما استوصف صاحبه الذي سأله عن كيفيَّة الله.

قلت: «استوصف» هاهنا بمعنى «وصف»، كقولك: استغنى زيد عن عمرو، أي غَني عنه، واستعلى عليه، أي علا، ومثله كثير.

وسادس عشرها: أنّ من قال: «أين» فقد حيّزه، لأنّ «أين» سؤال عن المكان، وليس الله تعالى في مكان، ويأتي أنّه في كلّ مكان بمعنى العلم والإحاطة.

وسابع عشرها: أنّه عالم إذ لا معلوم، وربّ إذ لا مربوب، وقادر إذ لا مقدور، وكلّ هذا صحيح ومدلول عليه؛ لأنه عالم فيما لم يزل وليس شيء من الأشياء بموجود، وهو ربّ كلّ شيء قبل أن يخلقه، كما تقول إنّه سميع يصير قبل أن يدرك المسموعات والمبصَرات، أي قبل أن يخلقها، وقادر على الأشياء قبل كونها؛ لأنه يستحيل حال كونها أن تكون مقدورة، لاستحالة إيجاد الموجود.

وقد شرحنا كل هذه المسائل التوحيدية في كتبنا المصنّفة في علم الكلام.

الأصل: منها: قَدْ طَلَعَ طَالِعٌ، وَلَمَعَ لاَمِعٌ، وَلاَحَ لاَئِحٌ، وَٱعْتَدَلَ مَائِلٌ، وَٱسْتَبْدَلَ ٱللهُ بِقَوْمٍ قَوْماً، وَبِيَوْمٍ يَوْماً، وَٱنْتَظَرْنَا ٱلْغِيَرَ، ٱنْتِظَارَ المُجْدِبِ ٱلْمَطَرَ.

وَإِنَّمَا ٱلْأَئِمَّةُ قُوَّامُ ٱللهِ عَلَى خَلْقِهِ، وَعُرَفَاؤُهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَلاَ يَدْخُلُ ٱلْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ عَرَفَهُمْ وَعَرَفُوهُ، وَلاَ يَدْخُلُ النَّارَ إِلاَّ مَنْ أَنْكَرَهُمْ وَأَنْكَرُوهُ.

إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى خَصَّكُمْ بِٱلإِسْلاَمِ، وَٱسْتَخْلَصَكُمْ لَهُ، وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ ٱسْمُ سَلاَمَةٍ، وَجِمَاعُ كَرَامَةٍ، ٱصْطَفَى ٱللهُ تَعَالَى مَنْهَجَهُ وَبَيَّنَ حُجَجَهُ، مِنْ ظَاهِرِ عِلْمٍ، وَبَاطِنِ حُكْمٍ، لاَ تَفْنَى غَرَائِبُهُ، وَلاَ تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ.

فِيهِ مَرَابِيعُ النِّعَمِ، وَمَصَابِيحُ الظُّلَمِ، لاَ تُفْتَحُ ٱلْخَيْرَاتُ إِلاَّ بِمَفَاتِيحِهِ، وَلاَ تُكْشَفُ الظُّلُمَاتُ إلا بِمَصَابِيحِهِ، قَدْ أَحْمَى حِمَاهُ، وَأَرْعَى مَرْعَاهُ، فِيهِ شِفَاءُ المُشْتَفِي، وَكِفَايَةُ المُكْتَفِي.

الشرح: هذه خطبة خطب بها بعد قتل عثمان حين أفضت الخلافة إليه.

قد طلع طالع، يعني عَوْد الخلافة إليه، وكذلك قوله: «ولمع لامع، ولاح لائح»، كلّ هذا يراد به معنًى واحد.

واعتدل مائل، إشارة إلى ما كانت الأمور عليه من الاعوجاج في أواخر أيام عثمان، واستبدل الله بعثمان وشيعته عليًا وشيعتَه، وبأيام ذاك أيام هذا.

ثم قال: «وانتظرنا الغِيَر انتظار المجدب المطر»، وهذا الكلام يدل على أنّه قد كان يتربّص بعثمان الدوائر، ويرتقب حلول الخطوب بساحتِهِ، لِيَلِيَ الخلافة.

فإن قلت: أليس هو الذي طلّق الدنيا، فأين هذا القول من طلاقها؟

قلت: إنه طلّق الدنيا أن يقبل منها حظًا دنيويًا، ولم يطلقها، أن ينهى فيها عن المنكرات التي أمره الله تعالى بالنهي عنها، ويقيم فيها الدين الذي أمره الله بإقامته، ولا سبيل له إلى النهي عن المنكَر والأمر بالمعروف إلا بولاية الخلافة.

هل الإمام إذا عمي استحق الخلع

فإن قلت: أيجوز على مذهب المعتزلة أن يقال: إنه عليه السلام كان ينتظر قتل عَثمان، انتظار المجدِب المطر، وهـ' هذا إلا محض مذهب الشيعة!

قلت: إنه عليه السلام [illegible] «وانتظرنا قتله» وإنما انتظر الغيرَ، فيجوز أن يكون أراد انتظار

خلعه وعزله عن الخلافة، فإنّ علياً عليه السلام عند أصحابنا كان يذهب إلى أنّ عثمان استحقّ الخلع بإحداثه، ولم يستحقّ القتل، وهذا الكلام إذا حُمِل على انتظار الخلع كان موافقاً لمذهب أصحابنا.

فإن قلت: أتقول المعتزلة إنّ علياً كان يذهب إلى فسْق عثمان المستوجب لأجله الخلع؟

قلت: كلاّ! حاش لله أن تقولَ المعتزلة ذلك! وإنما تقول إن علياً كان يرى أنّ عثمان يضعف عن تدبير الخلافة، وأنّ أهلَه غَلَبُوا عليه، واستبدّوا بالأمر دونه، واستعجزه المسلمون، واستسقطوا رأيه، فصار حكمه حكم الإمام إذا عَمِيَ، أو أسره العدوّ، فإنه ينخلِع من الإمامة.

ثم قال عليه السلام: «الأئمة قوّام الله على خلقه»، أي يقومون بمصالحهم، وقيّم المنزل: هو المدّبر له.

قال: «وعرفاؤه على عباده»: جمع عرِيف، وهو النقيب والرئيس، يقال: عَرُف فلان بالضم عرافةً بالفتح، مثل خَطُب خطابة أي صار عريفاً، وإذا أردت أنّه عمِل ذلك قلت: عَرَف فلان علينا سنين، يعرُف عِرافة بالكسر، مثل كَتَبَ يكتبُ كِتابة.

قال: «ولا يدخل الجنّة إلا مَنْ عرفهم وعرفوه، ولا يدخل النّار إلا مَنْ أنكرهم وأنكروه»، هذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[1]، قال المفسّرون: ينادى في الموقف: يا أتْبَاعَ فلان، ويا أصحاب فلان، فينَادَى كلّ قوم باسم إمامهم، يقول أمير المؤمنين عليه السلام: لا يدخل الجنّة يومئذٍ إلاّ مَنْ كان في الدّنيا عارفاً بإمامه، ومَنْ يعرفه إمامه في الآخرة، فإنّ الأئمة تعرف أتباعها يوم القيامة، وإن لم يكونوا رأوْهم في الدنيا، كما أنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم يشهد للمسلمين وعليهم، وإن لم يكُنْ رأى أكثرهم، قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[2] وجاء في الخبر المرفوع: «مَنْ مات بغير إمام مات مِيتة جاهليّة»[3]، وأصحابنا كافّة قائلون بصحّة هذه القضيّة، وهي أنه لا يدخل الجنّة إلا من عرَف الأئمة، ألا تَرَى أنهم يقولون: الأئمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فلان وفلان، ويعدّونهم وحداً واحداً، فلو أنّ إنساناً لا يقول بذلك، لكان عندهم فاسقاً، والفاسق لا يدخل الجنّة عندهم أبداً، أعني مَنْ مات على فسقه. فقد ثبت أنّ هذه القضية، وهي قوله عليه السلام: «لا يدخل الجنّة إلاّ مَنْ عرفهم» قصصّة صحيحة على مذهب المعتزلة، وليس قوله: «وعرفوه» بمنكَر

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧١.
(٢) سورة النساء، الآية: ٤١.
(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٤٣٤)، والطبراني في «مسند الشاميين» (١٦٥٤)، و«الكبير» (١٩/ ٣٨٨)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٣/ ٢٢٤).

عند أصحابنا، إذا فسرنا قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ﴾[1] على ما هو الأظهر والأشهر من التفسيرات، وهو ما ذكرناه.

وبقية القضيّة الثانية ففيها الأشكال، وهي قوله عليه السلام: «ولا يدخل النَّار إلاّ مَنْ أنكرهم وأنكروه»، وذلك أنّ لقائل أن يقول: قد يدخل النار مَنْ لم ينكرهم، مثل أن يكون إنسان يعتقِد صحّة إمامة القوم الذين يذهب أنهم أئمة عند المعتزلة، ثم يزني أو يشربُ الخمر من غير توبة، فإنه يدخل النار، وليس بمنكر للأئمة، فكيف يمكن الجمع بين هذه القضية وبين الاعتزال!

فالجواب أن الواو في قوله «وأنكروه» بمعنى «أو» كما في قوله تعالى: ﴿فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ﴾[2] فالإنسان المفروض في السؤال وإن كان لا ينكر الأئمة إلاّ أنّهم ينكرونه، أي يسخطون يوم القيامة أفعاله، يقال: أنكرت فعل فلان أي كرهته، فهذا هو تأويل الكلام على مذهبنا، فأمّا الإمامية فإنّهم يحملون ذلك على تأويل آخر، ويفسرون قوله: «ولا يدخل النار»، فيقولون: أراد ولا يدخل النار دخولاً مؤبداً إلا من ينكرهم وينكرونه.

ثم ذكر عليه السلام شرفَ الإسلام، وقال: إنه مشتقّ من السّلامة، وإنه جامع للكرامة، وإنّ الله قد بين حججه، أي الأدلة على صحّته.

ثم بين ما هذه الأدلة، فقال: «من ظاهر علم، وباطن حكم» أي حكمه، فـ«مِن» هاهنا للتبيين والتفسير، كما تقول: دفعت إليه سلاحاً من سيف ورمح وسهم، ويعني بظاهر عِلم وباطن حكم، والقرآن، ألا تراه كيف أتى بعده بصفات ونعوت لا تكون إلا للقرآن، من قوله، «لا تفنى عزائمه» أي آياته المحكمة. و«براهينه العازمة» أي القاطعة ولا تنقضي عجائبه؛ لأنه مهما تأمله الإنسان استخرج منه بكفر غرائب عجائب لم تكن عنده من قبل.

«فيه مرابيع النّعم»، المرابيع الأمطار التي تجيء في أول الربيع فتكون سبباً لظهور الكلأ، وكذلك تدبّر القرآن سبب للنعم الدينية وحصولها.

قوله: «قد أحمى حماه، وأرعى مرعاه»، الضمير في «أحمى» يرجع إلى الله تعالى، أي قد أحمى الله حماه، أي عرّضه لأن يحمَى، كما تقول: أقتلت الرجل، أي عرّضته لأن يقتل وأضربته، أي عرّضته لأن يضرب، أي قد عرّض الله تعالى حمى القرآن ومحارمه لأن يجتنب ومكّن منها، وعرّض مَرْاعاه لأن يُرْعى، أي مكّن من الانتفاع بما فيه من الزواجر والمواعظ لأنه خاطبنا بلسان عربي مبين، ولم يقنع ببيان ما لا نعلم إلا بالشرع حتى نبه في أكثره على أدلة العقل.

---

(1) سورة الإسراء، الآية: ٧١.
(2) سورة النساء، الآية: ٣.

١٥٣ - ومن خطبة له عليه السلام في تحذير الناس من الغفلة

الأصل: وَهُوَ فِي مُهْلَةٍ مِنَ ٱللهِ يَهْوِي مَعَ ٱلْغَافِلِينَ، وَيَغْدُو مَعَ المُذْنِبِينَ، بِلاَ سَبِيلٍ قَاصِدٍ، وَلاَ إِمَامٍ قَائِدٍ.

الشرح: يصف إنساناً من أهل الضلال غير معيّن، بل كما تقول: رحم الله أمرأ اتّقى ربه وخاف ذنبه، وبئس الرجل رجل قلّ حياؤه، وعدم وفاؤه، ولست تعني رجلاً بعينه.

ويهوي: يسقط. وَالسبيل القاصد: الطريق المؤدية إلى المطلوب.

والإمام: إمّا الخليفة، وإما الأستاذ، أو الدين، أو الكتاب، على كلّ من هؤلاء تطلق هذه اللفظة.

الأصل: منها: حَتى إِذَا كَشَفَ لَهُمْ عَنْ جَزَاءِ مَعْصِيَتِهِمْ، وَٱسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ جَلاَبِيبِ غَفْلَتِهِمْ، ٱسْتَقْبَلُوا مُدْبِراً، وَٱسْتَدْبَرُوا مُقْبِلاً، فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِما أَدْرَكُوا مِنْ طَلِبَتِهِمْ، وَلاَ بِما قَضَوْا مِنْ وَطَرِهِمْ.

وَإِنِّي أُحَذِّرُكُمْ وَنَفْسِي هَذِهِ المَنْزِلَة، فَلْيَنْتَفِعِ ٱمْرُؤٌ بِنَفْسِهِ، فَإِنّما ٱلْبَصِيرُ مَنْ سَمِعَ فَتَفَكَّرَ، وَنَظَر فَأَبْصَرَ، وَٱنْتَفَعَ بِالْعِبَر، ثُمَّ سَلَكَ جَدَداً وَاضِحاً يَتَجَنَّبُ فِيهِ الصَّرْعَةَ فِي المَهَاوِي، وَالضَّلاَلَ فِي المَغاوِي، وَلاَ يُعِينُ عَلَى نَفْسِهِ ٱلْغُوَاةَ بتَعَسُّفٍ فِي حَقٍّ، أَوْ تَحْرِيفٍ فِي نُطْقٍ، أَوْ تَخَوُّفٍ مِنْ صِدْقٍ.

فَأَفِقْ أَيُّهَا السَّامِعُ مِنْ سَكْرَتِكَ، وَٱسْتَيْقِظْ مِنْ غَفْلَتِكَ، وَٱخْتَصِرْ مِنْ عَجَلَتِكَ، وَأَنْعِمِ ٱلْفِكْرَ فِيمَا جَاءَكَ عَلَى لِسَانِ النَّبِيِّ ٱلأُمّيِّ صَلَّى ٱلله عَلَيْهِ وَسَلّم مِمَّا لاَ بُدَّ مِنْهُ، وَلاَ مَحِيصَ عَنْهُ. وَخَالِفْ مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ إِلَى غَيْرِهِ، وَدَعْهُ وَمَا رَضِيَ لِنَفْسِهِ، وَضَعْ فَخْرَكَ، وَٱحْطُطْ كِبْرَكَ، وَٱذْكُرْ قَبْرَكَ، فَإِنَّ عَلَيْهِ مَمَرَّكَ، وَكمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكَمَا تَزْرَعُ تَحْصُدُ، وَمَا قَدَّمْتَ ٱلْيَوْمَ تَقْدَمُ عَلَيْهِ غداً، فَامْهَدْ لِقَدَمِكَ، وَقَدِّمْ لِيَوْمِكَ.

فَالْحَذَرَ ٱلْحَذَرَا أَيُّهَا ٱلْمُسْتَمِعُ! وَٱلْجِدَّ ٱلْجِدَّ، أَيُّهَا ٱلْغَافِلُ، ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾[1].

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

الشرح: فاعل «كشف» هو الله تعالى، وقد كان سبق ذكره في الكلام، وإنما كشف لهم عن جزاء معصيتهم بما أراهم حال الموت من دلائل الشقوة والعذاب، فقد ورد في الخبر الصحيح أنّه: «لا يموت ميّت حتى يرى مقرّه من جنّة أو نار»[1].

ولما انفتحت أعين أبصارهم عند مفارقة الدنيا، سَمّى ذلك عليه السلام استخراجاً لهم من جلابيب غفلتهم، كأنهم كانوا من الغفلة والذهول في لباسٍ نُزِع عنهم.

قال: «استقبلوا مدبراً»، أي استقبلوا أمراً كان في ظنّهم واعتقادهم مدبراً عنهم، وهو الشقاء والعذاب. «واستدبروا مقبلاً» تركوا وراء ظهورهم ما كانوا خُوّلُوه من الأولاد والأموال والنّعم، وفي قوة هذا الكلام أن يقول: عرفوا ما أنكروه وأنكروا ما عرفوه:

وروي: «أحذّركم ونفسي هذه المزلّة» مفعلة، من الزّلل، وفي قوله: «ونفسي» لطافة رشيقة، وذلك لأنه طَيَّب قلوبهم بأن جعل نفسه شريكة لهم في هذا التحذير، ليكونوا إلى الانقياد أقربَ، وعن الإِباء والنُّفرة أبعد، بطريق جَدَدٍ لاحب.

والمهاوي: جمع مَهْواة، وهي الهوّة يتردّى فيها.

والمغاوي: جمع مَغْواة، وهي الشبهة التي يغوي بها النّاس، أي يضلّون.

ثم يصف الأمور التي يُعِين بها الإنسان أرباب الضلال على نفسه، وهي أن يتعسّف في حق يقوله، أو يأمرُ به، فإنّ الرفق أنجح، وأن يحرّف المنطق فإن الكذب لا يثمر خيراً، وأن يتخوّف من الصدق في ذات الله، قال سبحانه: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾[2]، فذمّ من لا يصدق ويجاهد في الحقّ.

قوله: «واختصِرْ من عجلتك»، أي لا تكن عَجَلتك كثيرة، بل إذا كانت لك عجلة فلتكن شيئاً يسيراً.

وتقول: أنعمت النظر في كذا، أي دقّقتُه، من قولك: أنعمت سَحْق الحجر، وقيل: إنه مقلوب «أمعن».

والنبي الأمّيّ: إمّا الذي لا يحسن الكتابة، أو المنسوب إلى أمّ القرى، وهي مكّة.

ولا محيص عنه: لا مفرّ ولا مهرب، حاص، أي تخلص من أمر كان نشب فيه.

قوله: «فإن عليه ممرّك» أي ليس القبر بدار مقام، وإنما هو مَمَرٌّ وطريق إلى الآخرة.

وكما تدين تدان، أي كما تجازِي غيرَك تجازَى بفعلك وبحسب ما عملت، ومنه قوله سبحانه: ﴿أَءِنَّا لَمَدِينُونَ﴾[3] أي مجزيُّون، ومنه الديّان في صفة الله تعالى.

---

(١) رواه ابن الجوزي في الموضوعات (١/١١٨) بلفظ: لا تخرج روحه حتى يراني أو يرى موضعه من الجنة.

(٢) سورة النساء، الآية: ٧٧. (٣) سورة الصافات، الآية: ٥٣.

قوله: «وكما تزرع تحصد» معنى قد قاله النّاس بعده كثيراً، قال الشاعر:

إذا أنتَ لم تَزرَعْ وأدرَكْتَ حاصِداً ندمت على التقصير في زمن البذر

ومن أمثالهم: «من زرع شراً حصد ندماً».

فامهد لنفسك: أي سوّ ووطّىء.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾(١) من القرآن العزيز، أي ولا يخبرك بالأمور أحد على حقائقها كالعارف بها العالم بكنهها.

الأصل: إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يُثِيبُ وَيُعَاقِبُ، وَلَهَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ، أَنَّهُ لاَ يَنْفَعُ عَبْداً - وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ، وَأَخْلَصَ فِعْلَهُ - أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا لاَقِياً رَبَّهُ بِخَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتُبْ مِنْهَا: أَنْ يُشْرِكَ بِاللهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ، أَوْ يَشْفِيَ غَيْظَهُ بِهَلاَكِ نَفْسٍ، أَوْ يَعُرَّ بِأَمْرٍ فَعَلَهُ غَيْرُهُ، أَوْ يَسْتَنْجِحَ حَاجَةً إِلَى النَّاسِ بِإِظْهَارِ بِدْعَةٍ فِي دِينِهِ، أَوْ يَلْقَى النَّاسَ بِوَجْهَيْنِ، أَوْ يَمْشِيَ فِيهِمْ بِلِسَانَيْنِ. اعْقِلْ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْمِثْلَ دَلِيلٌ عَلَى شِبْهِهِ.

إِنَّ الْبَهَائِمَ هَمُّهَا بُطُونُهَا، وَإِنَّ السِّبَاعَ هَمُّهَا الْعُدْوَانُ عَلَى غَيْرِهَا، وَإِنَّ النِّسَاءَ هَمُّهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْفَسَادُ فِيهَا.

إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُسْتَكِينُونَ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ مُشْفِقُونَ، إِنَّ الْمُؤْمِنِينَ خَائِفُونَ.

الشرح: عزائم الله، هي موجباته والأمر المقطوع عليه، الذي لا ريبَ فيه ولا شبهة، قال عليه السلام: إنّ من الأمور التي نصّ الله تعالى عليها نصًّا لا يحتمل التأويل - وهي من العزائم التي يقطع بها، ولا رجوع فيها ولا نسخ لها - أنّ مَنْ مات وهو على ذنْبٍ من هذه الذنوب المذكورة - ولو اكتفى بذلك عليه السلام لأغناه عن قوله: «لم يتب» إلاّ أنه ذكر ذلك تأكيداً وزيادة في الإيضاح - فإنّه لا ينفعه فعل شيء من الأفعال الحسنة ولا الواجبة، ولا تفيدُه العبادة، ولو أجهد نفسه فيها، بل يكون من أهل النار. والذنوب المذكورة هي أنْ يتّخذ مع الله إلهاً آخر فيشركه في العبادة، أو يقتل إنساناً بغير حقّ، بل ليشفي غيظه، أو يقذف غيره بأمرٍ قد فعله هو.

عرّه بكذا يعُرّه عَرًّا، أي عابه ولطّخه، أو يروم بلوغ حاجةٍ من أحدٍ بإظهار بدعة في الدين،

---

(١) سورة فاطر، الآية: ١٤.

كما يفعل أكثرُ النّاس في زمانـنا، أو يكون ذا وَجْهين، وهو أيضاً قوله: «أو يمشي فيهم بلسانين»، وإنما أعاده تأكيداً.

لما نصب معاوية ابنَه يزيد لوِلاية العهد، أقعده في قبَّة حمراء، وأدخل النّاس يسلّمون على معاوية، ثم يميلون إلى قُبّة يزيد، فيسلّمون عليه بولاية العهد، حتى جاء رجلٌ ففعل ذلك، ثم رجع إلى معاوية فقال: يا أمير المؤمنين، أما إنك لو لم تولّ هذا أمور المسلمينَ لأضعتَها، وكان الأحنف جالساً، فلما خَفّ النّاس، قال معاوية: ما بالُك لا تقول يا أبا بحر! قال: أخافُ الله إن كذبتُك، وأخافك إنْ صدقتك، فماذا أقول! فقال: جَزاك الله عن الطّاعة خيراً، وأمر له بصِلَةٍ جزيلة. فلما خرَج لقيَه ذلك الرّجل بالباب، فقال: يا أبا بَحْر، إنّي لأعلمُ أنّ شرّ مَنْ خَلَق الله هذا الرّجل، ولكن هؤلاء قد استوثَقُوا من هذه الأموال بالأبواب والأقفال، فلسنا نطمع في استخراجها إلا بما سمعتَ فقال: يا هذا أمسِكْ عليك، فإنّ ذَا الوجهين خليق[1] ألاّ يكون وجيهاً عند الله غداً.

ثم أمرَ عَلَيْهِ السَّلَامُ بأن يعقَل ما قاله، ويعلَم باطن خطابه، وإنما رَمَزَ بباطن هذا الكلام إلى الرؤساء يوم الجمل؛ لأنهم حاولوا أن يشفوا غيظهم بإهلاكه وإهلاك غيره من المسلمين، وعَزَوه عَلَيْهِ السَّلَامُ بأمرٍ هم فعلوه، وهو التأليب على عثمان وحصْرُه، واستنجحوا حاجتهم إلى أهلِ البصرة بإظهار البدعة والفتنة، ولقُوا الناس بوجهين ولسانين؛ لأنهم بايعوه وأظهروا الرضا به، ثم دَبَوا له الخمَرَ، فجعل ذنوبهم هذه مماثلة للشِّرك بالله سبحانه، في أنها لا تُغْفَر إلا بالتوبة، وهذا هو معنى قوله: «اعقل ذلك» فإنّ المِثْل دليل على شبهه. ورُوِي «فإنّ المثَل» واحد الأمثال، أي هذا الحكْم بعدم المغفرة لمن أتي شيئاً من هذه الأشياء عامّ، والواحد منها دليل على ما يماثله ويشابهه.

فإن قلتَ: فهذا تصريحٌ بمذهب الإماميَّة في طلْحة والزبير وعائشة.

قلت: كلاّ، فإنّ هذه الخطبة خَطب بها وهو سائر إلى البصرة، ولم تقع الحرب إلاّ بعد تعدّد الكبائر، ورَمز فيها إلى المذكورين، وقال: «إن لم يتوبوا»، وقد ثبت أنهم تابوا، والأخبار عنهم بالتوبة كثيرة مستفيضة.

ثم أراد عَلَيْهِ السَّلَامُ أن يوميء إلى ذكر النّساء للحال التي كان وقع إليها من استنجاد أعدائه بامرأة،

---

(١) أخرجه ابن عدي في «الكامل في ضعفاء الرجال» (٥/ ٣٢٥).

فذكر قبل ذكر النساء أنواعاً من الحيوان، تمهيداً لقاعدة ذِكر النساء، فقال: إنّ البهائم همّها بطونها، كالحُمر والبقر والإبل الغَنم، وإنّ السّباع همّها العدوان عَلَى غيرها، كالأسود الضارية والنمور والفهود والبُزاة والصّقور. ثم قال: وإن النساء همّهنّ زينة الحياة الدنيا والفساد فيها.

نظر حكيمٌ إلى امرأة مصلوبة عَلَى شَجرة، فقال: ليت كلّ شجرة تحمل مثل هذه الثمرة.

ومرّت امرأة بسُقراط وهو يتشرّق في الشمس، فقالت: ما أقبحك أيها الشيخ! فقال: لو أنكنّ [لستنّ] من المرائي الصدئة لغمّني ما بان من قبح صورتي فيكنّ.

ورأى حكيم امرأةً تعلّم الكتابة، فقال: سهم يسقَى سمًّا ليرمي به يوماً ما.

ورأى بعضهم جاريةً تحمِل ناراً، فقال: نار عَلَى نار، والحامل شرٌّ من المحمول.

وقيل لسقراط: أيّ السباع أحسن؟ قال: المرأة.

وتزوّج بعضهم امرأة نحيفة، فقيل له في ذلك، فقال: اخترتُ من الشرّ أقلَّه.

ورأى بعضُ الحكماء امرأة غريقة قد احتملها السَّيْل، فقال: زادتِ الكَدر كَدَار، والشرّ بالشر يهلك.

ثم ذكر عليه السلام خصائص المؤمن، فقال: إن المؤمنين مستكينون، استكان الرجلُ، أي خَضَع وذلّ.

إنّ المؤمنين مشفقون، التقوى رأس الإيمان[1] كما ورد في الخبر.

ثم قال: «إن المؤمنين خائفون»، هو الأول وإما أكّده، والتأكيد مطلوب في باب الخطابة.

١٥٤ - ومن خطبة له عليه السلام في فضائل أهل البيت عليهم السلام

الأصل: وَنَاظِرُ قَلْبِ اللَّبِيبِ بِهِ يُبْصِرُ أَمَدَهُ، وَيَعْرِفُ غَوْرَهُ وَنَجْدَهُ. دَاعٍ دَعَا، وَرَاعٍ رَعَى، فَاسْتَجِيبُوا لِلدَّاعِي، وَاتَّبِعُوا الرَّاعِيَ.

الشرح: يقول: إنّ قَلْبَ اللبيب له عين يبصر بها غايته التي يجري إليها، ويعرف من أحواله المستقبَلة ما كان مرتفعاً أو منخفضاً ساقطاً. والنَّجْد: المرتفع من الأرض، ومنه قولهم للعالم بالأمور: «طَلّاع أنجُد».

(١) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٧٤/ ٤٠٩.

ثم قال: «داعٍ دعا»، موضع «داعٍ» رفع؛ لأنه مبتدأ محذوف الخبر، تقديره: «في الوجود داع دعا، وراعٍ رعى»، ويعني بالدّاعي رسول الله ﷺ، وبالراعي نفسَه عليه السلام.

الأصل: قَدْ خَاضُوا بِحَارَ ٱلْفِتَنِ، وَأَخَذُوا بِالْبِدَعِ دُونَ السُّنَنِ، وَأَرَزَ الْمُؤْمِنُونَ، وَنَطَقَ الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ.

نَحْنُ الشِّعَارُ وَٱلْأَصْحَابُ، وَٱلْخَزَنَةُ وَٱلْأَبْوَابُ: وَلاَ تُؤْتَى الْبُيُوتُ إِلاَّ مِنْ أَبْوَابِهَا، فَمَنْ أَتَاهَا مِنْ غَيْرِ أَبْوَابِهَا سُمِّيَ سَارِقاً.

الشرح: هذا كلام متَّصل بكلام لم يحكِه الرضيّ رحمه الله، وهو ذِكْر قومٍ من أهل الضُّلال قد كان أخذ في ذمّهم، وتَعَى عليهم عيوبهم.

وأرزَ المؤمنون: أي انقبضوا، والمضارع «يأرِز» بالكسر أرْزا وأروزا، ورجل أرْوَز أي منقبض، وفي الحديث: «إنّ الإسلام ليأرِزُ إلى المدينة كما تأرِز الحيّة إلى جُحْرها»[(١)]، أي ينضمّ إليها ويجتمع.

ثم قال: «نحن الشّعار والأصحاب»، يشير إلى نفسه، وهو أبداً يأتي بلفظ الجمع مراده الواحد.

والشِّعار: ما يلي الجسد من الثيابِ، فهو أقرب من سائرها إليه، ومراده الاختصاص برسول الله ﷺ.

والخَزَنَةُ والأبواب، يمكن أن يعني به خَزَنة العلم وأبواب العلم، لقولِ رسول الله ﷺ: «أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها، فمن أرادَ الحكمة فليأتِ الباب»[(٢)].

وقوله فيه: «خازن علمي»[(٣)] وقال تارة أخرى: «عَيْبة عِلْمي»[(٤)]. ويمكن أن يريد خزنة

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الحج، باب: الإيمان يأرز إلى المدينة (١٨٧٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً (١٤٧).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٣٧)، والطبراني في «الكبير» (١١٠٦١)، والديلمي في «مسند الفردوس» (١٠٦).

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٣٩/ ٢٠١.

(٤) أخرجه السيوطي في جامعة رقم: ٥٥٩٣، وأخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٢٩/ ٦٠٢.

الجنّة وأبواب الجنة، أي لا يدخل الجنة إلا مَنْ وافَى بولايتنا، فقد جاء في حقه الخبر الشائع المستفيض: إنه قَسِيم النار والجنة، وذكر أبو عبيد الهرويّ في «الجمع بين الغريبين»[(١)]، أنّ قوماً من أئمة العربية فسَّرُوه فقالوا: لأنّه لما كن مُحِبُّهُ من أهل الجنة، ومبغِضهُ من أهل النّار، كأنّه بهذا الاعتبار قسيمُ النار والجنة. قال أبو عبيد: وقال غير هؤلاء: بلْ هو قسيمها بنفسه في الحقيقة، يدخِل قوماً إلى الجنة، وقوماً إلى النار، وهذا الذي ذكره أبو عبيد أخيراً هو ما يطابق الأخبار الواردة فيه، يقول للنار: هذا لي فدعيه، وهذا لك فخذيه.

ثم ذكر أن البيوت لا تؤتَى إلاّ من أبوابها، قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا﴾[(٢)].

ثم قال: مَنْ أتاها من غير أبوابها سمّي سارقاً، وهذا حقّ ظاهراً وباطناً، أمّا الظاهر فلأنّ مَنْ يتسوّر البيوت من غير أبوابها هو السارق، وأمّا الباطن فلأنّ مَنْ طلَب العلم من غير أستاذ محقّق فلم يأتِهِ من بابه، فهو أشبه شيء بالسارق.

واعلم أنّ أمير المؤمنين عليه السلام لو فخرَ بنفسه، وبالغ في تعديد مناقبه وفضائله بفصاحته، التي آتاه الله تعالى إياها، واختصّه بها، وساعده على ذلك فُصحاء العرب كافّة، لم يبلغوا إلى معشار ما نطق به الرسول الصادق صلوات الله عليه في أمره، ولستُ أعني بذلك الأخبارَ العامّة الشائعة التي يحتجّ بها الإماميَّة على إمامته، كخبر الغدير، والمنزلة، وقصّة براءة، وخبر المناجاة، وقصّة خيبر، وخبر الدار بمكة في ابتداء الدعوة، ونحو ذلك، بل الأخبار الخاصّة التي رواها فيه أئمة الحديث، التي لم يحصل أقلّ القليل منها لغيره، وأنا أذكر من ذلك شيئاً يسيراً مما رواه علماء الحديث الذين لا يُتّهمون فيه، وجلّهم قائلون بتفضيل غيره عليه، فروايتهم فضائلَه توجب من سكونِ النفس ما لا يوجبه رواية غيرهم.

الخبر الأول: «يا عليّ، إنّ الله قد زيّنَك بزينةٍ لم يزيّن العباد بزينة أحبّ إليه منها، هي زينة الأبرار عند الله تعالى، الزّهد في الدنيا، جعلك لا ترزأ من الدنيا شيئاً، ولا ترزأ الدنيا منك شيئاً، ووهب لك حبّ المساكين، فجعلك ترضى بهم أتباعاً، ويرضوْن بك إماماً»[(٣)].

---

(١) الغريبين (يعني غريب القرآن والحديث): لأبي عبيد أحمد بن محمد بن محمد الهروي المتوفى سنة (٤٠١هـ)، «كشف الظنون» (١٢٠٩/٢).

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٨٩.

(٣) حلية الأولياء ٧١/١.

رواه أبو نعيم الحافظ في كتابه المعروف بـ «حلية الأولياء»[1] وزاد فيه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في «المسند»[2]: «فطوبَى لمن أحبّك وصدق فيك، وويلٌ لمن أبغضك وكذّب فيك!»[3].

الخبر الثاني: قال لوفد ثَقِيف: «لَتُسْلِمُنّ، أو لأبعثَنّ إليكم رجلاً مني - أو قال: عديل نفسي - فليضربنّ أعناقكم، ولَيسبِينّ ذراريّكم، وليأخذنّ أموالكم». قال عمر: فما تمنيّت الإمارة إلاّ يومئذٍ، وجعلتُ أنصِب له صدري رجاء أن يقول: هو هذا. فالتفت فأخذ بيد عليّ وقال: «وهو هذا!»، مرتين.

رواه أحمد في «المسند»[4]، ورواه في كتاب فضائل عليّ عليه السلام، أنّه قال: «لتنتهُنّ يا بنى وليعة، أو لأبعثنّ إليكم رجلاً كنفسي، يُمضِي فيكم أمري. يقتل المقاتلة، ويسبي الذّرّيّة». قال أبو ذرّ: فما راعني إلاّ برْد كفّ عمر في حُجْزتي من خَلْفي، يقول: مَنْ تراه يعني؟ فقلت: إنه لا يَعْنيك، وإنّما يعني خاصفَ النعل، وإنه قال: «هو هذا»[5].

الخبر الثالث: «إنّ الله عَهِد إليّ في عليّ عهداً، فقلت: يا ربّ بيّنه لي، قال: اسمع، إنّ عليًّا رايةُ الهدى، وإمامُ أوليائي، ونورُ من أطاعني، وهو الكلمة التي ألزمتُها المتقين، مَنْ أحبّه فقد أحبّني، ومن أطاعه فقد أطاعني، فبشّره بذلك. فقلت: قد بشرته يا ربّ فقال: أنا عبد الله وفي قبضته، فإن يعذّبني فبذنوبي لم يظلم شيئاً، وإن يتمّ لي ما وعدني فهو أوْلى، وقد دعوت له فقلت: اللهمّ اجْلُ قلبَه، واجعلْ ربيعَه الإيمان بك. قال: قد فعلت ذلك، غير أني مختصّه بشيء من البلاء لم أختصّ به أحداً من أوليائي، فقلت: ربّ، أخي وصاحبي! قال: إنّه سبق في علمي: إنّه لمبتلٍ ومبتلًى».

ذكره أبو نعيم الحافظ في «حلْية الأولياء»[6] عن أبي بَرْزة الأسلميّ، ثم رواه بإسناد آخر

---

(١) حلية الأولياء في الحديث: للحافظ أبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني، المتوفى سنة (٤٣٠هـ)، «كشف الظنون» (١/ ٦٨٩).

(٢) مسند أحمد بن حنبل: للإمام أحمد بن محمد بن حنبل المتوفى سنة (٢٤١هـ)، يشتمل على ثلاثين ألف حديث «كشف الظنون» (٢/ ١٦٨٠).

(٣) مسند أحمد بن حنبل بنحوه (٦٤٣).

(٤) لم أجده في «مسند» أحمد، وهو في «السنن الكبرى» النسائي (٨٤٥٧)، وأحمد في فضائل الصحابة (٩٦٦).

(٥) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٤٠/ ٨٠.

(٦) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٧).

بلفظٍ آخر، عن أنس بن مالك[١]: «إنّ رب العالمين عهد في عليّ إليّ عهداً، إنه راية الهدى، ومنار الإيمان، وإمام أوليائي، ونور جميع مَنْ أطاعني. إن عليًا أميني غداً في القيامة، وصاحب رايتي، بيد عليّ مفاتيح خزائن رحمة ربّي».

الخبر الرابع: «مَنْ أراد أن ينظر إلى نوح في عَزْمه، وإلى آدم في عِلْمه، وإلى إبراهيم في حِلْمه، وإلى موسى في فِطْنته، وإلى عيسى في زهده، فلينظر إلى عليّ بن أبي طالب»[٢].

رواه أحمد بن حنبل في «المسند»، ورواه أحمد البيهقيّ في «صحيحه».

الخبر الخامس: «مَنْ سرّه أن يحيا حياتي، ويموت ميتتي، ويتمسّك بالقضيب من الياقوتة التي خلقها الله تعالى بيده، ثم قال لها: كوني فكانت، فليتمسَّكْ بولاء عليّ بن أبي طالب».

ذكره أبو نُعيم الحافظ في كتاب «حلية الأولياء»[٣] ورواه أبو عبد الله بن حنبل في «المسنَد» في كتاب فضائل عليّ بن أبي طالب، وحكاية لفظ أحمد رضي الله عنه: «مَن أحبَ أن يتمسك بالقضيب الأحمر الذي غرسه الله في جَنّة عدن بيمينه، فليتمسّك بحبّ علي بن أبي طالب».

الخبر السادس: «والّذي نفسي بيده، لولا أن تقول طوائف مِن أمّتي فيك ما قالت النصارى في ابن مريم، لقلت اليوم فيك مقالاً: لا تمرّ بملأٍ من المسلمين إلا أخذوا التّراب من تحت قديمك للبركة».

ذكره أبو عبد الله أحمد بن حنبل في «المسند»[٤].

الخبر السابع: خرج ﷺ عَلى الحجيج عشيّة عرَفة، فقال لهم: إنّ الله قد باهَى بكم الملائكة عامّة، وغفر لكم عامّة، وباهَى بعليّ خاصة، وغفر له خاصة. إني قائل لكم قولاً غير محابٍ فيه لقرابتي، إن السعيد كلّ السّعيد حقّ السعيد مَنْ أحبّ عليًا في حياته وبعد موته».

رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتاب فضائل علي عليه السلام، وفي «المسند»[٥] أيضاً.

---

(١) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٦).

(٢) لم أجده عند أحمد والبيهقي، وقد رواه العسقلاني في «لسان الميزان» (٦/ ٢٤)، في ترجمة مسعر بن يحيى الهندي، والذهبي في «ميزان الاعتدال» (٦/ ٤٠٩)، في ترجمة مسعر بن يحيى الهندي.

(٣) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٨٦)، ولم أجده في «مسند» أحمد.

(٤) لم أجده في مسند أحمد، وهو عند الطبراني في «الكبير» (٩٥١).

(٥) لم أجده في «مسند» أحمد، وهو عند الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٤١٥).

الخبر الثامن: رواه أبو عبد الله أحمد بن حنبل في الكتابين المذكورين: «أنا أوّل مَنْ يُدعى به يوم القيامة، فأقوم عن يمين العرش في ظلّه، ثم أكسى حلّة، ثم يدعى بالنبيّين بعضهم على أثر بعض، فيقومون عن يمين العرش ويكسَوْن حُلَلاً، ثم يدعى بعليّ بن أبي طالب لقرابته منّي ومنزلته عندي، ويدفع إليه لوائي لواء الحمد، آدم ومَنْ دونه تحت ذلك اللواء»، ثم قال لعليّ: «فتسير به حتى تقف بيني وبين إبراهيم الخليل، ثم تكسى حلّة، وينادي منادٍ من العرش: نعم العبدُ أبوك إبراهيم! ونعم الأخ أخوك عليّ! أبشر فإنّك تُدْعَى إذا دعيت، وتُكْسَى إذا كسيت، وتحيًا إذا حيّيت»[1].

الخبر التاسع: «يا أنَس، اسكب لي وضوءًا»، ثم قام فصلّى ركعتين، ثم قال: «أوّل من يدخل عليك من هذا الباب إمام المتقّين، وسيّد المسلمين، ويعسوب الدين، وخاتم الوصيين وقائد الغرّ المحجّلين». قال أنس: فقلت: اللّهمّ اجعله رجلاً من الأنصار، وكتمت دعوتي، فجاء عليّ، فقال: صلى الله عليك وسلّم: «مَنْ جاء يا أنس»؟ فقلت: عليّ، فقام إليه مستبشراً، فاعتنقه، ثم جعل يمسحُ عرق وجهه. فقال عليّ: يا رسول الله، صلّى الله عليك وآلك، لقد رأيت منك اليوم تصنع بي شيئاً ما صنعته بي قبل! قال: «وما يمنعني وأنت تؤدّي عني، وتسمعُهم صوتي، وتبين لهم ما اختلفوا فيه بعدي!».

رواه أبو نعيم الحافظ في «حلْية الأولياء»[2].

الخبر العاشر: «ادعُوا لي سيّدَ العرب عليًا»، فقالت عائشة: ألستَ سيّد العرب؟ فقال: «أنا سيّد ولد آدم، وعليّ سيّد العرب»، فلما جاء أرسل إلى الأنصار، فأتوْه، فقال لهم: «يا معشرَ الأنصار، ألا أدلكم على ما إن تمسّكْتم به لن تضلّوا أبداً» قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «هذا عليّ، فأحبّوه بحبّي، وأكرِموه بكرامتي، فإنّ جبرائيل أمرني بالّذي قلت لكم عن الله عزّ وجلّ».

رواه الحافظ أبو نعيم في «حلية الأولياء»[3].

الخبر الحادي عشر: «مرْحَباً بسيّد المؤمنين، وإمام المتقين»! فقيل لعليّ عليه السلام: كيف

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٨/ ٢.
(٢) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١١٣١).
(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١/ ٦٣).

شكرُكَ؟ فقال: أحَمد الله على ما آتاني، وأسأله الشُّكر على ما أولاني، وأنْ يزيدَني ممّا أعطاني.

ذكره صاحب «الحلية»[1] أيضاً.

الخبر الثاني عشر: «مَنْ سرّه أنْ يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويسكنَ جنّة عدن التي غرسها ربّي، فليوالِ عليًّا من بعدِي، وليوال وليّه، وليقتد بالأئمة من بعدي، فإنّهم عِتْرَتي، خلقُوا من طينتي، ورزقوا فهماً وعلماً. فويل للمكذبين من أمتي! القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهمُ الله شفاعتي».

ذكره صاحب «الحلية»[2] أيضاً.

الخبر الثالث عشر: بعث رسول الله صلى الله عليه وآله خالد بن الوليد في سريّة، وبعث عليًّا عليه السلام في سريّة أخرى، وكلاهما إلى اليمن، وقال: «إن اجتمعتما فَعليّ عَلَى الناس، وإن افترقتما فكلّ واحدٍ منكما على جُنْده»، فاجتمعا وأغارا وسبيًا نساء، وأخذا أموالاً، وقتلا ناساً، وأخذ عليّ جارية فاختصّها لنفسه، فقال خالد لأربعة من المسلمين، منهم بُريدة الأسلميّ: اسبقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، فاذكروا له كذا، واذكروا له كذا، لأمور عدّدها على عليّ، فسبقوا إليه، فجاء واحد من جانِبه، فقال: إنّ عليًّا فَعَل كذا، فأعرَض عنه، فجاء الآخر من الجانب الآخر، فقال: إنَّ علياً فعل كذا، فأعرَض عنه فجاء بُريدة الأسلمي فقال: يا رسول الله، إنّ علياً فعل ذلك، فأخذ جاريةً لنفسه، فغضب صلى الله عليه وآله، حتى احمرّ وجهه، وقال: «دَعُوا لي عليًّا!»، يكررها، «إنّ علياً مِنّي وأنا مِنْ عليّ، وإنّ حظه في الخُمس أكثر مما أخذ، وهو وليّ كلّ مؤمن من بعدي».

رواه أبو عبد الله أحمد في «المسند»[3] غير مرة، ورواه في كتاب فضائل عليّ، ورواه أكثر المحدّثين.

الخبر الرابع عشر: «كنت أنا وعليّ نوراً بين يدي الله عزّ وجلّ قبل أن يخلق آدم بأربعة عشر ألف عام، فلما خَلَق آدم قسّم ذلك فيه وجعله جزأين، فجزء أنا، وجزء عليّ».

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٥/ ٣٨).
(٢) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١/ ٦٦).
(٣) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (١/ ٨٦).

رواه أحمد في «المسند» وفي كتاب فضائل علي عليه السلام، وذكره صاحب كتاب الفردوس[١]، وزاد فيه: «ثم انتقلنا حتى صرنا في عبد المطلب، فكان لي النبوّة ولعليّ الوصية»[٢].

الخبر الخامس عشر: «النّظر إلى وجهك يا عليّ عبادة، أنت سيّد في الدنيا وسيّد في الآخرة، مَنْ أحبّك أحبّني. وحبيبي حبيب الله، وعدوّك عدوّي، وعدوّي عدوُّ الله، الويل لمنْ أبغضك!».

رواه أحمد في «المسند»[٣]، قال: وكان ابنُ عبّاس يفسره، ويقول: إنّ مَن ينظر إليه يقول: سبحان الله! ما أعلم هذا الفتى! سبحان الله ما أشجع هذا الفتى! سبحان الله، ما أفصح هذا الفتى!

الحديث السادس عشر: لما كانت ليلة بدر، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَنْ يستقي لنا ماء؟»، فأحجم الناس، فقام عليّ فاحتضن قربة، ثم أتى بئراً بعيدة القَعْر مظلمة، فانحدر فيها، فأوحى الله إلى جبريل وميكائيل وإسرافيل: أن تأهبوا لنصْر محمد وأخيه وحزبه، فهبطوا من السّماء، لهم لغط يذعر مَنْ يسمعه، فلما حاذوا البئر، سلّموا عليه من عند آخرهم إكراماً له وإجلالاً.

رواه أحمد[٤] في كتاب فضائل عليّ عليه السلام، وزاد فيه في طريق أخرى عن أنس بن مالك: «لتؤتَيَنّ يا عليّ يوم القيامة بناقةٍ من نوق الجنة فتركبها، وركْبتك مع ركبتي، وفخِذُك مع فخذي، حتى تدخل الجنة»[٥].

الحديث السابع عشر: خَطَب صلى الله عليه وآله الناس يوم جمعة، فقال: «أيّها النّاس، قدّموا قريشاً ولا تقدموها، وتعلّموا منها ولا تعلموها، قوّة رجلٍ من قريش تعدِلُ قوّة رجُلين من غيرهم، وأمانة رجل من قريش تعدل أمانة رجليْن من غيرهم. أيّها الناس أوصيكم بحبّ ذي

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (١٩٤٢٦).
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٣٣/ ٦٩.
(٣) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٣٩/ ٢٥٠.
(٤) لم أجده في «مسند» أحمد، لكن روى بنحوه الحاكم في «المستدرك» (٤٦٨٦)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٧٥٩).
(٥) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٤٠/ ٨٤.

قرباها، أخي وابن عمّي عليّ بن أبي طالب، لا يحبّه إلا مؤمن، ولا يبغضه إلا منافق، مَنْ أحبّه فقد أحبّني، ومَنْ أبغضه فقد أبغضني، ومَنْ أبغضني عذّبه الله بالنار».

رواه أحمد[١] رضي الله عنه في كتاب فضائل عليّ عليه السلام.

الحديث الثامن عشر: الصدّيقون ثلاثة: «حبيب النّجار، الذي جاء من أقصى المدينة يسعى، ومؤمن آل فرعون الّذي كان يكتم إيمانَه، وعليّ بن أبي طالب، وهو أفضلهم».

رواه أحمد[٢] في كتاب فضائل عليّ عليه السلام.

الحديث التاسع عشر: «أعطِيتُ في عليّ خمسا، هُنَّ أحبُّ إليّ من الدنيا وما فيها، أما واحدة فهو كابٍ بين يدي الله عزّ وجلّ، حتى يفرغ من حساب الخلائق، وأما الثانية فلواء الحمد بيده، آدم ومن ولد تحته، وأما الثالثة فواقف عَلَى عَقْر حوضي، يسقِي مَنْ عرف من أمّتي، وأما الرابعة فساتر عورتي ومسلمي إلى رَبّي، وأما الخامسة فإني لست أخشى عليه أن يعود كافراً بعد إيمان، ولا زانياً بعد إحصان».

رواه أحمد[٣] في كتاب الفضائل.

الحديث العشرون: كانت لجماعة من الصحابة أبواب شارعة في مسجد الرسول الله صلى الله عليه وآله، فقال عليه الصلاة والسلام يوماً: «سدّوا كلّ باب في المسجد إلا باب عليّ»، فسدّت، فقال في ذلك قوم، حتى بلغ رسول الله صلى الله عليه وآله فقام فيهم، فقال: «إن قوماً قالوا في سدّ الأبواب وتركي باب عليّ، إني ما سددت ولا فتحت، ولكنّي أمِرْت بأمرٍ فاتبعته».

رواه أحمد في «المسند»[٤] مراراً، وفي كتاب الفضائل.

الحديث الحادي والعشرون: دعا صلى الله عليه وآله عليًّا في غزاة الطائف، فانتجاه، وأطال نجواه

---

(١) أخرجه أحمد في «فضائل الصحابة» (١٠٤٩).
(٢) روى الشطر الأول منه الشافعي في «مسنده» (١/ ٢٧٨)، وابن أبي عاصم في «السنة» (١٥١٩).
(٣) أخرجه أحمد بن حنبل في «فضائل الصحابة» (١٠٧٢).
(٤) أخرجه أحمد بن حنبل في «فضائل الصحابة» (١١٢٧).

حتى كرِه قوم من الصحابة[١]، ذلك، فقال قائل منهم: لقد أطال اليَوم نَجْوى ابنِ عمّه، فبلغه عليه الصلاة والسلام ذلك فجمع منهم قوماً، ثم قال: «إن قائلاً قال: لقد أطالَ اليوم نجوى ابن عمّه، أما إني ما انتجيتُه، ولكن الله انتجاه».

رواه أحمد رحمه الله في «المسند»[٢].

الحديث الثاني والعشرون: «أخصِمك يا عليّ بالنبوّة فلا نبوّة بعدِي، وتخصم الناس بسبع، لا يجاحد فيها أحد من قريش: أنت أوّلهم إيماناً بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله، وأقسمهم بالسويّة، وأعدلهم في الرعيّة، وأبصرهم بالقضية، وأعظمهم عند الله مزيّة».

رواه أبو نعيم الحافظ في «حليّة الأولياء»[٣].

الخبر الثالث والعشرون: قالت فاطمة: إنّك زَوَّجتَنِي فقيراً لا مال له، فقال: «زوَّجْتك أقدمهم سِلْماً، وأعظمهم حِلْماً، وأكثرهم عِلْماً! الا تعلمين أنّ الله اطّلع إلى الأرض اطّلاعةً، فاختار منها أباك، ثم اطّلع إليها ثانية فاختار منها بعلَك!».

رواه أحمد[٤] في المسند.

الحديث الرابع والعشرون: لما أنزل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾[٥] بعد انصرافه ﷺ من غزاة حُنَيْن، جعل يكثر من «سبحان الله! أستغفر الله»، ثم قال: «يا عليّ إنّه قد جاء ما وعدت به، جاء الفتح، ودخل النّاس في دين الله أفواجاً، وإنّه ليس أحد أحقّ منك بمقامي، لِقِدَمك في الإسلام وقربك مني، وصهرِك، وعندك سيّدة نساء العالمين، وقبل ذلك ما كان من بلاء أبي طالب عندي حين نزل القرآن، فأنا حريصٌ عَلَى أن أراعي ذلك لولده».

رواه أبو إسحاق الثعلبيّ في «تفسير القرآن»[٦].

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٨٠١).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٧٢٦).
(٣) «حلية الأولياء» (١/ ٦٥).
(٤) لم أجده عند أحمد، وهو عند الطبراني في «الأوسط» (٦٥٤٠)، والهيثمي في «مجمع الزوائد (٨/ ٢٥٣).
(٥) سورة النصر، الآية: ١.
(٦) أخرجه العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ٤٠/ ٨٦، وأخرجه الماحوز في كتاب الأربعين: ٢٥٠.

واعلم أنّا إنما ذكرنا هذه الأخبار هاهنا، لأنّ كثيراً من المنحرفين عنه عليه السلام إذا مرُّوا عَلَى كلامه في «نهج البلاغة» وغيره المتضمّن التحدث بنعمة الله عليه من اختصاص الرسول له صَلى الله عليه وآله، وتمييزه إياه عن غيره، ينسبونه إلى التّيه والزّهْو والفخر، ولقد سبقهم بذلك قوم من الصحابة، قيل لعمر: وَلّ عليًا أمر الجيش والحرب، فقال: هو أتْيَهُ من ذلك! وقال زيد بن ثابت: ما رأينا أزهَى من عليّ وأسامة.

فأردنا بإيراد هذه الأخبار هاهنا عند تفسير قوله: «نحن الشعار والأصحاب، ونحن الخزنة والأبواب»، أن ننبّه عَلَى عِظَم منزلته عند الرسول الله صلى الله عليه وآله، وأنّ من قيل في حقه ما قيل لو رقى إلى السماء، وعَرَج في الهواء، وفخر عَلَى الملائكة والأنبياء، تعظماً وتبجّحاً، لم يكن ملوماً، بل كان بذلك جديراً، فكيف وهو عليه السلام لم يسلك قطّ مسلك التعظّم والتكبّر في شيء من أقواله ولا من أفعاله، وكان ألطف البشر خلقاً، وأكرمهم طبعاً، وأشدّهم تواضعاً، وأكثرهم احتمالاً، وأحسنهم بِشْراً، وأطلقهم وجهاً، حتى نسبه من نسبه إلى الدُّعابة والمزاح، وهما خُلُقان ينافيان التكبّر والاستطالة، وإنما كان يذكر أحياناً ما يذكره من هذا النوع، نَفْثَة مصدُور، وشكوى مكروب، وتنفّس مهموم، ولا يقصِد به إذا ذكره إلا شكر النعمة، وتنبيه الغافل عَلَى ما خصّه الله به من الفضيلة، فإنّ ذلك من باب الأمر بالمعروف، والحضّ عَلَى اعتقاد الحق والصواب في أمره والنهي عن المنكر الذي هو تقديم غيره عليه في الفضل، فقد نهى الله سبحانه عن ذلك فقال: ﴿أَفَمَن يَهْدِيٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّيٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾(١).

الأصل: منها: فِيهِمْ كَرَائِمُ الإِيمَانِ، وَهُمْ كُنُوزُ الرَّحْمَنِ، إِنْ نَطَقُوا صَدَقُوا، وَإِنْ صَمَتُوا لَمْ يُسْبَقُوا. فَلْيَصْدُقْ رَائِدٌ أَهْلَهُ، وَلْيُحْضِرْ عَقْلَهُ، وَلْيَكُنْ مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، فَإِنَّهُ مِنْهَا قَدِمَ، وَإِلَيْهَا يَنْقَلِبُ، فَالنَّاظِرُ بِالْقَلْبِ، ٱلْعَامِلُ بِالْبَصَرِ، يَكُونُ مُبْتَدأُ عَمَلِهِ أَنْ يَعْلَمَ: أَعَمَلُهُ عَلَيْهِ أَمْ لَهُ! فَإِنْ كَانَ لَهُ مَضَى فِيهِ، وَإِنْ كَانَ عَلَيْهِ وَقَفَ عَنْهُ، إِنَّ ٱلْعَامِلَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، كَالسَّائِرِ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ، فَلاَ يَزِيدُهُ بُعْدُهُ عَنِ الطَّرِيقِ ٱلْوَاضِحِ إِلا بُعْداً مِنْ حَاجَتِهِ، وَٱلْعَامِلُ بِالْعِلْمِ كَالسَّائِرِ عَلَى الطَّرِيقِ الْوَاضِحِ، فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ أَسَائِرٌ هُوَ أَمْ رَاجِعٌ!

الشرح: قوله: «فيهم» يرجع إلى آل محمد صلى الله عليه وآله الذين عناهم بقوله: «نحن الشّعار

(١) سورة يونس، الآية: ٣٥.

والأصحاب»، وهو يطلق دائماً هذه الصيغ الجمعية، ويعني نفسَه، وفي القرآن كثير من ذلك، نحو قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾(١).

وكرائم الإيمان: جمع كريمة وهي المنفسات منه، قال الشاعر:

ماض مِنَ العيش لو يفدى بذلت لَهُ كرائم المال من خيلٍ ومن نَعَمِ

فإن قلت: أيكون في الإيمان كرائم وغير كرائم؟ قلت: نعم لأنّ الإيمان عند أكثر أصحابنا اسم للطّاعات كلّها واجبها ونفلها، فمن كانت نوافله أكثرَ كانت كرائم الإيمان عنده أكثر، ومن قام بالواجبات فقط من غير نوافل، كان عنده الإيمان، ولم يكن عنده كرائم الإيمان.

فإن قلت: فعلى هذا تكون النّوافل أكرمَ من الواجبات؟

قلت: هي أكرم منها باعتبار، والواجبات أكرم منها باعتبار آخر، أمّا الأوّل فلأنّ صاحبَها إذا كان قد قام بالواجبات كان أعلى مرتبةً في الجنّة ممن اقتصر على الواجبات فقط، وأمّا الثاني فلأن المخلّ بها لا يعاقب، والمخلّ بالواجبات يعاقب.

قوله: «وهم كنوز الرحمن» لأن الكنز مال يدّخر لشديدة أو ملمّة تلّم بالإنسان، وكذلك هؤلاء قد ذخروا لإيضاح المشكلات الدينية على المكلفين.

ثم قال: إن نطقوا صدقوا، وإن سكتوا لم يكن سكوتهم عن عيّ يوجب كونَهم مسبوقين، لكنّهم ينطقون حُكْماً، ويصمُتون حلماً.

ثم أمر عليه السلام بالتقوى والعمل الصالح، وقال: «ليصدق رائدٌ أهلَه»، الرائد: الذاهب من الحيّ يرتاد لهم المرعى، وفي أمثالهم: «الرائد لا يكذِب أهلَه»، والمعنى أنه عليه السلام أمر الإنسان بأن يصدُق نفسَه ولا يكذبَها بالتسويف والتعليل، قال الشاعر:

أخيَّ إذا خاصمت نفسَك فاحتشِدْ لها وإذا حدّثْت نفسَك فاصدُقِ

وفي المثل: «المتشبّع بما لا يملك كلابس ثوبيْ زور».

فإنه منها قدم، قد قيل: إن الله تعالى خَلَق أرواح البشر قبل أجسادهم، والخبر في ذلك مشهور والآية أيضاً، وهي قوله: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾(٢). ويمكن أنْ يفسّر على وجه آخر، وذلك أنّ الآخرة اليوم عَدَمٌ محضٌ، والإنسان قَدِم من العدَم، وإلى العدم ينقلب، فقد صحّ أنه قَدِم من الآخرة ويرجع إلى الآخرة.

وروى: «أنّ العالم بالبصَر» أي بالبصيرة، فيكون هو قوله: «فالناظر بالقلب»، سواء، وإنما

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٧٣. (٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٢.

قاله تأكيداً، وعلى هذا الوجه لا يحتاج إلى تفسير وتأويل، فأمّا الرواية المشهورة فالوجه في تفسيرها أن يكون قوله: «فالناظر» مبتدأ و«العامل» صفة له، وقوله: «بالبصر يكون مبتدأ عمله» جملة مركبة من مبتدأ وخبر، موضعها رفع؛ لأنها خبر المبتدأ الذي هو «فالناظر»، وهذه الجملة المذكورة قد دخلت عليها «كان»، فالجار والمجرور وهو الكلمة الأولى منها منصوبة الموضع؛ لأنها خبر «كان»، ويكون قوله فيما بعد: «أن يعلم» منصوب الموضع؛ لأنه بدل من «البصر» الذي هو خبر «يكون» والمراد بالبصر هاهنا البصيرة، فيصير تقدير الكلام: فالناظر بقلبه، العامل بجوارحه يكون مبتدأ عمله بالفكر والبصيرة، بأن يعلم: أعملُه له أم عليه!

ويروى: «كالسابل على غير طريق»، والسابل: طالب السبيلِ، وقد جاء في الخبر المرفوع: «مَنْ عمِل بغير هدى، لم يزدد من الله إلا بعداً»، وفي كلام الحكماء: «العامل بغير علم كالرامي من غيرَ وتَر».

الأصل: وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ بَاطِناً عَلَى مِثَالِه، فَمَا طَابَ ظَاهِرُهُ، طَابَ بَاطِنُهُ، وَمَا خَبُثَ ظَاهِرُهُ خَبُثَ بَاطِنُهُ، وَقَدْ قَالَ الرَّسُولُ الصَّادِقُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وسَلَّم: «إِنَّ ٱللهَ يُحِبُّ ٱلْعَبْدَ وَيُبْغِضُ عَمَلَهُ، وَيُحِبُّ ٱلْعَمَلَ وَيُبْغِضُ بَدَنَهُ»[١].

الشرح: هذا الكلام مشتقّ من قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[٢]، وهو تمثيل ضربه الله تعالى لمن ينجع فيه الوعظ والتذكير من البشر، ولمن لا يؤثر ذلك فيه مثّله بالأرض العذبة الطيبة تخرج النبْت، والأرض السبخة الخبيثة لا تنبت، وكلام أمير المؤمنين عليه السلام إلى هذا المعنى يومِيء. يقول: إنّ لِكلتا حالتي الإنسان الظاهرة أمراً باطناً يناسبها من أحواله، والحالتان الظاهرتان: ميله إلى العقل وميله إلى الهوى، فالمتبع لمقتضى عقله يرزق السعادة والفوز، فهذا هو الذي طاب ظاهره، وطاب باطنه، والمتّبع لمقتضى هواه وعادته ودين أسلافه يرزق الشّقاوة والعطب، وهذا هو الذي خُبث ظاهره وخَبُث باطنه.

فإن قلت: فلم قال: «فما طاب»؟ وهلاّ قال: «فمن طاب»؟ وهلاّ قال: «فمن طاب»! وكذلك في «خَبُث»!

قلت: كلامه في الأخلاق والعقائد وما تنطوي عليه الضمائر، يقول: ما طاب من هذه

(١) ذكره الفتني في تذكرة الموضوعات (٢٤) بلفظ: من ازداد علماً ولم يزدد هدى -.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٨.

الأخلاق والملكات، وهي خلق النفس الربانيّة المريدة للحق، من حيث هو حقّ، سواء كان ذلك مذهب الآباء والأجداد أو لم يكن، وسواء كان ذلك مستقبَحاً مستهجناً عند العامّة أو لم يكن، وسواء نال به من الدنيا حظًّا أو لم ينل. يستطيب باطنه يعني ثمرته، وهي السعادة، وهذا المعنى من مواضع «ما» لا من مواضع «من».

فأما الخبر المرويّ، فإنه مذكور في كتب المحدّثين، وقد فسّره أصحابنا المتكلّمون، فقالوا: إنّ الله تعالى قد يحبّ المؤمن ومحبّته له إرادة إثابته، ويبغض عملاً من أعماله وهو ارتكاب صغيرة من الصغائر، فإنّها مكروهة عند الله، وليست قادحة في إيمان المؤمن؛ لأنها تقع مكفَّرة، وكذلك قد يبغض العبدَ بأن يريد عقابه، نحو أن يكون فاسقاً لم يتب، ويحبّ عملاً من أعماله، نحو أن يطيع ببعض الطاعات، وحبّه لتلك الطاعة، هي إرادته تعالى أن يُسقط عنه بها بعض ما يستحقّه من العقاب المتقدّم.

الأصل: وَٱعْلَمْ أَنَّ لِكُلِّ عَمَلٍ نَبَاتاً، وَكُلُّ نَبَاتٍ لاَ غِنَى بِهِ عَنِ ٱلْمَاءِ. وَٱلْمِيَاهُ مُخْتَلِفَةٌ، فَمَا طَابَ سَقْيُهُ، طَابَ غَرْسُهُ وَحَلَتْ ثَمَرَتُهُ، وَمَا خَبُثَ سَقْيُهُ، خَبُثَ غَرْسُهُ وَأَمَرَّتْ ثَمَرَتُهُ.

الشرح: السَّقْي: مصدر سَقَيْت، والسِّقْي، بالكسر: النصيب من الماء.

أمرَّ الشيءُ، أي صار مرًّا.

وهذا الكلام مثل في الإخلاص وضدّه وهو الرياء وحبّ السمعة، فكلّ عمل يكون مدده الإخلاص لوجهه تعالى لا غير، فإنه زاكٍ حلو الجنَى، وكلّ عمل يكون الرِياء وحبّ الشهرة مدده، فليس بزاكٍ، وتكون ثمرته مرّة المذاق.

١٥٥ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها بديع خلقة الخفاش

الأصل: ٱلْحَمْدُ للهِ ٱلَّذِي ٱنْحَسَرَتِ ٱلأَوْصَافُ عَنْ كُنْهِ مَعْرِفَتِهِ، وَرَدَعَتْ عَظَمَتُهُ ٱلْعُقُولَ فَلَمْ تَجِدْ مَسَاغاً إِلَى بُلُوغِ غَايَةِ مَلَكُوتِهِ.

هُوَ ٱللهُ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ، أَحَقُّ وَأَبْيَنُ مِمَّا تَرَى ٱلْعُيونُ. لَمْ تَبْلُغْهُ ٱلْعُقُولُ بِتَحْدِيدٍ فَيَكُونَ مُشَبَّهاً، وَلَمْ تَقَعْ عَلَيْهِ ٱلأَوْهَامُ بِتَقْدِيرٍ فَيَكُونَ مُمَثَّلاً. خَلَقَ ٱلْخَلْقَ عَلَى غَيْرِ تَمْثِيلٍ، وَلاَ مَشُورَةِ

مُشِيرٍ، وَلاَ مَعونَةِ مُعِينٍ، فَتَمَّ خَلْقُهُ بِأَمْرِهِ، وَأَذْعَنَ لِطَاعَتِهِ، فَأَجَابَ وَلَمْ يُدَافِعْ، وَٱنْقَادَ وَلَمْ يُنَازِعْ.

وَمِنْ لَطَائِفِ صَنْعَتِهِ، وَعَجَائِبِ خِلْقَتِهِ، مَا أَرَانَا مِنْ غَوَامِضِ ٱلْحِكْمَةِ فِي هَذِهِ ٱلْخَفَافِيشِ الَّتِي يَقْبِضُهَا الضِّيَاءُ ٱلْبَاسِطُ لِكُلِّ شَيْءٍ، وَيَبْسُطُهَا الظَّلاَمُ ٱلْقَابِضُ لِكُلِّ حَيٍّ. وَكَيْفَ عَشِيَتْ أَعْيُنُهَا عَنْ أَنْ تَسْتَمِدَّ مِنَ الشَّمْسِ المُضِيئَةِ نُوراً تَهْتَدِي بِهِ فِي مَذَاهِبِهَا، وَتَتَّصِلُ بِعَلاَنِيَةِ بُرْهانِ الشَّمْسِ إِلَى مَعَارِفِهَا، وَرَدَعَها بِتَلأْلُؤِ ضِيَائِهَا عَنِ المُضِيِّ فِي سُبُحَاتِ إِشْرَاقِهَا، وَأَكَنَّهَا فِي مَكَامِنِهَا عَنِ الذَّهَابِ فِي بُلَجِ ٱئْتِلاَقِهَا. وَهِيَ مُسْدَلَةُ ٱلْجُفُونِ بِالنَّهَارِ عَلَى حِدَاقِهَا، وَجَاعِلَةُ ٱللَّيْلِ سِرَاجاً تَسْتَدِلُّ بِهِ في ٱلْتِمَاسِ أَرْزَاقِهَا، فَلاَ يَرُدُّ أَبْصَارَهَا إِسْدَافُ ظُلْمَتِهِ، وَلاَ تَمْتَنِعُ مِنَ المُضِيِّ فِيهِ لِغَسَقِ دُجُنَّتِهِ، فَإِذَا أَلْقَتِ الشَّمْسُ قِنَاعَها، وَبَدَتْ أَوضاحُ نَهارِهَا، وَدَخَلَ مِنْ إِشْرَاقِ نُورِها عَلَى الضِّبَابِ فِي وِجارِهَا، أطبقَت الأَجْفَانَ عَلَى مآقِيهَا، وَتَبَلَّغَتْ بِما ٱكْتَسَبَتْهُ مِنَ المَعَاشِ فِي ظُلَمِ لَيَالِيهَا.

فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ اللَّيْلَ لَهَا نَهَاراً وَمَعَاشاً، وَالنَّهَارَ سَكَناً وَقَرَاراً!

وَجَعَلَ لَهَا أَجْنِحَةً مِنْ لَحْمِهَا تَعْرُجُ بِهَا عِنْدَ الحَاجَةِ إِلَى الطَّيَرَانِ، كَأَنَّهَا شَظَايَا الآذَانِ، غَيْرَ ذَوَاتِ رِيشٍ وَلاَ قَصَبٍ، إِلاَّ أَنَّكَ تَرَى مَوَاضِعَ ٱلْعُرُوقِ بَيِّنَةً أَعْلاَماً. لَهَا جَنَاحَانِ لَمَّا يَرِقَّا فَيَنْشَقَّا، وَلَمْ يَغْلُظَا فَيَثْقُلاَ. تَطِيرُ وَوَلَدُهَا لاَصِقٌ بِهَا، لاَجِىءٌ إِلَيْهَا، يَقَعُ إِذَا وَقَعَتْ، وَيَرْتَفِعُ إِذَا ارْتَفَعَتْ، لاَ يُفَارِقُهَا حَتَّى تَشْتَدَّ أَرْكَانُهُ، وَيَحْمِلَهُ لِلنُّهُوضِ جَنَاحُهُ، وَيَعْرِفَ مَذَاهِبَ عَيْشِهِ، وَمَصَالِحَ نَفْسِهِ.

فَسُبْحَانَ ٱلْبَارِىءِ لِكُلِّ شَيْءٍ، عَلَى غَيْرِ مِثَالٍ خَلاَ مِنْ غَيْرِهِ!

الشرح: الخفّاش، واحد جمعه خَفَافيش، وهو هذا الطائر الذي يطير ليلاً ولا يطير نهاراً، وهو مأخوذ من الخَفَش، وهو ضعف في البصر خِلْقة، والرجل أخفش، وقد يكون علّة، وهو الذي يبصر بالليل لا بالنهار، أو في يوم غيم لا في يوم صَحْو.

وانحسرت الأوصاف: كلّت وأعيت. وردعت: كفّت. والمساغ: المسلك.

قال: «أحقّ وأبيَن مما ترى العيون»، وذلك لأنّ العلوم العقلية إذا كانت ضرورية أو قريبة من الضروريّة، كانت أوثق من المحسوسات؛ لأنّ الحسّ يغلط دائماً، فيرى الكبير صغيراً كالبعيد، والصغير كبيراً كالعنبة في الماء تُرى كالإجّاصة، ويُرى الساكن متحرّكاً، كحرف الشّط

إذا رآه راكبُ السفينة متصاعداً، ويُرى المتحرك ساكناً كالظلّ، إلى غير ذلك من الأغاليط والقضايا العقلية الموثوق بها؛ لأنها بديهيّة أو تكاد، فالغلط غير داخل عليها. قوله: «يقبضها الضياء»، أي يقبض أعينها.

قوله: «وتتّصل بعلانية برهان الشمس» كلام جيّد في مذاهب الاستعارة.

وسُبُحات إشراقها: جلاله وبهاؤه. وأكنّها: سترها، وبُلَج ائتلافها: جمع بُلْجة، وهي أول الصبح، وجاء بَلْجة أيضاً بالفتح.

والحِدَاق: جمع حَدَقة العين. والأسداف: مصدر أسدف الليل، أظلم.

وغسق الدّجُنة: ظلام الليل. فإذا ألقت الشمس قناعها، أي سفرت عن وجهها وأشرقت.

والأوضاح: جمع وَضَح، وقد يراد به حليٌّ يعمل من الدراهم الصّحاح، وقد يراد به الدراهم الصِّحاح نفسها وإن لم يكن حُليًّا. والضِّباب، جمع ضَبّ. ووِجارها: بيتها. وشظايا الآذان: أقطاع منها. والقصب هاهنا: الغُضروف.

وخلاصة الخُطْبة، التعجُّب من أعين الخفافيش التي تبصر ليلاً ولا تبصر نهاراً، وكلّ الحيوانات بخلاف ذلك، فقد صار الليل لها معاشاً، والنهار لها سكناً، بعكس الحال فيما عداها. ثم من أجنحتها التي تطير بها وهي لحم لا ريش عليه ولا غضروف، وليست رقيقة فتنشقّ ولا كثيفة فتثقلها عن الطيران. ثم من ولدها إذا طارت احتملته وهو لاصق بها، فإذا وقعت وقع ملتصقاً بها هكذا، إلى أن يشتدّ ويقوى على النهوض فيفارقها.

أخبار غرائب الطيور وصفاتها

واعلم أنه عليه السلام قد أتى بالعلة الطبيعية في عدم إبصارها نهاراً، وهو انفعال حاسّة بصرها عن الضوء الشديد، وقد يعرض مثل ذلك لبعض الناس، وهو المرض المسمّى «روز كور» أي أعمى النهار، ويكون ذلك عن إفراط التحلّل في الروح النوريّ، فإذا لقيَ حرّ النهار أصابه قمر، ثم يستدرك ذلك برد الليل فيزول، فيعود الأبصار.

وأما طيرانها من غير ريش، فإنه ليس بذلك الطيران الشديد، وإنما هو نهوض وخِفّة، أفادها الله تعالى إياه بواسطة الطبيعة، والتصاق الولد بها؛ لأنها تضمه إليها بالطبع، وينضمّ إليها كذلك، وتستعين على ضمّه برجليها، وبقصر المسافة. وجملة الأمر أنه تعجّب من عجيب. وفي الأحاديث العامية: قيل للخفاش: لماذا لا جناح لك؟ قال: لأني تصوير مخلوق، قيل: فلماذا لا تخرج نهاراً؟ قال: حياء من الطيور، يعنون أنّ المسيح عليه السلام صوّره، وأنّ إليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾(١).

(١) سورة المائدة، الآية: ١١٠.

وفي الطير عجائب وغرائب لا تهتدي العقول إليه، ويقال: إن ضربيْن من الحيوان أصمان لا يسمعان، وهما النعام والأفاعِي.

وتقول العرب: إن الظّليم يسمع بعينه وأنفِه، لا يحتاج معهما إلى حاسّة أخرى. والكراكيّ يجمعها أمير لها كيعسوب النحل، ولا يجمعها إلا أزواجاً. والعصافير آلفةٌ للناس آنسةٌ بهم، لا تسكن داراً حتى يسكنها إنسان، ومتى سكنتها لم تقم فيها إذا خرج الإنسان منها، فبفراقه تفارق، وبسكناه تسكن. ويذكر أهل البصرة أنّه إذا كان زمن الخروج إلى البساتين لم يبق في البصرة عُصفور إلاّ خرج إليها، إلاّ ما أقام على بَيْضه وفراخه، وقد يُدَرّب العصفور فيستجيب من المكان البعيد ويرجع.

وقال شيخنا أبو عثمان: بلغني أنّه درِّب فيرجع مِنْ ميل. وليس في الأرض رأسٌ أشبه برأس الحية من رأس العصفور، وليس في الحيوان الذي يعايشُ الناس أقصرَ عمراً منه، قيل لأجل السّفاد الذي يستكثر منه. ويتميَّز الذكر في الأنثى في العصافير تميُّز الديك من الدجاجة؛ لأنّ له الحية، ولا شيء أحنَى على ولده منه، وإذا عَرَض له شيء صاح، فأقبلت إليه العصافير يساعدْنه، وليس لشيء في مثل جسم العصفور من شدّة وطئه إذا مشى أو على السطح ما للعصفور، فإنك إذا كنتَ تحت السطح ووقع، حسبت وقعتَه وقعت حجر، وذكور العصافير لا تعيش إلا سنة، وكثيراً ما تجلب الحيّاتِ إلى المنازل؛ لأنّ الحيّات تتبعها حرصاً على ابتلاع بيضها وفراخها.

ويقال: إن الدجاجة إذا باضت بيضتيْن في يوم واحد وتكرّر ذلك ماتت، وإذا هَرِمت الدجاجة لم يكن لأواخر ما تبيضهُ صفرة، وإذا لم يكن للبيضة محّ لم يخلق فيها فرُّوج. لأن غذاءه المحّ ما دام في البيضة، وقد يكون للبيضة مُحّانِ فتنفقص عن فَرُّوجَيْنِ يخلَقان من البياض، ويغتذيان بالمحَّين؛ لأن الفراريج تُخلَق من البياض وتغتذي بالصُّفرة. وكلّ ديكٍ فإنه يلتقط الحبّة فيحذف بها إلى الدجاجة سماحاً وإيثاراً، ولهذا قالوا: «أسمح من لاقطة» يعنون الدِّيكة، إلا ديَكة مَرْو بخراسان، فإنّها تطرد دجاجها عن الحبّ وتنزعه من أفواهها فتبتلعه.

والحمامة بلهاء، وفي أمثالهم: «أحمق من حمامة»، وهي مع حُمْقِها مهتدية إلى مصالح نفسها وفراخها.

قال ابنُ الأعرابي: قلت لشيخ من العرب: مَنْ علَّمك هذا؟ قال: علَّمني الّذِي علّم الحمامة على بَلَهَهَا تقليبَ بيضها، كيْ تعطيَ الوجهين جميعاً نصيبهما من الحَضْن.

والهداية في الحمام لا تكُونُ إلا في الخُضر والسُّمْر، فأمّا الأسود الشديد السواد فهو كالزنجيّ القليل المعرفة، والأبيض ضعيف القوّة. وإذا خرج الجوزل عن بَيْضته علم أبواه أن

حلقه لا يتسع للغذاء، فلا يكون لهما همّ إلا أن ينفخا في حَلْقه الريح لتتّسع حَوْصلته بعد التحامها، ثم يعلمان أنه لا يحتمل في أولّ اغتذائه أن يُزق بالطعْم، فيزقّانه باللعاب المختلط بقواهما وقوي الطُّعْم ثم يعلمان أنّ حَوْصلته تحتاج إلى دِباغ، فيأكلان من شَورج أصول الحيطان، وهي شيء من الملح الخالص والتراث فيَزُقّانه به. فإذا علما أنه قد اندبغ زقّاه بالحبّ الذي قد غَبّ في حواصلهما، ثم بالذي هو أطرى فأطرى، حتى يتعوّد، فإذا علما أنه قد أطاق اللّقط منعاه بعضَ المنع، ليحتاج ويتشوّف، فتطلبه نفسه، ويحرص عليه، فإذا فطماه وبلغا منتهى حاجته إليهما، نزع الله تلك الرحمة منهما، وأقبل بهما على طلب نَسْل آخر.

ويقال: إنّ حيّة أكلَتْ بيض مُكّاء فجعل المُكّاء يشرشِر على رأسها، ويدنو منها حتى دَلَعت الحيّة لسانها، وفتحت فاها تريده وتهمّ به، فألقى فيها حَسَكة فأخذت بحلْقها حتى ماتت!

ومن دعاء الصالحين: يا رزّاق النّعّاب في عشّه! وذلك أنّ الغراب إذا فقص عن فراخه، فقص عنها بيض الألوان، فينفر عنها ولا يزقّها، فتتفتح أفواها، فيأتيها ذباب يتساقط في أفواهها، فيكون غذاءها إلى أن تسودّ، فينقطع الذباب عنها، ويعودُ الغراب إليها فيأنس بها ويغذّيها.

والحُبارى تدبّق جناح الصقر بذرْقها، ثم يجتمع عليه الحُبَارَيات، فينتِفْنَ ريشه طاقةً طاقةً، حتى يموت، ولذلك يحاول الحُبارى العلوّ عليه، ويحاول هو العلوَّ عليها، ولا يتجاسر أن يدنُوَ منها متسفِّلاً عنها. ويقال: إن الحبارَى تموت كَمَداً إذا انحسر عنها ريشها، ورأت صُوَيْحباتها تطير. وكلّ الطير يتسافَدُ بالأستاه إلا الحَجَل، فإن الحجلة تكون في سُفالة الريح، واليعقوب في عَلاَوتها، فتلقح منه كما تلقح النخلة من الفُحّال بالريح. والحُبارَى شديدُ الحمْق، يقال إنّها أحمق الطير، وهي أشدّه حِياطةً لبيضها وفراخها.

والعقعَق مع كونه أخبث الطير وأصدقها خبثاً، وأشدّها حَذَراً، ليس في الأرض طائر أشدّ تضييعاً لبيضِه وفراخه منه. ومن الطير ما يؤثر التفرّد كالعُقاب، ومنه ما يتعايش زوجاً كالقَطا.

والظليم يبتلِع الحديد المحمّى، ثم يمِيعُه في قانصته حتى يُحيله كالماء الجاري، وفي ذلك أعجوبتان: التغذّي بما لا يغذّي به، واستمراؤه وهضمه شيئاً لو طبخ بالنار أبداً لما انحلّ.

وكما سُخّر الحديد لجوف الظليم فأحاله، سُخّر الصخر الأصمّ لأذناب الجراد، إذا أراد أن يلقي بيضَه غرس ذنَبه في أشدّ الأرض صلابة، فانصدع له، وذلك من فعل الطبيعة بتسخير الصانع القديم سبحانه، كما إنّ عود الحَلْفاء الرِّخو الدقيق المنبت، يلقي في نباته الآجرّ والخزَف الغليظ، فيثقبه.

وقد رأيت في مسّناة سور بغداد، في حجر صلد نبعةَ نبات قد شقّت وخرجت من موضع، لو حاول جماعة أن يضربوه بالبيارم[1] الشديدة مدّة طويلة لم يؤثر فيه أثراً.

وقد قيل: إن إبْرة العقرب أنفذُ في الطّنْجير والطست.

وفي الظليم شَبَهٌ من البعير من جهة المنسِم والوظيف والعُنق والخِزامة التي في أنفه، وشَبَهٌ من الطائر من جهة الريش والجناحين والذنب والمنقار. ثم إنّ ما فيه من شَبَه الطير جَذَبه إلى البيض، وما فيه من شبَه البعير لم يجذبه إلى الولادة.

ويقال: إنّ النعامة مع عظم عظامها وشدّة عَدْوِها لا مخّ فيها، وأشدّ ما يكون عَدْوُها أن تستقبل الريح، فكلّما كان أشدّ لعصوفها كان أشدّ لحُضرها، تضع عنقها على ظهرها ثم تخرق الريح، ومن أعاجيبها أنّ الصيّف إذا دخل وابتدأ البسر في الحمرة ابتدأ لون وظيفِها في الحُمْرة، فلا يزالان يزدادان حمرةً إلى أن تنتهيَ حُمْرة البُسر، ولذلك قيل للظليم: خاضب، ومن العجَب أنها لا تأنس بالطير ولا بالإبل مع مشاكلتها للنوعين، ولا يكاد يرى بيضها مبدَّد البتّة، بل تصفُّه طولاً صَفًّا مستوياً على غاية الاستواء، حتى لو مددتَ عليه خيط المِسْطَر لما وجدت لبعضه خروجاً عن البعض، ثم تعطِي لكلّ وحدة نصيبَها من الحَضْن.

والذئب لا يعرض لبيض النعام ما دام الأبوَان حاضرَيْن، فإنهما متى نقفاه ركبه الذكر فَطحَره[2] وأدركته الأنثى فركضته، ثم أسلمته إلى الذكر وركبته عِوَضه، فلا يزالان يفعلان به ذلك حتى يقتلاه أو يعجزهما هرباً. والنّعام قد يتخذ في الدوّر، وضرره شديد؛ لأنّ النعامة ربّما رأت في أذن الجارية قرطاً فيه حجر أو حبة لؤلؤ، فخطفته وأكلته، وخرمت الأذن، أو رأت في لبّتها فضربت بمنقارها اللّبة فخرقتها.

١٥٦ - ومن كلام له عليه السلام
خاطب به أهل البصرة على جهة اقتصاص الملاحم

الأصل: فَمَنِ ٱسْتَطَاعَ عِنْدَ ذَلِكَ أَنْ يَعْتَقِلَ نَفْسَهُ عَلَى ٱللهِ فَلْيَفْعَلْ، وَإِنْ أَطَعْتُمُوني، فَإِنّي حَامِلُكُمْ إِنْ شَاءَ ٱللهُ عَلَى سَبِيلِ ٱلْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ ذَا مَشَقَّةٍ شَدِيدَةٍ، وَمَذَاقَةٍ مَرِيرَةٍ.

---

(١) البيرم: عَتَلة النجار، وهي قطعة حديد يوسع بها النجار شق الخشبة عند نشرها. لسان العرب والمعجم الوسيط، مادة (برم).

(٢) طحره: رمى به. القاموس، مادة (طحر).

وَأَمَّا فُلاَنَةُ فَأَدْرَكَهَا رَأْيُ النِّسَاءِ، وَضِغْنٌ غَلاَ فِي صَدْرِهَا كَمِرْجَلِ ٱلْقَيْنِ، وَلَوْ دُعِيَتْ لِتَنَالَ مِنْ غَيْرِي مَا أَتَتْ إِلَيَّ لَمْ تَفْعَلْ. وَلَهَا بَعْدُ حُرْمَتُهَا ٱلْأُولَى، وَٱلْحِسَابُ عَلَى ٱللهِ!

الشرح: يعتقل نفسه على الله: يحبسها على طاعته. ثم ذكر أنّ السبيل التي حملهم عليها وهي سبيل الرشاد، ذات مشقّة شديدة ومذاقة مريرة؛ لأنّ الباطل محبوب النفوس، فإنه اللهو واللّذة، وسقوط التكليف، وأما الحقّ فمكروه النفس؛ لأن التكليف صعب وترك الملاذّ العاجلة، شاقّ شديد المشقّة. والضِّغن: الحقد. والمِرْجل: قِدْر كبيرة. والقَيْن: الحداد، أي كَغَليان قِدْر من حديد.

عائشة وبعض أخبارها

وفلانة كناية عن أمّ المؤمنين عائشة، أبوها أبو بكر، وقد تقدّم ذكر نسبه، وأمها أم رُومان ابنة عامر بن عويمر بن عبد شمس بن عتّاب بن أذينة بن سبيع بن دَهْمان بن الحارث بن غَنْم بن مالك بن كنانة. تزوّجها رسول الله ﷺ قبل الهجرة بسنتين، بعد وفاة خديجة، وهي بنت سبع سنين، وبَنَى عليها بالمدينة، وهي بنت تسع سنين وعشرة أشهر، وكانت قبله تذكر لجُبَير بن مطعِم، وتُسمَّى له، وكان رسول الله ﷺ رأى في المنام عائشة في سَرَقةٍ من حرير عند متوفّى خَديجة، فقال: «إن يكن هذا من عند الله يُمْضِهِ»[1]، روي هذا الخبر في المسانيد الصحيحة، وكان نكاحُه إياها في شوّال، وبناؤه عليها في شوّال أيضاً، فكانت تحبّ أن تدخل النساء من أهلها وأحبّتها على أزواجهنّ في شوّال، وتقول: هل كان في نسائه أحظَى منّي! وقد نكحني، وبنى عليّ في شوال، ردًّا بذلك على مَنْ يزعم من النساء أنّ دخولَ الرجل بالمرأة بين العيدَيْن مكروه.

وتوفّيَ رسول الله ﷺ عنها وهي بنت عشرين سنة. واستأذنت رسول الله ﷺ في الكُنْية، فقال لها: «اكتني بابنك عبد الله بن الزُّبير»[2]، يعني ابنَ أختها، فكانت تكنَى أمّ عبد الله. وكانت فقيهةً راوية للشعر، ذات حظّ من رسول الله ﷺ، ومَيْلٍ ظاهر إليها، وكانت لها عليه جرأة وإدلال لم يزل ينمِي ويستشري، حتى كان منها في قصّة مارية، ما كان من الحديث الذي أسرّه إلى الزوجة الأخرى، وأدّى إلى تظاهرهما عليه، وأنزل فيهما قرآناً يُتلى في

(١) أخرجه البخاري، كتاب: النكاح، باب: نكاح الأبكار (٥٠٧٨)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل عائشة (٢٤٣٨)، وأحمد، كتاب: باقي مسند الأنصار، باب: حديث السيدة عائشة (٢٣٦٢٢).

(٢) أخرجه أحمد، كتاب: باقي الأنصار، باب: باقي المسند السابق (٢٥٠٠٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ٣١١)، والطبراني في «الكبير» (٣٦).

المحاريب، يتضمّن وعيداً غليظاً عَقِيب تصريح بوقوع الذنب، وصَفْو القلب، وأعقبتّها تلك الجرأة، وذلك الانبساط وحدث منها في أيام الخلافة العلويّة ما حدث، ولقد عفا الله تعالى عنها، وهي من أهل الجنة عندنا بسابق الوعد، وما صحَّ من أمر التوبة.

وروى أبو عمر بن عبد البر في كتاب «الاستيعاب» في باب عائشة، عن سعيد بن نصر، عن قاسم بن أصبغ، عن محمد بن وضاح، عن أبي بكر بن أبي شيبة، عن وكيع عن عصام بن قدامة، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ لنسائه: «أيتكنّ صاحبة الجملَ الأدْبب، يقتَل حولها قتلى كثير، وتنجو بعدما كادت»[١]؟

قال أبو عمر بن عبد البر: وهذا الحديث من أعلام نبوّته ﷺ، قال: وعصام بن قدامة ثقة وسائر الإسناد، فثقة رجاله أشهر من أن تذكر.

ولم تحمل عائشة من رسول الله ﷺ، ولا وُلد له ولد من مَهِيرة[٢] إلا من خديجة، ومن السَّراريّ من مارية.

وقُذِفت عائشة في أيام رسول الله ﷺ بصفوان بن المعطّل السُّلَميّ، والقصة مشهورة، فأنزل الله تعالى براءتها في قرآن يُتْلَى وينقل، وجُلِد قاذفوها الحدّ، وتوفيت في سنة سبع وخمسين للهجرة، وعمرها أربع وستون سنة، ودفنت بالبَقيع، في مُلْك معاوية، وصلّى عليها المسلمون ليلاً، وأمّهم أبو هريرة، ونزل في قبرها خمسة من أهلها: عبد الله وعروة ابنا الزبير، والقاسم وعبد الله ابنا محمد بن أبي بكر، وعبد الرحمن بن عبد الرحمن بن أبي بكر، وذلك لسبع عشرة خلتْ من شهر رمضان من السنة المذكورة.

فأما قوله: «فأدركها رأيُ النساء»، أي ضعف آرائهنّ وقد جاء في الخبر: «لا يفلح قوم أسندوا أمرَهم إلى امرأة»[٣] وجاء: «إنهنّ قليلات عقلٍ ودين»[٤]، أو قال: «ضعيفات»، ولذلك جعل شهادة المرأتين بشهادة الرجل الواحد، والمرأة في أصل الخلقة سريعة الانخداع سريعة الغضب، سيئة الظن فاسدة التدبير، والشجاعة فيهنّ مفقودة، أو قليلة، وكذلك السخاء.

---

(١) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٣٤)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٧٧٨٥)، وابن عبد البر في «الاستيعاب» (٤٠٢٩).

(٢) المهيرة: الحرة الغالية المهر. اللسان والقاموس، مادة (مهر).

(٣) أخرجه أحمد، كتاب: مسند البصريين، باب: حديث أبي بكرة (١٩٨٨٩)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٧٧٨٧)، والبزار في «المسند» (٣٦٤٩)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٥٣٧٢).

(٤) أخرج نحوه البخاري، كتاب: الحيض، باب: ترك الحائض الصوم (٣٠٤)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: نقص الإيمان بنقص الطاعات (٨٠)، والترمذي، كتاب: الإيمان، باب: استكمال الإيمان (٢٦١٣)، وأبو داود، كتاب: السنة باب: الدليل على زيادة الإيمان (٤٦٧٩).

وأما الضِغْن، فاعلم أنّ هذا الكلام يحتاج، إلى شرح، وقد كنت قرأته على الشيخ أبي يعقوب يوسف بن إسماعيل اللمعانيّ رحمه الله أيام اشتغالي عليه بعلْم الكلام، وسألته عمّا عنده فيه، فأجابني بجواب طويل، أنا أذكر محصوله، بعضُه بلفظه رحمه الله، وبعضُه بلفظي، فقد شذّ عني الآن لفظه كلّه بعينه، قال: أول بدء الضِغْن كان بينها وبين فاطمة عليها السلام، وذلك لأنّ رسول الله ﷺ تزوّجها عَقِيب موت خديجة، فأقامها مقامها، وفاطمة هي ابنة خديجة، ومن المعلوم أنّ ابنة الرجل إذا ماتت أمّها، وتزوج أبوها أخرى، كان بين الابنة وبين المرأة كَدَرٌ وشنَآن، وهذا لا بدّ منه، لأن الزوجة تنفّس عليها ميل الأب، والبنت تكره ميل أبيها إلى امرأة غريبة. كالضَرّة لأمّها، بل هي ضرة على الحقيقة، وإن كانت الأمّ ميّتة. ولأنّا لو قدّرنا الأمّ حيّة، لكانت العداوة مضطرمة متسعّرة، فإذا كانت قد ماتت ورثتْ ابنتها تلك العداوة، وفي المثل: «عداوة الحماة والكَنّة». وقال الراجز:

إن الحماة أولِعَتْ بالكَنَّهْ وأولِعَتْ كَنَّتُها بالظَّنَّهْ

ثم اتّفق أنّ رسول الله ﷺ مال إليها وأحبَّها، فازداد ما عند فاطمة بحسب زيادة ميله، وأكرم رسول الله ﷺ فاطمةَ إكراماً عظيماً أكثر مما كان الناس يظنونه، وأكثر من إكرام الرجال لبناتهم، حتى خرج بها عن حدِّ حبِّ الآباء للأولاد، فقال بمحضر الخاصّ والعام مراراً لا مرة واحدة، وفي مقامات مختلفة لا في مقام واحد: «إنّها سيّدة نساء العالمين، وإنها عديلة مريم بنت عمران»[1]، «وإنها إذا مرّت في الموقف نادى منادٍ من جهة العرش: يا أهل الموقف، غضّوا أبصاركم لتعبُرَ فاطمة بنت محمد»[2]. وهذا من الأحاديث الصحيحة، وليس من الأخبار المستضعَفة، وإن إنكاحه علياً إيّاها ما كان إلا بعد أن أنكحه الله تعالى إياها في السماء بشهادة الملائكة[3]. وكم قال لامرّة: «يوذيني ما يؤذيها، ويغضبني ما يغضبها»[4]، و«إنها بضعة منّي، يريبني ما رابها»، فكان هذا وأمثاله يوجب زيادة الضّغن عند الزوجة حسب

---

(١) أخرج نحوه الترمذي، كتاب: المناقب، باب: فضل فاطمة بنت محمد ﷺ (٣٨٧٣)، وأحمد، كتاب: باقي «مسند المكثرين»، باب: حديث أبي سعيد الخدري (١١٣٤٧).

(٢) أخرج نحوه الحاكم في «المستدرك» (٤٧٢٨)، والطبراني في «الأوسط» (٢٣٨٦)، و«الكبير» (١٨٠).

(٣) على ما أخرجه الديلمي في الفردوس: ٥/ ٣١٩ رقم ٨٣١٠-٨٣١٧.

(٤) أخرج نحوه البخاري، كتاب: المناقب، باب: مناقب قرابة رسول الله ﷺ (٣٧١٤)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضائل فاطمة (٢٤٤٩)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: فضل فاطمة (٣٨٦٩)، وأحمد، كتاب: أول مسند المدنيين، باب: حديث عبد الله بن الزبير بن العوام (١٥٦٩١).

زيادة هذا التعظيم والتبجيل، والنفوس البشريةَ تغيَّظُ على ما هو دون هذا، فكيف هذا!

ثم حصل عند بعلها ما هو حاصلٌ عندها - أعني عليًا عليه السلام - فإنّ النساء كثيراً ما يجعلنَ الأحقاد في قلوب الرجال، لا سيما وهنّ محدِّثات الليل كما قيل في المثل، وكانت تكثر الشكوى من عائشة، ويغشاها نساء المدينة وجيران بيتها فينقلنَ إليها كلماتٍ عن عائشة، ثم يذهبن إلى بيت عائشة فينقلنَ إليها كلماتٍ عن فاطمة، وكما كانت فاطمة تشكو إلى بعلها، كانت عائشة تشكو إلى أبيها، لعلمها أنّ بعلَها لا يُشكِيها على ابنته، فحصل في نفس أبي بكر من ذلك أثرٌ ما، ثم تزايد تقريظُ رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ عليه السلام، وتقريبه واختصاصه، فأحدث ذلك حسداً له وغبطة في نفس أبي بكر عنه، وهو أبوها، وفي نفس طلحة وهو ابن عمّها، وهي تجلس إليهما، وتسمع كلامهما، وهما يجلسان إليها ويحادثانها، فأعدَى إليها منهما كما أعدتْهما.

قال: ولست أبرّىء عليًّا عليه السلام من مثل ذلك، فإنّه كان ينفَسُ على أبي بكر سكونَ النبيّ صلى الله عليه وآله إليه وثناءه عليه، ويحبّ أن ينفرد هو بهذه المزايا والخصائص دونه ودون الناس أجمعين، ومن انحرف عن إنسان انحرف عن أهله وأولاده، فتأكّدت البِغْضة بين هذين الفريقين. ثم كان من أمر القذف ما كان، ولم يكن عليٌّ عليه السلام من القاذفين، ولكنّه كان من المشيرين على رسول الله صلى الله عليه وآله بطلاقها، تنزيهاً لعرضه عن أقوال الشَّنَأة والمنافقين.

قال لما استشاره: إن هي إلا شِسْع نعلِك، وقال له: سلِ الخادم وخَوّفها وإن أقامت على الجحود فاضربْها. وبلغَ عائشة هذا الكلام كلّه، وسمعت أضعافه ممّا جرت عادة الناس أن يتداولوه في مثل هذه الواقعة، ونقل النساء إليها كلاماً كثيراً عن عليّ وفاطمة، وأنهما قد أظهرا الشماتة جهاراً وسرًّا بوقوع هذه الحادثة لها، فتفاقم الأمرُ وغَلُظ.

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وآله صالَحها ورجع إليها، ونزل القرآن ببراءتها، فكان منها ما يكون من الإنسان ينتصر بعد أن قُهِر، ويستظهر بعد أن غُلِب، ويبرأ بعد أن اتُّهم، من بسط اللسان، وفَلَتاتِ القول، وبلغ ذلك كلُّه علياً عليه السلام وفاطمة عليها السلام، فاشتدّت الحال وغَلُظت، وطوى كلٌّ من الفريقين قلبَه عَلَى الشنآن لصاحبه. ثم كان بينها وبين عليّ عليه السلام في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله أحوال وأقوال، كلُّها تقتضِي تهييج ما في النفوس، نحو قولها له - وقد استدناه رسول الله، فجاء حتى قعد بينه وبينها وهما متلاصقان: أما وجدتَ مقعداً لكذا - لا تكنى عنه - إلاّ فخذِي! ونحو ما روي أنّه سايره يوماً وأطال مناجاته، فجاءت وهي سائرة خلفهما حتى دخلت بينهما، وقالت: فيم أنتما فقد أطلتما! فيقال: إن رسول الله صلى الله عليه وآله غَضِبَ ذلك اليوم. وما روي من حديث الجَفنة من الثريد التي أمرت الخادم فوقفت لها فأكفأتها، ونحو ذلك مما يكون بين الأهل وبين المرأة وأحمائها.

ثم اتفق أنّ فاطمة وَلَدَت أولاداً كثيرة بنين وبنات، ولم تلد هي ولداً، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله

كان يُقيم بني فاطمة مقام بنيه، ويسمّي الواحد منهما «ابني» ويقول: «دعوا لي ابني ولا تُزْرِموا على ابني»[1]، و«ما فعل ابني؟» فما ظنُّك بالزوجة إذا حُرِمت الولد من البعل، ثمّ رأت البعل يتبنّى بني ابنتِه من غيرها، ويحنو عليهم حُنُوَّ الوالد المشفق! هل تكون مُحبّةً لأولئك البنين ولأمهم ولأبيهم، أم مبغِضة! وهل تودّ دوامَ ذلك واستمرارَه، أم زواله وانقضاءه!

ثم اتّفق أنّ رسول الله ﷺ سدّ باب أبيها إلى المسجد، وفتح باب صهره[2]، ثم بعث أباها ببراءة إلى مكة، ثم عزله عنها بصهره، فقدح ذلك أيضاً في نفسها، وولد لرسول الله ﷺ إبراهيم من مارية، فأظهر عليّ عليه السلام بذلك سروراً كثيراً، وكان يتعصّب لمارية، ويقوم بأمرها عند رسول الله ﷺ ميلاً عَلَى غيرها، وجرت لمارية نكبة مناسبة لنكبة عائشة، فبرّأها عليّ عليه السلام منها، وكشف بطلانها، أو كشفه الله تعالى عَلَى يدِه، وكان ذلك كشفاً محسًّا بالبصر، لا يتهيّأ للمنافقين أن يقولوا فيه ما قالوه في القرآن المنزّل ببراءة عائشة، وكلّ ذلك مما كان يوغِرُ صدرَ عائشة عليه، ويؤكّد ما في نفسها منه، ثم مات إبراهيم فأبطنتْ شماتةً، وإن أظهرت كآبة، ووَجَم عليّ عليه السلام من ذلك وكذلك فاطمة، وكانا يؤثِران، ويريدان أن تتميّز مارية عليها بالوَلد، فلم يقدّر لهما ولا لمارية ذلك، وبقيَت الأمور على ما هي عليه، وفي النفوس ما فيها، حتى مَرِض رسول الله ﷺ المرضَ الذي توفّي فيه.

وكانت فاطمة عليها السلام وعليّ عليه السلام يريدان أن يمرّضاه في بيتهما، وكذلك كان أزواجه كلّهنّ، فمال إلى بيت عائشة بمقتضى المحبّة القلبية التي كانت لها دون نسائه، وكره أن يزاحم فاطمة وبعلَها في بيتهما، فلا يكون عنده من الانبساط لوجودهما ما يكون إذا خلا بنفسه في بيت مَنْ يميل إليه بطبعه، وعلم أنّ المريض يحتاج إلى فضل مداراة، ونوم ويقظة وانكشاف، وخروج حَدَث، فكانت نفسه إلى بيته أسكَنَ منها إلى بيت صهره وبنته، فإنه إذا تصوّر حياءهما منه استحيَا هو أيضاً منهما، وكلّ أحدٍ يحبُّ أن يخلُوَ بنفسه، ويحتشِم الصّهر والبنت، ولم يكن له إلى غيرها من الزوْجات مثل ذلك الميل إليه، فتمرّض في بيتها، فغُبطت على ذلك، ولم يمرض رسول الله ﷺ منذ قدم المدينة مثل هذا المرض، وإنما كان مرضه الشّقِيقة يوماً أو بعض يوم ثم يبرأ، فتطاولَ هذا المرضُ، وكان عليّ عليه السلام لا يشكّ أنّ الأمر له، وأنّه لا ينازعه فيه أحد من الناس، ولهذا قال له عمّه وقد مات رسول الله ﷺ: امْدُد يدَكَ أبايعك، فيقول الناس: عمّ رسول الله ﷺ بايع ابنَ عمّ رسول الله ﷺ، فلا يختلف عليك اثنان.

قال: يا عمّ، وهل يطمع فيها طامع غيري! قال: ستعلم، قال: فإنّي لا أحبّ هذا الأمر من

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: النكاح، باب: ذبّ الرجل عن ابنته (٥٢٣٠)، ومسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: فضل فاطمة بنت النبي ﷺ (٢٤٤٩).

(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٢/ ٢٣٧، وأخرجه القمي في كتاب الأربعين: ٦١٨.

وراء رتاج، وأحبّ أن أضجرَ به. فسكت عنه، فلما ثقل رسول الله ﷺ في مرضِه، أنفذ جيش أسامة، وجعل فيه أبا بكر وغيره من أعلام المهاجرين والأنصار، فكان عليّ عليه السلام حينئذٍ بوصوله إلى الأمر - إن حدث برسول الله ﷺ حدث - أوثق، وتغلّب على ظنه أنّ المدينة لو مات لخلتْ من منازع ينازعه الأمر بالكلّية، فيأخذ صفواً عفواً، وتتمّ له البيعة، فلا يتهيّأ فسخها لو رام ضدّ منازعته عليها، فكان - من عَوْدِ أبي بكر من جيش أسامة بإرسالها إليه، وإعلامه بأنّ رسول الله ﷺ يموت - ما كان، ومن حديث الصلاة بالناس ما عرف، فنسب عليٌّ عليه السلام عائشة أنها أمرت بلالاً مولَى أبيها أنْ يأمره فليصلّ بالناس؛ لأنّ رسول الله كما روي، قال: «ليصّل بهم أحدُهم»[1]، ولم يعيِّن، وكانت صلاة الصبح، فخرج رسول الله ﷺ وهو في آخر رَمَقٍ يتهادَى بين عليّ والفضل بن العباس، حتى قام في المحراب كما ورد في الخبر، ثم دخل فمات ارتفاع الضحىَ، فجعل يومُ صلاته حُجَّةً في صرف الأمير إليه. وقال: أيكم يَطيبُ نفساً أن يتقدّم قَدَميْن قدّمهما رسول الله في الصلاة؟ ولم يحملوا خروج رسول الله ﷺ إلى الصلاة لصرفه عنها، بل لمحافظته على الصّلاة مهما أمكن، فبويع عَلَى هذه النكتة التي اتّهمها عليّ عليه السلام على أنّها ابتدأت منها.

وكان عليّ عليه السلام يذكُر هذا لأصحابه في خَلَواته كثيراً، ويقول: إنّه لم يقلْ ﷺ: «إنّكم لَصُوَيحبات يوسف»[2] إلاّ إنكاراً لهذه الحال، وغضباً منها؛ لأنها وحفصة تبادرتا إلى تعيين أبويهما، وأنّه استدركها بخروجه وصرفه عن المحراب، فلم يُجْدِ ذلك، ولا أثّر، مع قوة الداعي الذي كان يدعو إلى أبي بكر ويمهّد له قاعدة الأمر، وتقرر حاله في نفوس الناس ومن اتّبعه على ذلك من أعيان المهاجرين والأنصار. ولما ساعد على ذلك من الحظ الفَلَكيّ والأمر السمائيّ، الذي جَمَع عليه القلوب والأهواء، فكانت هذه الحال عند عليّ أعظم من كلّ عظيم، وهي الطامّة الكبرى، والمصيبة العُظمى، ولم ينسُبْها إلا إلى عائشة وحدَها، ولا علّق الأمر الواقع إلاّ بها، فدعا عليها في خَلَواتِه وبين خواصّه، وتظلّم إلى الله منها، وجرى له في تخلفه عن البيْعة ما هو مشهور، حتّى بايع، وكان يبلغه وفاطمة عنها كلّ ما يكرهانه منذ مات رسول الله ﷺ إلى أن توفِّيت فاطمة، وهما صابران على مضضٍ ورَمَض[3]، واستظهرت

(١) أخرج نحوه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ٢٨٥)، وابن حجر في «تلخيص الحبير» (١/ ٣٩).
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٨/ ١٦٠ وروي بلفظ: «مروا أبا بكر فليصل بالناس».
(٣) أخرجه البخاري، كتاب: باب: حد المريض أن يشهد الجماعة (٦٦٤)، ومسلم، كتاب: الصلاة باب: استخلاف الإمام إذا عرض له عذر (٤١٨)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب أبي بكر (٣٦٧٢)، والنسائي، كتاب: الإمامة، باب: الائتمام بالإمام يصلي قاعداً (٨٣٣)، وابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة والسنة فيها، باب: ما جاء في صلاة رسول الله ﷺ في مرضه (١٢٣٣).

بولاية أبيها، واستطالت وعَظُم شأنها، وانخذل عليّ وفاطمة وقُهِرا، وأخِذَت فَدَك، وخرجت فاطمة تجادل في ذلك مراراً فلم تظفر بشيء، وفي ذلك تبلّغها النساء والداخلات والخارجات عن عائشة كلّ كلام يسوءها، ويبلّغْنَ عائشة عنها وعن بعلها مثل ذلك، إلا أنه شتّان ما بين الحالين، وبعد ما بين الفريقيْن، هذه غالبة وهذه مغلوبة، وهذه آمرة وهذه مأمورة، وظهر التشفي والشماتة، ولا شيء أعظم مرارة ومشقّة من شماتة العدوّ.

فقلت له، رحمه الله: أفتقول أنت: إنّ عائشة عيّنت أباها للصلاة ورسول الله ﷺ لم يعيّنه!

فقال: أمّا أنا فلا أقول ذلك، ولكنّ عليًّا كان يقوله، وتكليفي غير تكليفه، كان حاضراً ولم أكن حاضراً، فأنا محجوج بالأخبار التي اتصلت بي، وهي تتضمن تعيين النبيّ ﷺ لأبي بكر في الصلاة، وهو محجوج بما كان قد علمه أو يغلب على ظنّه من الحال التي كان حضرها.

قال: ثم ماتت فاطمة، فجاء نساء رسول الله ﷺ كلّهنّ إلى بني هاشم في العزاء إلا عائشة، فإنّها لم تأتِ، وأظهرت مرضاً، ونقل إلى عليّ عليه السلام عنها كلام يدلّ على السرور.

ثم بايع عليّ أباها فسرّت بذلك، وأظهرت من الاستبشار بتمام البَيْعة واستقرار الخلافة وبطلان منازعة الخصم ما قد نقله الناقلون فأكثروا، واستمرّتِ الأمور على هذا مُدّة خلافة أبيها وخلافة عمر وعثمان، والقلوب تغلِي، والأحقاد تذيب الحجارة، وكلّما طال الزمان على عَلّي تضاعفت همومه، وباح بما في نفسه، إلى أن قتِل عثمان وقد كانت عائشة فيها أشدّ الناس عليه تأليباً وتحريضاً، فقالت: أبعده الله! لمَّا سمعت قتلَه، وأمّلت أن تكون الخلافة في طلحة، فتعود الإمْرة تيميّة كما كانت أوّلاً، فعدل الناس عنه إلى عليّ بن أبي طالب، فلما سمعت ذلك صرخت: واعثماناه! قتِل عثمان مظلوماً، وثار ما في الأنفس، حتى تولّد من ذلك يوم الجمل وما بعده.

هذه خلاصة كلام الشيخ أبي يعقوب رحمه الله، ولم يكن يتشيّع، وكان شديداً في الاعتزال، إلا أنه في التفضيل كان بغداديًا.

فأما قوله عليه السلام: «ولو دُعِيَتْ لتنال من غيري مثل ما أتت إليّ، لم تفعل» فإنما يعني به عمر، يقول: لو أنّ عمر وَلِيَ الخلافة بعد قتل عثمان على الوجه الذي قتِل عليه، والوجه الّذي أنا وليت الخلافة عليه، ونسِب إلى عمر أنه كان يؤثر قتله، أو يحرّض عليه، ودعِيَتْ عائشة إلى أن تخرج عليه، في عصابة من المسلمين إلى بعض بلاد الإسلام، تثير فتنة وتنقض البيعة - لم تفعل، وهذا حق؛ لأنها لم تكن تَجد على عمر ما تجده على عليّ عليه السلام، ولا الحال الحال.

فأما قوله: «ولها - بعدُ - حُرْمتها الأولى، والحساب على الله»، فإنه يعني بذلك حُرْمتَها بنكاح رسول الله ﷺ لها، وحبّه إياها. وحسابها على الله؛ لأنه غفور رحيم لا يتعاظم عفوه زلّة، ولا يضيق عن رحمته ذنب.

فإن قلت: هذا الكلام يدلّ على توقّفه عليه السلام في أمرها، وأنتم تقولون: إنّها من أهل الجنّة، فكيف تجمعون بين مذهبكم وهذا الكلام؟

قلت: يجوز أن يكون قال هذا الكلام قبل أن يتواتر الخبرُ عنده بتوبتها، فإنّ أصحابنا يقولون: إنّها تابت بعد قتل أمير المؤمنين وندمت، وقالت: لوددتُ أن لي من رسول الله صلى الله عليه وآله عشرة بنين، كلّهم ماتوا، ولم يكن يوم الجمل. وأنّها كانت بعد قتله تُثني عليه وتنشر مناقبَه، مع أنهم رووا أيضاً أنها عَقيب الجمل كانت تبكي حتى تبلّ خمارها، وأنها استغفرت الله وندمت، ولكن لم يبلغ أمير المؤمنين عليه السلام حديثُ توبتها عَقِيب الجمل بلاغاً يقطع العذر ويثبت الحجة، والذي شاع عنها من أمر الندم والتوبة شياعاً مستفيضاً، إنما كان بعد قتله عليه السلام إلى أن ماتت وهي على ذلك، والتائب مغفور له، ويجب قبول التوبة عندنا في العدل، وقد أكّدوا وقوع التوبة، منها ما روي في الأخبار المشهورة أنها زوجة رسول الله صلى الله عليه وآله في الآخرة كما كانت زوجته في الدنيا، ومثل هذا الخبر إذا شاع أوجب علينا أنْ نتكلّف إثبات توبتها ولو لم ينقل، فكيف والنقل لها يكاد أن يبلغ حد التواتر!

الأصل: منه: سَبِيلٌ أَبْلَجُ ٱلْمِنْهَاجِ، أَنْوَرُ السِّرَاجِ، فَبِالْإِيمَانِ يُسْتَدَلُّ عَلَى الصَّالِحَاتِ، وَبِالصَّالِحَاتِ يُسْتَدَلُّ عَلَى ٱلْإِيمَانِ، وَبِالْإِيمَانِ يُعْمَرُ ٱلْعِلْمُ، وَبِالْعِلْمِ يُرْهَبُ المَوْتُ، وَبِالْمَوْتِ تُخْتَمُ ٱلدُّنْيَا، وَبِالدُّنْيَا تُحْرَزُ ٱلْآخِرَةُ، وَبِالْقِيَامَةِ تُزْلَفُ ٱلْجَنَّةُ، وَتُبَرَّزُ ٱلْجَحِيمُ لِلْغَاوِينَ. وَإِنَّ ٱلْخَلْقَ لاَ مَقْصَرَ لَهُمْ عَنِ ٱلْقِيَامَةِ، مُرْقِلِينَ فِي مِضْمَارِهَا إِلَى ٱلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى.

الشرح: هو الآن في ذكر الإيمان، وعنه قال: «سبيل أبلج المنهاج»، أي واضح الطريق.

ثم قال: «فبالإيمان يستدلّ على الصالحات»، يريد بالإيمان هاهنا مسمّاه اللغويّ لا الشرعيّ لأن الإيمان في اللغة هو التصديق، قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾[1] أي بمصدق، والمعنى أنّ من حَصَل عنده التَّصديق، بالوحدانية والرسالة، وهما كلمتا الشهادة، استدلّ بهما على وجوب الأعمال الصالحة عليه أو ندبه إليها، لأنّ المسلم يعلم من دين نبيه صلى الله عليه وآله أنه أوجب عليه أعمالاً صالحة، وندبه إلى أعمال صالحة، فقد ثبت أنّ بالإيمان يستدلّ على الصالحات.

ثم قال: «وبالصالحات يستدلّ على الإيمان»، فالإيمان هاهنا مستعمل في مسمّاه الشرعيّ

(١) سورة يوسف، الآية: ١٧.

لا في مسمّاه اللغويّ، ومسمّاه الشرعيّ هو العقد بالقلب، والقول باللسان، والعمل بالجوارح، فلا يكون المؤمن مؤمناً حتى يستكمل فعل كل واجب، ويجتنب كل قبيح، ولا شبهة أنّا متى علمنا أو ظننّا من مكلّفٍ أنه يفعل الأفعال الصالحة، ويجتنب الأفعال القبيحة، استدللنا بذلك على حسن إطلاق لفظ المؤمن عليه، وبهذا التفسير الذي فسّرناه نسلم من إشكال الدَّوْر؛ لأنّ لقائل أن يقول: من شرط الدليل أن يعلم قبل العلم بالمدلول، فلو كان كلّ واحد من الإيمان والصالحات يستدلّ به على الآخر، لزم تقدّم العلم بكلّ واحد منهما على العلم بكلّ واحدٍ منهما، فيؤدّي إلى الدَّوْر، ولا شبهة أن هذا الدَّوْر غير لازم على التفسير الذي فسّرناه نحن.

ثم قال عليه السلام: «وبالإيمان يعمر العلم»، وذلك لأنّ العالم وهو غير عامل بعلمه، غير منتفع بما عِلم، بل مستضرّ به غاية الضرر، فكأنّ علمه خراب غير معمور، وإنّما يعمر بالإيمان وهو فعل الواجب وتجنّب القبيح على مذهبنا، أو الاعتقاد والمعرفة على مذهب غيرِنا أو القول اللسانيّ على قول آخرين، ومذهبنا أرجح؛ لأنّ عمارة العلم إنّما تكون بالعمل من الأعضاء والجوارح، وبدون ذلك يبقى العلم على خرابه كما كان.

ثم قال: «وبالعلم يُرْهب الموت»، هذا من قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾(١).

ثم قال: «وبالموت تختم الدنيا»، وهذا حق لأنه انقطاع التكليف.

ثم قال: «وبالدنيا تحرز الآخرة»، هذا كقول بعض الحكماء: الدنيا متجر، والآخرة ربح، ونفسك رأس المال.

ثم قال: «وبالقيامة تزلف الجنّة للمتقين وتبرز الجحيم للغاوين»، هذا من القرآن العزيز.
وتزلف لهم: تقدّم لهم وتقرّب إليهم.

ولا مقصر لي عن كذا: لا محبس ولا غاية لي دونه. وأرقل: أسرع. والمضمار: حيث تستبق الخيل.

الأصل: . ١٠ مَنْ مُسْتَقَرِّ ٱلْأَجْدَاثِ، وَصَارُوا إِلَى مَصَائِرِ ٱلْغَايَاتِ، لِكُلِّ دَارٍ
أَ ١، وَلاَ يُنْقَلُونَ عَنْهَا، وَإِنَّ ٱلْأَمْرَ بِٱلْمَعْرُوفِ، وَٱلنَّهْيَ عَنِ
ٱلْمُنْكَرِ، لَخُلُ وَإِنَّهُمَا لاَ يُقَرِّبَانِ مِنْ أَجَلٍ، وَلاَ يَنْقُصَانِ مِنْ رِزْقٍ.
وَعَلَيْكُمْ مَتِينُ، وَالنُّورُ الْمُبِينُ، وَالشِّفَاءُ النَّافِعُ، وَالرِّيُّ النَّاقِعُ،

(١) سورة فا

وَالْعِصْمَةُ لِلْمُتَمَسِّكِ، وَالنَّجَاةُ لِلْمُتَعَلِّقِ، لا يَعْوَجُّ فَيُقَامَ، وَلاَ يَزِيغُ فَيُسْتَعْتَبَ، وَلاَ يُخْلِقُهُ كَثْرَةُ الرَّدِّ، وَوُلُوجُ السَّمْعِ، مَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ سَبَقَ.

الشرح: شَخَصُوا من بلد كذا: خرجوا. ومستقرّ الأجداث: مكان استقرارهم بالقبور، وهي جمع جَدَث.

ومصائر الغايات: جمع مَصِير، والغايات: جمع غاية وهي ما ينتهي إليه، قال الكميت:

فالآن صرت إلى أُمَيَّة والأمور إلى مصايِرْ

ثم ذكر أن أهل الثواب والعقاب، كلّ من الفريقين يقيم بدار لا يتحوّل منها، وهذا كما ورد في الخبر: «إنه ينادِي منادٍ: يا أهل الجنّة سعادة لا فناء لها، ويا أهل النار، شقاوة لا فناء لها»[1].

ثم ذكر أنّ الأمر بالمعروفِ والنهي عن المنكر خُلُقان من خُلُق الله سبحانه، وذلك لأنه تعالى ما أمر إلاّ بمعروف، وما نهى إلا عن منكر، ويبقى الفرق بيننا وبينه أنّا يجب علينا النهي عن المنكر بالمنع منه، وهو - سبحانه - لا يجب عليه ذلك؛ لأنه لو منع من إتيان المنكر لبطل التكليف.

ثم قال: «إنّهما لا يقرّبان من أجَلٍ، ولا ينقصان من رزق»، وإنما قال عليه السلام ذلك؛ لأنّ كثيراً من الناس يكفّ عن نهي الظلمة عن المناكير، توهّماً منه أنّهم إمّا أن يبطشوا به فيقتلوه، أو يقطعوا رزقه ويحرِموه، فقال عليه السلام: إنّ ذلك ليس مما يقرّب من الأجل، ولا يقطع الرزق. وينبغي أن يحمَل كلامُه عليه السلام على حال السلامة وغلبة الظنّ بعدم تطرّق الضرر الموفِي على مصلحة النهي عن المنكر. ثم أمر باتباع الكتاب العزيز، ووصفه بما وصفَه به.

وماء ناقع، ينقع الغلة، أي يقطعها ويُروي منها. ولا يزيغ: يميل فيُستعتب: يطلب منه العتبى هي الرضا، كما يطلب من الظالم يميل فيسترضي.

قال: ولا يخلقه كثيرة الردّ وولوج السمع، هذا من خصائص القرآن المجيد شرّفه الله تعالى، وذلك أنّ كلّ كلام منثور أو منظوم إذا تكررت تلاوته وتردّد ولوجُه الأسماع ملّ وسمُج واستُهجن، إلا القرآن فإنه لا يزال غضاً طريًّا محبوباً غير مملول.

(١) أخرج نحوه البخاري، كتاب: الرقاق، باب: صفة الجنة والنار (٦٥٤٨)، ومسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: النار يدخلها الجبارون (٢٨٥٠)، وأحمد، كتاب: «مسند المكثرين من الصحابة» (٥٩٥٧).

١٥٧ - وقام إليه عليه السلام رجل فقال: أخبرنا عن الفتنة وهل سالت عنها رسول الله صلى الله عليه وآله؟ فقال عليه السلام

الأصل: إِنَّهُ لَمَّا أَنْزَلَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ قَوْلَهُ: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝﴾[1] عَلِمْتُ أَنَّ ٱلْفِتْنَةَ لاَ تَنْزِلُ بِنَا، وَرَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ ٱللهِ، مَا هَذِهِ ٱلْفِتْنَةُ الَّتِي أَخْبَرَكَ ٱللهُ بِهَا؟ فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، إِنَّ أُمَّتِي سَيُفْتَنُونَ بَعْدِي.

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ ٱللهِ، أَوَ لَيْسَ قَدْ قُلْتَ لِي يَوْمَ أُحُدٍ حَيْثُ ٱسْتُشْهِدَ مَنِ ٱسْتُشْهِدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، وَحِيزَتْ عَنِّي الشَّهَادَةُ، فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيَّ فَقُلْتَ لِي: «أَبْشِرْ فَإِنَّ الشَّهَادَةَ مِنْ وَرَائِكَ؟» فَقَالَ لِي: «إِنَّ ذَلِكَ لَكَذَلِكَ فَكَيْفَ صَبْرُكَ إِذاً»! فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ ٱللهِ، لَيْسَ هَذَا مِنْ مَوَاطِنِ الصَّبْرِ، وَلَكِنْ مِنْ مَوَاطِنِ ٱلْبُشْرَى وَالشُّكْرِ، وَقَالَ: يَا عَلِيُّ إِن ٱلْقَوْمَ سَيُفْتَنُونَ بِأَمْوَالِهِمْ، وَيَمُنُّونَ بِدِينِهِمْ عَلَى رَبِّهِم، وَيَتَمَنَّوْنَ رَحْمَته، وَيَأْمَنُونَ سَطْوَتَهُ، وَيَسْتَحِلُّونَ حَرَامَهُ بِالشُّبُهَاتِ ٱلْكَاذِبَةِ، وَٱلْأَهْوَاءِ السَّاهِيَةِ، فَيَسْتَحِلُّونَ ٱلْخَمرَ بِالنَّبِيذِ، وَالسُّحتَ بِالْهَدِيَّةِ، وَالرِّبَا بِالْبَيْعِ. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ ٱللهِ، فَبِأَيِّ المَنَازِلِ أُنْزِلُهُمْ عِنْدَ ذَلِكَ؟ أَبِمَنْزِلَةِ رِدَّةٍ، أَمْ بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ؟ فَقَالَ: بِمَنْزِلَةِ فِتْنَةٍ.

الشرح: قد كان عليه السلام يتكلم في الفتنة، ولذلك ذكر الأمرَ بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذلك قال: فعليكم بكتاب الله»، أي إذا وقع الأمر واختلط الناس، فعليكم بكتاب الله، فلذلك قام إليه مَنْ سأله عن الفتنة. وهذا الخبر مرويّ عن رسول الله صلى الله عليه وآله، قد رواه كثير من المحدّثين عن عليّ عليه السلام، أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال له: «إنّ الله قد كتب عليك جهاد المفتونين، كما كتب عليّ جهاد المشركين»[2]، قال: فقلت: يا رسول الله، ما هذه الفتنة التي كتب عليّ فيها الجهاد؟ قال: «قوم يشهدون أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله، وهم مخالفون للسنة». فقلت: يا رسول الله، فعلام أقاتلهم وهم يشهدون كما أشهد؟ قال: «على الإحداث في الدّين، ومخالفة الأمر»، فقلت: يا رسول الله، إنك كنت وعدتّني الشهادة، فاسأل الله أن

(١) سورة العنكبوت، الآيتان: ١، ٢.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٨/ ٧٩، وأخرجه القمي في كتاب الأربعين: ٢٤٦.

يعجّلها لي بين يديك، قال: «فمن يقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين! أما إنّي وعدتك الشهادة وستستشهد، تضربُ على هذه فتخضب هذه، فكيف صبرك إذاً!»، قلت: يا رسول الله ليس ذا بموطن صبرٍ، هذا موطن شكرٍ، قال: «أجلْ، أصبت، فاعدّ للخصومة فإنك مخاصَم»، فقلت: يا رسول الله، لو بينت لي قليلاً! فقال: «إن أمتي ستُفتَن من بعدي، فتأوّل القرآن وتعمل بالرأي، وتستحلّ الخمر بالنبيذ، والسحت بالهديّة، والرّبا بالبيع، وتحرّف الكتاب عن مواضعه، وتغلب كلمة الضلال، فكن جليسَ بيتك حتى تقلّدَها، فإذَا قُلّدتها جاشت عليك الصدور، وقلبت لك الأمور، تقاتل حينئذٍ عَلَى تأويل القرآن، كما قاتلتَ عَلَى تنزيله، فليست حالهم الثانية بدون حالهم الأولى». فقلت: يا رسولَ الله، فبأيّ المنازل أنزِل هؤلاء المفتونين من بعدك؟ أبمنزلة فتنة أم بمنزلة رِدّة؟ فقال: «بمنزلة فتنةٍ يعمهون فيها إلى أن يدركهم العدْل». فقلت: يا رسولَ الله، أيدركهم العدل مِنّا أم من غيرها؟ قال: «بل منّا، بنا فتح وبنا يختَم، وبنا ألّف الله بين القلوب بعد الشرك، وبنا يؤلّف بين القلوب بعد الفتنة». فقلت: الحمد لله عَلَى ما وَهب لنا من فضله.

واعلم أنّ لفظه عَلَيْتَلا المرويّ في «نهج البلاغة» يدلّ عَلَى أنّ الآية المذكورة وهي قوله عَلَيْتَلا: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ أنزلت بعد أُحد، وهذا خلاف قول أرباب التفسير؛ لأنّ هذه الآية هي أوّل سورة العنكبوت وهي عندهم بالاتفاق مكيّة، ويوم أُحُد كان بالمدينة، وينبغي أن يقال في هذا: إنّ هذه الآية خاصّة أنزلت بالمدينة، وأضيفت إلى السورة المكية فصارتا واحدة، وغلب عليها نسب المكيّ لأنّ الأكثر كان بمكة، وفي القرآن مثل هذا كثير، كسورة النحل، فإنها مكيّة بالإجماع، وآخرها ثلاث آيات أنزلت بالمدينة بعد يوم أُحد، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ ۝١٢٦ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ۝١٢٧ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ۝١٢٨﴾(١).

فإن قلت: فلِمَ قال: «علمت أن الفِتنَةَ لاَ تَنْزلُ بِنَا وَرَسُولُ الله بين أظهرنا»؟

قلت: لقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ﴾(٢).

وقوله: «حيزتْ عَنّي الشّهَادَةُ»، أي منعت.

قوله: «ليس هَذَا من مواطن الصبر» كلامٌ عالٍ جدًا يدلّ على يقين عظيم، وعرْفَانٍ تام، ونحوه قوله - وقد ضربه ابن ملجم -: فزتُ وربّ الكعبة.

---

(١) سورة النحل، الآيات: ١٢٦ - ١٢٨. (٢) سورة الأنفال، الآية: ٣٣.

قوله: «سيُفتنون بعدي بأموالهم» من قوله تعالى: ﴿أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾(١).

قوله: «ويمنُّون بدينهم على ربّهم»، من قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾(٢).

قوله: «ويتمنّون رحمته» من قوله: «أحمق الحمقى من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله».

قوله: «وَيأمَنُونَ سَطْوَتَهُ» من قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾(٣).

والأهواء الساهية: الغافلة. والسُّحْت: الحرام، ويجوز ضم الحاء، وقد أسحت الرجل في تجارته، إذا اكْتَسَبَ السُّحْت.

وفي قوله: «بل بمنزلة فتنة» تصديق لمذهبنا في أهل البغي، وأنهم لم يدخلوا في الكفر بالكليّة، بل هم فسّاق، والفاسق عندنا في منزلة بين المنزلتين، خرج من الإيمان، ولم يدخل في الكفر.

١٥٨ – ومن خطبة له عليه السلام في وصف الدهر

الأصل: اَلْحَمْدُ لله اَلَّذِي جَعَلَ اَلْحَمْدَ مُفْتَاحاً لِذِكْرِهِ، وَسَبَباً لِلْمَزِيدِ مِنْ فَضْلِهِ، وَدَلِيلاً عَلَى آلاَئِهِ وَعَظَمَتِهِ.

عِبَادَ اَللهِ، إِنَّ الدَّهْرَ يَجْرِي بِالْبَاقِينَ كَجَرْيِهِ بِالْمَاضِينَ، لاَ يَعُودُ مَا قَدْ وَلَّى مِنْهُ، وَلاَ يَبْقَى سَرْمَداً مَا فِيهِ. آخِرُ فَعَالِهِ كَأَوَّلِه، مُتَشَابِهَةٌ أُمُورُهُ، مُتَظَاهِرَةٌ أَعْلاَمُهُ. فَكَأَنَّكُمْ بِالسَّاعَةِ تَحْدُوكُمْ حَدْوَ الزَّاجِرِ بِشَوْلِهِ، فَمَنْ شَغَلَ نَفْسَهُ بِغَيْرِ نَفْسِهِ تَحَيَّرَ فِي الظُّلُمَاتِ، وَاَرْتَبَكَ فِي اَلْهَلَكَاتِ، وَمَدَّتْ بِهِ شَيَاطِينُهُ فِي طُغْيَانِهِ، وَزَيَّنَتْ لَهُ سَيِّءَ أَعْمَالِهِ. فَالْجَنَّةُ غَايَةُ السَّابِقِينَ، وَالنَّارُ غَايَةُ الْمُفَرِّطِينَ.

اَعْلَمُوا عِبَادَ اَللهِ، أَنَّ التَّقْوَى دَارُ حِصْنٍ عَزِيزٍ، وَاَلْفُجُورَ دَارُ حِصْنٍ ذَلِيلٍ، لاَ يَمْنَعُ أَهْلَهُ، وَلاَ يُحْرِزُ مَنْ لَجَأَ إِلَيْهِ. أَلاَ وَبِالتَّقْوَى تُقْطَعُ حُمَةُ اَلْخَطَايَا، وَبِالْيَقِينِ تُدْرَكُ اَلْغَايَةُ اَلْقُصْوَى.

عِبَادَ اَللهِ، اَللهَ اَللهَ فِي أَعَزِّ اَلأَنْفُسِ عَلَيْكُمْ، وَأَحَبِّهَا إِلَيْكُمْ، فَإِنَّ اَللهَ قَدْ أَوْضَحَ لَكُمْ سَبِيلَ

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٨.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٧.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ٩٩.

ٱلْحَقِّ وَأَنَارَ طُرُقَهُ: فَشِقْوَةٌ لاَزِمَةٌ، أَوْ سَعَادَةٌ دَائِمَةٌ. فَتَزَوَّدُوا فِي أَيَّامِ ٱلْفَنَاءِ، لِأَيَّامِ ٱلْبَقَاءِ. قَدْ دُلِلْتُمْ عَلَى ٱلزَّادِ، وَأُمِرْتُمْ بِالظَّعَنِ، وَحُثِثْتُمْ عَلَى ٱلْمَسِيرِ، فَإِنَّمَا أَنْتُمْ كَرَكْبٍ وُقُوفٍ لاَ يَدْرُونَ مَتَى يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ. أَلاَ فَمَا يَصْنَعُ بِالدُّنْيَا مَنْ خُلِقَ لِلآخِرَةِ! وَمَا يَصْنَعُ بِالْمَالِ مَنْ عَمَّا قَلِيلٍ يُسْلَبُهُ، وَتَبْقَى عَلَيْهِ تَبِعَتُهُ وَحِسَابُهُ!

عِبَادَ ٱللهِ، إِنَّهُ لَيْسَ لِمَا وَعَدَ ٱللهُ مِنَ ٱلْخَيْرِ مَتْرَكٌ، وَلاَ فِيمَا نَهَى عَنْهُ مِنَ الشَّرِّ مَرْغَبٌ.

عِبَادَ ٱللهِ، ٱحْذَرُوا يَوْماً تُفْحَصُ فِيهِ ٱلْأَعْمَالُ، وَيَكْثُرُ فِيهِ الزِّلْزَالُ، وَتَشِيبُ فِيهِ ٱلْأَطْفَالُ.

ٱعْلَمُوا - عِبَادَ ٱللهِ - أَنَّ عَلَيْكُمْ رَصَداً مِنْ أَنْفُسِكُمْ، وَعُيُوناً مِنْ جَوَارِحِكُمْ، وَحُفَّاظَ صِدْقٍ يَحْفَظُونَ أَعْمَالَكُمْ وَعَدَدَ أَنْفَاسِكُمْ، لاَ تَسْتُرُكُمْ مِنْهُمْ ظُلْمَةُ لَيْلٍ دَاجٍ، وَلاَ يُكِنُّكُمْ منهم بَابٌ ذُو رِتَاجٍ، وَإِنَّ غَداً مِنَ ٱلْيَوْمِ قَرِيبٌ. يَذْهَبُ ٱلْيَوْمُ بِمَا فِيهِ، وَيَجِيءُ ٱلْغَدُ لاَحِقاً بِهِ، فَكَأَنَّ كُلَّ ٱمْرِىءٍ مِنْكُمْ قَدْ بَلَغَ مِنَ ٱلْأَرْضِ مَنْزِلَ وَحْدَتِهِ، وَمَخَطَّ حُفْرَتِهِ. فَيَالَهُ مِنْ بَيْتٍ وَحْدَةٍ، وَمَنْزِلِ وَحْشَةٍ، وَمُفْرَدِ غُرْبَةٍ!

وَكَأَنَّ الصَّيْحَةَ قَدْ أَتَتْكُمْ، وَالسَّاعَةَ قَدْ غَشِيَتْكُمْ، وَبَرَزْتُمْ لِفَصْلِ ٱلْقَضَاءِ، قَدْ زَاحَتْ عَنْكُمُ ٱلْأَبَاطِيلُ، وَٱضْمَحَلَّتْ عَنْكُمُ ٱلْعِلَلُ، وَٱسْتَحَقَّتْ بِكُمُ ٱلْحَقَائِقُ، وَصَدَرَتْ بِكُمُ ٱلْأُمُورُ مَصَادِرَهَا، فَاتَّعِظُوا بِالْعِبَرِ، وَٱعْتَبِرُوا بِالْغِيَرِ، وَٱنْتَفِعُوا بِالنُّذُرِ.

الشرح: جعل الحمد مفتاحاً لذكره؛ لأنَّ أوّل الكتاب العزيز: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾(١)، والقرآن هو الذكر، قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾(٢)، وسبباً للمزيد؛ لأنه تعالى قال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٣)، والحمد هاهنا هو الشكر، ومعنى جعله الحمدَ دليلاً على عظمته وآلائه أنه إذا كان سبباً للمزيد، فقد دلّ ذلك على عظمة الصانع وآلائه، أمّا دلالته عَلَى عظمته؛ فلأنه دالٌّ عَلَى أنّ قدرته لا تتناهى أبداً، بل كلّما ازداد الشكر ازدادت النعمة. وأمّا دلالته عَلَى آلائه؛ فلأنّه لا جودَ أعظمُ من جود مَنْ يعطي مَنْ يحمَده، لا حمداً متطوّعاً، بل حمْداً واجباً عليه.

قوله: «يجري بالباقين كجريه بالماضين»، من هذا أخذ الشعراء وغيرهم ما نظموه في هذا المعنى، قال بعضهم:

---

(١) سورة الفاتحة، الآية: ٢.
(٢) سورة الحجر، الآية: ٩.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

مـات مَـنْ مـات والـثـريّـا الـثـريّـا والـسِّـمـاك الـسّـمـاك والـنَّـسْـرُ نَـسْـرُ
ونـجـوم الـسـمّـاء تـضـحـك مِـنّـا كـيـفَ تَـبْـقَـى مِـنْ بـعـدِنَـا ونَـمُـرّا!

وقال آخر:

فـمـا الـدّهْـرُ إلا كـالـزّمـان الّـذي مَـضَـى ولا نـحـن إلا كـالـقـرون الأوائـلِ

قوله: «لا يعود ما قد ولّى منه»، كقول الشاعر:

مَـا أحْـسَـن الأيّـام إلاّ أنّـهَـا يـا صـاحـبيّ إذا مَـضَـتْ لـم تـرجـعِ

قوله: «ولا يبقى سرمداً ما فيه»، كلام مطروق المعنى، قال عديّ:

لـيـس شـيءٌ عَـلَـى الـمـنـون بـبـاقِ غـيـر وجـه الـمـهـيـمـن الـخـلاّقِ

قوله: «آخر أفعاله كأوّله»، يروى: «كأوّلها»، ومن رواه: «كأوّله» أعاد الضمير إلى الدهر، أي آخر أفعال الدهر كأوّل الدهر، فحذف المضاف.

متشابهة أموره؛ لأنّه - كما كان من قبل - يرفع ويضع، ويغني ويفقر، ويوجد ويعدم، فكذلك هو الآن أفعاله متشابهة. وروي: «متسابقة» أي شيء منها قبل شيء، كأنها خيلٌ تتسابق في مِضْمارٍ.

متظاهرة أعلامه، أي دَلالاته على سجيّته التي عامَل النّاس بها قديماً وحديثاً. متظاهرة: يقوي بعضها بعضاً. وهذا الكلام جارٍ منه عليه السلام عَلَى عادة العرب في ذكر الدّهر، وإنما الفاعل على الحقيقة ربُّ الدهر.

والشّوّل: النُّوق التي خَفّ لبنها وارتفع ضَرْعها، وأتى عليها من نَتَاجها سبعة أشهر أو ثمانية، الواحدة شائلة، وهي جَمْعٌ عَلَى غير القياس. وشَوّلت الناقة، أي صارت شائلة، فأما الشائلة بغيرها، فهي الناقة تَشُول بذَنبها للقّاح ولا لبنَ لها أصلاً، والجمع شُوّل، مثل راكع وركّع، قال أبو النّجْمّ:

كـأنّ فـي أذنـابـهـنّ الـشُّـوّلِ

والزاجر: الذي يزجر الإبل بسوقها، ويقال: حدوتُ إبلي وحدوتُ بإبلي، والحدو سَوْقها، والغناء لها، وكذلك الحُداء، ويقال للشّمال: حَذْواء؛ لأنّها تحدو السحاب، أي تسوقه، قال العجاج:

حَـدْوَاءُ جـاءتْ مـن بـلاد الـطـورِ

ولا يقال للمذكر: «أحْدَى»، وربما قيل للحمار إذا قدم أتُنه: حادٍ، قال ذو الرُّمة:

حادي ثلاثٍ من الحُقْب السَّماحيج[1]

(١) الحقب: الحزام يلي حوق البعير، أو حبل يشد به الرحل في بطنه القاموس، مادة (حقب).

والمعنى أنّ سائقَ الشَّوْل يعسِف بها، ولا يتَّقي سَوْقها ولا يدّارك كما يسوق العِشار.

ثم قال عليه السلام: «مَنْ شغَل نفسَه بغير نفسه هلك»، وذلك آنّ من لا يوفّي النظرَ حقّه، ويميل إلى الأهواء ونُصرة الأسلاف. والحجاج عَمّا رُبّيَ عليه بين الأهل والأستاذين الذين زرعوا في قلبه العقائد، يكون قد شغل نفسَه بغير نفس؛ لأنّه لم ينظر لها، ولا قصد الحقّ من حيث هو حقّ، وإنّما قصد نُصْرة مذهب معيّن يشقُّ عليه فراقه، ويصعب عنده الانتقال منه، ويسوءه أن يردّ عليه حجةٌ تبطله، فيُسهر عينه، ويتعب قلبَه في تهويس تلك الحجة والقدح فيها بالغثّ والسمين، لا لأنه يقصد الحقّ، بل يقصد نصرة المذهب المعيّن، وتشييد دليله، لا جرَم أنّه متحيّر في ظلمات لا نهاية لها!

والارتباك: الاختلاط، ربكت الشيء أربكه رَبكاً، خلطته فارتبك، أي اختلط، وارتبك الرَّجل في الأمر، أي نشب فيه ولم يكد يتخلّص منه.

قوله: «ومدّت به شياطينه في طغيانه»، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾[1].

وروي: «ومدّت له شياطينه» باللّام، ومعناه الإمهال، مدَّ له في الغيّ، أي طوّل له، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾[2].

قوله: «وزينت له سَيِّءَ أعماله»، مأخوذ من قوله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾[3].

قوله: «التقوى دار حصن عزيز»، معناه دار حَصَانة عزيزة، فأقام الاسم مقام المصدر، وكذلك في الفجور.

ويحرز مَنْ لجأ إليه: يحفظ من اعتصم به.

وحُمَّة الخطايا: سمّها، وتقطع الحمة، كما تقول: قطعت سَرَيان السمّ في بدن الملسوع بالبنزهيرات[4] والترياقات، فكأنه جعل سمّ الخطايا سارياً في الأبدان، والتَّقوى تقطع سريانه.

قوله: «وباليقين تدرك الغاية القصوى»، وذلك لأنّ أقصى درجات العرفان الكشف، وهو المراد هاهنا بلفظ اليقين.

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٢. (٢) سورة مريم، الآية: ٧٥.

(٣) سورة فاطر، الآية: ٨.

(٤) بادزهر: حجر كريم، وأشهر خواصه زعماً أنه ترياق للسموم، شرباً ووضعاً على الجرح. معجم المصطلحات الفارسية، مادة (باد).

وانتصب «الله، الله» على الإغراء. و«في» متعلّقة بالفعل المقدّر، وتقديره: راقبوا. وأعزّ الأنفس عليهم، أنفسهم.

قوله: «فِشِقْوة لازمة»، مرفوع على أنّه خبر مبتدأ محذوف، تقديره: فغايتكم، أو فجزاؤكم، أو فشأنكم، وهذا يدلّ على مذهبنا في الوعيد؛ لأنّه قَسَم الجزاء إلى قسمين، إمّا العذاب أبداً، أو النعيم أبداً، وفي هذا بطلان قول المرجئة: إنّ ناساً يخرجون من النّار فيدخلون الجنة؛ لأن هذا لو صَحّ لكان قسماً ثالثاً.

قوله: «فقد دُلِلتُم على الزّاد»، أي الطاعة.

وأمرتم بالظَّعن، أي أمرتم بهجْر الدنيا، وأنْ تظعَنُوا عنها بقلوبكم. ويجوز: «الظَّعْن» بالتسكين.

وحُثِثتم على المسير؛ لأنّ الليل والنهار سائقان عنيفان.

قوله: «وإنّما أنتم كركْب وقوف لا يَدْرُون مَتَى يؤمرون بالسير»، السَّيْر هاهنا، هو الخروج من الدنيا إلى الآخرة، بالموت، جعل الناس ومقامهم في الدنيا كركْب وقوف لا يدرون متى يقال لهم: سيروا فيسيرون؛ لأنّ النّاس لا يعلمون الوقت الذي يموتون فيه.

فإن قلت: كيف سمّي الموت والمفارقة سيراً؟

قلت: لأنّ الأرواح يُعْرَجُ بها إمّا على عالمها وهم السُّعداء، أو تهوي إلى أسفل السافلين وهم الأشقياء، وهذا هو السَّيْر الحقيقي، لا حركة الرجل بالمشي، ومَنْ أثبت الأنفس المجرّدة، قال: سَيْرها خلوصها من عالم الحسّ، واتّصالها المعنويّ لا الأبديّ ببارئها، فهو سير في المعنى لا في الصورة، ومَنْ لم يَقُلْ بهذا ولا بهذا قال: إنّ الأبدان بعد الموت تأخذ في التحلّل والتزايل، فيعود كلّ شيء منها إلى عنصره، فذاك هو السَّيْر.

و«ما» في «عَمّا قليل» زائدة. وتَبِعتُه: إثمهُ وعقوبته.

قوله: «إنه ليس لما وعد الله من الخير مَتْرَك»، أي ليس الثواب فيما ينبغي للمرء أن يتركَه، ولا الشرّ فيما ينبغي أن يرغب المرء فيه.

وتفحَصُ فيه الأعمال: تكشف. والزَّلزال، بالفتح: اسم للحركة الشديدة والاضطراب، والزِّلْزال، بالكسر المصدر، قال تعالى: ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾[1].

قوله: «ويشيب فيه الأطفال» كلامٌ جارٍ مجرى المثل، يقال في اليوم الشديد: إنّه ليُشيب نواصي الأطفال، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾[2]، وليس ذلك

(١) سورة الأحزاب، الآية: ١١.
(٢) سورة المزمل، الآية: ١٧.

على حقيقته؛ لأنّ الأمّة مجمعة على أنّ الأطفال لا تتغيّر حالهم في الآخرة إلى الشيب، والأصل في هذا أنّ الهموم والأحزان إذا توالتْ على الإنسان شاب سريعاً، قال أبو الطيّب:

والهمُّ يخترِم الجسيمَ نحافةً ويُشِيبُ نَاصِيَةَ الصَّبِيِّ وَيُهْرِمُ

قوله: «إنّ عليكم رصداً من أنفسكم، وعيوناً من جواركم»؛ لأنّ الأعضاء تنطق في القيامة بأعمال المكلفين، وتشهد عليهم.

والرَّصَد: جمع راصد، كالحرس جمع حارس.

قوله: «وحفّاظ صدق»، يعني الملائكة الكاتبين، لا يعتصم منهم بسترة ولا ظلام ليل، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

إذا ما خلوتَ الدّهر يوماً فلا تَقلْ خَلَوتُ، وَلكِن قُل: عليّ رقيبُ

قوله: «وإنّ غداً من اليوم قريب»، ومنه قول القائل:

فإنّ غَداً لِناظِرِهِ قَرِيبُ

ومنه قوله:

غَدٌ ما غدٌ ما أقرب اليوم من غَدِ

ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾[1].

والصيحة: نفخة الصُّور.

وزاحت الأباطيل: بعدت. واضمحلّت: تلاشت وذهبت.

قوله: «واستحقّت»، أي حقت ووقعت، استفعل بمعنى «فعل»، كقولك: استمرّ على باطله، أي مَرّ عليه.

وصدرت بكم الأمور مصادرها، كلّ وارد فله صَدَر عن مورده، وصدَر الإنسان عن موارد الدنيا: الموت ثم البعث.

١٥٩ - ومن خطبة له عليه السلام في فضل الرسول والقرآن

الأصل: أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ، وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ ٱلْأُمَمِ، وَٱنْتِقَاضٍ مِنَ المبْرَمِ، فَجَاءَهُمْ بِتَصْدِيقِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ، وَالنُّورِ المُقْتَدَى بِهِ، ذَلِكَ ٱلْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ، وَلَنْ يَنْطِقَ، وَلَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ...

(١) سورة هود، الآية: ٨١.

أَلاَ إِنَّ فِيهِ عِلْمَ مَا يَأْتِي، وَالْحَدِيثَ عَنه المَاضِي، وَدَوَاءَ دَائِكُمْ، وَنَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ.

الشرح: الهجْعة: النَّومة الخفيفة، وقد تستعمل في النّوم المستغرَق أيضاً والمبرَم: الحبل المفتول. والذي بين يديه: التوراة والإنجيل.

فإن قلت: التوراة والإنجيل قبله، فكيف جعلهما بين يديه؟

قلت: أحد جزأيِ الصلة محذوف وهو المبتدأ، والتقدير: بتصديق الذي هو بين يديه، وهو ضمير القرآن، أي بتصديق الذي القرآن بين يديه، وحذف أحد جزأيِ الصلة هاهنا، ثم حذفه في قوله تعالى: ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا﴾[1]، في قراءة مَنْ جعله اسماً مرفوعاً، وأيضاً فإن العرب تستعمل «بين يديه» بمعنى «قبل»، قال تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾[2]، أي قبله.

الأصل: منها: فَعِنْدَ ذَلِكَ لاَ يَبْقَى بَيْتُ مَدَرٍ وَلاَ وَبَرٍ إِلاَّ وَأَدخلهُ الظَّلَمَةُ تَرْحَةً، وَأَوْلَجُوا فِيهِ نِقْمَةً، فَيَوْمَئِذٍ لاَ يَبْقَى لَهُمْ فِي السَّماءِ عَاذِرٌ، وَلاَ فِي ٱلْأَرْضِ نَاصِرٌ.

أَصْفَيْتُمْ بِالْأَمْرِ غَيْرَ أَهْلِهِ، وَأَوْرَدْتُمُوهُ غَيْرَ مَوْرِدِهِ، وَسَيَنْتَقِمُ ٱللهُ مِمَّنْ ظَلَمَ، مَأْكَلاً بِمأْكَلٍ، وَمَشْرَباً بِمَشْرَبٍ، مِنْ مَطَاعِمِ ٱلْعَلْقَمِ وَمَشَارِبِ الصَّبْرِ وَٱلْمَقِرِ، وَلِبَاسِ شِعَارِ ٱلْخَوْفِ، وَدِثَارِ السَّيْفِ، وَإِنَّمَا هُمْ مَطَايَا الخَطِيئاتِ، وَزَوَامِلُ الآثَامِ.

فَأُقْسِمُ ثُمَّ أُقْسِمُ، لَتَنْخَمَنَّهَا أُمَيَّةُ مِنْ بَعْدِي كَمَا تُلْفَظُ النُّخَامَةُ، ثُمَّ لاَ تَذُوقُهَا وَلاَ تَتطعَّمُ بِطَعْمِهَا أَبَداً، مَاكَرَّ ٱلْجَدِيدَانِ!

الشرح: التَّرحة: الحزن، قال: فحينئذ لا يبقى لهم، أي يحيق بهم العذاب، ويبعث الله عليهم مَنْ ينتقم، وهذا إخبارٌ عن مُلْك بني أميّة بعده، وزوال أمرهم عند تفاقم فسادهم في الأرض.

ثم خاطب أولياء هؤلاء الظَّلَمة، ومَنْ كان يؤثر ملكهم، فقال: «أصفيتُم بالأمر غير أهله، أصفيتُ فلاناً بكذا: خصصتَه به، وصفيّة المغنم: شيء كان يصطفيه الرئيس لنفسه من الغنيمة.

وأوردتموه غير وِرْده: أنزلتموه عند غير مستحقّه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٥٤.
(٢) سورة سبأ، الآية: ٤٦.

ثم قال: سيبدّل الله مآكلَهم اللذيذة الشهيّة بمآكلَ مريرة علقميّة. والمِقر: المرّ. ومأكلاً منصوب بفعل مقدّر أي يأكون مأكلاً، والباء هاهنا للمجازاة الدالة على الصّلة، كقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَـٰقَهُمْ﴾[1] وكقول أبي تمام:

فَبِما قَدْ أَرَاهُ رَيّانَ مَكْسُوّ ... المعانِي مِنْ كلّ حُسْن وطيبِ

وقال سبحانه: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾[2]. وجعل شعارَهم الخوف؛ لأنّه باطن في القلوب، ودِثارهم السّيف لأنه ظاهر في البدن، كما أنّ الشّعار ما كان إلى الجسد والدّثار ما كان فوقه.

ومطايا الخطيّات: حوامل الذنوب. وزوامل الآثام: جمع زاملة، وهي بعير يستظهر به الإنسان يحمل متاعه عليه، قال الشاعر:

زَوامِلُ أَشْعَارٍ وَلاَ عِلْمَ عِنْدَهُمْ ... بِجيّدِها إلاّ كَعِلْمِ الأباعِرِ

وتنخّمت النُّخامة: إذا تنخعتَها، والنُّخامة: النُّخاعة.

والجديدان: الليل والنهار، وقد جاء في الأخبار الشائعة المستفيضة في كتب المحدّثين أنّ رسول الله ﷺ أخبر أنّ بني أميّة تملك الخلافة بعده، مع ذمٍّ منه عليه والسلام لهم، نحو ما روي عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِىٓ أَرَيْنَـٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾[3] فإنّ المفسرين قالوا: إنّه رأى بني أميّة ينزون على منبره نَزْوَ القردة، هذا لفظ رسول الله ﷺ الذي فسرّ لهم الآية به، فساءه ذلك ثم قال: الشجرة الملعونة بنو أمية وبنو المغيرة، ونحو قوله ﷺ: «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله دُوَلاً وعباده خَوَلاً»[4] ونحو قوله ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[5] قال: ألف شهر يملك فيها بنو أميّة. وورَد عنه ﷺ من ذمّهم الكثير المشهور نحو قوله: «أبغض الأسماء إلى الله الحَكَم وهشام والوليد»[6]، وفي خبر آخر: «اسمان يُبْغضهما الله: مروان والمغيرة»[7]، ونحو قوله: «إنّ ربكم يحبّ ويُبغض، كما يحبّ أحدكم ويبغض، وإنه يبغض بني أميّة ويحبّ بني عبد المطّلب»:

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٥. (٢) سورة القصص، الآية: ١٧.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٦٠.

(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٨٤٧٨)، وأبو يعلى نحوه (٦٥٢٣).

(٥) سورة القدر، الآية: ٣.

(٦) أخرجه المولى حيدر في المناقب: ٣٧٦.

(٧) أخرجه المولى حيدر في مناقب أهل البيت: ٣٧٦.

فإن قلت: كيف قال: «ثم لا تذوقها أبداً» وقد مَلَكوا بعد قيام الدولة الهاشميّة بالمغرب مدّة طويلة؟ قلت: الاعتبار بملك العراق. والحجاز، وما عداهما من الأقاليم لا اعتداد به.

١٦٠ - ومن خطبة له عليه السلام في وصف حاله مع أصحابه

الأصل: وَلَقَدْ أَحْسَنْتُ جِوَارَكُمْ، وَأَحَطْتُ بِجُهْدِي مِنْ وَرَائِكُمْ، وَأَعْتَقْتُكم مِنْ رِبَقِ الذُّلِّ وَحَلَقِ الضَّيْمِ، شُكْراً مِنِّي لِلْبِرِّ ٱلْقَلِيلِ، وَإِطْرَاقاً عَمَّا أَدْرَكَهُ ٱلْبَصَرُ، وَشَهِدَهُ ٱلْبَدَنُ مِنَ الْمُنْكَرِ ٱلْكَثِيرِ.

الشرح: أحطت بجُهدي من ورائكم: حميتُكم وحضَنْتُكم. والجُهْد، بالضمّ الطاقة الرِّبَق جمع رِبْقة، وهي الحبل يُرْبَق به البهم.

وحلَق الضيم: جمع حَلْقه، بالتسكين، ويجوز: «حِلق» بكسر الحاء وحِلاق.

فإن قلت: يكف يجوز له أن يطرق ويغضي عن المنكر؟

قلت: يجوز له ذلك إذا علم أو غلب على ظنّه أنّه إن نهاهم عنه لم يرتدعوا، وأضافوا إليه منكراً آخر، فحينئذٍ يخرج الإطراق والإغضاء عن حدّ الجواز إلى حدّ الوجوب؛ لأنّ النهي عن المنكر يكون والحالة هذه مفسدة.

١٦١ - ومن خطبة له عليه السلام في عظمة الله تعالى

الأصل: أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ، يَقْضِي بِعِلْمٍ، وَيَعْفُو بِحِلْمٍ.

اللَّهُمَّ لَكَ ٱلْحَمْدُ عَلَى مَا تَأْخُذُ وَتُعْطِي، وَعَلَى مَا تُعَافِي وَتَبْتَلِي، حَمْداً يَكُونُ أَرْضَى ٱلْحَمْدِ لَكَ، وَأَحَبَّ ٱلْحَمْدِ إِلَيْكَ، وَأَفْضَلَ ٱلْحَمْدِ عِنْدَكَ، حَمْداً يَمْلأُ مَا خَلَقْتَ، وَيَبْلُغُ مَا أَرَدْتَ، حَمْداً لاَ يُحْجَبُ عَنْكَ، وَلاَ يُقْصَرُ دُونَكَ، حَمْداً لاَ يَنْقَطِعُ عَدَدُهُ، وَلاَ يَفْنَى مَدَدُهُ، فَلَسْنَا نَعْلَمُ كُنْهَ عَظَمَتِكَ، إِلاَّ أَنَّا نَعْلَمُ أَنَّكَ حَيٌّ قَيُّومٌ، لاَ تَأْخُذُكَ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ، لَمْ يَنْتَهِ إِلَيْكَ نَظَرٌ، وَلَمْ يُدْرِكْكَ بَصَرٌ، أَدْرَكْتَ ٱلأَبْصَارَ، وَأَحْصَيْتَ ٱلأَعْمَالَ، وَأَخَذْتَ بِالنَّوَاصِي وَٱلأَقْدَامِ.

وَمَا ٱلَّذِي نَرَى مِنْ خَلْقِكَ، وَنَعْجَبُ لَهُ مِنْ قُدْرَتِكَ، وَنَصِفُهُ مِنْ عَظِيمِ سُلْطَانِكَ، وَمَا تَغَيَّبَ عَنَّا مِنْهُ، وَقَصُرَتْ أَبْصَارُنَا عَنْهُ، وَٱنْتَهَتْ عُقُولُنَا دُونَهُ، وَحَالَتْ سَوَاتِرُ ٱلْغُيُوبِ بَيْنَنَا

وَبَيْنَهُ - أَعْظَمُ. فَمَنْ فَرَّغَ قَلْبَهُ، وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ، لِيَعْلَمَ كَيْفَ أَقَمْتَ عَرْشَكَ، وَكَيْفَ ذَرَأْتَ خَلْقَكَ، وَكَيْفَ عَلَّقْتَ فِي ٱلْهَوَاءِ سَمَوَاتِكَ، وَكَيْفَ مَدَدْتَ عَلَى مَوْرِ ٱلْمَاءِ أَرْضَكَ - رَجَعَ طَرْفُهُ حَسِيراً، وَعَقْلُهُ مَبْهُوراً، وَسَمْعُهُ وَالِهاً، وَفِكْرُهُ حَائِراً.

الشرح: يجوز أن يكون أمْره هاهنا هو الأمر الفعليّ، لا الأمر القوليّ، كما يقال: أمْر فلان مستقيم، وما أمْر كذا، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ﴾[1] ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾[2]، فيكون المعنى أنّ شأنه تعالى ليس إلاّ أحد شيئين وهما «أن يقول»، «وأن يفعل»، فعبّر عن «أن يقول» بقوله: «قضاء» لأن القضاء الحكم، وعبر عن «أن يفعل» بقوله: «وحكمة» لأنّ أفعاله كلّها تتبَع دواعيَ الحكمة. ويجوز أن يكون «أمره» هو الأمر القولي، وهو المصدر من «أمَر له بكذا أمراً» فيكون المعنى أنّ أوامره إيجاب وإلزام بما فيه حكمة ومصلحة، وقد جاء القضاء بمعنى الإلزام والإيجاب في القرآن العزيز في قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا إِلَّآ إِيَّاهُ﴾[3]، أي أوجب وألزم.

قوله: «ورضاه أمانٌ ورحمة»؛ لأنّ مَنْ فاز بدرجة الرضا فقد أمن وحصلت له الرحمة؛ لأنّ الرضا رحمة وزيادة.

قوله: «يقضي بعلم»، أي يحكم بما يحكم به لأنّه عالم بحسن ذلك القضاء، أو وجوبه في العدل.

قوله، «ويعفو بحلْم»، أي لا يعفو عن عجز وذلّ، كما يعفو الضعيف عن القويّ، بل هو قادر على الانتقام ولكنّه يحلم.

ثم حِمد الله تعالى على الإعطاء والأخذ، والعافية والبلاء؛ لأنّ ذلك كلّه من عند الله لمصالح للمكلّف، يعلمها وما يعلمها المكلّف، والحمد على المصالح واجب.

ثم أخذ في تفخيم شأن ذلك الحمد وتعظيمه والمبالغة في وصفه، احتذاء بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الحمد لله زنةَ عرشه، الحمد لله عددَ خلقه، الحمد لله ملءَ سمائه وأرضه»[4]، فقال عليه السلام: حمداً يكون أرضَى الحمد لك»، أي يكون رضاك له أوفَى وأعظم من

(١) سورة القمر، الآية: ٥٠.
(٢) سورة النحل، الآية: ٧٧.
(٣) سورة الإسراء، الآية: ٢٣.
(٤) أخرج نحوه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء، باب: التسبيح أول النهار (٢٧٢٦)، والترمذي كتاب: الدعوات، باب: دعاء النبي صلى الله عليه وسلم (٣٥٥٥)، والنسائي، كتاب: السهو، باب: نوع آخر من عدد التسبيح (١٣٥٢)، وأبو داود، كتاب: الصلاة، باب: التسبيح بالحصى (١٥٠٣).

رضاك بغيره، وكذلك القول في: «أحبّ» و«أفضل».

قوله: «ويَبْلُغ ما أردت»، أي هو غاية ما تنتهي إليه الإرادة، وهذا كقول الأعرابيّة في صفة المطر: غشينا ما شئنا، وهو من فصيح الكلام.

قوله: «لا يحجب عنك»؛ لأنّ الإخلاص يقارنه، والرياء منتفٍ عنه.

قوله: «ولا يُقْصَرُ دونك»، أي لا يحبَس، أي لا مانع عن وصوله إليك، وهذا من باب التوسّع، ومعناه، أنّه بريء من الموانع عن إثماره الثواب واقتضائه إياه، وروي «ولا يقُصر» من القصور، وروي «ولا يقصّر» من التقصير.

ثم أخذ في بيان أنّ العقول قاصرة عن إدراك الباري سبحانه والعلم به، وأنّا إنّما نعلم منه صفاتٍ إضافية أو سلبية، كالعلم بأنه حيّ، ومعنى ذلك أنّه لا يستحيل على ذاته أن يعلم ويقدّر، وأنّه قيوم بمعنى أن ذاته لا يجوز عليها العدَم، أي يقيم الأشياء ويمسكها، وكل شيء يقيم الأشياء كلّها ويمسكها، فليس بمحتاج إلى مَنْ يقيمه ويمسكه، وإلاّ لم يكُنْ مقيماً وممسكاً لكلّ شيء، وكلّ مَنْ ليس بمحتاج إلى من يقيمه ويمسكه، فذاته لا يجوز عليها العَدَم. وأنّه تعالى لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم؛ لأنّ هذا من صفات الأجسام، وما لا يجوز عليه العَدَم لا يكون جِسْماً، ولا يوصف بخواصّ الأجسام ولوازمها، فإنّه لا ينتهي إليه نَظَر؛ لأن انتهاء النظر إليه يستلزم مقابلته وهو تعالى منزه عن الجهة، وإلا لم يكن ذاته مستحيلاً عليها العدم، وأنه لا يدركه بَصَر؛ لأن إبصار الأشياء بانطباع أمثلتها في الرطوبة الجليديّة كانطباع أشباح المرئيّات في المرآة، والباري تعالى لا يتمثّل، ولا يتشبّح، وإلاّ لم يكن قيوماً، وأنه يدرك الأبصار؛ لأنه إمّا عالم لذاته، أو لأنّه حيٌّ لا آفة به، وأنه يحصي الأعمال لأنّه عالم لذاته، فيعلم كلّ شيء حاضراً وماضياً ومستقبلاً، وأنّه يأخذُ بالنّواصي والأقدام؛ لأنّه قادر لذاته، فهو متمكّن من كلّ مقدور.

ثم خرج إلى فنٍّ آخر، فقال: وما الذي نعجب لأجله من قدرتك وعظيمِ ملكك، والغائب عنّا من عظمتك أعظم من الحاضر! مثال ذلك أن جِرْم الشمس أعظمُ من جِرْم الأرض مائة وستين مرّة. ولا نسبة لجِرْم الشمس إلى فَلَكها المائل، ولا نسبة لفلكها المائل إلى فلكها المميل، وفلك تدوير المرّيخ الذي فوقها أعظمُ من مِيل الشمس، ولا نسبة لفلك تدوير المرّيخ إلى فلكه المميل، وفلك تدوير المشتري أعظم من مميل المريخ، ولا نسبة لفلك تدوير المشتري إلى فلكه المميل، وفلك تدوير زُحَل أعظم من مِميل المشتري، ولا نسبة لفلك تدوير زُحل إلى مميل زحل، ولا نسبة لمميل زحل إلى كرة الثوابت، ولا نسبة لكرة الثوابت إلى الفلك الأطلس الأقصى، فانظر أيّ نسبة تكون الأرض بكليتها على هذا الترتيب إلى الفلك الأطلس، وهذا مما تقصر العقول عن فهمه، وتنتهي دونه، وتحول سواتُر الغيوب بينها وبينه، كما قال عليه السلام.

ثم ذكر أنّ مَنْ أعمل فكرَه ليعلم كيف أقام سبحانه العرش، وكيف ذَرَأ الخلق، وكيف علّق السماواتِ بغير علاقة ولا عمَد، وكيف مدّ الأرض على الماء، رجعَ طرفه حسيراً، وعقله مبهوراً. وهذا كلّه حق، ومن تأمل كتبَنا العقلية واعتراضنا على الفلاسفة الذين علّلوا هذه الأمور، وزعموا أنهم استنبطوا لها أسباباً عقلية، وادَّعوا وقوفَهم على كنهها وحقائقها، علم صحّة ما ذكره عليه السلام، من أنّ مَنْ حاول تقدير ملك الله تعالى، وعظيم مخلوقاته بمكيال عقله، فقد ضل ضلالاً مبيناً.

وروي: «وفكره جائراً»، بالجيم، أي عادلاً عن الصواب والحسير: المتعَب. والمبهور: المغلوب. والواله: المتحيّر.

الأصل: منها: يَدَّعِي بِزَعْمِهِ أَنَّهُ يَرْجُو ٱللهَ، كَذَبَ وَٱلْعَظِيمِ! مَا بَالُهُ لاَ يَتَبَيَّنُ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ! فَكُلُّ مَنْ رَجَا عُرِفَ رَجَاؤُهُ فِي عَمَلِهِ - إِلاَّ رَجَاءَ ٱللهِ - فَإِنَّهُ مَدْخُولٌ، وَكُلُّ خَوْفٍ مُحَقَّقٌ - إِلاَّ خَوْفَ ٱللهِ - فَإِنَّهُ مَعْلُولٌ.

يَرْجُو ٱللهَ فِي ٱلْكَبِيرِ، وَيَرْجُو ٱلْعِبَادَ فِي الصَّغِيرِ، فَيُعْطِي ٱلْعَبْدَ مَا لاَ يُعْطِي الرَّبَّ! فَمَا بَالُ ٱللهِ جَلَّ ثَنَاؤُهُ يُقَصَّرُ بِهِ عَمَّا يُصْنَعُ بِهِ لِعِبَادِهِ!

أَتَخَافُ أَنْ تَكُونَ فِي رَجَائِكَ لَهُ كَاذِباً، أَوْ تَكُونَ لاَ تَرَاهُ لِلرَّجَاءِ مَوْضِعاً وَكَذَلِكَ إِنْ هُوَ خَافَ عَبْداً مِنْ عَبِيدِهِ، أَعْطَاهُ مِنْ خَوْفِهِ مَا لاَ يُعْطِي رَبَّهُ، فَجَعَلَ خَوْفَهُ مِنَ ٱلْعِبَادِ نَقْداً، وَخَوْفَهُ مِنْ خَالِقِهِ ضِمَاراً وَوَعْداً.

وَكَذَلِكَ مَنْ عَظُمَتِ ٱلدُّنْيَا فِي عَيْنِهِ، وَكَبُرَ مَوْقِعُهَا مِنْ قَلْبِهِ، آثَرَهَا عَلَى ٱللهِ، فَٱنْقَطَعَ إِلَيْهَا، وَصَارَ عَبْداً لَهَا.

الشرح: يجوز «بزُعمه»، بالضم و«بزَعمه» بالفتح، و«بزِعمه» بالكسر، ثلاث لغات، أي بقوله فأما من «زعمت»، أي كفلت، فالمصدر «الزَّعم» بالفتح، والزّعامة.

ثم أقسم على ذكب هذا الزّاعم، فقال: «والعظيم»، ولم يقل: والله العظيم، تأكيداً لعظمة الباريء سبحان؛ لأنّ الموصوف إذا ألقِيَ وتُرِك واعتمِد على الصّفة حتى صارت كالاسم، كان أدلّ على تحقّق مفهوم الصفة، كالحارث والعباس.

ثم بيّن مستنَد هذا التكذب، فقال: ما بالُ هذا الزاعم إنّه يرجو ربّه، ولا يَظهر رجاؤه في عمله، فإنّا نَرى مَنْ يَرجو واحداً من البشر يلازم بابه، ويواظب على خدمته ويتحبّب إليه،

ويتقرّب إلى قلبه بأنواع الوسائل والقُرَب، ليظفرَ بمراده منه، ويتحقّق رجاؤه فيه، وهذا الإنسان الذي يزعم أنّه يرجُو الله تعالى، لا يظهر من أعماله الدينية ما يدلّ على صدق دَعْواه، ومراده عليه السلام هاهنا ليس شخصاً بعينه، بل كلّ إنسان هذه صفته، فالخطاب له والحديث معه.

ثم قال: «كلّ رجاءٍ إلاّ رجاء الله فهو مدخول»، أي معيب، والدَّخْل، بالتسكين: العيب والرّيبة. ومن كلامهم: «تَرَى الفتْيان كالنَّخل، وما يدريك ما الدّخْل»، وجاء «الدَّخَل» بالتحريك أيضاً، يقال: هذا الأمر فيه دَخَل ودَغَل، بمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾[1]، أي مكراً وخديعة، وهو من هذا الباب أيضاً.

ثم قال: «وكلّ خوف محقّق إلا خوف الله فإنه معلول»: محقّق، أي ثابت، أي كلّ خوفٍ حاصل حقيقة فإنّه مع هذا الحصول والتحقق معلول ليس بالخوف الصريح، إلا خوف الله وحده وتقواه، وهيبته وسطوته وسخطه، ذلك لأنّ الأمر الذي يُخاف من العبد سريع الانقضاء والزوال، والأمر الذي يُخاف من الباري تعالى لا غاية له ولا انقضاء لمحذوره، كما قيل في الحديث المرفوع: «فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة»[2].

ثمّ عاد إلى الرجاء، فقال: يرجو هذا الإنسان الله في الكثير، أي يرجو رحمتَه في الآخرة، ولا يتعلّق رجاؤه بالله تعالى إلاّ في هذا الموضع، فأمّا ما عدا ذلك من أمور الدنيا كالمكاسب والأموال والجاه والسلطان واندفاع المضارّ والتوصّل إلى الأغراض بالشفاعات والتوسلات، فإنه لا يخطر له الله تعالى ببالٍ، بل يعتمد في ذلك على السُّفَراء والوسطاء، ويرجو حصول هذه المنافع، ودفعَ هذه المضارّ من أبناء نوعه من البشر، فقد أعطى العبادَ مِنْ رجائه ما لم يعطه الخالق سبحانه، فهو مخطىءٌ؛ لأنّه إمّا أن يكونَ هو في نفسه صالحاً لأن يرجوه سبحانه، وإمّا ألاّ يكون الباريء تعالى في نفسه صالحاً لأن يُرجَى، فإن كان الثاني فهو كُفْرٌ صُراح، وإن كان الأوّل فالعبد مخطىء حيث لم يجعل نفسه مستعدًّا لفعل الصالحات؛ لأن يصلحَ لرجاء الباريء سبحانه.

ثم انتقل عليه السلام إلى الخوف، فقال: وكذلك إن خاف هذا الإنسان عبداً مثلَه، خافه أكثر من خوفه الباريء سبحانه؛ لأنّ كثيراً من الناس يخافون السلطان وسطوته أكثر من خوفهم مؤاخذة الباريء سبحانه، وهذا مشاهَد ومعلوم من النّاس، فخوف بعضهم من بعض كالنقد المعجّل، وخوفهم من خالقهم ضِمَارٌ ووعد. والضِّمار: ما لا يرجَى من الوعود والديون. قال الراعي:

---

(١) سورة النحل، الآية: ٩٤.

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٨)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٦)، بلفظ: أيسر بدل أهون، وأخرجه بلفظه الديلمي في الفردوس (٤٣٩٥)، وأبو عبد الله القضاعي في «مسند الشهاب» (٦٤٥).

حَـمِـدْنَ مَـزَارَهُ وأصَـبْـنَ مِـنْـهُ   عَـطَـاءً لـم يـكُـنْ عِـدةً ضِـمَـارا

ثم قال: «وكذلك من عظمت الدنيا في عينه» يختارها على الله، ويستعبده حبّها. ويقال: كبُر، بالضمّ، يكبُر أي عَظُم، فهو كبير وكُبَار بالتخفيف، فإذا أفرط قيل: «كُبّار» بالتشديد، فأمّا كَبِر بالكسر، فمعناه أسنّ، والمصدر منهما كِبَراً، بفتح الباء.

الأصل: وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ ٱللهِ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلّم كَافٍ لَكَ فِي ٱلْأُسْوَةِ، وَدَلِيلٌ لَكَ عَلَى ذَمِّ ٱلدُّنْيَا وَعَيْبِهَا، وَكَثْرَةِ مَخَازِيهَا وَمَسَاوِيهَا، إِذْ قُبِضَتْ عَنْهُ أَطْرَافُهَا، وَوُطِّئَتْ لِغَيْرِهِ أَكْنَافُهَا، وَفُطِمَ عَنْ رَضَاعِهَا، وَزُوِيَ عَنْ زَخَارِفِهَا.

وَإِنْ شِئْتَ ثَنَّيْتُ بِمُوسَى كَلِيمِ ٱللهِ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾[1]، وَٱللهِ مَا سَأَلَهُ إِلاَّ خُبْزاً يَأْكُلُهُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ ٱلْأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ ٱلْبَقْلِ تُرَى مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ، لِهُزَالِهِ وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ.

وَإِنْ شِئْتَ ثَلَّثْتُ بِدَاوُدَ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَاحِبِ المَزَامِيرِ، وَقَارِىءِ أَهْلِ ٱلْجَنَّةِ، فَلَقَدْ كَانَ يَعْمَلُ سَفَائِفَ ٱلْخُوصِ بِيَدِهِ، وَيَقُولُ لِجُلَسَائِهِ: أَيُّكُمْ يَكْفِينِي بَيْعَهَا! وَيَأْكُلُ قُرْصَ الشَّعِيرِ مِنْ ثَمَنِهَا.

وَإِنْ شِئْتَ قُلْتُ فِي عِيسَى ابنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، فَلَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّدُ ٱلْحَجَرَ، وَيَلْبَسُ ٱلْخشِنَ، وَيَأْكُلُ ٱلْجَشِبَ، وَكَانَ إِدَامُهُ ٱلْجُوعَ، وَسِرَاجُهُ بِاللَّيْلِ ٱلْقَمَرَ، وَظِلاَلُهُ فِي الشِّتَاءِ مَشَارِقَ ٱلْأَرْضِ ومغاربها، وَفَاكِهَتُهُ ورَيْحَانَهُ مَا تُنْبِتُ ٱلْأَرْضُ لِلْبَهَائِمِ، وَلَمْ تَكُنْ لَهُ زَوْجَةٌ تَفْتِنُه، وَلاَ وَلَدٌ يَحْزُنُهُ، وَلاَ مَالٌ يَلْفِتُهُ، وَلاَ طَمَعٌ يُذِلُّهُ، دَابَّتُهُ رِجْلاَهُ، وَخَادِمُهُ يَدَاهُ.

الشرح: يجوز أُسوة وإِسوة، وقرىء التنزيل بهما، والمساوىء: العيوب، ساءه كذا يسوءه سَوْءاً بالفتح ومساءة ومسائية. وسوته سوايةً ومسايةً، بالتخفيف، أي ساءه ما رآه مني. وسأل سيبويه الخليل عن «سوائية»، فقال: هي «فعاليَة» بمنزلة علانيَة، والذين قالوا: «سواية» حذفوا الهمزة تخفيفاً، وهي في الأصل. قال: وسألتُه عن «مسائية»، فقال: هي مقلوبة وأصلها «مساوئة» فكرهوا الواو مع الهمزة، والذين قالوا، «مساية» حذفوا الهمزة أيضاً تخفيفاً، ومن أمثالهم: «الخيل تجري في مساويها»، أي أنها وإن كانت بها عيوب وأوصاب، فإنّ كرمَها يحملها على الجري.

---

(١) سورة القصص، الآية: ٢٤.

والمخازي: جمع مَخْزاة، وهي الأمر يستحَي من ذكره لقبْحه.

وأكنافُها: جوانبها، وزَوَى: قبض. وزخارف: جمع زُخرف، وهو الذهب، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «عُرِضَتْ عليّ كنوز الأرض ودُفِعت إليّ مفاتيح خزائنها، فكرهتُها واخترت الدار الآخرة»(١)، وجاء في الأخبار الصحيحة أنّه كان يجوعُ ويشدّ حجَراً عَلَى بطنه. وأنّه ما شبع آل محمد من لَحْم قط(٢)، وأنّ فاطمة وبعلَها وبنيها كانوا يأكلون خبز الشعير، وأنهم آثروا سائلاً بأربعة أقراص منه كانوا أعدُّوها لفطورهم، وباتوا جياعاً. وقد كان رسول الله ﷺ مَلَك قطعة واسعة من الدّنيا، فلم يتدنّس منها بقليل ولا كثير، ولقد كانت الإبل التي غنمها يوم حُنين أكثر من عشرة آلاف بعير، فلم يأخذ منها وبَرةً لنفسه، وفرّقها كلّها على الناس، وهكذا كانت شيمته وسيرته في جميع أحواله إلى أن توفّي.

والصّفاق: الجلد الباطن الذي فوقه الجلْد الظاهر من البطن. وشفيفه: رقيقه الذي يَشفّ ما وراءه، وبالتفسير الذي فسر عليه السلام الآية فَسرها المفسرون، وقالوا: إنّ خضرة البقل كانت تُرَى في بطنه الهزال، وإنّه ما سأل الله إلا كلةً من الخبز. وما في ﴿لِمَآ أَنزَلْتَ﴾ بمعني أيّ، أيْ إني لأيّ شيء أنزلتَ إليّ - قليل أو كثير، غثّ أو سمين - فقير.

فإن قلت: لم عدّي «فقيراً» باللام، وإنما يقال: «فقير إلى كذا»؟

قلت: لأنه ضمّن معنى «سائل» و «مطالب» ومن فسّر الآية بغير ما ذكره عليه السلام لم يحتجّ إلى الجواب عن هذا السؤال، فإنّ قوماً قالوا: أراد: إني فقير من الدنيا لأجل ما أنزلت إليّ من خير، أيّ من خير الدين وهو النجاة من الظالمين، فإنّ ذلك رضا بالبدل السنيّ، وفرحاً به وشكراً له.

وتشذُّب اللحم: تفرّقه.

والمزامير: جمع مزمار، وهو الآلة التي يزمر فيها، ويقال: زَمَر يزمِر ويزمُر، بالضمّ والكسر، فهو زمّار، ولا يكاد يقال: زامر، ويقال للمرأة: زامرة، ولا يقال زمّارة، فأما الحديث أنّه نَهَى عن كسْب الزمّارة، فقالوا: إنّها الزانية هاهنا. ويقال: إنّ داود أعطِيَ من طيب

---

(١) أخرج نحوه البخاري، كتاب: الجنائز، باب: الصلاة على الشهيد (١٣٤٤)، ومسلم، كتاب: الفضائل، باب: إثبات حوض نبينا وصفاته (٢٢٩٦)، وأحمد، كتاب: «مسند الشاميين»، باب: حديث عقبة بن عامر (١٦٨٩٣) بلفظ: «أعطيت مفاتيح خزائن الأرض أو مفاتيح الأرض، وإني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي...».

(٢) بمعناه أخرجه أحمد في المسند: ٤/ ٤٤٢، وابن كثير في البداية والنهاية: ٦/ ٥٨.

النّعم ولذّة ترجيع القراءة ما كانت الطيور لأجله تقع عليه وهو في محرابه، والوحش تسمعه فتدخل بين الناس ولا تنفِر منهم لما قد استغرقها من طيب صوته. وقال النبيّ صلى الله عليه وآله لأبي موسى، وقد سمعه يقرأ: «لقد أوتيتَ مزماراً من مزامير داود»(١)، وكان أبو موسى شجيّ الصوت إذا قرأ وورد في الخبر: «داود قارىء أهل الجنة»(٢).

وسفائف الخوص: جمع سفيفة، وهي النسيجة منه، سفَّفت الخوصَ وأسففته بمعنى.

وهذا الذي ذكره عليه السلام عن داود يجب أن يحمل على أنه شرح حاله قبل أن يملّك فإنه كان فقيراً، فأمّا حيث ملّك فإن المعلوم من سيرته غير ذلك.

فأما عيسى فحاله كما ذكرها عليه السلام، لا ريب في ذلك، على أنه أكل اللحم وشرب الخمر، وركب الحمار وخدمه التلامذة، ولكنّ الأغلب من حاله هي الأمور التي عدّدها أمير المؤمنين عليه السلام.

ويقال: حَزنني الشيء يحزُنني بالضم، ويجوز: «أحزنني» بالهمز يُحزنني، وقرىء بهما، وهو في كلامه عليه السلام في هذا الفصل بهما.

ويقال: لفته عن كذا، يَلفِتُه بالكسر، أي صرَفه ولواه.

الأصل: فَتَأَسَّ بِنَبِيِّكَ ٱلْأَطْيَبِ ٱلْأَطْهَرِ، صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، فَإِنَّ فِيهِ أُسْوَةً لِمَنْ تَأَسَّى، وَعَزَاءً لِمَنْ تَعَزَّى. وَأَحَبُّ ٱلْعِبَادِ إِلَى ٱللهِ الْمُتَأَسِّي بِنَبِيِّهِ، وَالمُقْتَصُّ لِأَثَرِهِ. قَضَمَ ٱلدُّنْيَا قَضْماً، وَلَمْ يُعِرْهَا طَرْفاً. أَهْضَمُ أَهْلِ ٱلدُّنْيَا كَشْحاً، وَأَخْمَصُهُمْ مِنَ ٱلدُّنْيَا بَطْناً، عُرِضَتْ عَلَيْهِ ٱلدُّنْيَا فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا، وَعَلِمَ أَنَّ ٱللهَ تَعَالَى أَبْغَضَ شَيْئاً فَأَبْغَضَهُ، وَحَقَّرَ شَيْئاً فَحَقَّرَهُ، وَصَغَّرَ شَيْئاً فَصَغَّرَهُ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِينَا إِلاّ حُبُّنَا مَا أَبْغَضَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ، وَتَعْظِيمُنَا مَا صَغَّرَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ، لَكَفَى بِهِ شِقَاقاً للهِ تَعَالَى وَمُحَادَةً عَنْ أَمْرِ ٱللهِ تَعَالَى! وَلَقَدْ كَانَ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَأْكُلُ عَلَى ٱلْأَرْضِ، وَيَجْلِسُ جِلْسَةَ ٱلْعَبْدِ، وَيَخْصِفُ بِيَدِهِ نَعْلَهُ، وَيَرْقَعُ بيَده ثَوْبَهُ، وَيَرْكَبُ ٱلْحِمَارَ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب: حسن الصوت بالقراءة (٥٠٤٨)، ومسلم، كتاب: صلاة المسافرين، باب: استحباب تحسين الصوت بالقرآن (٧٩٣)، والترمذي: كتاب: المناقب، باب: مناقب أبي موسى (٣٨٥٥)، والنسائي، كتاب: الافتتاح، باب: تزيين القرآن بالصوت (١٠١٩).

(٢) انظر مستدرك سفينة البحار: ٣/ ١٢٥.

ٱلْعَارِيَ، وَيُرْدِفُ خَلْفَهُ، وَيَكُونُ السِّترُ عَلَى بَابِ بَيْتِهِ فَتَكُونُ فِيهِ التَّصَاوِيرُ فَيَقُولُ: يَا فُلَانَةُ - لِإِحْدَى أَزْوَاجِهِ - غَيِّبِيهِ عَنِّي، فَإِنِّي إِذَا نَظَرْتُ إِلَيْهِ ذَكَرْتُ الدنيا وَزَخَارِفَهَا. فَأَعْرَضَ عَنِ ٱلدُّنْيَا بِقَلْبِهِ، وَأَمَاتَ ذِكْرَهَا مِنْ نَفْسِه، وَأَحَبَّ أَنْ تَغِيبَ زِينَتُهَا عَنْ عَيْنِهِ، لِكَيْلاَ يَتَّخِذَ مِنْهَا رِيَاشاً، وَلاَ يَعْتَقِدَهَا قَرَاراً، وَلاَ يَرْجُوَ فِيهَا مَقَاماً، فَأَخرَجَها مِنَ النَّفْسِ، وَأَشْخَصَهَا عَنه ٱلْقَلْبِ، وَغَيَّبَهَا عَنِ ٱلْبَصَرِ.

وَكَذٰلِكَ مَنْ أَبْغَضَ شَيْئاً أَبْغَضَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهِ، وَأَنْ يُذْكَرَ عِنْدَهُ، وَلَقَدْ كَانَ فِي رَسُولِ ٱللهِ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلّم مَا يَدُلُّكَ عَلَى مَسَاوِىءِ ٱلدُّنْيَا وَعُيُوبِهَا، إِذْ جَاعَ فِيهَا مَعَ خَاصَّتِهِ، وَزُوِيَتْ عَنْهُ زَخَارِفُهَا مَعَ عَظِيمِ زُلْفَتِهِ، فَلْيَنْظُرْ نَاظِرٌ بِعَقْلِهِ: أَكْرَمَ ٱللهُ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْه وَسَلّم بِذٰلِكَ أَمْ أَهَانَهُ! فَإِنْ قَالَ: «أَهَانَهُ» فَقَدْ كَذَبَ وَٱللهِ ٱلْعَظِيمِ بِالْإِفْكِ ٱلْعَظِيمِ، وَإِنْ قَالَ: «أَكْرَمَهُ» فَلْيَعْلَمْ أَنَّ ٱللهَ قَدْ أَهَانَ غَيْرَهُ حَيْثُ بَسَطَ الدُّنْيَا لَهُ، وَزَوَاهَا عَنْ أَقْرَبِ النَّاسِ مِنْهُ، فَتَأَسَّى مُتَأَسٍّ بِنَبِيِّهِ، وَٱقْتَصَّ أَثَرَهُ، وَوَلَجَ مَوْلِجَهُ، وَإِلاَّ فَلاَ يَأْمَنِ ٱلْهَلَكَةَ، فَإِنَّ ٱللهَ جَعَلَ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلّم عَلَماً لِلسَّاعَةِ، وَمُبَشِّراً بِالْجَنَّةِ، وَمُنْذِراً بِالْعُقُوبَةِ، خَرَجَ مِنَ الدُّنْيَا خَمِيصاً، وَوَرَدَ ٱلْآخِرَةَ سَلِيماً، لَمْ يَضَعْ حَجَراً عَلَى حَجَرٍ، حَتَّى مَضَى لِسَبِيلِهِ، وَأَجابَ دَاعِيَ رَبِّهِ، فَمَا أَعْظَمَ مِنَّةَ ٱللهِ عِنْدَنَا حِينَ أَنْعَمَ عَلَيْنَا بِهِ سَلَفاً نَتَّبِعُهُ، وَقَائِداً نَطَأُ عَقِبَهُ! وَٱللهِ لَقَدْ رَقَّعْتُ مِدْرَعَتِي هٰذِهِ حَتَّى ٱسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَاقِعِهَا، وَلَقَدْ قَالَ لِي قَائِلٌ: أَلاَ تَنْبِذُهَا عَنْكَ! فَقُلْتُ: ٱعْزُبْ عَنِّي، فَعِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ ٱلْقَوْمُ السُّرَى.

الشرح: المقتصّ لأثره: المتبع له، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَالَتۡ لِأُخۡتِهِۦ قُصِّيهِۖ﴾(١).

وقَضَم الدنيا: تناول منها قَدر الكَفاف، وما تدعُو إليه الضرورة من خَشِن العيشة، وقال أبو ذَرّ رحمه الله: «يَخضِمون ونقضم، والموعد الله!». وأصلُ القَضْم، أكلُ الشيء اليابس بأطراف الأسنان، والخَضْم: أكلٌ بكلّ الفم للأشياء الرّطبة، وروي: «قَصَم» بالصاد، أي كسر.

قوله: «أهضَمُ أهلِ الدّنيا كشحاً» الكشْحُ: الخاصرة، ورجلٌ أهضَم: بيِّن الهضَم، إذا كان خميصاً لقلّة الأكل.

وروي: «وحقَر شيئاً فحقَره» بالتخفيف. والشّقاق: الخلاف.

(١) سورة القصص، الآية: ١١.

والمحاذة: المعَادة. وخَصَف النَّعْل: خرزها. والرياش: الزينة، والمِدْرعة. الدّرّاعة.

وقوله: «عند الصّباح يحمد القوم السرى»، مثل يضرب لمحتمِل المشقّة العاجلة، رجاء الراحة الآجلة.

الدنيا الفانية

جاء في الأخبار الصحّيحة أنه عليه الصلاة والسلام، قال: «إنّما أنا عبدٌ آكل أكلَ العبِيد، وأجلس جِلْسة العبيد»[١]، وكان يأكل على الأرض، ويجلس جلوسَ العبيد، يضع قصبَتيْ ساقيْه علَى الأرض، ويعتمد عليهما بباطني فَخِذيْه، وركوبه الحمار العاري آيةُ التواضع وهضْم النفس. وإرداف غيره خلفه آكد في الدلالة على ذلك.

وجاء في الأخبار الصحيحة النهيُ عن التصاوير وعن نصب الستور التي فيها التصاوير، وكان رسول الله ﷺ إذا رأى سِتْراً فيه تصاوير أمر أن تقطع رأس تلك الصورة.

وجاء في الخبر: «مَنْ صَوّر صورةً كُلِّف في القيامة أن ينفخ فيها الروح، فإذا قال: لا أستطيع، عُذِّب»[٢].

قوله: «لم يضع حَجَراً على حجَر» هو عين ما جاء في الأخبار الصحيحة، خَرَج رسول الله ﷺ من الدنيا ولم يضع حجَراً على حجر.

وجاء في أخبار عليّ عليه السلام التي ذكرها أبو عبد الله أحمد بن حنبل في كتاب فضائله، وهو روايتي عن قريش بن السبيع بن المهنّا العلويّ، عن نقيب الطالبيين أبي عبد الله أحمد بن علي بن المعمّر، عن المبارك بن عبد الجبار أحمد بن القاسم الصيْرَفيّ المعروف بابن الطيوريّ، عن محمد بن عليّ بن محمد بن يوسف العلاف المزنيّ، عن أبي بكر أحمد بن جعفر بن حمدان بن مالك القطيعيّ، عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، عن أبيه أبي عبد الله أحمد رحمه الله، قال: قيل لعليّ عليه السلام: يا أميرَ المؤمنين، لم ترقّعُ قميصَك؟ قال: ليخشعَ القلبُ، ويقتديَ بي المؤمنون[٣].

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥٧٨٠).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: البيوع، باب: بيع التصاوير (٢٢٢٥)، ومسلم، كتاب: اللباس والزينة، تحريم تصوير صورة الحيوان (٢١١٠)، والترمذي، كتاب: اللباس، باب: ما جاء في المصورين (١٧٥١)، والنسائي، كتاب: الزينة، باب: ذكر ما يكلف أصحاب الصور يوم القيامة (٥٣٥٨). دون قوله: فإذا قال: لا أستطيع عذب.

(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ١٦١.

وروَى أحمد رحمه الله أنّ علياً كان يطوفُ الأسواق مؤتزراً بإزار، مرتدياً برداء، ومعه الدِّرة كأنه أعرابيٌ بدويّ، فطاف مرّة حتى بلغ سوقَ الكرابيس فقال لواحد: يا شيخ، بعْنِي قميصاً تكون قيمتُه ثلاثة دراهم، فلما عرفه الشيخ لم يشترِ منه شيئاً، ثم أتى آخر، فلما عرفه لم يشترِ منه شيئاً، فأتى غلاماً حَدَثاً، فاشترى منه قميصاً بثلاثة دراهم، فلما جاء أبو الغلام، أخبره، فأخذ دِرْهَماً. ثم جاء إلى عليّ عليه السلام ليدفعَه إليه، فقال له: ما هذا؟ أو قال ما شأنُ هذا، فقال: يا مولاي، إنّ القميص الذي باعك ابني كان يساوي درهمين، فلم يأخذ الدّرهم، وقال: باعني رضاي وأخذ رضاه[١].

وروى أحمد رحمه الله عن أبي النوار بائع الخام بالكوفة، قال: جاءني عليّ بن أبي طالب إلى السوق، ومعه غلام له وهو خليفة، فاشترى مِنِّي قميصيْن، وقال لغلامه: اختر أيَّهما شئت، فأخذ أحدَهما، وأخذ عليٌ الآخر، ثم لبسه ومدّ يده، فوجد كُمّه فاضلة، فقال: اقطع الفاضل. فقطعته، ثم كفّه وذهب[٢].

وروى أحمد رحمه الله عن الصمال بن عمير، قال: رأيتُ قميص عليّ عليه السلام الذي أصيب فيه، وهو كرابيس سبيلاني، ورأيت دمَه قد سال عليه كالدّرديّ[٣].

وروى أحمد رحمه الله قال: لما أرسل عثمان إلى عليّ عليه السلام، وجده مؤتزراً بعباءة، محتجِزاً بعِقال، وهو يَهْنَأ بعيراً له[٤].

والأخبار في هذا المعنى كثيرة، وفيما ذكرناه كفاية.

---

١٦٢ - ومن خطبة له عليه السلام في أسرة الرسول وشرفه

الأصل: ٱبْتَعَثَهُ بِالنُّورِ المُضِيءِ، وَٱلْبُرْهَانِ ٱلْجَلِيّ، وَٱلْمِنْهَاجِ ٱلْبَادِي، وَٱلْكِتَابِ ٱلْهَادِي. أُسْرَتُهُ خَيْرُ أُسْرَةٍ، وَشَجَرَتُهُ خَيْرُ شَجَرَةٍ، أَغْصَانُهَا مُعْتَدِلَةٌ، وَثِمَارُهَا مُتَهَدِّلَةٌ، مَوْلِدُهُ بِمَكَّةَ، وَهِجْرَتُهُ بِطَيْبَةَ، عَلاَ بِهَا ذِكْرُهُ، وَٱمْتَدَّ مِنْهَا صَوْتُهُ، أَرْسَلَهُ بِحُجَّةٍ كَافِيَةٍ، وَمَوْعِظَةٍ شَافِيَةٍ، وَدَعْوَةٍ مُتَلاَفِيَةٍ. أَظْهَرَ بِهِ الشَّرَائِعَ المَجْهُولَةَ، وَقَمَعَ بِهِ ٱلْبِدَعَ المَدْخُولَةَ، وَبَيَّنَ بِهِ ٱلْأَحْكَامَ

(١) أخرجه ابن أبي كثير في البداية والنهاية: ٨/ ٥، وأخرجه ابن عساكر في تاريخ مدينة دمشق: ٤٢/ ٤٨٦.
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ١٦١.
(٣) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ١٦٢.
(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ١٦٢.

المَفْصُولَةَ. فَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَامِ دِيناً تَتَحَقَّقْ شِقْوَتُهُ، وَتَنْفَصِمْ عُرْوَتُهُ. وَتَعْظُمْ كَبْوَتُهُ، وَيَكُنْ مآبُهُ إِلَى ٱلْحُزْنِ الطَّوِيلِ وَٱلْعَذَابِ ٱلْوَبِيلِ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَى ٱللهِ تَوَكُّلَ الإِنَابَةِ إِلَيْهِ، وَأَسْتَرْشِدُهُ السَّبِيلَ المُؤَدِّيَةَ إِلَى جَنَّتِهِ، ٱلْقَاصِدَةَ إِلَى مَحَلِّ رَغْبَتِهِ.

الشرح: بالنور المضيء، أي بالدين، أو بالقرآن. وأسرتُه: أهله. اغصانها معتدلة، كناية عن عدم الاختلاف بينهم في الأمور الدينية. وثمارها منهدّلة، أي متدلّية، كناية عن سهولة اجتناء العلم منها.

وطَيْبة اسم المدينة، كان اسمها يَثْرِب، فسمّاها رسول الله ﷺ طَيْبة.

ومما أكْفَر النَّاس به يزيدَ بن معاوية أنّه سماها «خبيثة» مراغَمة لرسول الله ﷺ.

علا بها ذكره؛ لأنه ﷺ إنّما انتصر وقهر الأعداء بعد الهجرة. «ودعوة متلافية» أي تتلافى ما فسد في الجاهلية من أديان البشر.

قوله: «بيّن به الأحكام المفصولة»، ليس يعني أنها كانت مفصولة قبل أن بيّنها، بل المراد: بيّن به الأحكام التي هي الآن مفصولة عندنا وواضحة لنا، لأجل بيانه لها.

والكبوة: مصدر كبا الجواد، إذا عثر فوقع إلى الأرض.

والمآب: المرجع. والعذاب الوبيل: ذو الوبال وهو الهلاك:

والإنابة: الرجوع. والسبيل: الطريق، يذكر ويؤنث. والقاصدة: ضدّ الجائرة. فإن قلت لم عدّى القاصدة بـ «إلى»؟

قلت: لأنها لمّا كانت قاصدة، تضمّنت معنى الإفضاء إلى المقصد، فعدّاها بـ «إلى» باعتبار المعنى.

الأصل: أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللهِ بِتَقْوَى ٱللهِ وَطَاعَتِهِ، فَإِنَّهَا النَّجَاةُ غَداً، وَالْمَنْجَاةُ أَبَداً، رَهَّبَ فَأَبْلَغَ، وَرَغَّبَ فَأَسْبَغَ، وَوَصَفَ لَكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱنْقِطَاعَهَا، وَزَوَالَهَا وَٱنْتِقَالَهَا، فَأَعْرِضُوا عَمَّا يُعْجِبُكُمْ فِيهَا لِقِلَّةِ مَا يَصْحَبُكُمْ مِنْهَا. أَقْرَبُ دَارٍ مِنْ سَخَطِ ٱللهِ، وَأَبْعَدُهَا مِنْ رِضْوَانِ ٱللهِ.

فَغُضُّوا عَنْكُمْ عِبَادَ ٱللهِ غُمُومَهَا وَأَشْغَالَهَا، لِمَا أَيْقَنْتُمْ بِهِ مِنْ فِرَاقِهَا، وَتَصَرُّفِ حَالاَتِهَا، فَاحْذَرُوهَا حَذَرَ الشَّفِيقِ النَّاصِحِ، وَالْمُجِدِّ ٱلْكَادِحِ.

وَٱعْتَبِرُوا بِمَا قَدْ رَأَيْتُمْ مِنْ مَصَارِعِ ٱلْقُرُونِ قَبْلَكُمْ، قَدْ تَزَايَلَتْ أَوْصَالُهُمْ، وَزَالَتْ أَبْصَارُهُمْ وَأَسْمَاعُهُمْ، وَذَهَبَ شَرَفُهُمْ وَعِزُّهُمْ، وَٱنْقَطَعَ سُرُورُهُمْ وَنَعِيمُهُمْ، فَبُدِّلُوا بِقُرْبِ ٱلْأَوْلَادِ فَقْدَهَا، وَبِصُحْبَةِ ٱلْأَزْوَاجِ مُفَارَقَتَها، لاَ يَتَفَاخَرُونَ وَلاَ يَتَنَاسَلُونَ، وَلاَ يَتَزَاوَرُونَ وَلاَ يَتَحَاوَرُونَ.

فَاحْذَرُوا - عِبَادَ ٱلله - حَذَرَ ٱلْغَالِبِ لِنَفْسِهِ، ٱلْمَانِعِ لِشَهْوَتِهِ، النَّاظِرِ بِعَقْلِهِ، فَإِنَّ الأَمْرَ وَاضِحٌ، وَٱلْعَلَمَ قَائِمٌ، وَالطَّرِيقَ جَدَدٌ، وَالسَّبِيلَ قَصْدٌ.

الشرح: المنجاة: مصدر نجا ينجُو نجاةً ومنجاة. والنَّجاة: النّاقة يُنْجَي عليها، فاستعارها هاهنا للطاعة والتّقوى، كأنها كالمطيّة المركوبة يخلص بها الإنسان من الهلَكة.

قوله: «رهّب فأبلغ»، الضمير يرجع إلى الله سبحانه، أي خوّف المكلّفين فأبلغ في التخويف، ورغّبهم فأتمّ الترغيب وأسبغه.

ثم أمر بالإعراض عما يسرُّ ويروق من أمر الدنيا، لقلة ما يصحب النّاس من ذلك.

ثم قال: إنَّها أقربُ دار من سخط الله، وهذا نحو قول النبي ﷺ: «حبُّ الدّنيا رأسُ كلِّ خطيئة»[1].

قوله: «فغُضّوا عنكم عباد الله غمومها»، أي كُفّوا عن أنفسكم الغمّ لأجلها ولاشتغال بها، يقال: غضضت فلاناً عن كذا أي كففته، قال تعالى: ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾[2].

قوله: «فاحذورها حَذَر الشفيق الناصح»، أي فاحذروها على أنفسكم لأنفسِكم كما يحذر الشفيق الناصح على صاحبه، وكما يحذر المجدّ الكادح، أي الساعي من خيبَة سعيه.

والأوصال: الأعضاء. والمحاورة: المخاطبة والمناجاة، وروي: «ولا يتجاورون» بالجيم. والعَلَم: ما يستدلّ به في المفازة.

وطريق جَدَد، أي سهل واضح. والسبيل قَصْد، أي مستقيم.

---

(١) أخرجه البيهقي في «الشعب» (١٠٥٠١)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١٠٩٩)، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٣٨٨)، أنه من كلام سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام.
(٢) سورة لقمان، الآية: ١٩.

١٦٣ - ومن كلام له عليه السلام لبعض أصحابه، وقد سأله: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحق به؟ فقال عليه السلام

الأصل: يا أخا بَني أسدٍ، إنّكَ لَقَلِقُ الوَضِينِ، تُرْسِلُ في غَيْرِ سَدَدٍ، ولَكَ بَعْدُ ذِمامَةُ الصِّهْرِ وَحَقُّ المَسْأَلَةِ، وَقَدِ اسْتَعْمَلْتَ فاعْلَمْ.

أَمَّا الاسْتِبْدَادُ عَلَيْنَا بِهذَا المَقام، وَنَحْنُ الأعْلَوْنَ نَسَباً، وَالأشَدُّونَ بالرَّسُولِ صَلَّى عَلَيْهِ وَسَلّم نَوْطاً، فإنّها كانَتْ أثَرَةً شَحَّتْ عَلَيْهَا نُفُوسُ قَوْمٍ، وَسَخَتْ عَنْها نُفُوسُ آخَرِينَ، وَالحَكَمُ الله، وَالمَعْوَدُ إلَيْهِ يَوْمُ القِيامَةِ.

وَدَعْ عَنْكَ نَهْباً صِيحَ في حَجَرَاتِهِ   وَلَكِنْ حَدِيثاً ما حَدِيثُ الرَّوَاحِلِ

وَهَلُمَّ الخَطْبَ في ابْنِ أبي سُفْيانَ، فَلَقَدْ أَضْحَكَنِي الدَّهْرُ بَعْدَ إبْكائِهِ، وَلاَ غَرْوَ وَالله، فَيالَهُ خَطْباً يَسْتَفْرِغُ العَجَبَ، وَيُكْثِرُ الأَوَدَ!

حاوَلَ القَوْمُ إطْفاءَ نُورِ الله مِنْ مُصْباحِهِ، وَسَدَّ فَوَّارِهِ مِنْ يَنْبُوعِهِ، وَجَدَحُوا بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ شِرْباً وَبِيئاً، فإنْ تَرْتَفِعْ عَنّا وَعَنْهُمْ مِحَنُ البَلْوَى، أَحْمِلْهُمْ مِنَ الحَقِّ على مَحْضِهِ، وَإنْ تَكُنِ الأُخْرَى، ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[١].

الشرح: الوضِين: بِطان القَتَب، وحزام السرج، ويقال للرجل المضطرب في أموره: إنَّهُ لقَلِقُ الوضِين، وذلك أنّ الوضِين إذا قلق، اضطرب القتَبُ أو الهودَجُ، أو السَّرْج ومَن عليه.

ويرسِل في غير سَدد، أي يتكلَّم في غير قصد وفي غير صواب، والسَّدَدُ والاستداد: الاستقامة والصواب، والسديد: الذي يصيب السَّدد، وكذلك المُسِدّ، واستدّ الشيء، أي استقام. وذِمامة الصِّهر، بالكسر، أي حرمته، هو الذّمام، قال ذو الرُّمة:

تَكُنْ عَوْجَةً يجزيكَها الله عِنْدَهُ   بها الأجرَ تُقْضَى ذِمَامَةَ صَاحِبِ

ويروى: «ماتَّة الصِّهر»، أيْ حرمته ووسيلته، متّ إليه بكذا، وإنّما قال عليه السلام له: «ولك بعد ذِمَامة الصِّهر»؛ لأنّ زينب بنت جحش زوج رسول الله صلى الله عليه وآله كانت أسديّة، وهي زينب بنت جحش بن رباب بن يعمر بن صبرة بن مرّة بن كثير بن غَنْم بن دودان بن أسد بن خزيمة. وأمّها

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

أميّة بنت عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فهي بنت عمّة رسول الله ﷺ، والمصاهرة المشار إليها، هي هذه.

ولم يفهم القطب الراونديّ ذلك، فقال في الشرح: «كان أمير المؤمنين عليه السلام قد تزوّج في بني أسد» ولم يصِبْ، فإنّ علياً عليه السلام لم يتزوّج في بني أسد البتّة. ونحن نذكر أولاده: أمّا الحسَنُ والحسين وزينب الكبرى وأمّ كلثوم الكُبرى، فأمّهم فاطمة بنت سيدنا رسول الله ﷺ. وأما محمّد فأمّه خَوْلة بنت إياس بن جعفر، من بني حَنيفة، وأمّا أبو بكر وعبد الله، فأمّهما ليلى بنت مسعود النَّهشليّة، من تميم وأما عمر ورقيّة فأمهما سَبِيَّة من بني تَغْلِب، يقال لها: الصَّهْباء، سُبِيت في خلافة أبي بكر وإمارة خالد بن الوليد بعيْنِ التمر. وأمّا يحيى وعون فأمّهما أسماء بنت عُمَيْس الخثعميّة. وأمّا جَعفر والعباس وعبد الله وعبد الرحمن فأمّهم أم البنين بنت حزام بن خالد بن ربيعة بن الوحيد من بني كِلاب. وأمّا رملة وأمّ الحسن فأمّهما أم سعيد بنت عروة بن مسعود الثقفيّ، وأما أمّ كلثوم الصغرى وزينب الصغرى وجُمانة وميمونة وخديجة وفاطمة وأمّ الكرام ونفيسة وأمّ سلَمة وأم أبيها وأمامة بنت عليّ عليه السلام فهنّ لأمهات أولاد شتى، فهؤلاء أولاده، وليس فيهم أحدٌ من أسديّة، ولا بلَغنا أنه تزوّج في بني أسَد، ولم يولد له، ولكن الراونديّ يقول ما يخطِر له ولا يحقّق.

وأما حقّ المسألة؛ فلأن للسائل على المسؤول حقًا حيث أهّله لأن يستفيد منه.

والاستبداد بالشيء: التفرّد به. والنَّوْط: الالتصاق. وكانت أثَرة، أي استئثاراً بالأمر واستبداداً به، قال النبي ﷺ للأنصار: «ستلقوْنَ بعدي أثَرة»[1].

وشحّتْ: بخلت. وسَخَت: جادت، ويعني بالنّفوس التي سَخَتْ نفسَه، وبالنفوس التي شحّت، أمّا على قولنا فإنه يعني نفوسَ أهل الشورى بعد مقتل عُمَر، وأمّا على قول الإمامية، فنفوسَ أهلِ السَّقِيفة. وليس في الخبر ما يقتضِي صَرْفَ ذلك إليهم، فالأوْلَى أن يحمَل على ما ظهر عنه من تألّمه مِنْ عبد الرحمن بن عوف ومَيْله إلى عثمان.

ثم قال: إنّ الحكَم هو الله، وإنّ الوقت الذي يعود النّاس كلّهم إليه هو يوم القيامة. وروي: «يومَ» بالنّصب على أنه ظرف والعامل فيه «المَعْوَد»، على أن يكون مصدراً.

وأما البيتُ فهو لامرىء القيس بن حُجْر الكنديّ، وروِي أنّ أميرَ المؤمنين عليه السلام لم يستشهد إلاّ بصدرِه فقط وأتمّه الرواة.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المناقب، باب: قول النبي ﷺ للأنصار اصبروا (٣٧٩٢)، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب: إعطاء المؤلفة قلوبهم على الإسلام (١٠٦١)، ومسلم، كتاب: آداب القضاة، باب: ترك استعمال من يحرص على القضاء (٥٣٨٣)، وأحمد، كتاب: باقي «مسند المكثرين، باب: مسند أبي سعيد الخدري (١١١٥٣).

وكان من قصّة هذا الشّعر أنّ امرأ القيْس، لما تنقّل في أحياء العرب بعد قَتْل أبيه، نزل على رَجُلٍ من جَدِيلة طيّىء، يقال له طريف بن ملْء، فأجاره وأكرمه، وأحسن إليه، فمدحه وأقام عنده. ثم إنه لم يولِه نصيباً في الجبلين: أجأ وسَلْمَى، فخاف ألاّ يكون له مَنَعة، فتحوّل ونزل على خالد بن سَدُوس بن أصمع النّبهانيّ، فأغارتْ بنو جَدِيلة على امرىء القيس وهو في جوار خالد بن سَدُوس، فذهبوا بإبله، وكان الذي أغار عليه منهم باعث بن حُوَيص، فلما أتى امرَأ القيس الخبر. ذكر ذلك لجارِه، فقال له: أعْطِني رواحلَك ألحق عليها القوم، فأردّ عليك إبلَك، ففعل. فركب خالد في إثر القوم حتى أدركهم، فقال: يا بني جَدِيلة، أغرتُمْ على إبل جاري! فقالوا: ما هو لك بجار، قال: بلَى والله وهذه رواحله، قالوا: كذلك! قال: نعم، فرجعوا إليه فأنزلوه عنهنّ، وذهبوا بهنّ وبالإبل. وقيل: بل انطوَى خالدٌ على الإبل فذهب بها، فقال امرؤ القيس:

دَعْ عنك نهباً صِيحَ في حَجَرَاتِه ... ولكن حديثاً ما حديثُ الرَّواحِل
كأنّ دِثَاراً حَلَّقَتْ بِلَبُونِهِ ... عُقابُ تَنُوفَي لا عُقاب القواعِلَ
تَلَعَّبَ باعثٌ بِذِمَّةِ خالدٍ ... وأوْدَى دِثَارٌ في الخطوب الأوائل
وأعجبني مشيَ الحُزُقَّةِ خالدٍ ... كمشيِ أتانٍ حُلِّئَتْ بالمناهلِ
أبت أجَأٌ أن تُسْلِمَ العامَ جَارَهَا ... فمن شاء فلينهَضْ لها من مقاتِلِ
تبيت لَبونِي بالقُرَيَّةِ أُمَّنَا ... واسْرَحُها غِبًّا بأكنف حائلِ
بنو ثُعَلٍ جيرانُها وحُماتُها ... وتُمنَعُ من رُماةِ سعدٍ ونائل
تُلاعِبُ أولادَ الوُعولِ رِبَاعُهَا ... دُوَيْنَ السَّماء في رُؤوس المجادل
مكلَّلةٌ حمْرَاء ذاتَ أسِرّةٍ ... لها حُبُكٌ كأنّها من وَصَائلِ

دِثار: اسم راعٍ كان لامرىء القيس. وتَنُوفَي والقواعل جبال. والحزُقّة: القصير الضخم البطن، واللّبون: الإبل ذوات الألبان. والقُريّة: موضع معروف بين الجَبَلَين. وحائل اسم موضع أيضاً. وسعد ونائل حيّان من طيّىء. والرِّباع: جمع رُبَع، وهو ما نتِج في الربيع. والمجادل: القصور. ومكللة، يرجع إلى المجادل مكلّلة بالصخر. والأسرّة: الطريق وكذلك الحبُك. والوصائل: جمع وَصِيلة، وهو ثوب أمْغر الغَزْل، فيه خطوط. والنَّهب: الغنيمة، والجمع النّهاب، والانتهاب مصدر انتهبتُ المال، إذا أبحتَه يأخذه من شاء، والنُّهبَى: اسم ما أنهب. وحَجَراته: نواحيه، الواحدة حَجْرة، مثل جَمَرات وجَمْرة. وصيح في حَجَراته صياح الغارة. والرّواحل: جمع راحلة، وهي الناقة التي تصلح أن تُرْحَل، أيْ يشدّ الرَّحْل على ظهرها، ويقال للبعير: راحلة.

وانتصب «حديثاً» بإضمار فعل، أي هات حديثاً أو حدِّثني حديثاً. ويروي: «ولكن حديثٌ»، أي ولكن مرادي أو غرضي حديث فحذف المبتدأ، وما هاهنا، يحتمل أن تكون إبهاميّة، وهي التي إذا اقترنت باسم نكرة زادته إبهاماً وشياعاً، كقولك: أعطِني كتاباً ما، تريد أيّ كتاب كان، ويحتمل أن تكون صلة مؤكدة كالتي في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾[1]. فأمّا «حديث» الثاني فقد ينصب وقد يرفع، فمن نصب أبدله من «حديث» الأوّل، ومَنْ رفع جاز أن يجعل «ما» موصولة بمعنى «الذي»، وصلتها الجملة، أي الذي هو حديث الرواحل، ثمّ حذف صدر الجملة كما حذف في ﴿تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ﴾[2] ويجوز أن تجعل «ما» استفهامية بمعنى «أيّ».

ثم قال: «وهلمّ الخطب»، هذا يقوّي رواية مَنْ روى عنه أنّه عليه السلام لم يستشهد إلاّ بصدر البيت، كأنّه قال: دع عنك ما مضى وهلمّ ما نحن الآن فيه من أمرِ معاوية، فجعل، «هُلمّ» ما نحن فيه من أمر معاوية قائماً مقام قول امرىء القيس.

ولَكِنْ حديثاً ما حديثُ الرَّواحِلِ

وهلمّ، لفظ يستعمل لازماً ومتعدّياً، فاللازم بمعنى «تعالَ»، قال الخليل: أصلُه «لَمّ» من قولهم: «لَمّ الله شعثَه» أي جَمَعه، كأنّه أراد «لُمّ نفسك إلينا» أي اجمعْها واقرُب مِنّا، وجاءت «ها» للتنبيه قبلها، وحذفت الألف لكثرة الاستعمال، وجعلت الكلمتان كلمة واحدة، يستوي فيها الواحد والاثنان والجمع والمؤنث والمذكّر في لغة أهل الحجاز، قال سبحانه: ﴿وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾[3]، وأهل نجد يصرّفونها فيقولون للاثنين: «هلمّا» وللجمع: «هلمّوا» وعلى ذلك. وقد يوصل إذا كان لازماً باللام، فيقال: هلّم لك، وهلّم لكما، كما قالوا: هَيْت لك، وإذا قيل لك: هلُمّ إلى كذا أي تعال إليه، قلت: لا أهَلُمّ مفتوحة الألف والهاء مضمونة الميم، فأمّا المتعدية فهي بمعنى «هات»، تقول: هلُمّ كذا وكذا، قال الله تعالى: ﴿هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ﴾[4]، وتقول لمن قال لك ذلك: لا أهلمّه، أي لا أعطيكه، يأتي بالهاء ضمير المفعول ليتميّز من الأولى.

يقول عليه السلام: ولكن هات ذكر الخطب، فحذف المضاف. والخطْب: الحادث الجليل، يعني الأحوال التي أدّت إلى أن صار معاوية منازعاً في الرياسة، قائماً عند كثير من النّاس مقامه، صالحاً لأنّ يقع في مقابلته، وأن يكون ندًّا له.

ثم قال: «فلقد أضحكني الدهر بعد إبكائه»، يشير إلى ما كان عنده من الكآبة لتقدّم مَنْ

(١) سورة النساء، الآية: ١٥٥.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٤.
(٣) سورة الأحزاب، الآية: ١٨.
(٤) سورة الأنعام، الآية: ١٥٠.

سلف عليه، فلم يقنع الدّهر له بذلك، حتى جعل معاوية نظيراً له، فضحك عليه السلام مما تحكُم به الأوقات، ويقتضيه تصرّف الدّهر وتقلّبه، وذلك ضَحِك تعجُّب واعتبار.

ثم قال: «ولا غَرْوَ والله»، أي ولا عَجَب والله.

ثم فسَّرَ ذلك فقال: يا له خطباً يستفرغُ العجب! أي يستنفده ويفنيه، يقول: قد صار العجبُ لا عجبَ لأنّ هذا الخَطْب استغرق التعجّبَ، فلم يبق منه ما يطلَق عليه لفظ التعجُّب، وهذا من باب الإغراق والمبالغة في المبالغة، كما قال أبو الطيب:

أسَفِي على أسفِي الّذي دَلَّهتِني ... عن علمه فَبِهِ عليّ خفاءُ
وشَكِيّتي فَقْدُ السقام لأنّهُ ... قد كَانَ لَمّا كانَ لي أعضاءُ

وقال ابن هانئ المغربيّ:

قَدْ سِرْتُ في الميدان يوم طِرَادِهِمْ ... فعجبتُ حتى كِدْتُ ألاَّ أعْجَبَا

والأوَد: العوَج.

ثم ذكر تمالؤ قريش عليه، فقال: حاول القوْمُ إطفاء نور الله من مصباحه، يعني ما تقدّم من منابذة طَلْحة والزبير وأصحابهما له، وما شفع ذلك من معاوية وعمرو وشيعتهما. وفوّار اليَنْبوع: ثقب البئر.

قوله: «وجدحوا بيني وبينهم شِرْباً»، أي خلطوه ومزجوه وأفسدوه.

والوبيء: ذو الوباء والمرض، وهذا استعارة كأنّه جعل الحال التي كانت بينه وبينهم قد أفسدها القوم، وجعلوها مَظِنّه الوباء والسَّقَم، كالشرب الذي يخلط بالسمّ أو بالصَّبِر فيفسد ويوبيء.

ثم قال: فإن كشف الله تعالى هذه المحنَ التي يحصل منها ابتلاء الصابرين والمجاهدين، وحصل لي التمكّن من الأمر، حملتُهم على الحقّ المحض الذي لا يمازجُه باطل، كاللبن المحْضِ الذي لا يخالطه شيء من الماء، وإن تكُن الأخرى، أي وإنْ لم يكشف الله تعالى هذه الغمّة ومتّ أو قتلت - والأمور على ما هي عليه من الفتنة ودولة الضلال - ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾[1]، والآية من القرآن العزيز.

وسألت أبا جعفر يحيى بن محمد العلويّ نقيب البصرة، وقت قراءتي عليه، عن هذا الكلام، وكان رحمه الله على ما يذهب إليه من مذهب العَلَوّية منصفاً وافر العقل، فقلت له: مَنْ يعني عليه السلام بقوله: «كانت أثَرة شحَّت عليها نفوس قوم، وسَخَت عنها نفوس آخرين؟» ومَن القومُ الّذين عناهم الأسديّ بقوله: «كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام وأنتم أحقّ به»؟ هل

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.

المرادُ يوم السقيفة أو يوم الشورى؟ فقال: يوم السقيفة؟ فقلت: إنّ نفسي لا تسامحني أن أنسُب إلى الصحابة عصيان رسول الله ﷺ ودفع النص. فقال: وأنا فلا تسامحني أيضاً نفسي أن أنسب الرسول الله ﷺ إلى إهمال أمر الإمامة، وأنْ يتركَ النّاس فوضى سُدًى مهمَلين، وقد كان لا يغيبُ عن المدينة إلاّ ويؤمّر عليها أميراً وهو حيّ ليس بالبعيد عنها، فكيف لا يؤمّر وهو ميّت لا يقدر على استدراك ما يحدُث!

ثم قال: ليس يشكّ أحدٌ من الناس أنّ رسول الله ﷺ كان عاقلاً كامل العقل، أمّا المسلمون فاعتقادهم فيه معلوم، وأمّا اليهود والنصارى والفلاسفة فيزعمون أنه حكيم تامّ الحكمة، سديد الرأي، أقام ملّةً، وشرَع شريعة، فاستجدّ ملكاً عظيماً بعقله وتدبيره، وهذا الرّجل العاقل الكامل يعرفُ طباع العرب وغرائزهم وطلبَهم بالثّارات والذُّحول، ولو بعد الأزمان المتطاولة. ويقتُل الرجل من القبيلة رجلاً من بيت آخر، فلا يزال أهلُ ذلك المقتول وأقاربه يتطلّبون القاتل ليقتلوه، حتى يدركوا ثأرهم منه، فإن لم يظفروا به قَتلُوا بعضَ أقاربه وأهله، فإنْ لم يظفروا بأحدهم قتلوا واحداً أو جماعة من تلك القبيلة به وإن لم يكونوا رهطه الأدنين. والإسلام لم يُحِلْ طبائعهم، ولا غيّر هذه السجيّة المركوزة في أخلاقهم، والغرائز بحالها، فكيف يتوهّم لبيب أنّ هذا العاقل الكامل وَتَر العرب، وعلى الخصوص قريشاً، وساعدَهُ على سَفْك الدماء وإزهاق الأنفس وتقلد الضغائن ابنُ عمّه الأدنى وصهرهُ، وهو يعلم أنّه سيموت كما يموت الناس، ويتركه بعدَه وعنده ابنته، وله منها ابنان يجريان عندَه مَجْرَى ابنيْن من ظَهْره حُنوًّا عليهما، ومحبّة لهما، ويعدل عنه في الأمر بعده، ولا ينصّ عليه ولا يستخلفه، فيحقِنُ دمه ودم بنية وأهله باستخلافه! ألا يعلمُ هذا العاقل الكامل، أنّه إذا تركه وترك بنيه وأهلَه سُوقَةً ورعيّة، فقد عرّض دماءهم للإراقة بعده، بل يكونُ هو عليه السلام هو الذي قتله، وأشاط بدمائهم؛ لأنّهم لا يعتصمون بعده بأمر يحميهم، وإنّما يكونون مضغةً للآكل، وفريسةً للمفترِس، يتخطّفهم الناس، وتبلُغ فيهم الأغراض!

فأمّا إذا جَعَل السلطان فيهم، والأمر إليهم، فإنّه يكون قد عَصَمهم وحَقَن دماءهم بالرّياسة التي يَصُولون بها، ويرتدع النّاس عنهم لأجلها. ومثل هذا معلوم بالتجربة. ألا ترى أن ملِك بغداد أو غيرها من البلاد لو قَتَل النّاس ووتَرَهم، وأبقَى في نفوسهم الأحقاد العظيمة عليه، ثم أهمل أمر ولده وذرّيته من بعده، وفَسَح للنّاس أن يقيموا مَلِكاً من عُرْضِهم، وواحداً منهم، وجعل بنيه سوقَةً كبعض العامّة، لكان بنوه بعده قليلاً بقاؤهم، سريعاً هلاكهم، ولَوثَب عليهم الناس ذوو الأحقاد والتّرات من كلّ جهة، يقتلونهم ويشرّدونهم كلّ مشرَّد ولو أنه عَيّن ولداً من أولاده للملك، وقام خواصّه وخدمه وخَوَلُه بأمره بعده، لحُقنت دماء أهل بيْته، ولم تطلْ يد أحد من الناس إليهم لناموس الملك، وأبّهة السلطنة، وقوة الرياسة، وحرمة الإمارة!

أفترى ذهب عَنْ رسول الله صلى الله عليه وآله هذا المعنى، أم أحبّ أن يُستأصل أهله وذرّيته من بعده! وأين موضعُ الشَّفَقة على فاطمة العزيزة عنده، الحبيبة إلى قلبه!

أتقول: إنّه أحبّ أن يجعلها كواحدةٍ من فقراء المدينة، تتكفّفُ الناس، وأن يجعل عليًّا، المكرّم المعظَّم عنده، الذي كانت حاله معه معلومةً، كأبي هريرة الدَّوْسِيّ وأنس بن مالك الأنصاريّ، يحكّم الأمراء في دمه وعرْضِه ونفسه وولده، فلا يستطيع الامتناع، وعلى رأسه مائة ألف سيف مسلول، تتلظّى أكباد أصحابها عليه، ويودُّون أن يشربُوا دمه بأفواههم، ويأكلوا لحمه بأسنانهم، قد قتل أبناءَهم وإخوانهم وآباءهم وأعمامَهم، والعهدُ لم يطُلْ، والقروح لم تتقرّف، والجروح لم تندمل!

فقلت له: لقد أحسنتَ فيما قلت، إلاّ أن لفظه عليه السلام يدلّ على أنه لم يكن نصّ عليه، ألا تراه يقول: «ونحنُ الأعلَون نسباً، والأشَدُّون بالرسول نَوْطاً»، فجعل الاحتجاج بالنَّسَب وشدّة القرْب، فلو كان عليه نصّ، لقال عِوَض ذلك: «وأنا المنصوص عليّ، المخطوب باسمي».

فقال رحمه الله: إنما أتاه من حيثُ يعلم، لا من حيث يجهل، ألاَ ترى أنه سأله، فقال: كيف دفعكم قومكم عن هذا المقام، وأنتم أحقّ به؟ فهو إنما سأل عن دفعهم عنه، وهم أحقّ به من جهة اللُّحمة والعِتْرة، ولم يكن الأسديُّ يتصوّر النّصّ ولا يعتقده، ولا يخطر بباله؛ لأنّه لو كان هذا في نفسه، لقال له: لم دَفَعك النّاس عن هذا المقام، وقد نصّ عليك رسول الله صلى الله عليه وآله؟ ولم يَقُل له هذا، وإنما قال كلاماً عامًّا لبني هاشم كافّة: كيف دفعكم قومُكم عن هذا وأنتم أحقّ به! أي باعتبار الهاشميّة والقربَى. فأجابه بجوابٍ أعاد قبله المعنى الذي تعلق به الأسديّ بعينه، تمهيداً للجواب، فقال: إنّما فعلوا ذلك مع أنّا أقربُ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله من غيرنا لأنّهم استأثروا علينا ولو قال له: أنا المنصوص عليّ، والمخطوب باسمِي في حياة رسول الله صلى الله عليه وآله، لما كان قد أجابه؛ لأنه ما سأله: هل أنت منصوص عليك أم لا؟ ولا هل نصّ رسول الله صلى الله عليه وآله بالخلافة على أحد أم لا؟ وإنّما قال: لم دَفَعكم قومُكم عن الأمر وأنتم أقرب إلى ينبوعه ومعدنه منهم؟ فأجابه جواباً ينطبق على السؤل ويلائمه أيضاً، فلو أخذ يصرّح له بالنصّ، ويعرّفه تفاصيل باطن الأمر لنفَر عنه، واتّهمه ولم يقبل قوله، ولم ينجذب إلى تصديقه، فكان أولى الأمور في حكم السياسة وتدبير الناس، أن يجيب بما لا نُفْرة منه، ولا مطعن عليه فيه.

---

١٦٤ - ومن خطبة له عليه السلام في ذكر الخالق عزَّ وجلّ

الأصل: الحَمْدُ لله خالِقِ الْعِبَادِ، وَسَاطِحِ الْمِهادِ، وَمُسِيلِ الْوِهادِ، مُخْصِبِ النِّجادِ، لَيْسَ لِأَوَّلِيَّتِهِ ابْتِداءٌ، وَلاَ لِأَزَلِيَّتِهِ انْقِضاءٌ، هُوَ الأوَّلُ وَلَمْ يَزَل، والْبَاقي بِلاَ أَجَل، خَرَّتْ

لَهُ الْجِبَاهُ، وَوَحَّدَتْهُ الشِّفَاهُ. حَدَّ الأشياءَ عِنْدَ خَلْقِهِ لَهَا إبانَةً لَهُ مِنْ شَبَهِها، لاَ تُقَدِّرُهُ الأوْهامُ بِالحدودِ وَالحَرَكَاتِ، وَلاَ بِالجَوَارِحِ وَالأدوَاتِ، لاَ يُقالُ لَهُ: «مَتَى»؟ وَلاَ يُضرَبُ لَهُ أَمَدٌ بـ «حتَّى»، الظَّاهِرُ لاَ يُقالُ: «ممَّ»؟ وَالْبَاطِنُ لاَ يُقالُ: «فيمَ»؟

لاَ شَبَحٌ فَيُتَقَصَّى، وَلا مَحْجُوبٌ فَيُحْوَى لَمْ يَقْرُبْ مِنَ الأشْياءِ بِالْتِصاقٍ، وَلَمْ يَبْعُد عَنهَا بِافْتِرَاقٍ، وَلاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ عِبَادِهِ شُخُوصُ لَحْظَةٍ، وَلاَ كُرُورُ لَفْظَةٍ، وَلاَ ازْدِلاَفُ رَبْوَةٍ، وَلاَ انْبِساطُ خُطوَةٍ. فِي لَيْلٍ دَاجٍ، وَلاَ غَسَقٍ سَاجٍ، يَتَفَيَّأُ عَلَيْهِ الْقَمَرُ المُنِيرُ، وَتَعقُّبُهُ الشَّمْسُ ذَاتُ النُّورِ فِي الأفُولِ وَالْكُرُورِ، وَتَقْلِيبِ الأزْمِنَةِ وَالدُّهُورِ، مِنْ إِقْبَالِ لَيْلٍ مُقْبِلٍ، وَإِدْبَارِ نَهارٍ مُدْبِرٍ.

قَبْلَ كُلِّ غَايَةٍ وَمُدَّة، وَكُلِّ إِحْصَاءٍ وَعِدَّةٍ، تَعَالى عَمَّا يَنْحَلُهُ المُحَدِّدُونَ مِنْ صِفَاتِ الأقْدَارِ، وَنِهاياتِ الأقْطارِ، وَتَأَثُّلِ المَساكِنِ، وتَمكُّنِ الأماكِنِ. فَالحَدُّ لِخَلْقِهِ مَضْرُوبٌ، وإلى غَيْرِهِ مَنْسُوبٌ.

لَمْ يَخْلُقِ الأشياءَ مِنْ أُصُولٍ أَزَلِيَّةٍ، وَلاَ مِنْ أوَائِلَ أبَدِيَّةٍ، بَلْ خَلَقَ ما خلقَ فأقامَ حَدَّهُ، وَصَوَّرَ فَأحْسَنَ صُورَتَهُ.

لَيْسَ لِشَيءٍ مِنْهُ امْتِناعٌ، وَلاَ لَهُ بِطَاعَةِ شَيْءٍ انْتِفَاعٌ، عِلمُهُ بِالأَمْوَاتِ المَاضِين كَعِلْمِهِ بِالأحْياءِ الْبَاقِينَ، وَعِلْمُهُ بِمَا فِي السَّمَوَاتِ الْعُلاَ، كَعِلْمِهِ بِمَا فِي الأرَضِينَ السُّفْلَى.

الشرح: المهاد هنا: هو الأرض، وأصله الفراش: وساطحه باسطه، ومنه تسطيح القبور خلاف تَسْنيمها، ومنه أيضاً المِسْطَح، للموضع الذي يبسَط فيه التَّمر ليجفّف.

والوِهاد: جمع وَهْدة، وهي المكان المطمئن. ومسيلها: مجرى السَيْل فيها. والنّجاد: جمع نَجْد، وهو ما ارتفع من الأرض. ومخصبها: مروّضها رجاعلها ذوات خِصْب.

واعلم أنّه عليه السلام أوردَ في هذه الخطبة ضروباً من علم التوحيد، وكلها مبنيّة على ثلاثة أصول:

الأصل الأول: أنه تعالى واجب الوجود لذاته، ويتفرّع على هذا الأصل فروع:

أولها: أنه ليس لأوّليّته ابتداء؛ لأنه لو كان لأوّليته ابتداء لكان محدَثاً، ولا شيء من المحدَث بواجب الوجود؛ لأن معنى واجب الوجود، أنّ ذاته لا تقبل العَدَم، ويستحيل الجمع بين قولنا: هذه الذات محدَثة، أي كانت معدومة من قبل، وهي في حقيقتها لا تقبل العدَم.

وثانيها: أنّه ليس لأزليّته انقضاء؛ لأنه لو صحّ عليه العَدَمُ لكان لعدَمه سبب، فكان وجوده موقوفاً على انتفاء سبب عدمه، والمتوقِّف على غيره، يكون ممكنَ الذات، فلا يكون واجبَ الوجود. وقوله عليه السلام: «هو الأوّل لم يزلْ، والباقي بلا أجَل» تكرار لهذين المعنين السابقيْن على سبيل التأكيد، ويدخل فيه أيضاً قوله: «لا يقال له مَتَى، ولا يضرب له أمد بحتَّى»؛ لأن «متى» للزمان وواجب الوجود يرتفع عن الزمان، و«حتى» للغاية وواجب الوجود لا غاية له. ويدخل أيضاً فيه قوله: «قبل كلّ غاية ومدّة، وكلّ إحصاء وعدّة».

وثالثها: أنه لا يشبهُ الأشياء البتّة؛ لأنّ ما عاده إمّا جسم أو عَرَض أو مجرّد، فلو أشبهَ الجِسْم أو العرض لكان إما جسماً أو عرضاً، ضرورة تساوي المتشابهين المتماثلين في حقائقهما. ولو شابَهِ غيرَه من المجرّدات - مع أنّ كل مجرد غير مُمْكِن - لكان ممكناً، وليس واجب الوجود بممكن، فيدخل في هذا المعنى قوله عليه السلام: «حَدّ الأشياء عند خَلْقِهِ لها، إبانةً لَهُ من شبهها»، أي جعل المخلوقاتِ ذوات حدود ليتميّز هو سبحانه عنها، إذ لا حدّ له، فبطل أن يشبِهه شيء منها. ودخل فيه قوله عليه السلام: «لا تقدّره الأوهام بالحدود والحركات، ولا بالجوارح». والأدوات: جمع أداة وهي ما يعتمَد به، ودخل فيه قوله: «الظّاهر فلا يقال: مم»؟ أيْ لا يقال: من أيّ شيء ظَهَر، «والباطن فلا يقال: فيم»، أي لا يقال فيما ذا بطن؟ ويدخل فيه قوله: «لا شَبحٌ فيتقصّى» والشّبح: الشخص ويُتقصى يطلب أقصاه. ويدخل فيه قوله: «ولا محجوب فيحوَى» وقوله: «لم يقرب من الأشياء بالتصاق، ولم يبعد عنها بافتراق»؛ لأنّ هذه الأمور كلّها من خصائص الأجسام وواجب الوجود لا يشبه الأجسام ولا يماثلها. ويدخل فيه قوله عليه السلام: «تعالى عما ينحَلُه المحدّدون من صفات الأقدار»، أي مما ينسبه إليه المشبهة والمجسّمة من صفات المقادير، وذوات المقادير.

ونهايات الأقطار، أي الجوانب. وتأثّلَ المساكن، مجدٌ مؤثّل، أي أصيل، وبيت مؤثّل، أي: معمور، وكأنّ أصلَ الكلمة أن تبنى الدار بالأثْل، وهو شجر معروف. وتمكّن الأماكن: ثبوتها واستقرارها. وقوله: «فالحدّ لخلقه مضروب، وإلى غيره منسوب»، وقوله: «ولا له بطاعة شيء انتفاع»؛ لأنه ينتفع الجسم الذي يصحّ عليه الشهوة والنّفرة، كلُّ هذا داخل تحت هذا الوجه.

الأصل الثاني: أنّه تعالى عالم لذاته، فيعلم كلَّ معلوم، ويدخل تحت هذا الأصل قوله عليه السلام: «لا تخفَى عليه من عبادِه شخوص لحظة»، أن تسكن العين فلا تتحرّك. ولا «كرور لفظة»، أي رجوعها. «ولا ازدلاف ربوة»، صعود إنسان أو حيوان ربوة من الأرض، وهي الموضع المرتفع «ولا انبساط خطوة. في ليل داج» أي مظلم. «ولا غسق ساج»، أي: ساكن.

ثم قال: «يتفيّأ عليه القمر المنير»، هذا من صفات الغسق، ومن تتمّة نعته، ومعنى: «يتفيّأ عليه» يتقلّب ذاهباً وجائياً في حَالتَيْ أخذه في الضوء إلى التبدّر، وأخذه في النقص إلى المحاق.

وقوله: «وتعقّبه»، أي وتتعقّبه، فحذف إحدى التاءين، كما قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾(١)، أي «تتوفّاهم»، والهاء في «وَتَعَقُّبُهُ» تَرجع إلى القمر، أي وتسير الشمس عقِبه في كروره. وأفوله، أي غيبوبته، وفي تقلب الأزمنة والدهور، من إقبال ليلٍ وإدبار نهار.

فإن قلت: إذا كان قوله: «يتفيّأ عليه القمر المنير» في موضع جَرّ؛ لأنه صفة «غسق»، فكيف تتعقّب الشمس القمر مع وجود الغسق؟ وهل يمكن اجتماع الشمس والغسق؟

قلت: لا يلزم من تعقّب الشمس للقمر ثبوتُ الغسق، بل قد يصدق تعقّبها له ويكون الغسق معدوماً، كأنه عليه السلام قال: «لا يخفي على الله حركةٌ في نهار ولا ليل، يتفيّأ عليه القمر، وتعقبه الشمس»، أي تظهر عقيبه، فيزول الغسق بظهورها.

وهذا التفسير الذي فسرناه يقتضي أن يكون حرف الجر وهو «في» التي في قوله: «في الكرور» متعلقاً بمحذوف، ويكون موضعه نصباً على الحال، أي وتعقبه كارًّا وآفلاً. ويدخل تحته أيضاً قوله عليه السلام: «علمه بالأموات الماضين، كعلمه بالأحياء الباقين، وعلمه بما في السموات العلا، كعلمه بما في الأرضين السُفْلى».

الأصل الثالث: أنّه تعالى قادر لذاته، فكان قادراً على كلّ الممكنات، ويدخل تحته قوله: «لم يخلق الأشياء من أصول أزليّة، ولا من أوائل أبدية، بل خلق ما خلق فأقام حدّه، وصوَّر ما صوّر فأحسن صورته»، والردّ في هذا على أصحاب الهيولى والطينة التي يزعمون قدَمها. ويدخل تحته قوله: «ليس لشيء امتناع»؛ لأنه متى أراد إيجادَ شيء أوجدَه، ويدخل تحته قوله: خرّت له نحباه»، أي سجدت. و«وحّدته الشفاه»، يعني الأفواه، فعبر بالجزء عن الكلّ مجازاً، وذلك لأنّ القادر لذاته هو المستحق للعبادة لخلقه أصول النِّعم. كالحياة والقدرة والشهوة.

واعلم أنّ هذا الفنّ هو الذي بان به أمير المؤمنين عليه السلام عن العرب في زمانه قاطبة واستحق به التقدّم والفَضْل عليهم أجمعين، وذلك لأنّ الخاصّة التي يتميّز بها الإنسان عن البهائم هي العقل والعلم، ألا ترى أنّه يشاركه غيره من الحيوانات في اللّحميّة والدمويّة والقوّة والقدرة، والحركة الكائنة على سبيل الإرادة والاختيار، فليس الامتياز إلاّ بالقوّة الناطقة، أي العاقلة

(١) سورة النحل، الآية: ٢٨.

العالمة، فكلّما كان الإنسانُ أكثر حظًّا منها، كانت إنسانيّتُه أتمّ، ومعلوم أن هذا الرجل انفرد بهذا الفن، وهو أشرفُ العلوم؛ لأنّ معلومَه أشرف المعلومات، ولم يُنْقَل عن أحدٍ من العرب غيره في هذا الفنّ حرف واحد، ولا كانت أذهانهم تَصِلُ إلى هذا، ولا يفهمونه بهذا الفنّ فَهُو منْفرد فيه، وبغيره من الفنون - وهي العلوم الشرعية - مشارك لهم، وراجحٌ عليهم، فكان أكملَ منهم؛ لأنا قد بيّنا أنّ الأعلم أدخل في صورة الإنسانية، وهذا هو معنى الأفضليّة.

الأصل: منها: أَيُّهَا الْمَخْلُوقُ السَّوِيُّ، وَالْمُنْشَأُ الْمَرْعِيُّ، فِي ظُلُمَاتِ ٱلْأَرْحَامِ، وَمُضَاعَفَاتِ ٱلْأَسْتَارِ. بُدِئْتَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ، وَوُضِعْتَ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ، إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ، وَأَجَلٍ مَقْسُومٍ، تَمُورُ فِي بَطْنِ أُمِّكَ جَنِيناً لا تُحِيرُ دُعَاءً، وَلاَ تَسْمَعُ نِدَاءً. ثُمَّ أُخْرِجْتَ مِنْ مَقَرِّكَ إِلَى دَارٍ لَمْ تَشْهَدْهَا، وَلَمْ تَعْرِفْ سُبُلَ مَنَافِعِهَا، فَمَنْ هَدَاكَ لاجْتِرَارِ ٱلْغِذَاءِ مِنْ ثَدْيِ أُمِّكَ، وَعَرَّفَكَ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ مَوَاضِعَ طَلَبِكَ وَإِرَادَتِكَ!

هَيْهَاتَ إِنَّ مَنْ يَعْجِزُ عَنْ صِفَاتِ ذِي ٱلْهَيْئَةِ وَٱلْأَدَوَاتِ، فَهُوَ عَنْ صِفَاتِ خَالِقِهِ أَعْجَزُ، وَمِنْ تَنَاوُلِهِ بِحُدُودِ الْمَخْلُوقِينَ أَبْعَدُ.

الشرح: السّويّ: المستوي الخلقة غير ناقص، قال سبحانه: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾(١).

والمُنشَأ، مفعول من «أنشأ» أي خُلِق وأوجِد. والمرعيّ: المحوط المحفوظ. وظلمات الأرحام، ومضاعفات الأستار: مستقرّ النُّطَف، والرَّحِم موضوعة فيما بين المثانة والمِعَي المستقيم، وهي مربوطة برباطات على هيئة السّلسلة، وجسمها عصبيّ، ليمكِن امتدادها واتّساعُها وقتَ الحاجة إلى ذلك عند الولادة، وتنضمّ وتتقلّص إذا استُغْنِي عن ذلك، ولها بطنان ينتهيان إلى فم واحد، وزائدتان يسمّيان قرنَي الرحم، وخَلْفَ هاتيْن الزائدتين بيضَتا المرأة، وهما أصغر من بيضتِي الرّجُل، وأشدّ تفرطُحاً، ومنهما ينصبّ مَنِيُّ المرأة إلى تجويف الرَّحِم، وللرّحِم رَقَبَةٌ منتهية إلى فَرْج المرأة، وتلك الرّقبة من المرأة بمنزلة الذّكر من الرجل، فإذا امتزج مَنِيُّ الرجل بمنِي المرأة في تجويف الرّحم كان العلوق، ثم ينمِي ويزيد من دم الطَّمْث، ويتصّل بالجنين عروق تأتي إلى الرَّحِم فتغذوه، حتى يتمّ ويكمُل، فإذا تَمّ لم يكْتَف بما تحته من تلك العروق فيتحرّك حركاتٍ قويّة، طلَباً للغذاء، فتنهتك أربطة الرَّحِم التي قلنا إنّها على هيئة السلسلة، وتكونُ منها الولادة.

---

(١) سورة مريم، الآية: ١٧.

قوله: «بُدِئت من سُلاَلة من طين»، أي كان ابتداء خلْقك من سلالة، وهي خلاصة الطين؛ لأنها سُلَّت من بيْن الكَدَر، و«فُعَالة» بناء للقِلّة، كالقُلامة والقُمامة. وقال الحسن: هي ما بين ظَهْرَانِيَ الطِّين.

ثم قال: «ووضعتَ في قرار مكين»، الكلام الأوّل لآدم الذي هو أصلُ البشر، والثاني لذرّيّته، والقرار المكين: الرَّحِم متمكّنة في موضعها برباطاتها؛ لأنّها لو كانت متحرّكة لتعذّر العُلُوق.

ثم قال: «إلى قَدَر معلوم، وأجَلٍ مقسوم»، إلى: متعلّقة بمحذوف، كأنّه قال: «منتهياً إلى قَدَرٍ معلوم»، أي مقدَّراً طوله وشكله إلى أجلٍ مقسوم مدّة حياته.

ثم قال: «تمور في بطْنِ أمّك»، أي تتحرّك. لا تُحير، أي لا ترجع جواباً، أحار يُحير.

إلى دار لم تشهدها، يعني الدنيا، ويقال: أشبه شيء بحال الانتقال من الدنيا إلى الأحوال التي بعد الموت، انتقالُ الجنين من ظلمة الرَّحِم إلى فضاء الدنيا، فلو كان الجنين يعقل ويتصوّر كان يظنّ أنّه لا دار له إلا الدّار التي هو فيها، ولايشعر بما وراءها، ولا يحسّ بنفسه إلاّ وقد حَصَل في دارٍ لم يعرفْها، ولا تخطِرُ بباله، فبقيَ هو كالحائر المبهوت، وهكذا حالنا في الدنيا إذا شاهدنا ما بعد الموت.

ولقد أحسن ابن الروميّ في صفة خطوب الدنيا وصروفها بقوله:

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا ... يكونُ بكاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يولَدُ
وإلاّ فما يُبكيه منها وإنَّهَا ... لأوْسَعُ مِمَّا كانَ فيه وأرْغَدُ!
إذا أبْصَرَ الدنيا استهلَّ كأنّه ... بما سوفَ يلقَى من أذاها يهدّدُ

قال: «فمَنْ هداك إلى اجترارِ الغِذَاء من ثديِ أمّك؟»، اجترار: امتصاص اللبن من الثّدي، وذلك بالإلهام الإلهيّ.

قال: «وعرّفك عند الحاجة»، أي أعلمك بموضع الحَلَمة عند طلبك الرّضاع فالتقمتَها بفمِك.

ثم قال: «هيهات»، أي بَعُد أن يحيط علماً بالخالق مَنْ عجز عن معرفة المخلوق! قال الشاعر:

رَأَيْتُ ٱلْوَرَى يَدَّعُونَ ٱلْهُدَى ... وَكَمْ يَدَّعِي الحق خَلْقٌ كَثِيرْ
وما فِي البرايا امرُؤٌ عندَهُ ... من العلم بالحقّ إلا اليسيرْ
خَفِيٌّ فما نالَه ناظرٌ ... وما إن أشار إليهِ مشيرْ
ولا شيءَ أظهرُ من ذاته ... وكيف يرى الشَّمْسَ أعمَى ضريرْ!

١٦٥ - ومن كلام له عليه السلام لعثمان بن عفان قالوا: لما اجتمع الناس إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وشكوا إليه ما نقموه على عثمان، وسالوه مخاطبته واستعتابه لهم، فدخل عليه السلام على عثمان، فقال

الأصل: إِنَّ النَّاسَ وَرَائِي وَقَدِ ٱسْتَسْفَرُونِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُمْ، وَوَٱللهِ مَا أَدْرِي مَا أَقُولُ لَكَ! مَا أَعْرِفُ شَيْئاً تَجْهَلُهُ، وَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَمْرٍ لاَ تَعْرِفُهُ!

إِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نَعْلَمُ، مَاسَبَقْنَاكَ إِلَى شَيْءٍ فَنُخْبِرَكَ عَنْهُ، وَلاَ خَلَوْنَا بِشَيْءٍ فَنُبَلِّغَكَهُ، وَقَدْ رَأَيْتَ كَمَا رَأَيْنَا، وَسَمِعْتَ كَمَا سَمِعْنَا، وَصَحِبْتَ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم كَمَا صَحِبْنَا. وَمَا ٱبْنُ أَبِي قُحَافَةَ وَلاَ ٱبْنُ ٱلْخَطَّابِ بِأَوْلَى بِعَمَلِ الخيرِ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَقْرَبُ إِلَى رَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشِيجَةَ رَحِمٍ مِنْهُمَا، وَقَدْ نِلْتَ مِنْ صِهْرِهِ مَا لَمْ يَنَالاَ، فَاللهَ ٱللهَ فِي نَفْسِكَ، فَإِنَّكَ وَٱللهِ مَا تُبَصَّرُ مِنْ عَمًى، وَلاَ تُعَلَّمُ مِنْ جَهْلٍ، وَإِنَّ الطُّرُقَ لَوَاضِحَةٌ، وَإِنَّ أَعْلاَمَ الدِّينِ لَقَائِمَةٌ.

فَاعْلَمْ أَنَّ أَفْضَلَ عِبَادِ ٱللهِ عِنْدَ ٱللهِ إِمَامٌ عَادِلٌ، هُدِيَ وَهَدَى، فَأَقَامَ سُنَّةً مَعْلُومَةً، وَأَمَاتَ بِدْعَةً مَجْهُولَةً، وَإِنَّ السُّنَنَ لنيرة لَهَا أَعلاَمٌ، وَإِنَّ ٱلْبِدَعَ لَظَاهِرَةٌ لَهَا أَعْلاَمٌ، وَإِنَّ شَرَّ النَّاسِ عِنْدَ ٱللهِ إِمَامٌ جَائِرٌ ضَلَّ وَضُلَّ بِهِ، فَأَمَاتَ سُنَّةً مَأْخُوذَةً، وَأَحْيَا بِدْعَةً مَتْرُوكَةً! وَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم يَقُولُ: يُؤْتَى يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ بِالْإِمَامِ ٱلْجَائِرِ، وَلَيْسَ مَعَهُ نَصِيرٌ وَلاَ عَاذِرٌ، فَيُلْقَى فِي نَارِ جَهَنَّمَ، فَيَدُورُ فِيهَا كَمَا تَدُورُ الرَّحَى، ثُمَّ يَرْتَبِطُ فِي قَعْرِهَا.

وَإِنِّي أَنْشُدُكَ ٱللهَ أَنْ تَكُونَ إِمَامَ هَذِهِ ٱلْأُمَّةِ المَقْتُولَ! فَإِنَّهُ كَانَ يُقَالُ: يُقْتَلُ فِي هَذِهِ ٱلْأُمَّةِ إِمَامٌ يَفْتَحُ عَلَيْهَا ٱلْقَتْلَ وَٱلْقِتَالَ إِلَى يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ، وَيَلْبِسُ أُمُورَهَا عَلَيْهَا، وَيَبُثُّ ٱلْفِتَنَ فِيهَا، فَلاَ يُبْصِرُونَ ٱلْحَقَّ مِنَ ٱلْبَاطِلِ، يَمُوجُونَ فِيها مَوْجاً، وَيَمْرُجُونَ فِيها مَرْجاً. فَلاَ تَكُونَنَّ لِمَرْوَان سَيِّقَةً يَسُوقُكَ حَيْثُ شَاءَ بَعْدَ جَلاَلِ السِّنِّ، وَتَقَضِّي ٱلْعُمْرِ.

فقال له عثمان رضي الله عنه: كَلِّمِ النَّاسَ فِي أَنْ يُؤَجِّلُونِي، حَتَّى أَخْرُجَ إِلَيْهِمْ مِنْ مَظَالِمِهِمْ.

فقال عليه السلام: مَا كَانَ بِالْمَدِينَةِ فَلاَ أَجَلَ فِيهِ، وَما غَابَ فَأَجَلُهُ وُصُولُ أَمْرِكَ إِلَيْهِ.

الشرح: نقَمت على زيد، بالفتح، أنقَم فأنا ناقم، إذا عتبتَ عليه. وقال الكِسائيّ: نقِمت بالكسر أيضاً، أنقَم لغة، وهذه اللفظة تجيء لازمة ومتعدّية، قالوا: نقَمت الأمْرَ أي كرهته.

واستعتبتُ فلاناً، طلبت منه العُتْبى وهي الرّضا، واستعتابُهم عثمان: طلبُهم منه ما يرضيهم عنه. واستسفروني: جعلوني سفيراً ووسيطاً بينك وبينهم.

ثم قال له وأقسم على ذلك: إنّه لا يعلم ماذا يقول له؛ لأنّه لا يعرِف أمراً يجهله، أي من هذه الأحداث خاصة. وهذا حقّ؛ لأنّ علياً عليه السلام لم يكن يعلم منها ما يجهله عثمان، بل كان أحداث الصبيان فضلاً عن العقلاء المميّزين، يعلمون وجهَي الصواب والخطأ فيها.

ثم شرع معه في مسْلَك الملاطفة والقول اللّين، فقال: ما سبقنا إلى الصّحْبة، ولا انفردنا بالرَّسُول دونك، وأنت مثلنا ونحن مثلك.

ثم خرج إلى ذكر الشيْخَيْن، فقال قولاً معناه أنّهما ليسا خيراً منك، فإنّك مخصوص دونهما بقرْب النسب، يعني المنافيّة وبالصهر، وهذا كلام هو موضع المثل: «يُسِرُّ حَسْواً في ارتغاء»، ومراده تفضيل نفسه عليه السلام عليهما؛ لأنّ العلّة التي باعتبارها فضَل عثمان عليهما محققةٌ وزيادة؛ لأنّ له مع المنافيَّة الهاشميّة، فهو أقرب.

والوشيجة: عروقُ الشّجرة. ثم حذّره جانب الله تعالى ونبّهه على أن الطريق واضحة، وأعلام الهدى قائمة، وأنّ الإمام العادل أفضلُ الناس عند الله، وأنّ الإمام الجائر شرّ الناس عند الله. ثم روى له الخبر المذكور، وروى: «ثم يرتبك في قعرها»، أي ينشَب.

وخوّفه أن يكون الإمامَ المقتول الذي يفتح الفِتن بقتله، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله قال كلاماً هو هذا، أو يشبه هذا.

ومَرَج الدين، أي فسد. والسَّيِّقة: ما استاقه العدوّ من الدوابّ، مثل الوسيقة، قال الشاعر:

فمـا أنـا إلاّ مـثـلُ سَـيِّـقـة الـعِـدَا ... إن استَـقْـدَمَـتْ بـجـرْوٍ إنْ جَـبَـاتْ عَـقْـرُ

والجُلال، بالضم: الجليل، كالطُّوال والطويل، أي بعد السنّ الجليل، أي العمر الطويل.

وقوله: «ما كان بالمدينة فلا أجلَ فيه، وما غاب فأجلُه وصول أمرك إليه»، كلامٌ شريف فصيح؛ لأنّ الحاضر أيّ معنى لتأجيله! والغائب فلا عذر بعد وصول الأمر في تأخيره؛ لأنّ السلطان لا يؤخّر أمره.

وقد ذكرنا من الأحداث التي نُقمت على عثمان فيما تقدّم ما فيه كفاية، وقد ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ رحمه الله في «التاريخ الكبير» هذا الكلام، فقال: إنّ نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله تكاتبوا، فكتب بعضُهم إلى بعض: أن أقدموا، فإنّ الجهاد بالمدينة لا بالروم، واستطال الناس على عثمان، ونالوا منه، وذلك في سنة أربع وثلاثين، ولم يكن أحدٌ من الصحابة يذبّ عنه ولا ينهي، إلاّ نفرٌ، منهم زيد بن ثابت، وأبو أسيد الساعديّ، وكعب بن

مالك، وحسان بن ثابت، فاجتمع الناس، فكلّموا عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وسألوه أن يكلّم عثمان، فدخل عليه، وقال له إنّ الناس. . . ورَوَى الكلام إلى آخره بألفاظه، فقال عثمان: وقد علمت أنّك لتقولنّ ما قلت! أما والله لو كنتَ مكاني ما عنفتُك، ولأعتبت عليك. ولم آت منكراً، إنّما وصلتُ رَحماً، وسددتُ خَلّة، وآويت ضائعاً، وولّيت شبيهاً بمن كان عمر يولّيه، أنشدك الله يا عليّ، ألاّ تعلم أنّ المغيرة بن شعبة ليس هناك! قال: بلى، قال: أفلا تعلم أنّ عمر ولاّه! قال: بلى، قال: فلم تلومني أنْ ولّيت ابنَ عامر في رحِمه وقرابته! فقال عليّ عليه السلام: إنّ عمرَ كان يطأ على صماخ مَنْ يولّيه، ثم يبلغ منه إن أنكر منه أمراً أقصى العقوبة، وأنت فلا تفعل، ضعفت ورققت على أقربائك.

قال عثمان: هَم أقرباؤك أيضاً، فقال عليّ: لعمري إن رحِمهم منّي لقريبة، ولكنّ الفضل في غيرهم.

فقال عثمان: أفلا تعلم أنّ عمر ولّى معاوية! فقد ولّيته. قال عليّ: أنشدُك الله ألاَ تعلم أنّ معاوية كان أخوف لعمر من يَرْفأ غلامه له؟ قال: بلى، قال: فإنّ معاوية يقطع الأمور دونك ويقول للناس: هذا بأمر عثمان، وأنت تعلم ذلك فلا تغيّر عليه!

ثم قام عليّ، فخرج عثمان على أثره، فجلس على المنبر، فخطب الناس، وقال: أما بعد، فإنّ لكلِّ شيء آفة، ولكلّ أمرٍ عاهة، وإن آفة هذه الأمّة، وعاهة هذه النّعمة عَيّابون طعّانون يُرُونكم ما تحبُّون، ويُسرُّون عنكم ما تكرهون، يقولون لكم وتَقولون، أمثال النّعام يتبَعُ أوّلَ ناعق، أحبّ مواردها إليها البعيد، لا يشربون إلا نَغصاً، ولا يردُون إلا عِكَراً. أما والله لقد عبْتم عليّ ما أقررتُم لابن الخطاب بمثله، ولكنّه وطئكم برجله، وضربكم بيده، وقَمَعَكُم بلسانه، فدنتم له على ما أحببتم وكرهتم ولِنْت لكم، وأوطأتكم كَتِفي، وكففت يدِي ولساني عنكم، فاجترأتم عليّ. أما والله لأنا أقربُ ناصراً، وأعزّ نفراً، وأكثر عدداً، وأحرى إن قلت: هلمّ أن يُجاب صوتي. ولقد أعددت لكم أقراناً، وكشّرت لكم عن نابي، وأخرجتم مني خُلقاً لم أكنْ أحسنه، ومنطقاً لم أكن أنطق به. فكفّوا عني ألسنَتكم وطعنكم وعَيْبكم عَلَى ولاتكم، فما الذي تفقدون من حقّكم! والله ما قصّرت عن بلوغ مَنْ كان قبلي يبلغ، وما وجدتكم تختلفون عليه، فما بالكم!

فقام مروان بن الحكم، فقال: وإن شئتم حكّمنا بيننا وبينكم السيف.

فقال عثمان: اسكت لا سكتّ! دعني وأصحابي، ما منطقك في هذا! ألم أتقدم إليك ألاّ تنطق! فسكت مروان، ونزل عثمان[1].

(١) أخرجه الطبري في تاريخه: ٣/ ٣٧٨، وأخرجه ابن كثير في البداية والنهاية: ٧/ ١٨٩.

١٦٦ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر فيها عجيب خلقة الطاوس

الأصل: ٱبْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَانٍ وَمَوَاتٍ، وَساكِنٍ وَذِي حَرَكَاتٍ، وَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ ٱلْبَيِّناتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا ٱنْقادَتْ لَهُ ٱلْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسَلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنا دَلاَئِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ، وَما ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ ٱلأَطْيارِ الَّتِي أَسْكَنَها أَخادِيدَ الأَرْضِ، وَخُرُوقَ فِجَاجِها، وَرَوَاسِيَ أَعْلاَمِها، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَةٍ مُخْتَلِفَةٍ، وَهَيْئاتٍ مُتَبايِنَةٍ، مصرَّفَةٍ فِي زِمامِ التَّسْخِيرِ، وَمُرَفْرِفَةٍ بِأَجْنِحَتِها فِي مَخارِقِ ٱلْجَوِّ المُنْفَسِحِ، وَٱلْفَضاءِ المُنْفَرِجِ.

كَوَّنَها بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ، فِي عَجائِبِ صُوَرٍ ظاهِرَةٍ، وَرَكَّبَها في حِقاقِ مَفاصِلَ مُحْتَجِبَةٍ، وَمَنَعَ بَعْضَها بِعَبالَةِ خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِي الهَوَاءِ خُفُوفاً، وَجَعَلَهُ يَدِفُّ دَفِيفاً، وَنَسَقَها عَلَى ٱخْتِلاَفِهَا فِي الأَصَابِيغِ بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ، فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ في قَالَبِ لَوْنٍ لاَ يَشُوبُهُ غَيْرُ لون مَا غُمِسَ فِيهِ، وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلاَفِ مَا صُبِغَ بِهِ.

الشرح: المَوات، بالفتح: ما لا حياة فيه. وأرضٌ موات، أي قَفْر، والساكن هاهنا كالأرض والجبال. وذو الحركات: كالنار والماء الجاري والحيوان.

ونعَقت في أسماعنا دلائله، أي صاحت دلائله، لظهورها كالأصوات المسموعة التي تعلَم يقيناً.

وأخاديد الأرض: شقوقها، جمع أخدُود. وفجاجها: جمع فَجّ، وهو الطريق بين الجبَلين. ورواسي أعلامها: أثقال جبالها. مصرَّفة في زمام التّسخير، أي هي مسخّرة تحت القدرة الإلٰهية.

وحِقاق المفاصل: جمع حُقّ، وهو مجمع المفصِلين من الأعضاء كالركبة، وجعلها محتجبة لأنها مستورة بالجلد واللّحم.

وعَبالَة الحيوان: كثافة جَسده. والخفوف: سرعة الحركة. والدفيف للطائر: طيرانه فُوَيق الأرض، يقال: عُقاب دَفُوف. قال امرؤ القيس يصف فرسه ويشبّهها بالعقاب:

كأني بِفَتْخاء الجناحين لِقْوَةٍ   دفوفٍ من العقبان طاطاتِ شِمْلاَلي

ونسقها: رتبها. والأصابيغ: جمع أصْباغ، وأصباغ جمع صِبْغ.

والمغموس الأوّل: هو ذو اللون الواحد كالأسود والأحمر. والمغموس الثاني: ذو اللونين، نحو أن يكون أحمر وعنقه خضراء.

وروي: «قد طورق لون» أي لون على لون، كما تقول: طارقت بين الثوبين.

فإن قلت: ما هذه الطيور التي يسكن بعضها الأخاديد وبعضها الفِجاج، وبعضها رؤوس الجبال؟

قلت: أمّا الأول فكالقطا والصّدا، والثاني كالقبَج والطّيهوج، والثالث كالصّقر والعُقاب.

الأصل: وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُسُ، الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْسَنِ تَعْدِيل، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ في أَحْسَنِ تَنْضِيدٍ، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ، وَذَنَبٍ أطالَ مَسْحَبَهُ، إِذَا دَرَجَ إِلَى الأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ، وسمَا بِهِ مُطِلاً عَلَى رَأْسِهِ، كأَنَّهُ قَلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ. يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ، وَيَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ. يُفْضِي كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيَؤُرُّ بِمَلاَقِحِهِ أَرَّ الْفُحُولِ المغْتَلِمَةِ للضِّرَابِ. أُحِيلُكَ مِنْ ذَلِكَ عَلَى مُعَايَنَةٍ، لاَ كَمَنْ يُحِيلُ عَلَى ضَعِيفٍ إِسْنَادُهُ وَلَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَةٍ تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَيْ جُفُونِهِ، وَأَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذَلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لاَ مِنْ لِقَاحِ فَحْلٍ سِوَى الدَّمْعِ الْمُنْبَجِسِ، لَمَا كَانَ ذَلِكَ بأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ!

الشرح: الطاوس: فاعول، كالهاضوم، والكابوس، وترخيمُه «طُوَيس»: ونضّد: رتب.

قوله: «أشرج قصبَه»، القصب هاهنا: عروق الجناح. وغضاريفه: عظامه الصغار، وأشرَجها: ركّب بعضها في بعض كما تُشرَج العيبة، أي يداخِلُ بين أشراجها وهي عُراها واحدها، شَرَج، بالتحريك.

ثم ذكر ذَنَب الطاوس، وأنّه طويل المسحَب، وأنّ الطاوس إذا دَرَج إلى الأنثى للسِّفاد نَشَر ذَنَبه من طَيّه، وعَلاَ بِهِ مرتفعاً على رأسه. والقَلْع: شِراع السفينة، وجمعه قِلاع. والدّاريّ: جالب العطر في البحر من دَارِين، وهي فُرْضة بالبحرين، فيها سُوقٌ يحمل إليها المسْك من الهند، وفي الحديث: «الجليس الصالح كالدّارِيّ، إن لم يُحْذِك من عطره علقَك من ريحه»[1]. قال الشاعر:

إذا التّاجر الدّارِيُّ جاء بِفَأْرَةٍ … من المسك رَاحَتْ في مفارقهم تَجْري

والنُّوتي: الملاّح، وجمعه نواتيّ.

وعَنَجه: عَطَفه، وعَنَجْتِ خِطام البعير، رددته على رجْليه، وأعنُجه بالضمّ، والاسم العَنَج، بالتحريك، وفي المثل «عَوْدٌ يُعَلَّم العَنَج» يضرب مثلاً لتعيم الحاذق.

---

(١) أخرجه أحمد، كتاب: مسند الكوفيين، باب: حديث أبي موسى الأشعري (١٩١٢٧) بلفظ: «مثل العطار»، وأخرجه بلفظه: القضاعي في «مسند الشهاب» (٢/ ٢٨٧).

ويختال، من الخُيَلاء وهي العُجْبُ ويميس: يتبختر.

وَزَيفانه: تبختره، زافَ يزيف، ومنه ناقة زيّافة، أي مُختالة، قالَ عنترة:

زَيَّافَةٍ مثل الفنيق المكدَّم

وكذلك ذكر الحمام عند الحمامة إذا جَرّ الذُّنابَي، ودفع مقدّمة بمؤخره واستدار عليها.

ويفضي: يسفِد، والدِّيَكة جمع ديك، كالقِرَطة والجِحَرَة جمع قُرط وجُحْر.

ويؤرّ: يسفِد، والأرّ: الجماع، ورجل آرّ كثير الجماع، ومَلاقحه: أدوات اللقاح وأعضاؤه، وهي آلات التناسل.

قوله: «أرّ الفُحول»، أي أرًا مثل أرّ الفحول ذات الغلْمة والشَّبَق.

ثم ذكر أنه لم يقل ذلك عن إسناد قد يضعّف ويتداخله الطعن، بل قال ذلك عن عيان ومشاهدة.

فإن قلت: من أين للمدينة طواويس؟ وأين العرب وهذا الطائر حتى يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «أحيلك من ذلك على معاينة»، لاسيما وهو يعني السِّفاد، ورؤية ذلك لمن تكثُر الطواويس في داره ويطول مكثُها عنده نادرة!

قلت: لم يشاهد أميرُ المؤمنين عليه السلام الطواويسَ بالمدينة بل بالكوفة، وكانت يومئذٍ تجبَى إليها ثمرات كلِّ شيء، وتأتي إليها هدايا الملوك من الآفاق، ورؤية المسافدة مع وجود الذّكر والأنثى غير مستبعَدة.

واعلم أنّ قوماً زعموا أنّ الذكر تدمع عينه، فتقف الدمعة بين أجفانه، فتأتي الأنثى فتطعمها فتلقَح من تلك الدمعة، وأمير المؤمنين عليه السلام لم يُحِلْ ذلك، ولكنه قال: ليس بأعجب من مطاعمة الغراب، والعرب تزعم أن الغراب لا يسفد، ومن أمثالهم: «أخفى من سِفاد الغراب»، فيزعمون أنّ اللقاح من مطاعمة الذكر والأنثى منهما، وانتقال جزء من الماء الذي في قانصته إليها من منقاره. وأما الحكماء فقلّ أن يصدّقوا بذلك، على أنّهم قد قالوا في كتبهم ما يقرب من هذا، قالوا في السمك البياض: إنّ سفاده خفيٌّ جداً، وإنه لم يظهر ظهوراً يعتدّ به ويحكم بسببه.

هذا لفظ ابن سينا في كتاب «الشفاء» ثم قال: والناس يقولون: إن الإناث تأخذ زرع الذكور في أفواها إلى بطونها، ثم قال: وقد شوهدت الإناث منها تتبع الذكور مبتلعة للزرع، وأما عند الولادة فإنّ الذكور تتبع الإناث مبتلعة بيضها.

قال ابن سينا: والقَبَجة تحبلها ريح تهبّ من ناحية الحَجَل الذكر، ومن سماع صوته.

قال: والنوع المسمّى مالاقيا، تتلاصق بأفواهها، ثم تتشابك، فذاك سِفادها، وسمعت أنّ الغراب يسفد وأنه قد شوهد سِفاده، ويقول الناس: إنّ من شاهد سِفاد الغراب يُثري ولا يموت إلاّ وهو كثير المال موسر.

والضَّفّتان، بفتح الضاد: الجانبان، وهما ضفتا النّهر، وقد جاء ذلك بالكسر أيضاً، والفتح أفصح.

والمنبجس: المنفجر. ويسفحها: يصبها، وروي: «تنشجها مدامعه»، من النّشيج، وهو صوت الماء وغَلَيانه من زِق أو حُق أو قِدْر.

الأصل: تَخَالُ قَصَبَهُ مَدَارِيَ مِنْ فِضَّةٍ، وَمَا أُنْبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ وَشُمُوسِهِ خَالِصَ ٱلْعِقْيَانِ وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ. فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ ٱلأَرْضُ قُلْتَ: جَنِيٌّ جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيعٍ، وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلاَبِسِ فَهُوَ كَمَوْشِيِّ ٱلْحُلَلِ، أَوْ كَمُونِقِ عَصْبِ ٱلْيَمَنِ. وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَانٍ قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ.

يَمْشِي مَشْيَ الْمَرِحِ الْمُخْتَالِ، وَيَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَهُ، فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ، وَأَصَابِيغِ وِشَاحِهِ، فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا مُعْوِلاً بِصَوْتٍ يَكَادُ يُبِينُ عَنِ ٱسْتِغَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ؛ لِأَنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ ٱلْخِلاَسِيَّةِ.

الشرح: قَصَبُه: عظام أجنحته، والمَدارِي جمع مِدْرَي، وهو في الأصل القَرْن، قال النَّابغة يصف الثَّوْر والكلاب:

شَكَّ ٱلْفَرِيصَةَ بالمِدْرَى فأنفذها ... شكَّ المبيطِر إذ يشفى من الْعَضَدِ

وكذلك المِدْرَاة، ويقال المِدْرَى لشيء كالمِسَلّة تصلِحُ بها الماشطة شُعُور النساء، قال الشاعر:

تَهْلِكُ المِدْرَاةُ في أكنافِه ... وإذا ما أرسَلَتْهُ يَعْتَفِرْ

وتمدّرت المرأة، أي سَرّحت شَعْرَها. شبّه عظام أجنحة الطاوس بمدارَى من فضة لبياضها، وشبّه ما أنبت الله عليه من تلك الدّارات والشموس الّتي في الرّيش بخالِصِ العِقْيان، وهو الذّهب.

وَفِلَذ الزَّبرْجَد: جمع فِلْذَة، وهي القطعة. والزَّبَرْجد: هذا الجوهر الذي تسمِّيه الناس البلخش.

ثم قال: إن شبّهتَه بنبات الأرض قلت: إنه قد جُنِيَ من زهرة كلّ ربيع في الأرض، لاختلاف ألوانه وأصباغه.

وإنْ ضاهيتَه بالملابس، المضاهاة: المشاكلة، يُهمز ولا يُهمز، وقرىء: ﴿يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[1]، و﴿يُضَٰهُونَ﴾، وهذا ضَهِيّ هذا، على «فَعِيل»، أي شبيهه.

وموْشِيّ الحُلَل: ما دُبّج بالوشي، وهو الأرقم الملوّن. والعَصْب: بُرود اليمن. والحُلِيّ: جمع حَلْى، وهو ما تلبسه المرأة من الذهب والفضّة، مثل ثُدِيّ وثَدْي، ووزنه «فُعول»، وقد تكسر الحاء لمكان الياء، مثل «عِصِيّ». وقرىء: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾[2] بالضمّ والكسر.

ونطِقَتْ باللّجين، جعلت الفضّة كالنُّطاق لها. والمكَلّل: ذو الإكليل.

وزَقَا: صَوّت، يزقو زَقْواً وزقياً وزُقاء، وكلُّ صائح زاقٍ. والزَّقْية: الصَّيْحة، وهو أثقلُ من الزّواقي، أي الدّيكة؛ لأنهم كانوا يسمُرون، فإذا صاحت الدِّيَكة تفرّقوا.

ومُعوِلاً: صارخاً، أعولت الفرس صوّتت، ومنه العَويل والعَوْلة.

وقوائمه حُمْش: دِقاق، وهو أحمش السّاقَيْن وحَمْش الساقين بالتّسكين، وقد حمِشت قوائمه، أي دَقّت. وتقول العرب للغلام إذا كانت أمّه بيضاء وأبوه عربياً: آدم، فجاء لونه بين لونيهما.

خِلاسيّ، بالكسر والأنثى خِلاسيّة وقال اللّيث: الدِّيَكة الخِلاسيّة، هي المتولّدة من الدجاج الهنديّ والفارسيّ.

يقول عليه السلام: إنّ الطاوس يُزْهَى بنفسه، ويتيه إذا نَظَر في أعطافه، ورأى ألوانَه المختلفة، فإذا نظر إلى ساقَيْه وَجَم لذلك وانكسر نشاطه وزهوه، فصاح صياح العويل لحزنه، وذلك لدِقّة ساقيه ونُتوء عُرقوبَيْه.

الأصل: وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صِيصِيَةٌ خَفِيَّةٌ، وَلَهُ فِي مَوْضِعِ ٱلْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضرَاءُ مُوَشَّاةٌ، وَمَخْرَجُ عَنُقِهِ كَالْإِبْرِيقِ، وَمَغْرِزُها إلى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ ٱلْوَسِمَةِ ٱلْيَمانِيَّةِ، أَوْ كَحَرِيرَةٍ مُلْبَسَةٍ مِرْآةً ذَاتَ صِقَالٍ، وَكأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَرٍ أَسْحَمَ، إلاَّ أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مائِهِ وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ ٱلْخُضرَةَ ٱلنَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ، وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ ٱلْقَلَمِ في لَوْنِ ٱلْأُقْحُوَانِ، أَبْيَضُ يَقَقٌ، فَهُوَ بِبَيَاضِهِ في سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ، وَقَلَّ صِبْغٌ إلاَّ وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ، وَعَلاَهُ

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٤٨.

بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ، وَبَصِيصِ دِيبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ، فَهُوَ كَالأَزَاهِيرِ المَبْثُوثَةِ، لَمْ تُرَبِّها أَمْطارُ رَبِيعٍ، وَلاَ شُمُوسُ قَيْظٍ.

الشرح: نَجَمَتْ: ظهرتْ. والظُّنبوب: حَرْف الساق، وهو هذا العظْم اليابس.

والصِّيصيَة في الأصل: شوكة الحائك التي يسوّي بها السّدَاةَ واللّحمة، ومنه قوله:

كَوَقْعِ الصَّيَاصِي في النَّسِيج المَمدَّدِ

ونقل إلى صِيصَيَة الديك لتلك الهيئة التي في رجله.

والعُرْف: الشعر المرتفع من عُنقه على رأسه. والقُنْزُعة، واحدة القنازع، وهي الشّعر حوالي الرأس، وفي الحديث: «غَطِّي عَنّا قناعَك يا أمّ أيمن»[1].

وموشّاة: ذات وشي.

والوسِمة، بكسر السين: العِظْلِم الّذي يُخْضَب به، ويجوز تسكينُ السّين.

والأسحم: الأسود. والمتلفّع: الملتحف، ويروى: «متقنّع بِمعْجَر»، وهو ما تشدُّه المرأة على رأسها كالرِّدَاء.

والأقحوان: البابونج الأبيض، وجمعه أقاح.

وأبيض يَقَق: خالص البياض، وجاء: «يِقِق» بالكسر. ويأتلق: يلمع.

والبصيص: البريق، وبصّ الشيء: لَمَع.

وتربُّها الأمطار: تربّيها وتجمعها.

يقول عليه السلام: كأنّ هذا الطائرَ ملتحِفٌ بملحفة سوداء، إلاّ أنها لكثرة رونقها يتوهّم أنه قد امتزج بها خضرة ناضرة، وقلّ أن يكون لون إلاّ وقد أخذ هذا الطائر منه بنصيب، فهو كأزاهير الربيع، إلاّ أنّ الأزهار تربّيها الأمطار والشموس، وهذا مستغنٍ عن ذلك.

الأصل: وَقَدْ يَنْحَسِرُ مِنْ رِيشِهِ، وَيَعْرَي مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى، وَيَنْبُتُ تِبَاعاً، فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الأغصانِ، ثُمَّ يَتَلاَحَقُ نَامِياً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ. لاَ يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلاَ يَقَعُ لَوْنٌ في غَيْرِ مَكَانِهِ، وَإِذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ،

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٢٢٤).

أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَتَارَةً خُضرَةً زَبَرْجَدِيَّةً، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عَسْجَدِيَّةً، فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هَذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ، وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَالأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ!

فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلاَّهُ لِلْعُيونِ، فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً، وَأَعْجَزَ الأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأدِيَةِ نَعْتِهِ!

وَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ وَالْهَمَجَةِ إِلَى مَا فَوْقَهما مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ وَالْفِيلَةِ! وَوَأى على نَفْسِهِ الاّ يضْطَرِبَ شَبَحٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إلاّ وَجَعلَ الْحِمامَ مَوْعِدَهُ، وَالْفَناءَ غايَتَهُ.

الشرح: ينحسر من ريشه: ينكشف فيسقط، ويروى: «ينحسِر».

تَتْرى، أي شيئاً بعد شيء وبينهما فترة، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَا﴾(١)، لأنه لم يرسلهم على تراسل، بل بعد فترات، وهذا مما يغلط فيه قومٌ، فيعتقدون أنّ «تَتْرَى» للمواصلة والالتصاق. وأصلها الواو من «الوَتْر» وهو الفرد وفيها لغتان، تنوّن ولا تنوّن، فمن ترك صَرْفها للمعرفة جعل ألفها ألف تأنيث، ومَنْ نوّنها جعل ألفها للإلحاق.

قال عليه السلام: «وينْبت تباعاً» أي لا فترات بينهما، وكذلك حال الريش الساقط، يسقط شيئاً بعد شيء، وينبت جميعاً.

وينحت: يتساقط، وانحتاتُ الورق: تناثرها. ونامياً: زائداً. يقول عليه السلام: إذا عاد ريشه عادَ مكان كلّ ريشة ريشةٌ ملوّنة بلون الريشة الأولى، فلا يتخالف الأوائل والأواخر.

والخضرة الزّبرجديَّة: منسوبة إلى الزمرّد، ولفظة «الزّبرجد» تارة تستعمل له، وتارة لهذا الحجَر الأحمر المسمّى «بلخش». والعسجد: الذهب. وعمائق الفِطَن: البعيدة القَعْر. والقريحة: الخاطر والذهن. وبَهَر: غَلَب، وجلاّه: أظهره، ويروى بالتخفيف. وأدمج القوائم: أحكمها، كالحبل المدمَج الشديد الفَتْل.

والذّرّة: النملة الصغيرة. والهَمَجة، واحدة الهمَج، هو ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الغَنَم والحمر وأعينها.

ووأى: وعد، والوأي: الوعد.

واعلم أنّ الحُكَماء ذكروا في الطاوس أموراً، قالوا: إنّه يعيش خمساً وعشرين سنة، وهي

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٤٤.

أقصى عمره، ويبيض في السنة الثالثة من عمره عندما يتقش لونه، ويتمّ ريشه. ويبيض في السنة مرّة واحدة اثنتيْ عشرة بيضة في ثلاثة أيام، ويحضنها ثلاثين يوماً، فيفرخ ويلقي ريشَه مع سقوط ورق الشجر، وينبته مع ابتداء نبات الورق.

والدجاج قد يحضن بيض الطاوس، وإنّما يختار الدجاج لحضانته، وإن وُجدت الطاوسة؛ لأنّ الطاوس الذّكر يعبث بالأنثى، ويشغلها عن الحضانة، وربّما انفقص البيض من تحتها، ولهذه العلّة يخبأ كثير من الإناث محاضنها عن ذُكرانها، ولا تقوى الدجاجة على أكثر من بيضتَيْ طاوس. وينبغي أن يتعهّد الدّجاجة حينئذ بتقريب العلَف منها.

وقال شيخنا أبو عثمان الجاحظ رحمه الله في كتاب «الحيوان»: إن الطاوسة قد تبيض من الريح، بأن يكونَ في سُفالة الريح وفوقها طاوس ذكر، فيحمل ريحه فتبيض منه، وكذلك القَبَجة.

قال: وبيض الريح قلّ أن يُفرِخ.

الأصل: منها في صفة الجنة: فَلَوْ رَمَيْتَ بِبَصَرِ قَلْبِكَ نَحْوَ مَا يُوصَفُ لَكَ مِنْهَا، لَعَزَفَتْ نَفْسُكَ عَنْ بَدَائِعِ مَا أُخْرِجَ إِلَى ٱلدُّنْيَا مِنْ شَهَوَاتِهَا وَلَذَّاتِهَا وَزَخَارِفِ مَنَاظِرِهَا، وَلَذَهِلَتْ بِالفِكْرِ فِي ٱصْطِفَافِ أَشْجَارٍ غُيِّبَتْ عُرُوقُهَا فِي كُثْبَانِ ٱلْمِسْكِ عَلَى سَوَاحِلِ أَنْهَارِهَا، وَفِي تَعْلِيقِ كَبَائِسِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلرَّطْبِ فِي عَسَالِيجِهَا وَأَفْنَانِهَا، وَطُلُوعِ تِلْكَ الثِّمَارِ مُخْتَلِفَةً فِي غُلُفِ أَكْمَامِهَا، تُجْنَى مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ فَتَأْتِي عَلَى مُنْيَةِ مُجْتَنِيهَا، وَيُطَافُ عَلَى نُزَّالِهَا فِي أَفْنِيَةِ قُصُورِهَا بِالأَعْسَالِ المُصَفَّقَةِ، وَٱلْخُمُورِ المُرَوَّقَةِ.

قَوْمٌ لَمْ تَزَلِ ٱلْكَرَامَةُ تَتَمَادَى بِهِمْ حَتَّى حَلُّوا دَارَ ٱلْقَرَارِ، وَأَمِنُوا نُقْلَةَ ٱلأَسْفارِ، فَلَوْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ أَيُّهَا ٱلْمُسْتَمِعُ بِالْوُصُولِ إِلَى مَا يَهْجُمُ عَلَيْكَ مِنْ تِلْكَ المَنَاظِرِ المُونِقَةِ، لَزَهِقَتْ نَفْسُكَ شَوْقاً إِلَيْهَا، وَلَتَحَمَّلْتَ مِنْ مَجْلِسِي هَذَا إِلَى مُجَاوَرَةِ أَهْلِ ٱلْقُبُورِ ٱسْتِعْجَالاً بِهَا، جَعَلَنَا ٱللهُ وَإِيَّاكُمْ مِمَّنْ يَسْعَى بِقَلْبِهِ إِلَى مَنَازِلِ ٱلأَبْرَارِ بِرَحْمَتِهِ!

قال الرضي رحمه الله تعالى: تفسير بعض ما في هذه الخطبة من الغريب

قَوْلُهُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ: «يؤُرُّ بِمَلاَقِحِهِ» الأَرُّ: كنايَةٌ عن النِّكاحِ، يُقَال: أَرَّ الرَّجُلُ المَرْأَةَ يَؤُرُّهَا، إِذَا نَكَحَهَا.

وَقَوْلُهُ عليه السلام: «كأنهُ قَلْعُ دَارِيٍّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ»، ٱلْقَلْع: شِرَاعُ السفينَةِ. وَدَارِيٌّ: منسوب إِلَى

دَارِين، وهي بلدةٌ عَلَىٰ البحر يُجْلَبُ منها الطِّيبُ. وَعَنَجَهُ، أي عَطَفَهُ، يقال: عَنَجْتُ الناقة، أَعْنُجُهَا عَنْجاً إِذا عَطَفْتَهَا. وَالنُّوتِيُّ: ٱلْمَلاَّحُ.

وقوله عليه السلام: «صَفَّتَيْ جُفُونِهِ»، أراد جَانِبَيْ جُفُونِهِ، وَالصَّفَّتَانِ: ٱلْجَانِبَانِ.

وَقوله: «وَفِلَذ الزَّبَرْجَدِ»، ٱلْفِلَذُ: جمع فِلْذَةٍ وَهيَ ٱلْقِطْعَة.

وقوله عليه السلام: «كَبَائِس ٱللُّؤْلُؤِ الرَّطِبِ» ٱلْكِبَاسَةُ: ٱلْعِذْقُ. وَٱلْعَسَالِيجُ: ٱلْغُصون، وَاحدهَا عُسْلُوجٌ.

الشرح: رميتَ ببصرِ قلبك، أي أفكَرْت وتأمّلت وعَزَفَتْ نفسُك: كرهتْ وزهدت. والزخارف: جمع زُخرف، وهو الذهب وكلّ مموّه.

واصطفاف الأشجار: انتظامها صَفًّا، ويروي: «في اصطفاق أغصان» أي اضطرابها.

ويأتي على مُنْية مجتنيها: لا يترك له مُنْية أصلاً؛ لأنه يكون قد بلغ نهاية الأماني.

والعسل المصفّق: المصفّى تحويلاً من إناء إلى إناء. والمونقة: المعجِبة. وزهقت نفسه: مات.

واعلم أنّه لا مزيد في التشويق إلى الجنّة على ما ذكره الله تعالى في كتابه، فكلّ الصَّيْد في جانب الفرَا.

وقد جاء عن رسول الله ﷺ في ذلك أخبار صحيحة، فروى أسامة بن زيد، قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يذكر الجنّة فقال: «ألا مشترٍ لها! هي وربّ الكعبة ريحانة تهتزّ، ونور يتلألأ، ونهر يطّرد، وزوجة لا تموت، مع حبور ونعيم، ومقام الأبد»(١).

وروى أبو سعيد الخدريّ عنه ﷺ: «إنّ الله سبحانه لما حوّط حائط الجنّة، لبِنَة من ذهب ولبنة من فضّة، وغرس غرسها، قال لها: تكلّمي، فقالت: قد أفلح المؤمنون، فقال: طوبَى لك منزل الملوك!»(٢).

وروى جابر بن عبد الله عنه عليه الصلاة والسلام: «إذا دخل أهلُ الجنّة الجنّة، قال لهم

---

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٤/ ٢٥٢).

(٢) أخرج نحوه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٩٧)، والديلمي في «الفردوس» (٦٦٤)، وأبو نعيم في «الحلية» (٦/ ٢٠٤).

ربُّهم تعالى: أتحبّون أن أزيدكم؟ فيقولون: وهلْ خيرٌ ممّا أعطيتَنا؟ فيقول: نعم، رِضْواني أكبر»[١].

وعنه عليه الصلاة والسلام: «إنّ أحدَهم ليُعطَى قوّة مائة رجل في الأكل والشرب»، فقيل له: فهل يكون منهم حَدَث - أو قال خَبَث؟ قال: «عَرَقٌ يفيض من أعراضهم كريح المسك يضمُر منه البطن»[٢].

وروى الزمخشريّ في «ربيع الأبرار» - ومذهبه في الاعتزال ونصرة أصحابنا معلوم، وكذلك في انحرافه عن الشّيعة وتسخيفه لمقالاتهم - أنّ رسول الله محمداً ﷺ، قال: «لما أسرِيَ بي، أخذني جبرائيل، فأقعدني على دُرْنوكٍ من درانيك الجنّة، ثم ناولني سَفرجلة، فبينا أنا أقلّبها انفلقتْ، فخرجت منها جارية لم أرَ أحسنَ منها، فسلّمت، فقلت: مَنْ أنتِ، قالت: أنا الراضية المرضيّة، خلقني الجبّار من ثلاثة أصناف: أعلاي من عَنْبر، وأوسطي من كافور، وأسفلي من مسك. ثم عجنني بماء الحيوان، وقال لي: كوني كذا، فكنت. خلقني لأخيك وابن عمّك علي بن أبي طالب»[٣].

قلت: الدُّرنوك: ضرب من البُسط ذو خَمَل، ويشبّه به فَرْوة البعير، قال الراجز:

جـعـد الـدَّرَانـيـك رِفَـلُ الأجْـلادْ

١٦٧ - ومن خطبة له عليه السلام في الحث على التآلف

الأصل: لِيَتَأسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ، وَلْيَرْأفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكَمْ، وَلاَ تَكُونُوا كَجُفَاةِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ، لاَ فِي الدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ، وَلاَ عَنْ ٱللهِ يَعْقِلُونَ، كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي أَداحٍ، يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً، وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرًّا.

الشرح: أمرهم عليه السلام أن يتأسّى الصغير منهم بالكبير في أخلاقه وآدابه، فإنّ الكبير لكثرة التّجربة أحزم وأكيس، وأن يرأف الكبير بالصغير. والرأفة: الرحمة؛ لأنّ الصغير مظنّة الضعف والرقة.

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢٧٦)، والطبراني في «الأوسط» (٩٠٢٥).
(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ٣٦٧، وابن أبي شيبة في المصنف: ٨/ ٧٣ رقم ٤١.
(٣) ربيع الأبرار: ١/ ٢٨٦ الباب الثامن، وانظر نزهة المجالس للسفوري: ٢/ ٢١١.

ثم نهاهم عن خُلُق الجاهليّة في الجفاء والقسوة، وقال: إنهم لا يتفقّهون في دين ولا يعقلون عن الله ما يأمرهم به، وهذا من قول الله سبحانه: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾(١).

وروي: «تتفقهون» بتاء الخطاب.

ثم شبّههم ببيض الأفاعي في الأعشاش، يظنّ بيض القطا فلا يحلّ لمن رآه أن يكسِره لأنه يظنّه بيض القطا، وحضانه يُخرِج شرًّا؛ لأنه يفقصُ عن أفعى.

واستعار لفظة «الأداحي» للأعشاش مجازاً؛ لأنّ الأداحي لا تكون إلاّ للنعام تدحوها بأرجلها وتبيض فيها، ودَحْوها: توسيعها، من دَحَوْت الأرض.

والقَيْض: الكسر والفلق، قِضْتُ القارورة والبيضة، وانقاضت هي، وانقاض الجدار انقياضاً، أي تصدّع من غير أن يسقط، فإن سقط قيل: تقيّض تقيُّضاً، وتقوّض تقوضاً، وقوّضته أنا. وتقول للبيضة إذا تكسرتِ فِلَقاً: تقيّضت تقيّضاً، فإنْ تصدّعت ولم تنفلق، قلت: انقاضت، فهي منقاضة، والقارورة مثله.

الأصل: منها: افْتَرَقُوا بَعْدَ أُلْفَتِهِمْ، وَتَشَتَّتُوا عَنْ أَصْلِهِم، فَمِنْهُمْ آخِذٌ بِغُصْنٍ، أَيْنَما مالَ مالَ مَعَهُ، على أَنَّ ٱللهَ تَعَالَى سَيَجْمَعُهُمْ لِشَرِّ يَوْمٍ لِبَنِي أُمَيَّةَ، كَما يَجْتَمِعُ قَزَعُ الخَرِيفِ، يُؤَلِّفُ ٱللهُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْمَعُهُمْ رُكَاماً كَرُكَامِ السَّحابِ، ثُمَّ يَفْتَحُ ٱللهُ لَهُمْ أَبْوَاباً. يَسِيلُونَ مِنْ مُسْتَثَارِهِمْ كَسَيْلِ الجَنَّتَيْنِ، حَيْثُ لَمْ تَسْلَمْ عَلَيْهِ قارَةٌ، وَلَمْ تَثْبُتْ عَلَيْهِ أَكَمَةٌ، وَلَمْ يَرُدَّ سَنَنَهُ رَصُّ طَوْدٍ، وَلاَ حِدَابُ أَرْضٍ، يُذَعْذِعُهُمُ ٱللهُ فِي بُطُونِ أَودِيَتِهِ، ثُمَّ يَسْلُكُهُمْ يَنابِيعَ فِي الأَرْضِ، يَأْخُذُ بِهِمْ مِنْ قَوْمٍ حُقُوقَ قَوْمٍ، وَيُمكِّنُ لِقَوْمٍ فِي دِيارِ قَوْمٍ.

وَأَيْمُ ٱللهِ لَيَذُوبَنَّ ما فِي أَيْدِيهِمْ بَعْدَ العُلُوِّ والتَّمْكِينِ، كما تَذُوبُ الأَلْيَةُ عَلَى النَّارِ.

أَيُّها النَّاسُ، لَوْ لَمْ تَتَخاذَلُوا عَنْ نصرِ الحَقِّ، وَلَمْ تَهِنُوا عَنْ تَوْهِينِ البَاطِلِ، لَمْ يَطْمَعْ فِيكُمْ مَنْ لَيْسَ مِثْلَكُمْ، وَلَمْ يَقْوَ مَنْ قَوِيَ عَلَيْكُمْ، لَكِنَّكُمْ تُهْتُمْ مَتاهَ بَنِي إِسْرائِيلَ.

وَلَعَمْرِي لَيُضَعَّفَنَّ لَكُمُ التِّيهُ مِنْ بَعْدِي أَضْعافاً، بِمَا خَلَّفْتُمُ الحَقَّ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ، وَقَطَعْتُمُ الأَدْنَى، وَوَصَلْتُمُ الأَبْعَدَ.

واعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِنْ اتَّبَعْتُمُ الدَّاعِيَ لَكُمْ، سَلَكَ بِكُمْ مِنْهَاجَ ٱلرَّسُولِ، وَكُفِيتُمْ مئونة ٱلاعْتِسَافِ، وَنَبَذْتُمْ الثِّقْلَ الْفادِحَ عَن الأعناق.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧١.

الشرح: هو عليه السلام: يذكر حال أصحابه وشيعته بعده، فيقول: افترقوا بعد أُلْفَتِهم: أي بعد اجتماعهم.

وتشتّتوا عن أصلهم، أي عنّي بعد مفارقتي، فمنهم آخذ بغصن، أي يكون منهم مَنْ يتمسّك بمن أخلّفه بعدِي من ذريّة الرسول، أينما سلكوا سلكوا معهم، وتقدير الكلام: ومنهم مَنْ لا يكون هذه حاله. لكنّه لم يذكره عليه السلام، اكتفاءً بذكر القسم الأول لأنه دالٌّ على القسم الثاني.

ثم قال: على أنّ هؤلاء القوم: من ثبت منهم على عقيدته فينا ومن لم يثبت، لا بدّ أن يجمعهم الله تعالى لشرّ يوم لبني أميّة، وكذا كان، فإنّ الشيعة الهاشمية اجتمعت على إزالة ملك بني مَرْوان: مَنْ كان منهم ثابتاً على ولاء عليّ بن أبي طالب عليه السلام، ومَنْ حادَ منهم عن ذلك، وذلك في أواخر أيّام مَرْوان، عند ظهور الدّعوة الهاشميّة.

وقَزَع الخريف: جمع قَزَعة، وهي سُحُب صغار تجتمع فتصيرُ ركاماً، وهو ما كَثُف من السّحاب. وركمت الشيء أركُمه، إذا جمعتَه وألقيتَ بعضه على بعض.

ومستثارهم: موضع ثورتهم.

والجنّتان: هما اللتان قال الله تعالى فيهما: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾[1]. وسلّط الله عليهما السيّل، قال الله تعالى: ﴿فَأَعْرَضُواْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾[2]. فشبّه عليه السلام سَيلان الجيوش إلى بني أميّة بالسيل المسلَّط على تَيْنِك الجنّتين.

فإنه لم تسلم عليه قارة، وهي الجبَل الصغير ولم تَثْبُتْ له أكمة، وهي التَّلْعَة من الأرض.

ولم يردّ سَنَنه، أي طريقه. طَوْد مرصوص، أي جَبَل شديد التصاق الأجزاء بعضِها ببعض. ولا حِدَاب أرْض. جمع حَدَبة وهي الرّوابي والنِّجاد.

ثم قال: «يذعذعهم الله، الذَّعذعة بالذال المعجمة مرتين: التّفريق، وذعذعة الشرّ: إذاعته.

ثم يسلكُهم ينابيع في الأرض، من ألفاظ القرآن، والمراد أنه كما أنّ الله تعالى ينزل من السماء ماء فيستكنّ في أعماق الأرض، ثم يظهر منها ينابيع إلى ظاهرها، كذلك هؤلاء القوم، يفرّقهم الله تعالَى في بطون الأودية وغوامض الأغوار، ثم يظهرُهم بعد الاختفاء فيأخذ بهم من قومٍ حقوقَ آخرين، ويمكّن منهم قوماً من ملك قوم وديارهم.

ثم أقسم ليذُوبَنّ ما في أيدِي بني أميّة بعد علوّهم وتمكينهم، كما تذوب الألْيَة على النار، وهمزة «الألْيَة» مفتوحة، وجمعها ألَيات، بالتحريك، والتثنية ألْيَان بغير تاء، قال الراجز:

ترتجّ ألْياهُ ارتجاجَ الْوَطْبِ

(١) سورة سبأ، الآية: ١٥.

(٢) سورة سبأ، الآية: ١٦.

وجمع الألْية ألاء على «فَعال» وكبش آلَي على «أفعَل» ونعجة «أَلياء» والجمع أُلْيٌ على «فُعْل»، ويقال أيضاً: كبش أَلْيَان بالتحريك، وكباش أَلْيَانات، ورجل أَلْيَا، أي عظيم الألْية، وامرأة عجزاء ولا تقل: «أَلْياء» وقد قاله بعضهم. وقد أَلِيَ الرجُل بالكسر يأْلَي: عَظُمتْ أَلْيَتُه.

ثم قال: لولا تخاذلكم لم يطمع فيكم مَنْ هو دونكم.

وتِهِنُوا، مضارع وَهَن، أي ضعف، وهو من ألفاظ القرآن أيضاً.

وتِهْتُم مَتَاه بني إسرائيل: حِرْتم وضَلَلتم الطريق، وقد جاء في المسانيد الصحيحة أنّ رسول الله ﷺ، قال: «لتَرْكبُنّ سَنَنَ مَنْ كان قبلكم حذْوَ النّعل النعل، والقَذّة بالقَذّة، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبّ لدخلتموه»، فقيل: يا رسولَ الله، اليهود والنصارى؟ قال: «فمن إذاً»[1]! ومن الأخبار الصحيحة أيضاً: «أمتهوّكُون أنتم كما تهوّكَت اليهودُ والنّصارى!»[2].

وفي صحيحي البخاريّ ومسلم رحمهما الله أنه سيجاء يوم القيامة بأناسٍ من أمّتي، فيؤخذ بهم ذات الشمال، فإذا رأيتُهم اختلجوا دوني، قلت: أي ربّ، أصحابي! فيقال لي: إنّك لا تدري ما عملوا بعدك؟ فأقول ما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[3]: الإسناد في هذا الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه.

وفي الصحيحين أيضاً، عن زينب بنت جحش قالت: استيقظ رسول الله ﷺ يوماً من نومه محمرًّا وجهه، وهو يقول: «لا إله إلا الله. ويل للعرب من شرٍّ قد اقترب!»، فقلت: يا رسول الله، أنهلِك، وفينا الصالحون! فقال: «نعم، إذا كثر الخبَث»[4].

وفي الصحيحين أيضاً: «يُهلك أمتي هذا الحيُّ من قريش»، قالوا: يا رسول الله، فما تأمرنا؟ قال: «لو أنّ الناس اعتزلوهم»[5]، رواه أبو هريرة عنه ﷺ.

ثم قال عليه السلام: «لَيُضَعَّفَنّ لكم التّيه من بعد». يعني الضلال، يضعّفه لكم الشيطان وأنفسكم

---

(١) أخرج نحوه الحاكم المستدرك (٨٤٤٨)، والبخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: ما ذكر عن نبي إسرائيل (٣٤٥٦)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٦١).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٧٧).

(٣) سورة المائدة، الآية: ١١٧.

(٤) أخرجه البخاري، كتاب: أحاديث الأنبياء، باب: قصة يأجوج ومأجوج (٣٣٤٦)، ومسلم كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: اقتراب الفتن (٢٨٨٠)، والترمذي، كتاب: الفتن، باب: خروج يأجوج ومأجوج (٢١٨٧)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: ما يكون من الفتن (٣٩٥٣).

(٥) أخرجه البخاري في «المناقب» (٣٦٠٤)، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة (٢٩١٧)، وأحمد في «مسنده» (٧٩٤٥).

بما خَلّفتم الحق وراء ظهوركم، أي لأجل ترككم الحق. وقطعكم الأدنى - يعني نفسه. ووصلكم الأبعد، يعني معاوية. ويروي: «إن اتبعتم الراعي لكم»، بالراء.
والاعتساف: سلوك غير الطريق. والفادح: الثقَل، فدحَه الدين: أثقله.

١٦٨ - ومن خطبة له عليه السلام في أول خلافته

الأصل: **إِنَّ ٱللهَ تَعَالَى سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ كِتَاباً هَادِياً بَيَّنَ فِيهِ ٱلْخَيْرَ وَالشَّرَّ، فَخُذُوا نَهْجَ ٱلْخَيْرِ تَهْتَدُوا، وَٱصْدِفُوا عَنْ سَمْتِ الشَّرِّ تَقْصِدُوا.**

ٱلْفَرَائِضَ ٱلْفَرَائِضَ! أَدُّوهَا إِلَى ٱللهِ تُؤَدِّكُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ. إِنَّ ٱللهَ حَرَّمَ حَرَاماً غَيْرَ مَجْهُولٍ، وَأَحَلَّ حَلاَلاً غَيْرَ مَدْخُولٍ، وَفَضَّلَ حُرْمَةَ الْمُسْلِمِ عَلَى ٱلْحُرَمِ كُلِّهَا، وَشَدَّ بِالإِخْلاَصِ وَالتَّوْحِيدِ حُقُوقَ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَاقِدِهَا. فَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ إِلاَّ بِالْحَقِّ، وَلاَ يَحِلُّ أَذَى ٱلْمُسْلِمِ إِلاَّ بِمَا يَجِبُ.

بَادِرُوا أَمْرَ ٱلْعَامَّةِ وَخَاصَّةَ أَحَدِكُمْ وَهُوَ الْمَوْتُ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمَامَكُمْ، وَإِنَّ السَّاعَةَ تَحْدُوكُمْ مِنْ خَلْفِكُمْ.

تَخَفَّفُوا تَلْحَقُوا، فَإِنَّمَا يُنْتَظَرُ بِأَوَّلِكُمْ آخِرُكُمْ: ٱتَّقُوا ٱللهَ فِي عِبَادِهِ وَبِلاَدِهِ، فَإِنَّكُمْ مَسْؤُولُونَ حَتَّى عَنِ ٱلْبِقَاعِ وَٱلْبَهَائِمِ، وَأَطِيعُوا ٱللهَ وَلاَ تَعْصُوهُ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ ٱلْخَيْرَ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمُ الشَّرَّ فَأَعْرِضُوا عَنْهُ.

الشرح: **واصدِفوا عن سَمْت الشر، أي أعرِضوا عن طريقه. تَقْصِدوا، أي تعدلوا، والقصْد: العدل.**

ثم أمَر بلزوم الفرائض من العبادات والمحافظة عليها، كالصّلاة والزّكاة، وانتصب ذلك على الإغراء.

ثم ذكر أنّ الحرام غير مجهول للمكلّف بل معلوم، والحلال غير مدخول، أي لا عيب ولا نقص فيه، وأنّ حرمة المسلم أفضلُ من جميع الحرُمات. وهذا لفظ الخبر النبويّ: «حُرْمة المسلم فوق كلّ حُرْمة، دمه وعرضه وماله».

قال عليه السلام: «وشد بالإخلاص والتوحيد حقوقَ المسلمين في معاقدها»؛ لأنّ الإخلاص والتوحيد داعيان إلى المحافظة على حقوق المسلمين صارفان عن انتهاك محارمهم.

قال: «فالمسلم مَنْ سلِم الناس»، هذا لفظ الخبر النبويّ بعينه[١].

قوله: «ولا يحلّ أذى المسلم إلا بما يجب»، أي إلاّ بحقّ، وهو الكلام الأوّل، وإنما أعاده تأكيداً.

ثم أمر بمبادرة الموت، وسماه الواقعة العامة؛ لأنه يعمّ الحيوان كلّه، ثم سمّاه خاصّة أحدكم؛ لأنه وإن كان عاماً إلا أن له مع كلّ إنسان بعينه خصوصيّة زائدة على ذلك العموم.

قوله: «فإنّ الناس أمامكم»، أي قد سبقوكم. والساعة تسوقُكم من خَلْفكم.

ثم أمر بالتخفّف، وهو القَنَاعة من الدنيا باليسير، وترك الحرص عليها، فإنّ المسافر الخفيف أحرى بالنجاة ولحاق أصحابه وبلوغ المنزل، من الثقيل.

وقوله: «فإنما يُنتظر بأوّلكم آخرُكم»، أي إنما ينتظر ببعث الموتى المتقدّمين أن يموت الأواخر أيضاً، فيبعث الكلّ جميعاً في وقت واحد.

ثم ذكر أنّهم مسؤولون عن كلّ شيء حتى عن البقاع: لم استوطنتم هذه، وزهِدتّم في هذه؟ ولم أخربتم هذه الدار وعمرتم هذه الدار؟ وحتى عن البهائم، لم ضربتُموها؟ لم أوجعتموها؟

وروي: «فإن البأس أمامكم» يعني الفتنة، والرواية الأولى أظهر. وقد وَرَدَ في الأخبار النبوية «ليُنتصَفَنّ للجمّاء من القرناء»[٢]، وجاء في الخبر الصحيح: «إنّ الله تعالى عذّب إنساناً بهرّ، حبسه في بيت وأجاعه حتى هلك»[٣].

---

١٦٩ – ومن كلام له عليه السلام بعد ما بويع له بالخلافة، وقد قال له قوم من الصحابة: لو عاقبت قوماً ممن أجلب على عثمان! فقال عليه السلام

الأصل: يَا إِخْوَتَاه! إِنِّي لَسْتُ أَجْهَلُ مَا تَعْلَمُونَ، وَلَكِنْ كَيْفَ لِي بِقُوَّةٍ وَٱلْقَوْمُ الْمُجْلِبُونَ عَلَى حَدِّ شَوْكَتِهِمْ يَمْلِكُونَنَا وَلاَ نَمْلِكُهُمْ! وَهَاهُمْ هَؤُلاَءِ قَدْ ثَارَتْ مَعَهُمْ عِبْدَانُكُمْ،

---

(١) أخرجه النسائي، كتاب: الإيمان، باب: صفة المؤمن (٤٩٩٥)، وأحمد، كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمرو بن العاص (٦٧١٤).

(٢) أخرج نحوه الحاكم في «المستدرك» (٣٢٣١)، وابن عدي في «الكامل» (٤٠٩)، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٢٠٥).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: المساقاة، باب: فضل سقي الماء (٢٣٦٥)، ومسلم، كتاب: السلام، باب: تحريم قتل الهرة (٢٢٤٢).

وَٱلْتَفَّتْ إِلَيْهِمْ أَعْرَابُكُمْ، وَهُمْ خِلاَلَكُمْ يَسُومُونَكُمْ مَا شَاؤوا، وَهَلْ تَرَوْنَ مَوْضِعاً لِقُدْرَةٍ عَلَى شَيْءٍ تُرِيدُونَهُ!

إِنَّ هَذَا الأَمْرَ أَمْرُ جَاهِلِيَّةٍ، وَإِنَّ لِهَؤُلاَءِ ٱلْقَوْمِ مَادَّةً. إِنَّ النَّاسَ مِنْ هَذَا ٱلأَمْرِ إِذَا حُرِّكَ عَلَى أُمُورٍ: فِرْقَةٌ تَرَى مَا تَرَوْنَ، وفرقة ترىٰ ما لا ترون وَفِرْقَةٌ لاَ تَرَى هَذَا وَلاَ هَذَا. فَاصْبِرُوا حَتَّى يَهْدَأَ النَّاسُ وَتَقَعَ ٱلْقُلُوبُ مَوَاقِعَهَا، وَتُؤْخَذَ الحُقُوقُ مُسْمَحَةً.

فَاهْدَؤوا عَنِّي وَٱنْظُرُوا مَاذَا يَأْتِيكُمْ بِهِ أَمْرِي، وَلاَ تَفْعَلُوا فَعْلَةً تُضَعْضِعُ قُوَّةً، وَتُسْقِطُ مُنَّةً، وَتُورِثُ وَهَناً وَذِلَّةً. وَسأُمْسِكُ الأَمْرَ مَا اسْتَمْسَكَ، وَإِذَا لَمْ أَجِدْ بُدًّا، فَآخِرُ الدَّوَاءِ ٱلْكَيُّ.

الشرح: أجلَب عليه: أعان عليه، وأجلبه: أعانه. والألف في «يا إخوتاه» بدل من ياء الإضافة، والهاء للسكت.

وعلى حدّ شوكتهم. شدّتهم، أي لم تنكسر سورتُهم.

والعِبْدان جمع عَبْد، بالكسر: مثل جَحْش وجِحشان، وجاء عُبدان بالضم، مثل تَمْر وتُمران، وجاء عبيد، مثل كَلْب وكَلِيب، وهو جمع عزيز، وجاء أعْبد وعِباد وعبِدّان، مشددة الدال، وعبَداء بالمد، وعبُدّي بالقصر، ومعبوداء بالمدّ، وعُبُد بالضم، مثل سقْف وسُقُف، وأنشدوا:

أنسُبِ العبدِ إلى آبائه أسود الجلدة من قوم عُبُدْ

ومنه قرأ بعضهم: ﴿وَعَبُدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[1] وأضافه.

قوله: «والتفّتْ إليهم أعرابكم»: انضمّت واختلطتْ بهم.

وهم حلالكم، أي بينكم يسومونكم ما شاؤوا: يكلّفونكم، قال تعالى: ﴿يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾[2].

وتؤخذ الحقوق مُسمَحة، مِنْ أسمح، أي ذلّ وانقاد.

فاهدؤوا عنّي، أي فاسكنوا. هَدَأ الرجل هدْءاً وهدوءاً، أيْ سكن، وأهدأه غيره.

وتضعضِع قوّة: تضعِف وتهدّ: ضعضعتُ البناء: هددته. والمنّة: القوة. والوَهن: الضعف. وآخر الدواء الكيّ، مثل مشهور، ويقال: «آخر الطبّ» يغلط فيه العامة فتقول: «اخر الداء»، والكيّ ليس من الداء ليكون آخره.

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٦٠.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٤٩.

موقف الإمام علي عليه السلام من قتلة عثمان

واعلم أنّ هذا الكلام يدلّ على أنه عليه السلام كان في نفسه عِقابُ الذين حَصَرُوا عثمان والاقتصاص ممّن قتلَه، إن كان بقيَ ممن باشر قتله أحد، ولهذا قال: إنّي لستُ أجهل ما تعلمون، فاعترف بأنه عالم بوجوب ذلك، واعتذر بعدم التمكن كما ينبغي، وصدق عليه السلام، فإنّ أكثر أهل المدينة أجْلبُوا عليه، وكان مِن أهل مِصْر ومن الكوفة عالَم عظيم حضروا من بلادهم، وطووا المسالك البعيدة لذلك، وانضمّ إليهم أعراب أجلاف من البادية، وكان الأمرُ أمرَ جاهليّة، كما قال عليه السلام، ولو حرّك ساكناً لاختلف الناس واضطربوا، فقومٌ يقولون: أصابَ، وقوم يقولون: أخطأ، وقوم لا يحكُمون بصواب ولا خطأ بل يتوقفون، ولا يأمن - لو شرع في عقوبة الناس والقبضِ عليهم - مِنْ تجدد فتنة أخرى كالأولى وأعظم، فكان الأصوبُ في التدبير، والذي يوجهه الشرع والعقل الإمساك إلى حين سكون الفتنة، وتفرّق تلك الشعوب وعَوْد كلّ قوم إلى بلادهم.

وكان عليه السلام يؤمّل أن يطيعَه معاوية وغيرُه، وأن يحضُرَ بنو عثمان عنده يطالبون بدم أبيهم، ويعيِّنون قوماً بأعيانهم، بعضهم للقتل، وبعضهم للحصار، وبعضهم للتسوّر، كما جرت عادة المتظلمين إلى الإمام والقاضي، فحينئذٍ يتمكن من العمل بحكم الله تعالى، فلم يقع الأمر بموجب ذلك، وعَصَى معاوية وأهلُ الشام، والتجأ ورثة عثمان إليه، وفارقوا حوزة أمير المؤمنين عليه السلام، ولم يطلبوا القصاص طلباً شرعيًا، وإنما طلبوه مغالبة، وجعلها معاوية عصبيّة الجاهلية، ولم يأتِ أحدٌ منهم الأمر من بابه، وقبل ذلك ما كان من أمرِ طلحة والزبير، ونقضِهما البيعة، ونهبهما أموالَ المسلمين بالبصرة وقتلهما الصالحين من أهلها، وجرت أمور كلُّها تمنع الإمام عن التصدّي للقصاص، واعتماد ما يجب اعتماده، لو كان الأمر وَقَع على القاعدة الصحيحة من المطالبة بذلك على وجه السكون والحكومة، وقد قال هو عليه السلام لمعاوية: «فأمّا طلبُك قتَلة عثمان، فادخل في الطاعة، وحاكم القوم إليّ، أحملك وإياهم على كتاب الله وسنّة رسوله».

قال أصحابنا المعتزلة رحمهم الله: وهذا عَيْن الحقّ، ومحضُ الصواب؛ لأنه يجب دخول الناس في طاعة الإمام، ثم تقع المحاكمة إليه، فإن حَكَم بالحق استديمت إمامته، وإن حَكَم بالجوْر انتقضَ أمره، وتعين خلعهُ.

فإن قلت: فما معنى قوله: «وسأمسك الأمر ما استمسك، فإذا لم أجد بدًّا فآخر الدواء الكيّ».

قلت: ليس معناه: وسأصبر عن معاقبة هؤلاء ما أمكنَ الصبر، فإذا لم أجد بداً عاقبتهم،

ولكنه كلام قاله أول مسير طلحة والزبير إلى البَصْرة، فإنه حينئذٍ أشارَ عليه قوم بمعاقبة المجلِبين، فاعتذر بما قد ذكر، ثم قال: «وسأمسك الأمر ما استمسك»، أي أمسك نفسي عن محاربة هؤلاء الناكثين للبيعة ما أمكنني، وأدفع الأيام بمراسلتهم وتخويفهم وإنذارهم، واجتهد في ردهم إلى الطاعة بالترغيب والترهيب، فإذا لم أجد بدًّا من الحرب، فآخر الدواء الكيّ، أي الحرب؛ لأنها الغاية التي ينتهي أمر العصاة إليها.

١٧٠ - ومن خطبة له عليه السلام عند مسير أصحاب الجمل إلى البصرة

الأصل: إِنَّ ٱللهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتابٍ نَاطِقٍ، وَأَمْرٍ قَائِمٍ، لاَ يَهْلِكُ عَنْهُ إِلاَّ هَالِكٌ. وَإِنَّ المُبْتَدَعَاتِ المُشَبَّهَاتِ هُنَّ المُهْلِكَاتُ، إِلاَّ مَا حَفِظَ ٱللهُ مِنْهَا. وَإِنَّ فِي سُلْطانِ ٱللهِ عِصْمَةً لِأَمْرِكُمْ، فَأَعْطُوهُ طاعَتَكُمْ غَيْرَ مُلَوَّمَةٍ وَلاَ مُسْتَكْرَهٍ بِهَا.

وَٱللهِ لَتَفْعَلُنَّ أَوْ لَيَنْقُلَنَّ ٱللهُ عَنْكُمْ سُلْطانَ الإِسْلاَمِ، ثُمَّ لاَ يَنْقُلُهُ إِلَيْكُمْ أَبَداً، حَتَّى يَأْرِزَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِكُمْ.

إِنَّ هَؤُلاَءِ قَدْ تَمَالَؤُوا عَلَى سَخْطَةِ إِمَارَتِي، وَسَأَصْبِرُ مَا لَمْ أَخَفْ عَلَى جَمَاعَتِكُمْ، فَإِنَّهُمْ إِنْ تَمَّمُوا عَلَى فَيَالَةِ هَذَا الرَّأْيِ، ٱنْقَطَعَ نِظَامُ المُسْلِمِينَ، وَإِنَّمَا طَلَبُوا هَذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَداً لِمَنْ أَفَاءَهَا ٱللهُ عَلَيْهِ، فَأَرادُوا رَدَّ ٱلْأُمُورِ عَلَى أَدْبَارِهَا، وَلَكُمْ عَلَيْنَا ٱلْعَمَلُ بِكِتَابِ ٱللهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم، وَٱلْقِيَامُ بِحَقِّهِ وَالنَّعْشُ لِسُنَّتِهِ.

الشرح: وأمر قائم، أي مستقيم ليس بذي عَوَج. لا يهلك عنه إلا هالك، تقديره: لا يهلك عادلاً عنه إلا هالك، وهذا كما تقول: لا يعلم هذا الفنّ إلا عالم، أي مَنْ قد بلغ الغاية في العلم واستحقّ أن يوصف بذلك ويشار إليه فيه، كذلك لا يهلك بعدوله عنه إلا مَنْ هو أعظم الهالكين، ومن يشارُ إليه بالهلاك، وقد بلغ الغاية في الهلاك.

ثم قال: «إنّ المبتدعاتِ المشبّهاتِ هنّ المهلكات»، المبتدَعات: ما أحدِث ولم يكن على عهد الرسول. والمشبَّهات: التي تشبِه السنن وليست منها، أي المشبَّهات بالسنن. وروي: «المشبِّهات» بالكسر، أي المشبّهات على الناس، يقال: قد شبّه عليه الأمر، أي ألبِس عليه، ويروي: «المشتَبهات» أي الملتبَسات، لا يُعرف حقُّها من باطلها.

قال: «إلاّ مَنْ حفظ الله»، أي مَن عصمه الله بألطاف يمتنع لأجلها عن الخطأ. ثم أمَرهم بلزوم

الطّاعة، واتباع السلطان، وقال: إنّ فيه عصمة لأمركم، فأعطوه طاعتَكم غير مُلَوّمة، أي مخلصين ذوي طاعة محضة لا يلامُ باذلها، أي لا ينسَب إلى النفاق. ولا مستكره بها، أي ليست عن استكراه، بل يبذلونها اختياراً ومحبّة، ويروي: «غير ملويّة» أي معوجة، من لَوَيْتُ العود.

ثم أقسم إنّهم إن لم يفعلوا وإلا نقل الله عنهم سلطان الإسلام - يعني الخلافة - ثم لا يعيده إليهم أبداً، حتى يأرز الأمر إلى غيرهم، أي حتى ينقبض وينضمّ ويجتمع، وفي الحديث: «إنّ الإسلام ليأرِز إلى المدينة كما تأرز الحيّة إلى جُحْرها»[1].

فإن قلت: كيف قال: إنّه لا يعيده إليهم أبداً، وقد عاد إليهم بالخلافة العباسية؟

قلت: لأنّ الشَّرْط لم يقع، وهو عدم الطاعة، فإنّ أكثرهم أطاعوه طاعةً غير ملوّمة ولا مستكرَه بها، وإذا لم يتحقّق الشرط لم يتحقّق المشروط.

وقد أجاب قوم عن هذا، فقالوا: خاطب الشّيعة الطالبيَّة، فقال: إنْ لم تُعطوني الطاعة المحضةَ نقل الله الخلافة عن هذا البيت حتى يأرِز وينضمّ إلى بيت آخر، وهكذا وقع، فإنها انضمّت إلى بيت آخر من بني هاشم.

وأجاب قوم آخرون، فقالوا: أراد بقوله: «أبداً» المبالغة، كما تقول: احبِسْ هذا الغريم أبداً، والمراد بالقوم الذين يأرِز الأمر إليهم بنو أمية، كأنه قال: إن لم تفعلوا نقل الله الخلافة عنكم حتى يجعلَها في قوم آخرين، وهم أعداؤكم من أهل الشام وبني أمية، ولا يعيده إليكم إلى مدّة طويلة، وهكذا وقع.

وقد تمالؤوا: قد اجتمعوا. وتساعدوا على سَخْطة إمارتي: على كراهيتها وبغضها. ثم وعد بالصبر عليهم ما لم يُخَفْ من فرقة الجماعة، وانتشار حبل الإسلام.

وفَيالة الرأي: ضعفه، وكذلك فُيولته، ورجل فِيلُ الرأي: أي ضعيفه، قال:

بني ربِّ الجواد فلا تَفِيلوا ... فما أنتم فنعذِرَكم لفِيلِ

أي لستم على رجل ضعيف الرأي. والجمع أفيال، ويقال أيضاً: رجل فال، قال:

رأيتُك يا أُخَيطِلُ إذ جَرَيْنا ... وجُرِّبتِ الفَراسةُ كُنْتَ فالا

قال: إن تمّوا على هذا الرأي الضعيف قَطعوا نظام المسلمين وفرّقوا جماعتهم.

ثم ذكر أن الحسد دعاهم إلى ذلك، وأفاءها عليه: ردّها عليه، فاء بفيء: رجع. وفلان

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: الحج، باب: الإيمان يأرز إلى المدينة (١٨٧٦)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً (١٤٧)، وابن ماجه، كتاب: المناسك، باب: فضل المدينة (٣١١)، وأحمد، كتاب: باقي مسند المكثرين، باب: مسند أبي هريرة (٧٧٨٧)، كلهم بلفظ: «إن الإيمان...».

سريع الفيء من غَضَبه، أي سريع الرجوع. وإنه لحسن الفِيئة بالكسر، مثال «الفِيعة» أي حسن الرجوع، وهذا الكلام لا يشعر بأنّه عليه السلام يعتقد أنّ الأمر له، وأنه غُلِب عليه ثم رجع إليه، ولكنه محمول على أنّه من رسول الله صلى الله عليه وآله بمنزلة الجزء من الكل، وأنهما من جوهر واحد، فلما كان الوالي قديماً وهو رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم تخلّل بين ولايته صلى الله عليه وآله وولاية أمير المؤمنين عليه السلام ولايات غريبة، سمّى ولايته فيئاً ورجوعاً؛ لأنها رجعت إلى الدَّوْحة الهاشميّة، وبهذا يجب أن يتأوّل قوله: «فأرادوا ردّ الأمور على أدبارها» أي أرادوا انتزاع الخلافة من بني هاشم، كما انتزعت أولاً، وإقرارها في بيوت بعيدة عن هذا البيت، أسوة بما وقع من قبل.

والنَّعش: مصدر نعش، أي رفع، ولا يجوز: «أنعش».

---

١٧١ - ومن كلام له عليه السلام كلم به بعض العرب، وقد أرسله قوم من أهلِ البصرة، لما قرب عليه السلام منها، ليعلَمَ لهم منه حقيقة حالِهِ مع أصحاب الجملِ لتزُولَ الشبهة من نفوسهم، فبيّن له عليه السلام من أمره معهم ما علم به أنّهُ عَلَى الحقِّ، ثمَّ قال له: بايع، فقالَ: إني رسول قوم، ولا أحدِث حدثاً حتى أرجع إليهم. فقال عليه السلام

الأصل: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ ٱلَّذِينَ وَرَاءَكَ بَعَثُوكَ رَائِداً، تَبْتَغِي لَهُمْ مَسَاقِطَ ٱلْغَيْثِ، فَرَجَعْتَ إِلَيْهِمْ وَأَخْبَرْتَهُمْ عَنِ ٱلْكَلأِ وَالمَاءِ، فَخَالَفُوا إِلَى المَعَاطِشِ وَالمَجَادِبِ ما كُنْتَ صَانِعاً؟

قَالَ: كُنْتُ تَارِكَهُمْ وَمُخَالِفَهُمْ إِلَى ٱلْكَلأِ وَالماءِ.

فقال عليه السَّلاَمُ: فَامْدُدْ إذاً يَدَكَ.

فقالَ الرَّجل: فَوَاللهِ مَا ٱسْتَطَعْتُ أَنْ أَمْتَنِعَ عند قيام ٱلْحُجَّةِ عليّ فبَايَعْتُهُ عَلَيْهِ السَّلاَم.

والرَّجل يُعْرَفُ بِكُلَيْبٍ ٱلْجَرْمِيّ.

الشرح: الجرميّ: منسوب إلى بني جَرْم بن رَبّان بن حُلوان بن عمران بن الحافِ بن قُضاعة من حِمْير. وكان هذا الرجل بعثه قومٌ من أهل البصرة إليه عليه السلام، يستعلم حاله: أهو على حجّة أم على شبهة؟ فلما رآه عليه السلام، وسمع لفظه، علم صدقه وبرهانه، فكان بينهما ما قد شرحه عليه السلام.

ولا شيء ألطفُ ولا أوقعُ ولا أوضحُ من المثال الذي ضربه عليه السلام، وهو حجّة لازمة لا مدفع لها.

قوله: «ولا أحدِث حدثاً» أي لا أفعل ما لم يأمروني به، إنما أمرت باستعلام حالك فقط، فأمّا المبايعة لك فإن أحدثتها كنت فاعلاً ما لم أندَب له.

ومساقط الغيث: المواضع التي يسقط الغيث فيها. والكلأ: النبت إذا طال وأمكن أن يُرْعَى، وأول ما يظهر يسمى الرُّطب، فإذا طال قليلاً فهو الخَلا، فإذا طال شيئاً آخر فهو الكلأ. فإذا يبس فهو الحشيش. والمعاطش والمجادب: مواضع العطش والجدْب، وهو المحْل.

١٧٢ - ومن كلام له عليه السلام لما عزم على لقاء القوم بصفين

الأصل: ٱللَّهُمَّ رَبَّ السَّقْفِ المَرْفُوعِ، وَٱلْجَوِّ المَكْفُوفِ، ٱلَّذِي جَعَلْتَهُ مَغِيضاً لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ، وَمَجْرًى لِلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ، وَمُخْتَلَفاً لِلنُّجُومِ السَّيَّارَةِ، وَجَعَلْتَ سُكَّانَهُ سِبْطاً مِنْ مَلاَئِكَتِكَ، لاَ يَسْأَمُونَ مِنْ عِبَادَتِكَ.

وَرَبَّ هَذِهِ ٱلْأَرْضِ الَّتِي جَعَلْتَهَا قَرَاراً لِلأَنَامِ، وَمَدْرَجاً لِلْهَوَامِّ وَٱلأَنْعَامِ، وَمَا لاَ يُحْصَى مِمَّا يُرَى وَمَالاَ يُرَى.

وَرَبَّ ٱلْجِبَالِ الرَّوَاسِي الَّتِي جَعَلْتَهَا لِلأَرْضِ أَوْتَاداً، وَلِلْخَلْقِ ٱعْتِمَاداً، إِنْ أَظْهَرْتَنَا عَلَى عَدُوِّنَا، فَجَنِّبْنَا ٱلْبَغْيَ، وَسَدِّدْنَا لِلْحَقِّ، وَإِنْ أَظْهَرْتَهُمْ عَلَيْنَا فَارْزُقْنَا الشَّهَادَةَ، وَٱعْصِمْنَا مِنَ ٱلْفِتْنَةِ.

أَيْنَ المَانِعُ لِلذِّمَارِ، وَٱلْغَائِرُ عِنْدَ نُزُولِ ٱلْحَقَائِقِ مِنْ أَهْلِ ٱلْحِفَاظِ!

الْعَارُ وَرَاءَكُمْ، وَٱلْجَنَّةُ أَمَامَكُمْ!

الشرح: السقف المرفوع: السماء. والجوّ المكفوف: السماء أيضاً، كَفّه، أي جمعه وضمّ بعضه إلى بعض، ويمرّ في كلامه نحو هذا، وأنّ السماء هواء جامد أو ماء جامد.

وجعلتَ مغيضاً لليل والنهار، أي غَيْضة لهمَا، وهي في الأصل الأجَمة يجتمع إليها الماء، فتسمّى غَيْضة ومغيضاً، وينبت فيها الشجر، كأنّه جعل الفلك كالغَيضة، والليل والنهار كالشجر النابت فيها.

ووجه المشاركة أنّ المغِيض أو الغيْضة يتولّد منهما الشجر، وكذلك اللّيل والنهار يتولّدان من جَرَيان الفلك. ثم عاد فقال: «ومجرًى للشمس والقمر»، أي موضعاً لجريانهما.

ومختلَفاً للنجوم السيّارة، أي موضعاً لاختلافها، واللام مفتوحة.

ثم قال: «جعلت سكانه سِبْطاً من ملائكتك» أي قبيلة، قال تعالى: ﴿ٱثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًاۚ﴾[١].

لا يسأمون: لا يملّون. وقراراً للأنام، أي موضع استقرارهم وسكونهم. ومدَرجاً للهوامّ، أي موضع دُروجهم وسيرهم وحَركاتهم، والهوامّ: الحشرات والمخوف من الأحناش.

وما لا يحصى، أي لا يضبط بالإحصاء والعدّ، مما نراه ونعرفه وما لا نراه ولا نعرفه.

وقال بعض العلماء: إن أردت أن تعرف حقيقة قوله: «مما يُرى وما لا يُرى» فأوقد ناراً صغيرة في فلاةٍ في ليلة صيفيّة، وانظر ما يجتمع عليها من الأنواع الغريبة العجيبة الخلْق، التي لم تشاهدها أنت ولا غيرك قطّ.

قوله: «وللخلقِ اعتماداً»؛ لأنهم يجعلونها كالمساكن لهم، فينتفعون بها ويبنون منازل إلى جانبها، فيقوم مقام جدار قد استغنوْا عن بنيانه؛ ولأنها أمّهات العيون ومنابع المياه باعتماد الخلْق على مرافقهم ومنافعهم ومصالحهم عليها.

قوله: «وسدِّدنا للحق»، أي صوبنا إليه، من قولك: «سهم سديد»، أي مصيب، وسدد السنان إلى القِرْن، أي صوّبه نحوه.

والذِّمار: ما يحامى عنه. والغائر: ذو الغَيْرة. ونزول الحقائق: نزول الأمور الشديدة كالحرب ونحوها. ثم قال: «العار وراءكم»، أي إن رجعتم القهقرى هاربين.

والجنة أمامكم، أي إن أقدمتم على العدو مجاهدين. وهذا الكلام شريف جداً.

١٧٣ - ومن خطبة له عليه السلام في من رماه بالحرص

الأصل: ٱلْحَمْدُ لله ٱلَّذِي لاَ تُوَارِي عَنْهُ سَمَاءٌ سَمَاءً، وَلاَ أَرْضٌ أَرْضاً.

الشرح: هذا الكلام يدل على إثبات أرضين بعضُها فوق بعض، كما أن السمٰواتِ كذلك، ولم يأت في الكتاب العزيز ما يدل على هذا إلا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾[٢]، وهو قول كثير من المسلمين.

وقد تأوّل ذلك أرباب المذهب الآخر القائلون بأنها أرض واحدة، فقالوا: إنها سبعة أقاليم، فالمثلية هي من هذا الوجه، لا من تعدد الأرَضين في ذاتها.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٦٠. (٢) سورة الطلاق، الآية: ١٢.

ويمكن أن يتأول مثل ذلك كلام أمير المؤمنين عليه السلام، فيقال: إنها وإن كانت أرضاً واحدة، لكنها أقاليم وأقطار مختلفة، وهي كُروِيّة الشكل، فَمن على حَدَبة الكرة لا يرى مَنْ تحته، ومن تحته لا يراه، ومَنْ على أحد جانبيها لا يرى مَنْ على الجانب الآخر، والله تعالى يدركُ ذلك كله أجمع، ولا يحجَب عنه شيء منها بشيء منها.

فأما قوله عليه السلام: «لا توارِي عنه سماءٌ سماءً»، فلقائل أن يقول: ولا يتوارَى شيء من السموات عن المدركين منا؛ لأنها شفافة، فأي خصيصة للباري تعالى في ذلك؟ فينبغي أن يقال هذا الكلام على قاعدةٍ غير القاعدة الفلسفية، بل هو على قاعدة الشريعة الإسلاميّة التي تقتضي أنّ السمٰوات تحجب ما وراءها عن المدرِكين بالحاسّة، وأنها ليست طباقاً متراصّة، بل بينها خلْق من خلق الله تعالى لا يعلمهم غيره. واتّباعُ هذا القول واعتقاده أولى.

الأصل: منها: وَقَدْ قَالَ قَائِلٌ: إِنَّكَ عَلَى هَذَا الأمْرِ يابْنَ أَبي طالِبٍ لَحرِيصٌ، فَقُلْتُ: بَلْ أَنْتُمْ وَٱلله لَأحْرَصُ وَأَبْعَدُ، وَأَنَا أَخصُّ وَأَقْرَبُ، وَإِنَّمَا طَلَبْتُ حَقًّا لِي وَأَنْتُمْ تَحُولُونَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَتَضْرِبُونَ وَجْهِي دُونَهُ، فَلَما قَرَّعْتُهُ بِالحُجَّةِ فِي المَلإِ الحَاضِرِينَ، هَبَّ كأنَّهُ بُهِتَ لاَ يَدْرِي مَا يُجِيبُنِي بِهِ!

ٱللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَعْدِيكَ عَلَى قُرَيْشٍ وَمَنْ أَعَانَهُمْ! فَإِنَّهُمْ قَطَعُوا رَحِمِي، وَصَغَّرُوا عَظِيمَ مَنْزِلَتِي، وَأَجْمَعُوا عَلَى مُنَازَعَتِي أَمْراً هُوَ لِي، ثُمَّ قَالُوا: أَلاَ إِنَّ فِي ٱلْحَقِّ أَنْ تَأْخُذَهُ، وَفِي ٱلْحَقِّ أَنْ تَتْرُكَهُ.

الشرح: هذا من خطبة يذكر فيها عليه السلام ما جَرى يوم الشورى بعد مقتَل عمر. والذي قال له: «إنك على هذا الأمر لحريص» سَعْد بن أبي وقاص، مع روايته فيه: «أنت مِنّي بمنزلة هارون من موسى»[1]، وهذا عجب، فقال لهم: بل أنتم والله أحرصُ وأبعد... الكلام المذكور. وقد رواه الناس كافة.

(١) أخرجه مسلم، كتاب: فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٤)، والترمذي، كتاب: المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٣٠)، وابن ماجه، كتاب: المقدمة باب: فضل علي بن أبي طالب (١٢١)، وأحمد، كتاب: مسند العشرة المبشرين بالجنة، باب: مسند أبي إسحاق سعد بن أبي وقاص (١٥٥٠).

وقالت الإماميّة: هذا الكلام يوم السقيفة، والذي قال له: إنَّك على هذا الأمر لحريص، أبو عبيدة بن الجراح، والرواية الأولى أظهر وأشهر.

وروي: «فلما قَرَعته» بالتخفيف، أي صدمته بها.

وروي: «هبّ لا يدري ما يجيبني»، كما تقول: استيقظ وانتبه، كأنّه كان غافلاً ذاهلاً عن الحجة فهبّ لمّا ذكرتُها.

أستعديك: أطلب أن تُعْدِيَني عليهم وأنْ تنتصف لي منهم. قطعوا رحِمِي: لم يرعَوْا قربه من رسول الله صلى الله عليه وآله. وصغّروا عظيم منزلتي: لم يقفوا مع النصوص الواردة فيه. وأجمعوا على منازعتي أمراً هو لي، أي بالأفضلية أنا أحقّ به منهم، هكذا ينبغي أن يُتأوّل كلامه.

وكذلك قوله: «إنما أطلب حقًّا لي وأنتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه».

قال: «ثم قالوا: ألاَ إنّ في الحقّ أن تأخُذَه، وفي الحقّ أن تتركه»، قال: لم يقتصروا على أخذِ حَقّي ساكتين عن الدَّعوى، ولكنّهم أخذوه وادّعوْا أنّ الحقّ لهم. وأنه يجبُ عليّ أن أترك المنازعة فيه، فليتهم أخذوه معترفين بأنه حقّي، فكانت المصيبة به أخفّ وأهون.

واعلم أنه قد تواترت الأخبار عنه عليه السلام بنحوٍ من هذا القول، نحو قوله: «ما زلتُ مظلوماً منذ قبضَ الله رسولَه حتى يوم النّاس هذا».

وقوله: «اللهمّ أخزِ قريشاً فإنها منعتْني حقّي وغصبتْني أمري».

وقوله: «فجزى قريشاً عنّي الجوازِي، فإنهم ظلموني حقّي، واغتصبوني سلطان ابن أمّي».

وقوله، وقد سمع صارخاً ينادي: أنا مظلوم، فقال: «هلمّ فلنصرُخ معاً، فإني ما زلتُ مظلوماً».

وقوله: «وإنه ليعلم أنّ محلّي منها محلّ القطب من الرحى». وقوله: «أرى تراثي نهباً». وقوله: «أصغيا بإنائنا، وحَمَلا الناس على رقابنا». وقوله: «إنّ لنا حقاً إن نُعْطَه نأخذه، وإن نمنعَه نركب أعجاز الإبل، وإن طال السُّرَى». وقوله: «ما زلت مستَأثَراً عليّ، مدفوعاً عمّا أستحقه وأستوجبه».

وأصحابنا يحملون ذلك كلّه على ادّعائه الأمر بالأفضليّة والأحقيَّة، وهو الحقّ والصواب، فإنْ حمله على الاستحقاق بالنصّ تكفيرٌ أو تفسيق لوجوه المهاجرين والأنصار، ولكنّ الإماميَّة والزيديّة حملوا هذه الأقوال على ظواهرها، وارتكبوا بها مركباً صعباً. ولعمري إنَّ هذه الألفاظ مُوهِمةٌ مغلّبة على الظن ما يقوله القوم، ولكن تصفّح الأحوال يبطل ذلك الظنّ، ويدرأ ذلك الوهم، فوجب أن يجريَ مجرى الآيات المتشابهات الموهمة ما لا يجوز على الباريء، فإنه لا نعمل بها، ولا نعوّل على ظواهرها؛ لأنّا لما تصفّحنا أدلّة العقول اقتضت العدول عن ظاهر اللفظ، وأن تحمل على التأويلات المذكورة في الكتب.

وحدثني يحيى بن سعيد بن علي الحنبلي المعروف بابن عالية، من ساكني قَطُفْتا بالجانب الغربيّ من بغداد، وأحد الشهود المعدّلين بها، قال: كنت حاضراً مجلس الفخر إسماعيل بن عليّ الحنبلّي الفقيه المعروف بغلام ابن المنى، وكان الفخر إسماعيل بن علي هذا، مقدّم الحنابلة ببغداد في الفقه والخلاف، ويشتغل بشيء في علم المنطق، وكانَ حُلْوَ العبارة، وقد رأيته أنا وحضرت عنده، وسمعت كلامه، وتوفي سنة عشر وستمائة.

قال ابن عالية: ونحن عنده نتحدّث، إذ دخل شخص من الحنابلة، قد كان له دَيْن على بعض أهل الكوفة، فانحدر إليه يطالبه به، واتفق أن حضرت زيارة يوم الغدير، والحنبليّ المذكور بالكوفة، وهذه الزيارة هي اليوم الثامن عشر من ذي الحجة، ويجتمع بمشهد أمير المؤمنين عليه السلام من الخلائق جُمُوعٌ عظيمة، تتجاوز حدّ الإحصاء.

قال ابن عالية: فجعل الشيخ الفخر يسائل ذلك الشخص: ما فعلت؟ ما رأيت؟ هل وصل مالُكَ إليك؟ هل بقيَ لك منه بقية عند غريمك؟ وذلك يجاوبه، حتى قال له: يا سيّدي لو شاهدتَ يوم الزيارة يوم الغدير، وما يجري عند قبر علي بن أبي طالب من الفضائح والأقوال الشنيعة وسبّ الصحابة جِهاراً بأصوات مرتفعة من غير مراقبة ولا خيفة! فقال إسماعيل: أيّ ذنب لهم! والله ما جرّأهم على ذلك، ولا فَتح لهم هذا الباب إلا صاحب ذلك القبر. فقال ذلك الشخص: ومَنْ صاحب القبر؟ قال: عليّ بن أبي طالب! قال: يا سيدي، هو الذي سنّ لهم ذلك، وعلّمهم إياه وطرّقهم إليه! قال: نعم والله، قال: يا سيّدي فإن كان محقاً فما لنا أن نتولّى فلاناً وفلاناً! وإن كان مبطلاً فما لنا نتولاه! ينبغي أن نبرأ إمّا منه أو منهما.

قال ابن عالية: فقام إسماعيل مسرعاً، فلبس نعليْه، وقال: لعن الله إسماعيل الفاعل إن كان يعرف جواب هذه المسألة، ودخل دار حرمه، وقمنا نحن وانصرفنا[1].

الأصل: منها في ذكر أصحاب الجمل: فَخَرَجُوا يَجُرُّونَ حُرْمَةَ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله كَما تُجَرُّ الأَمَةُ عِنْدَ شِرَائِهَا مُتَوَجِّهِينَ بِهَا إِلَى ٱلْبَصْرَةِ. فَحَبَسَا نِسَاءَهُمَا فِي بُيُوتِهِمَا، وَأَبْرَزَا حَبِيسَ رَسُولِ ٱللهِ صلى الله عليه وآله لَهُمَا وَلِغَيْرِهِما، فِي جَيْشٍ مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ وَقَدْ أَعْطاني الطَّاعَةَ، وَسَمَحَ لِي بِٱلْبَيْعَةِ، طَائِعاً غَيْرَ مُكْرَهٍ، فَقَدِمُوا عَلَى عَامِلِي بِهَا، وَخُزَّانِ بَيْتِ مَالِ المُسْلِمِينَ وَغَيْرِهِمْ مِنْ أَهْلِهَا، فَقَتَلُوا طَائِفَةً صَبْراً، وَطائِفَةً غَدْراً.

---

(١) أخرجه القمي في كتاب الأربعين: ١٩٢، وأخرجه إبراهيم بن محمد الثقفي في الغارات: ٢/ ٨٦٥.

فَوَاللهِ إِنْ لَوْ لَمْ يُصِيبُوا مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلاَّ رَجُلاً وَاحِداً مُعْتَمِدِينَ لِقَتْلِهِ، بِلاَ جُرْمٍ جَرَّهُ، لَحلَّ لِي قَتْلُ ذَلِكَ الْجَيْشِ كُلِّهِ، إِذْ حَضَرُوهُ فَلَمْ يُنْكِرُوا، وَلَمْ يَدْفَعُوا عَنْهُ بِلِسَانٍ وَلاَ بِيَدٍ، دَعْ مَا إِنَّهُمْ قَدْ قَتَلُوا مِنَ الْمُسْلِمين مِثْلَ الْعِدَّةِ الَّتِي دَخَلُوا بِهَا عَلَيْهِمْ!

الشرح: حُرْمة رسول الله صلى الله عليه وآله كناية عن الزَّوجة، وأصله الأهل والحُرَم، وكذلك حَبيس رسول الله صلى الله عليه وآله كناية عنها.

وقتلوهم صبراً، أي بعد الأسر. وقوله: «فوالله إنْ لو لم يصيبوا» إن هاهنا زائدة، ويجوز أن تكون مخففّة من الثقيلة.

ويُسأل عن قوله عليه السلام: «لو لم يصيبوا إلا رجلاً واحداً لحلّ لي قتل ذلك الجيش بأسره؛ لأنهم حضروه فلم ينكروا»، فيقال: أيجوز قتلُ من لم ينكِر المنكر مع تمكّنه من إنكاره؟

والجواب، أنّه يجوز قتلُهم؛ لأنّهم اعتقدوا ذلك القتل مباحاً، فإنهم إذا اعتقدوا إباحته، فقد اعتقدوا إباحة ما حرّم الله، فيكون حالُهم حالَ من اعتقد أنّ الزنى مباح، أو أنّ شربَ الخمر مباح.

وقال القطب الراوندي: يريد أنهم داخلون في عموم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ﴾[1].

ولقائل أن يقول: الإشكال إنما وقع في قوله: «لو لم يصيبوا من المسلمين إلاَّ رجلاً واحداً لحلّ لي قتل ذلك الجيش بأسره»؛ لأنهم حضروا المنكر ولم يدفعوه بلسانٍ ولا يدٍ، فهو علّل استحلاله قتلهم بأنهم لم ينكروا المنكر، ولم يعلل ذلك بعموم الآية.

وأما معنى قوله: «دع ما إنهم قد قتلوا من المسلمين مثل العدّة التي دخلوا بها عليهم»، فهو أنه لو كان المقتول واحداً لحل لي قتلهم كلهم، فكيف وقد قتلوا من المسلمين عدّةً مثل عدّتهم التي دخلوا بها البصرة! وما هاهنا زائدة.

وصدق عليه السلام، فإنهم قتلوا من أوليائه وخُزّان بيت المال بالبَصْرة خلْقاً كثيراً، بعضهم غدراً وبعضهم صبراً، كما خطب به عليه السلام.

خروج عائشة ومسيرها إلى القتال

وروى أبو مخنف، قال: حدثنا إسماعيل بن خالد، عن قيس بن أبي حازم. وروى الكلبيّ

(١) سورة المائدة، الآية: ٣٣.

عن أبي صالح، عن ابن عباس. وروى جرير بن يزيد، عن عامر الشعبي، وروى محمد بن إسحاق، عن حبيب بن عمير، قالوا جميعاً: لما خرجت عائشة وطَلْحةُ والزبير من مكة إلى البصرة، طرقت ماء الحوأب - وهو ماء لبني عامر بن صعصعة - فَنَبَحَتهم الكلاب، فنفرت صِعاب إبلهم، فقال قائل منهم: لَعَن الله الحوأب فما أكثر كلابها! فلما سمعت عائشة ذِكْرَ الحوأب، قالت: أهذا ماء الحوأب؟ قالوا: نعم، فقالت: ردُّوني ردُّوني. فسألوها ما شأنها؟ ما بدا لها؟ فقالت: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأني بكلاب ماء يدعَى الحوأب، قد نبحتْ بعض نسائي»، ثم قال لي: «إياك يا حميراء أن تكونيها» فقال لها الزبير: مهلاً يرحمك الله، فإنا قد جُزْنَا ماء الحوأب بفراسخ كثيرة، فقالت: أعندك مَنْ يشهد بأنّ هذه الكلاب النابحة ليست على ماء الحوأب؟ فلفّق لها الزّبير وطلحة خمسين أعرابيًّا جعلاً لهم جُعلاً، فحلفوا لها، وشهدوا أنّ هذا الماء ليس بماء الحوأب، فكانت هذه أوّل شهادة زُور في الإسلام.

فسارت عائشة لوجهها[1].

قال أبو مخنِف: وحدثنا عصام بن قدامة، عن عكرمة، عن ابن عباس، أنّ رسول الله ﷺ قال يوماً لنسائه، وهُنّ عنده جميعاً: «ليت شعري أيتكُنّ صاحبة الجمل الأدبب، تنبحُها كلابُ الحوأب، يُقتَلُ عن يمينها وشمالها قَتْلَى كثيرة، كلّهم في النار وتَنْجُو بعد ما كادت؟»[2].

قلت: وأصحابنا المعتزلة رحمهم الله، يحملون قوله عليه السلام: «وتنجو» على نجاتها من النار، والإماميّة يحملون ذلك على نجاتها، من القَتْل، ومحملنا أرجَح؛ لأن لفظة «في النار» أقرب إليه من لفظة «القتلى»، والقرْب معتَبر في هذا الباب، ألا ترى أنّ نحاة البصريين أعملوا أقرَب العاملين، نظراً إلى القرب!

قال أبو مخنف: وحدّثني الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، أن الزبير وطلحة أغذّا السير بعائشة، حتى انتهَوْا إلى حَفَر أبي موسى الأشعريّ، وهو قريب من البصرة، وكتبا إلى عثمان بن حنيف الأنصاريّ، وهو عامل عليّ عليه السلام عَلَى البصرة: أن أخلِ لنا دارَ الإمارة، فلما وصل كتابهما إليه بعث الأحْنف بن قيس، فقال له: إنّ هؤلاء القوم قدِموا علينا ومعهم زوجة

(١) أخرجه محمد الريشهري في ميزان الحكمة: ٣/ ٢٣١٧٠.
(٢) أخرجه الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٢٣٤)، وابن أبي شيبة نحوه (٣٧٧٨٥)، وابن عبد البر في الاستيعاب (٤٠٢٩).

رسول الله، والناس إليها سراع كما ترى، فقال الأحنف: إنهم جاؤوك بها للطّلب بدم عثمان، وهم الذين ألّبوا على عثمان الناس، وسفكوا دمه، وأراهم والله لا يزايلون حتى يُلقوا العداوة بيننا، ويسفكوا دماءنا، وأظنُّهم والله سيركبون منك خاصة ما لا قبلَ لك به، إنْ لم تتأهّب لهم بالنهوض إليهم فيمَن معك من أهل البصرة، فإنّك اليوم الوالي عليهم، وأنت فيهم مطاع، فسر إليهم بالنّاس، وبادرهم أن يكونوا معك في دار واحدة، فيكون الناس لهم أطوعَ منهم لك؟

فقال عثمان بن حَنيف: الرأي ما رأيت، لكنّني أكره الشرّ، وأن أبدأهم به، وأرجو العافية والسّلامة إلى أن يأتِيَني كتاب أمير المؤمنين ورأيه فأعمل به. ثم أتاه بعد الأحنف حكيم بن جبلة العبديّ من بني عمرو بن وديعة، فأقرأه كتاب طلحة والزبير، فقال له مثل قول الأحنف، وأجابه عثمان بمثلَ جوابه للأحنف، فقال له حكيم: فأذَنْ لي حتى أسير إليهم بالناس، فإن دخلوا في طاعة أمير المؤمنين، وإلاّ نابذتهم على سواء.

فقال عثمان: لو كان ذلك رأيي لسرتُ إليهم بنفسي، قال: حكيم: أما والله إن دخلوا عليك هذا المِصْر لينتقلنّ قلوب كثير من الناس إليهم، وليزيلنّك عن مجلسك هذا، وأنت أعلم. فأبى عليه عثمان.

قال: وكتبَ عليّ إلى عثمان لمّا بلغه مشارفَةُ القوم البصرة. من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عثمان بن حَنيف، أما بعد: فإنّ البغاة عاهدوا الله ثم نكثُوا، وتوجّهوا إلى مصرك، وساقهم الشيطان لطلب ما لا يرضَى الله به. والله أشدّ بأساً، وأشدّ تنكيلاً، فإذا قدِموا عليك فادعُهم إلى الطاعة والرجوع إلى الوفاء بالعهد والميثاق الذي فارقونا عليه، فإنْ أجابوا فأحسِنْ جوارَهم ما داموا عندك، وإن أبوْا إلا التمسك بحبل النكث والخلاف، فناجزْهم القتال حتى يحكم الله بينك وبينهم وهو خير الحاكمين، وكتبت كتابي هذا إليك من الرَّبَذة، وأنا معجّل المسير إليك إن شاء الله. وكتبه عبيد الله بن أبي رافع في سنة ست وثلاثين.

قال: فلما وصلَ كتابُ عليّ عليه السلام إلى عثمان، أرسل إلى أبي الأسود الدؤليّ وعمران بن الحصين الخُزاعيّ، فأمرهما أن يسيرا حتى يأتياه بعلْم القوم، وما الذي أقدمهم! فانطلقا حتى إذا أتيا حَفَر أبي موسى، وبه معسكر القوم، فدخلا على عائشة، فنالاها ووَعظاها، وأذْكراها وناشداها الله، فقالت لهما: القيَا طلحة والزّبير. فقاما من عندها، ولقيا الزبير فكلماه، فقال لهما: إنا جئنا للطلب بدم عثمان، وندعو الناس إلى أن يردُّوا أمرَ الخلافة شورى، ليختار الناس لأنفسهم. فقالا له: إن عثمان لم يُقتَل بالبصرة ليطلَبَ دمه فيها، وأنت تعلم قتلة عثمان مَنْ هم، وأين هم! وإنك وصاحبك وعائشة كنتم أشدُّ الناس عليه، وأعظمهم إغراء بدمه،

فأقِيدوا من أنفسكم. وأما إعادة أمر الخلافة شورى، فكيف وقد بايعتم عليًّا طائعين غير مكرَهين! وأنت يا أبا عبد الله لم يبعد العهد بقيامك دون هذا الرجل يوم مات رسول الله ﷺ، وأنت آخذ قائمَ سيفك، تقول: ما أحدٌ أحقّ بالخلافة منه ولا أولى بها منه! وامتنعت من بيعة أبي بكر. فأين ذلك الفعل من هذا القول!

فقال لهما: اذهبا فالقيا طلحة، فقاما إلى طلحة فوجَداه أخشَن الملمس، شديد العريكة، قوي العزم في إثارة الفتنة وإضرام نار الحرب، فانصرفا إلى عثمان بن حنيف، فأخبراه وقال له أبو الأسود:

يا بنَ حنيف قد أتيت فانفرْ　　وطاعِنِ القوم وجالد واصبِرْ
وابرز لها مستلئماً وشَمِّرْ

فقال ابن حَنيف: إي والحرمين لأفعلنّ. وأمر مناديَه فنادى في الناس: السلاح السلاح! فاجتمعوا إليه، وقال أبو الأسود:

أتينَا الزبير فداني الكلام　　وطلحة كالنّجم أو أبعدُ
وأحسنُ قوليهما فادحٌ　　يضيق به الخطب مستنكدُ
وقد أوعدونا بجهدِ الوعيد　　فأهونْ علينا بما أوعَدُوا
فقلنا ركضتم ولم تُرمِلُوا　　وأصدرتُمُ قبل أن توردُوا
فإن تلقِحوا الحرب بين الرجال　　فملقِحها حده الأنكدُ
وإن عليًّا لكم مصحِرٌ　　الاَ إنه الأسد الأسودُ
أما إنه ثالث العابدين　　بمكة والله لا يعبَدُ
فرخُّوا الخناق ولا تعجَلُوا　　فإن غدا لكمُ موعدُ

قال: وأقبل القوم، فلما انتهوا إلى المربِد، قام رجل من بني جُشمَ فقالَ: أيها الناس، أنا فلان الْجُشَميّ، وقد أتاكم هؤلاء القوم، فإن كانوا أتوكم خائفين، لقد أتوكم من المكان الذي يأمن فيه الطير والوحش والسباع، وإن كانوا إنما أتوكم بطلب دم عثمان، فغيرُنا وليّ قتله. فأطيعوني أيها الناس وردُّوهم من حيث أقبلوا، فإنكم إن لم تفعلوا لم تسلَموا من الحرب الضَّرُوس والفتنة الصماء التي لا تُبْقي ولا تَذر.

قال: فحصَبه ناس من أهل البصرة، فأمسك.

قال: واجتمع أهلُ البصرة إلى المربِد حتى ملؤوه مشاة وركباناً، فقام طلحة فأشار إلى الناس بالسكون ليخطُب، فسكتوا بعد جهد. فقال: أمّا بعد، فإن عثمان بن عفّان كان من أهل السابقة والفضيلة، ومن المهاجرين الأولين الذي رضي الله عنهم ورضُوا عنه ونزل القرآن ناطقاً بفضله، وأحد أئمة المسلمين الوالين عليكم بعد أبي بكر وعمر صاحِبَي رسول الله ﷺ، وقد

كان أحدث أحداثاً نقِمنا عليه، فأتيناه فاستعتبنَاه فأعتبَنا، فعدا عليه امرؤ ابتزّ هذه الأمة أمرَها غصباً بغير رضاً منها ولا مشورة، فقتله، وساعده على ذلك قومٌ غير أتقياء ولا أبرار، فقتِل مجرِماً بريئاً تائباً. وقد جئناكم أيّها الناس نطلب بدم عثمان، وندعوكم إلى الطلب بدمه، فإنْ نحنُ أمكننا الله من قَتَلِته قتلناهم به، وجعلْنا هذا الأمر شورَى بين المسلمين، وكانت خلافة رحمةً للأمة جميعاً، فإنّ كلّ مَنْ أخذ الأمر من غير رضاً من العامة ولا مشورة منها ابتزازاً، كان ملكُه ملكاً عَضُوضاً، وحدَثاً كثيراً. ثم قام الزّبير، فتكلّم بمثل كلام طلحة.

فقام إليهما ناس من أهل البصرة، فقالوا لهما: ألم تبايعا علياً فيمن بايعه؟ ففيم بايعتما ثم نكثتما! فقالا: ما بايْعنا، وما لأحد في أعناقنا بيْعة، وإنما استُكرِهنا على بيْعة. فقال ناس: قد صدقا وأحسنا القول، وقطعا بالثّواب. وقال ناس: ما صَدقا ولا أصابا في القول، حتى ارتفعت الأصوات.

قال: ثم أقبلت عائشة على جَمِلها، فنادت بصوت مرتفع: أيُّها الناس، أقلّوا الكلام واسكتوا، فأسكت الناس لها، فقالت:

إن أمير المؤمنين عثمان قد كان غيّر وبدّل، ثم لم يزل يغسِل ذلك بالتوبة، حتى قتِل مظلوماً تائباً وإنما نَقَمُوا عليه ضربه بالسوط، وتأميره الشّبّان، وحمايته موضع الغمامة، فقتلوه محرِماً في حرمة الشهور وحرمة البلد، ذبحاً كما يذبح الجمل. ألا وإنّ قريشاً رمتْ غَرضَها بنبالها، وأدمَت أفواهها بأيديها، وما نالت بقتلها إياه شيئاً، ولا سلكتْ به سبيلاً قاصداً، أما والله لَيرَوُنّها بلايا عقيمة تُنبّه النائم، وتقيم الجالس، ولَيُسَلَّطَنَّ عليهم قوم لا يرحمونهم، ويسومونهم سوء العذاب.

أيها الناس، إنه ما بلغ من ذنب عثمان ما يستحلّ به دمه! مُصْتُموه كما يماصُ الثّوب الرحيض، ثم عدوتُم عليه فقتلتموه بعد توبته وخروجه من ذنبه، وبايعتم ابنَ أبي طالب بغير مشورة من الجماعة، ابتزازاً وغصباً. تراني أغضب لكم من سوط عثمان ولسانه، ولا أغضب لعثمان من سيوفكم! ألاَ إنّ عثمان قتِل مظلوماً فاطلبوا قَتَلَته، فإذا ظفرتُم بهم فاقتلوهم، ثم اجعلوا الأمر شورَى بين الرهط الذين اختارهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، ولا يدخل فيهم مَنْ شَرِكَ في دم عثمان.

قال: فماج الناس واختلطوا، فمن قائل: القول ما قالت، ومن قائل يقول: وما هي وهذا الأمر، إنما هي امرأة مأمورة بلزوم بيتها! وارتفعت الأصوات، وكثُر اللّغط حتى تضاربُوا بالنعال، وترامَوْا بالحصى.

ثم إنّ الناس تمايزوا فصاروا فريقين: فريق مع عثمان بن حَنِيف، وفريق مع عائشة وأصحابها.

قال: وحدّثنا الأشعث بن سوّار، عن محمد بن سيرين، عن أبي الخليل، قال: لما نزل طلحة والزّبير المربد، أتيتهما فوجدتهما مجتمعيْن، فقلت لهما: ناشدتكما الله وصحبة رسول الله ﷺ! ما الذي أقدمكما أرضنا هذه؟ فلم يتكلّما، فأعذت عليهما، فقالا: بلغنا أنّ بأرضكم هذه دنيا، فجئنا نطلبها.

قال: وقد روَى محمد بن سيرين، عن الأحنف بن قيس أنّه لقيهما، فقالا له مثل مقالتهما الأولى: إنما جئنا لطلب الدنيا.

وقد روى المدائنيّ أيضاً نحواً ممّا روي أبو مخنف، قال: بعثَ عليٌّ عليه السلام ابنَ عباس يوم الجمل إلى الزبير قبل الحرب فقال له: إنّ أمير المؤمنين يقرأ عليك السلام، ويقول لكم: ألم تبايِعني طائعاً غير مكرَه، فما الذي رابك منّي، فاستحللت به قتالي؟ قال: فلم يكن له جواب إلا أنه قال لي: إنّا مع الخوف الشديد لنطمع، لم يقل غير ذلك.

قال أبو إسحاق: فسألت محمد بن عليّ بن الحسين عليه السلام: ما تراه يعني بقوله هذا؟ فقال: أما والله ما تركت ابن عباس حتى سألتُه عن هذا، فقال: يقول: إنّا مع الخوف الشديد ممّا نحن عليه، نطمع أن نلِي مثل الذي وليتم.

وقال محمد بن إسحاق: حدّثني جعفر بن محمد عليه السلام، عن أبيه، عن ابن عباس، قال: بعثني عليّ عليه السلام يوم الجمل إلى طلحة والزبير، وبعث معي بمصحف منشور، وإن الريح لتصفِق ورقه، فقال لي: قل لهما: هذا كتاب الله بيننا وبينكم، فما تريدان؟ فلم يكن لها جواب إلا أن قالا: نريد ما أراد، كأنهما يقولان: المُلْك.

فرجعتُ إلى عليّ فأخبرته.

وقد روى قاضي القضاة رحمه الله في كتاب «المغنى» عن وهب بن جرير، قال: قال رجل من أهل البصرة لطلحة والزبير: إنّ لكما فضلاً وصحبة، فأخبراني عن مسيركما هذا وقتاً لكما، أشيءٌ أمركما به رسول الله ﷺ، أم رأيٌ رأيتماه؟ فأمّا طلحة فسكَت وجعل ينكُت في الأرض، وأما الزّبير، فقال: ويحك! حُدِّثْنا أنّ هاهنا دراهم كثيرة، فجئنا لنأخذ منها[1].

وجعل قاضي القضاة هذا الخبر حجّة في أنّ طلحة تاب، وأنّ الزبير لم يكن مصرًّا على الحرب. والاحتجاج بهذا الخبر على هذا المعنى ضعيف، وإنْ صحّ هو وما قبله، إنّه لدليل

(١) انظر بحار الأنوار: ٣٢/ ١٤٢.

على حُمْقٍ شديد وضعف عظيم، ونقص ظاهر. وليت شعري ما الذي أحوجهما إلى هذا القول! وإذا كان هذا في أنفسهما، فهلّا كَتَماه!

ثم نعود إلى خبرهما: قال أبو مخنف: فلما أقبل طلحة والزبير من المربِد، يريدان عثمان بن حَنيف، فوجداه وأصحابه قد أخذوا بأفواه السّكك، فمضوا حتى انتهوْا إلى موضع الدّباغين، فاستقبلهم أصحاب ابن حَنيف فشَجَرهم طلحة والزبير وأصحابهما بالرّماح، فحمل عليهم حكِيم بن جبلة، فلم يزل هو وأصحابه يقاتلونهم حتى أخرجوهم من جميع السكك، ورماهم النساء من فوق البيوت بالحجارة، فأخِذوا إلى مقبرة بني مازن، فوقفوا بها مليًا حتى ثابت إليهم خيلهم، ثم أخذوا على مُسَنّاة البصرة، حتى انتهوا إلى الرابوقة، ثم أتوا سَبَخة دار الرزق، فنزلوها.

قال: وأتاهما عبد الله بن حكيم التميميّ لما نزلا السَّبَخة بكتب كانا كتباها إليه، فقال لطلحة: يا أبا محمد، أما هذا كتبك إلينا؟ قال: بلَى، قال: فكتبتَ أمس تدعونا إلى خلع عثمان وقتله، حتى إذا قتلتَه، أتيتنا ثائراً بدمه! فلعَمري ما هذا رأيك، لا تريد إلاّ هذه الدنيا. مهلاً إذا كان هذا رأيك، فلمَ قبلتَ من عليّ ما عرض عليك من البيْعة، فبايعته طائعاً راضياً، ثم نكثتَ بيعتك، ثم جئت لتدخِلنا في فتنتك! فقال: إنّ علياً دعاني إلى بيعته بعد ما بايع الناس، فعلمتُ لو لم أقبلْ ما عرضه عليّ لم يتمّ لي، ثم يغري بي مَنْ معه.

قال: ثم أصبحنا من غدٍ فصفًا للحرب، وخرج عثمان بن حنيف إليهما في أصحابه، فناشدَهما الله والإسلام، وأذكرهما بيعتهما عليًا عليه السلام، فقالا: نطلب بدم عثمان، فقال لهما: وما أنتما وذاك! أين بنوه؟ أين بنو عمّه الذين هم أحق به منكم! كلاّ والله، ولكنّكما حسدتماه، حيث اجتمع الناس عليه، وكنتما ترجُوَان هذا الأمر، وتعملان له! وهل كان أحدٌ أشدّ على عثمان قولاً منكما! فشتَماه شتماً قبيحاً، وذكرا أمّه، فقال للزبير: أما والله لولا صفيّة ومكانُها من رسول الله فإنها أدنتك إلى الظل، وأنّ الأمر بيني وبينك - يابن الصعبة - يعني طلحة - أعظم من القول، لأعلمتكما من أمركما ما يسوءكما. اللهم إني قد أعذرت إلى هذين الرجلين!

ثم حمل عليهم، واقتتل النّاس قتالاً شديداً، ثم تحاجزوا واصطلحوا على أن يكتبَ بينهم كتاب صلح فكتب:

هذا ما اصطلح عليه عثمان بن حَنيف الأنصاريّ ومَنْ معه من المؤمنين من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وطلحة والزّبير ومَنْ معهما من المؤمنين والمسلمين من شيعتهما، أنّ لعثمانَ بن حنيف دار الإمارة والرّحبة والمسجد وبيت المال والمنبر، وأنّ لطلحة والزُّبير ومَنْ معهما أن

ينزلوا حيث شاؤوا من البصرة، ولا يضارّ بعضُهم بعضاً في طريق ولا فُرْضة ولا سوق ولا شِرْعة ولا مِرْفق، حتى يقدَم أميرُ المؤمنين عليّ بن أبي طالب، فإنْ أحبُّوا دخلوا فيما دخلت فيه الأمّة، وإن أحبوا لحق كلُّ قوم بهواهم وما أحبوا من قتال أو سلم أو خروج أو إقامة، وعلى الفريقين بما كتبوا عهد الله وميثاقه، وأشدّ ما أخذه على نبيٍّ من أنبيائه، من عهد وذمة.

وختم الكتاب، ورجع عثمان بن حنيف حتى دخل دار الإمارة وقال لأصحابه: الحقوا رحمكم الله بأهلكم، وضعوا سلاحكم، وداووا جَرْحاكم. فمكثوا كذلك أياماً.

ثم إن طلحة والزبير قالا: إن قدِم عليّ ونحن على هذه الحال من القلّة والضعف، ليأخذن بأعناقنا، فأجمعا على مراسلة القبائل واستمالة العرب، فأرسلا إلى وجوهِ الناس وأهل الرياسة والشرف، يدعُوَانهم إلى الطلب بدم عثمان، وخلع عليّ، وإخراج ابن حنيف من البصرة. فبايعهم على ذلك الأزدُ وضَبّة وقَيْس بن عَيْلان كلّها إلا الرجُل والرجلين من القبيلة، كرهوا أمرهم فتوارَوْا عنهم، وأرسلوا إلى هلال بن وكيع التميمي فلم يأتهم، فجاءه طلحة والزبير إلى داره، فتوارى عنهما، فقالت له أمه: ما رأيت مثلَك! أتاك شيخا قريش فتواريت عنهما! فلم تزلْ به حتى ظهر لهما، وبايعهما ومعه بنو عمرو بن تميم كلّهم وبنو حَنْظَلة إلا بني يربُوع، فإن عامّتهم كانوا شيعة لعليّ عليه السلام، وبايعهم بنو دارم كلّهم إلا نفراً من بني مُجاشع ذوِي دين وفضل.

فلما استوسق لطلحة والزبير أمرُهما، خرجا في ليلة مظلمة ذات ريح ومطر، ومعهما أصحابهما، قد ألبسوهم الدروع، وظاهروا فوقها بالثياب، فانتهوْا إلى المسجد وقتَ صلاة الفجر، وقد سَبَقهم عثمان بن حَنِيف إليه، وأقيمت الصلاة، فتقدّم عثمان ليصلّيَ بهم، فأخّره أصحابُ طلحة والزبير، وقدموا الزبير فجاءت السبابجة - وهم الشُّرَط حرس بيت المال - فأخرجوا الزبير، وقدّموا عثمان، فغلبهم أصحاب الزبير، فقدّموا الزبير وأخّروا عثمان، فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس تطلعُ، وصاح بهم أهلُ المسجد: ألا تتّقون أصحاب محمد وقد طلعت الشمس! فغلب الزّبير فصلى بالنَّاس، فلما انصرف من صلاتِه، صاح بأصحابه المستسلِحين: أنْ خُذوا عثمان بن حُنَيف، فأخذوه بعد أن تضارب هو ومرْوان بن الحكَم بسيفيهما، فلما أسر ضُرِب ضرب الموت، ونتِف حاجباه وأشفاز عينيه، وكلّ شعرة في رأسه ووجهه، وأخذوا السبابجةَ وهم سبعون رجلاً، فانطلقوا بهم وبعثمان بن حُنيف إلى عائشة، فقالت لأبان بن عثمان: اخرج إليه فاضرب عنقه، فإنّ الأنصار قتلتْ إياك، وأعانت على قتله. فنادى عثمان: يا عائشة، ويا طلحة، ويا زُبير، إن أخي سهل بن حُنيف خليفةُ عليّ بن أبي طالب على المدينة، وأقسم بالله إنْ قتلتُموني ليضعَنّ السيفَ في بني أبيكم وأهليكم ورهطكم، فلا يُبقِي أحداً منكم. فكفُّوا عنه، وخافوا أن يقع سهل بن حُنيف بعيالاتهم وأهلهم بالمدينة، فتركوه.

وأرسلت عائشة إلى الزبير أن اقتلُ السُّبابجة، فإنّه قد بلغني الذي صنعوا بك.

قال: فذبحهم والله الزبير كما يذبح الغنم، ولِيَ ذلك منهم عبدُ الله ابنه، وهم سبعون رجلاً، وبقيَتْ منهم طائفة مستمسكين ببيت المال. قالوا: لا ندفُعه إلَيكم حتى يقدَم أمير المؤمنين، فسار إليهم الزبير في جيش ليلاً، فأوقع بهم، وأخذ منهم خمسين أسيراً، فقتلهم صَبْراً.

قال أبو مخنف: فحدّثنا الصقعب بن زهير، قال: كانت السبابجة القتلى يومئذٍ أربعمائة رجل، قال: فكان غَدْر طلحة والزبير بعثمانَ بن حُنيف أوّلَ غدر كان في الإسلام، وكان السبابجة أوّلَ قوم ضربت أعناقهم من المسلمين صَبْراً. قال: وخَيَّروا عثمانَ بن حُنَيف بَيْن أن يقيم أو يلحق بعليّ، فاختار الرّحيل، فخلَّوْا سبيلَه، فلحِق بعليّ عليه السلام، فلما رآه بكى، وقال له: فارقتك شيخاً، وجئتك أمرد، فقال عليّ: إنّا لله وإنا إليه راجعون! قالها ثلاثاً.

قلت: السبابجة لفظة معرّبة، قد ذكرها الجوهريّ في كتاب «الصّحاح» قال: هم قوم من السِّند، كانوا بالبصرة جَلاَوزة وحرّاس السجن، والهاء للعُجْمة والنسب، قال يزيدُ بن مفرّغ الحِمَيرِيّ:

وَطَمَاطِيمَ مِن سَبَابِيجَ خُزْرٍ يُلبِسُوني مع الصبَاح القُيودَا

قال: فلما بلغ حَكِيم بن جبلة ما صنع القوم بعثمان بن حُنيف، خرج في ثلاثمائة من عَبْد القيس مخالفاً لهم ومنابذاً، فخرجوا إليه، وحملوا عائشة على جَمَلٍ، فسمّى ذلك اليوم يوم الجمل الأصغر، ويوم عليّ يوم الجمل الأكبر.

وتجالدَ الفريقان بالسُّيوف، فشدّ رجل من الأزْد من عسكر عائشة عَلَى حَكِيم بن جبلة، فضرب رجله فقطعها، ووقع الأزديّ عن فرسه، فجثا حَكِيم، فأخذ رجله فرمى بها الأزديّ، فصرعه، ثم دبّ إليه فقتله متكئاً عليه، خانقاً له حتى زهقت نفسه، فمر بحَكِيم إنسانٌ وهو يجود بنفسه، فقال: مَنْ فعل بك؟ قال: وسادي، فنظر فإذا الأزديّ تحته، وكان حَكِيم شجاعاً مذكوراً.

قال: وقتل مع حَكِيم إخوة له ثلاثة، وقتل أصحابه كلُّهم، وهم ثلاثمائة من عَبْدِ القيس، والقليل منهم مِنْ بكر بن وائل، فلما صفت البَصْرة لطلحة والزبير بعد قتل حكيم وأصحابه وطرد ابن حُنَيف عنهما اختلفا في الصلاة، وأراد كلٌّ منهما أن يؤمّ بالناس، وخاف أن تكون صلاته خَلْفَ صاحبه تسليماً له ورضا بتقدّمه، فأصلحت بينهما عائشة، بأنْ جعلت عبد الله بن الزبير ومحمد بن طلحة يصلّيان بالناس، هذا يوماً وهذا يوماً.

قال أبو مِخْنف: ثم دخلا بيت المال بالبصرة، فلما رأوْا ما فيه من الأموال، قال الزُّبير: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِ﴾[1]، فنحن أحق بها من أهل البصرة،

(١) سورة الفتح، الآية: ٢٠.

فأخذا ذلك المال كلّه، فلما غلب عليٌّ عليه السلام ردّ تلك الأموال إلى بيت المال، وقَسَمها في المسلمين.

وقد ذكرنا فيما تقدّم كيفيّة الوقعة، ومقتل الزبير فارًّا عن الحرب خوفاً أو توبة - ونحن نقول: إنها توبة - وذكرنا مقتل طلحة والاستيلاء على أمّ المؤمنين وإحسان عليّ عليه السلام إليها وإلى مَنْ أسِر في الحرب، أو ظفر به بعدها.

منافرة بين ولدي علي عليه السلام وطلحة

كان القاسم بن محمد بن يحيى بن عبيد الله التيمي - يلقّب أبا بعرة، وليَ شُرْطة الكوفة لعيسى بن موسى بن محمد بن عليّ بن عبد الله بن العباس - كلّم إسماعيل بن جعفر بن محمد الصّادق عليه السلام بكلام خرجا فيه إلى المنافرة، فقال القاسم بن محمد: لم يزلْ فضلُنا وإحساننا سابغاً عليكم يا بني هاشم وعلى بني عبد مناف كافّة، فقال إسماعيل: أيّ فضل وإحسانٍ أسْدَيْتُموه إلى بني عبد مناف؟ أغْضَب أبوك جدّي بقوله: ليموتَنّ محمد ولنجولَنّ بين خلاخيل نسائهِ كما جال بين خلاخيل نسائنا. فأنزل الله تعالى مُراغمة لأبيك: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا﴾[1] ومنع ابنُ عمّك أمي حقها من فَدَك وغيرها من ميراث أبيها، وأجلَبَ أبوك على عثمان وحصره حتى قُتِل، ونكث بيعة عليّ وشام السيفَ في وجهه، وأفسد قلوب المسلمين عليه، فإنْ كان لبني عبد مناف قوم غير هؤلاء أسديتم إليهم إحساناً، فعرّفني مَنْ هم جعلتُ فداك!

منافرة بين ابن الزبير وابن عباس

وتزوّج عبد الله بن الزبير أمّ عمرو ابنة منظور بن زبّان الفزاريّة، فلمّا دخل بها قال لها تلك الليلة: أتدرين مَنْ معك في حَجَلتك؟ قالت: نعم، عبد الله بن الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزّى.

قال: ليس غير هذا! قالت: فما الذي تريد؟ قال: معكِ مَنْ أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسَد، لا بل بمنزلة العينين من الرأس. قالت: أما والله لو أنّ بعض بني عبد مناف حَضَرك لقال لك خلافَ قولك. فغضب، وقال: الطعام والشراب عليّ حرام حتى أحضرك الهاشميّين وغيرهم من بني عبد مناف، فلا يستطيعون لذلك إنكاراً. قالت: إن أطعتَني لم تفعل، وأنت أعلم وشأنك.

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٥٣.

فخرج إلى المسجد فرأى حَلقَةً فيها قوم من قريش، منهم عبد الله بن العباس وعبد الله بن الحصين بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف، فقال لهم ابنُ الزُّبير: أحِبّ أن تنطلقوا معي إلى منزلي، فقام القوم بأجمعهم حتى وَقَفُوا على باب بيته، فقال ابنُ الزبير: يا هذه اطْرَحِي عليك ستْرَكِ، فلما أخذوا مجالسهم دعا بالمائدة، فتغدّى القوم، فلما فرغوا قال لهم: إنما جمعتُكم لحديث ردّته عليّ صاحبة السّتر، وزعمتْ أنّه لو كان بعض بني عبد مناف حضرني لما أقرّ لي بما قلت، وقد حضرتم جميعاً. وأنت يا بنَ عباس، ما تقول؟ إني أخبرتُها أنّ معها في خِدْرها مَنْ أصبح في قريش بمنزلة الرأس من الجسد، بل بمنزلة العينين من الرأس! فردَّتْ عليّ مقالتي، فقال ابن عباس: أراك قصدْتَ قصدي، فإن شئت أن أقولَ قلت، وإن شئتَ أن أكفّ كففت، قال: بل قل، وما عسى أن تقول! ألستَ تعلم أنّي ابنُ الزبير حواريّ رسول الله ﷺ، وأنّ أمّي أسماءُ بنت أبي بكر الصديق ذات النِّطاقين، وأنّ عمتي خديجة سيدة نساء العالمين، وأن صفيّة عمّة رسول الله ﷺ جدّتي، وأنّ عائشة أمّ المؤمنين خالتي! فهل تستطيع لهذا إنكاراً!

قال ابن عباس: لقد ذكرت شَرَفاً شريفاً، وفخراً فاخراً، غير أنّك تُفاخر مَنْ بفخره فخرتُ، وبفضله سموتُ. قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك لم تذكر فخراً إلا برسول الله ﷺ، وأنا أولى بالفخر به منك. قال ابن الزبير: لو شئت لفخرتُ عليك بما كان قبل النبوّة، قال ابن عباس:

قد أنصفَ القارة مَنْ راماها

نشدتكم الله أيُّها الحاضرون! أعبد المطلب أشرف أم خويلد في قريش؟ قالوا: عبد المطلب، قال: أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد؟ قالوا: بل هاشم، قال: أفعبد مناف أشرف أم عبد العزّى؟ قالوا: عبد مناف، فقال ابن عباس:

تنافرني يابنَ الزُّبير وَقَدْ قَضَى ... عليك رسولُ الله لا قول هازِلِ
ولو غيرُنا يابنَ الزبير فخرتَه ... ولكنّما ساميتَ شمسَ الأصائل

قضى لنا رسول الله ﷺ بالفضل في قوله: «ما افترقت فرقتان إلا كنتُ في خيرهما»(١)، فقد فارقناك من بعد قصيّ بن كلاب، أفنحن في فرقة الخير أم لا؟ إن قلت: نعم خُصِمْت، وإن قلت: لا كفرت!

فضحك بعض القوم، فقال ابن الزبير: أما والله لولا تحرّمك بطعامنا يابنَ عباس لأعرقت جبينك قبل أن تقومَ من مجلسك، قال ابن عباس: ولم؟ أبباطل فالباطل لا يغلب الحق، أم بحق؟ فالحقّ لا يخشى من الباطل!

---

(١) ذكره السمعاني في الأنساب: ١/ ٤٤ رقم ٥٩، والبغدادي في كتاب المنمق: ١٩.

فقالت المرأة من وراء السّتر: إني والله لقد نهيتُه عن هذا المجلس، فأبى إلاّ ما ترون. فقال ابن عباس: مَهْ أيتها المرأة! اقنعي ببعلِك، فما أعظم الخطر، وما أكرم الخبر! فأخذ القوم بيد ابن عباس - وكان قد عَمِيَ - فقالوا: انهض أيها الرجل فقد أفحمتَه غير مرّة، فنهض وقال:

ألاَ يـاقَـوْمَـنَـا ارتـحـلُـوا وسـيـروا فـلـو تُـرِكَ الْـقَـطَـا لَـغَـفَـا ونَـامَـا

فقال ابن الزبير: يا صاحبَ القطا، أقبِلْ عليّ، فما كنتَ لتدَعني حتى أقول، وايمُ الله لقد عرف الأقوام أني سابقٌ غير مسبوق، وابن حواريّ وصدّيق، متبجّح في الشرف الأنيق، خيرٌ من طليق.

فقال ابن عباس: دَسَعتَ بجرّتك فلم تبق شيئاً؟ هذا الكلام مردود، من امرىءٍ حسود، فإنْ كنتَ سابقاً فإلى مَنْ سَبَقْت؟ وإن كنت فاخراً فبِمَن فخرت؟ فإن كنتَ أدركت هذا الفخر بأسرتك دون أسرتنا، فالفخر لك علينا، وإن كنتَ إنّما أدركتَه بأسرتنا فالفخر لنا عليك، والكَثْكَث في فمك ويديك. وأمّا ما ذكرت من الطّليق، فوالله لقد ابتُلِيَ فصبر، وأنعم عليه فشكر، وإن كان والله لوفيًا كريماً غير ناقض بيعةً بعد توكيدها، ولا مسلِم كتيبةً بعد التأمّر عليها.

فقال ابن الزبير: أتعيّر الزبير بالجبن، والله إنك لتعلم منه خلاف ذلك!

قال ابن عباس: والله إني لا أعلم إلاّ أنّه فرّ وما كرّ، وحارب فما صبر، وبايع فما تمم، وقطع الرحم، وأنكر الفضل، ورام ما ليس له بأهل.

وَأَدْرَكَ مِـنْـهَـا بـعـضَ مـا كـان يـرتـجـى وقـصّـر عـن جَـرْيِ الـكـرام وبـلّـدَا

ومـا كـان إلا كـالـهـجـيـن أمـامـه عَـنَـاقٌ فـجـاراه الـعَـنَـاقُ فـأجـهـدا

فقال ابن الزبير: لم يبق يا بني هاشم غير المشاتمة والمضاربة.

فقال عبد الله بن الحصين بن الحارث: أقمناه عنك يابن الزبير، وتأبى إلا منازعته! والله لو نازعته من ساعتك إلى انقضاء عمرك ما كنتَ إلاّ كالسغِب الظمآن، يفتح فاه يستزيد من الريح، فلا يشبع من سَغَب، ولا يروى من عطش، فقل إن شئت، أو فدع. وانصرف القوم[1].

١٧٤ - ومن خطبة له عليه السلام في الرسول ومن أجدر بالخلافة بعده

الأصل: أَمِينُ وَحْيِهِ، وَخَاتَمُ رُسُلِهِ، وَبَشِيرُ رَحْمَتِهِ، وَنَذِيرُ نِقْمَتِهِ. أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ أَحَقَّ النَّاس بِهَذَا الأَمرِ أَقْوَاهُمْ عَلَيْهِ، وَأَعْلَمُهمْ بِأَمرِ آللهِ فِيهِ، فَإِنْ شَغَبَ شَاغِبٌ ٱسْتُعْتِبَ، فَإِنْ أَبى قُوتِلَ. وَلَعَمْرِي لَئِنْ كَانَتِ الإِمَامَةُ لاَ تَنْعَقِدُ حَتَّى تَحْضُرَها عامَّةُ النَّاسِ، مَا إِلى ذٰلِكَ

(١) أخرجه الأحمدي في مواقف الشيعة: ١/ ١١٦.

سَبِيلٌ، وَلَكِنْ أهلُهَا يَحْكُمُونَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنْهَا، ثُمَّ لَيْسَ لِلشَّاهِدِ أَنْ يَرْجِعَ، وَلاَ لِلْغَائِبِ أَنْ يَخْتَارَ. أَلاَ وَإِنِّي أُقَاتِلُ رَجُلَيْنِ: رَجُلاً ٱدَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَآخَرَ مَنَعَ الَّذِي عَلَيْهِ.

الشرح: صَدْر الكلام في ذكر رسول الله صلى الله عليه وآله، ويتلوه فُصول:

أولها: أنّ أحقّ الناس بالإمامة أقواهم عليها، وأعلمهم بحكم الله فيها، وهذا لا ينافِي مذهبَ أصحابِنا البغداديين في صحّة إمامة المفضول؛ لأنّه ما قال: إن إمامة غير الأقوى فاسدة، ولكنه قال: إنّ الأقوى أحقّ، وأصحابنا لا ينكرون أنه عليه السلام أحقُّ ممن تقدّمه بالإمامة مع قولهم بصحّة إمامة المتقدمين؛ لأنه لا منافاة بين كونه أحقّ، وبين صحة إمامة غيره.

فإن قلت: أيّ فرق بين أقواهم عليه وأعلمهم بأمر الله فيه؟ قلت: أقواهم أحسنُهم سياسة، وأعلمهم بأمر الله أكثرُهم علماً وإجراءً للتدبير بمقتضى العلم، وبين الأمريْن فرق واضح، فقد يكون سائساً حاذقاً، ولا يكون عالماً بالفقه، وقد يكون سائساً فقيهاً، ولا يجري التدبير على مقتضى علمه وفقهه.

وثانيها: أنّ الإمامة لا يشترط في صحة انعقادها أن يحضرُها الناسُ كافّة؛ لأنه لو كان ذلك مشتَرطاً لأدّى إلى ألاّ تنعقد إمامة أبداً لتعذّر اجتماع المسلمين من أطراف الأرض، ولكنّها تنعقد بعقد العلماء وأهل الحلّ والعقد الحاضرين، ثم لا يجوز بعد عقدها لحاضريها أن يرجعُوا من غير سبب يقتَضِي رجوعَهم، ولا يجوز لمن غاب عنها أن يختار غير مَنْ عقد له، بل يكون محجوجاً بعقد الحاضرين، مكلّفاً طاعة الإمامة المعقود له، وعلى هذا جرت الحال في خلافة أبي بكر وعمر وعثمان، وانعقد إجماع المسلمين عليه، وهذا الكلام تصريح بصحّة مذهب أصحابنا في أنّ الاختيار طريق إلى الإمامة، ومبطلٌ لما تقوله الإماميّة من دعوى النصّ عليه، ومن قولهم: لا طريق إلى الإمامة سوى النصّ أو المعجز.

وثالثها: أنّ الخارج على الإمام يستعتَب أولاً بالكلام والمراسلة، فإن أبى قُوتل، وهذا هو نصّ الكتاب العزيز: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[1].

ورابعها: أنه يقاتِل أحدَ رجلين: إمّا رجلاً ادّعى ما ليس له نحو أن يخرُج على الإمام مَن يدّعي الخلافة لنفسه، وإمّا رجلاً منع ما عليه، نحو أن يخرج على الإمام رجلٌ لا يدّعي الخلافة ولكنه يمتنع من الطاعة فقط.

---

(١) سورة الحجرات، الآية: ٩.

فإن قلت: الخارج عَلَى الإمام مدّعٍ الخلافة لنفسه، مانع ما عليه أيضاً لأنه قد امتنع من الطاعة، فقد دخل أحدُ القسمَيْن في الآخر!

قلت: لـمّا كان مدّعي الخلافة قد اجتمع له أمران: إيجابيّ وسلبيّ، فالإيجابي دعواه الخلافة، والسلبيّ امتناعُه من الطاعة، كان متميّزاً ممن لم يحصل له إلاّ القسم السلبيّ فقط، وهو مانع الطاعة لا غير، فكان الأحسن في فنّ علم البيان أن يشتمل اللفظ على التقسيم الحاصر للإيجاب والسلب، فلذلك قال: «إمّا مدعياً ما ليس له، أو مانعاً ما هو عليه».

الأصل: أُوصِيكُمْ - عِبَادَ ٱللهِ - بِتَقْوَى ٱللهِ فَإِنهَا خَيْرُ مَا تَوَاصَى ٱلْعِبَادُ بِهِ، وَخَيْرُ عَوَاقِبِ الأُمُورِ عِنْدَ ٱللهِ، وَقَدْ فُتِحَ بَابُ ٱلْحَرْبِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ ٱلْقِبْلَةِ، وَلاَ يَحْمِلُ هَذَا ٱلْعِلْمَ إلاَّ أَهْلُ ٱلْبَصَرِ وَالصَّبْرِ وَٱلْعِلْمِ بِمَوَاقِعِ ٱلْحَقِّ، فَامْضُوا لما تُؤْمَرُونَ بِهِ، وَقِفُوا عِنْدَمَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ، وَلاَ تَعْجَلُوا فِي أَمْرٍ حَتَّى تَتَبَيَّنُوا، فَإِنَّ لَنَا مَعَ كُلِّ أَمْرٍ تُنْكِرُونَهُ غِيَراً.

أَلاَ وَإِنَّ هَذِهِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي أَصْبَحْتُمْ تَتَمَنَّوْنَهَا، وَتَرْغَبُونَ فِيهَا، وَأَصْبَحَتْ تُغْضِبُكُمْ وَتُرْضِيكُمْ، لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ وَلاَ مَنْزِلِكُمُ ٱلَّذِي خُلِقْتُمْ لَهُ، وَلاَ ٱلَّذِي دُعِيتُمْ إِلَيْهِ.

أَلاَ وَإِنهَا لَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ لَكُمْ، وَلاَ تَبْقَوْنَ عَلَيْهَا، وَهِيَ وَإِنْ غَرَّتْكُمْ مِنْهَا فَقَدْ حَذَّرَتْكُمْ شَرَّهَا، فَدَعُوا غُرُورَهَا لِتَحْذِيرِهَا، وَأَطْمَاعَهَا لِتَخْوِيفِهَا، وَسَابِقُوا فِيهَا إِلَى الدَّارِ ٱلَّتِي دُعِيتُمْ إِلَيْهَا، وَٱنْصَرِفُوا بِقُلُوبِكُمْ عَنْهَا، وَلاَ يَخِنَّنَّ أَحَدُكُمْ خَنِينَ ٱلْأَمَةِ عَلَى مَا زُوِيَ عَنْهُ مِنْهَا، وَٱسْتَتِمُّوا نِعْمَةَ ٱللهِ عَلَيْكُمْ بِالصَّبْرِ عَلَى طَاعَةِ ٱللهِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى مَا ٱسْتَحْفَظَكُمْ مِنْ كِتَابِهِ.

أَلاَ وَإِنَّهُ لاَ يَضُرُّكُمْ تَضْيِيعُ شَيْءٍ مِنْ دُنْيَاكُمْ بَعْدَ حِفْظِكُمْ قَائِمَةَ دِينِكُمْ. أَلاَ وَإِنَّهُ لاَ يَنْفَعُكُمْ بَعْدَ تَضْيِيعِ دِينِكُمْ شَيْءٌ حَافَظْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِ دُنْيَاكُمْ.

أَخَذَ ٱللهُ بِقُلُوبِنَا وَقُلُوبِكُمْ إِلَى ٱلْحَقِّ، وَأَلْهَمَنَا وَإِيَّاكُمُ الصَّبْرَ!

الشرح: لم يكن المسلمون قَبْلَ حربِ الجمل يعرفون كيفيّة قتالِ أهل القبلة، وإنما تعلّموا فقه ذلك من أمير المؤمنين عليه السلام.

وقال الشافعي: لولا عليّ لما عرِف شيء من أحكام أهل البغي.

قوله عليه السلام: «ولا يحمل هذا العلمَ إلا أهلُ البصر والصبر»، وذلك لأنّ المسلمين عَظُم عندهم حربُ أهل القبلة، وأكبروه، ومَنْ أقدم عندهم عليه أقدَم على خوف وحذر، وفقال عليه السلام: إن هذا العلم ليس يدركه كلّ أحدٍ، وإنّما له قوم مخصوصون.

ثم أمرهم بالمضيّ عندما يأمرهم به، وبالانتهاء عمّا ينهاهم عنه، ونهاهم عن أن يعجّلوا بالحكم على أمر ملتبس حتى يتبيّن ويتّضح.

ثم قال: إنّ عندنا تغييراً لكلّ ما تنكرونه من الأمور التي يثبت أنه يجب إنكارها وتغييرها، أي لستُ كعثمان أصرّ على ارتكاب ما أنهى عنه، بل أغيّر كلّ ما ينكره المسلمون، ويقتضي الحال والشرع تغييرَه. ثم ذكر أنّ الدنيا التي تغضب الناس وترضيهم، وهي منتهى أمانيهم ورغبتهم، ليست دارهم، وإنما هي طريقٌ إلى الدار الآخرة، ومدّة اللبْث في ذلك الطريق يسيرة جداً.

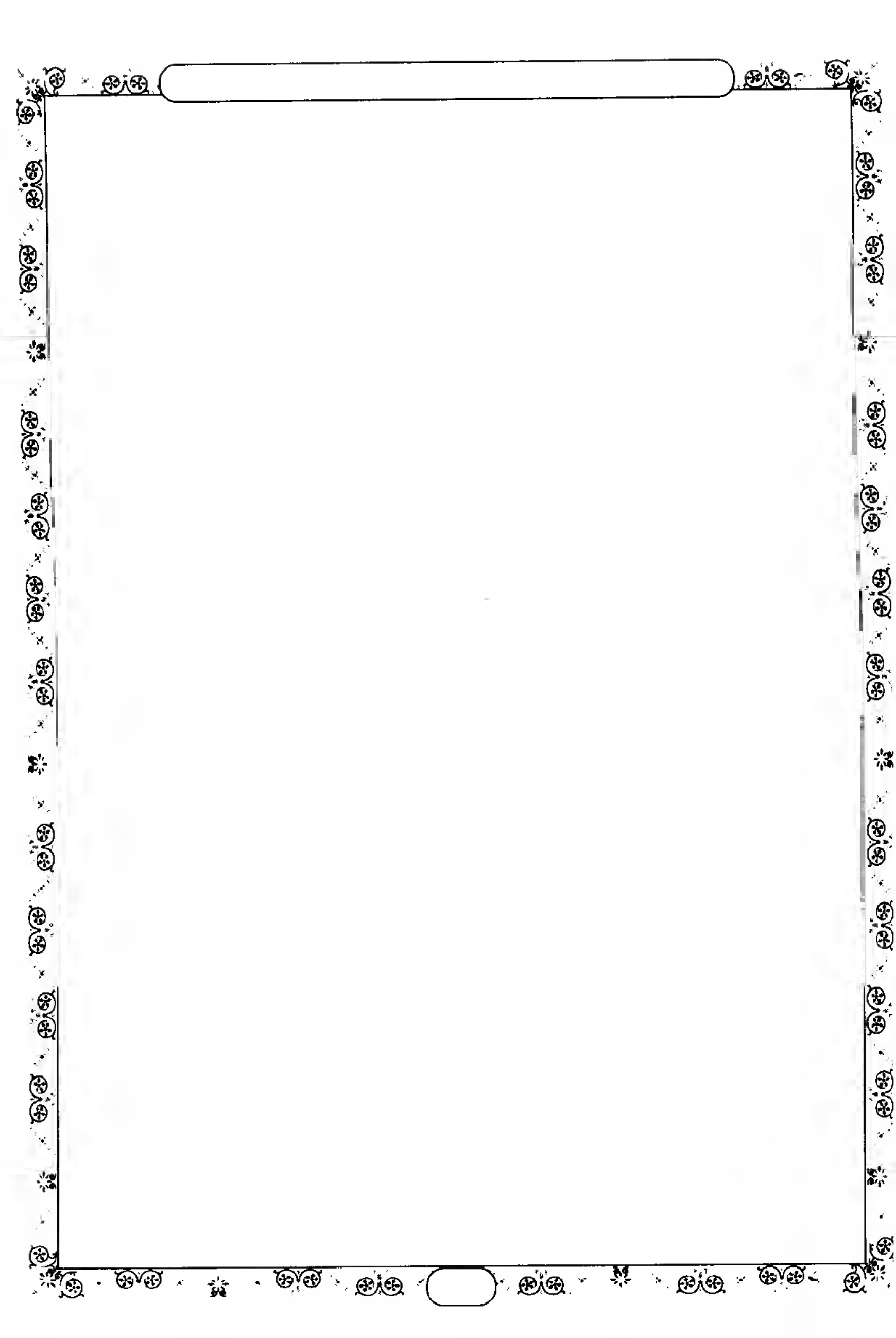
وقال: إنها وإنْ كانت غرّارة فإنها منذرة ومحذّرة لأبنائها بما رأوه من آثارها في سلفَهم وإخوتهم وأحبائهم، ومناداتها على نفسها بأنها فاعلة بهم ما فعلت بأولئك من الفناء، وفراق المألوف.

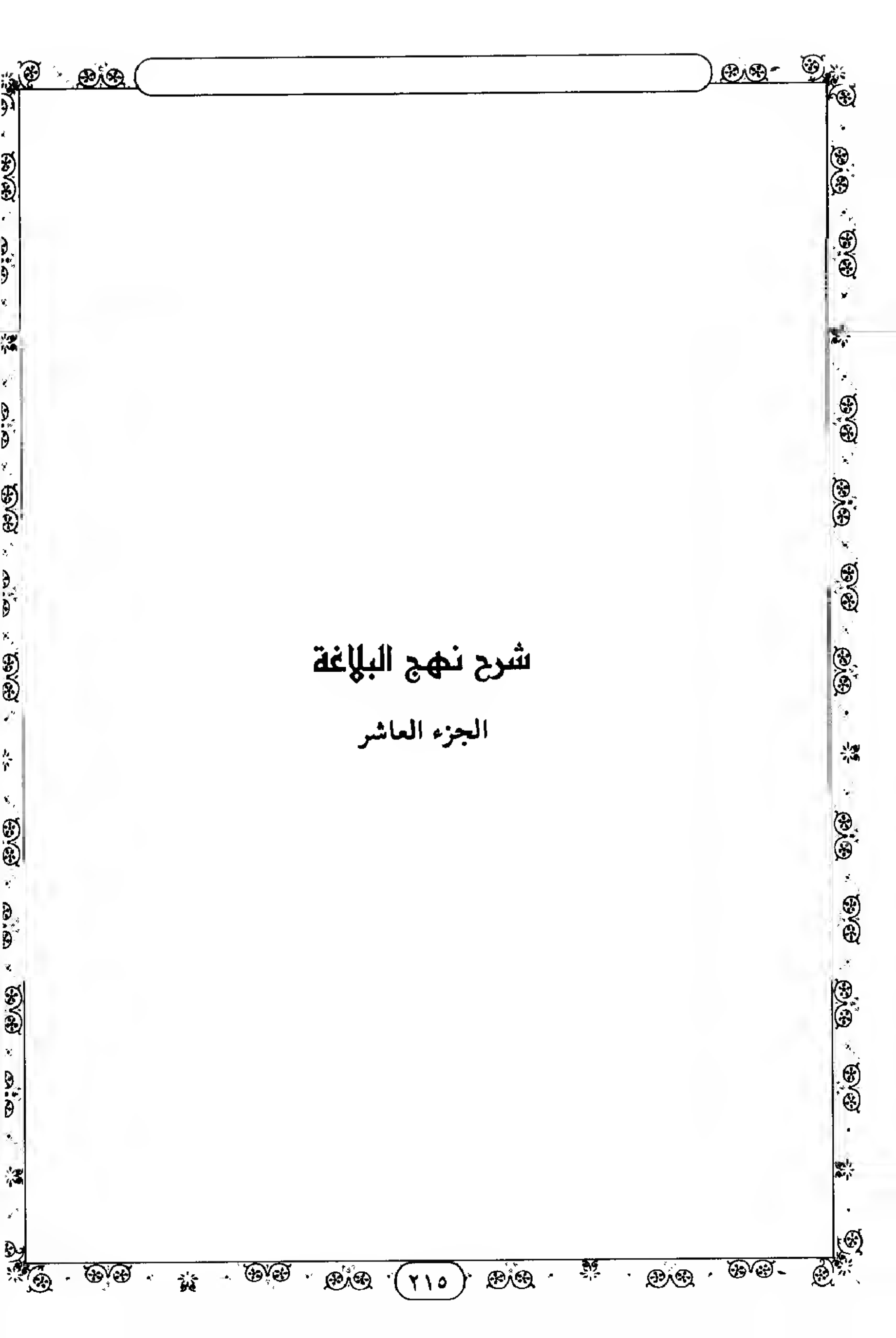
قال: فدعوا غرورَها لتحذيرها، وذلك لأنّ جانب تحذيرها أوْلى بأن يعمل عليه من جانب غرورها؛ لأن غرورها إنما هو بأمرٍ سريع مع التصرّم والانقضاء، وتحذيرها إنما هو لأمر جليل عظيم، فإن الفناء المعجّل محسوس، وقد دلّ العقل والشرائع كافّة على أنّ بعد ذلك الفناء سعادة وشقاوة، فينبغي للعاقل أن يحذَر من تلك الشقاوة، ويرغب في تلك السعادة، ولا سبيلَ إلى ذلك إلا برفض غُرور الدنيا، على أنه لو لم يكن ذلك لكان الواجب على أهل اللبّ والبصيرة رفضُها؛ لأن الموجود منها خيال، فإنه أشبه شيء بأحلام المنام، فالتمسك به والإخلاد إليه حُمْق.

والخنين: صوت يخرجُ من الإنف عند البكاء، وأضافه إلى الأمَة؛ لأنّ الإماء كثيراً ما يُضرَبْن فيبكين، ويسمَع الخنين منهنّ؛ ولأن الحرّة تأنف من البكاء والخنين. وزوى: قبض.

ثم ذكر أنّه لا يضرّ المكلّف فوات قسط من الدنيا إذا حفظ قائمة دينه، يعني القيام بالواجبات والانتهاء عن المحظورات، ولا ينفعه حصولُ الدنيا كلّها بعد تضييعه دينه؛ لأن ابتياع لذّة متناهية بلذة غير متناهية يُخرج اللذة المتناهية من باب كونها نفعاً، ويدخلها في باب المضارّ، فكيف إذا انضاف إلى عدم اللذة غير المتناهية حصول مضارّ وعقوبات غير متناهية، أعاذنا الله منها!

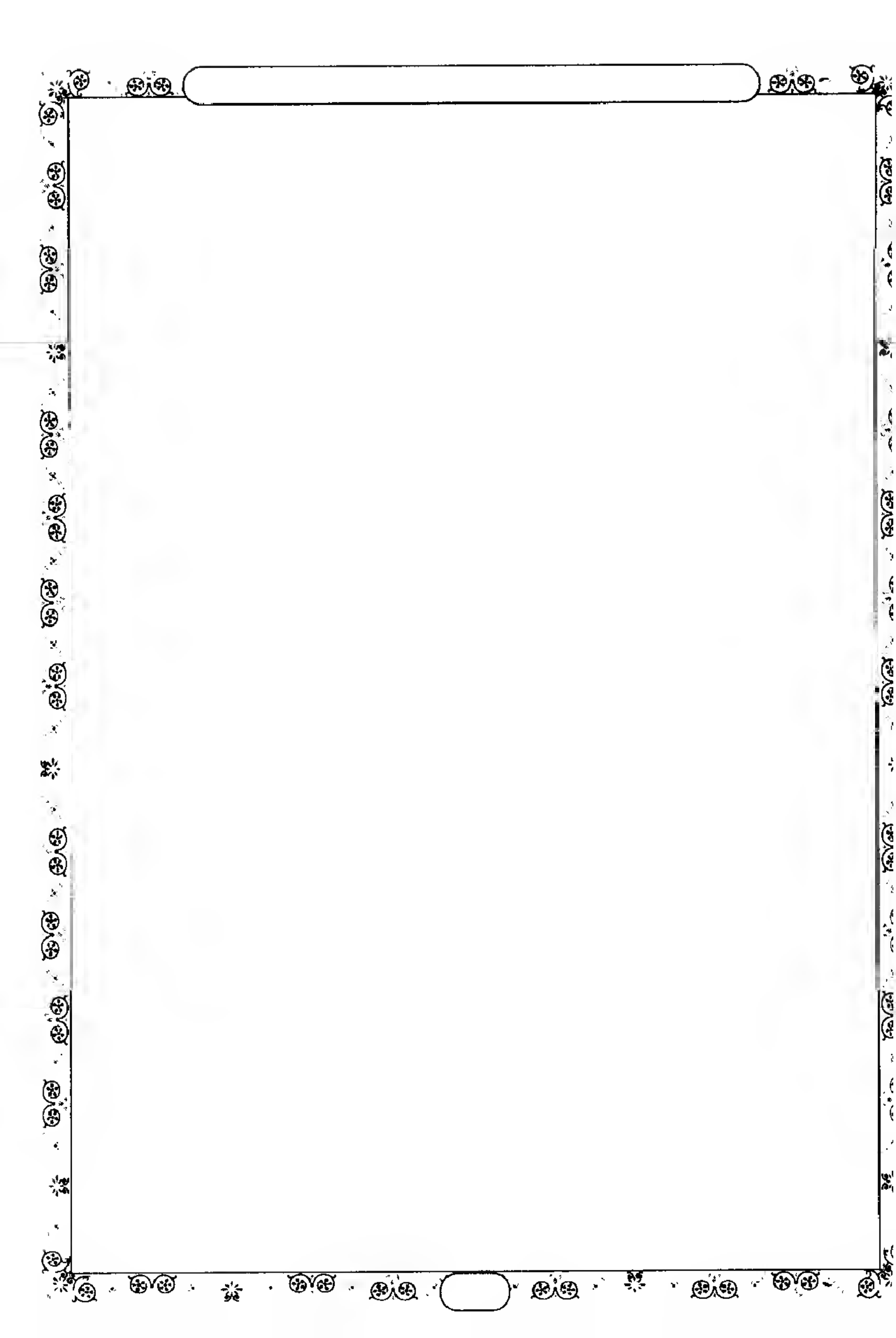
تم الجزء التاسع من شرح نهج البلاغة ويليه الجزء العاشر





شرح نهج البلاغة

الجزء العاشر



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله الواحد العدل

١٧٥ - ومن كلام له عليه السلام في معنى طلحة بن عبيد الله

الأصل: قَدْ كُنْتُ وَمَا أُهَدَّدُ بِالْحَرْبِ، وَلاَ أُرَهَّبُ بِالضَّرْبِ، وَأَنَا عَلَى مَا وَعَدَنِي رَبِّي مِنَ النَّصْرِ، وَٱللهِ مَا ٱسْتَعْجَلَ مُتَجَرِّداً لِلطَّلَبِ بِدَمِ عُثْمَانَ إِلاَّ خَوْفاً مِنْ أَنْ يُطَالَبَ بِدَمِهِ، لأَنَّهُ مَظِنَّتُهُ، وَلَمْ يَكُنْ فِي ٱلْقَوْمِ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَأَرَادَ أَنْ يُغَالِطَ بِمَا أَجْلَبَ فِيهِ لِيَلْتَبِسَ ٱلأَمْرُ، وَيَقَعَ الشَّكُّ.

وَوَٱللهِ مَا صَنَعَ فِي أَمْرِ عُثْمَانَ وَاحِدَةً مِنْ ثَلاَثٍ: لَئِنْ كَانَ ٱبْنُ عَفَّانَ ظَالِماً - كَمَا كَانَ يَزْعُمُ - لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُوَازِرَ قَاتِلِيهِ، وَأَنْ يُنَابِذَ نَاصِرِيهِ. وَلَئِنْ كَانَ مَظْلُوماً، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمُنَهْنِهِينَ عَنْهُ، وَالْمُعَذِّرِينَ فِيهِ. وَلَئِنْ كَانَ فِي شَكٍّ مِنَ ٱلْخَصْلَتَيْنِ، لَقَدْ كَانَ يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْتَزِلَهُ، وَيَرْكُدَ جَانِباً وَيَدَعَ النَّاسَ مَعَهُ. فَمَا فَعَلَ وَاحِدَةً مِنَ الثَّلاَثِ، وَجَاءَ بِأَمْرٍ لَمْ يُعْرَفْ بَابُهُ، وَلَمْ تَسْلَمْ مَعَاذِيرُهُ.

الشرح: كان ها هنا تامّة، والوا واو الحال، أي خُلِقْت ووجدتُ وأنا بهذه الصفة، كما تقول: خلقني الله وأنا شجاع.

ويجوز أن تكون الواو زائدة، وتكون «كان» ناقصة، وخبرها «ما أهدّد»، كما في المثل: «لقد كنت وما أُخَشَّى بالذئب»[1].

فإن قلت: إذا كانت ناقصة، لزم أن تكون الآن بخلاف ما مضى، فيكون الآن يهدَّد ويُرَهَّب.

قلت: لا يلزم ذلك، لأنّ «كان» الناقصة للماضي من حيث هو ماضٍ، وليس يشترط في ذلك أن يكون منقطعاً، بل قد يكون دائماً، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾[2].

---

(١) انظر «مجمع الأمثال» للميداني (٣/ ٩٢) برقم (٣٢٥٧).
(٢) سورة النساء، الآية: ١٧.

ثم ذكَر عليه السلام أنه على ما وعده ربُّه من النصر، وأنّه واثق بالظَّفَر والغَلبة الآن، كما كانت عادتُه فيما سبق.

ثم شرح حال طلحة، وقال: إنّه تجرّد للطّلب بدم عثمان، مغالطةً للنّاس، وإيهاماً لهم أنه بريء من دمه، فيلتبِسُ الأمرُ، ويقع الشكّ.

وقد كان طلحةُ أجهَد نفسَه في أمرِ عثمان والإجلاب عليه، والحصرِ له، والإغراء به، ومنَّتْهُ نفسه الخلافة، بل تلبّس بها، وتسلّم بيوت الأموال وأخذ مفاتيحها، وقاتل النّاس، وأحدقوا به، ولم يبقَ إلا أن يَصْفِق بالخلافة على يده.

ذكر أبو جعفر محمد بن جرير الطبريّ في كتاب «التاريخ»[1] قال:

حدّثني عمر بن شبّة، عن عليّ بن محمد، عن عبد ربّه، عن نافع، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن حَكِيم بن جابر، قال: قال عليّ عليه السلام لطلحة وعثمان محصور: أنشُدك الله إلاّ رددتَ الناس عن عثمان! قال: لا والله حتى تُعطِي بنو أميّة الحقَّ من أنفسها.

وروى الطبري أن عثمان كان له عَلَى طلحة خمسون ألفاً، فخرج عثمان يوماً إلى المسجد، فقال له طلحة: قد تهيّأ مالك فاقبِضْه، فقال: هو لك يا أبا محمد معونة لك على مروءتك.

قال: فكان عثمان يقولُ وهو محصور: جزاء سِنِمّار.

وروى الطبريّ أيضاً أنّ طلحة باع أرضاً له من عثمان بسبعمائة ألف، فحملها إليه، فقال طلحة: إنّ رجلاً يبيت وهذه عنده وفي بيته، لا يدري ما يطرُقه من أمر الله لغريرٌ بالله؟ فبات ورسله تختلف بها في سِكَكِ المدينة يقسِمُها حتّى أصبح وما عنده منها درهمٍ واحد.

قال الطبريّ: روى ذلك الحسن البصريّ، وكان إذا روَى ذلك يقول: ثم جاء إلينا يطلب الدينار والدرهم - أو قال: والصفراء والبيضاء.

وروى الطّبريّ أيضاً، قال: قال ابنُ عباس رحمه الله: لما حُجِجْت بالنّاس نيابة عن عثمان وهو محصور، مررت بعائشة بالصُّلْصُل، فقالت: يابنَ عباس، أنشُدك الله فإنّك قد أعطِيتَ لساناً وعقلاً، أن تُخَذِّل الناسَ عن طلحة، فقد بانت لهم بصائرهم في عثمان وأنهجَت، ورفعت لهم المنار، وتحَلّبوا من البلدان لأمر قد حُمّ، وإن طلحة - فيما بلغني - قد اتّخذ رجالاً على بيوت الأموال، وأخذ مفاتيحَ الخزائن وأظنّه يسير إن شاء الله بسيرة ابن عمّه أبي بكر، فقال: يا أمّه، لو حدَث بالرَّجل حدثٌ ما فزع الناس إلاّ إلَى صاحبنا، فقالت: إيهاً عنك يابن عباس، إني لستُ أريد مكابَرتك ولا مجادَلتك.

---

(١) تاريخ الطبري أو: «تاريخ الأمم والملك»: للإمام أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، المتوفى سنة (٣١٠هـ). «كشف الظنون» (١/ ٢٩٧).

وروى المدائنيّ في كتاب «مقتل عثمان» أنّ طلحة مَنع من دفنه ثلاثة أيام، وأنّ علياً عليه السلام لم يبايع الناس إلاّ بعد قتل عثمان بخمسة أيام، وأن حَكِيم بن حزام أحدَ بني أسد بن عبد العُزّى، وجُبير بن مطعم بن الحارث بن نوفل استنجدَ بعليّ عليه السلام على دفنه، فأقعد طلحةُ لهم في الطّريق ناساً بالحجارة، فخرج به نفر يسير من أهله وهم يريدون به حائطاً بالمدينة يعرف بحَشّ كَوْكب كانت اليهود تَدْفِنُ فيه موتاهم، فلما صار هناك رَجَم سريره، وهمّوا بطرحه، فأرسل عليّ عليه السلام إلى النّاس يعزم عليهم ليكفُّوا عنه فكفُّوا، فانطلقوا به حتى دفنوه في حَشّ كوكب.

وروى الطبريّ نحو ذلك، إلاّ أنه لم يذكر طلحة بعينه، وزاد فيه أنّ معاوية لما ظَهَر على النّاس، أمر بذلك الحائط فهدم حتى أفضى به إلى البَقيع، وأمر الناس أن يدفنوا موتاهم حول قبرِه حتى اتّصل ذلك بمقابر المسلمين.

وروى المدائنيّ في هذا الكتاب، قال: دفن عثمان بين المغرب والعَتَمة، ولم يشهد جنازته إلاّ مَرْوان بن الحكَم وابنه عثمان وثلاثةٌ من مواليه، فرفعت ابنتُه صوتها تندُبه، وقد جعل طلحة ناساً هناك أكمنهم كميناً، فأخذتهم الحجارة، وصاحوا: نعثل نعثل! فقالوا: الحائط الحائط! فدفن في حائطٍ هناك.

وروى الواقديّ، قال: لما قتِل عُثمان، تكلّموا في دفنه، فقال طلحة: يُدفن بدَيْر سَلْع - يعني مقابر اليهود.

وذكر الطبريّ في تاريخه هذا، إلا أنه روي عن طلحة فقال: قال رجل: يدفن بدير سلْع - فقال حكيم بن حزام: والله لا يكون هذا أبداً وأحد من ولد قصيّ [حيّ] حتى كاد الشرُّ يلتحم، فقال ابن عُدَيْس البَلَوِيّ: أيها الشيخ، وما يضرّك أين دفن! قال: لا يدفن إلا ببقيع الغَرْقد، حيث دفن سَلَفُه ورهطه، فخرج به حكيم بن حزام في اثني عشر رجلاً، منهم الزّبير بن العوام، فمنعهم الناس عن البقيع، فدفنوه بحَشّ كَوْكب.

وروى الطبريّ في التاريخ أنّ عثمان لما حُصِر، كان عليّ عليه السلام بخيْبر في أمواله، فلما قدم أرسل إليه يدعوه، فلما دخل عليه قال له: إنّ لي عليك حقوقاً: حقّ الإسلام، وحقّ النسب، وحقّ ما لي عليك من العهد والميثاق، ووالله أن لو لم يكنْ من هذا كلّه شيء وكنّا في جاهلية، لكان عاراً على بني عبد مناف أن يبتزّهم أخو تَيْم مُلْكَهم - يعني طلحة - فقال له عليه السلام: سيأتيك الخبر، ثم قام فدخل المسجد، فرأى أسامة بن زيد جالساً، فدعاه فاعتمد على يدِه، وخرج يمشي إلى طلحة، فدخل داره، وهي دِحَاسٌ[1] من الناس، فقام عليه السلام، فقال: يا

---

(١) الدحس: الإمتلاء. القاموس، مادة (دحس).

طلحة، ما هذا الأمر الذي وقعتَ فيه؟ فقال: يا أبا حسن، أبعدَ ما مسّ الحِزام الطُّبيين! فانصرف عليّ عليه السلام ولم يُحِرْ إليه شيئاً حتى أتى بيت المال، فنادى: افتحُوا هذا الباب، فلم يقدروا على فَتْحِه، فقال: اكسِرُوه، فكسِر فقال: أخرجوا هذا المال، فجعلوا يخرجونه وهو يعطي الناس، وبلغ الذين في دار طلحة ما صنع عليّ عليه السلام، فجعلوا يتسلّلون إليه حتى بقي طلحة وحده، وبلغ الخبرُ عثمان، فسُرّ بذلك، ثم أقبل طلحة يمشي عامداً إلى دار عثمان، فاستأذن عليه، فلما دخل قال: يا أمير المؤمنين، أستغفر الله وأتوبُ إليه، لقد رمت أمراً حال الله بيني وبينه. فقال عثمان: إنّك والله ما جئت تائباً، ولكن جئت مغلوباً، والله حسيبك يا طلحة[1]!

ثم قسم عليه السلام مالَ طلحة، فقال: لا يخلو إمّا أن يكون معتقِداً حلّ دم عثمان، أو حرمته، أو يكون شاكًا في الأمرين، فإن كان يعتقد حلّه لم يجُزْ له أن ينقُضَ البَيْعة لنصرة إنسان حلال الدم، وإن كان يعتقد حرمته، فقد كان يجب عليه أن ينهِنهَ عنه الناس، أيْ يكفّهم.

وأن يعذّر فيه، بالتشديد أي يقصّر ولم يفعل ذلك، وإنْ كان شاكًا، فقد كان يجب عليه أن يعتزِل الأمر، ويركد جانباً، ولم يعتزل وإنما صَلِيَ بنار الفتنة، وأصلاها غيرَه.

فإن قلت: يمكن أن يكون طلحةُ اعتقَد إباحة دم عثمان أوّلاً، ثم تبدّل ذلك الاعتقاد بعد قتله، فاعتقد أنّ قتلَه حرام، وأنه يجب أن يقتصّ من قاتليه!

قلت: لو اعترف بذلك لم يقّسم عليّ عليه السلام هذا التقسيم، وإنّما قسّمه لبقائه على اعتقاد واحد، وهذا التقسيم مع فرض بقائه على اعتقاد واحدٍ صحيح لا مطعن فيه، وكذا كان حال طلحة فإنّه لم ينقل عنه أنه قال: ندمت على ما فعلت بعثمان.

فإن قلت: كيف قالَ أمير المؤمنين عليه السلام: «فما فعل واحدة من الثلاث»، وقد فعل واحدة منها، لأنه وازر قاتليه حيث كان محصوراً!

قلت: مراده عليه السلام أنّه إن كان عثمان ظالماً، وجب أن يوازر قاتليه بعد قُتله، يحامي عنهم، ويمنعهم ممّن يروم دماءهم، ومعلوم أنّه لم يفعل ذلك، وإنما وازرهم وعثمان حيّ، وذلك غير داخل في التقسيم.

---

١٧٦ – من خطبة له عليه السلام في ذم الغافلين

الأصل: أَيُّهَا ٱلنَّاس غَيْرُ المَغْفول عَنهم، وَالتَّارِكُونَ، وَالمَاخُوذُ مِنْهُمْ.

---

(١) تاريخ الطبري: أخرجه الطبري في تاريخه: ٣/ ٤٥٣.

مَالِي أَرَاكُمْ عَنِ ٱللهِ ذَاهِبِينَ، وَإِلَى غَيْرِهِ رَاغِبِينَ! كَأَنَّكُمْ نَعَمٌ أَرَاحَ بِهَا سَائِمٌ إِلَى مَرْعًى وبِيٍّ، وَمَشْرَبٍ دَوِيٍّ، وَإِنَّمَا هي كَالمَعْلُوفَةِ للمُدَى، لاَ تَعْرِفُ مَاذَا يُرَادُ بِهَا! إِذَا أُحْسِنَ إِلَيْهَا تَحْسِبُ يَوْمَهَا دَهْرَهَا، وَشِبَعَهَا أَمْرَهَا.

وَٱللهِ لَوْ شِئْتُ أن أُخْبِرَ كُلَّ رَجُلٍ مِنكُمْ بِمَخْرَجِهِ وَمَوْلِجِهِ وَجَمِيعِ شَأْنِهِ لَفَعَلْتُ، وَلَكِن أَخَافُ أَنْ تَكْفُرُوا فِيَّ بِرَسُولِ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم. أَلاَ وَإِنِّي مُفْضِيهِ إِلَى الخَاصَّةِ مِمَّنْ يُؤْمَنُ ذَلِكَ مِنه. وَالَّذِي بَعَثَهُ بِالْحَقِّ، وَٱصْطَفَاهُ عَلَى ٱلْخَلْقِ، مَا أَنْطِقُ إِلاَّ صَادِقاً، وَلَقَدْ عَهِدَ إِلَيَّ بِذَلِكَ كُلِّهِ وَبِمهلِكِ مَنْ يَهْلِكُ، وَمَنجي مَنْ يَنْجُو، وَمآل هَذَا الأَمْرِ، وَمَا أَبْقَى شَيْئاً يَمُرُّ عَلَى رَاسِي إِلاَّ أَفْرَغَهُ فِي أُذُنَيَّ، وَأَفْضَى بِهِ إِلَيَّ.

أَيُّهَا النَّاس، إِنِّي وَٱللهِ مَا أَحُثُّكُمْ عَلَى طَاعَةٍ إِلاَّ وَأَسْبِقُكُمْ إِلَيْهَا، وَلاَ أَنهاكُمْ عَنْ مَعْصِيَةٍ إِلاَّ وَأتنَاهَى قَبْلَكم عَنْهَا.

الشرح: خاطب المكلّفين كافة، وقال: إنّهم غافلون عَمّا يُراد بهم ومنهم، وليسوا بمغفول عنهم، بل أعمالهم محفوظة مكتوبة.

ثم قال: والتاركون: أي يتركون الواجبات.

ثم قابل ذلك بقوله: «والمأخوذ منهم»، لأنّ الأخذ في مقابلة التَرْك، ومعنى الأخذ منهم انتقاصُ أعمارهم، وانتقاض قواهم، واستلاب أحبابهم وأموالهم.

ثم شبههم بالنّعم التي تتبع نعماً أخرى.

سائمة، أي راعية، وإنّما قال ذلك لأنّها إذا اتّبعت أمثالها كان أبلغَ في ضرب المثل بجهلها من الإبل التي يُسِيمُها راعيها والمرعى الوبيّ: ذو الوَباء والمرض. والمشرب الدّويّ ذو الداء، وأصل «الوبى» اللين الوبىء المهموز، ولكنه لينه، يقال: أرض وبيئة على «فعيلة»، ووبئة على «فَعِلة»، ويجوز أو بأت فهي موبئة.

والأصل في الدويّ «دَوٍ» بالتخفيف، ولكنه شدّده للازدواج.

ثم ذكر أن هذه النّعم الجاهلة التي أوقعت أنفسها في هذا المرتع والمشرب المذمومين كالغنم وغيرها من النّعم المعلوفة.

المُدَى: جمع مُدْية، وهي السّكين، لا تعرف ماذا يراد بها، وتظنّ أن ذلك العلف إحسان إليها على الحقيقة.

ومعنى قوله: «تحسب يومها دهرها»، أي تظن أن ذلك العلف والإطعام كما هو حاصلٌ لها ذلك اليوم، يكون حاصلاً لها أبداً.

و«شبعها أمرَها»، مثل ذلك، أي تظن أنه ليس أمرُها وشأنُها إلاّ أن يطْعِمها أربابُها لتشبع وتحسُن وتسمن، ليس يريدون بها غير ذلك.

ثم خرج عليه السلام من هذا الفنّ إلى فنّ آخر، فأقسم أنّه لو شاء يخبر كلّ واحد منهم من أين خرج، وكيفية خروجه من منزله، وأين يلج، وكيفيّة ولوجه، وجميع شأنه من مطعمه ومشربه، وما عزم عليه من أفعاله، وما أكله، وما ادّخره في بيته، وغير ذلك من شؤونه وأحواله، لفعل.

وهذا كقولِ المسيح عليه السلام: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾[1].

قال: إلاّ أني أخاف أن تكفروا فيّ برسول الله صلى الله عليه وآله، أيْ أخاف عليكم الغلوّ في أمري، وأن تُفَضّلوني على رسول الله صلى الله عليه وآله، بل أخاف عليكم أن تدّعوا فيّ الإلهية، كما ادّعت النصارى ذلك في المسيح لمّا أخبرهم بالأمور الغائبة.

ثم قال: «ألاَ وإنّي مُفْضِيه إلى الخاصّة» أي مفضٍ به ومودعٌ إياه خواصَّ أصحابي وثقاتي الذين آمنُ منهم الغلوّ، وأعلم أنّهم لا يكفرون فيّ بالرسول صلى الله عليه وآله لعلمهم أنّ ذلك من إعلام نبوّته، إذ يكون تابع من أتباعه، وصاحب من أصحابه بلغ إلى هذه المنزلة الجليلة.

ثم أقسم قسَماً ثانياً أنه ما ينطق إلاّ صادقاً، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله عهِد بذلك كلّه إليه، وأخبره بمهلِك من يهلك من الصحابة وغيرهم من الناس، وبنجاةِ مَنْ ينجو، وبمآلِ هذا الأمر - يعني ما يفضي إليه أمر الإسلام وأمر الدولة والخلافة - وأنّه ما ترك شيئاً يمرّ على رأسه عليه السلام إلا وأخبره به وأسرّه إليه.

رأي بعض الغلاة في أمير المؤمنين عليه السلام

واعلم أنه غيرُ مستحيل أن تكون بعض الأنفس مختصّةً بخاصيّة تدرك بها المغَيَّبات، وقد تقدّم من الكلام في ذلك ما فيه كفاية، ولكنْ لا يمكنُ أن تكون نفس تدرك كلّ المغيّبات، لأنّ القوة المتناهية لا تحيط بأمورٍ غير متناهية، وكلّ قوّة في نفس حادثة فهي متناهية، فوجب أن يحمَلَ كلامُ أمير المؤمنين عليه السلام، لا على أن يريد به عموم العالِمَيّة بل يعلم أموراً محدودة من المغيّبات، مما اقتضت حكمة الباريء سبحانه أن يؤهّله لعلمه، وكذلك القول في

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٩.

رسول الله صلى الله عليه وآله إنّه إنّما كان يعلم أموراً معدودة لا أموراً غير متناهية، ومع أنّه عليه السلام قد كتم ما علمه حذراً من أن يكفروا فيه برسول الله صلى الله عليه وآله، فقد كفر كثير منهم، وادعوا فيه النبوّة، وادّعوا فيه أنه شريك الرسول في الرسالة، وادعوا فيه أنّه هو كان الرسول، ولكنّ المَلك غلط فيه، وادعوا أنه هو الذي بعث محمداً صلى الله عليه وآله إلى الناس، وادّعوا فيه الحلول، وادّعوا فيه الاتحاد، ولم يتركوا نوعاً من أنواع الضلالة فيه إلا وقالوه واعتقدوه، وقال شاعرهم فيه من أبيات:

ومَــنْ أهــلَــكَ عــادا و ... ثــمــوداً بــدواهــيــهِ

وَمَــنْ كَــلّــم مُــوسَــى فَــوْ ... قَ طُــورٍ إذْ يُــنَــادِيــهِ

ومــن قــال عــلــى الــمــنــ ... ــبر يــومــاً وهــو راقِــيــهِ:

سَــلُــونــي أيّــهــا الــنــاس ... فــحــاروا فــي مــعــانــيــهِ

وقال بعض شعرائهم:

إنّــمــا خــالــقُ الــخــلائــقَ مَــنْ زَعْـ ... ـزَعَ أركــان حــصــن خــيــبــرَ جَــذْبــا

قَــدْ رضِــيــنــا بــه إمــامــاً ومــولــى ... وســجــدْنــا لــه إلــهــاً وربّــا

أمير المؤمنين عليه السلام وإخباره بالأمور الغيبية

وقد ذكرنا فيما تقدّم من إخباره عليه السلام عن الغيوب طرفاً صالحاً، ومن عجيب ما وقفت عليه من ذلك قولُه في الخطبة التي يذكر فيها الملاحم، وهو يشير إلى القَرامطة: «ينتحلُون لنا الحُبّ والهوى، ويضمِرُون لنا البغضَ والقِلى، وآية ذلك قتلهم ورّاثنا، وهجرهم أحداثنا»[1].

وصحّ ما أخبرَ به، لأن القرامِطة قتلتْ مِن آل أبي طالب عليه السلام خلْقاً كثيراً، وأسماؤهم مذكورة في كتاب «مقاتل الطالبيين»[2] لأبي الفرج الأصفهاني.

ومر أبو طاهر سليمان بن الحسن الجنابيّ في جيشه بالغَريّ وبالحاير، فلم يعرّج على واحد منهما ولا دخل ولا وقف.

وفي هذه الخطبة قال وهو يشير إلى السارية التي كان يستند إليها في مسجد الكوفة: كأنّي بالحجر الأسود منصوباً ها هنا. ويْحَهم. إن فضيلتَه ليست في نفسه، بل في موضعه وأسُسه، يمكث ها هنا برهة، ثم ها هنا برهة - وأشار إلى البحرين - ثم يعود إلى مأواه، وأمّ مثواه.

ووقع الأمر في الحجر الأسود بموجب ما أخبر به عليه السلام.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤٠/ ١٩١.

(٢) مقاتل الطالبين: للإمام أبي الفرج علي بن الحسين بن محمد الهيثم الأصبهاني، المتوفى سنة (٣٥٦هـ) الأعلام (٤/ ٣٥٦).

وقد وقفت له على خطب مختلفة فيها ذكر الملاحم، فوجدتها تشتمل على ما يجوز أن ينسب إليه وما لا يجوز أن ينسب إليه، ووجدت في كثير منها اختلالاً ظاهراً، وهذه المواضع التي أنقلها ليست من تلك الخطب المضطربة، بل من كلامٍ له وجدتُه متفرّقاً في كتب مختلفة، ومن ذلك أن تميم بن أسامة بن زهير بن دريد التميمي اعترضه، وهو يخطب على المنبر ويقول: «سلوني قبل أن تفقدوني، فوالله لا تسألوني عن فئة تضلّ مائة، أو تهدي مائة إلاّ نبأتكم بناعقها وسائقها، ولو شئت لأخبرتُ كلّ واحدٍ منكم بمخرجه ومدخله وجمع شأنه». فقال: فكم في رأسي طاقة شعر؟ فقال له: أما والله إنّي لأعلم ذلك، ولكن أين برهانه لو أخبرتك به! ولقد أخبرتك بقيامك ومقالِك. وقيل لي إنّ على كلّ شعرة من شعر رأسك ملكاً يلعنك وشيطاناً يستفزّك، وآيةُ ذلك أنّ في بيتك سخلاً[1] يقتل ابن رسول الله ﷺ، ويحضّ على قتله.

فكان الأمر بموجب ما أخبر به عليه السلام، كان ابنه حصين - بالصاد المهملة - يومئذٍ طفلاً صغيراً يرضع اللّبن، ثم عاش إلى أن صار على شُرْطة عبيد الله بن زياد، وأخرجه عبيد الله إلى عمر بن سعد يأمره بمناجزة الحسين عليه السلام ويتوعّده على لسانه إن أرجأ ذلك، فقتِل عليه السلام صَبيحة اليوم الذي ورد فيه الحصين بالرسالة في ليلته.

ومن ذلك قوله عليه السلام للبرَاء بن عازب يوماً: يا براء، أيقتَل الحسين وأنت حيّ فلا تنصره! فقال البَرَاء: لا كان ذلك يا أمير المؤمنين!

فلما قتِل الحسين عليه السلام كان البَراء يذكر ذلك، ويقول: أعظِمْ بها حَسْرة! إذْ لم أشهده وأقتل دونه!

وسنذكر من هذا النَّمَط - فيما بعد إذا مررنا بما يقتضي ذكره - ما يحضرنا إن شاء الله.

---

١٧٧ - ومن خطبة له عليه السلام في التحذير عن متابعة الهوى

الأصل: انْتَفِعُوا بِبَيانِ الله، وَاتَّعِظُوا بِمَوَاعِظِ الله، وَاقْبَلُوا نَصِيحَةَ الله، فإنَّ الله قَدْ أَعْذَرَ إِلَيْكُمْ بِالجَلِيَّةِ، واَخَذَ عَلَيْكُمُ الحجَّةَ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مَحابَّهُ مِنَ الأعْمالِ، وَمَكارِهَهُ مِنْهَا، لِتَتَّبِعُوا هَذِهِ وَتَجْتَنِبُوا هَذِهِ، فإنَّ رَسُولَ الله صَلَّى الله عَلَيْهِ وَسلّم كانَ يَقُولُ: إنَّ الجَنَّةَ حُفَّتْ بِالمَكارِهِ، وَإِنَّ النَّارَ حُفَّتْ بِالشَّهَوَاتِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ ما مِنْ طاعَةِ الله شَيْءٌ إِلاَّ يَأْتِي فِي كُرْهٍ، وَما مِنْ مَعْصِيَةِ الله شَيْءٌ إِلاَّ يَأْتِي فِي

---

(١) السخل: الضعيف. القاموس، مادة (سخل).

شَهْوَةٍ، فَرَحِمَ الله امْرَأً نَزَعَ عَنْ شَهْوَتِهِ، وَقَمَعَ هَوَى نَفْسِهِ، فإنَّ هَذِهِ، النَّفْسَ أَبْعَدُ شَيْءٍ مَنْزِعاً، وَإِنَّها لاَ تَزَالُ تَنْزِعُ إِلَى مَعْصِيَةٍ في هَوًى.

وَاعْلَمُوا عِبادَ الله أَنَّ المُؤْمِنَ لاَ يُمْسِي وَلاَ يُصْبِحُ إِلاَّ وَنَفْسُهُ ظَنُونٌ عِنْدَهُ، فَلاَ يَزَالُ زَارِياً عَلَيْهَا، وَمُسْتَزِيداً لَها. فَكُونُوا كالسَّابِقِينَ قَبْلَكُمْ، وَالمَاضِينَ أمامَكُم، قَوِّضُوا مِنَ الدُّنْيا تَقْوِيضَ الرَّاحِلِ، وَطَوَوْها طَيَّ المَنازِلِ.

الشرح: أعذر إليكم: أوضح عذره في عقابكم إذا خالفتم أوامره. والجلّية: اليقين، وإنّما أعذر إليهم بذلك، لأنّه مكّنهم من العلم اليقينيّ بتوحيده وعدله، وأوجب عليهم ذلك في عقولهم، فإذا تركوه ساغ في الحِكْمة تعذيبُهم وعقوبتهم، فكأنَّهُ قد أبان لهم عذره أنّ لو قالوا: لِمَ تعاقبنا؟

ومحابّه من الأعمال، هي الطاعات التي يحبّها. وحبّه لها إرادة وقوعها من المكلّفين. ومكارهه من الأعمال: القبائح التي يكرهها منهم، وهذا الكلام حجّة لأصحابنا على المجبِّرة. والخبر الذي رواه عَلَيْتَلِا مرويّ في كتب المحدّثين، وهو قول رسول الله ﷺ: «حُجبت الجنّة بالمكاره، وحفّت النار بالشهوات»[1]، ومن المحدّثين من يرويه: «حفّت» فيهما، وليس منهم من يرويه: «حُجِبت» في النار، وذلك لأنّ لفظ «الحجاب» إنما يُستعمَلُ فيما يرام دخولُه وولوجه لمكان النفع فيه، ويقال: حُجِب زيد عن مأدُبة الأمير، ولا يقال: حُجِب زيد عن الحبْس.

ثم ذكر عَلَيْتَلِا أنّه لا طاعة إلاّ في أمرٍ تكرهه النفس، ولا معصيةَ إلا بمواقعة أمرٍ تحبّه النفس، وهذا حق، لأنّ الإنسانَ ما لم يكن متردّد الدواعي لا يصحّ التكليف، وإنما تتردّد الدواعي إذا أمر بما فيه مشقّة، أو نُهِيَ عمّا فيه لذّة ومنفعة.

فإن قلت: أليس قد أمِر الإنسان بالنّكاح وهو لذة؟ قلت: ما فيه من ضرر الإنفاق ومعالجة أخلاق النساء يُرْبى على اللّذة الحاصلة فيه مراراً.

ثم قال عَلَيْتَلِا: «رحم الله امرأ نزع عن شهوته»، أي أقلع. وقمع هَوَى نفسِه، أي قهره.
ثم قال: فإنّ هذه النفس أبعدُ شيء منزَعاً، أي مذهباً، قال أبو ذؤيب:

والنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إذا رغَّبْتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تَقْنَعُ

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها (٢٨٢٣)، والترمذي، كتاب: صفة الجنة، باب: ما جاء حفت الجنة بالمكاره (٢٥٥٩)، وأحمد، كتاب: مسند المكثرين (٨٧٢١)، والدارمي، كتاب الرقاق، باب: حفت الجنة بالمكاره (٢٨٤٣).

ومن الكلام المرويّ عنه عليه السلام ويروي أيضاً عن غيره: «أيّها الناس، إنّ هذه النفوسَ طُلَعة[1] فإلاّ تقدعوها[2] تنزعْ بكم إلى شرّ غاية».

وقال الشاعر:

وَمَا النَّفس إلاّ حيثُ يجعلُها الْفَتَى فإن أطمِعَتْ تاقَتْ وإلاّ تَسَلَّتِ

ثم قال عليه السلام: «نَفس المؤمن ظَنُون عنده»، الظَّنُون: البئر التي لا يدري أفيها ماء أم لا، فالمؤمن لا يصبح ولا يمسي إلاّ وهو على حَذَرٍ من نفسه، معتقداً فيها التقصير والتضجيع في الطاعة، غير قاطع على صلاحها وسلامة عاقبتها. وزاريا عليها: عائباً، زريْتُ عليه: عبت.

ثم أمرهم بالتأسيّ بمن كان قبلهم، وهم الذين قَوّضُوا من الدّنيا خيامَهم، أي نقضوها، وطوَوْا أيّام العمر كما يطوِي المسافر منازلَ طريقه.

الأصل: وَٱعْلَمُوا أَنَّ هَذَا ٱلْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لاَ يَغُشُّ، وَٱلْهَادِي الَّذِي لاَ يَضِلُّ، وَالمُحَدِّثُ الَّذِي لاَ يَكْذِبُ، وَمَا جَالَسَ هَذَا ٱلْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلاَّ قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، زِيَادَةٍ فِي هُدًى، او نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى.

وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ ٱلْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ، وَلاَ لِأَحَدٍ قَبْلَ ٱلْقُرْآنِ مِنْ غِنًى، فَٱسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَٱسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لأْوَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ، وَهُوَ ٱلْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَٱلْغَيُّ وَالضَّلاَلُ، فَاسْأَلُوا ٱللهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلاَ تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ ٱلْعِبَادُ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ.

وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ ٱلْقُرْآنُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ ٱلْقُرْآنُ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ: أَلاَ إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلًى فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ، غَيْرَ حَرَثَةِ ٱلْقُرْآنِ. فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَٱسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَٱسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَٱتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَٱسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ.

الشرح: غشّه يغُشّه، بالضم، خلاف نصحَه. واللأْواء: الشّدة.

---

(١) نفسٌ طُلَعَة: تكثر التطلع إلى الشيء. القاموس. مادة (طلع).

(٢) القدع: المنع. القاموس، مادة (قدع).

وشَفَع له القرآن شَفاعة، بالفتح، وهو ممّا يغلط فيه العامّة فيكسرونه، وكذلك شفعت بكذا، أتبعتَه، مفتوح أيضاً.

ومَحلَ به إلى السّلطان، قال عنه ما يضرّه، كأنّه جعلَ القرآن يَمْحَلُ يوم القيامة عند بقوم، أيْ يقول عنهم شرًّا، ويشفع عند الله لقوم، أي يُثْني عليهم خيراً.

والحارث: المكتسب، والحرْث: الكسب. وحَرَثَة القرآن: المتاجرون به الله. واستنص على أنفسكم، أي إذا أشار عليكم بأمر وأشارت عليكم أنفسكم بأمر يخالفه، فاقبلُوا مش القرآن دون مشورة أنفسكم، وكذلك معنى قوله: «واتّهموا عليه آراءكم، واستغشّوا أهواءكم».

القرآن الكريم وفضله

واعلم أنّ هذا الفصل من أحسنِ ما ورد في تعظيم القرآن وإجلاله، وقد قال النَّاس في الباب فأكثروا.

ومن الكلام المرويّ عن أمير المؤمنين عليه السلام في ذِكْر القرآن أيضاً، ما رواه ابن قتيبة كتاب «عيون الأخبار»[1] عنه عليه السلام أيضاً، وهو: «مثل المؤمِن الّذي يقرأ القرآن كمَثل الأترُ ريحها طيّب، وطعمها طيّب. ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التَّمْرة طعمها طيّب ريح لها. ومثل الفاجر الّذي يقرأ القرآن كمثل الرّيحانة. ريحها طيبٌ، وطعمها مرّ. و الفاجر الّذِي لا يقرأ القرآن مثل الحنظلة طعمها مرّ، وريحُها منتنة»[2].

وقال الحسن رحمه الله: قرّاء القرآن ثلاثة: رجل اتّخذه بضاعة فنقله من مِصْر إلى مِص يطلب به ما عند الناس، ورجل حفظ حروفه، وضيّع حدوده، واستدرّ به الولاة واستطال به أهل بلاده، وقد كثر الله هذا الضّرب من حَملة القرآن - لا كثّرهم الله - ورجل قرأ القرآن بما يعلم من دواء القرآن، فوضعه على داء قلبه، فسهر ليله، وانهملت عيناه، وتس بالخشوع، وارتدى بالحزن، فبذاك وأمثاله يُسْقى النّاس الغيث، وينزل النّصر، ويُدْفع البا والله لَهذا الضّرْب من حملة القرآن أعزّ وأقلّ من الكبريت الأحمر.

---

(١) عيون الأخبار: للإمام أبي محمد عبد الله بن مسلم المعروف بابن قتيبة الدينوري، المتوفى (٢٧٦هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١١٨٤).

(٢) هو حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، رواه أبو موسى الأشعري، كما في البخاري، كتاب: فضائل الق باب: فضل القرآن على سائر الكلام (٥٠٢٠)، وأبو داود عن أنس، الأدب، باب: من يؤم بجالس (٤٨٢٩)، وأحمد باب: حديث أبي موسى الأشعري (١٩٠٥٥).

وفي الحديث المرفوع: «إنّ من تعظيم جلال الله إكرامَ ذي الشيّبة في الإسلام، وإكرام الإمام العادل، وإكرام حَمَلة القرآن»[١].

وفي الخبر المرفوع أيضاً: «لا تسافِرُوا بالقرآن إلى أرض العدوّ، فإني أخاف أن يناله العدوّ»[٢].

وكانت الصّحابة تكرهُ بيعَ المصاحف وتراه عظيماً، وكانوا يكرهون أن يأخُذَ المعلّم على تعليم القرآن أجراً.

وكان ابنُ عَبّاس يقول: إذا وقعتُ في آل حم، وقعتُ في روضات دمِثات[٣] أتأنّق فيهنّ.

وقال ابنُ مسعود: لكلّ شيء ديباجة، وديباجة القرآن آل حم.

قيل لابن عباس: أيجوز أن يحلّى المصحف بالذهب والفضة؟ فقال: حِلْيَته في جوفه.

وقال النبي ﷺ: «أصفر البيوت جوف صفِر من كتاب الله»[٤].

وقال الشعبيّ: «إياكم وتفسيرَ القرآن، فإنّ الذي يفسرّه إنما يحدّث عن الله».

الحسن رحمه الله: رحِم الله امرأ عرَض نفسه وعمله على كتاب الله، فإنْ وافق، حمِد الله وسأله الزيادة، وإن خالف، أعتب وراجع من قريب.

حفِظ عمر بن الخطاب سورة البقرة، فنحر وأطعم.

وفدَ غالبُ بن صعصعة على عليّ عليه السلام ومعه ابنه الفرزدق، فقال له: مَنْ أنت؟ فقال غالب بن صعصعة المجاشعيّ، قال: ذو الإبل الكثيرة؟ قال: نعم، قال: ما فعلت إبلُك؟ قال: أذهبتْها النوائب، وذَعْذَعَتْها[٥] الحقوق. قال: ذاك خير سبلها. ثم قال: يا أبا الأخطل، مَنْ هذا الغلام معك؟ قال: ابني وهو شاعر، قال: علّمه القرآن فهو خير له من الشّعر، فكان ذلك في نفس الفرزدق، حتى قيّد نفسَه، وآلى ألا يحلَّ قيْدَه حتى يحفظ القرآن، فما حلّه حتى حفظه، وذلك قوله:

---

(١) أخرج نحوه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: تنزيل الناس منازلهم (٤٨٤٣)، والبيهقي في «سننه» (١٦٤٣٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٢٥٦١) والطبراني في «الأوسط» (٦٧٣٦).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: الإمارة، باب: النهي أن يسافر بالمصحف إلى أرض الكفار (١٨٦٩)، وأحمد، كتاب: مسند المكثرين من الصحابة، باب: مسند عبد الله بن عمر بن الخطاب (٤٤٩٣).

(٣) الدّمث: السهل اللين. القاموس، مادة (دمث).

(٤) أخرجه الدارمي، كتاب: فضائل القرآن، باب: التغني بالقرآن (٣٤٩٤)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١٠٧٩٩)، وابن أبي شيبة في مصنفه (٣٠٠٢٤).

(٥) ذعذع المال وغيره: برده وفرّقه. القاموس، مادة (ذرع).

وما صَبَّ رجلي في حديد مجاشعٍ مع القِدْ إلا حاجةٌ لي أريدها

قلت: تحت قوله عليه السلام: «ياأبا الأخطل»، قبل أن يعلم أنّ ذلك الغلام ولده وأنه شاعر، شرّ غامض، ويكاد يكون إخباراً عن غيب، فليُلمح.

الفُضيل بن عِياض: بلغني أنّ صاحب القرآن إذا وقف على معصية، خرج القرآن من جوفه فاعتزل ناحية وقال: ألهذا حملتَني!

قلت: وهذا القول على سبيل المثَل والتخويف من مواقعة المعاصي لمن يحفظ القرآن.

أنس قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا بن أمّ سليم، لا تغفل عن قراءة القرآن صباحاً ومساءً، فإنّ القرآن يحي القلب الميّت، وينهى عن الفحشاء والمنكر»[1].

كان سفيان الثوريّ إذا دخل شهرُ رمضان ترك جميع العبادة، وأقبلَ على قراءة القرآن من المصحف.

كعب الأحبار: قال الله تعالى لموسى عليه السلام: مَثَل كتاب محمد في الكتب مثل سِقَاء فيه لبن، كلّما مخضته استخرجت منه زُبْداً[2].

أسلم الخواص: كنتُ أقرأ القرآن، فلا أجد له حلاوة، فقلت لنفسي: يا أسلم، اقرأ القرآن كأنك تسمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاءت حلاوة قليلة، فقلت: اقرأه كأنك تسمعه من جبريل عليه السلام، فازدادت الحلاوة، فقلت: اقرأه كأنك تسمعه من الله عزّ وجلّ حين تكلم به، فجاءت الحلاوة كلها.

بعضُ أرباب القلوب: إن الناس يجمِزون[3] في قراءة القرآن ما خلا المحبّين، فإن لهم خانَ إشارات، إذا مرُّوا به نزلوا. يريد آيات من القرآن يقفون عندها فيفكّرون فيها.

في الحديث المرفوع: «ما مِنْ شفيع، من ملَكٍ ولا نبي ولا غيرهما، أفضل من القرآن»[4].

وفي الحديث المرفوع أيضاً: «مَنْ قرأ القرآن ثم رأى أن أحداً أوتِيَ أفضلَ مما أوتي فقد استصغر عظمةَ الله»[5].

وجاء في بعض الآثار: إنّ الله تعالى خلَق بعض القرآن قبل أن يخلُقَ آدم، وقرأه على

---

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٨٤٥٩).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٣).

(٣) جمز الإنسان والبعير أي: عدا عدواً. القاموس، مادة (جكز).

(٤) ذكره الغزالي في إحياء علوم الدين» (١/ ٣٦٢) وقال العراقي: رواه عبد الملك بن حبيب من رواية سعيد بن سليم مرسلاً.

(٥) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٢٦١٧).

الملائكة، فقالوا: طوبى لأمّةٍ ينزل عليها هذا! وطوبى لأجوافٍ تحمل هذا! وطوبى لألسنة تنطق بهذا![١]

وقال النبي ﷺ: «إن القلوبَ تصدأ كما يصدأ الحديد»، قيل: يا رسول الله، وما جِلاؤها؟ قال: «قراءة القرآن وذكر الموت»[٢].

وعنه ﷺ: «ما أذن الله لشيء أذنَه لنبيٍّ حسن الترنم بالقرآن»[٣].

وعنه ﷺ: «إن ربكم لأشدُّ أَذَناً إلى قارىء القرآن من صاحب القَيْنة إلى قَيْنَتِه»[٤].

وعنه ﷺ: «أنت تقرأُ القرآن ما نهاك، فإذا لم ينهك فلست تقرؤه»[٥].

ابن مسعود رحمه الله: ينبغي لحامِل القرآن أن يُعرف بليله إذ الناس نائمون، وبنهاره إذ النّاس مفطِرُون، وبحزنه إذ الناس يفرحون، وببكائه إذ الناس يضحكون، وبخشوعه إذ الناس يختالون. وينبغي لحامل القرآن أن يكون سِكّيتاً زمّيتاً ليّناً، ولا ينبغي أن يكون جافياً ولا مماريًا، ولا صيّاحاً ولا حدِيداً ولا صَخّاباً.

بعض السلف. إنّ العبد ليفتتح سورة فتصلّي عليه حتى يفرغ منها. وإنّ العبدَ ليفتتح سورة فتلعنه حتى يفرغ منها، قيل: كيف ذاك؟ قال: إذا أحلّ حلالها، وحرّم حرامها، صلّت عليه وإلاّ لعنته.

ابن مسعود: أنزل الله عليهم القرآن ليعملوا به، فاتّخذوا دراسته عملاً، إنّ أحدهم ليقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً، وقد أسقط العمل به.

ابن عباس: لأنْ أقرأ البقرة وآل عمران أرتّلهما وأتدبّرهما أحبُّ إليّ من أن أقرأ القرآن كلّه هذْرَمة[٦].

ثابت البنانيّ: كابدت في القرآن عشرين سنة، وتنعّمت به عشرين سنة.

---

(١) أخرج بنحوه الدارمي، كتاب فضائل القرآن، باب: في فضل سورة طه ويّس (٣٤١٤).
(٢) أخرجه الشهاب في «مسنده» (١١٧٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٠١٤).
(٣) أخرجه الشافعي في الأم (٦/ ٢١٠)، والمنذري في «الترغيب والترهيب» (٢٢٣١).
(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة، باب: في حسن الصوت بالقرآن (١٣٤٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٤٢٩)، وابن حبان في «صحيحه» (٧٥٤).
(٥) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٣٤٥)، والشهاب في مسنده (٣٩٢)، وابن أبي عاصم في «الزهد» (١/ ٢٨٥)، والديلمي في «مسند الفردوس» (١٧٦٥).
(٦) الهذرمة: سرعة الكلام والقراءة. القاموس، مادة (هذم).

الأصل: ٱلْعَمَلَ ٱلْعَمَلَ، ثُمَّ النِّهَايَةَ، وَالاسْتِقَامَةَ الإِسْتِقَامَةَ، ثُمَّ الصَّبْرَ الصَّبْرَ وَٱلْوَرَعَ ٱلْوَرَعَ! إِنَّ لَكُمْ نِهَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى نِهَايَتِكُمْ، وَإِنَّ لَكُمْ عَلَماً فَاهْتَدُوا بِعَلَمِكُمْ، وَإِنَّ لِلإِسْلاَمِ غَايَةً فَانْتَهُوا إِلَى غَايَتِهِ، وَٱخْرُجُوا إِلَى ٱللهِ مِمَّا ٱفْتَرَضَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَقِّهِ، وَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ وَظَائِفِهِ.

أَنَا شَاهِدٌ لَكُمْ، وَحَجِيجٌ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ عَنْكُمْ. أَلاَ وَإِنَّ ٱلْقَدَرَ السَّابِقَ قَدْ وَقَعَ، وَٱلْقَضَاءَ ٱلْمَاضِيَ قَدْ تَوَرَّدَ.

وَإِنِّي مُتَكَلِّمٌ بِعِدَةِ ٱللهِ وَحُجَّتِهِ، قَالَ ٱللهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾[1]، وَقَدْ قُلْتُمْ: ﴿رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾، فَاسْتَقِيمُوا عَلَى كِتَابِهِ، وَعَلَى مِنْهَاجِ أَمْرِهِ، وَعَلَى الطَّرِيقَةِ الصَّالِحَةِ مِنْ عِبَادَتِهِ، ثُمَّ لاَ تَمْرُقوا مِنْهَا، وَلاَ تَبْتَدِعُوا فِيهَا، وَلاَ تُخَالِفُوا عَنها، فَإِنَّ أَهْلَ ٱلْمُرُوقِ مُنْقَطَعٌ بِهِمْ عِنْدَ ٱللهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ.

الشرح: النصب على الإغراء، وحقيقته فعل مقدّر، أي الزموا العمل، وكرّر الاسم لينوب أحدُ اللفظين عن الفعل المقدّر، والأشبه أن يكون اللفظ الأوّل هم القائم مقام الفعل، لأنه في رتبته. أمرهم بلزوم العمل ثم أمرهم بمراعاة العاقبة والخاتمة، وعبّر عنها بالنهاية، وهي آخر أحوالِ المكلّف التي يفارق الدنيا عليها، إمّا مؤمناً أو كافراً، أو فاسقاً، والفعل المقدّر ها هنا: راعوا وأحسنوا وأصلحوا، ونحو ذلك.

ثم أمرهم بالاستقامة وأنْ يلزموها، وهي أداء الفرائض.

ثم أمرهم بالصبر عليها وملازمته وبملازمة الورَع.

ثم شرع بعد هذا الكلام المجمَل في تفصيله فقال: «إنّ لكم نهاية فانتهوا إلى نهايتكم»، وهذا لفظ رسول الله صلى الله عليه وآله: «أيّها الناس، إنّ لكم معالَم فانتهوا إلى معالمكم، وإنّ لكم غايةً فانتهُوا إلى غايتكم»[2]، والمراد بالنهاية والغاية أن يموتَ الإنسان على توبةٍ من فعل القبيح والإخلال بالواجب.

ثم أمرهم بالاهتداء بالعلَم المنصوب لهم، وإنما يعني نفسَه عليه السلام.

ثم ذكر أن للإسلام غاية، وأمرَهم بالانتهاء إليها، وهي أداء الواجبات، واجتناب المقبّحات.

---

(١) سورة فصلت، الآية: ٣٠.

(٢) ذكره القرطبي في «تفسيره» (١٨/ ١١٦)، وذكره أبو بكر بن الطيب في «إعجاز القرآن» (١/ ١٢٩).

ثم أوضح ذلك بقوله: واخرجوا إلى الله ممّا افترَض عليكم من حقّه، وبيّن لكم من وظائفه»، فكشف بهذا الكلام معنى الغاية التي أجملها أولاً. ثم ذكر أنّه شاهد لهم، ومحاجّ يوم القيامة عنهم، وهذا إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾[1].

وحجيج: فعيل بمعنى «فاعل»، وإنّما سمّي نفسه حجيجاً عنهم، وإن لم يكن ذلك الموقف موقف مخاصمة، لأنّه إذا شهد لهم، فكأنّه أثبت لهم الحجّة، فصار محاجًّا عنهم.

قوله عليه السلام: «ألاَ وإنّ القَدَر السابق قد وقع»، يشير به إلى خلافته.

وهذه الخطبة من أوائل الخطب التي خطب بها أيام بويع بعد قتل عثمان، وفي هذا إشارة إلى أن رسول الله ﷺ قد أخبره أنّ الأمر سيُفضي إليه منتهى عمره، وعند انقضاء أجله.

ثم أخبرهم أنه سيتكلّم بوعد الله تعالى ومحجتّه على عباده في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا . . . .﴾[2] الآية، ومعنى الآية أنّ الله تعالى وعد الذين أقرُّوا بالربوبية. ولم يقتصروا على الإقرار، بل عقبوا ذلك بالاستقامة أن ينزّل عليهم الملائكة عند موتهم بالبشرى، ولفظة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي، والاستقامة مفضّلة على الإقرار باللسان، لأنّ الشأن كلّه في الاستقامة، ونحوها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾[3]، أي ثمّ ثبتوا على الإقرار ومقتضياته، والاستقامة ها هنا، هي الاستقامة الفعلية شافعة للاستقامة القولية. وقد اختلف فيه قول أمير المؤمنين عليه السلام وأبي بكر، فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أدُّوا الفرائض، وقال أبو بكر: استمرُّوا على التوحيد[4].

وروي أن أبا بكر تلاها، وقال: ما تقولون فيها؟ فقالوا: لم يذنبوا، فقال: حملتُم الأمرَ على أشدّه، فقالوا: قل، قال: لم يرجعوا إلى عبادة الأوثان. ورأيُ أبي بكر في هذا الموضع - إن ثبت عنه - يؤكد مذهب الإرجاء، وقول أمير المؤمنين عليه السلام يؤكد مذهب أصحابنا.

وروى سفيان بن عبد الله الثقفيّ، قال: قلتُ يا رسول الله، أخبِرْني بأمْرٍ أعتصم به، فقال: «قُلْ: لا إله إلا الله، ثم استقمْ»، فقلت: ما أخوَفُ ما تخافُه عليّ؟ فقال: «هذا، وأخذ بلسان نفسه ﷺ»[5].

وتتنزّل عليهم الملائكة، عند الموت، أو في القبر، أو عند النشور.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧١.
(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٠.
(٣) سورة الحجرات، الآية: ١٥.
(٤) ذكره القرطبي في تفسيره بما معناه: ١٥/٣٥٨.
(٥) أخرجه الترمذي، كتاب «الزهد»، باب ما جاء في حفظ اللسان (٢٤١٠)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: كف اللسان في الفتنة (٣٩٧٢)، وأحمد في «مسنده» (١٤٩٩٢).

وألا تخافوا «أن» بمعنى «أي»، أو تكون خفيفة من الثقيلة، وأصله «أنه لا تخافوا» والهاء ضمير الشأن.

وقد فسر أمير المؤمنين الاستقامة المشترطة في الآية، فقال: قد أقررتم بأنّ الله ربكم فاستقيموا على كتابه، وعلى منهاج أمره، وعلى الطريقة الصالحة من عبادته.

لا تمرقوا منها، مرق السهمُ، إذا خرج من الرميّة مروقاً.

ولا تبتدعوا: لا تحدثوا ما لم يأت به الكتاب والسنة.

ولا تخالفوا عنها، تقول: خالفت عن الطريق، أي عدلتُ عنها.

قال: فإنّ أهل المروق منقطع بهم، بفتح الطاء. انقُطِع بزيد بضم الهمزة، فهو منقطَعٌ به، إذا لم يجد بلاغاً ووصولاً إلى المقصد.

الأصل: ثُمَّ إِيَّاكُمْ وَتَهْزِيعَ ٱلْأَخلاَقِ وَتَصْرِيفَهَا، وَٱجْعَلُوا اللِّسَانَ وَاحِداً، وَلْيَخْزُنِ الرَّجُلُ لِسَانَهُ، فَإِنَّ هَذَا اللِّسَانَ جَمُوحٌ بِصَاحِبِهِ، وَٱللهِ مَا أَرَى عَبْداً يَتَّقِي تقوى تَنْفَعُهُ حَتَّى يختزن لِسَانَهُ، وَإِنَّ لِسانَ المُؤْمِنِ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَإِنَّ قَلْبَ المُنَافِقِ مِنْ وَرَاءِ لِسانِهِ، لِأَنَّ المُؤْمِنَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِكَلاَمٍ تَدَبَّرَهُ فِي نَفْسِهِ، فَإِنْ كَانَ خَيْراً أَبْدَاهُ، وَإِنْ كَانَ شَرًّا وَارَاهُ، وَإِنَّ المُنَافِقَ يَتَكَلَّمُ بِما أَتى عَلَى لِسانِهِ لاَ يَدْرِي ماذَا لَهُ، وَمَاذَا عَلَيْهِ. وَلَقَدْ قالَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»[1].

فَمَنِ ٱسْتَطاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَلْقَى ٱللهَ سُبْحانَهُ، وَهُوَ نَقِيُّ الرَّاحَةِ مِنْ دِماءِ المُسْلِمينَ وَأَمْوَالِهِمْ، سَلِيمُ اللِّسانِ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ، فَلْيَفْعَلْ.

الشرح: تهزيعُ الأخلاق: تغييرها، وأصل الهَزْع: الكسر، أسد مهزِّع: بكسِر الأعناق ويرضّ العظام، ولمّا كانَ المتصرِّف بخلُقه، الناقل له من حال قد أعدم سمته الأولى كما يعدم الكاسر صورة المكسور، اشتركا في مسمًّى شامل لهما، فاستعمل التهْزيع في الخلْق للتغيير والتبديل مجازاً.

قوله: «واجعلوا اللّسان واحداً»، نهي عن النّفاق واستعمال الوجهين.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٢٦٣٦).

قال: «وليخزُن الرجل لسانه»، أي ليحبسّه، فإنّ اللسان يجمح بصاحبه فيلقيه في الهلكة.

ثم ذكر أنه لا يرى التقوى نافعة إلا مع حبس اللسان، قال: فإنّ لسان المؤمن وراء قلبه، وقلب الأحمق وراء لسانه، وشرَح ذلك وبيّنه.

فإن قلت: المسموع المعروف: «لسان العاقل من وراء قلبه، وقلْب الأحمق وراء لسانه»، كيف نقله إلى المؤمن والمنافق؟

قلت: لأنه قلّ أن يكون المنافق إلا أحمق، وقلّ أن يكون العاقل إلا مؤمناً فلأكثريّة ذلك، استعمل لفظ «المؤمن»، وأراد العاقل، ولفظ «المنافق» وأراد الأحمق.

ثم روى الخبر المذكور عن النبي ﷺ وهو مشهور.

ثم أمرهم بالاجتهاد في أن يلقوا الله تعالى وكلٌّ منهم نقيّ الراحة من دماء المسلمين وأموالهم، سليم اللسان من أعراضهم، وقد قال النبيّ ﷺ: «إنما المسلِم مَنْ سلم المسلمون من لسانه ويده»[1]، فسلامتهم من لسانه سلامة أعراضهم، وسلامتهم من يده سلامة دمائهم وأموالهم، وانتصاب «تهزيع» على التحذير، وحقيقته تقدير فعل، وصورته: جنّبوا أنفسكم تهزيعَ الأخلاق، فـ«إياكم» قائم مقام أنفسكم، والواو عوضٌ عن الفعل المقدّر، وأكثر ما يجيء بالواو، وقد جاء بغير واو في قول الشاعر:

إيّــاكَ إيّــاكَ الــمــراءَ فــإنّــهُ ... إلَـى الـشَّـرِّ دَعَّـاءٌ ولـلـشَّـرِّ جالِـبُ

وكان يقال: ينبغي للعاقل أن يتمسّك بستّ خِصال، فإنها من المروءة: أن يحفَظ دينه، ويصونَ عِرْضَه، ويَصِلَ رحمه، ويحمِيَ جارَه، ويرعى حقوقَ إخوانه، ويخزُن عن البَذَاء لسانه.

وفي الخبر المرفوع: «مَنْ كُفِي شرّ قَبْقَبِه وذَبْذَبِه، ولَقْلَقِه، دخل الجنّة»[2].

فالقبقب البطن: والذبذب: الفرْج، واللقلق: اللسان.

وقال بعض الحكماء: مَنْ عَلِم أنّ لسانه جارحةٌ من جوارحه أقلّ من اعتمالها، واستقبح تحريكَها، كل يستقبح تحريك رأسِه أو منكِبه دائماً.

الأصل: وَٱعْلَمُوا عِبَادَ ٱللهِ أَنَّ ٱلْمُؤْمِنَ يَسْتَحِلُّ ٱلْعَامَ ما ٱسْتَحَلَّ عَاماً أَوَّلَ، وَيُحرِّمُ ٱلْعَامَ مَا حَرَّمَ عَاماً أَوَّلَ، وَأَنَّ ما أحْدَثَ النَّاسُ لاَ يُحِلُّ لَكُمْ شَيْئاً مِمَّا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ، وَلَكِن

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده (١٠)، ومسلم، كتاب: الإيمان، باب: بيان تفاضل الإسلام وأي: أموره أفضل (٤٠).

(٢) أخرجه ابن معين في «تاريخه» (٤٦٨٦)، وذكره ابن الأثير في «النهاية» مادة (قبقب).

ٱلْحَلاَلُ مَا أَحَلَّ ٱللهُ، وَٱلْحَرَامُ مَا حَرَّمَ ٱللهُ، فَقَدْ جَرَّبْتُمُ ٱلْأُمُورَ وَضَرَّسْتُمُوهَا، وَوُعِظْتُمْ بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَضُرِبَتْ الأَمْثَالُ لَكُمْ، وَدُعِيتُمْ إِلَى الأَمْرِ ٱلْوَاضِحِ فَلاَ يَصمُّ عَنْ ذَلِكَ إِلاَّ أَصَمُّ، وَلاَ يَعْمَى عنهُ إِلاَّ أَعْمَى.

وَمَنْ لَمْ يَنْفَعْهُ ٱللهُ بِالْبَلاَءِ وَالتَّجَارِبِ، لَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ مِنَ ٱلْعِظَةِ، وَأَتَاهُ التَّقْصِيرُ مِنْ أَمَامِهِ، حَتَّى يَعْرِفَ مَا أَنْكَرَ، وَيُنْكِرَ مَا عَرَفَ، فَإِنَّ النَّاسَ رَجُلاَنَ: مُتَّبِعُ شِرْعَةٍ، وَمُبْتَدِعُ بِدْعَةٍ، لَيْسَ مَعَهُ مِنَ ٱللهِ سُبْحَانَهُ بُرْهَانُ سُنَّةٍ، وَلاَ ضِيَاءُ حُجَّةٍ.

الشرح: يقول: إنّ الأحكام الشرعيّة لا يجوز بعد ثبوت الأدلّة عليها من طريق النصّ أن تُنقَضَ باجتهاد وقياس، بل كلّ ما ورد به النصّ تُتّبع مورد النصّ فيه، فما استحللته عاماً أوّل، فهو في هذا العام حلال لك، وكذلك القول في التحريم، وهذا هو مذهب أكثر أصحابنا، أنّ النصّ مقدّم على القياس، وقد ذكرناه في كتبنا في أصول الفقه.

وأوّل ها هنا، لا ينصرف، لأنه صفة على وزن «أفعل».

وقال: «إنّ ما أحدث الناسُ لا يُحِلُّ لكم شيئاً مما حُرّم عليكم»، أي ما أحدثوه من القياس والاجتهاد، وليس هذا بقادحٍ في القياس، ولكنه مانعٌ من تقديمه على النص، وهكذا يقول أصحابنا.

قوله: «وضرّستموها» بالتشديد أي أحكمتموها تجربةً وممارسة، يقال: قد ضرّسته الحرب، ورجل مضرّس.

قوله: «في يَصمّ عن ذلك إلاّ أصمّ» أي لا يَصمّ عنه إلاّ من هو حقيق أن يقال عنه: إنه أصمّ، كما تقول: ما يجهل هذا الأمر إلاّ جاهل، أي بالغ في الجهل.

ثم قال: «مَنْ لم ينفعه الله بالبلاء» أي بالامتحان والتجربة، لم تنفعه المواعظ، وجاءه النقص من بين يديه حتى يتخيّل فيما أنكره أنه قد عرفه، وينكِر ما قد كان عارفاً به. وسمّي اعتقاد العرفان وتخيّله «عرفاناً» على المجاز.

ثُمّ قسّم النّاس إلى رجلين: إما متّبع طريقةً ومنهاجاً، أو مبتدِعٌ ما لا يعرف، وليس بيده حجّة، فالأوّل المحقّ والثاني المبطِل.

والشِّرعة: المنهاج. والبرهان: الحجة.

الأصل: فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يَعِظْ أَحَداً بِمِثْلِ هَذَا ٱلْقُرْآنِ، فَإِنَّهُ حَبْلُ ٱللهِ المَتِينُ، وَسَبَبُهُ الأَمِينُ، وَفِيهِ رَبِيعُ ٱلْقَلْبِ، وَيَنَابِيعُ ٱلْعِلْمِ، وَمَا لِلْقَلْبِ جِلاَءٌ غَيْرُهُ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ ذَهَبَ المُتَذَكِّرُونَ، وَبَقِيَ النَّاسُونَ أَوِ المُتَنَاسُونَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ خَيْراً فَأَعِينُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا رَأَيْتُمْ شَرّاً فَاذْهَبُوا عَنْهُ، فَإِنَّ رَسُولَ ٱللهِ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ يَقُولُ: يَابْنَ آدَمَ، ٱعْمَلِ ٱلْخَيْرَ، وَدَعِ الشَّرَّ، فَإِذَا أَنْتَ جَوَادٌ قَاصِدٌ.

الشرح: إنما جعله حبْل الله، لأنّ الحبْل ينجو من تعلّق به من هوّة، والقرآن ينجو من الضلال مَن يتعلّق به.

وجعله متيناً، أي قويًا، لأنه لا انقطاع له أبداً، وهذه غاية المتانة والقوّة.

ومَتُن الشيء، بالضم، أي صلُب وقوِيَ. وسببه الأمين مثل حَبْله المتين، وإنّما خالف بين اللفظين على قاعدة الخطابة.

وفيه ربيع القلب، لأنّ القلب يحيا به كما تحيا الأنعام برَغْيِ الربيع.

وينابيع العلم، لأنّ العلم منه يتفرّع كما يخرج الماء من الينبوع ويتفرّع إلى الجداول.
والجلاء، بالكسر: مصدر جلوْتُ السيف، يقول: لا جِلاَء لصدأ القلوب من الشُّبُهات والغفلات إلا القرآن.

ثم قال: إنّ المتذكِّرين قد ذهبوا وماتوا، وبَقِيَ النّاسون الّذين لا علوم لهم، أو المتناسون الذين عندهم العلوم، ويتكلفون إظهار الجهل لأغراض دنيوية تعرض لهم وروي: «والمتناسون» بالواو.

ثم قال: أعينوا على الخير إذا رأيتموه، بتحسينه عند فاعله، وبدفع الأمُور المانعة عنه، وبتسهيل أسبابه وتسنية سبله، وإذا رأيتم الشرّ فاذهبوا عنه، ولا تقاربوه ولا تقيموا أنفسكم في مقام الراضي به، الموافق على فعله. ثم روى لهم الخبر.

والجواد القاصد: السهل السّيْر، لا سريع يتعَب بشرعته، ولا بطيء يفوتُ الغرض ببطئه.

الأصل: أَلاَ وَإِنَّ الظُّلْمَ ثلاثةٌ: فَظُلْمٌ لاَ يُغْفَرُ، وَظُلْمٌ لاَ يُتْرَكُ، وَظُلْمٌ مَغْفُورٌ لاَ يُطْلَبُ. فَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لاَ يُغْفَرُ، فالشِّرْكُ بِاللهِ، قَالَ ٱللهُ سُبْحَانَه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[1].

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي يُغْفَرُ، فَظُلْمُ ٱلْعَبْدِ نَفْسَهُ عِنْدَ بَعْضِ ٱلْهَنَاتِ.

وَأَمَّا الظُّلْمُ الَّذِي لاَ يُتْرَكُ، فَظُلْمُ ٱلْعِبَادِ بَعْضِهِمْ بَعْضاً.

ٱلْقِصَاصُ هُنَاكَ شَدِيدٌ، لَيْسَ هُوَ جَرْحاً بِالْمُدَى، وَلاَ ضَرْباً بِالسِّيَاطِ، وَلٰكِنَّهُ مَا يُسْتَصْغَرُ ذَلِكَ مَعَهُ.

فَإِيَّاكُمْ وَالتَّلَوُّنَ فِي دِينِ ٱللهِ، فَإِنَّ جَمَاعَةً فِيمَا تَكْرَهُونَ مِنَ ٱلْحَقِّ، خَيْرٌ مِنْ فُرْقَةٍ فِيمَا تُحِبُّونَ مِنَ ٱلْبَاطِلِ، وَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ لَمْ يُعْطِ أَحَداً بِفُرْقَةٍ خَيْراً مِمَّنْ مَضى، وَلاَ مِمَّنْ بَقِيَ.

يَاأَيُّهَا النَّاسُ، طُوبَى لِمَنْ شَغَلَهُ عَيْبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ! وَطُوبَى لِمَنْ لَزِمَ بَيْتَهُ، وَأَكَلَ قُوتَهُ، وَٱشْتَغَلَ بِطَاعَةِ رَبِّهِ، وَبَكَى عَلَى خَطِيئَتِهِ، فَكَانَ مِنْ نَفْسِهِ فِي شُغُلٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ!

الشرح: قسّم عليه السلام الظلم ثلاثة أقسام:

أحدها: ظلمٌ لا يغفر، وهو الشِّرْك بالله، أي أن يموت الإنسان مصِرًّا على الشِّرْك، ويجب عند أصحابنا أن يكون أراد الكبائر، وإنْ لم يذكرْها، لأنّ حكمها حكم الشِّرْك عندهم.

وثانيها: الهَنات المغفورة، وهي صغائر الذنوب، هكذا يفسّر أصحابنا كلامه عليه السلام.

وثالثها: ما يتعلّق بحقوق البَشر بعضهم على بعض، فإنّ ذلك لا يتركه الله هَمَلاً، بل لا بدّ من عقاب فاعله، وإنما أفردَ هذا القِسْم مع دخوله في القِسم الأول لتميُّزه بكونه متعلّقاً بحقوق بني آدم بعضِهم على بعض، وليس الأوّل كذلك.

فإن قلت: لفظه عليه السلام مطابقٌ للآية، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[1] والآية ولفظه عليه السلام صريحان في مذهب المرجِئة، لأنكم إذا فسرتم قوله: «لمن يشاء» بأنّ المراد به أرباب التوبة قيل لكم: فالمشركون هكذا حالهم يقبل الله توبتَهم، ويسقط عقب شِرْكهم بها، فلأيّ معنى خصص المشيئة بالقسم الثاني وهو ما دون الشرك! وهل هذا إلا تصريح بأنّ الشرك لا يُغفر لمن مات عليه، وما دونه من المعاصي إذا مات الإنسان عليه لا يقطع له بالعقاب، ولا لغيره بل أمْرُه إلى الله!

قلت: الأصوب في هذا الموضع ألا يجعل قوله: «لمن يشاء» معنيًّا به التائبون، بل نقول: المراد أنّ الله لا يستر في موقف القيامة مَنْ مات مشركاً، بل يفضحه على رؤوس الأشهاد كما قال تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلْأَشْهَٰدُ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ﴾[2].

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٢) سورة هود، الآية: ١٨.

وأمّا مَنْ مات على كبيرة من أهل الإسلام، فإنّ الله تعالى يستره في الموقف، ولا يفضحه بين الخلائق، وإن كان من أهل النار، ويكون معنى المغفرة في هذه الآية السّتر وتغطية حال العاصي في موقف الحشر، وقد يكون من أهل الكبائر ممّن يقرّ بالإسلام لعظيم كبائره جدًا، فيفضحه الله تعالى في الموقف كما يفضح المشرك، فهذا معنى قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(١).

فأمّا الكلامُ المطوّل في تأويلات هذه الآية فمذكور في كتبنا الكلاميّة.

واعلم أنه لا تعلُّق للمرجئة ولا جدْوَى عليهم من عموم لفظ الآية، لأنهم قد وافقونا على أن الفلسفيّ غير مغفور له وليس بمشرك، فإذا أراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ ومن جرى مجرَى المشركين، قيل لهم: ونحن نقول: إن الزانيَ والقاتل يجريان مَجْرى المشركين كما أجريتم الفلاسفة مجرى المشركين، فلا تنكروا علينا ما لم تنكروه على أنفسكم.

ثم ذكر عليه السلام أنّ القِصاص في الآخرة شديدٌ، ليس كما يعهده الناس من عقاب الدّنيا الذي هو ضرب السوط، وغايته أنْ يذوق الإنسان طعم الحديد، وهو معنى قوله: «جرحاً بالمُدى»، جمع مُدية وهي السّكّين، بل هو شيء آخر عظيم لا يعبّر النطق عن كُنْهِه وشدّة نكاله وألمِه.

في عذاب جهنم

قال الأوزاعيّ في مواعظه للمنصور: «رُوِيَ لي عنْ رسول الله صلى الله عليه وآله: لو أنّ ثوباً من ثياب أهل النار عُلّق بين السماء والأرض لأحرق أهلَ الأرض قاطبة، فكيف بمن يتقمّصه! ولو أنّ ذَنوباً من حميم جهنم صبّ على ماء الأرض كلّه لأجَنَّه حتى لا يستطيع مخلوق شربه، فكيف بمن يتجرّعه! ولو أن حلْقةً من سلاسل النار وضِعَتْ على جبلٍ لذاب كما يذوب الرصاص، فكيف بمن يُسلَك فيها، ويُرَدُّ فضلها على عاتقه(٢)!

وروى أبو هُريرة عن النبي صلى الله عليه وآله: «لو كان في هذا المسجد مائة ألف أو يزيدون، وأخرج إليهم رجلٌ من النار فتنفّس وأصابهم نَفَسُه لأحرق المسجد ومَنْ فيه»(٣).

وروي أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال لجبريل: «مالي لا أرى ميكائيل ضاحكاً! قال: إن ميكائيل لم يضحك منذ خلقت النار ورآها»(٤).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (٦/ ١٣٩)، وبنحوه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٤٢٠).

(٣) ذكره ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (١٥٦٤) وقال: قال أحمد بن حنبل: هذا حديث منكر، وذكره الذهبي في «ميزان الاعتدال» (٦/ ١٨١) في ترجمة محمد بن شبيب برقم (٧٦٦٨).

(٤) أخرجه أحمد في مسنده (١٢٩٣٠)، وأبو الشيخ في كتاب العظمة (٣٨٤).

وعنه ﷺ: «لمّا أسرِيَ بي سمعت هَدّة، فسألت جبريل عنها، فقال: حَجر أرسله الله من شَفير جهنم، فهو يهوِي منذ سبعين خريفاً حتى بلغ الآن فيه»[١].

وروى عن النبيّ ﷺ في قوله: ﴿تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَٰلِحُونَ﴾[٢]. قال: «تتقلّص شفتُه العليا حتى تبلغَ وسط رأسه، وتسترخي شفتُه السّفْلَى حتى تضرب سرَّته»[٣].

وروي عُبيد بن عمير اللّيْثي عنه عَلَيْتَلاِ: «لتزفَرَنّ جهنم زفرةً لا يبقى ملكٌ ولا نبيّ إلاّ خرّ مرتعدةً فرائصُه، حتى إنّ إبراهيم الخليل، ليجْثُو على ركبتيه، فيقول: يارب إنّي لا أسألك إلا نفسي»[٤].

أبو سعيد الخُدْرِيَ مرفوعاً: «لو ضرِبتْ جبال الدنيا بمقمَع من تلك المقامع الحديد لصارت غُباراً»[٥].

الحسن البصريّ: قال: الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النّار لأنهم أعجزوا الربّ، ولكن إذا أصابهم اللّهب أرسبتهم في النار - ثم خرّ الحسن صِعِقاً، وقال - ودموعه تتحادَرُ: يابن آدم، نفسَك نفسَك! فإنّما هي نفس واحدة إن نجتْ نجوتَ، وإن هلكتَ لم ينفعك مَنْ نجا.

طاوس: أيها الناس، إنّ النار لمّا خلِقَتْ طارت أفئدةُ الملائكة، فلمّا خلقتم سكنت.

مطرّف بن الشّخّير: إنكم لتذكرون الجنّة، وإنّ ذكر النّار قد حال بيني وبين أن أسأل الله الجنة.

منصور بن عَمّار: يا من البعوضة تقلقه، والبقّة تسهره، أمثلك يقوى على وَهَج السّعير، أو تطيق صفحةُ خدّه لفح سَمومها، ورقة أحشائه خشونة ضَرِيعها، ورطوبة كبده تجرُّع غَسّاقها!

قيل لعطاء السُّلمي: أيسرّك أن يقال لك: قَعْ في جهنم فتحرق فتذهب فلا تبعث أبداً لا إليها ولا إلى غيرها؟ فقال: والله الذي لا إله إلاّ هو، لو سمعت أن يقال لي، لظننت أنّي أموت فرحاً قبل أن يقال لي ذلك.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب: الجنة وصفة نعيمها، باب: في شدة حر نار جهنم (٢٨٤٤)، وأحمد في «مسنده» (٨٦٢٢).

(٢) سورة المؤمنون، الآية: ١٠٤.

(٣) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة جهنم، باب: ما جاء في صفة طعام أهل النار (٢٥٨٧)، وأحمد في «مسنده» (١١٤٢٦).

(٤) أخرج بنحوه: أبو نعيم في «الحلية» (٥/ ٣٦٨)، وابن المبارك في «الزهد» (٢٢٥)، وابن رجب الحنبلي في التخويف من النار (١/ ٨٠).

(٥) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (١٣٧٧)، والديلمي في «مسند الفردوس» (١٥١٦) بلفظ «التفتت».

الحسن: والله ما يقدر العباد قَدْر حَرّها، روينا: لو أنّ رجلاً كان بالمشرق، وجهنم بالمغرب، ثم كشِف عن غطاء واحد منها لغَلَتْ جمجمته، ولو أنّ دلوا من صديدها صبّ في الأرض ما بقيَ على وجهها شيء فيه روح إلاّ مات.

كان الأحنف يصلي صلاةَ الليل، ويضع المصباح قريباً منه، فيضع إصبعَه عليه، ويقول: يا حُنَيف، ما حملك على ما صنعت يوم كذا! حتى يُصبح.

في الاجتماع والعزلة

ثم نهاهم عليه السلام عن التفرّق في دين الله، وهو الاختلاف والفرقة، ثم أمرهم باجتماع الكلمة، وقال: إنّ الجماعة في الحقّ المكروه إليكم، خير لكم من الفرقة في الباطل المحبوب عندكم، فإنّ الله لم يعطِ أحداً خيراً بالفرقة، لا ممّن مضى، ولا ممّن بَقِيَ.

وقد تقدم ذكر ما ورد عن النبي صلى الله عليه وآله في الأمر بلزوم الجماعة، والنهي عن الاختلاف والفرقة.

ثم أمر عليه السلام بالعزلة، ولزوم البيت والاشتغال بالعبادة، ومجانبة الناس ومتاركتهم واشتغال الإنسان بعيب نفسه عن عيوبهم.

وقد ورد في العزلة أخبار آثار كثيرة، واختلف الناس قديماً وحديثاً فيها، ففضّلها قوم على المخالطة، وفضّل قوم المخالطة عليها.

فممّن فضّل العزلة سفيان الثوريّ، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائيّ، والفُضيل بن عياض، وسليمان الخوّاص، ويوسف بن أسباط، وبشر الحافي، وحُذيفة المرعشي، وجمع كثير من الصوفية، وهو مذهبُ أكثر العارفين، وقول المتألّهين من الفلاسفة.

وممن فضّل المخالطة على العزلة ابن المسيّب، والشعبيّ، وابن أبي ليلى، وهشام بن عروة، وابن شبرُمة، والقاضي شُريح، وشريك بن عبد الله، وابن عُيَينة، وابن المبارك.

فأمّا كلام أمير المؤمنين عليه السلام فيقتضي عند إمعان النظر فيه أنّ العزلة خيرٌ لقوم، وأن المخالطةَ خيرٌ لقوم آخرين عى حسب أحوال الناس واختلافهم.

وقد احتجّ أرباب المخالطة بقول الله تعالى: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾[1]، وبقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟﴾[2]، وهذا ضعيف، لأنّ المراد بالآية تفرّق الآراء واختلاف المذاهب في أصول الدين، والمراد بتأليف القلوب، وبالأخوّة عدم الإحَن والأحقاد بينهم، بعد استعار نارها في الجاهلية، وهذا أمر خارج عن حديث العزلة.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٠٣. (٢) سورة آل عمران، الآية: ١٠٥.

واحتجُوا بقول النبي ﷺ : «المؤمن إلْفٌ مألوف، ولا خير فيمن لا يألف ولا يُولَف»[١]، وهذا أيضاً ضعيف؛ لأنّ المراد منه ذمّ سوء الخلُق والأمر بالرفق والبِشْر، فلا يدخل تحته الإنسان الحسَن الخلق الذي لو خولط لألِف وأُلِف، وإنما يمنعه من المخالطة طلبُ السّلامة من الناس.

واحتجُوا بقوله: «مَنْ شقّ عصا المسلمين فقد خلع رِبقَة الإسلام عن عنقه»[٢]، وهذا ضعيف أيضاً؛ لأنه مختصّ بالبغاة والمارقين عن طاعة الإمام، فلا يتناول أهلَ العزلة الذين هم أهل طاعة للأئمة، إلاّ أنهم لا يخالطون الناس.

واحتجُوا بنهيه ﷺ عن هَجْر الإنسان أخاه فوق ثلاث[٣]، وهذا ضعيف؛ لأن المراد منه النهي عن الغضب، واللّجَاج، وقطع الكلام والسلام لثوران الغيظ، فهذا أمر خارج عن الباب الذي نحن فيه.

واحتجُوا بأنّ رجلاً أتى جَبَلاً يعبد فيه، فجاء أهله إلى رسول الله ﷺ فنهاه، وقال له: **«إنّ صبْر المسلم في بعض مواطن الجهاد يوماً واحداً خيرٌ له من عبادة أربعين سنة»**[٤].

وهذا ضعيف، لأنه إنما كان ذلك في ابتداء الإسلام والحثّ على جهاد المشركين.

واحتجُوا بما روي عنه ﷺ أنه قال: **«الشّيطان ذئب، والنّاس كالغنم يأخذ القاصية والشاذّة، إياكم والشّعاب وعليكم بالعامّة والجماعة والمساجد»**[٥]. وهذا ضعيف، لأنّ المراد به من اعتزل الجماعة وخالفها.

واحتجّ من رجح العزلة وآثرها على المخالطة بالآثار الكثيرة الواردة في ذلك، نحو قول عمر: خذوا بحظّكم من العُزلة. وقول ابن سيرين: العزلة عبادة.

وقول الفُضيل: كفَى بالله محبوباً، وبالقرآن مؤنساً، وبالموت واعظاً، اتّخِذ الله صاحباً، ودع النّاس جانباً.

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٢٣٣٣).
(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الأمثال، باب: ما جاء في مثل الصلاة والصيام (٢٨٦٣) وأبو داود، كتاب السنة، باب في قتل الخوارج (٤٧٥٨)، وأحمد في «مسنده» (١٦٧١٨).
(٣) أخرجه أبو داود، كتاب: الأدب، باب: فيمن يهجر أخاه المسلم (٤٩١٤)، وأحمد في «مسنده» (٨٨٤٨).
(٤) أخرجه الميرزا النوري في مستدرك الوسائل: ١١/ ٢١.
(٥) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢١٥٢٤)، والحارث في «مسنده» (٦٠٦)، الحميدي في «مسنده» (١٤ب)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ١٦٤)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٨٦٠)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٣٦٨٦).

وقال ابن الربيع الزاهد لداود الطائيّ: عِظْني، فقال: صُمْ عن الدنيا واجعل فِطْرَك للآخرة، وفرّ من الناس فرارَك من الأسد.

وقال الحسن: كلمات أحفظهنّ من التوراة: قنَع ابن آدم فاستغنى، واعتزل النّاس فسلِم، ترَك الشهوات فصار حرًّا، ترَك الحسد فظهرت مروءته، صبر قليلاً فتمتّع طويلاً.

وقال وهب بن الورد: بلَغنا أن الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها الصَّمْت، والعاشر في العُزْلة عن الناس.

وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار: ما أصبرك على الوحدة! وكان قد لزم البيت - فقال: كنت وأنا شابٌّ أصبِرُ على أشدَّ من هذا، كنت أجالس النَّاس ولا أكلّمهم.

وقال الثّوريّ: هذا وقت السّكوت وملازمة البيوت.

وقال بعضهم: كنت في سفينة، ومعنا شابٌّ عَلَويّ، فمكث معنا سبعاً لا نسمع له كلاماً، فقلنا له: قد جَمعنا الله وإياك منذ سبع، ولا نراك تخالطنا ولا تكلّمنا! فأنشد:

قـلـيـلُ الـهـمّ لا ولـد يـمـوتُ ... ولـيـس بـخـائـف أمـراً يـفُـوتُ
قـضـى وطَـر الـصّـبـا وأفـاد عـلـمـاً ... فـغـايـتُـه الـتـفـرّد والـسُّـكـوتُ
وأكـبـر هَـمّـهِ مـمّـا عـلـيـه ... تـنـاجـز مـن تـرى خَـلْـقٌ وقـوتُ

قال النَّخَعيّ لصاحب له: تفقّه ثم اعتزل.

وكان مالك بن أنس الفقيه يشهد الجنائز، ويعودُ المرضى ويعطي الإخوان حقوقهم، ثم ترك واحداً واحداً من ذلك، إلى أنْ ترك الجميع. وقال: ليس يتهيّأ للإنسان أن يخبر بكلّ عذر له.

وقيل لعمر بن عبد العزيز: لو تفرّغت لنا! فقال: ذهب الفراغ فلا فراغ إلاّ عند الله تعالى.

وقال الفُضيل بن عياض: إني لأجد للرّجل عندي يداً، إذا لقيني ألاّ يسلّم عليّ، وإذا مرضت ألاّ يعودني.

وقال الداراني: بينا ابن خُيثَم جالسٌ على باب داره، إذ جاء حجَر فصكّ وجهه، فسجد، وجعل يمسح الدم، ويقول: لقد وُعِظْت يا ربيع! ثم قام فدخل الدّار، فما جلس بعد ذلك على بابه حتى مات.

وكان سعدُ بن أبي وقّاص وسعيد بن زيد قد لزما بيوتهما بالعقيق، فلم يكونا يأتيان المدينة لا لحاجة لهما ولا لغيرهما، حتى ماتا بالعقيق.

قال بشر: أقلِلْ من معرفة الناس، فإنّك لا تدري ما تكون يوم القيامة! فإنْ تكن فضيحة كان مَنْ يعرفك أقلّ.

وأحضر بعضُ الأمراء حاتماً الأصمّ فكلّمه، ثم قال له: ألك حاجة؟ قال: نعم، ألاّ تراني ولا أراك!

وقيل للفُضَيل: إنّ ابنَك يقول: لوددْتُ أني في مكان أرَى الناس ولا يرونني! فبكى الفُضَيل، وقال: يا ويْح عليّ، ألاَ أتمَّها فقال: ولا أراهم!

ومن كلام الفُضَيل أيضاً: من سخافة عَقْل الرجل كثرة معارفه.

وقد جاء في الأحاديث المرفوعة ذكْر العُزلة وفضلها، نحو قوله عَلَيْتَلِا لعبد الله بن عامر الجُهنّي، لمّا سأله عن طريق النجاة، فقال له: «ليَسَعك بيتُك، أمسِكْ عليك دينَك، وابكِ على خطيئتك»[1].

وقيل له ﷺ: أيُّ الناس أفضل؟ فقال: «رجل معتزل في شِعْب من الشّعاب، يعبد ربّه، ويدع الناس من شرّه»[2].

وقال ﷺ: «إن الله يحب التَّقيّ النَّقيّ الخفِيّ»[3].

في فوائد العزلة

وفي العزلة فوائد: منها الفراغ للعبادة، والذِّكْر والاستئناس بمناجاة الله من مناجاةِ الخلْق، فيتفرّغ لاستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدّنيا والآخرة وملَكوت السموات والأرض، لأنّ ذلك لا يمكن إلاّ بفراغ، ولا فراغَ مع المخالطة، ولذلك كان رسول الله ﷺ في ابتداء أمره يتبتّل في جبل حِراء، ويعتزل فيه، حتى أتته النبوّة.

وقيل لبعض الحكماء: ما الذي أرادوا بالخلْوة والعُزْلة؟ فقال: دوام الفِكْر وثبات العلوم في قلوبهم، ليحيَوْا حياة طيّبة، ويموتوا موتاً طيّباً.

وقيل لبعضهم: ما أصبرك على الوَحْدة؟ فقال: لست وحدِي، أنا جليس ربي، إذا شئت أن يناجيَني قرأت كتابه، وإذا شئتُ أن أناجيَه صلّيت.

وقال سُفيان بن عيينة: لقيت إبراهيمَ بن أدهم في بلاد الشام، فقلت له: يا إبراهيم، تركتَ خراسان! فقال: ما تهنّأت بالعيش إلاّ ها هنا، أفرّ بديني من شاهق إلى شاهق، فمن رآني قال: موسوِس أو حمّال.

وقيل للحسن: يا أبا سعيد، ها هنا رجل لم نره قطّ جالساً إلا وحدَه خلْف سارية، فقال

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الزهد، باب: ما جاء في حفظ اللسان (٢٤٠٦)، بلفظ: «السانك» بدل «دينك».

(٢) أخرجه البخاري، كتاب الجهاد والسير، باب: أفضل الناس مؤمن مجاهد بنفسه وماله (٢٧٨٦)، ومسلم، كتاب الإمارة، باب: فضل الجهاد والرباط (١٨٨٨).

(٣) أخرجه الميرزا النوري في مستدرك الوسائل: ١١/ ٣٩٢.

الحسن: إذا رأيتموه فأخبروني، فنظروا إليه ذاتَ يوم، فقالوا للحسن - وأشاروا إليه، فمضى نحوه، وقال له: يا عبد الله، لقد حُبِّبت إليك العزلة، فما يمنعك من مجالسة الناس؟ قال: أمرٌ شغَلني عنهم، قال: فما يمنعك أن تأتيَ هذا الرّجل الذي يقال له الحسن، فتجلس إليه؟ قال: أمر شغلني عن الناس وعن الحسن، قال: وما ذلك الشّغل يرحمك الله؟ قال: إنّي أمسي وأصبح بين نعمة وذنب، فأشغل نفسي بشكر الله على نِعَمِه، والاستغفار من الذنب، فقال الحسن: أنت أفقه عندي يا عبد الله من الحسن، فالزَمْ ما أنت عليه.

وجاء هرِم بن حيّان إلى أُوَيْس، فقال له: ما حاجتُك؟ قال: جئت لآنس بك، قال: ما كنتُ أعرف أحداً يعرف ربّه فيأنس بغيره!

وقال الفُضَيْل: إذا رأيتُ اللّيل مقبلاً فرحتُ به، وقلت: أخلُو بربّي، وإذا رأيت الصبحَ أدركني، استرجعت كراهيّة لقاء الناس، وأن يجيء إليّ من يشغَلني عن ربّي.

وقال مالك بن دينار: من لم يأنسْ بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين، فقد قلّ علمُه، وعميَ قلبُه، وضاع عمره.

وقال بعض الصالحين: بينا أنا أسيرُ في بعض بلاد الشام، إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال، فلما نظر إليّ تنحّى إلى أصل شجرة، وتستّر بها: فقلت: سبحان الله! أتبخل عليّ بالنّظرِ إليك؟ فقال: يا هذا، إني أقمتُ في هذا الجبَل دهراً طويلاً، أعالج قلبي في الصبْر عن الدنيا وأهلها، فطال في ذلك تعبي، وفني عمري، ثم سألت الله تعالى ألاّ يجعل حظّي من أيّامي في مجاهدة قلبي فقط، فسكّنه الله عن الاضطراب، وآلَفَهُ الوحدة والانفراد، فلما نظرت إليك وتريدني خفت أن أقع في الأمر الأوّل فأعود إلى إلْف المخلوقين، فإليك عني فإنّي أعوذ من شرّك بربّ العارفين وحبيب التائبين. ثم صاح: واغمّاه من طول المُكْث في الدنيا! ثم حوّل وجهه عني، ثم نفض يده، وقال: إليكِ عني يا دنيا، لغيري فتزّيني، وأهلَك فغُرّي! ثم قال: سبحانه مَنْ أذاق العارفين من لذة الخدمة وحلاوة الانقطاع إليه ما ألهى قلوبَهم عن ذكر الجِنان، ولحور الحسان، فإنّي في الخلوة آنس بذكر الله، واستلذ بالانقطاع إلى الله، ثم أنشد:

وإنّـي لأسْـتَـغْـشِـي وَمَـا بِـيَ نَـعْـسَـةٌ ... لـعـلّ خَـيَـالاً مـنـكِ يَـلْـقَـي خَـيَـالـيَـا
وأخـرجُ مـن بـيـن الـبـيـوتِ لـعـلّـنـي ... أحدّثُ عنكِ النّفْس في السرّ خاليـاً

وقال بعض العلماء: إنما يتوحش الإنسان من نفسه لخلوّ ذاته عن الفضيلة، فيتكثر حينئذٍ بملاقاة الناس، ويطرد الوحشة عن نفسه بهم، فإذا كانت ذاتُه فاضلة طلب الوحدة ليستعينَ بها على الفكرة، ويستخرج العلم والحكمة، وكان يقال: الاستئناس بالنّاس من علامات الإفلاس.

ومنها التخلّص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرّض الإنسان لها غالباً بالمخالطة، وهي الغيبة، والرّياء، وترك الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر، وسرِقة الطبع بعضَ الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من الغيْر.

أما الغِيبة فإنّ التحرّز منها مع مخالطة الناس صعبٌ شديد لا ينجو من ذلك إلا الصدّيقون، فإنّ عادة أكثر الناس التمضمض بأعراض من يعرفونه، والتنقّل بلذّة ذلك، فهي أنسهم الذي يستريحون إليه في الجلْوة والمفاوضة، فإن خالطتهم ووافقت أثمتَ، وإن سكتّ كنت شريكاً، فالمستمع أحد المغتابِينَ، وإن أنكرتَ تركوا ذلك المغتاب واغتابوك، فازدادوا إثماً على إثمهم.

فأمّا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن من خالط الناس لا يخلُوا عن مشاهدة المنكرات، فإن سكت عصَى الله، وإن أنكر تعرّض بأنواع من الضّرر، وفي العزلة خلاص عن ذلك، وفي الأمر بالمعروف إثارة للخِصام، وتحريك لكوامن ما في الصدور. وقال الشاعر:

وكم سُقتُ في آثاركمْ من نصيحة   وقد يستفيدُ الظِّنَّةَ المتنصِّحُ

ومن تجرّد للأمر بالمعروف ندِم عليه في الأكثر، كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمَه وحده، فيوشك أن يقع عليه، فإذا سقط قال: يا ليتني تركتُه مائلاً! نعم لو وجدَ الأعوانَ حتى يحكِمَ ذلك الحائط ويدعمه استقام، ولكنك لا تجد القوم أعواناً على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فدع النّاس وانجُ بنفسك.

وأمّا الرّياء فلا شبهةَ أنّ مَنْ خالط الناس دَاراهم، ومَنْ دَاراهم راءاهم، ومن راءاهم كان منافقاً، وأنت تعلم أنّك إذا خالطت متعادِيين، ولم تلْق كلّ واحدٍ منهما بوجه يوافقه صرت بغيضاً إليهما جميعاً، وإن جاملتَهما كنتَ من شرار النّاس، وصرت ذا وَجْهين، وأقلّ ما يجب في مخالطة الناس إظهارُ الشّوْق والمبالغة فيه، وليس يخلُو ذا وَجهين، وأقلّ ما يجب في مخالطة الناس إظهارُ الشّوْق والمبالغة فيه، وليس يخلُو ذلك عن كذب، إمّا في الأصل وإمّا في الزيادة بإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوال، فقولك: كيف أنت؟ وكيف أهلك؟ وأنت في الباطن فارغ القلب عن همومه، نفاق محض.

قال السَّرِيّ السّقطيّ: لو دخلَ عليّ أخ فسوّيتُ لحيتي بيدي لدخوله، خشيتُ أن أُكتب في جريدة المنافقين.

كان الفُضَيْل جالساً وحده في المسجد، فجاء إليه أخ له، فقال: ما جاء بك؟ قال: المؤانسة، قال: هي والله بالمواحشة أشبه، هل تريد إلاّ أن تتزيّن لي وأتزيّن لك، وتكذِب لي وأكذِب لك! إمّا أن تقوم عنّي، وإمّا أن أقوم عنك.

وقال بعضُ العلماء: ما أحبّ الله عبداً إلاّ أحبّ ألاّ يشعر به خلقه.

ودخل طاوس على هِشام بن عبد الملك، فقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب، وقال: لَم لَمْ

تخاطبني بإمْرة المؤمنين؟ قال: لأنّ جميع الناس ما اتَّفَقُوا على خلافتك، فخشيت أن أكون كاذباً. فمن أمكنه أن يحترز هذا الاحترازَ، فليخالط الناس، وإلا فليرضَ بإثبات اسمه في جريدة المنافقين إن خالطهم، ولا نجاة من ذلك إلا بالعزلة.

وأما سرقة الطبع من الغيْر، فالتجربة تشهد بذلك، لأنّ مَنْ خالط الأشرار اكتسب من شرّهم، وكلما طالت صحبةُ الإنسان لأصحاب الكبائر، هانت الكبائر عنده وفي المثل: «فإنّ القَرِينَ بالمقارن يقتدي»[(١)].

ومنها الخلاص من الفِتَن والحروب بين الملوك والأمراء على الدُّنيا.

روى أبو سعيد الخُدريّ عن النبيّ ﷺ، أنه قال: «**يوشِكُ أن يكونَ خيرُ مالِ المسلم غنيمات يتّبع بها شِعاف الْجبال، ومواضع القَطْر، يفرّ بدينه من الفتن**»[(٢)].

وروى عبد الله بن عمرو بن العاص، أنّ رسول الله ﷺ ذكر الفِتن فقال: «**إذا رأيتَ الناس قد مَرِجت**[(٣)] **عهودهم، وخفّت أماناتهم، وكانوا هكذا**» - وشبّك بأصابعه - فقلت ما تأمرني؟ فقال: «**الزم بيتك، واملِكْ عليك لسانك، وخذ ما تعرف، ودَعْ ما تنكر، وعليك بأمرِ الخاصّة، ودَعْ عنك أمر العامّة**»[(٤)].

وروى ابن مسعود عنه ﷺ أنه قال: «**سيأتي عَلَى الناس زمانٌ لا يسلم لذي دين دينُه إلاّ مَنْ فَرّ من قرية إلى قرية، ومن شاهق إلى شاهق، كالثعلب الروّاغ**» قيل: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال: «**إذا لم تُنَل المعيشة إلاّ بمعاصي الله سبحانه، فإذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه، فإن لم يكن له أبوان فعلى يد زوْجَتِهِ وولده، وإن لم يكن فعلى يدِ قرابته**»، قالوا: كيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «**يعيّرونه بالفقر وضيق اليد، فيكلّفونه ما لا يطيقه حتى يوردَه ذلك موارد الهلكة**»[(٥)].

---

(١) انظر «مجمع الأمثال» للميداني (٣/ ٥٤٦).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الإيمان، باب: من الدين الفرار من الفتن (١٩)، والنسائي كتاب: الإيمان وشرائعه، باب: الفرار بالدين من الفتن (٥٠٣٦)، وأبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب ما يرخص فيه من البداوة في الفتنة (٤٢٦٧).

(٣) مَرِجت: اختلطت. اللسان، مادة (خلط).

(٤) أخرجه أبو داود، كتاب: الملاحم، باب الأمر والنهي (٤٣٤٢)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: التثبت من الفتنة (٣٩٥٧)، وأحمد في «مسنده» (٦٤٧٢).

(٥) أخرج نحوه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٢٥)، والديلمي في «مسنده» (٨٦٩٧)، والبيهقي في «الزهد» (٤٣٩).

وروى ابنُ مسعود أيضاً أنه ﷺ ذكر الفتنة، فقال: «الهرْج» فقلت: وما الهرْج يا رسول الله؟ قال: «حين لا يأمن المرء جليسَه»، قلت: فبمَ تأمرُني يا رسول الله، إن أدركتُ ذلك الزمان؟ قال: «كفّ نفَسك ويَدك، وادخل دارك»، قلت: أرأيتُ إن دُخِل عليّ داري! قال: «ادخل بيتَك»، قلت: إن دُخِل عليّ البيت، قال: «ادخل مسجدَك، واصنع هكذا - وقبض على الكوع - وقل: ربِّيَ الله، حتى تموت»[1].

ومنها الخلاصُ من شرّ الناس، فإنهم يؤذونك تارة بالغيبة، وتارة بسوء الظنّ والتهمة وتارة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاءُ بها، وتارة بالنّميمة والكذِب مما يروْنَه منك من الأعمال والأقوال مما لا تبلغ عقولهم كنهَه، فيدّخرون ذلك في نفوسهم عدة، لوقت ينتهزون فيه فرصة الشر، ومن يعتزلهم يستغنِ عن التحفُّظ لذلك.

وقال بعض الحكماء لصاحبه: أعلّمك شعراً هو خيرٌ لك من عشرة آلاف درهم! وهو:

اخفضِ الصّوْتَ إن نطقَت بليلٍ ... والتفتْ بالنَّار قبل المقالِ
ليس للقول رجعةٌ حين يبدُو ... بقبيحٍ يكون أو بجمال

ومَنْ خالط الناس لا ينفكّ من حاسدٍ وطاعنٍ، ومَنْ جرّب ذلك عرف.

ومن الكلام المأثور عن عليّ عليه السلام: «اُخبُرْ تَقلِهْ»[2] قال الشاعر:

مَنْ حَمِدَ النَّاسَ وَلَمْ يَبْلُهُمْ ... ثم بلاهم ذمّ مَنْ يحمَدُ
وصار بالوحدة مستأنِساً ... يوحِشه الأقرب والأبعدُ

وقيل لسعد بن أبي وقاص: ألا تأتي المدينة؟ قال: ما بقيَ فيها إلا حاسد نعمة، أو فرِحٌ بنقمة.

وقال ابن السَّمَّاك: كتب إلينا صاحب لنا: أمّا بعد، فإنّ الناس كانوا دواءً يُتداوَى به، فصاروا داءً لا دواء لهم، ففِرّ منهم فِرارك من الأسد.

وكان بعضُ الأعراب يلازم شجرةً ويقول: هذه نديمي، وهو نديم فيه ثلاث خصال: إن سمِعَ لم ينمّ عليّ، وإن تفلْتُ في وجهه احتَمل، وإن عربدتُ عليه لم يغضب، فسمع الرشيد هذا الخبر، فقال: قد زهَّدني سماعه في الندماء.

(١) أخرج بنحوه أبو داود، كتاب الفتن والملاحم، باب: النهي عن السعي في الفتنة (٤٢٥٦)، وأحمد في «مسنده» (٤٢٧٤).
(٢) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٦٧/ ١١١.

وكان بعضُهم يلازم الدّفاتر والمقابر، فقيل له في ذلك، قال: لم أرَ أسْلَمَ من الوحدة ولا أوْعظ من قبر، ولا أمتَع من دفْتر.

وقال الحسن مَرّة: إنّي أريد الحجّ، فجاء إليّ ثابت البُناني، وقال: بلغني أنّك تريد الحجّ، فأحببت أن نصطحب، فقال الحسن: دعْنَا نتعاشر بسَتْرِ الله، إنّي أخاف أن نصطحب فيرَى بعضُنا من بعض ما نتماقَتُ عليه.

وقال بعض الصالحين: كان النّاس ورَقاً لا شوكَ فيه، فالنّاس اليوم شوكٌ لا وَرَق فيه.

وقال سُفْيان بن عُيَينة: قال لي سفيان الثوريّ: في اليقظة في حياته، وفي المنام بعد وفاته: أقِللْ معرفة الناس، فإنّ التخلّص منهم شديد. ولا أحسِبُني رأيتُ ما أكره إلا ممنّ عرفت.

وقال بعضهم: جئتُ إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده وعنده كلْب رابض قريباً منه، فذهبت أطرده فقال: دعه فإنه لا يضرّ ولا يؤذي، وهو خير من الجليس السوء.

وقال أبو الدرداء: اتّقوا الله واحذروا الناس، فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه ولا ظهر جوادٍ إلا عقروه، ولا قلب مؤمن إلا أخربوه.

وقال بعضهم: أقِلْل المعارف، فإنه أسلم لدينك وقلبك وأخفّ لظهرك، وأدعى إلى سقوط الحقوق عنك، لأنه كلّما كثرت المعارف كثرت الحقوق، وعسر القيام بالجميع.

وقال بعضهم: إذا أردتَ النجاةَ فأنكِرْ من تعرِف، ولا تتعرَّفْ إلى من لا تعرف.

ومنها، إنّ في العُزلة بقاء السّتر على المروءة والخلُق والفقر وسائر العورات، وقد مدح الله تعالى المتسترين فقال: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾(١).

وقال الشاعر:

وَلاَ عارَ أنْ زالتْ عن الحرّ نعمةٌ ... ولكنّ عاراً أن يزولَ التَّجَمُّلَ

وليس يخلُو الإنسان في دينه ودنياه وأفعاله عن عَوْرات يُتَّقَيْنَ ويجب سترها، ولا تبقى السلامة مع انكشافها، ولا سبيلَ إلى ذلك إلا بترك المخالطة.

ومنها أن ينقطع طمعُ الناس عنك، وينقطع طمعك عن الناس، أما انقطاعُ طمع الناس عنك ففيه نفع عظيم، فإنّ رضا الخلْق غاية لا تُدرك، لأن أهونَ حقوق الناس وأيسرها حضورُ

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

الجنازة، وعيادة المريض، وحضور الولائم، والإملاكات، وفي ذلك تضييع الأوقات، والتعرّض للآفات، ثم يعوّق عن بعضها العوائق، وتستثقل فيها المعازير، ولا يمكن إظهار كل الأعذار، فيقول لك قائل: إنّك قمت بحقّ فلان، وقصّرت في حقّي، ويصير ذلك سبب عداوة، فقد قيل: إنّ مَنْ لَمْ يَعُد مريضاً في وقت العيادة، يشتهي موتَه خيفة من تخجيله إياه إذا بريء من تقصيره، فأما مَنْ يعم الناس كلهم بالحرمان فإنهم يرضوْن كلُّهم عنه، ومتى خصّص وقع الاستيحاش والعتاب، وتعميمهم بالقيام بجميع الحقوق، ممّا لا قدرة عليه للمتجرّد ليله ونهاره، فكيف مَنْ له مهمّ يشغَلُه دينيّ أو دنيويّ!

ومن كلام بعضهم: كثرة الأصدقاء زيادة الغرماء.

وقال الشاعر:

عَـدُوّكَ مِـنْ صـديـقِـك مُـسْـتَـفَـادٌ ... فـلا تـسـتـكـثـرنّ مـن الـصِّـحَـابِ

فـإنّ الـدّاء أكـثـر مـا تـراه ... يـكـونُ مـن الـطّـعـام أو الـشـرابِ

وأما انقطاع طمَعك عنهم، ففيه أيضاً فائدة جزيلة، فإنّ مَنْ نظر إلى زهرة الدّنيا وزخرفها، تحرّك حرصُه، وانبعث بقوة الحرص طمعه، وأكثر الأطماع يتعقّبها الخيبة، فيتأذّى الإنسان بذلك، وإذا اعتزل لم يشاهد، وإذا لم يشاهد لم يشتَهِ ولم يطمع، ولذلك قال الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾[١].

وقال عليه السلام: «انظروا إلى مَنْ دونكم، ولا تنظُروا إلى مَنْ هو فوقكم، فإنه أجدَرُ ألا تزدرُوا نعمةَ الله عليكُمْ»[٢].

وقال عَوْن بن عبد الله: كنتُ أجالس الأغنياء، فلا أزال مغموماً أرى ثوباً أحسن من ثوبي، ودابّةً أفْرَهَ من دابتي، فجالست الفقراء فاسترحت.

وخرج المُزَنيّ صاحب الشافعيّ من باب جامع الفُسطاط بمصر، وكان فقيراً مقلاً، فصادف ابنَ عبد الحكم قد أقبل في موكبه، فبهره ما رأى من حاله، حسن هيآته، فتلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ﴾[٣] ثم قال: نعم أصبر وأرضى.

فالمعتزل عن النّاس في بيته لا يبتلَى بمثل هذه الفتن، فإنّ مَنْ شاهدَ زينة الدنيا، إمّا أن يقوي دينه ويقينه فيصبر فيحتاج إلى أن يتجرّع الصَّبْر، وهو أمرّ من الصَّبِر، أو تنبعث رغبته فيحتال في طلب الدنيا فيهلِك دنيا وآخرة، أما في الدنيا فبالطبع الذي في أكثر الأوقات يتضمن الذل المعجل، وأمّا في الآخرة فلإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله، والتقرّب إليه، ولذلك قال الشاعر:

---

(١) سورة طه، الآية: ١٣١.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في الشكر لله: ١٤٦ رقم: ١٥٩.

(٣) سورة الفرقان، الآية: ٢٠.

إذَا كَانَ بابُ الذّلّ منْ جانبِ الغنَى سموتُ إلى العَلْياءِ من جَانِبِ الفَقْر

أشار إلى أنّ الطمع يوجب في الحال ذلاً.

ومنها الخلاص مِنْ مشاهدة الثّقلاء والحمقى ومعاناة أخلاقهم، فإنّ رؤية الثقيل هي العمى الأصغر، قيل للأعمش: بم عمِشتْ عيناك؟ قال: بالنّظر إلى الثقلاء.

ودخل على أبي حنيفة رحمه الله، فقال له: رَوَيْنا في الخبر أنّ «منْ سلِب كريمتيه عَوّضه الله ما هو خير منهما»[1]، فما الذي عوضك؟ قال: كفاني رؤية ثقيل مثلك يمازحه.

وقال الشافعي رحمه الله: ما جالستُ ثقيلاً إلاّ وجدت الجانب الذي يليه من بَدَني كأنّه أثقلُ عليّ من الجانب الآخر.

وهذه المقاصد وإن كان بعضها دنيوناً، إلاّ أنها تضرِبُ في الدين بنصيب، وذلك لأنّ مَنْ تأذّى برؤية ثقيل لم يلبث أن يغتابه ويثلُبه، وذلك فساد في الدين، وفي العزلة السلامة عن جميع ذلك.

واعلم أنّ كلامَ أميرِ المؤمنين عليه السلام تَختلف مناهجه، فقد رجّح العزلَة في هذا الفصل على المخالطة، ونهى عن العزلة في موضع آخر سيأتي ذكره في الفصل الذي أوّله، «أنّه دخل على العَلاء بن زياد الحارثيّ عائداً»، ويجب أنْ يحمَل ذلك على أنّ مِنَ الناس مَنِ العزلةُ خيرٌ له من المخالطة، ومنهم مَنْ هو بالضدّ من ذلك، وقد قال الشافعيّ قريباً من ذلك، قال ليونس بن عبد الأعلَى صاحبِه: يا يونس، الانقباض عن الناس مكسبةٌ للعداوة، والانبساط إليهمْ مجلبة لقرَناء السوء، فكن بين المنقبض والمنبسط.

فإذا أرَدْتَ العزلة فينبغي للمعتزل أن ينويَ بعزلته كفّ شرّه عن الناسَ أولاً، ثم طلبَ السّلامة من شرّ الأشرار ثانياً، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثاً، ثم التجرّد بكنه الهمّة بعبادة الله تعالى رابعاً، فهذه آداب نيّته. ثم ليكُنْ في خَلوته مواظباً على العِلْم والعمل، والذّكر والفكْر، ليجتنيَ ثمرة العزلة. ويجب أن يمنع الناس عن أن يكثِروا غشيانه وزيارته، فيتشوّش وقته، وأنْ يكفّ نفسه عن السؤال عن أخبارهم وأحوالهم، وعن الإصغاء إلى أراجيف النّاس وما الناس مشغولون به، فإنّ كلّ ذلك ينغرس في القلب حتى ينبعث على الخاطر والبال وقتَ الصلاة ووقت الحاجة إلى إحضار القلب، فإنّ وقوع الأخبار

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب: المرضى، باب: فضل من ذهب بصره (٥٦٥٣)، والترمذي، كتاب: الزهد، باب ما جاء في هاب البصر (٢٤٠٠)، وأحمد في «مسنده» (١٣٦٠٧).

في السمع كوقوع البَذر في الأرض، لا بدّ أن ينبت وتتفرّع عروقه وأغصانه، وإحدى مهمّات المعتزِل قطع الوساوس الصّارفة عن ذكر الله، ولا ريب أنّ الأخبار ينابيع الوساوس وأصولها.

ويجب أنْ يقنَع باليسير من المعيشة، وإلاّ اضطرّه التوسع إلى الناس، واحتاج إلى مخالطتهم.

وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الْجِيران إذ يسدّ سمعه عن الإصغاء إلى ما يقول فيه مَنْ أثنى عليه بالعزلة، وقَدَح فيه بترك المخالطة، فإنّ ذلك لا بدّ أن يؤثر في القلب، ولو مدّة يسيرة، وحال اشتغال القلب به لا بدّ أن يكون واقفاً عن سيره في طريق الآخرة، فإنّ السّير فيها إمّا يكون بالمواظَبة على وِرْد أو ذكْر مع حضور قلْب، وإمّا بالفكر في جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوت سماواته، وإمّا بالتأمّل في دقائق الأعمال ومفسدات القلب وطلب طريق التخلُّص منها، وكلّ ذلك يستدعِي الفراغ، ولا ريب أنّ الإصغاء إلى ما ذكرناه يشوّش القلب.

ويجب أن يكون للمعتزل أهلٌ صالح أو جليس صالح، لتستريح نفسه إليه ساعةً عن كدّ المواظبة، ففي ذلك عونٌ له على بقيّة الساعات. وليس يتمّ للإنسان الصّبر على العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا، وما النّاس منهمكون فيه، ولا ينقطع طمعه إلاّ بقصَر الأمل، وألاّ يقدّر لنفسه عمراً طويلاً، بل يصبح على أنه لا يمسي، ويمسي عَلَى أنّه لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم، ولا يسهل عليه العزم على صبر عشرين سنة لو قدّر تراخي أجله، وليكن كثير الذكْر للموت ووحدة القبر، مهما ضاق قلبه من الوحدة، وليتحقّق أن مَنْ لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، فإنه لا يطيق وحشة الوحدة بعد الموت، وأنّ مَنْ أنِس بذكر الله ومعرفته فإنّ الموت لا يزيل أنسه، لأنّ الموت ليس يهدم محلّ الأنس والمعرفة، بل يبقى حياً بمعرفته وأنسه فرحاً بفضل الله عليه، قال سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾(١).

وكلّ من يجرد نفسه في ذات الله فهو شهيد مهما أدركه الموت فالمجاهد مَنْ جاهد نفسَه وهواه، كما صرّح به ﷺ، وقال لأصحابه: «ارجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»(٢)، فالجهاد الأصغر محاربة المشركين، والجهاد الأكبر جهاد النفس.

وهذا الفصل في العزلة نقلناه على طوله من كلام أبي حامد الغزاليّ في إحياء علوم الدين وهذّبنا منه ما اقتضت الحال تهذيبه.

---

(١) سورة آل عمران، الآيتان: ١٦٩، ١٧٠.

(٢) ذكره في «كنز العمال» (١١٢٦٠) وعزاه للخطيب في «تاريخه».

١٧٨ - ومن كلام له عليه السلام في معنى الحكمين

الأصل: فَأَجمَعَ رَأيُ مَلَئِكُمْ على أَنِ اختارُوا رَجُلَيْنِ، فَأَخَذْنَا عَلَيهِما أَنْ يُجَعْجِعا عِنْدَ القُرآنِ، وَلاَ يُجَاوِزَاهُ، وَتَكُونَ أَلسِنَتُهُما مَعَهُ وَقُلُوبُهُما تَبَعَهُ، فَتاها عَنْهُ، وَتَرَكا الحَقَّ وَهُما يُبصِرَانِهِ، وَكانَ الجَوْرُ هَوَاهُما، وَالاعْوِجاجُ دَأْبَهُمَا، وَقَدْ سَبَقَ اسْتِثْناؤنا عَلَيْهِما في الحُكْمِ بِالْعَدْلِ وَالْعَمَلِ بِالحَقِّ سُوءَ رَأْيِهِما، وَجَوْرَ حُكْمِهِما، وَالثِّقَةُ في أَيْدِينا لِأَنْفُسِنا، حِينَ خالَفا سَبِيلَ الحَقِّ، وَأَتَيا بِما لاَ يُعْرَفُ مِنْ مَعْكُوسِ الحكْمِ.

الشرح: الملأ: الجماعة. ويجعجعا: يحبسا نفوسهما وآراءهما عند القرآن، جعجعت، أي حبست، أخذت عليهما العهد والميثاق أن يعملا بما في القرآن ولا يتجاوزاه.

فتاها عنه، أي عدلاً، وتركا الحق على عِلْم منهما به.

والدأب: العادة، و«سوء رأيهما» منصوب، لأنه مفعول «سبق»، والفاعل «استثناؤنا».

ثم قال: «والثقة في أيدينا»، أي نحن على برهان وثقة من أمرنا، وليس بضائرٍ لنا ما فعلاه لأنهما خالفَا الحقّ، وعدلا عن الشرط وعكسا الحكم.

وروى الثوريّ، عن أبي عبيدة، قال: أمر بلال بن أبي بُرْدة وكان قاضياً، بتفريقٍ بين رجل وامرأته، فقال الرجل: يا آل أبي موسى، إنما خلقكم الله للتفريق بين المسلمين!

كتب معاوية إلى عمرو بن العاص وهو على مِصْر، قد قبضها بالشرْط الذي اشترط على معاوية: «أما بعد، فإنّ سؤّال أهل الحجاز وزوّار أهل العراق كثُروا عليّ، وليس عندي فضل عن أعطِيات الحجاز، فأعنّي بخراج مصر هذه السنة».

فكتب عمرو إليه:

معاويَ إنْ تدرِكْكَ نفسٌ شحيحةٌ ... فما مصر إلاّ كالهباءَةِ في التُّرْبِ

وما نلتُها عفواً ولكن شرَطتُها ... وقد دارت الحرب العَوَان على قُطْبِ

ولولا دفاعي الأشعريَّ ورهطه ... لألفيتَها ترغُو كراغية السَّقْبِ[1]

ثم كتب في ظاهر الكتاب - ورأيت أنا هذه الأبيات بخط أبي زكريا يحيى بن عليّ الخطيب التبريزيّ رحمه الله -:

معاويَ حظّيَ لا تغفلِ ... وعن سنَنِ الحقّ لا تعدِلِ

(١) السقب: ولد الناقة، أو ساعة يولد. القاموس، مادة (سقب).

أتنسى مخادعتي الأشعريّ وما كان في دَوْمَةِ الجَندَلِ!
ألين فيطمع في غِرّتي وسهميَ قد خاض في المقتلِ
فألمظه عسلاً بارداً وأخبأ من تحته حَنظَلي
وأعليته المنبر المشمَخرّ كرجع الحُسام إلى المفصِلِ
فأضحى لصاحبه خَالَعاً كخلع النّعال من الأرجُلِ
وأثبتها فيك موروثةً ثبوتَ الخواتِم في الأنمُلِ
وهبت لغيريَ وزن الجبالِ وأعطيتني زِنَةَ الخردَلِ
وإنّ عليًّا غدا خصمنا سيحتجّ بالله والمرسَلِ
وما دَمُ عثمان منجٍ لنا فليس عن الحقّ من مَزحَلِ

فلما بلغ الجوابُ إلى معاوية لم يعاوده في شيء من أمر مصر بعدها.

بعث عبد الملك رَوْح بن زنباع وبلال بن أبي بردة بن أبي موسى، إلى زفر بن الحارث الكلابيّ بكلام، وحذّرهما من كيده، وخصّ بالتحذير رَوْحاً. فقال: يا أمير المؤمنين، إنّ أباه كان المخدوع يوم دوْمة الجندل لا أبي، فعلامَ تخوّفني الخداع والكيد. فغضب بلال وضحك عبد الملك.

---

١٧٩ - ومن خطبة له عليه السلام يذكران زوال النعم من سوء الفعال

الأصل: لاَ يَشْغَلُهُ شَأْنٌ، وَلاَ يُغَيِّرُهُ زَمَانٌ، وَلاَ يَحْوِيهِ مَكَانٌ، وَلاَ يَصِفُهُ لِسَانٌ، لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ عَدَدُ قَطْرِ المَاءِ، وَلاَ نُجُومُ السَّمَاءِ، وَلاَ سَوَافِي الرِّيحِ فِي ٱلْهَوَاءِ، وَلاَ دَبِيبُ النَّمْلِ عَلَى الصَّفَا وَلاَ مَقِيلُ الذَّرِّ فِي اللَّيْلَةِ الظَّلْمَاء. يَعْلَمُ مَسَاقِطَ ٱلأَوْرَاقِ، وَخَفِيَّ طَرْفِ ٱلأَحْدَاقِ.

وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ ٱللهُ غَيْرَ مَعْدُولٍ بِهِ، وَلاَ مَشْكُوكٍ فِيهِ، وَلاَ مَكْفُورٍ دِينُهُ، وَلاَ مَجْحُودٍ تَكْوِينُهُ، شَهَادَةَ مَنْ صَدَقَتْ نِيَّتُهُ، وَصَفَتْ دِخْلَتُهُ، وَخَلَصَ يقِينُهُ، وَثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، والمُجْتَبَى مِنْ خَلاَئِقِهِ، وَالمُعْتَامُ لِشَرْحِ حَقَائِقِهِ، وَالمُخْتَصُّ بِعَقَائِلِ كَرَامَاتِهِ، وَالمُصْطَفَى لِكَرَائِمِ رِسَالاَتِهِ، وَالمُوَضَّحَةُ بِهِ أَشْرَاطُ ٱلْهُدَى، وَالمَجْلُوُّ بِهِ غِرْبِيبُ ٱلْعَمَى.

الشرح: لا يشغلَهُ أمر، لأنّ الحيّ الذي تشغله الأشياء هو الحيّ العالم بالبعض دون البعض، والقادر على البعض دون البعض، فأمّا من لا يغيب عنه شيء أصلاً، ولا يعجز عن شيء أصلاً، ولا يمنعه من إيجاد مقدوره - إذا أراد - مانع أصلاً، فكيف يشغَلُه شأن!

وكذلك لا يغيّره زمان؛ لأنّه واجب الوجود، ولا يحويه مكان؛ لأنه ليس بجسم، ولا يصفه لسان، لأنّ كُنْه ذاته غيرُ معلوم، وإنما المعلوم منه إضافات أو سلوب.

ولا يعزب عنه أمر من الأمور، أي لا يفوته عِلْم شيء أصلاً.

والسوافي: التي تَسْفِي التراب، أي تَذْرُوهُ.

والصفا، مقصور: الصخر الأملس، ولا وقف عليها ها هنا، لأنّ المقصور لا يكون في مقابلة الممدود، وإنما الفقرة المقابلة للهواء هي «الظلماء»، ويكون «الصفا» في أدراج الكلام أسْوة بكلمة من الكلمات. والذّرّ: صغار النّمل.

ويعلم مساقط الأوراق، من قوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا﴾[1]. وطَرْف الأحداق: مصدر طَرَف البصر يطرُف طَرْفا، إذا انطبق أحدُ الجفنين على الآخر، ولكونه مصدراً وقع على الجماعة كما وقع على الواحد، فقال عليه السلام: «طَرْف الأحداق»، كما قال سبحانه: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾[2].

وغير معدول به: غير مسوًى بينه وبين أحد.

والدِّخلة، بكسر الدال: باطن الأمر، ويجوز الدُّخْلَة بالضمّ.

والمعتام: المختار. والعِيمة بالكسر: خِيارُ المال، اعتام الرجل، إذا أخذَ العِيمة.

فإن قلت: لفظة «معتام» و«مختار» تصلح للفاعل والمفعول، فماذا يفصل بينهما؟

قلت: بما يقترن باللّفظ من الكلام قبله وبعده.

فإن قلت: فهل يختلفان في التقدير في صناعة النحو، وإن اتّفقا في اللفظ؟

قلت: نعم، فإنّ عين الكلمة ياء مفتوح ما قبلها، فإن أردت الفاعل فهي مكسورة، وتقديره «مختير» مثل «مخترِع»، وإن كان مفعولاً فهي مفتوحة، وتقديره «مختَير» مثل «مختَرَع» وعلى كلا التقديرين لا بدّ من انقلاب الياء ألفاً، واللفظ، واحد ولكن يقدّر على الألف كسرة للفاعل وفتحه للمفعول، وكذلك القول في «معتام» و«مضطر» ونحوهما.

وحُكِيَ أنّ بعض المتكلّمين من المجبرة، قال: أسمّي العبدَ مضطرّاً إلى الفعل إذا فعله، ولا أسمي الله تعالى مضطرّاً إليه.

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ٥٩.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٤٣.

قيل: فكيفَ تقول؟ قال: «مضطِر» بكسر الطاء، فضحك أهل المجلس منه.

والعقائل: جمع عقِيلة، وهي كريمة كلّ شيء من الناس والإبل وغير ذلك، ويقال للدرّة عقيلة البحر.

وأشراط الهدى: علاماته، ومنه أشراط الساعة قال تعالى: ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾(١).

والغِربيب: الأسود الشديد السواد. ويُجلى به غربيب العمى: تُكشَفُ به ظُلَم الضلال، وتستنير بهدايته. وقوله تعالى: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾(٢)، ليس على أنّ الصفة قد تقدّمت على الموصوف، بل يجعل السود بدلاً من الغرابيب.

فإن قلت: الهاء في «حقائقه» إلى ماذا ترجع؟

قلت: إلى الباريء سبحانه، وحقائقه حقائق توحيده وعدله، فالمضاف محذوف، ومعنى حقائق توحيده الأمور المحقّقة اليقينية التي لا تعتريها الشكوك، ولا تتخالجها الشبّه، وهي أدِلّة أصحابنا المعتزلة التي استنبطوها بعقولهم بعد أنْ دلّهم إليها. ونبّههم على طرق استنباطها رسول الله صلى الله عليه وآله بواسطة أمير المؤمنين عليه السلام؛ لأنّه إمام المتكلّمين الذي لم يعرف علمَ الكلام من أحد قبله.

الأصل: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ الدُّنْيا تَغُرُّ الْمُؤَمِّلَ لَهَا، وَالْمُخْلِدَ إِلَيْهَا، وَلاَ تَنْفَسُ بِمَنْ نَافَسَ فِيها، وَتَغْلِبُ مَنْ غَلَبَ عَلَيْهَا.

وَايْمُ ٱللهِ ما كَانَ قَوْمٌ قَطُّ فِي غَضِّ نِعْمَةٍ مِنْ عَيْشٍ فَزَالَ عَنْهُمْ إِلاَّ بِذُنُوبٍ اجْتَرَحُوها، لأنَّ ٱللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ.

وَلَوْ أَنَّ النَّاسَ حِينَ تَنْزِلُ بِهِمُ النِّقَمُ، وَتَزُولُ عَنْهُمُ النِّعَم، فَزِعُوا إِلَى رَبِّهِمْ بِصِدْقٍ مِنْ نِيَّاتِهِمْ، وَوَلَهٍ مِنْ قُلُوبِهِمْ، لَرَدَّ عَلَيْهِمْ كُلَّ شارِدٍ، وَأَصْلَحَ لَهُمْ كُلَّ فَاسِدٍ.

وَإِنِّي لأَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تَكُونُوا فِي فَتْرَة، وَقَدْ كَانَتْ أُمُورٌ مَضَتْ مِلْتُمْ فِيها مَيْلَةً، كُنْتُم فِيها عِنْدِي غَيْرَ مَحْمُودِينَ، وَلَئِنْ رُدَّ عَلَيْكُمْ أَمْرُكُمْ إِنَّكُمْ لَسُعَدَاءُ.

وَمَا عَلَيَّ إِلاَّ الْجُهْدُ، وَلَوْ أَشاءُ أَنْ أَقُولَ لَقُلْتُ: عَفَا ٱللهُ عَمَّا سَلَفَ!

---

(١) سورة محمد، الآية: ١٨.

(٢) سورة فاطر، الآية: ٢٧.

الشرح: المخلِد: المائل إليها، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾[1].

ولا تنفس بمن نافس فيها: لا تضنّ به، أي من نافس في الدنيا فإنّ الدنيا تهينه ولا تضنّ به، كما يضنّ بالعلْق النفيس.

ثم قال: «وتغلب مَنْ غلَب عليها»، أيْ مَنْ غلَب على الدنيا مقاهرة فسوف تغله الدنيا وتهلكه.

ثم أقسم إنه ما كان قوم في غَضّ نعمة أي في نعمة غصه، أي طريّة ناضرة، فزالت عنهم إلا بذنوب اجترحوها، أي اكتسبوها، وهذا يكاد يشعر بمذهب أهل التناسخ، ومن قال: إنَّ الألم لا يحسن أن يفعله الحكيم سبحانه وتعالى بالحيوانات إلا مستحقًّا، فأمّا مذهب أصحابنا فلا يتخرّج هذا الكلام عليه؛ لأنه يجوز عندهم أن تزول النعم عن الناس لضرب من اللطف مضاف إلى عوض يعوضهم الله تعالى به في الآخرة، فيجب أن يحمل هذا الكلام لا على عمومه، بل على الأكثر والأغلب.

ثم قال عليه السلام: لو أنّ الناس عند حلول النّقم بهم وزوال النعم عنهم يلتجئون إلى الله تعالى تائبين من ذنوبهم، لرفع عنهم النقمة، وأعاد إليهم النعمة.

والولَه، كالتحيّر يحدث عند الخوف أو الوجد. والشارد: الذاهب.

قوله: «وإنّي لأخشى عليكم أن تكونوا في فترة»، أي في أمر جاهليّة لغلَبَة الضلال والجهل على الأكثرين منهم.

وهذه خطبة خطب بها عليه السلام بعد قتل عثمان في أول خلافته عليه السلام، وقد تقدّم ذكر بعضها، والأمور التي مالوا فيها عليه: اختيارهم عثمان وعدولهم عنه يوم الشّورى.

وقال: «لئن ردّ عليكم أمركم» أي أحوالكم التي كانت أيام رسول الله صلى الله عليه وآله مِنْ صلاح القلوب والنيّات إنّكم سعداء. والجُهد بالضم: الطاقة.

ثم قال: لو أشاء أن أقول لقلت، أي لو شئت لذكرتُ سبب التحامل عليّ وتأخري عن غيري، ولكني لا أشاء ذلك، ولا أستصلح ذكره.

ثم قال: «عفا الله عما سلف» لفظ مأخوذ من الكتاب العزيز ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۚ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾[2].

وهذا الكلام يدلّ على مذهب أصحابنا في أنّ ما جرى من عبد الرحمن وغيره في يوم الشورى، وإن كان لم يقع على الوجه الأفضل، فإنه معفوّ عنه مغفور لفاعله، لأنّه لو كان فسقاً غير مغفور، لم يقلْ أمير المؤمنين عليه السلام: «عفا الله عمّا سلف».

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

١٨٠ - ومن كلام له عليه السلام وقد ساله ذِعلب اليمانيّ فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام أفاعبد ما لا أرى! فقال: وكيف تراه، قال

الأصل: هل رأيتَ ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال عليه السلام: أفاعبد ما لا أرى! فقال: وكيف تراه، قال: لاَ تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيانِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحقَائِقِ الإيمانِ، قَرِيبٌ مِنَ الأَشْياءِ غَيْرَ مُلاَمِسٍ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرَ مُبايِنٍ، مُتَكلِّمٌ بِلا رَوِيَّةٍ، مُرِيدٌ لاَ بِهِمَّةٍ، صانِعٌ لاَ بجارِحَةٍ.

لَطِيفٌ لاَ يُوصَفُ بِالخَفاءِ، كَبِيرٌ لاَ يُوصَفُ بِالجَفاءِ، بَصِيرٌ لاَ يُوصَفُ بالحاسَّةِ، رَحِيمٌ لاَ يُوصَفُ بِالرِّقَّةِ.

تَعْنُو الْوُجُوهُ لعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ الْقُلُوبِ مِنْ مخَافَتِهِ.

الشرح: الذِّعلب في الأصل، الناقة السريعة، وكذلك الذِّعلبة ثم نقل فسمّى به إنسان، وصار علماً، كما نقلوا «بكْراً» عن فتى الإبل إلى ابن بكْر وائل.

واليماني مخفّف النون، ولا يجوز تشديدها، جعلوا الألف عوضاً عن الياء الثانية، وكذلك فعلوا في «الشامي» والأصل «يمنّي وشامي».

وقوله عليه السلام: «أفأعبد ما لا أرى؟»، مقام رفيع جداً لا يصلح أن يقوله غيره عليه السلام.

ثم ذكر ماهيَّة هذه الرؤية، قال: إنّها رؤية البصيرة، لا رؤية البصر.

ثم شرح ذلك، فقال: إنّه تعالى قريب من الأشياء، غير ملامس لها؛ لأنه ليس بجسم، وإنما قُرْبه منها علمُه بها، كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[1].

قوله: «بعيد منها غيرُ مباين»؛ لأنّه أيضاً ليس بجسم فلا يطلّق عليه البينونة، وبُعْدُه منها هو عبارة عن انتفاء اجتماعه معها، وذلك ما يصدُ على البعيد بالوضع، يصدق أفضل الصّدق على البعيد بالذّات الذي لا يصخ والأينُ أصلاً عليه.

قوله: «متكلّم بلا رويّة»، الرويّة: الفكرة يرتئي الإنسان بها ليصدر عنه ألفاظ سديدة دالّة على مقصده، والباريء تعالى متكلّم لا بهذا الاعتبار، بل لأنّه إذا أراد تعريف [خلقه] من جهة الحروف والأصوات، وكان في ذلك مصلحة ولطف لهم، خلق الأصوات والحروف في جسم جَماديّ، فيسمعها مَنْ يسمعها، ويكون ذلك كلامه؛ لأنّ المتكلّم في اللغة العربية فاعل الكلام

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٧.

لا من حَلّه الكلام. وقد شرحْنَا هذا في كتبنا الكلاميّة.

قوله: «مريدٌ بلا همّة»، أي بلا عَزْم، فالعزم عبارة عن إرادةٍ متقدمّة للفعل، تفعل توطيناً للنفس على الفعل، وتمهيداً للإرادة المقارنة له، وإنّما يصحّ ذلك على الجسم الذي يتردّد فيها، تدعوه إلى الدواعي، فأمّا العالم لذاته، فلا يصحّ ذلك فيه.

قوله: «صانع لا بجارحة»، أي لا بِعُضْوٍ؛ لأنه ليس بجسم.

قوله: «الطيف لا يوصف بالخفاء»، لأنّ العرب إذا قالوا لشيء: إنّه لطيف، أرادوا أنه صغير الحجم، والباريء تعالى لطيف لا بهذا الاعتبار بل يطلق باعتبارين:

أحدهما: أنّه لا يُرَى لعدم صحّة رؤية ذاته، فلما شابه اللّطيف من الأجسام في استحالة رؤيته، أطلق عليه لفظ «اللطيف» إطلاقاً للفظ السّبب على المسبّب.

وثانيهما: أنّه لطيفٌ بعباده، كما قال في الكتاب العزيز، أي يفعل الألطاف المقرّبة لهم من الطاعة، المبعّدة لهم من القبيح. أو لطيفٌ بهم بمعنى أنّه يرحمهم ويرفُق بهم.

قوله: «كبير لا يوصَفُ بالجفاء»، لمّا كان لفظ «كبير» إذا استعمِل في الجسم أفاد تباعد أقطاره، ثم لما وصف الباريء بأنّهُ كبير أراد أن ينزّهه عما يدلّ لفظ «كبير» عليه، إذا استعمل في الأجسام، والمراد من وصفه تعالى بأنّه كبير، عَظَمة شأنه وجلالة سلطانه.

قوله: «بصير لا يوصف بالحاسّة»، لأنه تعالى يدرَك إمّا لأنّه حيّ لذاته، أو أن يكون إدراكه هو علمه، ولا جارحةَ له ولا حاسّة على كلّ واحد من القولين.

قوله: «رحيم لا يوصف بالرّقّة»؛ لأنّ لفظة الرحمة في صفاته تعالى تطلق مجازاً على إنعامه على عباده، لأنّ الملك إذا رقّ رعيّته وعطَف، أصابهم بإنعامه ومعروفه.

قوله: «تعنو الوجوه»، أي تخضع، قال تعالى: ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ﴾[١].

قوله: «وتَجِبُ القلوب»، أي تخفِق، وأصله من وَجَب الحائط: سقط. ويروى: «تَوْجل القلوب» أي تخاف، وَجِل: خاف.

وروي: «صانع لا بحاسّة»، وروي «لا تراه العيون بمشاهدة العيان» عوضاً عن «لا تدركه».

---

١٨١ - ومن كلام له عليه السلام في ذم أصحابه

الأصل: أَحْمَدُ ٱللهَ عَلَى مَا قَضَى مِنْ أَمْرٍ، وَقَدَّرَ مِنْ فِعْلٍ، وَعَلَى ٱبْتِلاَئِي بِكُمْ أَيَّتُها ٱلْفِرْقَةُ ٱلَّتِي إِذَا أَمَرْتُ لَمْ تُطِعْ، وَإِذَا دَعَوْتُ لَمْ تُجِبْ.

---

(١) سورة طه، الآية: ١١١.

إِنْ أُهْمِلْتُمْ خُضْتُمْ، وَإِنْ حُورِبْتُمْ خُرْتُمْ، وَإِنْ ٱجْتَمَعَ النَّاسُ عَلَى إِمَامٍ طَعَنْتُمْ، وَإِنْ أُجِئْتُمْ إِلَى مُشَاقَةٍ نَكَصْتُمْ.

لاَ أَبَا لِغَيْرِكُمْ! مَا تَنْتَظِرُونَ بِنَصْرِكُمْ، وَٱلْجِهَادِ عَلَى حَقِّكُمْ!

المَوْتُ أَوِ الذُّلُّ لَكُمْ! فَوَاللهِ لَئِنْ جَاءَ يَوْمِي - وَلَيأْتِيَنِّي - لَيُفَرِّقَنَّ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ، وَأَنَا لِصُحْبَتِكُمْ قَالٍ، وَبِكُمْ غَيْرُ كَثِيرٍ.

للهِ أَنْتُمْ! أَمَا دِينٌ يَجْمَعُكُمْ، وَلاَ حَمِيَّةٌ تَشْحَذُكُمْ! أَوَ لَيْسَ عَجَباً أَنَّ مُعَاوِيَةَ يَدْعُو ٱلْجُفَاةَ الطَّغَامَ فَيَتَّبِعُونَهُ عَلَى غَيْرِ مَعُونَةٍ وَلاَ عَطَاءٍ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ - وَأَنْتُمْ تَرِيكَةُ ٱلْإِسْلاَمِ وَبَقِيَّةُ النَّاسِ - إِلَى المَعُونَةِ أَوْ طَائِفَةٍ مِنَ ٱلْعَطَاءِ، فَتَتَفَرَّقُونَ عَنِّي، وَتَخْتَلِفُونَ عَلَيَّ!

إِنَّهُ لاَ يَخْرُجُ إِلَيْكُمْ مِنْ أَمْرِي رِضاً فَتَرْضَوْنَهُ، وَلاَ سُخْطٌ فَتَجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ أَحَبَّ مَا أَنَا لاَقٍ إِلَيَّ الْمَوْتُ.

قَدْ دَارَسْتُكُمُ ٱلْكِتَابَ، وَفَاتَحْتُكُمُ ٱلْحِجَاجَ، وَعَرَّفْتُكُمْ مَا أَنْكَرْتُمْ، وَسَوَّغْتُكُمْ مَا مَجَجْتُمْ، لَوْ كَانَ ٱلأَعْمَى يَلْحَظُ، أَوِ النَّائِمُ يَسْتَيْقِظُ!

وَأَقْرِبْ بِقَوْمٍ مِنَ ٱلْجَهْلِ بِاللهِ قَائِدُهُمْ مُعَاوِيَةُ، وَمُؤَدِّبُهُمُ ٱبْنُ النَّابِغَةِ!

الشرح: قضى وقدّر في هذا الموضع واحد.

ويروى: «على ما ابتلاني».

وأهمِلتُم: خُلّيتم وتركتم، ويروى: «أمِهلتم»، أي أخرتم.

وخرتم: ضعفتم، والخَوَرُ: الضّعف، رجل خَوّار، ورمح خوّار، وأرض خوّارة، والجمع خُور. ويجوز أن يكون «خرتم» أي صحتم، كما يخور الثّور، ومنه قوله تعالى: ﴿عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ﴾[1]. ويروى: «جُرتُم» أي عدلتم عن الحرب فراراً.

وأجِئتُم: ألجِئتُم، قال تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾[2].

والمشاقّة: المقاطعة والمصارمة.

ونكصتم: أحجمتُم، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا تَرَآءَتِ ٱلْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾[3]، أي رجع محجِماً، أي دعيتم إلى كشف القناع مع العدو وجبنتم وهبتموه.

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٨.
(٢) سورة مريم، الآية: ٢٣.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ٤٨.

قوله: «لا أبا لغيركم»، الأفصح «لا أب»، بحذف الألف، كما قال الشاعر:

أبـي الإسـلامُ لا أبَ لِـي سـواهُ ... إذا افـتـخـروا بـقـيـسٍ أو تـمـيـمِ

وأما قولهم: «لا أبا لك»، بإثباته فدون الأوّل في الفصاحة، كأنّهم قصدوا الإضافة، وأقحموا اللام مزيدة مؤكّدة، كما قالوا: «يا تيمَ تيم عديّ»، وهو غريب، لأن حُكم «لا» أن تعمل في النّكر فقط، وحكم الألف أن تثبت مع الإضافة، والإضافة تعرّف، فاجتمع فيها حكُمهان متنافيان، فصار من الشواذّ كالملامح والمذاكير ولدن غدوة.

وقال الشيخ أبو البقاء رحمه الله: يجوزُ فيها وجهان آخران: أحدهُما: أنه أشبع فتحة الباء، فنشأت الألف والاسم باقٍ على تنكيره، والثاني: أن يكون استعمل «أباً» على لغة من قالها «أبا» في جميع أحوالها مثل «عصا»، ومنه:

إنَّ أبَـاهَـا وَأبَـا أبَـاهَـا

قوله: «الموت أو الذلّ لكم»، دعاء عليهم بأنْ يصيبَهم أحد الأمرين، كأنه شرعَ داعياً عليهم بالفناء الكليّ، وهو الموت، ثم استدرك فقال: «أو الذلّ»، لأنّه نظير الموت في المعنى، ولكنّه في الصورة دونه، ولقد أجيب دعاؤه عليه السلام بالدّعوة الثانية، فإنّ شيعته ذَلُّوا بعدُ في الأيّام الأمويّة، حتى كانوا كَفَقَعٍ قَرْقر.

ثم أقسم أنّه إذا جاء يومُه لتكونَنّ مفارقته لهم عن قِلىً، وهو البغض، وأدخل حَشْوةً بين أثناء الكلام، وهي «ليأتينّي» وهي حشوة لطيفة؛ لأنّ لفظة «إنْ» أكثر ما تستعمل لما لا يُعلم حصوله، ولفظة «إذا» لما يُعلم أو يغلب على الظنّ حصوله، نقول: إذا طلعت الشمس جئت إليك، ولا تقول: إن طلعت الشمس جئتُ إليك، وتقول: إذا احمرّ البُسْر جئتك، ولا تقول: إن احمرّ البُسْر جئتك، فلمّا قال: «لئِنْ جاء يومي»، أتى بلفظة دالّة على أنّ الموضع موضع «إذا» لا موضع «إنْ»، فقال: «وليأتيَنّي». والواو في قوله: «وأبا لصحبتكم»، واو الحال، وكذلك الواو في قوله: «وبكم غير كثير»، وقوله: «غير كثير» لفظ فصيح، وقالَ الشاعر:

لِـيَ خَـمْـسُـون صَـدِيـقـاً ... بـيـنَ قـاضٍ وأمـيـرِ
لـبـسـوا الـوفْـرَ فـلَـمْ أخـ ... ـلَـعْ بـهـمْ ثـوبَ الـنّـفـيـرِ
لـكَـثِـيـرٌ هُـمْ وَلـ ... ـكِـنّـي بـهـمْ غَـيْـرُ كـثـيـرِ

قوله: «لله أنتم» لله، في موضع رفع؛ لأنّه خبر عن المبتدأ الذي هو «أنتم»، ومثله: لله دَرّ فلان! ولله بلادُ فُلان! ولله أبوك! واللام ها هنا فيها معنى التعجّب، والمراد بقوله: «لله أنتم» لله سعيكم، أو لله عملكم، كما قالوا: «لله دَرّك!»، أي عملك، فحُذِف المضاف، وأقيم الضمير المنفصل المضاف إليه مقامه.

فإن قلت: أفجاءت هذه اللّام بمعنى التعجّب في غير لفظ «لله»؟

قلت: لا، كما أنّ تاء القسم لم تأتِ إلاّ في اسم الله تعالى.

قوله عليه السلام: «أما دينٌ يجمعكم!» ارتفاع «دين» على أنّه فاعل فعلٍ مقدر له، أي أما يجمعكم دين يجمعكم! اللفظ الثّاني مفسر للأول كما قدرناه بعد «إذا» في قوله سبحانه: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتۡ﴾[1] ويجوز أن يكون «حَمِيّة» مبتدأ، والخبر محذوف تقديره: أما لكم حميّة! والحمِيّة: الأنفة. وشحذتُ النّصل: أحددته.

فإن قلت: كيف قال: إنّ معاوية لم يكن يعطي جندَه وأنّه هو عليه السلام كان يعطيهم، والمشهور أنّ معاوية كان يمدّ أصحابَه بالأموال والرغائب!

قلت: إنّ معاويةِ لم يكن يعطِي جندَه على وجْهِ المعُونة والعطاء، وإنّما كان يعطي رؤساء القَبائل من اليمن وساكني الأموال الجليلة، يستعبدهم بها، ويدعو أولئك الرؤساءُ أتباعَهُمْ من العرب فيطيعونهم، فمنهم مَنْ يطيعُهم حميّة، ومنهم من يطيعهم لأيادٍ وعوارفَ من أولئك الرؤساء عندهم، ومنهم مَن يطيعهم دِيْناً، زعموا للطّلب بدم عثمان، ولم يكن يصل إلى هؤلاء الأتباع من أموال معاوية قليل ولا كثير. وأمّا أميرُ المؤمنين عليه السلام، فإنّه كان يقسّم بين الرؤساء والأتباع على وجه العطاء والرّزق، ولا يرى لشريف على مشروف فضلاً، فكان من يقعد عنه بهذا الطريق أكثر ممن ينصره ويقوم بأمره، وذلك لأنّ الرؤساء من أصحابه كانوا يجدُون في أنفسهم من ذلك - أعني المساواةَ بينهم وبين الأتباع - فيخذلونه عليه السلام باطناً، وإن أظهرُوا له النّصر، وإذا أحسّ أتباعُهم بتخاذُلهم وتواكلهم تخاذلوا أيضاً وتواكلوا أيضاً، ولم يُجد عليه صلوات الله عليه ما أعطى الأتباع من الرزق، لأن انتصار الأتباع له وقتالهم دونه لا يتصوّر وقوعه، والرؤساء متخاذلون، فكان يذهب ما يرزقهم ضياعاً.

فإنْ قلت: فأيّ فرق بين المعونة والعطاء؟

قلت: المعونة إلى الجند شيء يسير من المال برسم ترميم أسلحتهم، وإصلاح دوابّهم، ويكون ذلك خارجاً عن العطاء المفروض شهراً فشهراً، والعطاء المفروض شهراً فشهراً يكون شيئاً له مقدار يصرف في أثمان الأقوات، ومؤنة العيال، وقضاء الديون.

والتَّريكة: بيضة النعام تتركها في مَجْثِمِها، يقول: أنتم خلفُ الإسلام وبقيّته كالبيْضة التي تتركها النعامة.

فإن قلت: ما معنى قوله: «لا يخرج إليكم من أمري رضاً فترَضوْنه، ولا سخط فتجتمعون عليه»؟

---

(١) سورة الانشقاق، الآية: ١.

قلت: معناه أنّكم لا تقبلون مما أقول لكم شيئاً، سواء كان مما يرضيكم أو مما يسخطكم، بل لا بدّ لكم من المخالفة والافتراق عنه.

ثم ذكر أنّ أحبّ الأشياء إليه أن يلقى الموت، وهذه الحال التي ذكرها أبو الطيب فقال:

كَفَى بِكَ دَاءً أَنْ تَرَى ٱلْمَوْتَ شَافِيَا وَحَسْبُ ٱلْمَنَايَا أَنْ تَكُنَّ أَمَانِيَا

تمنيتَها لَمّا تمنَّيْتَ أنْ تَرَى صَدِيقاً فأَعْيَا، أو عدوًّا مُدَاجِيَا

قوله: «قد دارستُكم الكتاب»، أي درسته عليكم، دارستُ الكُتب وتدارستُها وأدرستُها، ودرستها، بمعنى، وهو من الألفاظ القرآنية.

وفاتحتُكم الحِجاج، أي حاكمتكم بالمحاجّة والمجادلة، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾[1] أي احكم، والفتَّاح: الحاكم.

وعرفتكم ما أنكرتم: بّصرتكم ما عَمِيَ عنكم.

وسَوّغتُكم ما مَجَجْتُم، يقال: مججْتُ الشراب من فَمِي، أي رميت به، وشيخٌ ماجّ: يمُجُّ ريقه، ولا يستطيع حبسه من كبره، وأحمق ماجّ: أي يسيل لعابه، يقول: ما كانت عقولكم وأذهانكم تنفر عنه من الأمور الدينيّة أوضحتُه لكم حتى عَرَفتمُوه واعتقدتموه وانطوتْ قلوبكم عليه.

ولم يجزم عليه السلام بحصول ذلك لهم، لأنه قال: لو كان الأعمى يلحظ، والنائم يستيقظ! أي أني قد فعلت معكم ما يقتضي حصولَ الاعتقادات الحقيقية في أذهانكم لو أزلتم عن قلوبكم ما يمنع من حصولها لكم، والمانع المشارُ إليه هو الهوى والعصبية والإصْرَار على اللَّجاج، ومحبّة نصره عقيدة قد سبقت إلى القلب، وَزَرَعها التعصّب، ومشقّة مفارقة الأسلاف الّذين قد انغرس في النفس تعظيمهم، ومالت القلوب إلى تقليدهم لحسن الظنّ بهم.

ثم قال: «أقرِبْ بقوم!» أي ما أقربهم من الجهل! كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾[2] أي ما أسمعهم وأبصرهم!

فإن قلت: قد كان يجب أن يقول: «وأقرِبْ بقومٍ قائدهم معاوية ومؤدّبهم ابن النابغة من الجهل» فلا يحولُ بيْن النّكرة الموصوفة وصفتها بفاصل غريب، ولم يقل ذلك، بل فصل بين الصفة والموصوف بأجنبيٍّ منهما!

قلت: قد جاء كثير من ذلك، نحو قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۙ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ﴾[3] في قول من لم يجعل «مَرَدُوا» صفة أقيمت مقام الموصوف؛

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٩.

(٢) سورة مريم، الآية: ٣٨.

(٣) سورة التوبة، الآية: ١٠١.

لأنه يجعل «مردوا» صفة القوم المحذوفين المقدّرين بعد «الأعراب» وقد حال بين ذلك وبين «مردوا» قوله: «ومن أهل المدينة».

ونحوه قوله: ﴿أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۝١ قَيِّمًا﴾[1].

فإن «قيّماً» حال من الكتاب وقد توسط بين الحال وذي الحال «ولم يجعل له عوجاً» والحال كالصفة، ولأنهم قد أجازوا: «مررت برجل - أيّها الناس - طويل»، والنداء أجنبيّ، على أنّا لا نسلّم أن قوله: «من الجهل» أجنبي؛ لأنّه متعلق بأقربْ، والأجنبي ما لا تعلّق له بالكلام.

---

١٨٢ - ومن كلام له عليه السلام وقد أرسل رجلاً من أصحابه يعلم له علم أحوال قومٍ من جند الكوفة قد همّوا باللحاق بالخوارج وكانوا على خوفٍ منه عليه السلام، فلما عاد إليه الرجل قال له: أأمنوا فقطنوا أم جبنوا فظعنوا! فقال الرجل: بل ظعنوا يا أمير المؤمنين

الأصل: بُعْداً لَهُمْ كَما بَعِدَتْ ثَمُودُ! أَمَا لَوْ أُشْرِعَتِ الأَسِنَّةُ إِلَيْهِمْ، وَصُبَّتِ السُّيُوفُ عَلَى هاماتِهِمْ، لَقَدْ نَدِمُوا عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ.

إِنَّ الشَّيْطانَ الْيَوْمَ قد اسْتَفَلَّهُمْ، وَهُوَ غَداً مُتَبَرِّىءٌ مِنْهُمْ، ومُتَخَلٍّ عَنهمْ، فَحَسْبُهُمْ مِنَ الْهُدَى، وَارْتِكاسِهِمْ فِي الضَّلاَلِ وَالْعَمَى، وَصَدِّهِمْ عَنِه الحَقِّ، وَجِمَاحِهِمْ فِي التِّيهِ.

الشرح: قد ذكرنا قصّة هؤلاء القوم فيما تقدّم عند شرحنا قصّة مَصْقَلة بن هبيرة الشيبانيّ.

وقَطَن الرجلُ بالمكان، يقطُن بالضمّ: أقام به وتوطّنه، فهو قاطن، والجمع قطّان وقاطنة وقطين أيضاً، مثل غازٍ وغزيّ. وعازب للكلأ البعيد وعزيب.

وظَعَن صار الرجل ظَعْناً وظعَنا، وقرىء بهما: ﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾[2]، وأظعنه: سيره، وانتصب «بُعْداً» على المصدر.

وثمود، إذا أردت القبيلة غيرُ مصروف، وإذا أردت الحيّ أو اسم الأب مصروف، ويقال: إنّه ثمود بن عابر بن آرم بن سام بن نوح، قيل سمّيتْ ثمود لقلّة مائها، من الثَّمَد وهو الماء القليل، وكانت مساكنهم الحِجْر بين الحجاز والشام إلى وادي القُرى.

---

(١) سورة الكهف، الآيتان: ١، ٢.
(٢) سورة النحل، الآية: ٨٠.

وأشرعتُ الرّمح إلى زيد، أي سدّدته نحوه، وشرع الرُّمح نفسه وصبّت السيوفُ على هاماتهم: استعارة من صببْتُ الماء، شبّه وقع السيوف وسرعة اعتوارها الرؤوس بصبّ الماء.

واستفلّهم الشيطانُ: وجدهم مَفْلولين، فاستزلّهم، هكذا فسروه.

ويمكن عندي أن يريد أنه وجدهم فَلاً، لاَ خير فيهم، والفلُّ في الأصل: الأرض لا نبات بها لأنّها لم تمطر، قال حسّان يصف العُزّى:

وإنّ الّتي بالجِذْعِ مِنْ بَطْنِ نَخْلةٍ ... ومَن دانها فِلٌّ من الخير مَعْزِلُ

أي خالٍ من الخير. ويروى «استفزّهم»، أي استخفّهم. والارتكاس في الضلال: الرجوع، كأنه جعلهم في تردّدهم في طبقات الضلال كالمرتكس الراجع إلى أمر قد كان تخلّص منه.

والجماح في التّيه: الغلوّ والإفراط، مستعار من جِماح الفرس، وهو أن يعتزّ صاحبه ويغلبَه، جَمَح فهو جَمُوح.

١٨٣ - ومن خطبة له عليه السلام في تنزيه الله وذكر آثار قدرته

الأصل: رُوِيَ عَنْ نَوْفٍ الْبَكالِيِّ، قالَ خَطَبنَا بِهَذِهِ الخُطْبَةِ أمِيرُ المُؤمِنِينَ عَلِيٌّ عليه السَّلاَم بِالْكُوفَةِ، وَهُوَ قائِمٌ على حِجارَةٍ نَصَبهَا لَهُ جَعْدَةُ بنُ هُبَيْرَةَ المَخْزُومِيُّ، وعليه مِدْرَعَةٌ مِنْ صُوفٍ، وَحمائِلُ سَيْفِهِ لِيفٌ، وَفِي رِجْلَيْهِ نَعْلاَنِ من لِيفٍ، وَكَأَنَّ جبينَهُ ثَفِنَةُ بَعِيرٍ، فَقالَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ:

الحَمْدُ لله الَّذِي إِلَيْهِ مَصائِرُ الخَلْقِ، وَعَوَاقِبُ الأمْرِ! نَحْمَدُهُ على عَظِيمِ إحْسانِهِ، وَنَيِّرِ بُرْهانِهِ، وَنَوَامِي فَضْلِهِ وَامْتِنانِهِ، حَمْداً يَكُونُ لحقِّهِ قَضاءً، وَلِشُكْرِهِ أدَاءً، وَإِلى ثَوابِهِ مُقَرِّباً، وَلِحسْنِ مَزِيدِهِ مُوجِباً، وَنَسْتَعِينُ بِهِ اسْتِعانَةَ رَاجٍ لِفَضْلِهِ، مؤمل لنفعه، واثِقٍ بدفعه، معترف له بالطول، مذعن له بالعمل والقول وَنُؤْمِنُ بِهِ إِيمانَ مَنْ رَجاهُ مُوقِناً، وَأنابَ إِلَيْهِ مُؤْمِناً، وَخَنَعَ لَهُ مُذْعِناً، وأخلَصَ لَهُ مُوَحِّداً، وَعَظَّمَهُ مُمَجِّداً، وَلاَذَ بِهِ رَاغِباً مُجْتَهِداً.

الشرح: قال الجوهريّ في الصّحاح: نَوْف البَكاليّ، بفتح الباء، كان حاجبَ عليّ عليه السلام، ثم قال: وقال ثعلب: هو منسوب إلى بَكالة، قبيلة.

وقال القطب الراونديّ في شرح «نهج البلاغة»: بَكال وبَكيل شيء واحد، وهو اسم حيٍّ من هَمْدَان، وبكيل أكثر، قال الكُمَيت:

فَقَدْ شَرَكَتْ فِيهِ بَكِيلٌ وأرْحَبُ

والصواب غيرُ ما قالاه، وإنّما بنو بِكال، بكسر الباء حيٌّ من حِمْيرَ، منهم هذا الشخص، هو نَوْف بن فضالة، صاحب عليّ عليه السلام، والرواية الصحيحة الكسر، لأنّ نوف بن فضالة بِكاليّ، بالكسر، من حِمْير، وقد ذكر ابنُ الكلبيّ نسبَ بني بِكال الحميريّين، فقال: هو بِكال بن دُعْمِيّ بن غوث بن سعد بن عوف بن عديّ بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشَم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قَطَن بن عريب بن زهير بن أيمن بن الهميْسع بن حِمْير.

نسب جعدة بن هبيرة

وأمّا جعدة بن هُبَيرة، فهو ابنُ أختِ أمير المؤمنين عليه السلام، أمّه أمّ هانيء بنت أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، وأبوه هبيرة بن أبي وهب بن عمر بن عائذ بن عمران بن مخزوم بن يقظة بن مرّة بن كعب بن لؤيّ بن غالب. وكان جَعدة فارساً شجاعاً، فقيهاً وولِيَ خُراسان لأمير المؤمنين عليه السلام، وهو من الصّحابة الذين أدركوا رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الفتح مع أمّه أمّ هانيء بنت أبي طالب، وهربَ أبو هبيرة بن أبي وهب ذلك اليوم هو وعبد الله بن الزِّبَعْرَى إلى نجران.

وروى أهلُ الحديث أنّ أمّ هانيء كانتْ يوم الفتح في بيتها، فدخل عليها هُبيرة بن أبي وهب بعلُها، ورجل من بني عمّه هاربيْن من عليّ عليه السلام، وهو يتبعهما وبيده السَّيْف، فقامت أمّ هانيء في وجهه دونهما، وقالت: ما تريده منهما! ولم تكن رأته من ثماني سنين، فدفع في صدرها، فلم تَزُل عن موضعها، وقالت: أتدخلُ يا عليّ بيتي، وتهتك حرمتي، وتقتل بَعْلي، ولا تستحي منّي بعد ثماني سنين! فقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أهْدَر دمهما، فلا بدّ أن أقتلهما. فقبضت على يده الّتي فيها السيف، فدخلا بيتاً ثم خرجا منه إلى غيره، ففاتاه، وجاءت أم هانيء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فوجدته يغتسل من جَفْنة فيها أثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبها، فوقفت حتى أخذ ثوبه، فتوشّح به، ثم صلّى ثمانيَ ركعات من الضُّحى، ثم انصرف، فقال: مرحباً وأهلاً بأمّ هانيء! ما جاء بك؟ فأخبرته خبر بعلها وابن عمّه، ودخول عليّ عليه السلام بيتها بالسيف. فجاء عليّ عليه السلام ورسول الله صلى الله عليه وآله يَضْحك، فقال له: ما صنعت بأمّ هانيء؟ فقال: سلْهَا يا رسول الله ما صنعت بي! والّذي بعثك بالحقّ لقد قبضتْ على يدِي وفيها السيف، فما استطعتُ أن أخلّصها إلاّ بعْد لأي، وفاتني الرجلان. فقال صلى الله عليه وآله: «**لو ولَدَ أبو طالب النّاسَ كلّهم لكانوا شجعاناً، وقد أجَرْنَا من أجارتْ أمّ هانيء، وأمّنا مَنْ أمّنت، فلا سبيلَ لك عليهما**»[1].

فأمّا هبيرة فلم يرجع، وأمّا الرجل الآخر، فرجع فلم يعرِض له. قالوا: وأقام هُبيرة بن أبي وهب بنجران حتى مات بها كافراً، وروى له محمد بن إسحاق في كتاب المغازي شعراً أوله:

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠١٧) ولكن من غير قوله: «لو ولد أبو طالب...». والزيلعي في «نصب الراية» (٣/ ٣٩٥).

أشَاقَتْكَ هِنْدٌ أم أتاكَ سُؤَالُهَا ... كَذَاكَ النَّوى أسبابها وانفتالها

يذكر فيه أمَّ هانىء وإسلامها، وأنّه مهاجر لها إذ صَبتْ إلى الإِسلام، ومن جملته:

فإنْ كنتِ قد تابعتِ دين محمّدٍ ... وقَطَّعَت الأرحامَ منك حبالُها

فكوني على أعلى سحوق بهضبةٍ ... ململمة غبراءَ يُبْسٌ قلالُها

وقال ابن عبد البر في كتاب «الاستيعاب»[1]:

ولدت أمّ هانىء لهبيرة بن أبي وهب بنين أربعة: جعدة، وعمراً، وهانئاً، ويوسف، قال: وجعدة الذي يقول:

أبي من بني مخزومَ إنْ كنتَ سائلاً ... ومن هاشمٍ أمّي، لخيرُ قبيلِ

فمن ذا الّذي ينأى عليّ بخاله ... كخالي عليٍّ ذي النّدى وعَقِيلِ!

المدرعة: الجبّة، وتَدَرّع: لبسها، وربما قالوا: تمدرع. وثَفِنة البعير، واحدة ثفِنَاته، وهو ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ فيغلظ ويكثف، كالركبتين وغيرهما ويقال: ذو الثَّفِنات الثلاثة لعليّ بن الحسين، وعلي بن عبد الله بن العباس ﷺ، ولعبد الله بن وهب الراسبيّ، رئيس الخوارج، لأنّ طول السجود كان قد أثّر في ثِفناتهم، قال دِعْبل:

دِيارُ عَليٍّ والحُسَيْنِ وجَعْفَرٍ ... وَحَمْزَة والسَّجاد ذِي الثَّفِنات

ومصائر الأمور: جمع مَصِير، وهو مصدر «صار» إلى كذا، ومعناه المرْجع، قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[2] فأما المصدر من «صار الشيء كذا» فمصير وصَيْرورة، والقياس في مصدر «صار إليه» أي رجع «مَصاراً»، كمعاش، وإنما جمَع المصدر ها هنا لأن الخلائق يرجعون إلى الله تعالى في أحوالٍ مختلفة في الدّنيا وفي الدار الآخرة، فجمَع المصدر، وإن كان يقع بلفظه على القليل والكثير، لاختلاف وجوهه، كقوله تعالى: ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا﴾[3].

وعواقب الأمر: جمع عاقبة، وهي آخر الشيء.

ثم قَسّم الحمد، فجعله على ثلاثة أقسام:

أحدُها: الحمد على عظيم إحسانه وهو أصول نعمه تعالى، كالحياة والقدْرة والشهوة وغيرها مما لا يدخل جنسه تحت مقدور القادر.

---

(١) «الاستيعاب في معرفة الأصحاب»: للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد الله المعروف بابن عبد البر القرطبي المتوفى سنة (٤٦٣هـ). «كشف الظنون» (١/ ٨١).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٨.

(٣) سورة الأحزاب، الآية: ١٠.

وثانيها: الحمد على نيّر برهانه، وهو ما نصبه في العقول من العلوم البديهية المفضِية إلى العلوم النظرية بتوحيده وعدله.

وثالثها: الحمد على أرزاقه النّامية، أي الزائدة وما يجري مجراها من إطالة الأعمار، وكثرة الأرزاق، وسائر ضروب الإحسان الداخلة في هذا القسم.

ثم بالغ في الحمد حمداً يكون لحقّه قضاء، ولشكره أداء، وذلك لأنّ الحمد والشكر ولو بلغ أقصى غاياته لم يصلْ إلى أن يكون قاضياً لحقّ الله تعالى، ولا مؤدِّياً لشكره، ولكنّه قال ذلك على سبيل المبالغة.

ثم قال: «وإلى ثوابه مقرّباً، ولحسن مزيده موجباً»، وذلك لأنّ الشكر يوجِب الثواب والمزيد، قال الله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾[1]، أي «أثيبكم»، وقال: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[2].

ثم شرع في الاستعانة بالله ففصّلها أحسنَ تفصيل، فذكر أنه يستعين به استعانة راجٍ لفضله في الآخرة، مؤمّل لنفعه في الدنيا، واثقٍ بدفعه المضارّ عنه، وذلك لأنّه أراد أن يحتويَ على وجوه ما يستعان به تعالى لأجله، فذكر الأمورَ الإيجابيَّة، وأعقبها بالأمور السلبيّة، فالأولى جلب المنافع، والثانية دفع المضارّ. والطَّول: الإفضال. والإذعان: الانقياد والطاعة.

وأناب إليه: أقبل وتاب. وخنع: خضع، والمصدر الخنوع. ولاذ به: لجأ إليه.

الأصل: لَمْ يَولَدْ سُبْحانَهُ فَيَكُونَ فِي ٱلْعزِّ مُشارَكاً، وَلَمْ يَلِدْ فَيَكُونَ موروثاً هالِكاً. وَلَمْ يَتَقَدَّمْهُ وَقْتٌ وَلاَ زَمانٌ، وَلَمْ يَتَعَاوَرْهُ زِيادَةٌ وَلاَ نُقْصَانٌ بَلْ ظَهَرَ لِلْعُقُولِ بِمَا أَرَانَا مِنْ عَلاَماتِ التَّدْبيرِ المُتْقَنِ، وَالْقَضاءِ المُبْرَمِ. فَمِنْ شَوَاهِدِ خَلْقِهِ خَلْقُ السَّمواتِ مُوَطَّدَاتٍ بِلاَ عَمَدٍ، قَائِماتٍ بِلا سَنَدٍ، دَعَاهُنَّ فَأَجَبْنَ طَائِعاتٍ مُذْعِناتٍ، غَيْرَ مُتَلَكِّئاتٍ وَلاَ مُبْطِئاتٍ. وَلَوْلاَ إِقْرَارُهُنَّ لَهُ بِالرُّبُوبِيَّةِ، وَإِذْعانُهُنَّ لَهُ بِالطَّوَاعِيَةِ، لَمَا جَعَلَهُنَّ مَوْضِعاً لِعَرْشِهِ وَلاَ مَسْكَناً لِمَلاَئِكَتِهِ، وَلاَ مَصْعَداً لِلْكَلِمِ الطَّيِّبِ، وَٱلْعَمَلِ الصَّالِحِ مِنْ خَلْقِهِ.

الشرح: نفى عليه السلام أن يكون الباريء سبحانه مولوداً فيكون له شريك في العزّ والإلهيّة، وهو أبوه الذي ولده، وإنما قال ذلك جرياً على عادة ملوك البشر، فإن الأكثر أنّ الملِك

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.

(٢) سورة إبراهيم، الآية: ٧.

يكونُ ابنَ ملك قبله، ونفى أن يكون له ولد، جرياً أيضاً على عادة البشَر، في أنّ كلّ والدٍ في الأكثر، فإنّ يهلِك قبل هلاك الولد، ويرثه الولد، وهذا النّمَط من الاحتجاج يسمّى خطابة، وهو نافع في مواجهة العرَب به، وأراد من الاحتجاج إثبات العقيدة، فتارةً تثبت في نفوس العلماء بالبرهان، وتارة تثبت في نفوس العوام بالخطابة والجدَل.

ثم نفى أنْ يتقدّمه وقت أو زمان، والوقت هو الزمان، وإنّما خالف بين اللفظيْن، وأتى بحرف العطف، كقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(١).

ونفي أن يتعاوره، أي تختلف عليه زيادة أو نقصان، يقال: عاورت زيداً الضّرب، أي فعلت به من الضَّرْب مثل ما فعل بي، واعتوروا الشيء، أي تداولوه فيما بينهم، وكذلك تعوَّرُوه وتعاوروه، وإنّما ظهرت الواو في «اعتوروا»، لأنه في معنى «تعاوروا» فبنى عليه، ولو لم يكن في معناه لاعتلّت، كما قالوا: «اجتوروا» لمّا كان في معنى: «تجاوروا» التي لا بدّ من صحة الواو فيها لسكون الألف قبلها. واعتورت الرّياح رسم الدار: اختلفت عليه.

فإن قلت: هذا يقتضي أن يقول: «ولم يتعاوره زيادة ونقصان»، لأنّ التعاور يستدعي الضدّين معاً، ولا ينبغي أن يقول: «ولا نقصان»، كما لا يجوز أن تقول: لم يختلف زيد ولا عمرو.

قلت: لمّا كانت مراتب الزيادة مختلفة جاز أن يقال: «لا يعتوره الزيادة»، فكذلك القول في جانب النقصان، وجرى كلّ واحد من النوعين مجرَى أشياء متنافية، تختلف على الموضع الموصوف بها. قوله عليه السلام: «موطّدات»، أي ممهّدات مثبتات.

والعَمَد: جمع عماد، نحو إهاب وأهَب، وإدام وأدَم، وهو على خلاف القياس، ومنه قوله تعالى: ﴿فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾(٣). والسّنَد: ما يستند إليه.

ثم قال: «دعا هنّ فأجبن طائعاتٍ»، هذا من باب المجاز والتوسّع، لأنّ الجماد لا يُدْعى، وأمّا من قال: إنّ السماوات أحياء ناطقة، فإنّه لم يجعلهنّ مكلّفات ليقال: ولولا إقرارهنّ له بالربوبيّة لما فعل كذا، بل يقول ذلك على وجهٍ أخر، ولكن لغة العرب تنطق بمثل هذا المجاز، نحو قول الراجز:

امْتَلأَ ٱلْحَوْضُ وَقَالَ قَطْنِي مَهْلاً رويداً قَدْ مَلأتَ بَطْنِي

ومنه قوله تعالى: ﴿ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾(٤).

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.
(٢) سورة الهمزة، الآية: ٩.
(٣) سورة لقمان، الآية: ١٠.
(٤) سورة فصلت، الآية: ١١.

ومنه قول مكاتَب لبني مِنقر التميميّين، كان قد ظلَع[1] بمكاتبته، فأتى قبر غالب بن صعصعة، فاستجار به، وأخذ منه حَصَيات فشدّهن في عمامته، ثم أتى الفرزدق فأخبره خبره، وقال: إني قد قلت شعراً، قال: هاته، فأنشده:

بقبر ابنِ لَيْلَى غالبٍ عذتُ بعدما خشيت الرَّدَى أو أن أردّ على قَسْرِ

بقبر امرىءٍ يَقرِي المئين عظامُه ولم يكُ إلاّ غالباً مَيِّتٌ يقرِي

فقال لي استقدمْ أمامك إنّما فَكاكك أن تلقى الفرزدقَ بالمصْرِ

فقال: ما اسمك؟ فقال: لهذم، قال: يا لهذم حكمك مسمّطاً، قال: ناقة كَوْماء سوداء الحدَقة، قال: يا جارية اطرحي لنا حبلاً، ثم قال: يا لهذم اخرج بنا إلى المِرْبد فألقِه في عنق ما شئت من إبل الناس. فتخيّر لهذم على عينه ناقةً، ورمى بالحبل في عنقها، وجاء صاحبها، فقال له الفرزدق: اغد عليّ أُوَفِّك ثمنها، فجعل لهذم يقودها، والفرزدق يسوقها، حتى أخرجها من البيوت إلى الصحراء، فصاح به الفرزدق: يا لهذم، قبح الله أخسرَنا! فخبّر الشاعر عن القبر، بقوله: «فقال لي استقدم أمامك» والقبر والميّت الذي فيه لا يخبران، ولكن العرب وأهل الحكمة من العجم يجعلون كلّ دليل قولاً وجواباً، ألا ترى إلى قول زهير:

أمِنْ أمّ أوْفَى دِمْنَةٌ لم تكلَّمِ

وإنما كلامها عنده أن تبيّن ما يرى من الآثار فيها عن قدم العهد بأهلها.

ومن كلام بعض الحكماء: هلا وقفت على تلك الجنان والحيطان، فقلت: أيتها الجِنان، أين مَنْ شقّ أنهارَك، وغرس أشجارَك، وجنى ثمارَك! فإن لم تجبك حِواراً، أجابتك اعتباراً!.

وقَالَ النعمان بن المنذر ومه عديّ بن زيد، في ظلّ شجرات مونِقات يشرب، فقال عديّ: أبيت اللعن! وأراد أن يعظه: أتدري ما تقول هذه الشجرات؟ قال: ما تقول؟ قال:

رُبَّ ركْبٍ قَدْ أنَاخُوا حَوْلَنَا يَشْرَبُونَ ٱلْخَمْرَ بالماءِ الزُّلاَلِ

ثم أضحَوْا عَصَفَ الدَّهْرُ بهمْ وكَذاك الدّهرُ يودِي بالرجالِ

فتنغّص النعمان يومه ذلك. والمذعِن: المنقاد المطيع. والمتلكّىء: المتوقف.

والكلم الطيّب: شهادة أن لا إله إلا الله، وأنّ محمّداً صلّى الله عليه وآله رسوله. والعمل الصالح: أداء الواجبات والنوافل، واللفظات من القرآن العزيز.

والمَصْعَد: موضع الصعود، ولا شبهة أنّ السماء أشرف من الأرض على رأي المليّين وعلى رأي الحكماء، أمّا أهل المِلّة، فلأنّ السماء مصعد الأعمال الصالحة، ومحلّ الأنوار،

(١) ظلع: غمر وعرج في مشيه. اللسان مادة (ظلع).

ومكان الملائكة، وفيها العرش والكرسيّ، والكواكب المدبّرات أمراً، وأمّا الحكماء فلأمور أخرى تقتضيها أصولهم.

الأصل: جَعَلَ نُجُومَها أَعْلاَماً يَسْتَدِلُّ بِها الحَيْرَانُ فِي مُخْتَلِفِ فِجاجِ الأَقْطارِ، لَمْ يَمْنَعْ ضَوْءَ نُورِها ادْلِهْمَامُ سُجُفِ اللَّيْلِ المُظْلِمِ، وَلاَ اسْتَطاعَتْ جَلاَبِيبُ سَوَادِ الحَنادِسِ أَنْ تَرُدَّ ما شاعَ في السَّمٰوَاتِ مِنْ تَلأْلُؤ نورِ الْقَمَرِ، فَسُبْحانَ مَنْ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ سَوادُ غَسَقٍ دَاجٍ، وَلاَ لَيْلٍ سَاجٍ، فِي بِقاعِ الأَرَضِينَ المُتَطَأْطِئاتِ، وَلاَ فِي يَفاعِ السُّفْعِ المُتَجاوِرَاتِ، وما يَتَجَلْجَلُ بِهِ الرَّعْدُ فِي أُفُقِ السَّماءِ، وما تَلاَشَتْ عَنْهُ بُرُوقُ الْغَمامِ، وما تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ تُزِيلُها عَنْ مَسْقَطِها عَوَاصِفُ الأَنْوَاءِ وَانهِطالُ السَّماءِ! وَيَعْلَمُ مَسْقَطَ الْقَطْرَةِ وَمَقَرَّها، وَمَسْحَبَ الذَّرَّةِ وَمَجَرَّها، وَما يَكْفِي الْبَعُوضَةَ مِنْ قُوتِها، وما تَحْمِلُ من الأُنْثَى في بَطْنِها.

الشرح: اعلاماً، أي يستدل بها. والفجاج: جمع فَجّ، وهو الطريق في الجبل.

ثم قال: إنّ ادلهمام سواد الليل – أي شدّة ظلمته – لم يمنع الكواكب من الإضاءة، وكذلك أيضاً لم يمنع ظلام الليل القمر من تلألؤ نوره، وإنّما خصّ القمر بالذّكر وإن كان من جملة الكواكب، لشرفه بما يظهر للأبصار من عظم حَجْمه، وشدّة إضاءته، فصار كقوله تعالى: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾[1]، وقد روى بعض الرواة «ادلهمامَ» بالنصب، وجعله مفعولاً، «وضوءُ نورها» بالرفع وجعله فاعلاً، وهذه الرواية أحسن في صناعة الكتابة لمكان الازدواج، أي لا القمر ولا الكواكب تمنع الليل من الظّلمة، ولا الليل يمنع الكواكب والقمر من الإضاءة.

والسُّجف: جمع سِجْف، وهو السِّتر، ويجوز فتح السين.

وشاع: تفرّق، والتلألؤ: اللّمعان. والجلابيب: الثياب. والغَسق: الظلمة، والساجي. الساكن. والدّاجي: المظلم، والمتطأطىء: المنخفض. والسّفع المتجاورات ها هنا: الجبال، وسماها سُفْعاً لأنّ السُّفْعة سواد مشرب بحمرة، وكذلك لونها في الأكثر.

واليَفاع: الأرض المرتفعة. والتّجلجل: صوت الرعد.

وما تلاشت عنه بروق الغمام، هذه الكلمة أهمَل بناءها كثير من أئمة اللغة، وهي صحيحة وقد جاءت ووردت. قال ابنُ الأعرابيّ: لَشَا الرّجُل، إذا اتّضع، وخَسّ بعد رفعة، وإذا صَحّ أصلُها صحّ استعمال النّاس، تلاشى الشيءُ، بمعنى اضمحَلّ.

(١) سورة الرحمٰن، الآية: ٦٨.

وقال القطب الراوندِيّ: تلاشى مركّب من «لا شيء»، ولم يقف على أصل الكلمة، وقد ظهر الآن أنّ معنى كلامه عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه سبحانه يعلم ما يصوت به الرّعد، ويعلم ما يضمحلّ عنه البرق.

فإن قلت: وهل يقصد الرّعد بجلجلته معنى معقولاً ليقال: إنّ الباريء يعلمه! ثم ما المراد بكونه عالماً بما يضمحلّ البرق عنه؟

قلت: قد يكون تعالى يحدِث في الرّعد جلجلة، أي صوتاً ليهلك به قوماً، أو لينفع به قوماً، فعلْمه بما تتضمنّه تلك الجلجلة هو معنى قولنا: يعلم ما يصوّت به الرعد، ولا ريب أنّ البرْق يلمع فيضيء أقطاراً مخصوصة، ثم يتلاشى عنها، فالباريء سبحانه عالم بتلك الأقطار التي يتلاشى البرقِ عنها.

فإن قلت: هو سبحانه عالم بما يضيئه البرق، وبما لا يضيئه، فلماذا خصّ بالعالمية ما يتلاشى عنه البرق؟

قلت: لأنّ علمه بما ليس بمضيء بالبرق أعجب وأغرب؛ لأنّ ما يضيئه البرق يمكن أن يعلمه أولو الأبصار الصحيحة، فأراد عَلَيْهِ السَّلَامُ أنْ يشرح من صفاته سبحانه ما هو بخلاف المعتاد بين البشر، ليكون إعظام السامعين له سبحانه أتمّ وأكمل.

والعواصف: الرّياح الشديدة، وأضافها إلى الأنواء، لأنّ أكثر ما يكون عَصَفَانُها في الأنواء، وهي جمع نَوْء، وهو سقوط النجم من منازل القمر الثمانية والعشرين في المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق مقابلاً له من ساعته، ومدة النوّء ثلاثة عشر يوماً، إلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً.

قال أبو عبيد: ولم يسمع في النّوْء أنّه المسقوط إلا في هذا الموضع، وكانت العرب تضيف الرياح والأمطار والحرّ والبرد إلى الساقط منها.

وقال الأصمعيّ: بل إلى الطالع في سلطانه، فتقول: مُطرنا بنوء كذا وكذا، ونهى النبيّ ﷺ عن ذلك[1]، والجمع أنواء ونُوآن أيضاً، مثل بَطْن وبُطْنان وعَبْد وعُبدان، قال حسان بن ثابت:

وَيَثْرِبُ تعلم أنّا بِهَا ... إذا قَحَطَ القطر نُوآنها

والانهطال: الانصباب. ومسقط القطرة من المطر: موضع سقوطها، ومقرّها: موضع قرارها، ومسحب الذّرة الصغيرة من النمل ومجرّها: موضع سحبها وجرّها.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الأذان، باب يستقبل الناس الإمام إذا سلم (٨٤٦)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب بيان كفر من قال مُطِرنا بالنوء (٧١).

وهذا الفصل من فصيح الكلام ونادره، ويتضمّن من توحيد الله تعالى وتمجيده والثناء عليه ما يشهد لنفسه.

الأصل: والحَمْدُ لله الْكائِنِ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ كُرْسِيٌّ او عَرْشٌ أَوْ سَماءٌ أَوْ أَرضٌ أَوْ جانٌ أَوْ إنسٌ، لاَ يُدْرَكُ بِوَهْمٍ، وَلاَ يُقَدَّرُ بِفَهمٍ، وَلاَ يَشْغَلُهُ سائِلٌ، وَلاَ يَنْقُصُهُ نائِلٌ، وَلا يَنْظُرُ بِعَيْنٍ، ولا بأيْنٍ، وَلاَ يُوصَفُ بالأزْواجِ، وَلاَ يَخْلُق بِعلاَجٍ، وَلاَ يُدْرَكُ بِالحَواسّ، وَلاَ يُقاسُ بِالنَّاسِ.

الَّذِي كَلَّمَ مُوسَى تَكْلِيماً، وأَرَاهُ مِنْ آياتِهِ عَظِيماً، بِلاَ جَوَارِحَ وَلاَ أَدَواتٍ، وَلاَ نُطْقٍ وَلاَ لَهَوَاتٍ، بَلْ إنْ كُنْتَ صادِقاً أَيُّهَا الْمُتَكَلِّفُ لِوَصْفِ رَبِّكَ، فَصِفْ جِبْرِيلَ وَمِيكائِيلَ، وَجُنُودَ الْمَلاَئِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، فِي حُجُرَاتِ الْقُدْسِ مُرْجَحِنِّينَ، مُتَوَلِّهةً عَقُولُهُمْ أَنْ يَحُدُّوا أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ. وَإِنَّمَا يُدْرَكُ بِالصِفَاتِ ذَوُو الْهَيْئاتِ والأدَوَاتِ، وَمَنْ يَنْقَضِي إذَا بَلَغَ أَمَدَ حَدِّهِ بِالْفَناء. فَلاَ إلَهَ إلاَّ هُوَ أضاءَ بِنُورِهِ كُلَّ ظَلامٍ، وَأَظْلَمَ بِظُلْمَتِهِ كُلَّ نُورٍ.

الشرح: ليس يعني بالكائن ها هنا ما يعنيه الحكماء والمتكلّمون، بل مراده الموجود، أي هو الموجود قبل أن يكون الكرسيّ والعرش وغيرهما. والأوائل يزعمون أنّ فوق السّموات السبع سماءً ثامنة، وسماء تاسعةً، ويقولون: إنّ الثامنة هي الكرسيّ، وإنّ التاسعة هي العرش.

قوله عليه السلام: «لا يدرَكُ بوهْم»، الوهم ها هنا: الفكْرة والتوهّم.

ولا يقدّر بفهم، أي لا تستطيع الأفهام أن تقدّره وتحدّه.

ولا يشغَلُه سائل كما يشغل السؤال مِنّا من يسألونه.

ولا ينقصه العطاء، كما ينقص العطاء خزائن الملوك.

ولا يبصَر بجارحة، ولا يحدّ بأيْن، ولفظة «أين» في الأصل مبنيّة على الفَتْح، فإذا نكّرتها صارت اسماً متمكّناً، كما قال الشاعر:

لَيْتَ شِعْرِي وأيْنَ منّيَ ليتٌ ... إنّ «ليتاً» وإنّ «لوًّا» عناءُ

وإن شئت قلت: إنّه تكلّم بالاصطلاح الحكْميّ. والأين عندهم: حصول الجسم في المكان، وهو أحد المقولات العشر.

قوله عليه السلام : ولا يوصَف بالأزواج، أي صفات الأزواج، وهي الأصناف، قال سبحانه: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾(١).

قوله: «ولا يَخْلُق بعلاج»، أي لا يحتاج في إيجاد المخلوقات إلى معالجة ومزاولة.

قوله: «وكلّم مُوسى تكليماً» من الألفاظ القرآنية، والمراد ها هنا من ذكْر المصدر تأكيد الأمر وإزالة لبْسٍ عساه يصلح للسامع، فيعتقد أنّه أراد المجاز، وأنّه لم يكن كلامٌ على الحقيقة.

قوله: «وأراه من آياته عظيماً»، ليس يريد به الآيات الخارجة عن التّكليم، كانشقاق البحر، وقلْب العصا، لأنه يكون بإدخال ذلك بين قوله: «تكليماً»، وقوله: «بلا جوارح ولا أدوات، ولا نطق ولا لهوات»، مستهجَناً، وإنما يريد أنه أراد بتكليمه إياه عظيماً من آياته، وذلك أنه كان يسمع الصوت من جهاتِه الستّ، ليس على حدّ سماع كلام البشر من جهة مخصوصة، وله دويٌّ وصلصلة كوقع السّلاسل العظيمة على الحصا الأصمّ.

فإن قلت: أتقول إنّ الكلام حلّ أجساماً مختلفة من الجهات الستّ؟

قلت: لا وإنّما حلّ الشّجرة فقط، وكان يُسمَع من كلّ جهة، والدليل على حلوله في الشّجرة قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾(٢)، فلا يخلو إمّا أن يكونَ النداء حلّ الشّجرة، أو المنادي حلّها، والثاني باطل، فثبت الأوّل.

ثم قال عليه السلام لمن يتكلّف أن يصفَ ربّه: إن كنت صادقاً، أنّك قد وصلتَ إلى معرفة صِفَته، فصفْ لَنا الملائكة، فإنّ معرفة ذات الملك أهونُ من معرفة ذات الأول سبحانه.

وحُجُرات القدس: جمع حُجْرة. ومرجحِنِّين: مائلين إلى جهة «تحت» خضوعاً لجلال الباريء سبحانه، ارجحنّ الحَجر، إذا مال هاوياً، متولّهة عقولهم، أي حائرة.

ثم قال: إنّما يدرَك بالصفات، ويعرف كنه ما كان ذا هيئة وأداة وجارحة، وما ينقضي ويفنى ويتطرّق إليه العدم، وواجب الوجود سبحانه بخلاف ذلك.

وتحت قوله: «أضاء بنوره كلّ ظلام. . . .» إلى آخر الفصل، معنى دقيق وسرٌّ خفيّ، وهو أنّ كلّ رذيلة في الخلق البشريّ مع معرفته بالأدِلّة البرهانية غير مؤثّرة ولا قادحة في جلالة المقام الذي قد بلغ إليه، وذلك نحو أن يكون العارف بخيلاً أو جباناً، أو حريصاً أو نحو ذلك، وكلّ فضيلةٍ في الخلْق البشريّ مع الجهل به سبحانه، فليست بفضيلةٍ في الحقيقة ولا معتدٌّ بها، لأنّ

(١) سورة قٓ، الآية: ٧.
(٢) سورة القصص، الآية: ٣٠.

نقيصة الجهل به تكثيف تلك الأنوار، وتمحَقُ فضلها، وذلك نحو أن يكون الجاهل به سبحانه جواداً، أو شجاعاً، أو عفيفاً، أو نحو ذلك، وهذا يطابق ما يقوله الأوائل، من أنّ العارف المذنب يشقَى بعد الموت قليلاً، ثم يعود إلى النعيم السرمديّ، وأنّ الجاهل ذا العبادة والإحسان يشقى بعد الموت شقاء مؤبّداً ومذهب الخلّص من مُرجئة الإسلام يناقض هذه اللفظات، ويقال: إنّه مذهب أبي حنيفة رحمه الله. ويمكن تأويلها على مذهب أصحابنا بأنْ يقال: كلّ ظلام من المعاصي الصغائر، فإنه ينجلي بضياء معرفته وطاعته، وكلّ طاعة يفعلها المكلّف مع الكفر به سبحانه، فإنها غير نافعة ولا موجبة ثواباً، ويكون هذا التأويل من باب صرف اللفظ عن عمومه إلى خصوصه.

الأصل: اوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللهِ بِتَقْوَى ٱللهِ الَّذِي أَلْبَسَكُمُ الرِّيَاشَ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمُ المَعَاشَ، فَلَوْ أَنَّ أَحَداً يَجِدُ إِلَى الْبَقَاءِ سُلَّماً، أَوْ لِدَفْعِ المَوْتِ سَبِيلاً، لَكانَ ذَلِكَ سُلَيْمانَ بْنَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ، الَّذِي سُخِّرَ لَهُ مُلْكُ الْجِنِّ وَالإنسِ، مَعَ النُّبُوَّةِ وَعَظِيمِ الزُّلْفَةِ، فَلَمَّا اسْتَوْفَى طُعْمَتَهُ، وَاسْتَكْمَلَ مُدَّتَهُ، رَمَتْهُ قِسِيُّ الْفَنَاءِ بِنِبَالِ المَوْتِ، وَأَصْبَحَتِ الدِّيارُ مِنْهُ خالِيَةً، وَالمَساكِنُ مُعَطَّلَةً، وَوَرِثَهَا قَوْمٌ آخَرُونَ.

وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْقُرُونِ السَّالِفَةِ لَعِبْرَةً! أَيْنَ الْعَمَالِقَةُ وَأَبْنَاءُ الْعَمالِقَةِ! أَيْنَ الْفَرَاعِنَةُ وَأَبْنَاءُ الْفَرَاعِنَةِ! أَيْنَ أَصْحابُ مَدَائِنِ ٱلرَّسِّ ٱلَّذِينَ قَتَلُوا النَّبِيِّينَ، وَأَطْفَئُوا سُنَنَ ٱلْمُرْسَلِينَ، وَأَحْيَوْا سُنَنَ ٱلْجَبَّارِينَ! أَيْنَ الَّذِين سَارُوا بِالْجُيُوش، وَهَزَمُوا الأُلُوفَ، وَعَسْكَرُوا ٱلْعَسَاكِرَ، وَمَدَّنُوا ٱلْمَدَائِنَ!

الشرح: الرِّياش: اللّباس. وأسبغ: أوسع، وإنّما ضربَ المثل بسليمان عليه السلام، لأنه كان مَلِك الإنس والجنّ، ولم يحصل لغيره ذلك، ومن النّاس مَنْ أنكر هذا؛ لأن اليهود والنصارى يقولون: إنّه لم يتعدّ ملكه حدود الشام، بل بعض الشام، وينكرون حديث الجنّ والطير والريح، ويحمِلُون ما ورد من ذلك على وجوهٍ وتأويلاتٍ عقلية معنوية، ليس هذا موضع ذكرها.

والزُّلْفة: القرب. والطُّعْمة، بضم الطاء: المأكلة، يقال: قد جعلت هذه الضيْعَة طُعمة لزيد.

والقِسِيّ: جمع قَوس، وأصلها «قووس» على «فعول»، كضرب وضروب، إلاّ أنهم قدمّوا اللام، فقالوا «قُسُوّ» على «فلوع»، ثم قلبت الواو ياء، وكسروا القاف كما كسروا عين «عصيّ» فصارت «قِسِيّ».

نسب العمالقة وعاد وثمود والفراعنة وأصحاب الرس

والعمالقة أولاد لاوذ إرم بن سام بن نوح، كان الملك باليمن والحجاز وما تاخم ذلك من الأقاليم، فمنهم عملاق بن لاوذ بن سام، ومنهم طسم بن لاوذ أخوه.

ومنهم جديس بن لاوذ أخوهما، وكان العز والملك بعد عملاق بن لاوذ في طسْم، فلما ملكهم عملاق بن طسم، بغي وأكثر الفساد في الأرض، حتى كان يطأ العروس ليلة إهدائها إلى بَعْلِها، وإن كانت بكراً افتضّها قبل وصولها إلى البعل، ففعل ذلك بامرأةٍ من جَدِيس، يقال لها غفيرة بنت غفار، فخرجت إلى قومها، وهي تقول:

لا أحــدٌ أذلُّ مــن جــديــسِ[1] أهــكــذا يــفــعــل بــالــعــروسِ!

فغضب لها أخوها الأسود بن غفار، وتابعه قومه على الفتك بعملاق بن طسم وأهل بيته، فصنع الأسود طعاماً، ودعا عملاق الملك إليه، ثم وثب به وبطسْم، فأتى على رؤسائهم، ونجا منهم رياح بن مرّ، فصار إلى ذي جيشان بن تبّع الحميري ملك اليمن، فاستغاث به، واستنجده على جَدِيس، فسار ذو جيشان في حِمْيَر، فأتى بلاد جَوّ، وهي قصبة اليمامة، فاستأصل جديساً كلّها، وأخرب اليمامة فلم يبق لجديسٍ باقية، ولا لطسْمٍ إلا اليسير منهم.

ثم ملك بعد طسْم وجديس وبار بن أُمَيم بن لاوذ بن إرم، فسار بولده وأهله، فنزل بأرض وبار، وهي المعروفة الآن برمل عالِج، فبغوْا في الأرض حيناً حتى أفناهم الله ثم مَلَك الأرضَ بعد وبار عبد ضَخْم بن أثَيْف بن لاوذ، فنزلوا بالطائف حيناً، ثم بادوا.

وممّن يعدّ مع العمالقة عاد وثمود، فأما عاد فهو عاد بن عويص بن إرم بن سام بن نوح، كان يعبد القمر، ويقال: إنه رأى من صُلْبِه أولاد أولاد أولاده أربعة آلاف، وإنه نكح ألف جارية، وكانت بلاده الأحقاف المذكورة في القرآن، وهي من شِحْر عُمان إلى حَضَرموت، ومن أولاده شدّاد بن عاد، صاحب المدينة المذكورة.

وأمّا ثمود، فهو ثمود بن عابر بن إرم بن سام بن نوح، وكانت دياره بين الشّام والحجاز إلى ساحل نهر الحبشة.

قوله عليه السلام: «أين الفراعنة، وأبناء الفراعنة، جمع فِرْعون، وهم ملوك مصر، فمنهم الوليد بن الريّان فرعون يوسف، ومنهم الوليد بن مُصْعب فرعون موسى.

ومنهم فرعون بن الأعرج الّذي غزا بني إسرائيل وأخربَ بيت المقدس.

---

(١) جديس: قبيلة كانت في الدهر الأول فانقرضت، اللسان، مادة (جدس).

قوله عليه السلام: «أين أصحاب مدائن الرسّ؟»، قيل: إنهم أصحابُ شعيب النبي عليه السلام، وكانوا عَبَدَة أصنام، ولهم مواشٍ وآبار يُسْقَوْن منها.

والرسّ: بئر عظيمة جداً انخسفت بهم، وهم حولها، فهلكوا وخسفت بأرضهم كلّها وديارهم. وقيل: الرسّ قرية بفلْج اليمامة، كان بها قوم من بقايا ثمود بَغَوْا، فأهلكوا.

وقيل: قوم من العرب القديمة بين الشام والحجاز، وكانت العنْقاء تختطِف صبيانَهم فتقتلهم، فدعوُا الله أن ينقِذهم منها، فبعث إليهم حنظلة بن صفوان، فدعاهم إلى الدّين على أن يقتل العنقاء، فشارطوه على ذلك فدعا عليها، فأصابتها الصاعقة، فلم يفُوا له وقتلوه، فأهلكوا.

وقل: هم أصحاب الأخدود، والرسّ، هو الأخدود. وقيل: الرسّ أرض بأنطاكيّة قتل فيها حَبيب النجار.

وقيل: بل كذّب أهلها نبيّهم ورسُّوه في بئر، أي رمَوْه فيها.

وقيل: إن الرسّ نهر في إقليم الباب، والأبواب مبدؤه من مدينة طراز، وينتهي إلى نهر الكرّ، فيختلط به حتى يصبّ في بحر الخزر، كان هناك ملوك أولو بأس وقدرة، فأهلكهم الله ببغيهم.

الأصل: منها: قَدْ لَبِسَ لِلْحِكْمَةِ جُنَّتَها، وَأَخَذَها بِجَمِيعِ أَدَبِهَا، مِنَ الإِقْبالِ عَلَيْهَا، وَالْمَعْرِفَةِ بِهَا، وَالتَّفَرُّغِ لَهَا، فَهِيَ عِنْدَ نَفْسِهِ ضالَّتُهُ الَّتِي يَطْلُبُها، وَحاجَتُهُ الَّتِي يَسْأَلُ عَنْها، فَهُوَ مُغْتَرِبٌ إِذَا اغْتَرَبَ الإِسْلاَمُ، وَضَرَبَ بِعَسِيبِ ذَنَبِهِ، وَأَلْصَقَ الأَرْضَ بِجِرَانِهِ، بَقِيَّةٌ مِنْ بَقايَا حُجَّتِهِ، خَلِيفَةٌ مِنْ خَلاَئِفِ أَنْبِيائِهِ.

الشرح: هذا الكلام فسّره كلّ طائفة على حسب اعتقادها، فالشّيعة الإماميّة، تزعم أنّ المرادَ به المهدي المنتظر عندهم، والصوفيّة يزعمون أنه يعني به وليّ الله في الأرض، وعندهم أنّ الدنيا لا تخلُو عن الأبدال، وهم أربعون، وعن الأوتاد، وهم سبعة، وعن القطب وهو واحد، فإذا مات القطب صار أحد السبعة قطباً عوضه، وصار أحد الأربعين وتِداً، عوض الوَتِد، وصار بعض الأولياء الذين يصطفيهم الله تعالى أبدالاً عوض ذلك البدَل.

وأصحابُنا يزعمون أن الله تعالى لا يخلِي الأمة من جماعة من المؤمنين العلماء بالعدْل والتوحيد، وأنّ الإجماع إنّما يكون حجّةً باعتبار أقوال أولئك العلماء، لكنه لما تعذّرت معرفتهم بأعيانهم، اعتبر إجماع سائر العلماء، وإنّما الأصل قول أولئك.

قالوا: وكلامُ أمير المؤمنين عليه السلام ليس يشير فيه إلى جماعة أولئك العلماء من حيث هم جماعة، ولكنه يصف حال كلّ واحد منهم، فيقول: من صفته كذا، ومن صفته كذا.

والفلاسفة يزعمون أنّ مرادَه عليه السلام بهذا الكلام العارف، ولهم في العرفان وصفات أربابه كلام يعرِفه مَنْ له أنس بأقوالهم. وليس يبعد عندي أن يريد به القائم من آل محمد صلى الله عليه وسلم في آخر الوقت، إذا خلقه الله تعالى، وإن لم يكن الآن موجوداً، فليس في الكلام ما يدلّ على وجوده الآن، وقد وقع اتفاق الفِرَق من المسلمين أجمعين على أنّ الدنيا والتكليف لا ينقضي إلا عليه.

قوله عليه السلام: «قد لبس للحكمة جُنّتها»، الْجُنّة: ما يستتر به من السّلاح كالدِّرْع ونحوها، ولبس جنّة الحِكْمة قمع النفس عن المشتهيات، وقطع علائق النفس عن المحسوسات، فإنّ ذلك مانع للنفّس عن أن يصيبها سهام الهوى، كما تمنع الدّرع الدّارع عن أن يصيبه سهام الرِّماية.

ثم عاد إلى صفة هذا الشخص، فقال: «وأخذ بجميع أدبها من الإقبال عليها»، أي شدّة الحرص والهمة.

ثم قال: «والمعرفة بها»، أي والمعرفة بشرَفِها ونفاستها.

ثم قال: «والتفرّغ لها»؛ لأن الذهن متى وجّهته نحو معلومين تخبّط وفسد، وإنما يدرك الحكمة بتخلية السرّ من كلّ ما مرّ سواها.

قال: «فهيَ عند نفسه ضالّته التي يطلبها»، هذا مثل قوله صلى الله عليه وسلم: «الحكْمة ضالّة المؤمن»[1] ومن كلام الحكماء: لا يمنَعْك من الانتفاع بالحكْمة حقارة مَنْ وجدتَها عنده، كما لا يمنعك خبث تراب المعدِن من التقاط الذّهب.

ووجدت بخط أبي محمد عبد الله بن أحمد الخشاب رحمه الله في تعاليق مسوّدة أبياتاً للعَطَويّ، وهي:

قد رأينا الغَزَال والغصن والنَّجْمَيْـ ... ـن شمس الضحى وبدر التّمام
فوحقّ البيان يعضُده البُرْ ... هانُ في مأقِطٍ شديد الخِصَام[2]
ما رأينا سوى المليحة شيئاً ... جَمع الحسن كلَّه في نظامِ
هي تجري مجرى الأصالة في الرأ ... يِ ومَجْرَى الأرواح في الأجسام

(١) أخرجه الترمذي في العلم، باب: ما جاء في فضل الفقه على العبادة (٢٦٨٧)، وابن ماجه في «الزهد»، باب: الحكمة (٤١٦٩).
(٢) المأقِط: الموضع الذي يقتلون فيه. اللسان، مادة (أقط).

وقد كتب ابن الخشاب بخطّه تحت «المليحة»: ما أصدقه إن أراد بالمليحة الحكمة! قوله عَلَيْتَلِاِ : «وحاجته التي يسأل عنها»، هو مثل قوله : «ضالّته التي يطلبها».

ثم قال: «هو مغترب إذا اغترب الإِسلام»، يقول هذا الشخص يُخْفِي نفسَه ويحملها إذا اغترب الإسلام، واغتراب الإسلام أن يظهر الفسق والجوْر على الصَّلاَح والعدل، قال ﷺ : «بدأ الإِسلامُ غريباً وسيعود كما بدأ»[1].

قال: «وضرب بعسيب ذَنَبِه، وألصق الأرض بِجرانه»، هذا من تمام قوله: «إذا اغترب الإسلام»، أي إذا صار الإسلام غريباً مقهوراً، وصار الإسلام كالبعير البارِكِ يضرب الأرض بعَسِيبه، وهو أصلُ الذَّنَب، ويلصق جِرانه - وهو صدره - في الأرض، فلا يكون له تصرّف ولا نهوض.

ثم عاد إلى صفة الشخّص المذكور.

وقال: «بقيّة من بقايا حججه، خَلِيفة من خلائف أنبيائه»، الضمير ها هنا يرجع إلى الله سبحانه وإنْ لم يجرِ ذكره، للعلم به، كما قال: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾[2]، ويمكن أن يقال: إنّ الضمير راجع إلى مذكور وهو الإسلام، أي من بقايا حجج الإسلام وخليفة من خلائف أنبياء الإسلام.

فإن قلت: ليس للإسلام إلا نبيّ واحد.

قلت: بل له أنبياء كثير، قال تعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[3]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[4].

وكلّ الأنبياء دَعَوْا إلى ما دعا إليه محمد ﷺ من التوحيد والعدل، فكلّهم أنبياء للإسلام.

فإن قلت: أليس لفظ «الحجّة» ولفظ «الخليفة» مشعراً بما تقوله الإماميّة؟

قلت: لا، فإنّ أهل التصوف يسمّون صاحبهم حجّة وخليفة، وكذلك الفلاسفة، وأصحابنا لا يمتنعون من إطلاق هذه الألفاظ على العلماء المؤمنين في كلّ عصر، لأنّهم حجج الله، أي إجماعهم حجّة، وقد استخلفهم الله في أرضه ليحكُموا بحكمه.

وعلى ما اخترناه نحن فالجواب ظاهر.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان، باب: بيان أن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً (١٤٥). وابن ماجه في الفتن، باب: بدأ الإسلام غريباً (٣٩٨٦)، وأحمد في «مسنده» (١٦٢٤٩).
(٢) سورة صٓ، الآية: ٣٢.
(٣) سورة الحج، الآية: ٧٨.
(٤) سورة النحل، الآية: ١٢٣.

الأصل: ثم قال عليه السلام: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي قَدْ بَثَثْتُ لَكُمُ ٱلْمَوَاعِظَ الَّتِي وَعَظَ بِهَا ٱلْأَنْبِيَاءُ أُمَمَهُمْ، وَأَدَّيْتُ إِلَيْكُمْ مَا أَدَّتِ ٱلْأَوْصِيَاءُ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ، وَأَدَّبْتُكُمْ بِسَوْطِي فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا، وَحَدَوْتُكُمْ بِالزَّوَاجِرِ فَلَمْ تَسْتَوْسِقُوا.

لله أَنْتُمْ! أَتَتَوَقَّعُونَ إِمَاماً غَيْرِي يَطَأُ بِكُمُ الطَّرِيقَ، وَيُرْشِدُكُمُ السَّبِيلَ، أَلاَ إِنَّهُ قَدْ أَدْبَرَ مِنَ الدُّنْيَا مَا كَانَ مُقْبِلاً، وَأَقْبَلَ مِنْهَا مَا كَانَ مُدْبِراً، وَأَزْمَعَ التَّرْحَالَ عِبَادُ ٱلله ٱلْأَخْيَارُ، وَبَاعُوا قَلِيلاً مِنَ الدُّنْيَا لاَ يَبْقَى، بِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْآخِرَةِ لاَ يَفْنَى!

مَا ضَرَّ إِخْوَانَنَا ٱلَّذِينَ سُفِكَتْ دِمَاؤُهُمْ بِصِفِّينَ أَلاَّ يَكُونُوا ٱلْيَوْمَ أَحْيَاءً، يُسِيغُونَ ٱلْغُصَصَ، وَيَشْرَبُونَ الرَّنْقَ! قَدْ وَٱلله لَقُوا الله فَوَفَّاهُمْ أُجُورَهُمْ، وَأَحَلَّهُمْ دَارَ ٱلْأَمْنِ بَعْدَ خَوْفِهِمْ!

أَيْنَ إِخْوَانِي ٱلَّذِينَ رَكِبُوا الطَّرِيقَ، وَمَضَوْا عَلَى ٱلْحَقِّ! أَيْنَ عَمَّارٌ! وَأَيْنَ ٱبْنُ التَّيِّهَانِ! وَأَيْنَ ذُو الشَّهَادَتَيْنِ! وَأَيْنَ نُظَرَاؤُهمْ مِنْ إِخْوَانِهِمُ ٱلَّذِينَ تَعَاقَدُوا عَلَى المنِيَّةِ وَأُبْرِدَ بِرُؤُوسِهِمْ إِلَى ٱلْفَجَرَةِ!

قال: ثُمَّ ضربَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بيده إِلَى لِحْيَتِهِ الشَّرِيفة ٱلْكَرِيمَة، فَأَطال ٱلْبُكَاء، ثم قال عليه السلام: أَوْهِ عَلَى إِخْوَانِي ٱلَّذِينَ قَرَؤوا ٱلْقُرْآنَ فَأَحْكَمُوهُ، وَتَدَبَّرُوا ٱلْفَرْضَ فَأَقَامُوهُ! أَحْيَوُا السُّنَّةَ، وَأَمَاتُوا ٱلْبِدْعَةَ، دُعُوا لِلْجِهَادِ فَأَجَابُوا، وَوَثِقُوا بِالْقَائِدِ فَاتَّبَعُوهُ. ثم نادى بأعلى صوته: ٱلْجِهَادَ ٱلْجِهَادَ عِبَادَ ٱلله! أَلاَ وَإِنِّي مُعَسْكِرٌ فِي يَوْمِي هذا، فَمَنْ أَرادَ الرَّوَاحَ إِلَى ٱلله فَلْيَخْرُجْ.

قالَ نَوْفٌ: وَعقد للحسين عليه السلام في عَشَرة آلافٍ، ولقيس بن سعدٍ رحمه الله في عشرة آلافٍ، ولأبي أيُّوب الأنصاريّ في عشرةِ آلاف، ولغيرِهم على أعدادٍ أُخر، وهو يريد الرَّجْعةَ إلى صِفّين فما دارت الجمعةُ حتى ضربه الملعون ابنُ الملجم لعنه ٱلله، فتراجعت العساكر، فكنا كأغنامٍ فقدت راعيَها، تختطفها الذئاب من كل مكانٍ!

الشرح: بثثُ لكم المواعظ: فرّقتُها ونشرتُها. والأوصياء: الذين يأتمنهم الأنبياء على الأسرار الإلٰهية، وقد يمكن ألاّ يكونوا خلفاء بمعنى الإمرة والولاية، فإنّ مرتبتهم أعلَى من مراتب الخلفاء.

وحدوتكم: سقتكم كما تحدَى الإبل. فلم تستوسقوا، أي لم تجتمعوا، قال:

مستوسقاتٍ لم يجدْن سائِقاً

قوله: «يطأ بكم الطريق»، أي يحملكم على المِنْهاج الشرعيّ، ويسلك بكم مسلَك الحقّ، كأنّه جعلهم ضالّين عن الطريق التي يطلبونها.

وقال: أتريدون إماماً غيري يوقفكم على الطريق التي تطلبونها حتى تطؤوها وتسلكوها!

ثم ذكر أنّه قد أدبَر من الدّنيا ما كان مقبلاً، وهو الهدى والرشاد، فإنّه كان في أيّام رسول الله ﷺ وخلفائه مقبِلاً، ثم أدبر عند استيلاء معاوية وأتباعه، وأقبل منها ما كان مدبراً، وهو الضلال والفساد، ومعاوية عند أصحابنا مطعون في دينه، منسوبٌ إلى الإلحاد، قد طعن فيه ﷺ، وروى فيه شيخنا أبو عبد الله البصريّ في كتاب «نقض السُّفيانيّة» على الجاحظ، وروي عنه أخباراً كثيرة تدلُّ على ذلك، وقد ذكرناها في كتابنا في «مناقضة السفيانيّة».

وروى أحمد بن أبي طاهر في كتاب «أخبار الملوك» أنّ معاوية سمع المؤذّن يقول «أشهد أن لا إله إلا الله»، فقالها ثلاثاً، فقال: أشهد أن محمداً رسول الله! فقال: لله أبوك يابن عبد الله! لقد كنتَ عاليَ الهمّة، ما رضيتَ لنفسك إلاّ أن يقرَنَ اسمُكَ باسم ربِّ العالمين!

قوله عليه السلام: «وأزمَع التّرحال» أي ثبت عزمُهم عليه، يقال: أزمعتُ الأمرَ، ولا يقال: أزمعتُ على الأمر، هكذا يقول الكسائيّ، وأجازه الخليل والفرّاء.

ثم قال عليه السلام: إنّه لم يضرّ إخواننا القتلَى بصِفّين كونهم اليوم ليسوا بأحياء حياتنا المشوبة بالنّغص والغُصَص.

ويقال: ماء رنْق، بالتسكين، أي كدر، رنِق الماء بالكسر، يرنق رنقاً فهو رَنْق، وأرنقته، أي كدّرته، وعيش رَنِق بالكسر، أي كَدِر.

ثم أقسم إنّهم لَقُوا الله فوفّاهم أجورهم، وهذا يدلّ عَلَى ما يذهب إليه جمهور أصحابنا من نعيم القبر وعذابه.

ثم قال عليه السلام: «أين إخواني»؟ ثم عدّدهم، فقال: «أين عمار».

اخبار عمار بن ياسر

وهو عمّار بن ياسر بن عامر بن كنانة بن قيس العنسيّ - بالنّون - المذحِجيّ، يكنى أبا اليقظان، حليف بني مخزوم.

ونحن نذكر طرَفاً من أمره من كتاب «الاستيعاب» لأبي عمر بن عبد البرّ المحدّث. قال أبو عمر: كان ياسر والد عَمّار عربيًّا قحطانياً، من عَنْس في مذحِج، إلاّ أنّ ابنه عمّاراً كان مولًى لبني مخزوم، لأنّ أباه ياسراً قدِمَ مكّة مع أخوين له، يقال لهما: مالك والحارث، في طلب أخ

لهم رابع، فرجع الحارث ومالك إلى اليمن، وأقام ياسر بمكّة، فحالف أبا حذيفة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم، فزوّجه حذيفة أمَةً يقال لها سُمَيّة، فأولدها عمّاراً، فأعتقه أبو حذيفة، فمن ها هنا كان عمّار مولى بني مخزوم. وأبوه عربيّ، لا يختلفون في ذلك، وللحِلْف والوَلاء الّذي بين بني مخزوم وعمّار وأبيه ياسر كان احتمال بني مخزوم على عثمان، حين نالَ من عمّار غلمانُ عثمان ما نالوا من الضّرب، حتى انفتق له فَتْقٌ في بطنه، زعموا، وكسروا ضِلَعاً من أضلاعه، فاجتمعت بنو مخزوم، فقالوا: والله لئِنْ مات لا قتلْنا به أحداً غيرَ عثمان!

قال أبو عمر: كان عمّار بن ياسر ممّن عُذّب في الله ثم أعطاهم عَمّارٌ ما أرادوا بلسانه، واطمأنّ الإيمان بقلْبه، فنزل فيه: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1]، وهذا ممّا أجمع عليه أهل التفسير.

وهاجر إلى أرضِ الحبَشة، وصلى إلى القبْلتين، وهو من المهاجرين الأوّلين، ثم شهِد بدراً والمشاهِدَ كلّها، وأبلى بلاءً حسناً، ثم شهِدَ اليمامة، فأبلَى فيها أيضاً يومئذٍ، وقطِعَتْ أذُنه.

قال أبو عمر: وقد روى الواقديّ، عن عبد الله بن نافع، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر، قال: رأيتُ عمّاراً يوم اليمامة على صخرة وقد أشرف عليها يصيح: يا معشرَ المسلمين، أمِنَ الجنّة تفِرّون؟ أنا عمّار بن ياسر، هلمُّوا إليّ! وأنا أنظُر إلى أذنه قد قطعت، فهي تذبذب، وهو يقاتل أشدّ القتال.

قال أبو عمر: وكان عَمّار آدمَ طُوالاً مضطرباً أشْهَلَ[2] العينين، بعيدَ ما بين المنكبين، لا يغيّر شيبه.

قال: وبلَغنا أنّ عَمّاراً قال: كنتُ تِرْباً لرسول الله ﷺ في سِنّه، لم يكن أحدٌ أقرَبَ إليه منّي سنًّا.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ﴾: إنه عمار بن ياسر، ﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾[3] إنه أبو جهل بن هشام.

قال: وقال رسول الله ﷺ: «إنّ عمّاراً ملىء إيماناً إلى مُشاشه»[4].

ويروى إلى أخمص قدميه.

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٠٦.

(٢) الشهلة في العينين: أن يشوب سواهما زرقة. اللسان، اللسان، مادة (شهل).

(٣) سورة الأنعام، الآية: ١٢٣.

(٤) أخرجه الإمامة في المقدمة، باب: فضل عمار بن ياسر (١٤٧) وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٣٩)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٣٩٥) والذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١/ ٤١٣) والنسائي في الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان (٥٠٠٧).

ورَوَى أبو عمر عن عائشة، أنها قالت: ما من أحدٍ من أصحاب رسول الله ﷺ أشاء أن أقول فيه إلاّ قلت، إلا عمار بن ياسر، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّه ملىء إيماناً إلى أخمص قدميه»[1].

قال أبو عمر: وقال عبد الرحمن بن أبزَى: شَهِدنا مع عليّ عليه السلام صِفّين ثمانمائة ممّن بايع بَيْعة الرضوان، قتل مِنّا ثلاثة وستون، منهم عَمّار بن ياسر.

قال أبو عمر: ومن حديث خالد بن الوليد، أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أبغض عَمّاراً أبغضه الله»[2]، فما زلتُ أحبّه من يومئذٍ.

قال أبو عمر: ومن حديث عليّ بن أبي طالب عليه السلام: إنّ عمّاراً جاء يستأذِنُ عَلَى رسول الله ﷺ يوماً، فعرف صوته، فقال: «مَرْحَباً بالطيّب المطيَّب - يعني عَمّاراً - ائذنوا له»[3].

قال أبو عمر: ومن حديث أنَس عن النبي ﷺ: «اشتاقَتِ الجنّة إلى أربعة: عليّ، وعمار، وسلمان، وبلال»[4].

قال أبو عمر: وفضائل عمّار كثيرة جداً يطول ذكرها.

قال: وروى الأعمش، عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيّ، قال: شهِدْنا مع على عليه السلام صِفّين، فرأيت عمّار بن ياسر لا يأخذ في ناحية ولا وادٍ من أوْدِية صفّين، إلاَّ رأيتُ أصحاب محمد ﷺ يتّبعونه، كأنه علَم لهم. وسمعتُه يقول يومئذ لهاشم بن عتبة: يا هاشم، تقدّم، الجنّة تحت البارقة.

الْيَوْمَ أَلْقَى الأحِبَّهْ مُحَمَّداً وَحِزْبَهْ

والله لو هزمونا حتى يبلغوا بنا سَعَفَاتِ هَجَرَ لعلمنا أنّا على الحق، وأنهم على الباطل، ثم قال:

نَحْنُ ضَرَبْنَاكُمْ عَلَى تنزيلِهِ فَالْيَوْمَ نضربُكُمْ على تأويلِهِ

(١) ذكره ابن عبد البر في «الاستيعاب» (٣/ ١٣٧).
(٢) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٦٣٧٣) والحاكم في «مستدركه» (٣/ ٣٩١)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٩٣).
(٣) أخرجه الترمذي في المناقب، باب: مناقب عمار بن ياسر (٣٧٩٨)، وابن ماجه في المقدمة (١٤٦). وأحمد في «مسنده» (٧٨١).
(٤) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤٦٦٦) بلفظ: «اشتاقت الجنة إلى ثلاثة: علي وعمار وسلمان» والترمذي في المناقب، باب: مناقب معاذ بن جبل (٣٧٩٦).

ضرباً يزيلُ الهام عن مقيلِهِ ويُذْهِلُ الخليل عن خليلِهِ
أو يرجع الحق على سبيلِهِ

فلم أر أصحاب محمد ﷺ قتِلوا في موطن، ما قتلوا يومئذ.

قال: وقد قال أبو مسعود البدريّ وطائفة لحُذَيْفة حين احتُضِر، وقد ذكر الفتنة: إذا اختلَف النّاس فبِمنْ تأمرنا؟ قال: عليكم بابن سميّة، فإنّه لن يفارق الحقَّ حتى يموت - أو قال: فإنه يزول مع الحقّ حيث زال.

قال أبو عمر: وبعضهم يجعل هذا الحديث عن حُذيفة مرفوعاً.

قال أبو عمر: وروى الشّعبيّ، عن الأحنف، أن عمّاراً حمِل يوم صِفّين، فحمل عليه ابن جَزْء السَّكْسَكِيّ، وَأبو الغادية الفَزَاريّ، فأمّا أبو الغادية فطعنه، وأمّا ابن جزء فاحتزّ رأسه.

قلت: هذا الموضع ممّا اختلف فيه قول أبي عمر رحمه الله، فإنه ذكر في كتاب الكنى من «الاستيعاب» أبا الغادية - بالغين المعجمة - وقال: إنه جُهَنيّ من جُهينة، وجُهينة من قُضاعة، وقد نسبه ها هنا فَزاريًّا.

وقال في كتاب الكنى: إنّ اسم أبي الغادية يسار، وقيل مسلم.

وقد ذكر ابن قتيبة في كتاب «المعارف»[1] عن أبي الغادية أنّه كان يحدّث عن نفسه بقتل عمار، ويقول: إنّ رجلاً طعنه فانكشف المُغْفَر عن رأسه، فضربت رأسه، فإذا رأس عمّار قد نَدَر. وكيفية هذا القتل تخالف الكيفيّة التي رواها ابن عبد البرّ.

قال أبو عمر: وقد روى وَكيع، عن شعبة، عن عبد بن مرّة، عن عبد الله بن سلَمة، قال: لكأنّي أنظُر إلى عمّار يوم صِفّين وهو صريع، فاستسقَى، فَأُتِيَ بشربة من لبن فشرب، فقال:

اليوم ألقى الأحِبَّهْ

إن رسول الله ﷺ عهِد إليّ أنّ آخرَ شَرْبة أشرَبُها في الدّنيا شربة من لبن، ثم استسقى ثانية فأتته امرأة طويلة اليدين بإناء، فيه ضَيَاح من لبن، فقال حين شَرِبه: الحمدُ الله، الجنّة تحت الأسِنّة، والله لو ضربونا حتى يبلغونا سَعَفاتِ هَجَر لعلمنا أنّا على الحقّ، وأنهم على الباطل، ثم قاتل حتى قُتل.

قال أبو عمر: وقد رَوَى حارثة بن المضراب: قرأت كتابَ عمر إلى أهل الكوفة: أمّا بعد، فإنّي بعثت إليكم عَمّاراً أميراً، وعبد الله بن مسعود معلّماً ووزيراً، وهما من النُّجباء، من أصحاب محمّد، فاسمعوا لهما، واقتدوا بهما، فإنّي قد آثرتكم بعبدِ الله عَلَى نفسي أثَرَةً.

(١) المعارف في التاريخ: لابن قتيبة أبي محمد عبد الله بن مسلم الدينوري المتوفى سنة (٢٦٧هـ). «كشف الظنون» (٢/ ١٧٢٤).

قال أبو عمر: وإنّما قال عمر: هُمَا من النُّجباء، لقول رسول الله ﷺ. «إنّه لم يكن نبيٌّ إلا أُعْطِيَ سبعة من أصحابه نجباء وزراء فقهاء، وإنّي قد أعطيتُ أربعةَ عشر: حمزة، وجعفراً، وعليًّا، وحسناً، وحسيناً، وأبا بكر، وعمر، وعبد الله بن مسعود، وسلْمان، وعَمّاراً، وأبا ذَرّ، وحُذَيفة، والمقْداد، وبلالاً»[1].

قال أبو عمر: وتواترتِ الأخبار عَنْ رسول الله ﷺ أنّه قال: «تقتُلُ عمّاراً الفئة الباغية»[2]، وهذا من إخباره بالغيب، وأعلام نبوّته ﷺ، وهو من أصح الأحاديث.

وكانت صِفين في ربيع الآخر سنة سبع وثلاثين، ودفَنَه عليٌّ عليه السلام في ثيابه ولم يغسّله.

وروى أهلُ الكوفة أنّه صلّى عليه، وهو مذهبهم في الشّهداء، أنّهم لا يغسَّلون ولكن يصلى عليهم.

قال أبو عمر: وكانت سنّ عمّار يوم قُتِل نَيّفاً وتسعين، سنة، وقيل: إحدى وتسعين، وقيل: اثنتين وتسعين، وقيل: ثلاثاً وتسعين.

أخبار أبي الهيثم ابن التيهان

ثم قال عليه السلام: «وأين ابن التّيِّهان»، هو أبو الهيثم بن التّيّهان، بالياء المنقوطة، باثنتين تحتها، المشددة المكسورة، وقبلها تاء منقوطة باثنتين فوقها، واسمه مالك، واسم أبيه مالك أيضاً، ابن عبيد بن عمرو بن عبد الأعلم بن عامر الأنصاري، أحدُ النُّقَباء ليلة العقَبة. وقيل: إنه لم يكن من أنفسِهم، وإنّه من بَلِيّ بن أبي الحارث بن قُضاعة، وإنَّه حليفٌ لبني عبد الأشهل، كان أحدَ النّقباء ليلة العقبة، وشهد بدراً.

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب «الاستيعاب»: اختلف في وقت وفاته، فذكر خليفة، عن الأصمعيّ، قال: سألتُ قومَه، فقالوا: مات في حياة رسول الله ﷺ.

قال أبو عمر: وهذا لم يتابع عليه قائله. وقيل: إنّه توفّيَ سنة عشرين، أو إحدى وعشرين. وقيل: إنه أدرَك صِفّين، وشهدها مع عليّ عليه السلام، وهو الأكثر. وقيل: إنه قتل بها. ثم قال أبو عمر: حدّثنا خَلَف بن قاسم، قال: حدّثنا الحسن بن رشيق، قال: حدّثنا الدُّولابيّ، قال:

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب المناقب، باب: مناقب أهل بيت النبي ﷺ (٣٧٨٥) وأحمد في «مسنده» (١٢٦٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٠٤٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٢٨).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب: الصلاة، باب: التعاون في بناء المسجد (٤٤٧)، ومسلم، كتاب: الفتن وأشراط الساعة، باب: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيتمنى أن يكون مكان الميت من البلاء (٢٩١٥).

حدثنا أبو بكر الوجيهيّ، عن أبيه، عن صالح بن الوجيه، قال: وممّن قُتِل بصفّين عمّار، وأبو الهيثم بن التّيهان، وعبد الله بن بُدَيْل، وجماعة من البدريّين رحمهم الله.

ثم روى أبو عُمر روايةً أخرى، فقال: حدّثنا أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد المؤمن، قال: حدثنا عثمان بن أحمد بن السمّاك، قال: حدّثنا حنبل بن إسحاق بن عليّ، قال: قال أبو نُعيم: أبو الهيثم بن التّيهان، اسمُه مالك، واسم التّيهان عمرو بن الحارث، أصيب أبو الهيثم مع عليّ يوم صفين. قال أبو عمر: هذا قول أبي نعيم وغيره.

قلت: وهذه الرّواية أصحّ من قول ابن قتيبة في كتاب المعارف، وذكر قوم أنّ أبا الهيثم شهد صِفّين مع علي عليه السلام، ولا يعرِفُ ذلك أهلُ العلم ولا يثبِتونه، فإنّ تعصُّب ابن قتيبة معلوم، وكيف يقول: لا يعرفه أهل العلم، وقد قاله أبو نعيم، وقاله صالح بن الوجيه، ورواه ابنُ عبد البرّ وهؤلاء شيوخ المحدّثين!

ذو الشهادتين خزيمة بن ثابت

ثم قال عليه السلام: «وأين ذو الشّهادتين»، هو خزيمة بن ثابت بن الفاكه بن ثعلبة الخطْميّ الأنصاري من بني خَطْمة، من الأوْس جعل رسول الله صلى الله عليه وآله شهادته كشهادة رجلين، لقصّة مشهورة[١]، يكنَى أبا عُمارة، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد، وكانت رايةُ بني خَطْمة بيده يوم الفتح.

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب: وشهد صِفّين مع عليّ بن أبي طالب عليه السلام، فلما قُتل عمار قاتل حتى قُتِل.

قال أبو عمر: وقد رُوِي حديثُ مقتله بصفّين من وجوه كثيرة، ذكرناها في كتاب «الاستيعاب» عن ولد ولده، وهو محمد بن عُمارة بن خزيمة ذي الشهادة، وأنّه كان يقول في صِفّين: سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: «تقتل عمّاراً الفئةُ الباغية»[٢]، ثم قاتل حتى قُتِل.

قلت: ومن غريب ما وقعتُ عليه من العصبيّة القَبيحة، أنّ أبا حيانٍ التوحيديّ قال في كتاب «البصائر»[٣]: إن خُزيمة بن ثابت المقتول مع عليّ عليه السلام بصِفّين، ليس هو خزيمة بن ثابت ذا

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢١٨٨)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ١٤٦)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٣٧٣٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه: ٨/ ١٨٦، وأخرجه النسائي في سننه رقم: ٨٥٥١.

(٣) بصائر القدماء وبشائر الحكماء: للشيخ أبي حيان علي بن محمد التوحيدي البغدادي، المتوفى سنة (٣٨٠هـ)، «كشف الظنون» (١/ ٢٤٦).

الشهادتين، بل آخر من الأنصار صحابيّ اسمه خزيمة بن ثابت، وهذا خطأ، لأن كتب الحديث والنّسب تنطق بأنّه لم يكن في الصحابة من الأنصار، ولا من غير الأنصار خزيمة بن ثابت إلا ذو الشهادتين، وإنما الهوى لا دواءَ له، على أنّ الطبريّ صاحب التاريخ قد سَبَق أبا حيّان بهذا القول، ومن كتابه نقَل أبو حيان، والكتب الموضوعة لأسماء الصحابة تشهد بخلاف ما ذكراه، ثم أيّ حاجة لناصري أمير المؤمنين أن يتكثَّرُوا بخُزيمة، وأبي الهيثم، وعمّار وغيرهم! لو أنصف الناس هذا الرجل ورأوه بالعين الصحيحة، لعلموا أنه لو كان وحده، وحاربه الناسُ كلهم أجمعون، لكان على الحقّ، وكانوا على الباطل.

ثم قال عليه السلام: «وأين نظراؤهم من إخوانهم»! يعني الذين قتِلُوا بصِفّين معه من الصحابة، كابن بُدَيل، وهاشم بن عتبة، وغيرهما ممّن ذكرناه في أخبار صِفّين.

وتعاقدوا على المنيّة: جعلوا بينهم عقداً، وروى «تعاهدوا».

وأبرِد برؤوسهم إلى الفَجَرة: حمِلت رؤوسهم مع البريد إلى الفَسقة للبشارة بها، والفجرة ها هنا: أمراء عسكر الشام، تقول: قد أبردت إلى الأمير، فأنا مبرِد، والرسول بريد، ويقال للفُرانق البريد[1]، لأنه ينذر قُدام الأسد.

قوله: «أوْهِ على إخواني» ساكنة الواو مكسورة الهاء، كلمة شكوى وتوجُّع، وقال الشاعر:

فـأوْهِ لـذكـراهـا إذا مـا ذكـرتُـهـا ... ومِـنْ بُـعْـدِ أرضٍ دونـهـا وَسَـمـاءِ

وربما قلبوا الواو ألفاً، فقالوا: آهِ من كذا، آه على كذا، وربما شدّدوا الواو وكسروها وسكنوا الهاء، فقالوا: أوِّهْ من كذا، وربما حذفوا الهاء مع التّشديد، وكسروا الواو، فقالوا: أوِّ من كذا بلا مدّ، وقد يقولون: آوّهْ، بالمد والتّشديد وفتح الألف وسكون الهاء، لتطويل الصوت بالشكاية، وربما أدخلوا فيه الياء تارةً يمدّونه، وتارة لا يمدونه، فيقولون: «أوياه» و«آوياه» وقد أوّهَ الرجلُ تأويهاً، وتأوه تأوُّهاً، إذا قال «أوْهِ»، والاسم منه «الآهة» بالمدّ، قال المثقّب العبديّ:

إذَا مـا قـمـت أرْحَـلُـهَـا بـلـيـلٍ ... تـأوّه آهـة الـرّجُـل الـحـزيـنِ

قوله عليه السلام: «ووثِقُوا بالقائد فاتّبعوه»، يعني نفسه، أي وثقوا بأنّي على الحقّ، وتيقّنوا ذلك، فاتّبعوني في حرب مَنْ حاربت، وسِلْم مَنْ سالمت.

قوله: «الجهادَ الجهادَ»، منصوب بفعل مقدّر.

وإنّي معسكر في يومي، أي خارج بالعَسْكر إلى منزل يكونُ لهم معسكراً.

وقيس بن سعد بن عبادة بن دُليم الخزرجيّ. صحابيّ، يكني أبا عبد الملك، روى عن

(١) انظر لسان العرب، مادة (فرق).

رسول الله ﷺ أحاديث، وكان طُوالاً جدًّا سبِطاً شجاعاً، جواداً، وأبوه سعد رئيس الخزرج، وهو الذي حاولت الأنصارُ إقامته في الخلافة بعد رسول الله ﷺ، ولم يبايع أبا بكر حين بُويع، وخرج إلى حَوْران، فماتَ بها، قيل: قتلته الجنّ؛ لأنه بال قائماً في الصّحراء ليلاً، ورووْا بيتين من شعر، قيل إنهما سمعا ليلة قتْله، ولم يُرَ قائلهما:

نَحْنُ قَتَلْنَا سَيِّدَ الخَزْ رَجِ سَعْدَ بنَ عُبَادَهْ
ورميناهُ بِسَهْمَيْنِ فلم نُخْطِئ فؤادهْ

ويقول قوم: إنّ أمير الشام يومئذٍ كَمَن له مَنْ رماه ليلاً، وهو خارج إلى الصحراء بسهمين، فقتله لخروجه عن طاعة الإمام، وقد قال بعض المتأخرين في ذلك:

يقولونَ سعدَ شكّت الجنُّ قلْبَه ألاَ ربما صَحَّحْتَ دينك بالغَدْرِ
وما ذنبُ سَعْدٍ أنه بال قائماً ولكنّ سعداً لم يبايع أبا بكرِ
وقد صبرَتْ من لذّة العيش أنفسٌ وما صبرتْ عن لَذّة النّهي والأمر

وكان قيس بن سعد من كبار شيعة أمير المؤمنين عليه السلام، وقائلٌ بمحبَّته وولائه، وشهد معه حروبه كلها، وكان مع الحسن عليه السلام، ونقم عليه صلحه معاوية، وكان طالبيّ الرأي، مخلصاً في اعتقاده ووده، وأكّد ذلك عنده فواتُ الأمر أباه وما نيل يوم السقيفة وبعده منه، فوجِد من ذلك في نفسه وأضمَره، حتى تمكّن من إظهاره في خلافة أمير المؤمنين، وكما قيل: «اعدوّ عدّك صديق لك».

وأما أبو أيوب الأنصاريّ، فهو خالد بن يزيد بن كعب بن ثعلبة الخزرجيّ، من بني النّجار، شهد العقَبة وبدْراً وسائر المشاهد وعليه نزل رسول الله ﷺ لمّا خرج عن بني عمرو بن عوف، حين قدم المدينة مهاجراً من مكّة، فلم يزل عنده حتى بنَى مسجده ومساكنه، ثم انتقل إليها، ويوم المؤاخاة آخى رسول الله ﷺ بينه وبين مُصْعَب بن عمير.

وقال أبو عمر في كتاب «الاستيعاب»: إن أبا أيّوب شهد مع عليّ عليه السلام مشاهده كلّها، وروى ذلك عن الكلبيّ وابن إسحاق، قالاَ: شهد معه يوم الجمل وصِفّين، وكان مقدّمته يوم النَّهروان.

قوله «تختطفها الذئاب»، الاختطاف: أخذُك الشيء بسرعة، ويروى «تتخطفها»، قال تعالى: ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾[1].

ويقال: إن هذه الخطبة آخرُ خطبة أمير المؤمنين عليه السلام قائماً.

---

(١) سورة الأنفال، الآية: ٢٦.

١٨٤ - من خطبة له عليه السلام في قدرة الله وفضل القرآن

الأصل: اَلْحَمْدُ للهِ المَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِ رُؤْيَةٍ، الخَالِقِ مِنْ غَيْرِ مَنْصَبَةٍ، خَلَقَ اَلْخَلاَئِقَ بِقُدْرَتِهِ، وَٱسْتَعْبَدَ الأَرْبَابَ بِعِزَّتِهِ، وَسَادَ اَلْعُظَمَاءَ بِجُودِهِ، وَهُوَ الَّذِي أَسْكَنَ الدُّنْيَا خَلْقَهُ، وَبَعَثَ إِلَى الْجِنِّ وَٱلْإِنْسِ رُسُلَهُ، لِيَكْشِفُوا لَهُمْ عَنْ غِطَائِهَا، وَلِيُحَذِّرُوهمْ مِنْ ضَرَّائِهَا، وَلِيَضْرِبُوا لَهُمْ أَمْثَالَهَا، وَلِيُبَصِّرُوهم عُيُوبَهَا، وَلِيَهْجُمُوا عَلَيْهِمْ بِمُعْتَبَرٍ مِنْ تَصَرُّفِ مَصَاحِّهَا وَأَسْقَامِهَا، وَحَلاَلِهَا وَحَرَامِهَا، وَمَا أَعَدَّ ٱللهُ سُبْحَانَهُ لِلْمُطِيعِينَ مِنْهُمْ وَٱلْعُصَاةِ، مِنْ جَنَّةٍ وَنَارٍ، وَكَرَامَةٍ وَهَوَانٍ.

أَحْمَدُهُ إِلى نَفْسِهِ، كما ٱسْتَحْمَدَ إِلَى خَلْقِهِ، جَعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً، وَلِكُلِّ قَدْر أَجَلاً، وَلِكُلِّ أَجَلٍ كِتاباً.

الشرح: المنصَبة، بالفتح والنَّصَب: التعب، والماضي نصِب بالكسرة، وهمّ ناصب في قول النابغة:

كِـلِـيـنـي لَـهـمٍّ يـا أُمـيـمـةَ نـاصِـبِ

ذو نَصَب، مثل رجل تامر ولابِن، ويقال: هو «فاعل» بمعنى «مفعول فيه» لأنه يُنْصَب فيه ويُتْعب، كقولهم: ليل نائم، أي يُنام فيه، ويوم عاصف، أي تعصف فيه الريح. واستعبدت فلاناً: اتّخذته عبداً. والضرّاء: الشدّة.

ومعتبر: مصدر بمعنى الاعتبار. ومصاحّها: جمع مصحّة «مفعلة» من الصحّة، كمضارّ جمع مضرّة. وصفَه سبحانه بأنّه معروف بالأدلّة، لا من طريق الرؤية كما تعرف المرئيّات، وبأنّه يخلق الأشياء ولا يتعب كما يتعب الواحد منّا فيما يزاوله ويباشر من أفعاله. خلَق الخلائق بقدرته على خَلْقِهم، لا بحركة واعتماد. «وأسبغَ النِّعمة عليهم»: أوسَعها. واستعبد الّذين يُدْعَون في الدّنيا أرباباً بعزّه وقهره.

وساد كلّ عظيم بسَعة جوده، وأسكن الدنيا خلقه، كما ورد في الكتاب العزيز: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(١).

وبعثَ رسلَه إلى الجنّ والإنس، كما ورد في الكتاب العزيز: ﴿يَـٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَـٰذَا﴾(٢).

(١) سورة البقرة، الآية: ٣٠.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٣٠.

قال: «ليكشفوا لهم عن غطاء الدنيا» أي عن عوراتها وعيوبها المستورة، وليخوّفوهم من مضرّتها وغرورها المفضِي إلى عذاب الأبد.

وليضربوا لهم أمثالها، كالأمثالِ الواردة في الكتاب العزيز، نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ . . . .﴾[1] الآية.

قوله: «وليهجُموا عليهم»، هجمتُ على الرّجل: دخلت عليه بَغْتَةً، يقول: ليدخلوا عليهم بما في تصاريف الدنيا، من الصحّة والسّقَم، وما أحلّ وما حرّم على طريق الابتلاء.

ثم قال: «وما أعدّ الله سبحانه للمطيعين منهم والعصاة»، يجوز أن تكون «ما» معطوفة على «عيوبها»، فيكون موضعها نصباً، ويجوز أن يكون موضعها جرًّا، ويكون من تتمّة أقسام ما يُعتَبَر به، والأوّل أحسن.

ثم قال عليه السلام: إني أحمد الله كما استحمد إلى خلقه، استحمد إليهم فعلَ ما يوجب عليهم حمده.

ثم قال: إنّه سبحانه جعل لكل شيء من أفعاله قَدْراً، أي فعله مقدّراً محدود الغرض، اقتضى ذلك القدر وتلك الكيفية، كما قال سبحانه: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾[2].

وجعل لكل شيء مقدّر وقتاً ينتهي إليه وينقطع عنده، وهو الأجَل.

ولكلّ أجل كتاباً، أي رُقوماً تعرفها الملائكة، فتعلم انقضاء عمر مَنْ ينقضي عمره، وعَدَم ما ألطافهم في معرفة عدمه.

الأصل: منها في ذكر القرآن: فَالْقُرْآنُ آمِرٌ زَاجِرٌ، وَصَامِتٌ نَاطِقٌ، حُجَّةُ ٱللهِ عَلَى خَلْقِهِ، أَخَذَ عَلَيْهِ مِيثَاقَهُمْ، وَارْتَهَنَ عَلَيْهِمْ أَنْفُسَهُمْ، أَتَمَّ نُورَهُ، وَأَكْرَمَ بِهِ دِينَهُ، وَقَبَضَ نَبِيَّهُ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ فَرَغَ إِلَى ٱلْخَلْقِ مِنْ أَحْكَامِ ٱلْهُدَى بِهِ.

فَعَظِّمُوا مِنْهُ سُبْحَانَهُ مَا عَظَّمَ مِنْ نَفْسِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُخْفِ عَنْكُمْ شَيْئاً مِنْ دِينِهِ، وَلَمْ يَتْرُكْ شَيْئاً رَضِيَهُ أَوْ كَرِهَهُ إِلاَّ وَجَعَلَ لَهُ عَلَماً بَادِياً، وَآيَةً مُحْكَمَةً، تَزْجُرُ عَنْهُ، أَوْ تَدْعُو إِلَيْهِ، فَرِضَاهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ، وَسَخَطُهُ فِيمَا بَقِيَ وَاحِدٌ.

وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ لَنْ يَرْضَى عَنْكُمْ بِشَيْءٍ سَخِطَهُ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَلَنْ يَسْخَطَ عَلَيْكُمْ بِشَيْءٍ رَضِيَهُ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَإِنَّمَا تَسِيرُونَ فِي أَثَرٍ بَيِّنٍ، وَتَتَكَلَّمُونَ بِرَجْعِ قَوْلٍ قَدْ قَالَهُ ٱلرِّجَالُ مِنْ قَبْلِكُمْ.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

(٢) سورة الرعد، الآية: ٨.

قَدْ كَفَاكُمْ مؤونَةَ دُنْيَاكُمْ، وَحَثَّكُمْ عَلَى الشُّكْرِ، وَٱفْتَرَضَ مِنْ أَلْسِنَتِكُمُ الذِّكْرَ، وَأَوْصَاكُمْ بِالتَّقْوَى، وَجَعَلَهَا مُنْتَهَى رِضَاهُ، وَحَاجَتَهُ مِنْ خَلْقِهِ.

فَاتَّقُوا ٱللهَ ٱلَّذِي أَنْتُمْ بِعَيْنِهِ، وَنَوَاصِيكُمْ بِيَدِهِ، وَتَقَلُّبُكُمْ فِي قَبْضَتِهِ، إِنْ أَسْرَرْتُمْ عَلِمَهُ، وَإِنْ أَعْلَنْتُمْ كَتَبَهُ، قَدْ وَكَّلَ بِذَلِكَ حَفَظَةً كِرَاماً، لاَ يُسْقِطُونَ حَقًّا، وَلاَ يُثْبِتُونَ بَاطِلاً.

وَٱعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يَتَّقِ ٱللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً مِنَ ٱلْفِتَنِ، وَنُوراً مِنَ الظُّلَمِ، وَيُخَلِّدْهُ فِيمَا ٱشْتَهَتْ نَفْسُهُ، وَيُنْزِلْهُ مَنْزِلَ ٱلْكَرَامَةِ عِنْدَهُ، فِي دَارٍ ٱصْطَنَعَهَا لِنَفْسِهِ، ظِلُّهَا عَرْشُهُ، وَنُورُهَا بَهْجَتُهُ، وَزُوَّارُهَا مَلاَئِكَتُهُ، وَرُفَقَاؤُهَا رُسُلُهُ.

فَبَادِرُوا الْمَعَادَ، وَسَابِقُوا الآجَالَ، فَإِنَّ النَّاسَ يُوشِكُ أَنْ يَنْقَطِعَ بِهِمُ ٱلأَمَلُ، وَيَرْهَقَهُمُ ٱلأَجَلُ، وَيُسَدَّ عَنْهُمْ بَابُ التَّوْبَةِ، فَقَدْ أَصْبَحْتُمْ فِي مِثْلِ مَا سَأَلَ إِلَيْهِ الرَّجْعَةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، وَأَنْتُمْ بَنُو سَبِيلٍ، عَلَى سَفَرٍ مِنْ دَارٍ لَيْسَتْ بِدَارِكُمْ، وَقَدْ أُوذِنْتُمْ مِنْهَا بِالارْتِحَالِ، وَأُمِرْتُمْ فِيهَا بِالزَّادِ.

الشرح: جعل القرآن آمراً وزاجراً، لمّا كان خالقه - وهو الله سبحانه - آمراً زاجراً به، فأسنَد الأمر والزجر إليه، كما تقول: سيفٌ قاتل، وإنما القاتل الضارب به، وجعله صامتاً ناطقاً، لأنه - من حيث هو حروف وأصوات - صامت، إذ كان العرَض يستحيل أن يكون ناطقاً لأنّ النطق حركة الأداة بالكلام، والكلام يستحيل أن يكون ذا أداة ينطق بالكلام بها، وهو من حيث يتضمّن الإخبار والأمر والنهي والنداء وغير ذلك من أقسام الكلام، كالناطق، لأنّ الفهم يقع عنده، وهذا من باب المجاز كما تقول: هذه الربوع الناطقة، وأخبرتْني الديار بعد رحيلهم بكذا.

ثم وصفه بأنّه حجّة الله على خلقه؛ لأنّه المعجزة الأصليّة.

أخذ سبحانه على الخلائق ميثاقَه، وارتهن عليه أنفسهم، لَمّا كانَ سبحانه قد قرّر في عقول المكلّفين أدلّة التوحيد والعدل، ومن جملة مسائل العذل النبوّة، ويثبت نبوّة محمد ﷺ عَقْلاً، كان سبحانه بذلك الآخذ ميثاقَ المكلّفين بتصديق دعوته، وقبول القرآن الّذي جاء، وجعل به نفسهم رَهْناً على الوفاء بذلك، فمن خالف خَسِرَ نفسَه، وهلَك هلاك الأبَد.

هذا تفسير المحقّقين، ومن الناس من يقول: المراد بذلك قصّة الذرّيّة قبل خلق آدم عليه السلام، كما ورد في الأخبار، وكما فسّر قوم عليه الآية.

ثم ذكر عليه السلام أنّ الله تعالى قَبَض رسوله ﷺ، وقد فَرَغ إلى الخلْق بالقرآن من الإكمال

والإتمام، كقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[1]، وإذا كان قد أكمله لم يبق فيه نقص ينتظر إتمامه.

قال: فعظّموا من الله ما عظّم من نفسه؛ لأنه سبحانه وصفَ نفسه بالعظمة والجلال في أكثر القرآن، فالواجب علينا أن نعظّمه على حَسَبِ ما عظّم نفسه سبحانه.

ثم علّل وجوبَ تعظيمِه، وحَسَّنَ أمرَه لنا بتعظيمه سبحانه بكونه لم يُخْفِ عنّا شيئاً من أمر ديننا، وذلك لأنّ الشرعيّات مصالح المكلّفين، وإذا فعل الحكيم سبحانه بنا ما فيه صلاحُنا، فقد أحسنَ إلينا، ومن جملة صلاحِنا تعريفُنا من الشرعيّات ما فِعله لطفٌ ومفضٍ بنا إلى الثواب، وهذا أبلغ ما يكون من الإحسان، والمحسِنُ يجب تعظيمه وشكره.

قال: لم يترك شيئاً إلاّ وجعل له نصًّا ظاهراً يدلّ عليه، أو عَلَماً يستدَلّ به عليه، أي إمّا منصوص عليه صريحاً، أو يمكن أن يستنبَط حكمه من القرآن إمّا بذكره أو بتركه، فيبقى على البراءة الأصليّة، وحكم العقل.

قوله: «فرضاه فيما بقيَ واحد» معناه أنّ ما لم ينصّ عليه صريحاً، بل هو في محلّ النّظر، ليس يجوز للعلماء أن يجتهدوا فيه، فيحلّه بعضُهم، ويحرّمه بعضهم، بل رضا الله سبحانه أمرٌ واحد، وكذلك سَخَطه، فليس يجوز أن يكونَ شيءٌ من الأشياء يفتِي فيه قوم بالحلّ وقوم بالحرْمة، وهذا قولٌ منه عليه السلام بتحريم الاجتهاد، وقد سبق منه عليه السلام مثلُ هذا الكلام مراراً.

قوله: «واعلموا أنه ليس يرضى عنكم. . .»، الكلام إلى منتهاه، معناه أنّه ليس يرضى عنكم بالاختلاف في الفتاوَي والأحكام، كما اختلف الأمم من قبلكم، فسَخِط اختلافَهم قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾[2].

وكذلك ليس يسخَطُ عليكم بالاتفاق والاجتماع الّذي رضيَه ممّن كان قبلكم من القرون.

ويجوز أن يفسَّر هذا الكلام بأنّه لا يرضى عنكم بما سَخِطه على الّذين من قبلكم من الاعتقادات الفاسدة في التوحيد والعدل، ولا يسخط عليكم بما تعتقدونه من الاعتقادات الصحيحة التي رضيَها مِمّن كان قبلكم في التّوحيد والعدل، فيكون الكلام مصروفاً إلى الأصول لا إلى الفروع.

قال: «وإنما تسيرون في أثر بيّن»، أي أنّ الأدِلّة واضحة، وليس مراده الأمرَ بالتقليد، وكذلك قوله «وتتكلّمون برجع قول قد قاله الرجال من قبلكم»، يعني كلمةَ التوحيد «لا إله إلا الله»، قد قالها الموحّدون من قبل هذه الملّة، لا تقليداً، بل بالنّظر والدليل، فقولوها أنتم كذلك!

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٣.

(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٥٩.

ثم ذكر أنّه سبحانه قد كفى الخلق مؤونة دنياهم، قال الحسن البصريّ: إن الله تعالى كفانا مؤونة دُنْيَانا، وحثّنا على القيام بوظائف ديننا، فليتَه كفانا مؤونة ديننا وحثّنا على القيام بوظائف دنيانا.

قوله: «وافترض من ألسنتكم الذِّكْر»، افترض عليكم أنْ تذكُروه وتشكُروه بألسنتكم، و«من» متعلّقة بمحذوف دلّ عليه المصدر المتأخّر، تقديره: «وافترض عليكم الذِّكْر من ألسنتكم الذكر».

ثم ذكر أنّ التقوى المفترَضة هي رضَا الله وحاجته من خَلْقه، لفظة «حاجته» مجاز، لأنّ الله تعالى غنيٌّ غير محتاج، ولكنه لما بالغ في الحثّ والحضّ عليها، وتوعدّ على تركها جعله كالمحتاج إلى الشيء، ووجهُ المشاركة أنَّ المحتاج يحثّ ويحضّ على حاجته، وكذلك الآمر المكلّف إذا أكّد الأمر.

قوله: «أنتم بعينه»، أي يعلم أحوالكم، ونواصيكم بيده، الناصيَة: مقدّم شعر الرأس، أي هو قادر عليكم قاهرٌ لكم، متمكّن من التصرّف فيكم، كالإنسان القابض على ناصية غيره.

وتقلّبكم في قبضته، أي تصرّفكم تحت حكمه، لو شاءَ أن يمنعَكم منعكم، فهو كالشيء في قَبْضَة الإنسان، إن شاء استدام القبض عليه، وإنْ شاء ترَكه.

ثم قال: إن أسررتُم أمراً علمه، وأن أظهرتموه كَتَبَه، ليس على أنّ الكِتَابة غيرُ العلم، بل هما شيء واحد، ولكنّ اللفظ مختَلِف.

ثم ذكر أنّ الملائكة موكّلَة بالمكلّف، وهذا هو نص الكتاب العزيز، وقد تقدّم القول في ذلك.

ثم انتقل إلى ذكْر الجنّة، والكلام يدلّ على أنها في السماء، وأنّ العرش فوقها.

ومعنى قوله: «اصطنعها لنفسه» إعظامُها وإجلالُها، كما قال لموسى: ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾[1]، ولأنه لما تعارفَ النّاس في تعظيم ما يصنعونه، أن يقولَ الواحدُ منهم لصاحبه: قد وهبتك هذه الدّار التي اصطنعتها لنفسي، أي أحكمتها، ولم أكن في بنائها متكلفاً بأن أبنيها لغيري، صحّ وحَسُن من البليغ الفصيح أن يستعيَر مثل ذلك فيما لم يصطنعه في الحقيقة لنفسه، وإنّما هو عظيم جليل عنده.

قوله: «ونورها بهجتُه»، هذا أيضاً مستعار، كأنّه لما كان إشراقُ نورها عظيماً جدًا نسبه إلى بهجة الباريّ، وليس هناك بهجة على الحقيقة، لأنّ البهجة حسن الخلقة، قال تعالى: ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾[2]، أي من كلّ صنف حسن.

---

(١) سورة طه، الآية: ٤١.

(٢) سورة قٓ، الآية: ٧.

قوله: «وَزُوّارُها ملائكتُه» قد ورد في هذا من الأخبار كثير جدًّا، ورفقاؤها: رسلُه، من قوله تعالى: ﴿وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا﴾(١).

ويوشِك، بكسر الشين، فعلٌ مستقبَل، ماضيه «أوشك»، أي أسرع.

ورِهقَه الأمر بالكسر: فاجأه.

ويُسَدّ عنهم باب التوبة، لأنه لا تقبل عند نزول الموت بالإنسان من حيث كان يفعلها خوفاً فقط، لا لقبح القبيح، قال تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ﴾(٢).

وإنما قال: في مثل ما سأل إليه الرجعة مَنْ كان قبلكم، كقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾(٣).

وبنو سبيل: أرباب طريق مسافرون. وأوذِنَ فلان بكذا: أُعْلِم. وآذنته: أعلمته.

وقد تقدّم لنا كلام بالغ في التقوى وماهيتها وتأكيد وصاة الخالق سبحانه والرسول عليه الصلاة والسلام بها.

ما جاء في التقوى من أخبار

روى المبرّد في الكامل أنّ رجلاً قال لعمر بن الخطاب: اتّقِ الله يا أمير المؤمنين، فقال له رجل: أتألِتُ على أمير المؤمنين! أي أتنتَقِصه!، فقال عمر: دَعْهُ، فلا خيرَ فيهم إذا لم يقولُوها، ولا خيرَ فينا إذا لم تُقَلْ لنا.

وكتب أبُو العتاهية إلى سَهْل بن صالح - وكان مقيماً بمكّة: أمّا بعد، فأنا أوصيك بتقوى الله الذي لا غَناء بك عن تقاته، وأتقدّم إليك عن الله، ونذكّرك مكرَ الله فيما دبّت به إليك ساعات الليل والنهار، فلا تُخدَعَنّ عن دينك، فإنّ ساعاتك وأوقاتك إن ظفرت بذلك منك، وجدتَ الله فيك أسرعَ مكراً، وأنفذ فيك أمراً، ووجدت ما مكرت به في غير ذات الله غير رادٍّ عنك يدَ الله، ولا مانع لك من أمر الله، ولعمري لقد ملأت عينك الفكر واضطربت في سمعك أصوات العبَر، ورأيت آثار نِعَم الله نسختْها آثارُ نِقَمِه حين استهزىء بأمره، وجُوهِر بمعاندته. ألا إنّ في حُكْم الله أنه مَنْ أكرمه الله، فاستهان بأمره، أهانه الله. السّعيد مَنْ وُعِظ بغيره، لا وعظك الله في نفسك! وجعل عظتك في غيرك، ولا جَعَل الدُّنيا عليك حسرة وندامة، برحمته!

---

(١) سورة النساء، الآية: ٦٩.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٨.
(٣) سورة المؤمنون، الآيتان: ٩٩، ١٠٠.

ومن كلام رسول الله ﷺ : «لا كرمَ كالتقوى، ولا مال أعوَد من العقل، ولا وحدة أوحش من العجب، ولا عقل كالتدبير، ولا قرين كحسْنِ الخُلق، ولا ميراثَ كالأدب، ولا فائدة كالتوفيق، ولا تجارَة كالعمل الصالح ولا ربحَ كثواب الله، ولا وَرَع كالوقوف عند الشبهة، ولا زهد كالزّهد في الحرام، ولا عِلْم كالتفكّر، ولا عبادة كأداء الفرائض، ولا إيمان كالحياء والصبر، ولا حَسَب كالتواضع، ولا شرف كالعلم، ولا مظاهرة أوفق من المشورة، فاحفظ الرّأس وما حوى، والبطن وما وعَى، واذكر الموت وطولَ البِلى».

الأصل: وَٱعْلَمُوا! أَنَّهُ لَيْسَ لِهَذَا ٱلْجِلْدِ الرَّقِيقِ صَبْرٌ عَلَى النَّارِ، فَارحَمُوا نُفُوسَكُمْ، فَإِنَّكُمْ قَدْ جَرَّبْتُمُوهَا فِي مَصَائِبِ الدُّنْيَا، فَرَأَيْتُمْ جَزَعَ أَحَدِكُمْ مِنَ الشَّوْكَةِ تُصِيبُهُ، وَٱلْعَثْرَةِ تُدْمِيهِ، وَالرَّمْضَاءِ تُحْرِقُهُ. فَكَيْفَ إِذَا كَانَ بَيْنَ طَابَقَيْنِ مِنْ نَارٍ، ضَجِيعَ حَجَرٍ، وَقَرِينَ شَيْطَانٍ!

أَعَلِمْتُمْ أَنَّ مَالِكاً إِذَا غَضِبَ عَلَى النَّارِ حَطَمَ بَعْضُهَا بَعْضاً لِغَضَبِهِ، وَإِذَا زَجَرَهَا تَوَثَّبَتْ بَيْنَ أَبْوَابِهَا جَزَعاً مِنْ زَجْرَتِهِ.

أَيُّها ٱلْيَفَنُ ٱلْكَبِيرُ، الَّذِي قَدْ لَهَزَهُ ٱلْقَتِيرُ، كَيْفَ أَنْتَ إِذَا ٱلْتَحَمَتْ أَطْوَاقُ النَّارِ بِعِظَامِ ٱلْأَعْنَاقِ، وَنَشِبَتِ ٱلْجَوَامِعُ، حَتَّى أَكَلَتْ لُحُومَ السَّوَاعِدِ!

فَاللهَ ٱللهَ مَعْشَرَ ٱلْعِبَادِ! وَأَنْتُمْ سَالِمُونَ فِي الصِّحَّةِ قَبْلَ السُّقْمِ، وَفِي ٱلْفُسْحَةِ قَبْلَ الضِّيقِ، فَاسْعَوْا فِي فَكَاكِ رِقَابِكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُغْلَقَ رَهَائِنُهَا.

أَسْهِرُوا عُيُونَكُمْ، وَأَضْمِرُوا بُطُونَكُمْ، وَٱسْتَعْمِلُوا أَقْدَامَكُمْ، وَأَنْفِقُوا أَمْوَالَكُمْ، وَخُذُوا مِنْ أَجْسَادِكُمْ فَجُودُوا بِهَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَلاَ تَبْخَلُوا بِهَا عَنْهَا، فَقَدْ قَالَ ٱللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِن تَنصُرُوا ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[1]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾[2].

فَلَمْ يَسْتَنْصِرْكُمْ مِنْ ذُلٍّ، وَلَمْ يَسْتَقْرِضْكُمْ مِنْ قُلٍّ، ٱسْتَنْصَرَكُمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ، وَٱسْتَقْرَضَكُمْ وَلَهُ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ، وَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً.

---

(١) سورة محمد، الآية: ٧.

(٢) سورة الحديد، الآية: ١١.

فَبادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيرَانِ اللهِ فِي دَارِهِ، رَافَقَ بِهِمْ رُسُلَهُ، وَأَزَارَهُمْ مَلاَئِكَتَهُ، وَأَكْرَمَ أَسْمَاعَهُمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيسَ نَارٍ أَبَداً، وَصَانَ أَجْسَادَهُمْ أَنْ تَلْقَى لُغُوباً وَنَصَباً: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾[1].

أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَٱللهُ المُسْتَعَانُ عَلَى نَفْسِي وَأَنْفُسِكُمْ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ!

الشرح: الرّمضاء: الأرض الشديدة الحرارة، والرَّمَض، بالتحريك: شدّة وقع الشمس على الرّمل وغيره، وقد رَمِضَ يومُنا بالكسر، يرمِض رَمَضاً، اشتدّ حَرُّه، وأرض رَمِضةُ الحجارة، ورمَضِتْ قدمُه من الرَّمْضاء: احترقت.

والطابَق، بالفتح: الآجرّة الكبيرة، وهو فارسيّ معرب.

وضجيع حَجَر: يومىء فيه إلى قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[2]، قيل: إنها حجارة الكبريت.

وقرين شيطان: يومىء فيه إلى قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾[3].

وحَطَم بعضُها بعضاً: كسره أو أكله، والحُطَمة من أسماء النّار؛ لأنّها تحطِم ما تَلْقَى، ومنه سُمّيَ الرَّجلُ الكثير الأكل: حُطَمة.

واليفَن: الشيخ الكبير، ولهزه: خالطه، ويقال له حينئذٍ: مَلْهوز، ثم أشمط، ثم أشيب، ولهزتُ القومَ: خالطتهم ودخلت بينهم.

والقتير: الشَّيْب، وأصله رؤوس المسامير في الدُّروع تسمَّى قتيراً.

والتحمت أطواق النار بالعظام: التفّتْ عليها، وانضمّت إليها، والتصقت بها.

والجوامع: جمع جامعة، وهي الغلّ لأنها تجمع اليدين إلى العنق.

ونَشِبت: علقَتْ. والسواعد: جمع ساعد، وهو الذراع.

و«في» من قوله: «في الصحة قبل السُّقْم»، متعلقة بالمحذوف الناصب لله، وهو اتّقوا، أي اتقوه سبحانه في زمان صحتكم، قبل أن ينزِل بكم السَّقَم، وفي فسحة أعماركم قبل أن تبدَّل بالضِّيق.

وفَكاك الرّقاب: بفتح الفاء: عتْقها قبل أن تغلَقَ رهائنها، يقال غَلِقَ الرهْن، بالكسر، إذا

(١) سورة الحديد، الآية: ٢١.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢٤.
(٣) سورة قٓ، الآية: ٢٧.

استحقه المرتهن بألاّ يفُكّه الراهن في الوقت المشروط، وكان ذلك من شرع الجاهليّة، فنهى عنه النبي ﷺ، وقال: «لا يغلَق الرهن»[1].

وخذوا من أجسادكم، أي أتعبُوها بالعبادة حتى تَنْحَل.

والقُلّ: القِلّة. والذُّل: الذِّلة.

وحسيس النّار: صوتها. واللّغوب: النَّصَب.

ونظير قوله ﷺ: «استقرَضَكُم وله خزائن السموات والأرض»، ما رواه المبرد في «الكامل» عن أبي عثمان المازنيّ، عن أبي زيد الأنصاريّ، قال: وقف علينا أعرابيّ في حَلْقة يونس النحويّ، فقال: الحمدُ لله كما هو أهله، وأعوذ بالله أن أذكُر به وأنساه، خرجنا من المدينة، مدينة الرسول ﷺ، ثلاثين رجُلاً ممّن أخرجته الحاجة، وحُمِل على المكروه، ولا يمرّضُون مرضاهم، ولا يدفنون ميّتهم، ولا ينتقلون من منزلٍ إلى منزلٍ وإن كرهوه، والله يا قوم لقد جُعْتُ حتى أكلْتُ النّوى المحرق، ولقد مشيت حتى انتعلتُ الدّم، وحتى خرج من قدمي بَخَص[2] ولحم كثير، أفلا رجلٌ يرحم ابن سبيل وفَلّ طريق، ونِضْوَ سَفَر! فإنّه لا قليل من الأجر، ولا غنَى عن ثواب الله، ولا عمل بعد الموت، وهو سبحانه يقول: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[3]، مَليٌ وفيٌ ماجد واجد، جواد لا يستقرض من عَوَز، ولكنه يبلُو الأخيار.

قال المازنيّ: فبلغني أنه لم يبرحْ حتى أخذ ستين ديناراً.

ومن كلام علي بن عبيدة الريحانيّ: الأيام مستودَعات الأعمال، ونعْم الأرضون هي لمن بذر فيها الخير والعمل الصالح!

وخطب الحجّاج، فقال: أيّها الناس، إنّكم أغراضُ حِمام وفُرَص هَلَكة. قد أنذركم القرآن، ونادى برحيلكم الجديدان[4]! ها إنّ لكم موعداً لا تؤخّر ساعتُه، ولا تُدْفَع هجمتُه، وكأنْ قد دلَفت إليكم نازلتُه، فتعلّق بكم رَيْبُ المنُون، وعلقَتْ بكم أمّ اللُّهَيْم الحيزبون[5]، فماذا هَيّأتُم للرّحيل؟ وماذا أعددتم للنّزيل؟ مَنْ لَمْ يأخذ أهبة الحذَر، نزل به مرهوب القَدَر!

---

(١) أخرجه ابن ماجه، كتاب: الأحكام، باب من شهر السلاح (٢٤٤١)، مالك كتاب الأقضية، باب: ما لا يجوز من غلق الرهن (١٤٣٧).

(٢) البَخَص: لحم القدم وأصول الأصابع، اللسان، مادة (بخص).

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٤٥.

(٤) الجديدان: الليل والنهار، وذلك لأنهما لا يليان أبداً. اللسان، مادة (جدد).

(٥) الحيزبون: العجوز. اللسان، مادة (حزب).

قلت: وقد شُغِف الناس في المواعظ بكلام كاتب محدث، يعرف بابن أبي الشخباء العسقلاني وأنا أورد ها هنا خطبة من مواعظه، هي أحسن ما وجدتُه له، ليعلَم الفرق بين الكلام الأصيل والمولّد:

أيها النّاس، فُكُّوا أنفسَكم من حَلَقات الآمال المتعبة، وخفّفُوا ظهوركم من الآصار المستحقبة[١]، ولا تسيمُوا أطماعكم في رياض الأماني المتشعّبة، ولا تُميلوا صَغْوَاكُم إلى زبارج[٢] الدنيا المحبّبة، فتظلّ أجسامكم في هشائمها عاملة نَصِبَة! أما علمتم أنّ طباعها على الغدر مركبّة، وأنّها لأعمار أهلها منتهبة، ولِمَا ساءهم منتظرة مرتقبة، في هَبّتها راجعة متعقّبة! فانضوا رَحِمكم الله ركائبَ الاعتبار مشرّقة ومغرّبة، وأجْرُوا خيول التفكّر مصعّدة ومصوّبة، هل تجدون إلا قصوراً على عروشها خَرِبة، وديارا معطشة من أهلها مجدبة! أين الأمم السّالفة المتشعّبة، والجبابرة الماضية المتغلّبة، والملوك المعظمة المرجّبة، أولوا الحَفَدة والحجبة، والزّخارف المعجبة، والجيوش الحرّارة اللّجبة والخيام الفضفاضة المطنّبة، والجياد الأعوجيّة المجنّبة، والمصاعب الشدقميّة المُصْحَبة، واللُّدان المثقّفَة المذربة، والماذية الحصينة المنتخبة، طرقت والله خيامهم غير منتهبة، وأزارتهم من الأسقام سيوفاً مُعْطبة، وسيّرت إليهم الأيامُ من نُوَبها كتائب مكتّبة، فأصبَحَتْ أظفار المنية من مُهَجهم قانية مختضِبة، وغدت أصوات النادبات عليهم مجلِبة، وأكلت لحومَهم هوامّ الأرض السَّغِبة. ثم إنهم مجموعون ليوم لا يُقبل فيه عُذْرٌ ولا معتبة، وتجازى كلُّ نفس بما كانت مكتسبة، فسعيدة مقرَّبة تجري من تحتها الأنهار مثوّبة، وشقيّة معذّبة في النار مكبكبة.

هذه أحسن خطبة خطبها هذا الكاتب، وهي كما تراها ظاهرة التكلّف، بيّنه التوليد، تخطب على نفسها، وإنّما ذكرتُ هذا، لأنّ كثيراً من أرباب الهوى يقولون: إنّ كثيراً من «نهج البلاغة» كلام محدَث، صنعه قومٌ من فُصحاء الشيعة، وربما عَزَوْا بعضه إلى الرضيّ أبي الحسن وغيره، وهؤلاء قوم أعمت العصبيّة أعينهم، فضلوا عن النهج الواضح وركبوا بُنيّات الطريق ضلالاً وقلة معرفة بأساليب الكلام، وأنا أوضح لك بكلام مختصر ما في هذا الخاطر من الغلط فأقول:

لا يخلو إما أن يكون كل «نهج البلاغة» مصنوعاً منحولاً، أو بعضه. والأوّل باطل بالضرورة لأنّا نعلم بالتواتر صحّة إسناد بعضه إلى أمير المؤمنين عليه السلام، وقد نقل المحدّثون

(١) الآصار: الأكسية التي ملؤوها من الكلأ وسدوها. والمستحقبة: كل ما حُمل من شيء من خلف. اللسان، مادة (أصر ـ حقب).

(٢) الزبرج: الذهب. اللسان، مادة (زبج).

كلُّهم أو جلّهم، والمؤرّخون كثيراً منه، وليسوا من الشيعة لينسَبُوا إلى غرض في ذلك. والثاني يدلّ على ما قلناه؛ لأن مَنْ قد أنِسَ بالكلام والخطَابة، وشَدَا طَرَفاً من علم البيان، وصار له ذوقٌ في هذا الباب لا بدّ أن يفرّق بين الكلام الركيك والفصيح، وبين الفصيح والأفصح، وبين الأصيل والمولّد، وإذا وقَف على كرّاسٍ واحد يتضمّن كلاماً لجماعة من الخطباء، أو لاثنين منهم فقط، فلا بدّ أن يفرّق بين الكلامين، ويميّز بين الطريقتين. ألا ترى أنّا مع معرفتنا بالشعر ونقده، لو تصفّحنا ديوان أبي تمام، فوجدناه قد كتب في أثنائه قصائد أو قصيدة واحدة لغيرِه، لعرفْنا بالذّوق مبايَنَتها لشعر أبي تمام نَفسه، وطريقتِه ومذهبه في القريض، ألا ترى أنّ العلماء بهذا الشأن حذفوا من شعره قصائد كثيرة منحولة إليه، لمباينتها لمذهبه في الشعر، وكذلك حَذَفُوا من شِعْر أبي نُوَاس شيئاً كثيراً، لِمَا ظهر لهم أنه ليس من ألفاظه، ولا من شعره، وكذلك غيرُهما من الشعراء، ولم يعتمدوا في ذلك إلا عَلَى الذّوْق خاصة.

وأنت إذا تأملت «نهج البلاغة» وجدته كلّه ماءً واحداً، ونَفَساً واحداً، وأسلوباً واحداً، كالجسم البَسيط الذي ليس بعضٌ من أبعاضه مخالِفاً لباقي الأبعاض في الماهيّة، وكالقرآن العزيز، أوّله كأوسطه، وأوسطه كآخره، وكلّ سورة منه، وكل آية مماثلة في المأخذ والمذهب والفنّ والطريق والنظم لباقِي الآيات والسُّور، ولو كان بعض «نهج البلاغة» منحولاً وبعضه صحيحاً، لم يكن ذلك كذلك، فقد ظهر لك بهذا البرهان الواضح ضلالُ مَنْ زعم أنّ هذا الكتاب أو بعضَه منحولٌ إلى أمير المؤمنين عليه السلام.

واعلم أنّ قائل هذا القول يطرُق على نفسه ما لا قِبَلَ له به؛ لأنّا متى فَتَحْنا هذا الباب، وسلّطنا الشكوك على أنفسنا في هذا النَّحو، لم نثِقْ بصحّة كلام منقول عن رسول الله صلى الله عليه وآله أبداً، وساغ لطاعنٍ أن يطعن ويقول: هذا الخبر منحول، وهذا الكلام مصنوع، وكذلك ما نقِل عن أبي بكر وعمر من الكَلام والخُطب والمواعظ والأدب وغير ذلك، وكلّ أمر جعله هذا الطاعن مستنداً له فيما يرويه عن النبي صلى الله عليه وآله، والأئمة الراشدين، والصحابة والتابعين، والشعراء والمترسّلين، والخطباء، فلناصِري أميرِ المؤمنين عليه السلام أن يستندوا إلى مثله فيما يروونه عنه من «نهج البلاغة» وغيره، وهذا واضح.

---

١٨٥ - ومن كلام له عليه السلام قاله للبُرج بن مُسْهِر الطائيّ، وقد قال له بحيث يسمعه: «لا حكم إلا لله» وكان من الخوارج

الأصل: اسكُتْ قَبَحَكَ ٱللهُ يَا أَثْرَمُ! فَوَاللهِ لَقَدْ ظَهَرَ ٱلْحَقُّ فَكُنْتَ فِيهِ ضَئِيلاً شَخْصُكَ، خَفِيًّا صَوْتُكَ، حَتَّى إِذَا نَعَرَ ٱلْبَاطِلُ، نَجَمْتَ نُجُومَ قَرْنِ ٱلْمَاعِزِ.

الشرح: البرج بن مُسْهِر - بضم الميم وكسر الهاء - بن الجُلاس بن وهب بن قيس بن عبيد بن طريف بن مالك بن جدعاء بن ذهل بن رومان بن جندَب بن خارجة بن سعد بن قطرة بن طيّ بن داود بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. شاعر مشهور من شعراء الخوارج، نادى بشعارهم بحيث يسمعه أمير المؤمنين عليه السلام، فزجره.

وقَبَحك الله، لفظة معناها كَسَرك، يقال: قَبَحْتُ الجوْزة، أي كسرتها، وقيل: قَبَحه: نحّاه عن الخير. وكان البرجُ ساقطَ الثنيّة، فأهانه بأن دعاه به، كما يُهان الأعور بأن يقال له: يا أعور.

والضئيل: الدقيقَ الخفيّ، ضَؤُل الرجل، بالضمّ ضآلة: نَحُفَ، وضَؤُل رأيه: صَغُرَ، ورجل متضائل، أي شَخْت، وكذلك: «ضُؤَالَة».

ونَعر الباطل: صاح، والمراد أهلُ الباطل، ونَعَر فلان في الفتنة: نهض فيها.

ونجَم: طلع، أي طلع بلا شرف ولا شجاعةٍ ولا قدم، بل على غفلة، كما ينبت قرن الماعز. وهذا من باب البديع، وهو أنْ يشبّه الأمر يراد إهانته بالمهين، ويشبّه الأمر يراد إعظامه بالعظيم، ولو كان قد تكلّم في شأن ناجمٍ يريد تعظيمه، لقال: نجم نجوم الكوكب من تحت الغَمام، نجومَ نَوْر الربيع من الأكمام، ونحو ذلك.

---

١٨٦ - ومن خطبة له عليه السلام في وصف المتقين

الأصل: رُوِي أنّ صاحباً لأمير المؤمنين عليه السلام يقال له همَّامٌ، كان رجلاً عابداً، فقال له: يا أمير المؤمنين: صِفْ لي المُتَّقين حتى كأنّي أنظر إليهم، فَتَثَاقَلَ عليه السلام عن جوابِهِ، ثم قال: يا همَّامُ اتق ٱلله وأحسن: فـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[1].

فلم يقنعْ هَمَّامٌ بهذا القول حتى عزم عليه، فحمِد الله وأثنى عليه وصلّى على النبي صلى الله عليه وآله.

ثم قال عليه السلام: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خَلَقَ ٱلْخَلْقَ - حَيْثُ خَلَقَهُمْ - غَنِيًّا عَنْ طَاعَتِهِمْ، آمِناً مِنْ مَعْصِيَتِهِمْ، لأَنَّهُ لاَ تَضُرُّهُ مَعْصِيَةُ مَنْ عَصَاهُ، وَلاَ تَنْفَعَهُ طَاعَةُ مَنْ أَطَاعَهُ،

---

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٨.

فَقَسَمَ بَيْنَهُمْ مَعَايِشَهُمْ، وَوَضَعَهُمْ مِنَ الدُّنْيَا مَوَاضِعَهُمْ، فَالمُتَّقُونَ فِيهَا هُمُ أَهْلُ ٱلْفَضَائِلِ، مَنْطِقُهُمْ الصَّوَابُ، وَمَلْبَسُهُمْ الاقْتِصَادُ، وَمَشْيُهُم التَّوَاضُعُ.

غَضُّوا أَبْصَارَهُمْ عَمَّا حَرَّمَ ٱللهُ عَلَيْهِمْ، وَوَقَفُوا أَسْمَاعَهُمْ عَلَى ٱلْعِلْمِ النَّافِعِ لَهُمْ. نُزِّلَتْ أَنْفُسُهُمْ مِنْهُمْ فِي ٱلْبَلاَءِ، كَالَّذِي نُزِّلَتْ فِي ٱلرَّخَاءِ، لَوْلاَ ٱلْأَجَلُ ٱلَّذِي كَتَبَ ٱللهُ لَهُمْ لَمْ تَسْتَقِرَّ أَرْوَاحُهمْ فِي أَجْسَادِهِمْ طَرْفَةَ عَيْنٍ، شَوْقاً إِلَى الثَّوَابِ، وَخَوْفاً مِنَ ٱلْعِقَابِ.

عَظُمَ ٱلْخَالِقُ فِي أَنْفُسِهِمْ فَصَغُرَ مَا دُونَهُ فِي أَعْيُنِهِمْ، فَهُمْ وَٱلْجَنَّةُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُنَعَّمُونَ، وَهُمْ وَالنَّارُ كَمَنْ قَدْ رَآهَا، فَهُمْ فِيهَا مُعَذَّبُونَ. قُلُوبُهُمْ مَحْزُونَةٌ، وَشُرُورُهُمْ مَأْمُونَةٌ، وَأَجْسَادُهُمْ نَحِيفَةٌ، وَحَاجَاتُهُمْ خَفِيفَةٌ، وَأَنْفُسُهُمْ عَفِيفَةٌ.

صَبَرُوا أَيَّاماً قَصِيرَةً، أَعْقَبَتْهُمْ رَاحَةً طَوِيلَةً. تِجَارَةٌ مُرْبِحَةٌ، يَسَّرَهَا لَهُمْ رَبُّهُمْ. أَرَادَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يُرِيدُوهَا، وَأَسَرَتْهُمْ فَفَدَوْا أَنْفُسَهُمْ مِنْهَا.

أَمَّا ٱللَّيْلَ فَصَافُّونَ أَقْدَامَهُمْ، تَالِينَ لِأَجْزَاءِ ٱلْقُرْآنِ يُرَتِّلُونَهَا تَرْتِيلاً، يَحْزَنُونَ بِهِ أَنْفُسَهُمْ، وَيَسْتَثِيرُونَ بِهِ دَوَاءَ دَائِهِمْ، فَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَشْوِيقٌ رَكَنُوا إِلَيْهَا طَمَعاً، وَتَطَلَّعَتْ نُفُوسهمْ إِلَيْهَا شَوْقاً، وَظَنُّوا أَنَّهَا نُصب أَعْيُنِهِمْ، وَإِذَا مَرُّوا بِآيَةٍ فِيهَا تَخْوِيفٌ، أَصْغَوْا إِلَيْهَا مَسَامِعَ قُلُوبِهِمْ، وَظَنُّوا أَنَّ زَفِيرَ جهَنَّمَ وَشَهِيقَهَا فِي أُصُولِ آذَانِهِمْ، فَهُمْ حَانُونَ عَلَى أَوْسَاطِهِمْ، مُفْتَرِشُونَ لِجِبَاهِهِمْ وَأَكُفِّهِمْ وَرُكَبِهِمْ، وَأَطْرَافِ أَقْدَامِهِمْ، يَطْلُبُونَ إِلَى ٱللهِ تَعَالَى فِي فَكَاكِ رِقَابِهِمْ.

وَأَمَّا النَّهَار فَحُلَمَاءُ عُلَمَاءُ، أَبْرَارٌ أَتْقِيَاءُ، قَدْ بَرَاهُمُ ٱلْخَوْفُ بَرْيَ ٱلْقِدَاحِ، يَنْظُرُ إِلَيْهِمُ النَّاظِرُ فَيَحْسَبُهُمْ مَرْضَى، وَمَا بِالْقَوْمِ مِنْ مَرَضٍ، وَيَقُولُ: لَقَدْ خُولِطُوا، وَلَقَدْ خَالَطَهُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ، لاَ يَرْضَوْنَ مِنْ أَعْمَالِهِم ٱلْقَلِيلَ، وَلاَ يَسْتَكْثِرُونَ ٱلْكَثِيرَ، فَهُمْ لِأَنْفُسِهِمْ مُتَّهِمُونَ، وَمِنْ أَعْمَالِهِمْ مُشْفِقُونَ، إِذَ زُكِّيَ أَحَدٌ مِنْهُمْ خَافَ مِمَّا يُقَالُ لَهُ فَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْ غَيْرِي، وَرَبِّي أَعْلَمُ بِي مِنِّي بِنَفْسِي!

ٱللَّهُمَّ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا يَقُولُونَ، وَٱجْعَلْنِي أَفْضَلَ مِمَّا يَظُنُّونَ، وَٱغْفِرْ لِي مَا لاَ يَعْلَمُونَ!

الشرح: همّام المذكور في هذه الخطبة: هو همّام بن شُريح بن يَزيد بن مرّة بن عمرو بن جَابر بن يحيى بن الأصهب بن كَعْب بن الحارث بن سعد بن عمرو بن ذُهْل بن مُرّان بن صيفيّ بن سعد العشيرة.

وكان همّام هذا من شيعة أمير المؤمنين عليه السلام وأوليائه، وكان ناسكاً عابداً، قال له: يا أميرَ المؤمنين، صِفْ لي المتّقين حتى أصيرَ بوصفك إيّاهم، كالنّاظر إليهم.

فتثاقل عن جوابه، أي أبطأ. فعزم عليه، أي أقسم عليه، وتقول لمن يكرّر عليكَ الطّلب والسّؤال: قد عزم عليّ، أي أصرّ وقَطع، وكذلك تقول في الأمر تُريد فعلَه وتَقْطَع عليه: عزمت عَزْماً وعَزْماناً وعَزِيمة وعزيماً.

فإن قلت: كيف جَازَ له عليه السلام أن يتثاقَل عن جواب المسترشِد؟

قلت: يجوز أن يكون تَثَاقل عن جوابه، لأنّه علم أنّ المصلحة في تأخير الجواب، ولعلّه كان حضر المجلس مَنْ لا يحِبّ أن يجيبَ وهو حاضر، فلمّا انصرف أجاب، ولعلّه رأى أنّ تثاقلَه عن الجواب يَشدّ تشوُّقَ همّام إلى سماعه، فيكون أنجعَ في موعظته، ولعلّه كان من باب تأخير البيان إلى وقت الحاجة، لا من باب تأخير البيان عَنْ وقت الحاجة، ولعلّه تثاقَل عن الجواب ليرتّب المعانيَ الّتي خطرت له في ألفاظ مناسبة لها، ثم ينطق بها كما يفعَلُه المتروّي في الخطبة والقريض.

فإن قلت: فما معنى إجابته له أولاً بقوله: يا همّام، اتّقِ الله وَأَحْسِنْ فَـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾[1]؟ وأيّ جواب في هذا عن سؤال همام؟

قلت: كأنّه لم ير في بادىء الحال شرح صفات المتقين على التفصيل، فقال لهمام: ماهيّة التقوى معلومة في الجملة، فاتّق الله وأحسن، فإنّ الله قد وَعَد في كتابه أن يكون وليًّا وناصراً لأهل التقوى والإحسان، وهذا كما يقول لك قائل: ما صفاتُ الله الّذي أعْبُده أنا والناس؟ فتقول له: لا عَلَيْك ألا تعرف صفاته مُفَصّلة، بعد أن تعلَم أنّه خالق العالم، وأنّه واحدٌ لا شريك له! فلما أبى همّام إلا الخوض فيما سأله على وجه التّفْصيل، قال له: إنّ الله تعالى خَلَق الخلق حين خلقهم، ويروى: «حيث خلقهم» وهو غَنِيٌّ عن طاعتهم، لأنّه ليس بجسمٍ فيستضرّ بأمرٍ أو ينتفع به.

وقَسَم بين الخلق معايشهم، كما قال سبحانه: ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم مَّعِيشَتَهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۚ﴾[2].

وفي قوله: «وضعهم مواضعهم» معنى قوله: ﴿وَرَفَعۡنَا بَعۡضَهُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَتَّخِذَ بَعۡضُهُم بَعۡضٗا سُخۡرِيّٗاۗ﴾[3]، فكأنّه عليه السلام أخذ الألفاظ، فألغاها وأتى بمعناها.

فلما فرغ من هذه المقدّمة شَرَع في ذكر صفات المتقين، فقال: إنّهم أهلُ الفضائل. ثم بَيّن ما هذه الفضائل، فقال: «منطقهم الصواب».

(١) سورة النحل، الآية: ١٢٨. (٢) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.
(٣) سورة الزخرف، الآية: ٣٢.

فإن قلت: أيّ فائدة في تقديم تلك المقدّمة، وهي كون الباريء سبحانه غنياً لا تضرّه المعصية، ولا تنفعه الطاعة!

قلت: لأنّه لما تضمّنت الخطبة مدحَ الله تعالى للمتقين وما أعدّه لهم من الثواب، وذمّه للعاصين وما أعدّه لهم من العقاب العظيم، فربّما يتوهّم متوهّم أنّ الله تعالى ما رغّب في الطّاعة هذا الترغيب البالغ، وخوّف من المعصية هذا التخويف البالغ إلاّ وهو منتفع بالأولَى، مستضرٌّ بالثانية، فقدّم عليه السلام تلك المقدّمة نفياً لهذا الوهم.

في فضل الصمت وآفات اللسان

واعلم أنّ القول في خَطَر الكلام وفضْل الصّمت وفضْل الاقتصار في المنطق وسيعٌ جدًّا، وقد ذكرنا منه طرَفاً فيما تقدّم، ونذكر الآن منه طرفاً آخر.

قال النبي ﷺ: «مَنْ صَمَت نجا»[١].

وقال أيضاً: «الصمت حُكْم وقليل فاعله»[٢].

وقال له ﷺ بعضُ أصحابه: أخبرني عن الإسلام بأمرٍ لا أسأل عنه أحداً بعدك، فقال: «قل: آمنت بالله ثم استقم» قال: فما أتقي؟ فأومأ بيده إلى لسانه[٣].

وقال له ﷺ عُقبة بن عامر: يا رسولَ الله، ما النّجاة؟ قال: «املِكْ عليكَ لسانك، وابْكِ على خطيئتك، وليسعْك بيتُك»[٤].

وَرَوَى سهل بن سعد الساعديّ، عنه ﷺ: «من يتوكَّلْ لي بما بين لَحْيَيْه ورِجْلَيْه أتوكّل له بالجنّة»[٥].

وقال: «مَنْ وُقِيَ شَرَّ قَبْقَبِه وَذَبذَبِهِ ولَقْلَقِه فَقَدْ وُقِيَ»[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: صفة القيامة والرقائق، باب: منه، (٢٥٠١)، وأحمد في «مسنده» (٦٤٤٥)، الدارمي في كتاب: الرقائق، باب: في الصمت (٢٧١٣).

(٢) أخرجه الشهاب في «مسنده» (٢٤٠)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٥٠٢٦)، وأحمد في «الزهد» (٤٦).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٤٩٩٠)، وابن حبان في «صحيحه» (٩٤٣)، والنسائي في «السنن الكبرى» (١١٤٨٩)، والطيالسي في «مسنده» (١٢٣١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٦٣٩٨).

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) أخرج بنحوه الحاكم في «مستدركه» (٨٠٥٨)، وابن ماجه في «صحيحه» (٥٧٠٣)، والطبراني في «الأوسط» (٤٩٨١).

(٦) تقدم تخريجه.

وروى سَعِيد بن جُبَيْر مرفوعاً: «إذا أصبَح ابنُ آدم أصبَحَتِ الأعضاء كلّها تشكو اللّسان، تقول: أي بني آدم، اتّق الله فينا، فإنّك إن استَقَمْتَ استقمنا، وإن اعوجَجْتَ اعوجَجْنا»[١].

وقد رُوِي أنّ عمر رأى أبا بكر وهو يمدّ لسانه، فقال: ما تصنع؟ قال: هذا الّذي أوردني الموارِدَ، إنّ رسول الله ﷺ، قال: «ليس شيء في الجسد إلاّ يشكو إلى الله تعالى اللّسان عَلَى حِدَّته»[٢].

وسُمِعَ ابنُ مسعودٍ يُلَبّي عَلَى الصَّفَا، ويقول: يا لسانُ، قلْ خيراً تَغْنَم، أو اصمت تَسْلَم من قبل أن تندَم. فقيل له: يا أبا عبدِ الرّحمن، أهذا شيء سمعتَه، أم تقوله مِنْ تلقاءِ نَفْسِك؟ قال: بل سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «أكثر خطايا ابنِ آدم من لسانه»[٣].

وروى الحسنُ مرفوعاً: «رحم الله عبداً تكلّم فغنِم، أو سكت فَسَلِم»[٤].

وقالت التلامذةُ لعيسى عليه السلام: دلَّنا على عملٍ ندخل به الجنة، قال: لا تنطقوا أبداً، قالوا: لا نستطيع ذلك، قال: فلا تنطقوا إلاّ بخير.

وقال النّبي ﷺ: «إنّ الله عند لسان كلّ قائل، فاتّقى الله امرؤ علم ما يقول»[٥].

وكان يقول: لا شيء أحقُّ بطولِ سجنٍ من لسان[٦]. وكان يقال: لسانك سَبُع، إن أطلقتَه أكَلك.

في حكمة آل داود: حقيقٌ على العاقل أن يكون عارفاً بزمانه، حافظاً للسانه، مقبِلاً على شأن. وكان يقال: مَنْ عَلِم أنّ كلامَه من عمله، أقلّ كلامَه فيما لا ينفعه.

وقال محمد بن واسع: حفْظُ اللّسان أشدّ على النّاس من حفظ الدينار والدرهم.

اجتمع أربعةُ حكماء: من الرّوم، والفرس، والهند، والصين، فقال أحدهم: أنا أندمُ على ما قلتُ ولا أندم على ما لم أقل: وقال الآخر: إذا تكلّمتُ بالكلمة ملكْتني، ولم أمْلِكها، وإذا لم أتكلّم ملكتُها ولم تملِكْني. وقال الآخر: عجبْتُ للمتكلّم، إن رجعتْ عليه كلمته ضَرّتْه، وإن لم ترجع لم تنفعه، وقال الرّابع: أنا على ردّ ما لم أقل أقدَرُ منّي على ردّ ما قلت.

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: الزهد، باب: ما جاء في حفظ اللسان (٢٤٠٧)، وأحمد في «مسنده» (١١٤٩٨).

(٢) أخرجه الديلمي في «مسنده» (٥١٧٢).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٣٣).

(٤) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٩٣٤)، والشهاب في «مسنده» (٥٨٢)، والديلمي في «مسنده» (٣٢٠٤).

(٥) أخرجه أحمد بن حنبل في «الزهد» (٣٢).

(٦) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٤٢٢٠).

واعلم أنّ آفاتِ اللّسان كثيرة:

فمنها الكلام فيما لا يعنيك، وهو أهوَنُ آفاتِ اللّسان، ومع ذلك فهو عَيبٌ، قال النبيّ ﷺ: «مِنْ حُسْن إسلام المرء تركُه ما لا يعنيه»[١].

وروي أنّه عليه السلام مَرّ بشهيد يوم أحُد، فقال أصحابه: هنيئاً له الجنّة! قال: وما يدريكم لعلّه كانَ يتكلّم فيما لا يعنيه[٢]!

وقال ابنُ عباس: خمسٌ هي أحسنُ وأنفعُ من حُمْرِ النَّعم: لا تتكلّمْ فيما لا يعنيك، فإنّه فضل لا آمن عليه الوِزْر. ولا تتكلّم فيما يعنيك حتى تجدَ له موضعاً، فربّ متكلّم في أمر يعنيه قد وضعه في غير موضعه فأساء. ولا تُمَارِ حليماً ولا سفيهاً، فإنّ الحليم يَقْلِيكَ، والسفيه يُؤذيك. واذكر أخاك إذا تغيّب عنك بما تحبّ أن يذكرك به، وأعفه عَمّا تحبّ أن يُعْفيَك عنه. واعمل عمل رجلٍ يرَى أنّه مجازًى بالإحسان، مأخوذ بالجرائم.

ومنها فضولُ الكلام وكثرته، وتركُ الاقتصار، وكان يقال: فضول المنطق وزيادته نَقْص في العقل، وهما ضدّان متنافيان، كلّما زاد أحدُهما نقص الآخر.

وقال عبدُ الله بن مسعود: إيّاكُمْ وفضول الكلام، حَسْبُ امرئٍ ما بلغ به حاجتَه.

وكان يقال: مَنْ كثر كلامُه كثير سقطُه.

وقال الحسن: فضولُ الكلام كفضول المال، كلاهما مهلِك.

ومنها الخوض في الباطل، والحديث فيما لا يحلّ، كحديث النِّساء ومجالس الخمر ومقامات الفُسّاق، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ﴾[٣].

ومنها المِراءُ والجِدال، قال عليه السلام: «دَعِ المِراءُ وإن كنت محقًّا»[٤].

وقال مالك بن أنس: المِراءُ يقسّي القلب، ويورّث الضَّغائن.

وقال سُفيان الثوريّ: لو خالفتُ أخي في رُمّانة فقال: حُلْوة، وقلت: حامضة، لَسُعِيَ بي إلى السلطان.

---

(١) أخرجه الترمذي كتاب: الزهد، باب: فيمن تكلم بكلمة يضحك بها الناس (٢٣١٧)، وابن ماجه، كتاب: الفتن، باب: صفة أمة محمد ﷺ (٣٩٧٦).
(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٨٣٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٤٠١٧).
(٣) سورة المدثر، الآية: ٤٥.
(٤) أخرجه الدارمي في سننه بما معناه: ١/ ٩١.

وكان يقال: صافِ مَنْ شئت ثم أغضِبْه بالجدال والمِراء، فليْرمينّك بداهيةٍ تمنعُك العيش.

وقيل لميْمون بن مِهْران: مالك لا تفارق أخاً لك عن قِلًى؟ قال: لأنّي لا أشارِيه، ولا أمارِيه.

ومنها التقعّر في الكلام بالتشدّد، والتكلّف في الألفاظ، قال النبيّ ﷺ: «أبغضكم إليّ، وأبعدُكم منّي مجالسَ يوم القيامة الثّرثارون المتفيْهقون المتشدّقون»[(١)].

وقال ﷺ: «هلك المتنطّعون....»[(٢)]، ثلاث مرات، والتنطّع: هو التعمقّ والاستقصاء.

وقال عمر: إن شَقَاشِقَ الكلام من شقاشق الشيطان.

ومنها الفُحْش والسبّ والبَذاء قال النّبي ﷺ: «إيّاكم والفُحْش، فإنّ الله لا يحبّ الفحش، ولا يرضى الفُحش»[(٣)].

وقال ﷺ: «ليس المؤمِنُ بالطّعان، ولا باللعان، ولا بالسّباب، ولا البذيء»[(٤)].

وقال ﷺ: «لو كان الفُحْشُ رجلاً لكان رجل سوء»[(٥)].

ومنها المُزاح الخارج عن قانون الشريعة، وكان يقال: مَنْ مزح استُخِفَّ به.

وكان يقال: المُزاح فحل لا ينتِج إلا الشرّ.

ومنها الوعد الكاذب، وقد قال النبي ﷺ: «العِدَة دَيْن»[(٣)]، وقد أثنى الله سبحانه على إسماعيل، فقال: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ﴾[(٦)]، وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ﴾[(٧)].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في معالي الأخلاق (٢٠١٨)، وأحمد في «مسنده» (١٧٢٧٨).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب: العلم، باب: هلك المتنطعون (٢٦٧٠)، وأبو داود، كتاب: السنة، باب: في لزوم السنة (٤٦٠٨).

(٣) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٤٥١).

(٤) أخرجه الترمذي، كتاب: البر والصلة، باب: ما جاء في اللعنة (١٩٧٧)، وأحمد في «مسنده» (٣٨٢٩).

(٥) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٥١٣)، والصغير (٤١٩)، والشهاب في «مسنده» (٧).

(٦) سورة مريم، الآية: ٥٤. (٧) سورة المائدة، الآية: ١.

ومنها الكذب في القول واليمين، والأمر فيهما مشهور.

ومنها الغِيبَة، وقد تقدّم القول فيها.

قوله عليه السلام: «وملبسهم الاقتصاد»، أي لبس بالثمين جِدًا، ولا بالحقير جدًا، كالخِرَق التي تُؤخَذُ من عَلَى المزابل، ولكنّه أمرٌ بين أمرين، وكان عليه السلام يلبس الكَرَابيسَ، وهو الخام الغليظ، وكذلك كان عمر رضي الله عنه. وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يَلْبَسُ اللَّيِّنَ تارةً، والخشِنَ أخرى[1].

قوله عليه السلام: «ومشْيُهم التّواضع»، تقديره: وصِفةُ مشيهم التواضع، فحذف المضاف، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾[2].

رأى محمد بن واسع ابناً له يمشي، وهو يتبختَرُ ويميس في مِشْيتِهِ، فصاح به، فأقبل، فقال له: وَيلك! لو عرفتَ نفسك لقَصَدْت في مَشْيك، أمّا أُمّكَ فأمَةٌ ابتعتُها بمائة درهم وأما أبوك فلا أكثر الله في الناس من أمثالِه!

والأصل في هذا الباب، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾[3].

وقوله: «غَضُّوا أبصارهم» أي خَفَضُوها وغَمَضُوها، وغضضت طرفي عن كذا: احتملت مكروهه.

وقوله: «وقفوا أسماعهم على العِلم النافع لهم» أي لم يشغَلُوا سمعَهم بشيء غير العلوم النافعة، أي لم يشتغلوا بسماع شِعْرٍ ولا غناء ولا أحاديث أهل الدنيا.

قوله: «نزلت أنفُسهم منهم في البَلاَء، كالَّذي نزلت في الرخاء»، يعني أنّهم قد طابوا نفساً في البلاء والشدَّة كطيب أنفسهم بأحوالهم في الرّخاء والنعمة، وذلك لقلّة مبالاتهم بشدائد الدنيا ومصائبها، وتقدير الكلام من جهة الإعراب: نَزَلَتْ أنفُسهم منهم في حالِ البلاء نزولاً كالنُّزُول الذي نزلته منهم في حال الرَّخاء، فموضع «كالذي» نصب؛ لأنه صفة مصدر محذوف، والموصول قد حذف العائد إليه، وهو الهاء في «نزلته» كقولك: ضربت الذي ضربت، أي ضربت الذي ضربته.

ثم قال عليه السلام: إنّهم من شدّة شوقهم إلى الجنة، ومن شدة خوفهم من النار، تكاد أرواحُهم أن تفارق أجسادَهم، لولا أنّ الله تعالى ضرب لهم آجالاً ينتهون إليها.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٤١/ ١٤٨.

(٢) سورة لقمان، الآية: ١٩.

(٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٧.

ثم ذكر أنّ الخالِقَ لمّا عظُم في أعينهم استصغروا كلَّ شيء دونه، وصاروا لشدَّة يقينهم ومكاشفتهم، كمن رأى الجنّة فهو يتنعّم فيها، وكمنْ رأى النار وهو يعذَّب فيها، ولا ريبَ أنّ من يشاهد هاتيْن الحالتين، يكون على قَدَم عظيمة من العبادة والخوف والرجاء، وهذا مقام جليل، ومثله عليه السلام في حق نفسه: «لو كُشِفَ الغِطاء ما ازددتُ يقيناً». والواو في «والجنة» واو «مع»، وقد روي بالعطف بالرفع على أنه معطوف على «هم»، والأوّل أحسن.

ثم وصفهم بحزن القلوب، ونحافة الأجسام، وعفّة الأنفس وخفّة الحوائج، وأنّ شرورهم مأمونة على الناس، وأنهم صَبَرُوا صبراً يسيراً أعقبهم نعيماً طويلاً.

ثم ابتدأهم فقال: تجارة مربحة، أي تجارتهم تجارة مربحة، فحذف المبتدأ، وروي: «تجارةً مربحةً»، بالنصب على أنه مصدر محذوف الفعل.

قوله: «أمّا الليلَ» بالنصب على الظرفية، وروي «أمّا اللّيلُ» على الابتداء.

قوله: «تالين»، منصوب على أنّه حال، إمّا من الضمير المرفوع بالفاعلية في «صافّون» أو من الضّمير المجرور بالإضافة في: «أقدامهم».

والترتيل: التبيين والإيضاح، وهو ضدّ الإسراع والعَجَل ويروى: «يرتلّونه» على أنّ الضمير يعود إلى القرآن، والرواية الأولى يعود الضمير فيها إلى أجزاء القرآن.

قوله: «يحزنون به أنفسهم»، أي يستجلبون لها الحُزْن به، ويستثيرون به دواء دائهم، إشارة إلى البكاء، فإنه دواء داء الحزين، قال الشاعر:

فَقُلْتُ لَهَا إنَّ ٱلْبُكَاء لَرَاحَةٌ   بِه يشتفي من ظنّ أنْ لا تلاقِيَا

وقال آخر:

شَجَاكَ مِنْ ليلتك الطُّولُ   فالدّمْعُ من عينيْك مَسْدُولُ
وهو إذا أنتَ تأمّلْتَهُ   حُزْنٌ على الخدَّين مَحْلولُ

ثم ذكر أنّهم إذا مَرُّوا بآية فيها ذكر الثواب مالوا إليها، واطمأنّوا بها، طمعاً في نيله، وتطلَّعت أنفسُهم إليها شَوْقاً، أي اشرأبّت.

«ونصبَ أعينهم» منصوب على الظرفية، وروي بالرفع، على أنه خبر إنّ، والظن ها هنا يمكن أن يكون على حقيقته، ويمكن أن يكون بمعنى العلم، كقوله تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ﴾[1].

وأصغى إلى الكلام: مال إليه بسمعه، وزفيرُ النّار: صوتها.

---

(١) سورة المطففين، الآية: ٤.

وقد جاء في فضل قراءة القرآن شيء كثير، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ قرأ القرآن ثم رأى أنّ أحداً أوتي أفضلَ ممّا أوتي فقد استصغر ما عظّمه الله»[١].

وقال ﷺ: «لو كان القرآن في إهاب ما مسّته النار»[٢].

وقال: «أفضلُ عبادة أمّتي قراءة القرآن»[٣].

وقال: «أهلُ القرآن أهل الله وخاصّته»[٤].

وقال: «إنّ هذه القلوبَ تصْدأ كما يصدأ الحديد»، قيل: فما جِلاؤها؟ قال: «تلاوة القرآن وذكر الموت»[٥].

وقال ﷺ: «إنّ الله سبحانه لَأشدّ أَذَناً إلى قارىء القرآن من صاحب القينة إلى قَيْنته»[٦].

وقال الحسن رحمه الله: ما دون القرآن من غنًى، ولا بعد القرآن من فاقة.

ثم ذكر عليه السلام صورة صلاتهم وركوعهم، فقال: «حانُون على أوْسَاطهم»، حَنَيْتُ العُود: عَطَفته، يصف هيئة ركوعهم وانحنائهم في الصّلاة.

مفترشُون لجباههم: باسطون لها على الأرض.

ثم ذكر الأعضاء السّبعة التي مباشرتُها بالأرضِ فروضٌ في الصلاة، وهي: الجبهة، والكفّان، والرّكبتان، والقَدَمان.

قوله عليه السلام: «يطلُبون إلى الله»، أي يسألونه، قال: طلبتُ إليك في كذا، أي سألتُك، والكلام على الحقيقة، مقدَّرٌ فيه حال محذوفة يتعلّق بها حرف الجرّ، أي يطلبون سائلين إلى الله في فكاك رقابهم، لأنّ «طلب» لا يتعدّى بحرف الجرّ.

---

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٥٩٠١)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٧٤٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٧٠٠).
(٣) أخرجه الشهاب في «مسنده» (١٢٨٤)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٣/ ٢٥٥).
(٤) أخرجه ابن ماجه، كتاب: المقدمة، باب: فضل من تعلم القرآن وعلمه (٢١٥)، وأحمد في «مسنده» (١١٨٧٠).
(٥) أخرجه ابن سلامة في مسند الشهاب رقم: ١١٧٧. وأخرجه ابن منظور في لسان العرب: ١/ ١٠٩.
(٦) أخرجه ابن ماجه، كتاب: إقامة الصلاة، باب: ما جاء في الصلاة على الجنائز في المسجد (١٣٤٠)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٤٢٩).

ثم لما فرغ من ذكر الليل، قال: «وأما النّهار فحلماء، علماء، أبراراً أتقياء»، هذه الصّفات هي التي يطلع عليها الناظرون لهم نهاراً، وتلك الصفات المتقدّمة من وظائف الليل.

ثم ذَكَر ما همْ عليه من الخوف، فقال عليه السلام: «إنّ خوفَهُم قد بَرَاهُمْ بَرْيَ القِداح»، وهي السّهام، واحدها قِدْح، فينظر إليهم الناظر فيحسبَهم مرضى وما بهم من مرض، نظير هذا قول الشاعر:

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ ٱلْقَمِيصُ تَخَالُهُ ... بَيْنَ البُيُوت من الحياءِ سَقِيمَا

حَتَّى إذا رُفِعَ اللّواءُ رأيتَه ... تَحْتَ اللّواء عَلَى الخميس زَعِيماً

ويقال للمتقّين لشدّة خوفِهم: كأنهم مَرْضَى، ولا مَرَضَ بهم. وتقول العرب للكرام من النّاس، القليلي المآكل والمشرب، رافضي اللباس الرفيع، ذوي الأجسام النحيفة: مِراضٌ من غير مرض، ويقولون أيضاً للمرأة ذات الطرْف الغَضيض ٱلْفَاترِ، وذات الكَسل: مريضة من غير مرض، قال الشاعر:

ضعيفة كَرّ الطّرْف تحسِبُ أنَّهَا ... حَدِيثَةُ عَهْدٍ بالإفَاقَةِ مِنْ سُقْمِ

واعلم أنّ الخوفَ مقامٌ جليل من مقامات العارفين، وهو أحد الأركان التي هي أصولُ هذا الفنّ، وهو التّقْوَى الّتي حثّ الله تعالى عليها، وقال: إنّ أكرَم الناس عنده أشدُّهم خوفاً له، وفي هذه الآية وحدها كفاية، وإذا نظرت القرآن العزيز وجدتَ أكثره ذكرَ المتقين، وهم الخائفون، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «مَنْ خافَ الله خافَهُ كلّ شيء، ومَنْ خاف غيرَ الله خَوَّفه الله من كلّ شيء»[(١)].

وقال عليه السلام: «أتمُّكُمْ عقلاً أشدّكم لله خوفاً، وأحسنُكم فيما أمَر به ونهى عنه نظراً».

وقال يحيى بن مُعاذ: مِسْكين ابن آدم، لو خاف النّار كما يخاف الفقر، دخل الجنة.

وقال ذُو النّون المصريّ: ينبغي أن يكون الخوف أغلبَ من الرّجاء، فإنّ الرّجاء إذا غلب تشوّش القلب.

وقيل لبعض الصالحين: مَنْ آمنُ الخلق غداً؟ قال: أشدُّهم خوفاً اليوم.

وقيل للحسن: يا أبا سعيد، كيف نصنعُ بمجالسة أقوام من أصحابك، يخوّفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير؟ فقال: إنّك والله لأن تَصْحَبَ قوماً يخوّفونك حتى تدرك الأمن، خيرٌ لك من أن تصحَبَ قوماً يؤمّنونك حتى يدركك الخوف.

---

(١) أخرجه ابن الجوزي في «صفوة الصفوة» (٢/ ٣٧٦).

وقيل للنبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾[(١)]: هم الذين يعصون ويخافون المعصية؟ قال: «لا، بل الرّجل يصوم، ويتصدّق، ويخاف ألاّ يُقبل منه».

وقال ﷺ: «ما من قَطرةٍ أحبّ إلى الله تعالى من قَطرة دمع من خشية الله، أو قطرةِ دمٍ أريقت في سبيل الله»[(٢)].

وقال ﷺ: «سبعة يظلّهم الله بظلّه يومَ لا ظِلّ إلا ظلُّه»[(٣)]، وذكر منهم رجلاً ذكر الله في خَلوةٍ، ففاضت عيناه.

قوله عليه السلام: «ويقول قَدْ خولطُوا»، أي أصابتهم جِنّة.

ثم قال: «ولقد خالطهم أمر عظيم»، أي مازجهم خوف عظيم تولّهوا الأجْلِه، فصاروا كالمجانين.

ثم ذكر أنهم لا يستكثرون في كثير من أعمالهم، ولا يرضيهم اجتهادهم، وأنهم يتهمون أنفسهم، وينسبونها إلى التقصير في العبادة، وإلى هذا نظر المتنبي، فقال:

يَسْتَصْغِرُ الْخَطَرَ ٱلْكَبِيرَ لِنَفْسِهِ ويظنّ دِجلَةَ ليس تَكْفِي شارباً

قال: «ومن أعمالهم مشفقون»، أي مشفقون من عباداتهم ألاّ تُقبل، وإلى هذا نظر أبو تمام، فقال:

يتجنّب الآثام ثم يخافها فكأنما حسناتُهُ آثامُ

ومثل قوله: «أنا أعلَمُ بنفسي من غيري»[(٤)]. قوله عليه السلام لمن زكّاه نفاقاً: «أنا دونَ ما تقول، وفوقَ ما في نفسك»[(٥)].

وقوله: «اللّهمّ لا تؤخذني بما يقولون...» إلى آخر الكلام مفرد مستقلّ بنفسه منقول عنه عليه السلام، أنه قال لقوم مرّ عليهم وهم مختلفون في أمره، فمنهم الحامِدُ له، ومنهم الذامّ،

---

(١) سورة المؤمنون، الآية: ٦٠.

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٣٠٨)، والشهاب في «مسنده» (١٣٠٨)، وابن المبارك في «الزهد» (٦٧٢).

(٣) أخرجه البخاري، كتاب: الأذان، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة (٦١٠)، ومسلم في كتاب: الزكاة، باب: فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٣١٦/٦٤.

(٥) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ١٠٣/٤٦ رقم: ٦٢.

فقال: اللهمّ لا تؤاخذني. . .» الكلمات إلى آخرها، ومعناه: اللهم إن كان ما ينسُبُه الذامّون إليّ من الأفعال الموجبة الذم حقًّا، فلا تؤاخذني بذلك، واغفر لي ما لا يعلمونه من أفعالي، وإن كان ما يقوله الحامدون حَقًّا، فاجعلني أفْضَلَ ممّا يظنونه فيّ.

الأصل: فَمِنْ عَلاَمَةِ أَحَدِهِمْ، أَنَّكَ تَرَى لَهُ قُوَّةً فِي دِينٍ، وَحَزْماً فِي لِينٍ، وَإِيمَاناً فِي يَقِينٍ، وَحِرْصاً فِي عِلْمٍ، وَعِلْماً فِي حِلْمٍ، وَقَصْداً فِي غِنًى، وَخُشُوعاً فِي عِبَادَةٍ، وَتَجَمُّلاً فِي فَاقَةٍ، وَصَبْراً فِي شِدَّةٍ، وطَلَباً فِي حَلاَلٍ، وَنَشَاطاً فِي هُدًى، وَتَحَرُّجاً عَنْ طَمَعٍ، يَعْمَلُ ٱلأَعْمَالَ الصَّالِحَةَ وَهُوَ عَلَى وَجَلٍ. يُمْسِي وَهَمُّهُ الشُّكْرُ، وَيُصْبِحُ وَهَمُّهُ الذِّكْرُ. يَبِيتُ حَذِراً، وَيُصْبِحُ فَرِحاً، حَذِراً لَمَا حُذِّرَ مِنَ ٱلْغَفْلَةِ، وَفَرِحاً بِمَا أَصَابَ مِنَ ٱلْفَضْلِ وَالرَّحْمَةِ.

إِن ٱسْتَصْعَبَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِيمَا تَكْرَهُ، لَمْ يُعْطِهَا سُؤْلَهَا فِيمَا تُحِبُّ. قُرَّةُ عَيْنِهِ فيما لا يزول، وزهادته فِيمَا لاَ يَبْقَى، يَمْزُجُ ٱلحِلْم بِالعِلْمِ، وَٱلْقَوْلَ بِالْعَمَلِ. تَرَاهُ قَرِيباً أَمَلُهُ، قَلِيلاً زَلَلُهُ، خَاشِعاً قَلْبُهُ، قَانِعَةً نَفْسُهُ، مَنْزُوراً أَكْلُهُ، سَهْلاً أَمْرُهُ، حَرِيزاً دِينُهُ، مَيِّتَةً شَهْوَتُهُ، مَكْظُوماً غَيْظُهُ.

ٱلخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولٌ، وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونٌ، إِنْ كَانَ فِي ٱلْغَافِلِينَ كُتِبَ فِي الذَّاكِرِينَ، وَإِنْ كَانَ فِي ٱلذَّاكِرِينَ لَمْ يُكْتَبْ مِنَ ٱلْغَافِلِينَ.

يَعْفُو عَمَّنْ ظَلَمَهُ، وَيُعْطِي مَنْ حَرَمَهُ، وَيَصِلُ مَنْ قَطَعَهُ، بَعِيداً فُحْشُهُ، لَيِّناً قَوْلُهُ، غَائِباً مُنْكَرُهُ، حَاضِراً مَعْرُوفُهُ، مُقْبِلاً خَيْرُهُ، مُدْبِراً شَرُّهُ.

فِي الزَّلاَزِلِ وَقُورٌ، وَفِي المَكَارِهِ صَبُورٌ، وَفِي الرَّخَاءِ شَكُورٌ، لاَ يَحِيفُ عَلَى مَنْ يُبْغِضُ، وَلاَ يَأْثَمُ فِيمَنْ يُحِبُّ. يَعْتَرِفُ بِالْحَقِّ قَبْلَ أَنْ يُشْهَدَ عَلَيْهِ، لاَ يُضِيعُ مَا ٱسْتُحْفِظَ، وَلاَ يَنْسَى مَا ذُكِّرَ، وَلاَ يُنَابِزُ بِالأَلْقَابِ، وَلاَ يُضَارُّ بِالجَارِ، وَلاَ يَشْمَتُ بِالْمَصَائِبِ، وَلاَ يَدْخُلُ فِي ٱلْبَاطِلِ، وَلاَ يَخْرُجُ مِنَ ٱلْحَقِّ. إِنْ صَمَتَ لَمْ يَغُمَّهُ صَمْتُهُ، وَإِنْ ضَحِكَ لَمْ يَعْلُ صَوْتُهُ، وَإِنْ بُغِيَ عَلَيْهِ صَبَرَ حَتَّى يَكُونَ اللهُ هُوَ الَّذِي يَنْتَقِمُ لَهُ. نَفْسُهُ مِنْهُ فِي عَنَاءٍ، وَالنَّاسُ مِنْهُ فِي رَاحَةٍ. أَتْعَبَ نَفْسَهُ لِآخِرَتِهِ، وَأَرَاحَ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ. بُعْدُهُ عمَّنْ تَبَاعَدَ عَنْهُ زُهْدٌ وَنَزَاهَةٌ، وَدُنُوُّهُ مِمَّنْ دَنَا مِنْهُ لِينٌ وَرَحْمَةٌ، لَيْسَ تَبَاعُدُهُ بِكِبْرٍ وَعَظَمَةٍ، وَلاَ دُنُوُّهُ بِمَكْرٍ وَخَدِيعَةٍ.

قال: فَصَعِقَ همَّامٌ صعْقةً كانت نَفْسهُ فيها، فقالَ أميرُ المؤمنين عليه السَّلام: أَمَا وَٱللهِ لَقَدْ كُنْتُ أَخافُهَا عَلَيْهِ.

ثم قال: هَكَذَا تَصْنَعُ المَوَاعِظُ ٱلْبَالِغَةُ بِأَهْلِهَا!

فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ: فَمَا بَالُكَ يا أمير المؤمنينَ!

فقال عليه السلام: وَيْحَكَ! إِنَّ لِكُلِّ أَجَلٍ وَقْتاً لاَ يَعْدُوهُ، وَسَبَباً لاَ يَتَجَاوَزُهُ، فَمَهْلاً لاَ تَعُدْ لِمِثْلِهَا، فَإِنَّمَا نَفَثَ الشَّيْطَانُ عَلَى لِسَانِكَ!

الشرح: هذه الألفاظ الّتي أولها: «قوّة في دين»، بعضها يتعلّق حرف الجر فيه بالظّاهر، فيكون موضعه نصباً بالمفعوليّة، وبعضها يتعلّق بمحذوف، فيكون موضعه نصباً أيضاً على الصّفة، ونحن نفصّلها.

فقوله: «قوة في دين» حرف الجرّ ها هنا متعلّق بالظاهر، وهو «قُوّة»، تقول: فلان قويّ في كذا وعلي كذا، كما تقول: مررتُ بكذا، وبلغت إلى كذا.

و«وحزماً في لين»، ها هنا لا يتعلّق حرْف الجرّ بالظاهر؛ لأنّه لا معنى له، ألا ترى أنّ لا تقول: فلان حازم في اللّين؛ لأن اللّين ليس أمراً يحزم الإنسان فيه، وليس كما تقول: فلان حازمٌ في رأيه أو في تدبيره! فوجبَ أن يكون حرف الجر متعلّقاً بمحذوف، تقديره: وحزماً كائناً في لين.

وكذلك قوله: «وإيماناً في يقين»، حرف الجرّ متعلّق بمحذوفٍ: أي كائناً في يقين، أي مع يقين.

فإن قلت: الإيمان هو اليقينُ فكيف، قال: «وإيماناً في يقين»؟ قلت: الإيمانُ هو الاعتقاد مضافاً إلى العمل، واليقين هو سكون القلْب فقط، فأحدُهما غير الآخر.

قوله: «وحرْصاً في علم»، حرف الجرّ ها هنا يتعلّق بالظاهر، و«في» بمعنى «على» كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾(١).

قوله: «وقصداً في غنًى» حرف الجرّ متعلّق بمحذوف، أي هو مقتصدٌ مع كونه غنياً، وليس يجوز أن يكون متعلّقاً بالظاهر، لأنه لا معنى لقولك: اقتصِدْ في الغِنَى، إنما يقال: اقتصد في النّفقة، وذلك الاقتصاد موصوف بأنه مقارن للغِنَى ومجامع له.

(١) سورة طه، الآية: ٧١.

قوله: «وخشوعاً في عبادة» حرف الجرّ ها هنا يحتمل الأمرين معاً.

قوله: «وتجمّلاً في فاقة»، حرف الجر هاهنا متعلّق بمحذوف، ولا يصحّ تعلقه بالظّاهر، لأنّه إنما يقال: فلان يتجمّل في لباسه ومروءته، مع كونه ذا فاقة، ولا يقال: يتجمّل في الفاقة، على أن يكون التجمّل متعدّياً إلى الفاقة.

قوله: «وصَبْراً في شدّة»، حرف الجر ها هنا يحتمل الأمرين.

قوله: «وطلباً في حلال» حرف الجر ها هنا يتعلّق بالظّاهر و«في» بمعنى «اللام».. قوله: «ونشاطاً في هدًى» حرف الجرّ ها هنا يحتمل الأمرين.

قوله: «وتحرّجاً عن طمع»، حرف الجرّ ها هنا يتعلق بالظاهر لا غير.

قوله: «يعمل الأعمال الصالحة وهو على وجل» قد تقدّم مثله.

قوله: «يمسي وهمّه الشكر»، هذه درجة عظيمة من درجات العارفين، وقد أثنى الله تعالى على الشكر والشاكرين في كتابه في مواضع كثيرة، نحو قوله: ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ﴾(١) فقرن الشّكر بالذّكر.

وقال تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾(٢).

وقال تعالى: ﴿وَسَيَجۡزِي ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾(٣).

ولعلوّ مرتبة الشّكر طعن إبليس في بني آدم، فقال: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ﴾(٤)، وقد صدّقه الله تعالى في هذا القول فقال: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾(٥).

وقال بعضُ أصحاب المعاني: قد قَطَع الله تعالى بالمزيد مع الشكر ولم يستثنِ، فقال: ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾(٦).

واستثنى في خمسة أمور: وهي الإغناء، والإجابة، والرزق، والمغفرة، والتوبة فقال: ﴿فَسَوۡفَ يُغۡنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦٓ إِن شَآءَۚ﴾(٧).

وقال: ﴿بَلۡ إِيَّاهُ تَدۡعُونَ فَيَكۡشِفُ مَا تَدۡعُونَ إِلَيۡهِ إِن شَآءَ﴾(٨).

وقال: ﴿يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُۖ﴾(٩).

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.
(٢) سورة النساء، الآية: ١٤٧.
(٣) سورة آل عمران، الآية: ١٤٤.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ١٧.
(٥) سورة سبأ، الآية: ١٣.
(٦) سورة إبراهيم، الآية: ٧.
(٧) سورة التوبة، الآية: ٢٨.
(٨) سورة الأنعام، الآية: ٤١.
(٩) سورة الشورى، الآية: ١٩.

وقال: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾[١].

وقال: ﴿وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ﴾[٢].

وقال بعضهم: كيف لا يكون الشكر مقاماً جليلاً، وهو خُلُق من أخلاق الربوبيَّة، قال تعالى في صفة نفسه: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾[٣].

وقد جَعَل الله تعالى مفتاحَ كلام أهل الجنّة، فقال: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾[٤] وجعله خاتمة كلامهم أيضاً فقال: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[٥].

وقيل للنبيّ ﷺ: قد غَفَر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخّر فلِمَ تقوم الليل، وتتعِبُ نفسَك؟ قال: أفلا أكونُ عبداً شكوراً[٦]!.

قوله عليه السلام: «ويصبحُ وَهَمُّه الذِّكْر»، هذه أيضاً درجة كبيرة عظيمة من درجات العارفين، قال تعالى: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾[٧] قال بعض العارفين لأصحابه: أنا أعلم متى يذكرني ربّي. ففزعوا منه فقال: إذا ذكرته ذكرني، وتلا الآية، فسكتوا.

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[٨].

وقال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ﴾[٩].

وقال: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾[١٠].

وقال: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾[١١].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾[١٢].

وقال في ذمّ المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[١٣].

وقال: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾[١٤].

---

(١) سورة النساء، الآية: ٤٨.
(٢) سورة التوبة، الآية: ١٥.
(٣) سورة التغابن، الآية: ١٧.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٧٤.
(٥) سورة يونس، الآية: ١٠.
(٦) أخرجه البخاري، كتاب: الجمعة، باب: قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه (١١٣٠)، ومسلم، كتاب صفة القيامة، باب: إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة (٢٨١٩).
(٧) سورة البقرة، الآية: ١٥٢.
(٨) سورة الأحزاب، الآية: ٤١.
(٩) سورة البقرة، الآية: ١٩٨.
(١٠) سورة البقرة، الآية: ٢٠٠.
(١١) سورة النساء، الآية: ١٠٣.
(١٢) سورة آل عمران، الآية: ١٩١.
(١٣) سورة النساء، الآية: ١٤٢.
(١٤) سورة الأعراف، الآية: ٢٠٥.

وقال: ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾[(١)].

وقال النبيّ ﷺ: «ذاكرُ الله في الغافلين كالشجرة الخضراء في وسط الهشيم»[(٢)].

وقال ﷺ: «مَنْ أحبَّ أن يرتع في رياض الجنّة، فليُكثِر من ذكر الله»[(٣)].

وسئل ﷺ: أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «أن تموتَ ولسانُك رطب بذكر الله»[(٤)].

وقال ﷺ، حكايةً عن الله تعالى: «إذا ذكَرَني عبدِي في نفسه، ذكرتُه في نفسِي، وإذا ذكرني في ملأٍ ذكرتُه في ملأ خيرٍ من ملئه، وإذا تقرّب منّي شبراً تقرّبتُ منه ذراعاً، وإذا تقرَّبَ منّي ذراعاً تقرّبتُ منه باعاً، وإذا مَشَى إليّ هرولتُ إليه»[(٥)].

وقال ﷺ: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله تعالى إلاّ حفَّت بهم الملائكة، وغشيَتْهم الرحمة، وذكرهم الله فيمن عنده»[(٦)].

قوله عليه السلام: «يبيت حذِراً ويصبح فَرِحاً، حذراً لما حُذِّرَ من الغفلة، وفرحاً بما أصاب من الفَضْل والرحمة».

وقد تقدّم ذكر الخوف.

وقد عرض عليه السلام هاهنا بالرّجاء المقابل للخوف، فإنّ فرَح العارف بما أصاب من الفضل والرحمة يمكن أن يحمل على أنّه فرح بمجرد ما أصاب من فضل الله ورحمته. ويمكِنُ أن يحمل على أنّه فرح بما يرجوه من ثواب الله ونعيمه، لذا استدلّ على وصوله إليه وقوي ظنّه بظفره به، بما عَجّل الله تعالى ما من فضل والرحمة في الدنيا، ومقامُ الرجاء للعارفين مقام شريف، وهو في مقابلة مقام الخوف، وهو المقام الذي يوجد العارف فيه فرحاً، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَـٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَـٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾[(٧)].

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٥.
(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (٢/ ١٦١).
(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ١٧١).
(٤) أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٨١٨)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٢٠/ ٩٣)، وفي «مسند الشاميين» (١٩١).
(٥) أخرجه البخاري، كتاب: التوحيد، باب: قول الله: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾.
(٦) أخرجه مسلم، كتاب: الذكر والدعاء، باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن (٢٦٩٩)، والترمذي، كتاب: القراءات، باب: ما جاء في أن القرآن أنزل على سبعة أحرف (٢٩٤٥).
(٧) سورة فاطر، الآية: ٢٩.

وقال النبيّ ﷺ، حكايةً عن الله تعالى: «**أنا عنْدَ ظنّ عبدي بي، فلْيظنّ بي ما شاءَ**»[١].

ودخل ﷺ على رجل من أصحابه، وهو يجودُ بنفسه، فقال: «**كيف تجدك؟**» قال: **أجِدُني أخاف ذنوبي، وأرجو رحمة ربّي**. فقال ﷺ: «**ما اجتمعا في قلب عبد في هذا الموطن إلاّ أعطاه الله ما رجاه، وأمّنه مما خافه**»[٢].

قوله عليه السلام: «**إن استصعبَتْ عليه نفسُه**»، أي صارت صعبة غير منقادة، يقول: إذا لم تطاوعه نفسُه إلى ما هي كارهة له لم يعطِها مرادها فيما تحبّه.

قوله عليه السلام: «**قرّة عينه فيما لا يزول، وزهادته فيما لا يبقى**»، يقال للفرِح المسرور: إنّه لَقَرِير العين، وقرّت عينُه تقَرّ، والمراد بردُها، لأن دمعة السرور باردة ودمعة الحزن حارّة.

وهذا الكلام يحتمل أمرين:

أحدُهما: أن يعنِيَ بما لا يزول الباريء سبحانه، وهذا مقام شريف جدًّا أعظم من سائر المقامات، وهو حبّ العارف لله سبحانه، وقد أنكره قومٌ فقالوا: لا معنى لمحبّة الباريء إلا المواظبة على طاعته، ونحوه قول أصحابنا المتكلّمين: إنّ محبّة الله تعالى للعبد هي إرادته لثوابه، ومحبّة العبد للباريء هي إرادته لطاعته، فليست المحبّة عندهم شيئاً زائداً على الإرادة ولا يجوز أن تتعلّق بذاتِ الله سبحانه، لأنّ الإرادة لا تتعلّق إلا بالحدوث، وخالفهم شيخنا أبو الحسن، فقال: إنّ الإرادة يمكن أن تتعلّق بالباقي، ذكر ذلك في الكلام في الأكوان في أول التّصفُّح، فأمّا إثبات الحبّ في الجملة فقد نطقَ به القرآن قال سبحانه: ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾[٣]. وقال أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[٤] وقال: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[٥].

وفي الحديث أن النبي ﷺ نظر إلى مُصعَب بن عمير مقبلاً وعليه إهابُ كبشٍ قد تمنطق به، فقال: «**انظروا إلى الرّجل الذي قد نوّر الله قلبه، لقد رأيته بين أبوَيْن يغذُوانه بأطيب الطعام والشراب، فدعاه حبّ الله ورسوله إلى ما ترون**»[٦].

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب التوحيد، باب: قول الله تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ﴾ (٧٤٠٥)، ومسلم كتاب: الذكر والدعاء، باب: الحث على ذكر الله تعالى (٢٦٧٥).

(٢) أخرجه الترمذي، كتاب: الجنائز، باب: ما جاء أن المؤمن يموت بعرق الجبين (٩٨٣)، وابن ماجه، كتاب: «الزهد» (٤٢٦١).

(٣) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٤) سورة البقرة، الآية: ١٦٥.

(٥) سورة آل عمران، الآية: ٣١.

(٦) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٦١٨٩)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (١/ ١٠٨).

ويقال: إنّ عيسى عليه السلام مرّ بثلاثة نفر قد نحلتْ أبدانهم، وتغيَّرت ألوانهم، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الخوف من النار، قال: حقٌّ على الله أن يؤمّن من يخافه، ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين، فإذا هم أشدُّ نحولاً وتغيّراً، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: الشّوق إلى الجنة، فقال: حقٌّ على الله أن يعطي مَنْ رجاه. ثم مرّ إلى ثلاثة آخرين، فإذا هم أشدّ نحولاً، وعلى وجوههم، مثل المرائي من النور، فقال: ما الذي بلغ بكم ما أرى؟ قالوا: حبّ الله عزّ وجلّ، فقال: أنتم المقربون، ثلاثاً.

وقال بعض العارفين:

أحبّكَ حبّين: حبّ الهوى ... وحبًّا لأنّك أهلٌ لذاكا

فأمّا الّذي هوَ حبُّ الهوى ... فَشُغْلي بذكرِكَ عمّن سواكا

وأمّا الّذِي أنتَ أهلٌ له ... فكشفكَ لي الحُجُبَ حتى أراكا

فلا الحمدُ من ذا ولا ذاك لِي ... ولكنْ لَكَ الحمدُ في ذَا وذَاكا

ليس يريد بكشف الحجب والرؤية ما يظنه الظاهريّون من أنها الإبصار بالعين، بل المعرفة التامّة، وذلك لأنّ المعارف النظرية يصحّ أن تصير ضرورية عند جمهور أصحابنا، فهذا أحد محمَلي الكلام.

وثانيهما: أن يريد بما لا يزول، نعيمَ الجنة، وهذا أدونُ المقاميْن، لأنّ الخلّص من العارفين يحبّونه ويعشقونه سبحانه لذاته، لا خوفاً من النار، ولا شوقاً إلى الجنة، وقد قال بعضهم: لستُ أرضى لنفسي أن أكون كأجيرِ السوء، إن دُفِعت إليه الأجرة رضِيَ وفرح، وإن مُنعها سخط وحزن، إنّما أحبُّه لذاته.

وقال بعض شعرائهم شعراً من جملته:

فَهَجْرُهُ أعظمُ من نارِهِ ... وَوَصْلُه أطيَبُ منْ جَنَّتِهْ

وقد جاء في كلام أمير المؤمنين عليه السلام، من هذا الكثير، نحو قوله: «لم أعبدْه خوفاً ولا طمعاً، لكنّي وجدته أهلاً للعبادة فعبدته».

قوله عليه السلام: «يمزج الحلم بالعلم»، أي لا يحلُم إلاّ عن علم بفضل الحلم ليس كما يحلم الجاهلون.

قوله: «والقول بالعمل»، أي لا يقتصر على القول، ومثل هذا قول الأحوص:

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ ... مَذِقُ اللِّسَانِ يَقُولُ مَا لاَ يَفْعَلُ

قوله عليه السلام: «تراه قريباً أمله»، أي ليست نفسه متعلقةً بما عظُم من آمال الدنيا، وإنّما قُصارى أمره أن يؤمّل القوت والملبس. قليلاً زلله: أي خطؤه.

قوله: «منزوراً أكله»، أي قليلاً، ويحمَد من الإنسان الأكل النزر، قال أعشى باهلة:

تَكْفِيهِ حَزَّةُ فِلْذٍ إنْ أَلَمَّ بِهَا ... مِنَ الشِّوَاءِ ويكفي شُرْبَهُ الْغُمَرُ

وقال متمم بن نويرة:

لَقَدْ كَفَّنَ الْمِنْهَالُ تحتَ رِدَائِهِ ... فَتًى غَيْرَ مِبْطَانِ الْعَشِيَّاتِ أَرْوَعَا

قوله عليه السلام: «مكظوماً غيظُه» كَظم الغيظِ من الأخلاق الشريفة، قال زيد بن عليّ عليه السلام: «ما سرّني بجرْعة غَيْظٍ أتجرّعها وأصبر عليها حُمْر النَّعم».

وجاء رجل إلى الرّبيع بن زياد الحارثيّ، فقال: يا أبا عبدِ الرحمن، إنّ فلاناً يغتابُكَ وينالُ منك، فقال: والله لأغيظنّ مَنْ أمرَه بذلك، قال الرّجل: ومَنْ أمَرَهُ؟ قال: الشيّطان عدوّ الله، استغواه ليؤثمه، وأراد أن يُغضِبَني عليه فأكافئه، والله لا أعطيه ما أحبَّ من ذلك. غفر الله لنا وله.

وجَهِل إنسان على عمر بن عبد العزيز، فقال: أظنّك أردت أن يستفزّني الشيطان بعزّ السلطان، فأنال منك اليوم ما تناله منّي غداً! انصرف عافاك الله.

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله: «الغضَبُ يفسِد الإيمان، كما يفسِدُ الصَّبرِ العسل»(١).

وقال إنسان لرسول الله صلى الله عليه وآله: أوصني، فقال: «لا تغضب»، فأعاد عليه السؤال، فقال: «لا تغضب»، فقال: زدني، فقال: «لا أجد مزيداً»(٢).

ومن كلام بعضِ الحكماء لا يفي عزُّ الغضب بذلّة الاعتذار.

قوله: «إن كان في الغافلين»، معناه أنّه لا يزال ذاكرَ الله تعالى، سواء كان جالساً مع الغافلين أو مع الذاكرين، أمّا إذا كان مع الغافلين فإنه يذكر الله بقلْبِه، وأمّا إذا كان مع الذّاكرين فإنه يذكره بقلبه ولسانه.

قوله عليه السلام: «يعفو عمّن ظَلَمه، ويعطي من حرمه، ويصل مَنْ قطعه»، من كلام المسيح عليه السلام في الإنجيل: «أحبّوا أعداءكم، وصِلُوا قاطعِيكم، واعفوا عن ظالِمِيكم، وباركوا على لاعِنِيكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الّذي في السماء، الذي تشرق شمسُه على الصّالحين والفَجَرة، وينزل مَطَرُه على المطيعين والأثمة».

---

(١) رجل مذاق: كذوب. اللسان، مادة (مذق).

(٢) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٨٠٣٦)، والحكيم الترمذي في «نوادر الأصول» (١/ ٧٣).

قوله عليه السلام: «بعيداً فُحْشُه»، ليس يعني به أنّه قد يُفحِش تارة، ويترك الفحش تارات، بل لا فُحْشَ له أصلاً، فكني عن العَدم بالبعد، لأنّه قريب منه.

قوله: «ليّناً قوله»، العارف بسّام طلْق الوجه، ليّن القوْل، وفي صفات النبي صلى الله عليه وسلم: «ليس بفظٍّ ولا صَخّاب»(١).

قوله: «في الزلازل وقور»، أي لا تحرّكه الخطوب الطارقة، ويقال: إنّ عليّ بن الحسين عليه السلام كان يصلّي، فوقعتْ عليه حيّة، فلم يتحرّك لها، ثم انسابت بين قدميه فما حرّك إحداهما عن مكانه، ولا تَغيّر لونه.

قوله: «لا يحيفُ على منْ يبغض»، هذا من الأخلاق الشريفة النبويّة، وفي كلام أبي بكر في صفات مَنْ يصلح للإمامة: إن رضيَ لم يدخِلْه رضاه في باطل، وإن غضب لم يخرِجه غضبهُ عن الحق.

قوله: «يعترف بالحق قبل أن يُشهد عليه»، لأنه إن أنكر ثم شُهد عليه فقد ثبت كذبه، وإن سكت ثم شهد عليه فقدم أقام نفسَه في مقام الرِّيبة.

قوله: «ولا ينابز بالألقاب»، هذا من قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾(٢).

قوله: «ولا يضارّ بالجار»، في الحديث المرفوع: «أوصانِي ربّي بالجار حتى ظنَنتُ أن يورّثه»(٣).

قوله: «ولا يشمت بالمصائب»، نظير قول الشاعر:

فَلَسْتَ تَرَاهُ شَامِتاً بِمُصِيبَةٍ ... وَلاَ جَزِعاً مِنْ طَارِقِ الْحَدَثَانِ

قوله: «إن صمت لم يغمّه صمته»، أي لا يحزن لفوَات الكلام، لأنه يَرى الصّمْت مغنماً لا مغرماً.

قوله: «وإن ضحك لم يعلُ صوتُه»، هكذا كان ضحكُ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أكثره التبسّم، وقد يفرُّ أحياناً، ولم يكن من أهل القهقهة والكَرْكَرة.

قول: «وإن بغي عليه صَبَر»، هذا من قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ﴾(٤).

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٥٨٥)، والدارمي، كتاب: المقدمة، باب: صفة النبي صلى الله عليه وسلم في الكتب قبل مبعثه (٥).

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١١.

(٣) أخرجه بلفظ: «جبريل» بدل «ربي»: البخاري، كتاب: الأدب، باب: الوصاة بالجار (٦٠١٤)، ومسلم، كتاب: البر والصلة، باب: الوصية بالجار (٢٦٢٤).

(٤) سورة الحج، الآية: ٦٠.

قوله: «نفسه منه في عناء لأنه يتعبُها بالعبادة، والناس لا يلقون منه عَنَتاً ولا أذى» فحالهم بالنسبة إليه خلاف حال نفسه بالنسبة إليه.

قوله: «فصعق همام»، أغمي عليه ومات، قال الله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾(١).

واعلم أنّ الوجدَ أمرٌ شريف، قد اختلف الناس فيه، فقالت الحكماء فيه أقوالاً، وقالت الصوفيّة فيه أقوالاً، أمّا الحكماء فقالوا: الوجد هو حالة تحدُث للنّفس عند انقطاع علائقها عن المحسوسات بغتة، إذا كان قد وَرَدَ عليها وارد مُشوّق. وقال بعضُهم: الوجد هو اتّصال النفس بمبادئهما المجرّدة عند سماع ما يقتضي ذلك الاتّصال.

وأمّا الصُّوفية فقد قال بعضهم: الوجد رفْع الحجاب، ومشاهدة المحبوب. وحضور الفهم، وملاحظة الغيب، ومحادثة السرّ، وهو فَناؤك من حيث أنت أنت. وقال بعضُهم: الوجدُ سِرّ الله عند العارفين ومكاشفة من الحقّ توجب الفناء عن الحقّ.

والأقوال فيه متقاربة في المعنى وإن اختلفت العبارة، وقدمات كثير من الناس بالوجْد عند سماع وعظ، أو صفقة مطرِب، والأخبار في هذا الباب كثيرة جدًّا، وقد رأينا نحنُ في زماننا مَنْ مات بذلك فجأة.

قوله: «كانت نفسه فيها»، أي مات. ونفثَ الشيطان على لسانك، أي تكلّم بلسانك، وأصله النفخ بالفم، وهو أقل من التّفل، وإنّما نهى أمير المؤمنين القائل: «فهلاّ أنت يا أمير المؤمنين!» لأنه اعترض في غير موضع الاعتراض، وذلك أنه لا يلزم من موت العاميّ عند وعظ العارف أن يموتَ العارف عند وعظ نفسه، لأنّ انفعال العاميّ ذي الاستعداد التامّ للموت عند سماع المواعظ البالغة أتمّ من استعداد العارف عند سماع كلام نفسه، أو الفكر في كلام نفسه، لأنّ نفس العارف قوية جدًّا، والآلة التي يحفر بها الطين قد لا يحفر بها الحجَر.

فإن قلتَ: فإنّ جواب أمير المؤمنين عليه السلام للسائل غيرُ هذا الجواب!

قلتُ: صدقت، إنما أجابه من حيث يعلم هو والسامعون، وتصِلُ أفهامهم إليه، فخرج معه إلى حديث الآجال، وأنّها أوقاتٌ مقدّرة لا تتعدّاها، وما كان يمكنه عليه السلام أن يذكر الفرْق بين نفسه ونفوسهم، ولا كانت الحال تقتضيه، فأجابه بجواب مُسْكِتٍ، وهو مع إسكانه الخصْم حقٌّ وعدل عن جواب يحصل منه اضطراب، ويقع فيه تشويش، وهذا نهاية السَّداد وصحة القول.

---

(١) سورة الزمر، الآية: ٦٨.

١٨٧ - ومن خطبة له عليه السلام يصف فيها المنافقين

الأصل: نَحْمَدُهُ عَلَى مَا وَفَّقَ لَهُ مِنَ الطَّاعَةِ، وَذَادَ عَنْهُ مِنَ المَعْصِيَةِ، وَنَسْأَلُهُ لِمِنَّتِهِ تَمَاماً، وَلِحَبْلِهِ ٱعْتِصَاماً.

وَنَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، خَاضَ إِلَى رِضْوَانِ ٱللهِ كُلَّ غَمْرَةٍ، وَتَجَرَّعَ فِيهِ كُلَّ غُصَّةٍ، وَقَدْ تَلَوَّنَ لَهُ ٱلأَدْنَوْنَ، وَتَأَلَّبَ عَلَيْهِ الأَقْصَوْنَ، وَخَلَعَتْ عليه ٱلْعَرَبُ أَعِنَّتَهَا، وَضَرَبَتْ إِلَى مُحَارَبَتِهِ بُطُونَ رَوَاحِلِهَا، حَتَّى أَنْزَلَتْ بِسَاحَتِهِ عَدَاوَتَهَا، مِنْ أَبْعَدِ الدَّارِ، وَأَسْحَقِ المَزَارِ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱللهِ بِتَقْوَى ٱللهِ، وَأُحَذِّرُكُمْ أَهْلَ النِّفَاقِ، فَإِنَّهُم الضَّالُّونَ المُضِلُّونَ، وَالزالُّونَ المُزِلُّونَ، يَتَلَوَّنُونَ أَلْوَاناً، وَيَفْتَنُّونَ ٱفْتِنَاناً، وَيَعْمِدُونَكُمْ بِكُلِّ عِمَادٍ، وَيَرْصُدونَكُمْ بِكُلِّ مِرْصَادٍ.

قُلُوبُهُم دَوِيَةٌ، وَصِفَاحُهُمْ نَقِيَّةٌ. يَمْشُونَ ٱلْخفاءَ، وَيَدِبُّونَ الضَّرَاءَ، وَصْفُهُمْ دَوَاءٌ، وَقَوْلُهُمْ شِفَاءٌ، وَفِعْلُهُمُ الدَّاءُ ٱلْعَيَاءُ، حَسَدَةُ الرَّخَاءِ، وَمُؤَكِّدُو ٱلبَلاَءِ، وَمُقْنِطُو الرَّجَاءِ.

لَهُمْ بِكُلِّ طَرِيقٍ صَرِيعٌ، وَإِلَى كُلِّ قَلْبٍ شَفِيعٌ، وَلِكُلِّ شَجْوٍ دُمُوعٌ. يَتَقَارَضُونَ الثَّنَاءَ، وَيَتَرَاقَبُونَ ٱلْجَزَاءَ، إِنْ سَأَلُوا أَلْحَفُوا، وَإِنْ عَذَلُوا كَشَفُوا، وَإِنْ حَكَمُوا أَسْرَفُوا.

قَدْ أَعَدُّوا لِكُلِّ حَقٍّ بَاطِلاً، وَلِكُلِّ قَائِمٍ مَائِلاً، وَلِكُلِّ حَيٍّ قَاتِلاً، وَلِكُلِّ بَابٍ مِفْتَاحاً، وَلِكُلِّ لَيْلٍ مُصْبَاحاً، يَتَوَصَّلُونَ إِلَى الطَّمَعِ بِٱلْيَأْسِ لِيُقِيمُوا بِهِ أَسْوَاقَهُمْ، وَيُنْفِقُوا بِهِ أَعْلاَقَهُمْ، يَقُولُونَ فَيُشَبِّهُونَ، وَيَصِفُونَ فَيُمَوِّهُونَ.

قَدْ هَوَّنُوا الطَّرِيقَ، وَأَضْلَعُوا المَضِيقَ، فَهُمْ لُمَةُ الشَّيْطَانِ، وَحُمَةُ النِّيرَانِ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[1].

الشرح: الضمير في «له» وهو الهاء راجعٌ إلى «ما» التي بمعنى «الذي»، وقيل: بل هو راجع إلى الله سبحانه، كأنه قال: «نحمده على ما وفّق من طاعته»، والصحيح هو الأول؛ لأنّ «له» في الفقرة الأولى بإزاء «عنه» في الفقرة الثانية. والهاء في «عنه» ليست عائدة إلى «الله» وذاد: طرد، والمصدر الذِّياد.

(١) سورة المجادلة، الآية: ١٩.

وخاض كلّ غَمْرة، مثل قولك: ارتكب كلّ مهلكة، وتقحّم كلّ هول. والغَمْرة: ما ازدحم وكثر من الماء، وكذلك من النّاس، والجمع غِمار.

والغُصّة: الشّجا، والجمع غُصَص.

وتلَوّن له الأدنَوْن: تغيّر عليه أقاربه ألواناً.

وتألّب عليه الأقصوْن: تجمّع عليه الأبعدون عنه نسباً.

وخلعت إليه العرب أعنّتها، مثل، معناه أوْجَفُوا إليه مسرعين لمحاربته؛ لأنّ الخيل إذا خلعتْ أعنّتها كان أسْرَع لجريها.

وضربتْ إلى محاربته بطونَ رواحِلها، كناية عن إسراف العرب نحوه للحرب؛ لأنّ الرواحل إذا ضربت بطونها لتساق كانَ أوحى لها، ومراده أنّهم كانوا فرساناً وركباناً.

قوله: «حتى أنزلت بساحته عداوتها»، أي حَرْبها، فعبّر عنها بالعداوة؛ لأنّ العداوة سببُ الحرب، فعبّر بالسّبب عن المسبّب، ما زلنا نطأ السّماء حتى أتيناك، يعنون الماء، لمّا كان اعتقادُهم أنّ السماء سببُ الماء.

وأسحق المزار، أبعده، مكان سَحِيق، أي بعيد، والسُّحْق بضم السّين: البعد، يقال: «سُحْقاً له»، ويجوز ضم الحاء، كما قالوا: عُسْر وعسُر، وسَحُق الشيء، بالضم، أي بعد، وأسحقه الله أبعده. والمزار: المكان الذي يُزار منه، أو المكان الذي يزار فيه، والمراد هاهنا هو الأوّل ومن قرأ كتبَ السِّيرة علم ما لاقى رسول الله ﷺ في ذاتِ الله سبحانه من المشقّة، واستهزاء قريش به في أوّل الدعوة، ورميهم إياه بالحجارة، حتى أدْمَوْا عَقِبَيْه، وصياح الصّبيان به، وفَرْث الكرش على رأسِه، وفَتْل الثّوب في عُنُقه وحَصْره وحَصْر أهله في شِعْب بني هاشم سنين عدّة، محرّمة معاملتهم ومبايعتهم ومناكحتهم وكلامهم، حتى كادوا يموتون جوعاً، لولا أن بعضَ مَنْ كان يحنُوا لرَحِم أو لسبب غيره، فهو يسرق الشيء القليل من الدقيق أو التمر فيلقيه إليهم ليلاً، ثم ضربهم أصحابه وتعذيبهم بالجوع والوَثاق في الشمس، وطردهم إياهم عن شِعاب مكة، حتى خرج مَنْ خرج منهم إلى الحبشة، وخرج عليه السلام مستجيراً منهم تارة بثقيف، وتارة ببني عامر، وتارة بربيعة الفَرَس، وبغيرهم. ثم أجمعوا على قتله والفتْك به ليلاً، حتى هرب منهم لائذاً بالأوْس والخزرج، تاركاً أهله وأولاده، ولأخوته يده، ناجياً بحُشاشة نفسه، حتى وصل إلى المدينة، فناصبوه الحرْب ورموْه بالمناسر[1] والكتائب، وضربوا إليه آباط الإبل، ولم يزل منهم في عناد شديد، وحروب متّصلة، حتى أكرمه الله تعالى ونَصَره، وأيّد دينَه وأظهره. ومَنْ له أنَسٌ بالتواريخ يعلم من تفاصيل هذه الأحوال ما يطول شرحه.

---

(١) المناسر: قطعة من الجيش تسير أمامه الطليعة. المعجم الوسيط، مادة (نسر).

سمّي النِّفاق نِفاقاً من النّافقاء، وهي بيت اليَرْبُوع، له بابان يدخلُ من أحدهما، ويخرج من الآخر، وكذلك الّذي يُظهر ديناً ويبطن غيره.

والضالّون المضِلُّون: الذين يُضِلّون أنفسَهم ويُضِلّون غيرَهم، وكذلك الزالُّون المزِلُّون، زلّ فلان عن الأمر، أي أخطأ، وأزلّه غيرُه.

قوله: «يفتنُّون» يتشعبون فنوناً، أي ضروباً.

ويعمِدونكم، أي يهدّونكم ويفدحونكم، يقال: عمَده المرض يعمِده، أي هدّه، ومنه قولهم للعاشق: عميد القلب.

قوله: «بعمادٍ»، أي بأمرٍ فادح وخطب مؤلم، وأصل العَمْد انشداخُ سَنَام البعير، وماضيه: عمِد السنام بالكسر، عَمْداً فهو عَمِد.

ويرصدونكم: يَعدّون المكايد لكم، أرصدت: أعددت، ومنه في الحديث: «إلاّ أنْ أرْصُدَ لديْنٍ عَليّ»(١).

وقلب دوٍ، بالتخفيف، أي فاسد، من داء أصابه، وامرأة دوِيَة، فإذا قلت: رجل دوَي، بالفتح، استوى فيه المذكر والمؤنث والجماعة؛ لأنه مصدر في الأصل، ومن روي: «دويّة» بالتشديد، عَلَى بُعده، فإنما شدده ليقابل «نقيّة».

والصِّفَاح: جمع صَفْحة الوجه وهي ظاهره، يقول: باطنهم عليل، وظاهرهم صحيح. يمشون الخَفاء، أي في الخفاء، ثم حذف الجار فنصب، وكذلك يدبّون الضَّرَاء، والضَّرَاء: شجر الوادي الملتفّ، وهذا مثل يضربُ لمن يختلُ صاحبه، يقال: هو يدبّ له الضَّرَاء ويمشي له الخمَر، وهو جَرْف الوادي.

ثم قال: «وصفهم داء، وقولهم شفاء، وفعلُهم الدّاء العَياء»، أي أقوالهم أقوال الزاهدين العابدين، وأفعالهم أفعال الفاسقين الفاجرين. والدّاء العَياء: الذي يُعيي الأساة.

ثم قال: «حَسَدة الرخاء» يحسُدون عَلَى النّعم. «ومؤكّد والبلاء»، إذا وقع واحد من الناس في بلاءٍ أكّدوه عليه بالسّعايات والنّعائم، وإغراء السلطان به، ولقد أحسن أبو الطيب في قوله يذمّ البشر:

وَكَأنّا لَمْ يَرْضَ فينا بريب الدّ ... هـرِ حَتّى أعانه مَنْ أعَانَا
كُلّما أنبت الزمانُ قَنَاةً ... ركّب المرءُ في القَنَاةِ سِنَانا

«ومقنِطُو الرّجاء»، أي أهل الرجاء، أي يبدّلون بشرورهم وأذاهم رَجَاء، الرّاجي قُنوطاً.

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الاستئذان، باب: من أجاب بلبيك وسعديك (٦٢٦٨)، ومسلم كتاب: الزكاة، باب: تغليظ عقوبة من لا يؤدي الزكاة (٩٩١).

قوله: «وإلى كلّ قلب شفيع»، يصف خلابة ألسنتهم وشدّة مَلقِهم، فقد استحوذُوا عَلَى قلوب الناس بالرّياء والتصنّع.

قوله: «ولكل شجو دموع»، الشجو: الحزن، أي يبكون تباكياً وتعمّلاً لا حقًّا، عند أهلِ كلّ حزن ومصاب.

يتقارضون الثناء، أي يثني زيد عَلَى عمرو، ليثنيَ عمرٌو عليه في ذلك المجلس، أو يبلغه فيثني عليه في مجلس آخر، مأخوذ من القَرْض.

ويتراقبون الجزاء: يرتقب كلّ واحدٍ منهم عَلَى ثنائه ومدْحِه لصاحبه جزاءً منه، إمّا بالمال أو بأمر آخر، نحو ثناء يثنى عليه، أو شفاعة يشفع له، أو نحو ذلك.

والإلحاف في السؤال: الاستقصاء فيه، وهو مذموم، قال الله تعالى: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾[1].

قوله: «وإن عَذَلوا كشفوا»، أي إذا عذَلك أحدهم كشف عيوبَك في ذلك اللّوم والعَذَل، وجبّهك بها، وربّما لا يستحي أن يذكُرَها لك بمحضر ممّن لا تحبّ ذكرَها بحَضرته، وليسوا كالناصحين عَلَى الحقيقة، الذين يعرّضون عند العتاب بالذّنب تعريضاً لطيفاً ليقلع الإنسان عنه.

وإن حكموا أسرفُوا، إذا سألت أحدَهم ففوّضتَه في مالك أسرفَ ولم يقنع بشيء، وأحبّ الاستئصال.

قد أعدُّوا لكلّ حقٍّ باطلاً، يقيمون الباطل في معارضة الحقّ، والشبهة في مصادمة الحجّة.

ولكلّ دليلٍ قائم وقول صحيح ثابت، احتجاجاً مائلاً مضادًّا لذلك الدليل، وكلاماً مضطرباً لذلك القول.

ولكلّ باب مفتاحاً، أي ألسنتهم ذلِقةٌ قادرةٌ عَلَى فَتْح المغلَقاتِ، لُلطْف توصّلهم، وظَرْف منطقهم.

ولكل ليل مصباحاً، أي كلّ أمرٍ مظلم فقد أعدُّوا له كلاماً ينيره ويضيئه، ويجعله كالمصباح الطارِد للّيل.

ويتوصلون إلى مطامعهم بإظهار اليأس عمّا في أيدي الناس، وبالزّهد في الدنيا. وفي الأثر: شرّكم مَنْ أخذ الدنيا بالدين[2].

ثم قال: إنّما فعلوا ذلك ليقيموا به أسواقهم، أي لتنفق سِلَعُهم.

والأعلاق: جمع عِلْق، وهو السلعة الثمينة.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٧٣.

(٢) لم أجده.

يقولون فيشبّهون، يوقعون الشُّبَه في القلوب.

ويصفون فيموّهمون، التمويه التزيين، وأصله أن تطلي الحديدة بذهب يحسّنها قد هيّئوا الطريق، أي الطريق الباطل قد هيأوها لتُسلك بتمويهاتهم.

وأضلعوا المضيق: أمالوه، وجعلوه ضِلَعاً، أي معوجًا، أي جعلوا المسلك الضيّق معوجًا بكلامهم وتلبيسهم، فإذا أسلكوه إنساناً اعوجّ لاعوجاجه.

واللُّمَة: بالتخفيف: الجماعة، والحُمَة بالتخفيف أيضاً: السمّ، وكني عن إحراق النار بالحمة للمشابهة في المضرّة.

---

١٨٨ – ومن خطبة له عليه السلام في ذكر بعض صفات الله

الأصل: ٱلحَمْدُ لله ٱلَّذِي أَظْهَرَ مِنْ آثَارِ سُلْطَانِهِ، وَجَلاَلِ كِبْرِيَائِهِ، ما حَيَّرَ مُقَلَ ٱلْعُقُولِ مِنْ عَجَائِبِ قُدْرَتِهِ، وَرَدَعَ خَطَرَاتِ هَمَاهِمِ النُّفُوسِ عَنْ عِرْفَانِ كُنْهِ صِفَتِهِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ ٱلله، شَهَادَةَ إِيمَانٍ وَإِيقَانٍ، وَإِخْلاَصٍ وَإِذْعَانٍ. وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرْسَلَهُ وَأَعْلاَمُ ٱلْهُدَى دَارِسَةٌ، وَمَنَاهِجُ الدِّينِ طَامِسَةٌ، فَصَدَعَ بِالْحَقِّ، وَنَصَحَ لِلْخَلْقِ، وَهَدَى إِلَى الرُّشْدِ، وَأَمَرَ بِالْقَصْدِ، صَلَّى ٱلله عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ!

وَٱعْلَمُوا عِبَادَ ٱلله، أَنَّهُ لَمْ يَخْلُقْكُمْ عَبَثاً، وَلَمْ يُرْسِلْكُمْ هَمَلاً، عَلِمَ مَبْلَغَ نِعَمِهِ عَلَيْكُمْ، وَأَحْصَى إِحْسَانَهُ إِلَيْكُمْ، فَاسْتَفْتِحُوهُ وَٱسْتَنْجِحُوهُ، وَٱطْلُبُوا إِلَيْهِ وَٱسْتَمْنِحُوهُ، فَمَا قَطَعَكُمْ عَنْهُ حِجَابٌ، وَلاَ أُغْلِقَ عَنْكُمْ دُونَهُ بَابٌ.

وَإِنَّهُ لَبِكُلِّ مَكَانٍ، وَفِي كُلِّ حِينٍ وَأَوَانٍ، وَمَعَ كُلِّ إِنْسٍ وَجَانٍّ، لاَ يَثْلِمُهُ ٱلْعَطَاءُ، وَلاَ يَنْقُصُهُ ٱلْحِبَاءُ، وَلاَ يَسْتَنْفِدُهُ سَائِلٌ، وَلاَ يَسْتَقْصِيهِ نَائِلٌ، وَلاَ يَلْوِيهِ شَخْصٌ عَنْ شَخْصٍ، وَلاَ يُلْهِيهِ صَوْتٌ عَنْ صَوْتٍ، وَلاَ تَحْجِزُهُ هِبَةٌ عَنْ سَلْبٍ، وَلاَ يَشْغَلُهُ غَضَبٌ عَنْ رَحْمَةٍ، وَلاَ تُولِهُهُ رَحْمَةٌ عَنْ عِقَابٍ، وَلاَ يُجِنُّهُ ٱلْبُطُونُ عَنِ الظُّهُورِ، وَلاَ يَقْطَعُهُ الظُّهُورُ عَنِ ٱلْبُطُونِ.

قَرُبَ فَنَأَى، وَعَلاَ فَدَنَا، وَظَهَرَ فَبَطَنَ، وَبَطَنَ فَعَلَنَ، وَدَانَ وَلَمْ يُدَنْ.

لَمْ يَذْرَأ ٱلْخَلْقَ بِاحْتِيَالٍ، وَلاَ ٱسْتَعَانَ بِهِمْ لِكَلاَلٍ.

أُوصِيكُمْ عِبَادَ ٱلله بِتَقْوَى ٱلله، فَإِنَّهَا الزِّمَامُ وَٱلْقِوَامُ، فَتَمَسَّكُوا بِوَثَائِقِهَا، وَٱعْتَصِمُوا بِحَقَائِقِهَا، تَؤُلْ بِكُمْ إِلَى أَكْنَانِ الدَّعَةِ، وَأَوْطَانِ السَّعَةِ، وَمَعَاقِلِ ٱلْحِرْزِ، وَمَنَازِلِ ٱلْعِزِّ، فِي يَوْمٍ

تَشْخَصُ فِيهِ ٱلابْصَارُ، وَتُظْلِمُ لَهُ ٱلأَقْطَارُ، وَتُعَطَّلُ فِيهِ صُرُومُ ٱلْعِشَارِ، وَيُنْفَخُ فِي الصُّورِ، فَتُزْهَقُ كُلُّ مُهْجَةٍ، وَتَبْكَمُ كُلُّ لَهْجَةٍ، وَتَذِلُّ الشُّمُّ الشَّوَامِخُ، وَالصُّمُّ الرَّوَاسِخُ، فَيَصِيرُ صَلْدُهَا سَرَاباً رَقْرَاقاً، وَمَعْهَدُهَا قَاعاً سَمْلَقاً، فَلاَ شَفِيعٌ يَشْفَعُ، وَلاَ حَمِيمٌ يَنْفَعُ، وَلاَ مَعْذِرَةٌ تَدْفَعُ.

الشرح: أظهر سبحانه من آثار سلطانه، نحو خلق الأفلاك ودخول بعضها في بعض، كالمَمِيل الذي يشتمِل على المائل، وذلك التّدْوير وغيرهما، ونحو خلْق الإنسان وما تدلّ كتب التشريح من عجيب الحكمة فيه، ونحو خلق النبات والمعادن، وترتيب العناصر وعلاماتها، والآثار العلوية المتجدّدة، حسب تجدد أسبابها، ما حير عقول هؤلاء، وأشعر بأنها إذا لم يحِط بتفاصيل تلك الحِكم مع أنّها مصنوعة، فالأوْلَى ألا تحيط بالصانع الذي هو بريءٌ عن المادة وعلائق الحسّ.

والمُقَل: جمع مُقْلة، وهي شحمة العين الّتي تجمع السواد والبياض، ومقلتُ الشيء: نظرت إليه بمقلتي، وأضاف المقل إلى «العقول» مجازاً، ومراده البصائر.

وردع: زجر ودفع. وهماهِم النفوس: أفكارها وما يهمهم به عند التمثيل والرويّة في الأمر، وأصل الهمهمة، صُوَيتٌ يسمع، لا يفهم محصوله.

والعِرْفَان: المعرفة، وكُنْه الشيء: نهايته وأقصاه. والإيقان: العِلْم القطعيّ، والإذعان: الانقياد. والأعلام: المنارُ والجبال يستدلّ بها في الطرقات.

والمناهج: السُّبُل الواضحة والطامسة كالدارسة. وصدَع بالحقّ: بيّن، وأصله الشقّ يظهر ما تحته. ويقال: نَصحتُ لزيد، وهو أفصح من قولك: نصحتُ زيداً.

والقَصْد: العدل.

والعَبَث. ما لا غرض فيه، أو ما ليس فيه غرض مثله، والهمَل: الإبل بلا راع، وقد أهمَلْتُ الإبل: أرسلتها سدًى.

قوله: «علِم مبلغ نعمه عليكم، وأحصى إحسانه إليكم»، أي هو عالم بكميّة إنعامه عليكم علماً مفصّلاً، وكلُّ مَنْ علم قدر نعمته على غيره كان أحرى أن تشتدّ نقمته عليه عند عصيانه له وجرأته عليه، بخلاف مَنْ يجهل قدر نعمته على الغير، فإنه، لا يشتدّ غضبه لأنه لا يعلم قدر نعمته المكفورة.

قوله: «فاستفتحوه»، أي اطلبوا منه الفَتْح عليكم والنَّصْر لكم.

واستنجِحُوه: اطلبوا منه النجاح والظَّفَر.

واطلبوا إليه، أي اسألوه، يقال: طلبت إلى زيد كذا وفي كذا.

واستمنِحوه، بكسر النون: اطلبوا منه المِنْحة، وهي العطيّة. ويروى: «واستميحوه» بالياء، استمحتُ الرّجُل: طلبت عطاءه، ومحتُ بالرجل: أعطيته.

ثم ذكر عليه السلام أنّه لا حِجاب يمنَع عنه، ولا دونه باب يُغلق، وأنه بكلّ مكان موجود، وفي كلّ حين وأوانٍ، والمراد بوجوده في كلّ مكان إحاطة علمه، وهو معنى قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[1]، وقوله سبحانه: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[2].

قوله: «لا يثلِمه العطاء» بالكسر: لا ينقص قدرته.

والحِباء: النَّوال ولا يستنفذه، أي لا يفنيه.

ولا يستقصيه: لا يبلغ الجود أقصى مقدوره وإن عَظُم الجود، لأنّه قادر على ما لا ناهية له.

ولا يلويه شخص عن شخص: لا يوجب ما يفعله لشخص أو مع شخص إعراضاً وذهولاً عن شخصٍ آخر، بل هو عالم بالجميع، لا يشغله شأن عن شأن. لوى الرجل وجهه، أي أعرض وانحرف، ومثل هذا أراد بقوله: «ولا يلهيه صوت عن صوت»، ألهاه كذا، أي شغَله.

ولا تحجُزه - بالضمّ - هِبة عن سَلْب، أي لا تمنعه، أي ليس كالقادرين بالقدرة مثلنا، فإنّ الواحد منا يصرفه اهتمامه بعطيّة زيد عن سلب مال عمرو، حالَما يكون مهتمًّا بتلك العطيّة، لأنّ اشتغال القلب بأحد الأمرين يشغله عن الآخر.

ومثل هذا قوله: «ولا يشغله غضب عن رحمة، ولا تُولِهه رحمة عن عقاب»، أي لا تحدث الرحمة لمستحقها عنده ولَهاً، وهو التحيّر والتردّد، وتصرفه عن عقاب المستحقّ، وذلك لأنّ الواحد منا إذا رحِمَ إنساناً حدث عنده رقّة، خصوصاً إذا توالت منه الرحمة لقوم متعدّدين، فإنه تصير الرحمة كالمَلكة عنده، فلا يطيق مع تلك الحال أنْ ينتقم، والباريء تعالى بخلاف ذلك، لأنه ليس بذي مزاج سبحانه.

ولا يجنّه البطون عن الظهور، ولا يقطعه الظهور عن البطون، هذه كلّها مصادر، بَطَن بُطوناً أي خَفِيَ، وظهر ظهوراً، أي تجلّى، يقول: لا يمنعه خفاؤه عن العقول أن تدركه عند ظهوره بأفعاله وإنْ لم يكن ظاهراً بذاته، وكذلك لا يقطعه ظهوره بأفعاله عن أن يخفي كُنهه عن إبصار العقول وإدراكها له. ويقال: اجتننت كذا، أي سترته، ومنه الجنين، والجُنَّة للترس، وسمّي الجنُّ جنًّا لاستتارهم.

ثم زاد المعنى تأكيداً فقال: «قرُب فنأى»، أي قرب فعلاً فنأى ذاتاً، أي أفعاله قد تُعلم، ولكنّ ذاته لا تعلم.

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٧.

(٢) سورة الحديد، الآية: ٤.

ثم قال: «وعلا فدنا»، أي لمّا علا عن أن تحيط به العقول عرفته العقول، لا أنّها عرفت ذاته، لكن عرفت أنّه شيء لا يصحّ أن يعرف، وذلك خاصّته سبحانه، فإن ماهيّته يستحيل أن تتصوّر للعقل لا في الدنيا ولا في الآخرة، بخلاف غيره من الممكنات.

ثم أكّد المعنى بعبارة أخرى، قال: «وظهر فبطَن، وبطن فعلَن»، وهذا مثل الأوّل، ودان: غلب وقَهر، ولم يُدَنْ: لم يقهر ولم يغلب.

ثم قال: «لم يذرأ الخلق باحتيال» أي لم يخلقْهم بحيلة توصّل بها إلى إيجادهم، بل أوجدَهُم على حسب عِلمه بالمصلحة خلقاً مخترعاً من غير سببٍ ولا واسطة.

قال: «ولا استعان بهم لكَلاَل»، أي لإعياء، أي لم يأمر المكلّفين بالجهاد لحاجته في قهر أعدائه، وجاحدي نعمته إليهم، وليس بكالٍّ ولا عاجز عن إهلاكهم، ولكنّ الحكمةَ اقتضتْ ذلك، قال سبحانه: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾[1]، أي لبطل التكليف.

ثم ذكر أنّ التقوى قِوام الطاعات التي تقوم بها، وزمام العبادات؛ لأنها تمسِك وتحصّن، كزمام الناقة المانع لها من الخبْط.

والوثائق: جمع وثيقة، وهي ما يوثق به. وحقائقها جمع حقيقة، وهي الراية، يقال: فلان حامي الحقيقة.

قوله: «تَؤُلْ» بالجزم، لأنه جواب الأمر، أي ترجع.

والأكنان: جمع كِنّ وهو السّتر. والدّعة: الراحة. السَّعَة: الجِدَة. والمعاقل: جمع مَعْقِل، وهو الملجأ. والْحِرز: الحفظ. وتشخص الأبصار: تبقى مفتوحة لا تطرف.

والأقطار: الجوانب. والصُّروم: جمع صُرْم وصِرْمة، وهي القطعة من الإبل نحو الثلاثين.

والعِشار: النّوق أتىٰ عليها من يوم أرسل الفحل فيها عشرة أشهر فزال عنها اسم المخاض ولا يزال ذلك اسمها حتى تَضَع، والواحدة عُشَراء، وهذا من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾[2]، أي تركت مسيّبة مهملَة لا يلتفت إليها أربابها، ولا يحلبونها لاشتغالهم بأنفسهم.

وتزهق كلّ مهجة: تهلك. وتبكَم كلّ لهجه، أي تخرس، رجل أبكم وبكيم، والماضي بكِمَ بالكسر.

والشُّمّ الشوامخ: الجبال العالية، وذُلّها: تدكْدكها، وهي أيضاً الصّمّ الرواسخ.

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥١.

(٢) سورة التكوير، الآية: ٤.

فيصير صلدها - وهو الصلب الشديد انصلابه - سراباً، وهو ما يتراءى في النهار فيظنّ ماءً.

والرَّقراق: الخفيف. ومعهدها: ما جعل منها منزلاً للناس. قاعاً: أرضاً خالية.

والسَّمْلق: الصفصف المستوي، ليس بعضه أرفعَ وبعضه أخفض.

١٨٩ - ومن خطبة له عليه السلام يحث على العمل الصالح

الأصل: بَعَثَهُ حِينَ لاَ عَلَمٌ قَائِمٌ، وَلاَ مَنَارٌ سَاطِعٌ، ولا مَنْهَجٌ واضِحٌ.

أوصِيكُمْ عِبادَ الله بِتَقْوَى الله، وَأُحَذِّرُكُمُ الدُّنيا، فإنَّها دَارُ شُخُوصٍ، وَمَحَلَّةُ تَنْغِيصٍ، ساكِنُها ظاعِنٌ، وَقاطِنُها بائِنٌ.

تَمِيدُ بِأَهْلِهَا مَيَدَانَ السَّفِينَةِ، تَقْصِفُها الْعَوَاصِفُ في لُجَجِ الْبِحَارِ، فَمِنْهُمُ الْغَرِقُ الْوَبِقُ، وَمِنْهُمُ النَّاجِي على بُطُونِ الأَمْوَاجِ، تَحْفِزُهُ الرِّياحُ بِأَذْيالِها، وَتَحْمِلُهُ على أَهْوَالِها، فَما غَرِقَ مِنْهَا فَلَيْسَ بِمُسْتَدْرَكٍ، وما نَجا مِنْها فَإِلَى مَهْلَكٍ.

عِبَادَ الله، الآنَ فَاعْلَمُوا، وَالأَلْسُنُ مُطْلَقَةٌ، وَالأَبْدَانُ صَحِيحَةٌ، وَالأَعْضاءُ لَدْنَةٌ، وَالمُنْقَلَبُ فَسِيحٌ، والْمَجالُ عَرِيضٌ، قَبْلَ إِرْهاقِ الْفَوْتِ، وَحُلُولِ الْمَوْتِ، فَحَقِّقُوا عَلَيْكُمْ نُزُولَهُ، وَلا تَنْتَظِرُوا قُدُومَهُ.

الشرح: يقول: بعث الله سبحانه محمداً صلى الله عليه وآله لمّا لم يبق عَلَمٌ يهتدي به المكلَّفون، لأنّه كان زمان الفترة وتبدّل المصلحة، واقتضاء وجوب اللّطف عليه سبحانه تجديداً لبعثه، ليعرِّف المبعوثُ المكلّفين الأفعال التي تقرّبهم من فعل الواجبات العقلية، وتبعدهم عن المقبّحات الفعلية. والمنار الساطع: المرتفع. سطح الصُّبْحُ سطوعاً: ارتفع.

ودارُ شخوص: دار رحْلة شَخَص عن البلد: رحل عنه.

والظاعن: المسافر. والقاطن: المقيم. والبائن: البعيد. يقول: ساكن الدنيا ليس بساكن على الحقيقة، بل هو ظاعن في المعنى وإن كان في الصورة ساكناً، والمقيم بها مفارق، وإنْ ظَنّ أنه مقيم.

وتميد بأهلها: تتحرّك وتميل والمَيَدان: حركة واضطراب.

وتصفقها العواصفُ تضربها بشدّة، ضرباً بعد ضرب. والعواصف: الرياح القوية. اللُّجج: جمع لُجّة، وهي معظم البحر.

الوبق: الهالك، وبَق الرجل بالفتح، يبِقُ وبوقاً: هلك، والموْبِق منه كالموعِد «مفعِل» عن وعد يعِد، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾[1]، وفيه لغة أخرى: وَبَقَ الرجل يَوْبَق وَبقاً، وفيه لغة ثالثة: وَبِق الرّجل، بالكسر يبق بالكسر أيضاً، وأوبقه الله، أي أهلكه.

وتحفزه الرياح، تدفعه. ضرب عليه السلام لأهل الدنيا مثلاً براكبي السَّفينة في البحر، وقد مادَتْ بهم، فمنهم الهالك على الفور، ومنهم مَنْ لا يتعجّل هلاكه، وتحمله الرياح ساعة أو ساعات، ثم مآله إلى الهلاك أيضاً.

ثم أمَرَ عليه السلام بالعمل وقتَ الإمكان قبل ألاّ يمكن العمل، فكنَى عن ذلك بقوله: والألسن منطلِقة، لأنّ المحتضَر يُعتقل لسانه، والأبدان صحيحة، لأنّ المحتضَر سقيم البدن. والأعضاء لدْنة، أي لينة، أي قبل الشيخوخة والهرَم ويبس الأعضاء والأعصاب. والمنقلَب فسيح، والمجال عريض، أي أيام الشبيبة وفي الوقت والأجل مهلة، قبل أن يضيق الوقت عليكم.

قبل إرهاق الفوت، أي قبل أن يجعلكم الفوت - وهو فوات الأمر وتعذّر استدراكه عليكم - مرهَقين، والمرهَق: الذي أدرك ليقتل، قال الكميت:

تَـنْـدَى أكُـفُّـهـمُ وَفـي أبْـيَـاتِـهِـمْ ... ثِـقَـةُ ٱلْـمُـجَـاورِ والـمـضـافِ الـمـرْهَـقِ

قوله: «فحقّقوا عليكم نزوله، ولا تنتظروا قدومه»، أي اعملوا عمل مَنْ يشاهد الموت حقيقة، لا عمل مَنْ ينتظره انتظاراً ويطاول الأوقات مطاولة، فإنّ التسويف داعية التقصير.

---

١٩٠ - ومن خطبة له عليه السلام يذكر مواقفه من الرسول

الأصل: وَلَقَدْ عَلِمَ المُسْتَحْفَظُونَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسلّم، أَنّي لَمْ أَرُدَّ عَلَى ٱللهِ وَلاَ عَلَى رَسُولِهِ ساعَةً قَطُّ، وَلَقَدْ وَاسَيْتُهُ بِنَفْسِي فِي المَوَاطِنِ الَّتِي تَنْكُصُ فِيها الأَبْطالُ، وَتَتَأخَرُ الأَقْدَامُ، نَجْدَةً أَكْرَمَنِي ٱللهُ بِهَا.

وَلَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ اللهِ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ وَإِنَّ رَأْسَهُ لَعَلَى صَدْرِي، وَلَقَدْ سالَتْ نَفْسُهُ فِي كَفِّي، فَأَمْرَرْتُها عَلَى وَجْهِي. وَلَقَدْ وُلِّيتُ غُسْلَهُ صَلّى ٱللهُ عَلَيْهِ وسلّم وَالمَلاَئِكَةُ أَعْوَانِي،

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٥٢.

فَضَجَّتِ الدَّارُ وَالأَفْنِيَةُ: مَلأٌ يَهْبِطُ، ومَلأٌ يَعْرُجُ، وَمَا فَارَقَتْ سَمْعِي هَيْنَمَةٌ مِنْهُمْ، يُصَلُّونَ عَلَيْهِ، حَتَّى وَارَيْنَاهُ فِي ضَرِيحِهِ، فَمَنْ ذَا أَحَقُّ بِهِ مِنِّي حَيًّا وَمَيِّتاً!

فَانْفُذُوا عَلَى بَصائِرِكُمْ، وَلْتَصْدُقْ نِيَّاتُكُمْ فِي جِهادِ عَدُوِّكُمْ، فَوَالَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ إِنِّي لَعَلَى جادَّةِ الحَقِّ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى مَزَلَّةِ الْبَاطِلِ. أَقُولُ مَا تَسْمَعُونَ، وَأَسْتَغْفِرُ ٱللهَ لِي وَلَكُمْ.

الشرح: يمكن أن يعني بالمستحفَظين الخُلفاء الّذين تقدّموا؛ لأنهم الّذين استحفِظوا الإسلام، أي جُعِلوا حافظين له، وحارسين لشريعته ولحوزته، ويجوز أن يعني به العلماء والفُضَلاء من الصّحابة؛ لأنهم استحفِظوا الكتاب، أي كُلِّفوا حفظَه وحراسته.

والظاهر أنه يرمز في قوله عليه السلام: «لم أردّ على الله، ولا على رسوله ساعة قطّ» إلى أمور وقعتْ من غيره، كما جرى يوم الحديبية عند سَطْر كتاب الصلح، فإنّ بعض الصحابة أنكر ذلك، وقال: يا رسولَ الله، ألسنا المسلمين؟ قال: «بلى»، قال: أوَليسُوا الكافرين؟ قال: «بلى»، قال: فكيف نُعطي الدنيّة في ديننا! فقال صلى الله عليه وسلم: «إنّما أعملَ بما أومَر به» فقال قوم من الصحابة: ألم يكن قد وعدنا بدخول مكة! وها نحن قد صُدِدنا عنها ثم ننصرف بعد أن أعطينَا الدنيّة في ديننا، والله لو أجد أعواناً لم أعطِ الدنيّة أبداً، فقال أبو بكر لهذا القائل: ويحك! الزَمْ غَرْزه، فوالله إنّه لرَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم، وإنّ الله لا يضيّعه.

ثم قال له: أقال لك: إنه سيدخلها هذا العام؟ قال: لا، قال: فسيدخلُها. فلما فتح النبيّ صلى الله عليه وسلم مكة، وأخذ مفاتيح الكعبة دعاه فقال: هذا الذي وُعدتم به.

واعلم أنّ هذا الخبر صحيحٌ لا ريبَ فيه، والنّاس كلُّهم روَوْه، وليس عندي بقبيح ولا مستهجَن أن يكون سؤال هذا الشخص لرسول الله صلى الله عليه وسلم عمّا سأله عنه على سبيل الاسترشاد، والتماساً لطُمأنينة النفس، فقد قال الله تعالى لخليله إبراهيم: ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾[1]. وقد كانت الصّحابة تراجع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الأمور، وتسأله عمّا يستبهِم عليها وتقول له: أهذا منك أم من الله؟ وقال له السَّعْدان رحمهما الله يوم الخندق، وقد عزم على مصالحة الأحزاب ببعْضِ تمر المدينة: أهذا مِن الله أم رأيٌ رأيتَه من نفسك؟ قال: بل من نفسي، قالا: لا، والله لا نعطيهم منها تمرةً واحدة وأيدينا في مقابض سيوفنا!

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٦٠.

وقالت الأنصار له يوم بدر، وقد نزل بمنزلٍ لم يستصلحوه: أنزَلْتَ هذا المنزل عن رأيٍ رأيتَ أم بوحيٍ أُوحِيَ إليك؟ قال: بل عن رأيٍ رأيتُه، قالوا: إنّه ليس لنا بمنزلٍ، ارحل عنه فانزل بموضع كذا.

وأما قول أبي بكر له: «الزم غَرْزه، فوالله إنه لرسول الله ﷺ» فإنما هو تأكيد وتثبيت على عقيدته التي في قلبه، ولا يدلّ ذلك على الشكّ، فقد قال الله تعالى لنبيّه: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾[1]، وكلُّ أحد لا يستغني عن زيادة اليقين والطمأنينة. وقد كانت وقعت من هذا القائل أمورٌ دون هذه القصّة، كقوله: دعْني أضرب عُنُق أبي سفيان. وقوله: دَعْني أضرب عُنق عبد الله بن أبيّ، وقوله: دَعْني أضرب عُنق حاطب بن أبي بَلْتعة. ونَهْى النبيّ ﷺ له عن التسرّع إلى ذلك، وجذبه ثوبَ رسول الله ﷺ حين قام على جنازة ابن سَلُول يصلّي، وقوله: كيف تستغفر لرأس المنافقين! وليس في ذلك جميعه ما يدلّ على وقوع القبيح منه، وإنما الرّجلُ كان مطبوعاً على الشّدة والشراسة والخشونة، وكان يقول ما يقول على مقتضى السجيّة التي طبع عليها. وعَلَى أيّ حال كان، فلقد نال الإسلام بولايته وخلافته خيراً كثيراً.

قوله عليه السلام: «ولقد واسيتُه بنفسي»، يقال: واسيته وآسيته، وبالهمزة أفصح، وهذا مما اختصّ عليه السلام بفضيلته غير مدافَع، ثبت معه يوم أُحُد وفرّ الناس، وثبت معه يوم حُنين وفرّ الناس، وثبت تحت رايته يوم خَيْبر حتى فتحها وفرّ من كان بعث بها من قبله.

وروى المحدّثون أنّ رسول الله ﷺ لما ارْتُثَّ يوم أُحُد، قال الناس: قتِل محمد، رأته كتيبة من المشركين وهو صريع بين القتلى، إلاّ أنه حيٌّ، فصمَدتْ له فقال لعليّ عليه السلام: اكفني هذه، فحمل عليها عليه السلام وقتل رئيسها، ثم صَمَدت له كتِيبة أخرى، فقال: يا عليّ اكفني هذه، فحمل عليها فهزمها، وقتل رئيسها، ثم صمَدت له كتيبة ثالثة، فكذلك، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك يقول: قال لي جبريل: يا محمد، إنّ هذه لَلْمواساة، فقلت: وما يمنعه وهو منّي وأنا منه! فقال جبريل: وأنا منكما[2].

وروى المحدّثون أيضاً أنّ المسلمين سمِعوا ذلك اليوم صائحاً من جهة السماء ينادي: «لا سيف إلا ذو الفَقار، ولا فتى إلاّ عليّ» فقال رسول الله ﷺ لمن حضره: «ألا تسمعون! هذا صوتُ جبريل».

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٤.

(٢) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩٤١).

وأما يومُ حنين فثبت معه في نفرٍ يسير من بني هاشم، بعد أن ولّى المسلمون الأدبار، وحامَى عنه، وقتَل قوماً من هوازن بين يديه، حتى ثابتْ إليه الأنصار، وانهزمت هوازن وغنمت أموالها.

وأما يوم خيبَر فقصّته مشهورة.

قوله عليه السلام: «نجدةً أكرمني الله سبحانه بها»، النّجْدة: الشجاعة، وانتصابها ها هنا على أنّها مصدر، والعامل فيه محذوف.

ثم ذكر عليه السلام وفاةَ رسول الله صلى الله عليه وآله، فقال: «لقد قبض وإنّ رأسَه لعَلَى صدري، وقد سالتْ نفسه في كفي، فأمررتُها على وجهي»، يقال: إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قاء دماً يسراً وقت موته، وإنّ عليًّا عليه السلام مَسَحَ بذلك الدّم وجهه.

وقد رُوِيَ أنّ أبا طيبة الحجّام شرب دمَه عليه السلام وهو حيّ، فقال له: إذن لا يجعْ بطنك.

قوله عليه السلام: «فضجّت الدار والأفنيَة»، أي النازلون في الدار من الملائكة، أي ارتفع ضَجيجُهم ولجبُهم، يعني أني سمعت ذلك ولم يسمعه غيري من أهل الدار.

والملأ: الجماعة، يهبط قومٌ من الملائكة ويصعد قوم. والعروج: الصعود. والهينمة: الصوْت الخفيّ. والضريح: الشقّ في القبر.

خبر موت الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله

وقد روي مِنْ قصّة وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه عرَضت له الشّكاة التي عرضت، في أواخر صفر من سنة إحدى عشرة للهجرة، فجهّز جيش أسامة بن زيد، فأمرهم بالمسير إلى البَلْقاء حيث أصيب زيد وجعفر عليه السلام من الرّوم، وخرج في تلك الليلة إلى البقيع، وقال: إنّي قد أمِرْت بالاستغفار عليهم، فقال عليه السلام: السّلام عليكم يا أهلَ القبور، ليهنِكُم ما أصبحتم فيه مِمّا أصبح الناس فيه، أقبلت الفِتَن كقطع الليل المظلم، يتبع أوّلَها آخرُها. ثم استغفر لأهل البقيع طويلاً، ثم قال لأصحابه: إن جبريل كان يعارِضُني القرآن في كلّ عام مرّة، وقد عارضني به العامَ مرتين، فلا أراه إلا لحضور أجلي. ثم انصرف إلى بيته، فخطب الناس في غدِه، فقال: معاشر الناس قد حان منّي خُفُوق من بين أظهركم، فمن كان له عندي عِدَة، فليأتني أعطه إياها، ومَنْ كان عليّ دين، فليأتني أقضِه. أيّها الناس، إنّه ليس بين الله وبين أحد نسبٌ ولا أمر يؤتيه به خيراً، أو يصرف عنه شرًّا إلا العمل، ألا لاَ يدّ عينّ مدّع ولا يتمنَّينّ متمن. والذي بعثني بالحق لا ينجّي إلاّ عملٌ مع رحمة، ولو عَصَيْت لهويت. اللهم قد بلّغت.

ثم نزل فصلّى بالناس صلاة خَفيفة، ثم دخل بيت أم سلَمة، ثمّ انتقل إلى بيت عائشة يعلّله النساء والرجال، أمّا النساء فأزواجه وبنته عليها السلام، وأمّا الرجال فعليّ عليه السلام والعبّاس

والحسن والحسين عليهما السلام، وكانا غلامين يومئذٍ، وكان الفضل بن العباس يدخل أحياناً إليهم، ثم حدث الاختلاف بين المسلمين أيام مَرَضِه، فأوّل ذلك التنازع الواقع يوم قال صلى الله عليه وآله: «ائتوني بدواة وقرطاس»[1]، وتلا ذلك حديث التخلّف عن جيش أسامة، وقول عياش بن أبي ربيعة: أيولّى هذا الغلام على جلّة المهاجرين والأنصار!

ثم اشتدّ به المرض، وكان عند خفّة مرضه يصلّي بالناس بنفسه، فلما اشتدّ به المرض، أمر أبا بكر أن يصلّيَ بالناس.

وقد اختلف في صلاته بهم، فالشّيعة تزعم أنه لم يصلِّ بهم إلاّ صلاةً واحدة، وهي الصّلاة التي خرج رسول الله صلى الله عليه وآله فيها يتهادَى بين عليّ عليه السلام والفَضْل، فقام في المحراب مقامه، وتأخّر أبو بكر.

والصحيح عندي - وهو الأكثر الأشهر - أنّها لم تكنْ آخرَ صلاة في حياته صلّى الله عليه وآله بالنّاس جماعة، وأنّ أبا بكر صلّى بالناس بعد ذلك يومين، ثم مات صلّى الله عليه وآله، فمن قائل يقول: إنّه توفّيَ لليلتين بقيَتَا من صَفَر، وهو القول الذي تقوله الشّيعة، والأكثرون أنّه توفّيَ في شهر ربيع الأول بعد مضيّ أيام منه.

وقد اختلفت الرّواية في موته، فأنكر عمر ذلك، وقال: إنّه لم يَمُتْ، وإنه غاب وسيعود، فثناه أبو بكر عن هذا القول، وتلا عليه الآيات المتضمّنة أنه سيموت، فرجع إلى قوله.

ثم اختلفوا في موضع دفنه، فرأى قوم أن يدفنوه بمكّة لأنّها مسقطُ رأسه، وقال مَنْ قال: بل بالمدينة، ندفنه بالبقيع عند شهداء أُحُد. ثم اتفقوا على دفنه في البيت الذي قبِض فيه، وصلّوا عليه أرسالاً لا يؤمّهم أحد.

وقيل: إن عليًا عليه السلام أشار بذلك فقبلوه.

وأنا أعجب من ذلك، لأنّ الصّلاة عليه كانت بعد بَيْعة أبي بكر، فما الذي منع من أن يتقدّم أبو بكر فيصلّي عليه إماماً!

وتنازعوا في تلحيدِه وتضريحِه، فأرسل العبّاس عمُّه إلى أبي عبيدة بن الجرّاح - وكان يحفِر لأهل مكّة ويضرَح على عادتهم - رجلاً، وأرسل عليّ رجلاً إلى أبي طلحة الأنصاري - وكان يَلحَد لأهل المدينة على عادتهم - وقال: اللهمّ اخترْ لنبيّك، فجاء أبو طلحة فلحَد له، وأدخِل في اللّحد.

وتنازعوا فيمن ينزل معه القَبْر، فمنَع عليٌّ عليه السلام النّاس أن ينزلوا معه، وقال: لا ينزل قبرَه

(١) ذكره في «الملل والنّحل» (١/ ٢٢).

غيري وغير العبّاس، ثم أذن في نزولِ الفضل وأسامة بن زيد مولاهم، ثم ضجّت الأنصار، وسألت أن ينزل منها رجل في قبره. فأنزلوا أوْس بن خوليّ - وكان بدريًا.

فأما الغسْل فإنّ علياً عليه السلام تولاّه بيده، وكان الفضل بن العباس يصبّ عليه الماء.

وروى المحدّثون عن عليّ عليه السلام، أنه قال: ما قَلَبْتُ منه عُضواً إلاّ وانقلب، لا أجدُ له ثِقلاً، كأنّ معي مَنْ يساعدني عليه، وما ذلك إلا الملائكة.

وأما حديث الهينمة وسماع الصّوت، فقد رواه خَلْق كثير من المحدّثين، عن عليّ عليه السلام، وتروِي الشيعة أنّ عليًا عليه السلام عَصَب عَيْنَي الفضْل بن العباس، حين صبّ عليه الماء، وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله أوصاه بذلك، وقال: إنه لا يبصر عورتي أحدٌ غيرُك إلا عَمِيَ.

قوله عليه السلام: «فمن ذا أحقّ به منّي حيًا وميتاً!»، انتصابهما على الحال من الضمير المجرور في «به»، أي أيّ شخص أحقّ برسول الله صلى الله عليه وآله حال حياته وحال وفاته منّي! ومرادُه من هذا الكلام، أنّه أحق بالخلافة بعدَه وأحقّ الناس بالمنزلة منه حيث كان بتلك المنزلة منه في الدنيا، وليس يجوز أن يكونا حالَين من الضمير المجرور في «منّي» لأنه لا يحسن أن يقول: أنا أحقّ به إذا كنت حيًا من كلّ أحد، وأحق به إذا كنت ميتاً من كلّ أحد، لأنّ الميت لا يوصَف بمثل ذلك، ولأنه لا حال ثبتت له من الأحقيّة إذا كان حيًا إلاّ وهي ثابتة له إذا كان ميتاً، وإن كان الميت يوصف بالأحقيّة، فلا فائدة في قوله.

و«ميتاً» على هذا الفرض، ولا يبقى في تقسيم الكلام إلى قسمين فائدة، وأمّا إذا كان حالاً من الضمير في «به»، فإنه لا يلزم من كونه أحقّ بالمنزلة الرفيعة من رسول الله صلى الله عليه وآله وهو حيّ أن يكونَ أحقَّ بالخلافة بعد وفاته، أي ليس أحدُهما يلزم الآخر، فاحتاج إلى أن يبيّن أنّه أحقّ برسول الله صلى الله عليه وآله من كل أحدٍ إن كان الرسول حيًا، وإنْ كان ميّتاً، ولم يستهجن أن يقسّم الكلام إلى القسمين المذكورين.

قوله عليه السلام: «فانفذوا إلى بصائركم»، أي أسرعوا إلى الجهاد على عقائدكم التي أنتم عليها، ولا يدخلنّ الشكّ والرَّيب في قلوبكم.

قوله عليه السلام: «إني لعلَى جادّة الحق، وإنّهم لعلَى مزلّة الباطل»، كلام عجيب على قاعدة الصناعة المعنوية، لأنّه لا يحسن أن يقول: وإنهم لَعَلَى جادّة الباطل، لأن الباطل لا يوصف بالجادّة، ولهذا يقال لمن ضلّ وقع في بُنَيّاتِ الطريق، فتعوّض عنها بلفظ «المزلّة»، وهي الموضع الذي يزلّ فيه الإنسان، كالمزلقة: موضع الزَّلَق، والمغرَقة: موضع الغرق، والمهلكة: موضع الهلاك.

١٩١ - ومن خطبة له عليه السلام في حث الناس على التقوى

الأصل: يَعْلَمُ عَجِيجَ ٱلْوُحُوشِ فِي ٱلْفَلَوَاتِ، وَمَعَاصِيَ ٱلْعِبَادِ فِي ٱلْخَلَوَاتِ، وَٱخْتِلاَفَ النِّينَانِ فِي ٱلْبِحَارِ ٱلْغَامِرَاتِ، وَتَلاَطُمَ المَاءِ بِالرِّيَاحِ ٱلْعَاصِفَات.

وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً نَجِيبُ ٱللهِ، وَسَفِيرُ وَحْيِهِ، وَرَسُولُ رَحْمَتِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى ٱللهِ ٱلَّذِي ٱبْتَدَا خَلْقَكُمْ، وَإِلَيْهِ يَكُونُ مَعَادُكُمْ، وَبِهِ نَجَاحُ طَلِبَتِكُمْ، وَإِلَيْهِ مُنْتَهَى رَغْبَتِكُمْ، وَنَحْوَهُ قَصْدُ سَبِيلِكُمْ، وَإِلَيْهِ مَرَامِي مَفْزَعِكُمْ، فَإِنَّ تَقْوَى ٱللهِ دَوَاءُ دَاءِ قُلُوبِكُمْ، وَبَصَرُ عَمَى أَفْئِدَتِكُمْ، وَشِفَاءُ مَرَضِ أَجْسَادِكُمْ، وَصَلاَحُ فَسَادِ صُدُورِكُمْ، وَطُهُورُ دَنَسِ أنفسكم، وَجِلاَءُ غِشَاءِ أَبْصَارِكُمْ، وَأَمْنُ فَزَعِ جَأْشِكُمْ، وَضِيَاءُ سَوَادِ ظُلْمَتِكُمْ.

الشرح: العجيج: رفع الصوت، وكذلك العَجّ، وفي الحديث: «أفضل الحجّ العَجّ والثَّجّ»[1]، أي التلبية وإراقة الدم، وعجيج، أي صوت، ومضاعفة اللفظ دليل على تكرير التصويت.

والنِّينان: جمع نُونٍ، وهو الحوت، واختلافها ها هنا: هو إصعادها وانحدارها.

ونجيب الله: منتجَبه ومختاره.

وسفير وحيه: رسول وحيه، والجمع سفَراء، مثل فقيه وفقهاء.

وإليه مرامي مفزعِكم: إليه تفزعون وتلجؤون، ويقال: فلان مرمَى قصدي، أي هو الموضع الذي أنحوه وأقصِده.

ويروى: «وجلاء عَشَى أبصاركم»، بالعين المهملة والألف المقصورة، والجأس: القلب، وتقدير الكلام: وضياء سواد ظلمة عقائدكم، ولكنّه حذف المضاف للعلم به.

الأصل: فَاجْعَلُوا طَاعَةَ ٱللهِ شِعَاراً دُونَ دِثَارِكُمْ، وَدَخِيلاً دُونَ شِعَارِكُمْ، وَلَطِيفاً بَيْنَ أَضْلاَعِكُمْ، وَأَمِيراً فَوْقَ أُمُورِكُمْ، وَمَنْهَلاً لِحِينِ وُرُودِكُمْ، وَشَفِيعاً لِدَرْكِ طَلِبَتِكُمْ،

(١) أخرجه الترمذي، كتاب الحج، باب: ما جاء في فضل التلبية والحج (٨٢٧)، وابن ماجه، كتاب الحج، باب: من قدّم نسكاً قبل نسك (٢٩٢٤).

وَجُنَّةً لِيَوْمِ فَزَعِكُمْ، وَمَصَابِيحَ لِبُطُونِ قُبُورِكُمْ، وَسَكَناً لِطُولِ وَحْشَتِكُمْ، وَنَفَساً لِكَرْبِ مَوَاطِنِكُمْ، فَإِنَّ طَاعَةَ اللهِ حِرْزٌ مِنْ مَتَالِفَ مُكْتَنِفَةٍ، وَمَخَاوِفَ مُتَوَقَّعَةٍ، وَأُوَارِ نِيرَانٍ مُوقَدَةٍ.

فَمَنْ أَخَذَ بِالتَّقْوَى عَزَبَتْ عَنْهُ الشَّدَائِدُ بَعْدَ دُنُوِّهَا، وَاحْلَوْلَتْ لَهُ الْأُمُورُ بَعْدَ مَرَارَتِهَا، وَانْفَرَجَتْ عَنْهُ الْأَمْوَاجُ بَعْدَ تَرَاكُمِهَا، وَأَسْهَلَتْ لَهُ الصِّعَابُ بَعْدَ إِنْصَابِهَا، وَهَطَلَتْ عَلَيْهِ الْكَرَامَةُ بَعْدَ قُحُوطِهَا. وَتَحَدَّبَتْ عَلَيْهِ الرَّحْمَةُ بَعْدَ نُفُورِهَا، وَتَفَجَّرَتْ عَلَيْهِ النِّعَمُ بَعْدَ نُضُوبِهَا، وَوَبَلَتْ عَلَيْهِ الْبَرَكَةُ بَعْدَ إِرْذَاذِهَا. فَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي نَفَعَكُمْ بِمَوْعِظَتِهِ، وَوَعَظَكُمْ بِرِسَالَتِهِ، وَامْتَنَّ عَلَيْكُمْ بِنِعْمَتِهِ. فَعَبِّدُوا أَنْفُسَكُمْ لِعِبَادَتِهِ، وَاخْرُجُوا إِلَيْهِ مِنْ حَقِّ طَاعَتِهِ.

الشرح: الشّعار: أقرب إلى الجَسَد من الدِّثار. والدّخيل: ما خالط باطنَ الجسد، وهو أقرب من الشعار.

ثم لم يقتصر على ذلك حتى أمر بأن يجعل التقوى لطيفاً بين الأضلاع، أي في القلب، وذلك أمسّ بالإنسان من الدخيل، فقد يكون الدّخيل في الجسد وإن لم يخامر القلب.

ثم قال: «وأميراً فوق أموركم»، أي يحكُم على أموركم كما يحكم الأمير في رعيّته.

والمنهل: الماء يرِده الوارد من الناس وغيرهم.

وقوله: «لحين ورودكم»، أي لوقت ورودكم.

والطَّلِبة بكسر اللام: ما طلبته من شيء.

قوله: «ومصابيح لبطون قبوركم»، جاء في الخبر: إن العمل الصالح يضِيء قبرَ صاحبه كما يضيء المصباح الظلمة[1].

والسّكن: ما يسكن إليه.

قوله: «ونَفَساً لكرب مواطنكم»، أي سعَة ورَوْحاً.

ومكتنفة: محيطة. والأُوَار: حرّ النار والشمس.

وعَزَبت: بعُدت. واحلولت: صارت حلوة. وتراكُمها: اجتماعها وتكاثُفها. وأسهلت: صارت سهلة. بعد انصابها، أي بعد إتعابها لكم، أنصبته: أتعبته.

وهطلت: سالت. وقحوطها: قلّتها ورَتاحتها.

وتحدّبت عليه: عطفت وحَنَت.

نضوبها: انقطاعها. كنضوب الماء: ذهابه.

---

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٦٧/ ٢٨٤.

ووبَل المطر: صار وابلاً، وهو أشدّ المطر وأكثره. وإرذاذها: إتيانها بالرَّذاذ وهو ضعيف المطر.

قوله: «فعبِّدوا أنفسكم»، أي ذللوها. ومنه طريق معبَّد.

واخرجوا إليه من حق طاعته، أي أدُّوا المفترَض عليكم من العبادة، يقال: خرجت إلى فلانٍ من دَيْنه، أي قضيته إياه.

الأصل: ثُمَّ إِنَّ هَذا الإِسْلاَمَ دِينُ ٱللهِ ٱلَّذِي ٱصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، وَٱصْطَنَعَهُ عَلَى عَيْنِهِ، وَأَصْفَاهُ خِيَرَةَ خَلْقِهِ، وَأَقَامَ دَعَائِمَهُ عَلَى مَحَبَّتِهِ.

أَذَلَّ الأَدْيَانَ بِعِزَّتِهِ، وَوَضَعَ ٱلْمِلَلَ بِرَفْعِهِ، وَأَهَانَ أَعْدَاءَهُ بِكَرَامَتِهِ، وَخَذَلَ مُحَادِّيهِ بِنَصْرِهِ، وَهَدَمَ أَرْكَانَ الضَّلاَلَةِ بِرُكْنِهِ، وَسَقَى مَنْ عَطِشَ مِنْ حِيَاضِهِ، وَأَتْأَقَ ٱلْحِيَاضَ بِمَوَاتِحِهِ.

ثُمَّ جَعَلَهُ لاَ ٱنْفِصَامَ لِعُرْوَتِهِ، وَلاَ فَكَّ لِحَلْقَتِهِ، وَلاَ ٱنْهِدَامَ لِأَسَاسِهِ، وَلاَ زَوَالَ لِدَعَائِمِهِ، وَلاَ ٱنْقِلاَعَ لِشَجَرَتِهِ، وَلاَ ٱنْقِطَاعَ لِمُدَّتِهِ، وَلاَ عَفَاءَ لِشَرَائِعِهِ، وَلاَ جَذَّ لِفُرُوعِهِ، وَلاَ ضَنْكَ لِطُرُقِهِ، وَلاَ وُعُوثَةَ لِسُهُولَتِهِ، وَلاَ سَوَادَ لِوَضَحِهِ، وَلاَ عِوَجَ لاَنْتِصَابِهِ، وَلاَ عَصَلَ في عُودِهِ، وَلاَ وَعَثَ لِفَجِّهِ، وَلاَ ٱنْطِفاءَ لِمَصَابِيحِهِ، وَلاَ مَرَارَةَ لِحَلاَوَتِهِ.

فَهُوَ دَعَائِمُ أَسَاخَ فِي ٱلْحَقِّ أَسْنَاخَهَا، وَثَبَّتَ لَهَا آسَاسَهَا، وَيَنَابِيعُ غَزُرَتْ عُيُونُهَا، وَمَصَابِيحُ شُبَّتْ نِيرَانُهَا، وَمَنَارٌ ٱقْتَدَى بِهَا سُفَّارُهَا، وَأَعْلاَمٌ قُصِدَ بِهَا فِجَاجُهَا، وَمَنَاهِلُ رَوِيَ بِهَا وُرَّادُهَا.

جَعَلَ ٱللهُ فِيهِ مُنْتَهَى رِضْوَانِهِ، وَذِرْوَةَ دَعَائِمِهِ، وَسَنَامَ طَاعَتِهِ، فَهُوَ عِنْدَ ٱللهِ وَثِيقُ الأَرْكَانِ، رَفِيعُ ٱلْبُنْيَانِ، مُنِيرُ ٱلْبُرْهَانِ، مُضِيءُ النِّيرَانِ، عَزِيزُ السُّلْطَانِ، مُشْرِفُ المَنَارِ، مُعْوِذُ المَثَارِ.

فَشَرِّفُوهُ وَٱتَّبِعُوهُ، وَأَدُّوا إِلَيْهِ حَقَّهُ، وَضَعُوهُ مَوَاضِعَهُ.

الشرح: اصطنعه على عينه، كلمة تقال لما يشتدّ الاهتمام به، تقول للصانع: اصنع لي كذا على عيني، أي اصنعه صنعة كاملةً كالصنعة التي تصنعها وأنا حاضر أشاهدها بعيني، قال تعالى: ﴿وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾[1].

---

(١) سورة طه، الآية: ٣٩.

وأصفاه خيرَة خلقه، أي آثر به خيرَة خلقه، وهم المسلمون، وياء: «خِيرَة» مفتوحة.

قال: وأقام الله دعائم الإسلام على حبّ الله وطاعته.

والمحادّ: المخالف، قال تعالى: ﴿مَن يُحَادِدِ اللَّهَ﴾(١)، أي من يعادِ الله كأنه يكون في حدّ وجهَة، وذلك الإنسان في حدّ آخر وجهة أخرى، وكذلك المشاقّ، يكون في شقّ والآخر في شق آخر.

وأتأق الحياض: ملأها، وَتَئِقَ السّقاء نفسه يتأق تَأَقاً، وكذلك الرجل، إذا امتلأ غضباً.

قوله: «بمواتحه»، وهي الدّلاء يمتَح بها، أي يسقّي بها.

والانفصام: الانكسار. والعفاء: الدُّروس.

والجَذّ: القطع، ويروى بالدال المهملة، وهي القطع أيضاً.

والضّنك: الضيق.

والوعوثة: كثرة في السهولة توجب صعوبة المشي، لأن الأقدام تعِيث في الأرض.

والوضَح: البياض.

والعَوَج، بفتح العين: فيما ينتصب كالنّخلة والرّمح، والعِوَج بكسرها: فيما لا ينتصب، كالأرض والرأي والدّين.

والعَصَل: الالتواء والاعوجاج، ناب أعْصَل وشجرة عصلة، وسهام عُصْل.

والفَجّ: الطريق الواسع بين الجبلين، يقول: لا وَعث فيه، أي ليس طريق الإسلام بوعث، وقد ذكرنا أنّ الوعوثة ما هي.

قوله: «فهو دعائم أساخ في الحق أسناخها»، الأسْناخ: جمع سِنْخ، وهو الأصل، وأساخها في الأرض: أدخلها فيها، وساخت قوائم فرسه في الأرض تسوخُ وتَسِيخ: دخلت وغابت.

والآساس بالمدّ: جمع أسَس، مثل سَبَب وأسباب، والأسَس والأُسّ والأساس واحدة، وهو أصل البناء.

وغَزُرت عيونها، بضم الزاي: كثرت. وشُبّت نيرانها بضم الشين: أوقدت، والمنار: الأعلام في الفلاة.

قوله: «قصد بها فجاجها»، أي قصد بنصب تلك الأعلام اهتداء المسافرين في تلك الفجاج، فأضاف القصد إلى الفِجاج.

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦٣.

وروي: «روّادها» جمع رائد، وهو الذي يسبق القوم فيرتاد لهم الكلأ والماء.

والذِّرْوَة: أعلى السنام والرأس وغيرهما.

قوله: «معوذ المثار»، أي يعجز الناس إثارته وإزعاجه لقوّته ومتانته.

الأصل: ثم إنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّداً صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْحَقِّ، حِينَ دَنَا مِنَ ٱلدُّنْيَا الانْقِطَاعُ، وَأَقْبَلَ مِنَ الآخِرَةِ الاطِّلاَعُ، وَأَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقٍ، وَقَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ، وَخَشُنَ مِنْهَا مِهَادٌ، وَأَزِفَ مِنْهَا قِيَادٌ، فِي ٱنْقِطَاعٍ مِنْ مُدَّتِهَا، وَٱقْتِرَابٍ مِنْ أَشْرَاطِهَا، وتَصَرُّمٍ مِنْ أَهْلِهَا، وَٱنْفِصَامٍ مِنْ حَلْقَتِهَا، وَٱنْتِشَارٍ مِنْ سَبَبِهَا، وَعَفَاءٍ مِنْ أَعْلاَمِهَا، وَتَكَشُّفٍ مِنْ عَوْرَاتِهَا، وَقِصَرٍ مِنْ طُولِهَا.

جَعَلَهُ ٱللهُ سُبْحَانَهُ بَلاَغاً لِرِسَالَتِهِ، وَكَرَامَةً لِأُمَّتِهِ، وَرَبِيعاً لِأَهْلِ زَمَانِهِ، وَرِفْعَةً لِأَعْوَانِهِ، وَشَرَفاً لِأَنْصَارِهِ.

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ ٱلْكِتَابَ نُوراً لاَ تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ، وَسِرَاجاً لاَ يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وَبَحْراً لاَ يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَاجاً لاَ يَضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعَاعاً لاَ يُظْلِمُ ضَوْءُهُ، وَفُرْقَاناً لاَ يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَتِبْيَاناً لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لاَ تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزّاً لاَ تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقّاً لاَ تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ.

فَهُوَ مَعْدِنُ ٱلْإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَيَنَابِيعُ ٱلْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضُ ٱلْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ، وَأَثَافِيُّ ٱلْإِسْلاَمِ وَبُنْيَانُهُ، وَأَوْدِيَةُ ٱلْحَقِّ وَغِيطَانُهُ. وَبَحْرٌ لاَ يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُونٌ لاَ يَنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ، وَمَنَاهِلُ لاَ يَغِيضُهَا ٱلْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلُ لاَ يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وَأَعْلاَمٌ لاَ يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَإِكَامٌ لاَ يَجُوزُ عَنْهَا ٱلْقَاصِدُونَ.

الشرح: قوله عليه السلام: «حين دنا من الدنيا ٱلانقطاع»، أي أزِفَتِ الآخرة وقَرُب وقتها. وقد اختلف الناس في ذلك اختلافاً شديداً فذهب قوم إلى أنّ عمر الدنيا خمسون ألف سنة، قد ذهب بعضها وبقي بعضها.

واختلفوا في مقدار الذاهب والباقي، واحتجُّوا لقولهم بقوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾[1]، قالوا: اليوم هو إشارة إلى الدنيا، وفيها يكون عروج

---

(١) سورة المعارج، الآية: ٤.

الملائكة والروح إليه، واختلافهم بالأمر من عنده إلى خلقه، وإلى رسله، قالوا: وليس قول بعض المفسِّرين أنّه عَنَى يوم القيامة بمستحسَن، لأنّ يوم القيامة لا يكون للملائكة والرّوح عروج إليه سبحانه، لانقطاع التكليف، ولأنّ المؤمنين إمّا أن يطول عليهم ذلك اليوم بمقدار خمسين ألف سنة، أو يكون هذا مختصًّا بالكافرين فقط، ويكون قصيراً على المؤمنين، والأوّل باطل، لأنّه أشدّ من عذاب جهنّم، ولا يجوز أن يلقى المؤمن هذه المشقّة، والثاني باطل، لأنّه لا يجوز أن يكون الزّمان الواحد طويلاً قصيراً بالنّسبة إلى شخصيْن، اللهمّ إلاّ أن يكون أحدُهما نائماً، أو ممنوًّا بعلّة تجري مجرَى النوم، فلا يحسّ بالحركة، ومعلوم أنّ حال المؤمنين بعد بعثهمْ، ليست هذه الحال.

قالوا: وليستْ هذه الآية مناقضة للآية الأخرى، وهي قولُه تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾[1]، وذلك لأنّ سياق الكلام يدلّ على أنه أراد به الدُّنيا، وذلك لأنّه قد وَرَد في الخبر أنّ بين الأرضِ والسماء مسيرة خمسمائة عام، فإذا نزل الملَك إلى الأرضِ، ثم عاد إلى السماء، فقد قطع في ذلك اليوم مسيرة ألف عام، ألاَ ترى إلى قوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾، أي ينزل الملَك بالوحي والأمر والحُكم من السماء إلى الأرض، ثم يعود راجعاً إليه وعارجاً صاعداً إلى السماء، فيجتمع من نزوله وصعوده مقدارُ مسير ألف سنة.

وذكر حمزة بن الحسن الأصفهانيّ في كتابه المسمى «تواريخ الأمم»: أنّ اليهود تذهب إلى أنّ عدد السنين من ابتداء التّناسل إلى سنة الهجرة لمحمد ﷺ أربعة آلاف واثنتان وأربعون سنة وثلاثة أشهر.

والنصارى تذهبُ إلى أنّ عدد ذلك خمسة آلاف وتسعمائة وتسعون سنة وثلاثة أشهر.

وأنّ الفرس تذهب إلى أنّ من عهد كَيومَرْت والد البشر عندهم إلى هلاك يَزْدَجِرد بن شهريار الملك أربعة آلاف ومائة واثنتين وثمانين سنة وعشرة أشهر وتسعة عشر يوماً، ويسندون ذلك إلى كتابهم الذي جاء به زَرَدْشت، وهو الكتاب المعروف بأبستا.

فأمّا اليهود والنصارى فيسنِدُون ذلك إلى التوراة ويختلفون في كيفيّة استنباط المدّة.

وتزعم النّصارى واليهود أن مدّة الدّنيا كلّها سبعة آلاف سنة، قد ذهب منها ما ذَهَب وبقي ما بَقِيَ.

وقيل: إنّ اليهود إنما قصّرت المدّة لأنهم يزعمون أنّ شيخَهم الذي هو منتظَرُهم، يخرج في

(١) سورة السجدة، الآية: ٥.

أوّل الألف السّابع، فلولا تنقيصهم المدة وتقصيرهم أيّامها لتعجّل افتضاحهم، ولكن سيفتضحون فيما بعد عند مَنْ يأتي بعدنا من البشر.

قال حمزة: وأما المنجّمون فقد أتوا بما يغمز هذا كلّه، فزعموا أنه قد مضى من الدنيا منذ أول يوم سارتْ فيه الكواكب، من رأس الحمل إلى اليوم الذي خرج فيه المتوكّل بن معتصم بن الرشيد من سامَرّاء إلى دمشق، ليجعلها دار الملك، وهو أوّل يوم من المحرّم سنة أربع وأربعين ومائتين للهجرة المحمدية، أربعة آلاف ألف ألف ألف - ثلاث لفظات - وثلاثمائة ألف وعشرون ألف سنة، بسني الشمس.

قالوا: والذي مضى من الطّوفان إلى صبيحة اليوم الّذي خرج فيه المتوكّل إلى دمشق ثلاث آلاف وسبعمائة وخمس وثلاثون سنة وعشرة أشهر واثنان وعشرون يوماً.

وذكر أبو الريحان البيروني في كتاب «الآثار الباقية عن القرون الخالية»(١): أن الفرس والمجوس يزعمون أن عُمْر الدنيا اثنا عشرَ ألف سنة، على عدد البروج وعدد الشهور، وأنّ الماضِيَ منها إلى وقت ظهور زَرَدُشت صاحب شريعتهم ثلاثة آلاف سنة، وبين ابتداء ظهور زَرَدُشت وبين أول تاريخ الإسكندر مائتان وثمان وخمسون سنة، وبين تاريخ الإسكندر وبين سنته التي كتبنا فيها شرح هذا الفصل - وهي سنة سبع وأربعين وستمائة للهجرة النبويّة - ألف وخمسمائة وسبعون سنة، فعلَى هذا يكون الماضي إلى يومنا هذا من أصل اثني عشر ألف سنة أربعة آلاف وثمانمائة وثماني عشرة سنة، فيكون الباقي من الدنيا عَلَى قولهم أكثر من الماضي.

وحكى أبو الريحان عن الهند في بعض كُتبه، أنّ مدّة عمر الدنيا مقدار تضعيف الواحد من أول بيت في رقعة الشطرنج إلى آخر البيوت.

فأما الأخباريّون من المسلمين، فأكثرهم يقولون: إنّ عمر الدّنيا سبعة آلاف سنة ويقولون إنّنا في السابع، والحقّ أنه لا يعلم أحد هذا إلا الله تعالى وحده، كما قال سبحانه: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ۝ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَاهَا ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَاهَا ۝﴾(٢)، وقال: ﴿لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾(٣).

---

(١) الآثار الباقية عن القرون الخالية في النجوم والتواريخ لأبي الريحان محمد بن أحمد البيروتي المتوفى سنة (٤٣٠هـ).

(٢) سورة النازعات، الآيات: ٤٢، ٤٤.

(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٨٧.

ونقول مع ذلك كما ورد به الكتاب العزيز: ﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ﴾[(١)] وَ ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾[(٢)]، و﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[(٣)].

ولا نعلم كميّة الماضي ولا كميّة الباقي، ولكنّا نقول كما أمِرْنا، ونسمع ونطيع كما أدّبنا، ومن الممكن أن يكون ما بقي قريباً عند الله، وغير قريب عندنا، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ۝ وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾[(٤)].

وبالجملة هذا موضع غامض يجب السكوت عنه.

قوله عليه السلام: «وقامت بأهلها على ساقٍ»، الضمير للدنيا، والساق الشدّة، أي انكشفت عن شدّة عظيمة.

وقوله تعالى: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾[(٥)] أي التفّت آخر شدّة الدنيا بأول شدّة الآخرة.

والمِهاد: الفراش. وأزِف منها قياد، أي قرب انقيادُها إلى التقضّي والزوال.

وأشراط السّاعة: علاماتها، وإضافتها إلى الدّنيا لأنّها في الدّنيا تحدث، وإن كانت علامات للأخرى. والعَفاء: الدروس.

وروي: «من طِوَلها» والطِّوَل: الحبل.

ثم عاد إلى ذكر النبي صلى الله عليه وآله فقال: جعله الله سبحانه بلاغاً لرسالته، أي ذا بلاغ، والبلاغ: التّبليغ، فحذف المضاف.

ولا تخبو: لا تنطفىء. والفرقان: ما يُفْرَق به بين الحقّ والباطل.

وأثافيّ الإسلام: جمع أُثفِيَّة، وهي الأحجار توضع عليها القِدْر، شكل مثلّث.

والغيطان: جمع غائط، وهو المطمئنّ من الأرض.

ولا يَغِيضها، بفتح حرف المضارعة، غامض الماء وغِضتُه أنا، يتعدّى ولا يتعدّى، وروي «لا يُغيضها» بالضمّ على قول من قال: أغضت الماء، وهي لغة ليست بالمشهورة.

والإكام: جمع أكَم، مثل جِبال جمع جَبَل، والأكَم جمع إكَمة، مثل عِنب جمع عِنَبة، والأكَمة: ما علا من الأرض، وهي دون الكثيب.

---

(١) سورة القمر، الآية: ١.
(٢) سورة الأنبياء، الآية: ١.
(٣) سورة النحل، الآية: ١.
(٤) سورة المعارج، الآيتان: ٦، ٧.
(٥) سورة القيامة، الآية: ٢٩.

الأصل: جَعَلَهُ ٱللهُ رِيًّا لِعَطَشِ ٱلْعُلَمَاء، وَرَبِيعاً لِقُلُوبِ ٱلْفُقَهَاء، وَمَحَاجَّ لِطُرُقِ الصُّلَحَاء، وَدَوَاءً لَيْسَ بَعْدَهُ دَاءٌ، وَنُوراً لَيْسَ مَعَهُ ظُلْمَةٌ، وَحَبْلاً وَثِيقاً عُرْوَتُهُ، وَمَعْقِلاً مَنِيعاً ذِرْوَتُهُ، وَعِزًّا لِمَنْ تَوَلاَّهُ، وَسِلْماً لِمَنْ دَخَلَهُ، وَهُدًى لِمَنْ ٱئْتَمَّ بِهِ، وَعُذْراً لِمَنِ انتحله، وَبُرهاناً لِمَن تَكَلَّمَ بِهِ، وَشَاهِداً لِمَنْ خَاصَمَ بِهِ، وَفَلْجاً لِمَنْ حَاجَّ بِهِ، وَحَامِلاً لِمَنْ حَمَلَهُ، وَمَطِيَّةً لِمَنْ أَعْمَلَهُ، وَآيَةً لِمَنْ تَوَسَّمَ، وَجُنَّةً لِمَنِ ٱسْتَلأَمَ، وَعِلْماً لِمَنْ وَعَى، وَحَدِيثاً لِمَنْ رَوَى، وَحُكْماً لِمَنْ قَضَى.

الشرح: الضمير يرجع إلى القرآن، جعله الله ريًّا لعطش العلماء، إذا ضلّ العلماء في أمر والتبس عليهم رجعوا إليه، فسقاهم كما يسقي الماء العطِش، وكذا القول في «ربيعاً لقلوب الفقهاء»، والربيع ها هنا: الجدول، ويجوز أن يريد المطر في الرّبيع، يقال: رَبِعَتِ الأرض فهي مربوعة.

والمحاجّ: جمع محجّة، وهي جادة الطريق. والمعقِل: الملجأ.

وسِلْماً لمن دخله، أي مأمناً، وانتحله: دان به، وجعله نِحْلَته.

والبرهان: الحجّة، والفَلْج: الظّفَر والفوز. وحاجّ به: خاصم.

قوله عليه السلام: «وحاملاً لمَنْ حَمَله»، أي أنّ القرآن ينجّي يوم القيامة مَنْ كان حافظاً له في الدنيا، بشرط أن يعمل به.

قوله عليه السلام: «ومطيّة لمن أعمله»، استعارة، يقول: كما أنّ المطية تنجّي صاحبَها إذا أعملها وبعثها على النّجاء، فكذلك القرآن إذا أعمله صاحبه أنجاه، ومعنى إعماله، اتّباع قوانينه والوقوف عند حدوده.

قوله: «وآية لمَنْ توسّم»، أي لمن تفرّس، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾[1]

والجُنّة: ما يستَتَرُ به: واستلأم: لبس لأمة الحرب، وهي الدرع.

ووَعَى: حَفِظ.

قوله: «وحديثاً لمن روى». قد سمّاه الله تعالى حديثاً فقال: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا﴾[2]، وأصحابنا يحتجون بهذه اللفظة على أنّ القرآن ليس بقديم، لأنّ الحديث ضدّ القديم.

---

(١) سورة الحجر، الآية: ٧٥.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٢٣.

وليس للمخالف أن يقول: ليس المراد بقوله: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ ما ذكرتم، بل المراد أحسنُ القول، وأحسن الكلام، لأنّ العرب تسمّي الكلام والقول حديثاً، لأنا نقول: لعمري إنه هكذا، ولكن العرب ما سمّت القول والكلام حديثاً إلاّ أنه مستحدَث متجدّد حالاً فحالاً، ألا ترى إلى قول عمرو لمعاوية: «قد مللتُ كلّ شيء إلاّ الحديث»، فقال: إنّما يُملّ العتيق، فدلّ ذلك على أنّه فهم معنى تسميتهم الكلام والقول حديثاً، وفطِن لمغزاهم ومقصدهم في هذه التسمية، وإذا كُنّا قد كلّفنا أن نجري على ذاته وصفاته وأفعاله ما أجراه سبحانه في كتابه، ونطلق ما أطلقه على سبيل الوضع والكيفية التي أطلقها وكان قد وصف كلامه بأنه حديث - وكان القرآن في عرف اللغة إنما سمّي حديثاً لحدوثه وتجدّده - فقد ساغ لنا أن نُطلِقَ على كلامه أنه محدَث ومتجدّد، وهذا هو المقصود.

١٩٢ - ومن كلام له عليه السلام كان يوصي به أصحابه

الأصل: تَعَاهَدُوا أَمْرَ الصَّلاَةِ، وَحَافِظُوا عَلَيْهَا، وَٱسْتَكْثِرُوا مِنْهَا، وَتَقَرَّبُوا بِهَا، فَإِنَّهَا كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً. أَلاَ تَسْمَعُونَ إِلَى جَوَابِ أَهْلِ النَّارِ حِينَ سُئِلُوا: ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ ۝٤٢ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ۝٤٣﴾[1].

وَإِنَّهَا لَتَحُتُّ الذُّنُوبَ حَتَّ ٱلْوَرَقِ، وَتُطْلِقُهَا إِطْلاَقَ الرِّبَقِ.

وَشَبَّهَهَا رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّم بِالحَمَّةِ تَكُونُ عَلَى بَابِ الرَّجُلِ، فَهُوَ يَغْتَسِلُ مِنْهَا فِي ٱلْيَوْمِ وَٱللَّيْلَةِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، فَمَا عَسَى أَنْ يَبْقَى عَلَيْهِ مِنَ الدَّرَنِ!

وَقَدْ عَرَفَ حَقَّهَا رِجَالٌ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لاَ تَشْغَلُهُمْ عَنْهَا زِينَةُ مَتَاعٍ، وَلاَ قُرَّةُ عَيْنٍ، مِنْ وَلَدٍ وَلاَ مَالٍ، يَقُولُ ٱللهُ سُبْحَانَهُ: ﴿رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ﴾[2].

وَكَانَ رَسُولُ ٱللهِ صَلَّى ٱللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ نَصِباً بِالصَّلاَةِ بَعْدَ التَّبْشِيرِ لَهُ بِالْجَنَّةِ، لِقَوْلِ ٱللهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾[3]، فَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ، وَيُصْبِرُ نَفْسَهُ.

ثُمَّ إِنَّ الزَّكَاةَ جُعِلَتْ مَعَ الصَّلاَةِ قُرْبَاناً لِأَهْلِ ٱلْإِسْلاَمِ، فَمَنْ أَعْطَاهَا طَيِّبَ النَّفْسِ بِهَا،

---

(١) سورة المدثر، الآيتان: ٤٢، ٤٣.
(٢) سورة النور، الآية: ٣٧.
(٣) سورة طه، الآية: ١٣٢.

فَإِنَّهَا تُجْعَلُ لَهُ كَفَّارَةً، وَمِنَ النَّارِ حِجَازاً وَوِقَايَةً، فَلاَ يُتْبِعَنَّهَا أَحَدٌ نَفْسَهُ، وَلاَ يُكْثِرَنَّ عَلَيْهَا لَهَفَهُ، فَإِنَّ مَنْ أَعْطَاهَا غَيْرَ طَيِّبِ النَّفْسِ بِهَا يَرْجُو بِهَا مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْهَا فَهُوَ جَاهِلٌ بِالسُّنَّةِ، مَغْبُونُ ٱلْأَجْرِ، ضَالُّ ٱلْعَمَلِ، طَوِيلُ النَّدَمِ. ثُمَّ أَدَاءَ ٱلْأَمَانَةِ، فَقَدْ خَابَ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَهْلِهَا، إِنَّهَا عُرِضَتْ عَلَى السَّمَوَاتِ الْمَبْنِيَّةِ، وَٱلْأَرَضِينَ الْمَدْحُوَّةِ، وَٱلْجِبَالِ ذَاتِ الطُّولِ الْمَنْصُوبَةِ، فَلاَ أَطْوَلَ وَلاَ أَعْرَضَ، وَلاَ أَعْلَى وَلاَ أَعْظَمَ مِنْهَا. وَلَوِ ٱمْتَنَعَ شَيْءٌ بِطُولٍ، أَوْ عَرْضٍ، أَوْ قُوَّةٍ، أَوْ عِزٍّ، لاَمْتَنَعْنَ، وَلَكِنْ أَشْفَقْنَ مِنَ ٱلْعُقُوبَةِ، وَعَقَلْنَ مَا جَهِلَ مَنْ هُوَ أَضْعَفُ مِنْهُمْ، وَهُوَ ٱلْإِنْسَانُ، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾[١].

إِنَّ ٱللهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ مَا ٱلْعِبَادُ مُقْتَرِفُونَ فِي لَيْلِهِمْ وَنَهَارِهِمْ، لَطُفَ بِهِ خُبْراً، وَأَحَاطَ بِهِ عِلْماً، أَعْضَاؤُكُمْ شُهُودُهُ، وَجَوَارِحُكُمْ جُنُودُهُ، وَضَمَائِرُكُمْ عُيُونُهُ، وَخَلَوَاتُكُمْ عِيَانُهُ.

الشرح: هذه الآية يستدلّ بها الأصوليّون من أصحابنا على أنْ الكفار يعاقَبون في الآخرة على تَرْك الواجبات الشرعية، وعلى فعل القبائح، لأنّها في الكفار وردت، ألا ترى إلى قوله: ﴿فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾[٢]. فليس يجوز أن يعني بالمجرمين ها هنا الفاسقين من أهل القبلة، لأنه قال: ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾﴾[٣].

قالوا: وليس لقائل أن يقول: معنى قوله: ﴿لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ لم نكن من القائلين بوجوب الصلاة، لأنه قد أغنى عن هذا التعليل قوله: ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ لأنّ أحد الأمرين هو الآخر، وحَمْل الكلام على ما يفيد فائدةً جديدة أولى من حمله على التكرار والإعادة، فقد ثبت بهذا التقرير صحّة احتجاج أمير المؤمنين عليه السلام على تأكيد أمر الصلاة، وأنّها من العبادات المهمّة في نظر الشارع.

قوله عليه السلام: «وإنّها لتحتُّ الذّنوب»، الحتّ: نثر الورق من الغصن، وانحاتّ، أي تناثر، وقد جاء هذا اللفظ في الخبر النبويّ بعينه[٤].

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٧٢. (٢) سورة المدثر، الآيات: ٤٠، ٤٢.
(٣) سورة المدثر، الآيات: ٤٣، ٤٦.
(٤) أخرجه الدارمي، كتاب: الطهارة، باب: فضل الوضوء (٧١٩)، وأحمد في «مسنده» (٢٣١٩٥).

والرِّبَق: جمع رِبقة، وهي الحبل، أي تطلق الصلاة الذنوب كما تطلق الحبال المعقدة، أي تحلّ ما انعقد على المكلَّف من ذنوبه، وهذا من باب الاستعارة.

ويروى: «تعهدّوا أمر الصلاة» بالتضعيف، وهو لغة، يقال: تعاهدت ضَيْعتي وتعهّدتها وهو القيام عليها، وأصله من تجديد العهد بالشيء، والمراد المحافظة عليه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾(١)، أي واجباً، وقيل موقوتاً، أي منجّماً كلّ وقت لصلاة معيَّنة، وتؤدَّى هذه الصلاة في نجومها.

وقوله: «كتاباً» أي فرضاً واجباً، كقوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾(٢) أي أوجب.

والحَمَّةُ: الحفيرة فيها الحميم وهو الماء الحارّ، وهذا الخبر من الأحاديث الصحاح، قال صلى الله عليه وآله: «**أيسر أحدكم أن تكون على بابه حَمّة يغتسل منها كلّ يوم خمس مرات، فلا يبقى عليه من دَرَنِه شيء! قالوا نعم، قال: فإنَّها الصلوات الخمس**»(٣). والدَّرَن: الوسخ.

والتجارة في الآية، إمّا أنْ يراد بها: لا يشغلهم نوع من هذه الصناعة عن ذكر الله. ثمّ أفرد البيع بالذكر، وخصّه وعطفه على التجارة العامة، لأنه أدخل في الإلهاء، لأنّ الربح في البيع بالكسب معلوم، والرّبح في الشراء مظنون، وإمّا أن يريد بالتجارة الشراء خاصة إطلاقاً لاسم الجنس الأعـمّ على النوع الأخصّ، كما تقول: رزق فلان تجارة رابحة، إذا اتجه له شراء صالح، فأما إقام الصلاة فإنّ التاء في «إقامة» عوض من العين الساقطة للإعلال، فإنّ أصله «إقوام» مصدر أقام، كقولك: أعرض إعراضاً، فلما أضيفت أقيمت الإضافة مقام حرف التعويض، فأسقطت التاء.

قوله عليه السلام: وكان رسول الله صلى الله عليه وآله نصِباً بالصّلاة، أي تَعِباً، قال تعالى: ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾(٤).

وروي أنه عليه السلام قام حتى تورّمت قدماه مع التبشير له بالجنة.

وروي أنه قيل له في ذلك فقال: «أفلا أكونُ عبداً شكوراً!»(٥).

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٣. (٢) سورة الأنعام، الآية: ٥٤.

(٣) أخرج بنحوه: البخاري، كتاب: مواقيت الصلاة، باب: الصلوات الخمس كفارة (٥٢٨)، ومسلم، كتاب: المساجد، باب: المشي إلى الصلاة تمحى به الخطايا (٦٦٧).

(٤) سورة طه، الآية: ٢.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه: ٢/ ٤٤، وأخرجه ابن ماجه في سننه رقم ١٤٢٠.

ويُصبر نفسه: من الصبر، ويروى: «ويَصْبر عليها نفسه» أي يحبس، قال سبحانه: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم﴾(١). وقال عنترة يذكر حرباً كان فيها:

فَصَبَرْتُ عارِفَةً لذلك حُرَّةً ... تَرْسُو إذا نفسُ الجبانِ تَطَلَّعُ

في الصلاة وفضلها

واعلم أنّ الصلاة قد جاء في فضلها الكثير الذي يُعجزنا حصره، ولو لم يكن إلا ما ورد في الكتاب العزيز من تكرار ذكرها وتأكيد الوصاة بها والمحافظة عليها، لكان بعضه كافياً.

وقال النبي ﷺ: «**الصَّلاةُ عمودُ الدِّين، فمن تركها فَقَدْ هَدَم الدين**»(٢).

وقال أيضاً عليه السلام: «**عَلَم الإيمان الصّلاة، فمن فرّغ لها قلبه، وقام بحدودها، فهو المؤمن**»(٣).

وقالت أمّ سلمة: كان رسول الله ﷺ يحدّثنا ونحدّثه، فإذا حضرت الصلاة فكأنّه لم يعرفنا ولم نعرفه(٤).

وقيل للحسن رحمه الله: ما بال المتهجّدين مِنْ أحسن الناس وجوهاً؟ قال: لأنّهم خَلَوْا بالرّحمن، فألبسهم نوراً من نوره.

وقال عمر: إنّ الرجل ليشيب عارضاه في الإسلام ما أكمل الله له صلاة، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: لا يتمّ خشوعها وتواضعها وإقباله على ربه فيها.

وقال بعض الصالحين: إنّ العبد ليسجُد السّجدة عنده أنه متقرّب بها إلى الله، ولو قُسِم ذنبه في تلك السجدة على أهل مدينة لهلكوا، قيل: وكيف ذلك؟ قال: يكون ساجداً وقلبه عند غير الله، إنّما هو مصغٍ إلى هوًى أو دنيا.

صلّى أعرابيّ في المسجد صلاة خفيفة، وعمر بن الخطاب يراه، فلمّا قضاها قال: اللهمّ زَوّجني الحور العين. فقال عمر: يا هذا لقد أسأت النَّقْد، وأعظمت الْخِطْبَة!

وقال عليّ عليه السلام: لا يزال الشيطان ذَعِراً من المؤمن ما حافظ على الخمس، فإذا ضيّعهنّ تجرّأ عليه، وأوقعه في العظائم(٥).

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٨.
(٢) أخرجه المروزي في تعظيم قدر الصلاة (١٩٤).
(٣) أخرجه جار الله الزمخشري في الفايق من غريب الحديث: ١/ ٢٨٩.
(٤) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٦٧/ ٤٠٠ رقم: ٧٢.
(٥) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٧٩/ ٢٠٢.

وروي عن النبيّ ﷺ أنه قال: «الصلاة إلى الصلاة كفّارة لما بينهما، ما اجتنبت الكبائر»[١].

وجاء في الخبر أن رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمرٌ فزع إلى الصلاة.

وقال هشام بن عروة: كان أبي يطيل المكتوبة ويقول: هي رأس المال.

قال يونس بن عبيد: ما استخفّ أحد بالنوافل إلاّ استخف بالفرائض.

يقال: إنّ محمد بن المنكدر جزّأ الليل عليه وعلى أمّه وأخته أثلاثاً، فماتت أخته، فجزأه عليه وعلى أمه نصفين، فماتت أمّه فقام الليل كله.

كان مسلم بن يَسار لا يسمع الحديث إذا قام يصلّي، ولا يفهمه، وكان إذا دخل بيته سكت أهلُه فلا يسمع لهم كلام حتى يقوم إلى الصلاة، فيتحدّثون ويلغطون، فهو لا يشعر بهم.

ووقع حريق إلى جنبه وهو في الصلاة، فلم يشعر به حتى حرق.

كان خلف بن أيوب لا يطردُ الذباب إذا وقع على وجهه وهو في الصلاة في بلاد كثيرة الذّبان، فقيل له: كيف تصبر؟ فقال: بلغني أنّ الشطّار يصبرون تحت السّياط ليقال: فلان صبور، أفلا أصبر وأنا بين يدي ربيّ على أذى ذباب يقع عليّ!

قال ابن مسعود: الصلاة مكيال، فمن وَفّى وُفّيَ له، ومن طفّف، فويلٌ للمطفّفين!

قال رجل لرسول الله ﷺ: يا رسول الله، ادع لي أن يرزقني الله مرافقتك في الجنّة، فقال: «أعنّي على إجابة الدّعوة بكثرة السجود»[٢].

قوله عليه السلام: «قرباناً لأهل الإسلام»، القربان: اسم لما يتقرّب به من نَسِيكة أو صدقة.

وروي: «ومن النار حجازاً» بالزاي أي مانعاً. واللّهَف: الحسرة، ينهي عليه السلام عن إخراج الزكاة مع التسخّط لإخراجها والتهلف والتحسّر على دفعها إلى أربابها، ويقول: إنّ من يفعل ذلك يرجُو بها نَيْل الثّواب ضالّ مضيّع لماله، غير ظافر بما رجاه من المنوبة.

في فضل الزكاة والتصدق

وقد جاء في فضل الزكاة الواجبة وفضل صدقة التطوّع الكثير جداً، ولو لم يكن إلاّ أنّ الله تعالى قرنها بالصلاة في أكثر المواضع التي ذكر فيها الصلاة لكفي.

---

(١) أخرجه مسلم، كتاب الطهارة، باب: الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة (٢٣٣).

(٢) أخرجه مسلم، كتاب الصلاة، باب: فضل السجود (٤٨٩)، والنسائي، كتاب التطبيق، باب: فضل السجود (١١٣٨)، وأبو داود، كتاب الصلاة، باب: وقت قيام النبي ﷺ من الليل (١٣٢٠).

وروى بريدة الأسلميّ أنّ رسول الله ﷺ قال: «**ما حَبَس قومٌ الزكاة إلا حبس الله عنهم القَطر**»[(١)].

وجاء في الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونهما في سبيل الله ما جاء في الذكر الحكيم، وهو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ ....﴾[(٢)] الآية، قال المفسرون: إنفاقها في سبيل الله إخراج الزكاة منها.

وروي الأحنف قال: قدمتُ المدينة، فبينا أنا في حَلْقَةٍ فيها ملأ من قريش، إذ جاء رجل خَشِنُ الجسد، خَشِنُ الثياب، فقام عليهم، فقال: بشّر الكانزين برَضْف يحمَى عليها في نار جهنم، فتوضع على حَلَمة ثدي الرجل حتى تخرج من نُغْض كتفه، ثم توضع على نُغُض كتفه حتى تخرج من حلمة ثديه، فسألت عنه فقيل: هذا أبو ذرّ الغفاريّ، وكان يذكره ويرفعه.

ابن عباس يرفعه: «مَنْ كان عنده ما يزكّي فلم يزكّ، وكان عنده ما يحجّ فلم يحج سأل الرجعة، يعني قوله: ﴿رب ارجعون﴾[(٣)].

أبو هريرة: سئل رسول الله ﷺ: أيّ الصدقة أفضل؟ فقال: «**أن تعطي وأنت صحيح، شحيح، تأمَل البقاء، وتخشى الفقر، ولا تمهل، حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا**»[(٤)].

وقيل للشّبليّ: ما يجب في مائتي درهم؟ قال: أمّا من جهة الشرع فخمسة، وأمّا من جهة الإخلاص فالكلْ.

أمر رسول الله ﷺ بعضَ نسائه أن تقسِم شاة على الفقراء فقالت: يا رسول الله، لم يبق منها غير عُنُقِها، فقال ﷺ: «**كلّها بقيَ غير عنقها**». أخذ شاعر هذا المعنى فقال:

يبكي على الذّاهب من مالِهِ ... وإنّما يبقى الذي يذهبُ

السائب: كان الرجل من السلف يضع الصدقة، ويمثُل قائماً بين يدي السائل العقير ويسأله قبولها، حتى يصير هو في صورة السائل.

وكان بعضهم يبسط كفَّه ويجعلها تحت يد الفقير، لتكون يدُ الفقير العليا.

وعن النبيّ ﷺ: «**ما أحسن عبدٌ الصدقة إلاّ أحسنَ الله إليه في مخلّفيه**»[(٥)].

---

(١) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣١٥). (٢) سورة التوبة، الآية: ٣٥.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الزكاة، باب: فضل صدقة الشحيح الصحيح (١٤١٩)، ومسلم، كتاب الزكاة، باب بيان أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح (١٠٣٢).

(٤) ذكره القرطبي في تفسيره بما معناه: ١٨/ ١٣٠، وذكره ابن كثير في تفسيره: ٤/ ٣٩٨.

(٥) ذكره في «الجامع الصغير» (٧٧٩٣) وعزاه لابن المبارك مرسلاً، وأخرجه الشهاب في «مسنده» (٧٨٩)، والديلمي في «مسند الفردوس» (٦١٩٦).

وعنه ﷺ: «الصدقة تسدّ سبعين باباً من الشرّ»[1].

وعنه ﷺ: «أذهبُوا مذمّة السائل ولو بمثل رأس الطائر من الطعام»[2].

كان النبي ﷺ لا يكلُ خصلتين إلى غيره: لا يوضّئه أحد، ولا يعطي السائل إلاّ بيده.

بعض الصالحين: الصلاة تبلِغك نصفَ الطريق، والصوم يبلِغك باب الملِك، والصدقة تدخلك عليه بغير إذن.

الشّعبي: من لم يَرَ نفسه أحوجَ إلى ثواب الصَدَقة من الفقير إلى صدقته، فقد أبطل صدقته، وضرب بها وجهه.

كان الحسن بن صِالح إذا جاءه سائل، فإن كان عنده ذهب أو فضة أو طعام أعطاه، فإن لم يكن، أعطاه زيتاً أو سمناً أو نحوهما مما ينتَفع به، فإن لم يكن، أعطاه كحلاً، أو خرج بإبرة وخاط بها ثوب السائل، أو بخرقة يرقَع بها ما تخرّق من ثوبه.

ووقف مرّة على بابه سائل ليلاً، ولم يكن عنده ما يدفعه إليه، فخرج إليه بقصبة في رأسها شُعلة، وقال: خذ هذه وتبلَّغ بها إلى أبواب ناس لعلّهم يعطونك.

قوله عليه السلام: «ثم أداء الأمانة»، هي العقد الذي يلزم الوفاء به، وأصحّ ما قيل في تفسير الآية أنّ الأمانة ثقيلة المحمل، لأنّ حاملها معرّض لخطر عظيم، فهي بالغة من الثقل وصعوبة المحمل ما لو أنها عرضت على السموات والأرض والجبال لامتنعت من حملها. فأمّا الإنسان فإنه حمَلها وألزم القيام بها. وليس المراد بقولنا: إنها عِرضت على السموات والأرض أي لو عرضت عليها وهي جمادات، بل المراد تعظيم شأن الأمانة، كما تقول: هذا الكلام لا يحمله الجبال، وقوله:

امتلأ الحوض وقال قطني

وقوله تعالى: ﴿فَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[3]. ومذهب العرب في هذا الباب. وتوسّعها ومجازاتها مشهور شائع.

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٤٤٠٢) بلفظ: «السوء» بدل «الشر» وبلفظ: المصنف أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (٣٨٣٥).

(٢) أخرجه الذهبي في «ميزان الاعتدال» (١/ ٣٥٤) في ترجمة إسحاق بن نجيح برقم (٧٩٦) بلفظ «الذباب» بدل «الطائر»، وأخرجه ابن الجوزي في «العلل المتناهية» (٨٣١)، بمثل رواية الذهبي.

(٣) سورة فصلت، الآية: ١١.

١٩٣ - ومن كلام له عليه السلام في شأن معاوية

الأصل: وَٱللهِ مَا مُعَاوِيَةُ بِأدهَى مِنّي، وَلَكِنَّهُ يَغْدِرُ وَيَفْجُرُ، وَلَوْلاَ كَرَاهِيَةُ ٱلْغَدْرِ لَكُنْتُ مِنْ أَدْهَى النَّاسِ، وَلَكِنْ كُلُّ غُدَرَةٍ فُجَرَةٌ، وَكُلُّ فُجَرَةٍ كُفَرَةٌ، وَلِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يُعْرَفُ بِهِ يَوْمَ ٱلْقِيَامةِ. وَٱللهِ مَا أُسْتَغْفَلُ بِالمَكِيدَةِ، وَلاَ أُسْتَغْمَزُ بِالشَّدِيدَةِ.

الشرح: الغُدَرَة، على «فُعَلة» الكثير الغَدْر، والفُجَرة والكُفَرة: الكثير الفجور والكفر، وكلّ ما كان على هذا البناء فهو للفاعل، فإن سكّنت العين فهو للمفعول، تقول: رجل ضُحَكة أي يَضحك، وضُحْكة يُضحَك منه، وسُخَرة يَسْخر، وسُخْرة يُسخَر به، يقول عليه السلام: كلّ غادر فاجر، وكلّ فاجر كافر. ويروي: «ولكن كلّ غَدْرة فجْرة، وكلّ فَجْرة كَفْرة» على «فَعْلة» للمرة الواحدة.

وقوله: «لكلّ غادر لواء يعرَف به يوم القيامة»[1]، حديث صحيح مرويّ عن النبي صلى الله عليه وآله.

ثم أقسم عليه السلام أنه لا يُستغفَل بالمكيدة، أي لا تجوز المكيدة عليّ، كما تجوز على ذوي الغَفْلة، وأنه لا يستغمَز بالشديدة، أي لا أهين وألين للخطب الشديد.

حُسن سياسة أمير المؤمنين عليه السلام

واعلم أنّ قوماً ممّن لم يعرف حقيقة فضلِ أمير المؤمنين عليه السلام، زعموا أنّ عمرَ كان أسوَس منه، وإن كان هو أعلم من عمر، وصرح الرئيس أبو عليّ بن سينا بذلك في «الشفاء» في الحكمة، وكان شيخنا أبو الحسين يميل إلى هذا، وقد عرّض به في كتاب «الغرر»، ثم زعم أعداؤه ومباغضوه أن معاوية كان أسوَس منه وأصحّ تدبيراً، وقد سبق لنا بحث قديم في هذا الكتاب في بيان حسن سياسة أمير المؤمنين عليه السلام وصحّة تدبيره، ونحن نذكر ها هنا ما لم نذكره هناك ممّا يليق بهذا الفصل الذي نحن في شرحه.

اعلم أنّ السائس لا يتمكّن من السياسة البالغة إلاّ إذا كان يعمل برأيه، وبما يرى فيه صلاح ملكه، وتمهيد أمره، وتوطيد قاعدته، سواء وافق الشريعة أو لم يوافقها، ومتى لم يعمل في السياسة والتدبير بموجب ما قلناه، فبعيد أن ينتظم أمره، أو يستوثق حاله، وأمير المؤمنين كان مقيَّداً بقيود الشريعة، مدفوعاً إلى اتّباعها ورفض ما يصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد

---

(١) أخرجه البخاري في الجزية، باب: إثم الغادر للبر والفاجر (٣١٨٧)، وفي «الحيل» (٦٩٦٦)، ومسلم في الجهاد والسير، باب: تخريج الغدر (١٧٣٦)، وأحمد في «مسنده» (١٢٠٣٥).

والتدبير إذا لم يكن للشرع موافقاً، فلم تكن قاعدته في خلافته قاعدة غيره ممّن لم يلتزم بذلك، ولسنا بهذا القول زارين على عمر بن الخطاب، ولا ناسبين إليه ما هو منزّه عنه، ولكنّه كان مجتهداً يعمل بالقياس والاستحسانِ والمصالح المرسَلة، ويرى تخصيص عُمومات النصّ بالآراء وبالاستنباط من أصولٍ تقتضي خلاف ما يقتضيه عموم النصوص، ويكيد خصمه، ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة، ويؤدّب بالدرّة والسّوْط مَن يتغلّب على ظنّه أنه يستوجب ذلك، ويصفح عن آخرين قد اجترموا ما يستحقون به التأديب، كلّ ذلك بقوة اجتهاده وما يؤديه إليه نظره، ولم يكن أمير المؤمنين عليه السلام يرى ذلك، وكان يقف مع النصوص والظواهر، ولا يتعدّاها إلى الاجتهاد والأقيسة، ويطبّق أمورَ الدّنيا على أمور الدين، ويسوق الكلّ مساقاً واحداً، ولا يَضَع ولا يرفع إلا بالكتاب والنصّ، فاختلفت طريقتاهما في الخلافة والسياسة، وكان عمر مع ذلك شديد الغِلْظة والسياسة، وكان عليٌّ عليه السلام كثير الحِلْم والصّفح والتجاوز، فازدادت خلافة ذاك قوّة، وخلافة هذا ليناً، ولم يُمْنَ بما مُنِيَ به عليٌّ عليه السلام من فتنة عثمان، التي أحوجته إلى مداراة أصحابه وجنده ومقاربتهم، للاضطراب الواقع بطريق تلك الفتنة. ثم تلا ذلك فتنة الجمل، وفتنة صِفِّين ثم فتنة النّهروان، وكلّ هذه الأمور مؤثّرة في اضطراب أمر الوالي وانحلال معاقد ملكه، ولم يتّفق لعمر شيء من ذلك، فشتان بين الخلافتين فيما يعود إلى انتظام المملكة وصحّة تدبير الخلافة!

فإن قلت: فما قولك في سياسة الرسول الله صلى الله عليه وآله وتدبيره؟ أليس كان منتظماً سديداً مع أنه كان لا يعمل إلاّ بالنصوص والتوقيف من الوحي! فهلاّ كان تدبير عليٍّ عليه السلام وسياسته كذلك! إذا قلتم: إنه كان لا يعمل إلاّ بالنص، قلت: أما سياسة الرسول الله صلى الله عليه وآله وتدبيره فخارج عمّا نحن فيه، لأنه معصوم لا تتطرّق الغفلة إلى أفعاله، ولا واحدَ من هذين الرجلين بواجب العصمة عندنا. وأيضاً فإنّ كثيراً من الناس ذهبوا إلى أن الله تعالى أذِن للرسول الله صلى الله عليه وآله أن يحكم في الشرعيّات وغيرها برأيه، وقال له: احكم بما تراه، فإنّك لا تحكم إلاّ بالحق، وهذا مذهب يونس بن عمران، وعلى هذا فقد سقط السؤال، لأنه صلى الله عليه وآله يعمل بما يراه من المصلحة، ولا ينتظر الوحيَ. وأيضاً فبتقدير فساد هذا المذهب، أليس قد ذهب خلْق كثير من علماء أصول الفقه إلى أنّ الرسول الله صلى الله عليه وآله كان يجوز له أن يجتهدَ في الأحكام والتدبير، كما يجتهد الواحد من العلماء، وإليه ذهب القاضي أبو يوسف رحمه الله، واحتجّ بقوله تعالى: ﴿لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ﴾(١).

والسؤال أيضاً ساقط على هذا المذهب، لأنّ اجتهاد عليّ عليه السلام لا يساوي اجتهادَ النبيّ صلى الله عليه وآله، وبين الاجتهادَيْن كما بين المنزلتَيْن.

---

(١) سورة النساء، الآية: ١٠٥.

وكان أبو جعفر بن أبي زيد الحسنيّ نقيب البصرة رحمه الله إذا حدّثناه في هذا يقول: إنّه لا فرقَ عندَ من قرأ السّيرتين: سيرة للنبيّ ﷺ وسياسة أصحابه أيام حياته، وبين سِيرة أمير المؤمنين عليه السلام وسياسة أصحابه أيّام حياته، فكما أنّ عليًا عليه السلام لم يزلْ أمرُه مضطرباً معهم بالمخالفة والعصيان والهرب إلى أعدائه، وكثرة الفِتَن والحروب، فكذلك كان النبيّ ﷺ لم يزل ممنوًّا بنفاق المنافقين وأذاهم، وخلاف أصحابه عليه وهرب بعضهم إلى أعدائه، وكثرة الحروب والفتن.

وكان يقول: ألست ترى القرآن العزيز مملوءاً بذكر المنافقين والشكوى منهم، والتألّم من أذاهم له، كما أنّ كلام علي عليه السلام مملوءٌ بالشكوى من منافقي أصحابه والتألم من أذاهم له، والتوئهم عليه! وذلك نحو قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1].

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾[2] الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ . . . .﴾ السورة بأجمعها[3].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾[4].

وقوله تعالى: ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[5].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾[6].

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾[7].

---

(١) سورة المجادلة، الآية: ٨.

(٢) سورة المجادلة، الآية: ١٠.

(٣) سورة المنافقون، الآيتان: ١، ٢.

(٤) سورة محمد، الآية: ١٦.

(٥) سورة محمد، الآيتان: ٢٠، ٢١.

(٦) سورة محمد، الآية: ٢٩.

(٧) سورة الفتح، الآيتان: ١١، ١٢.

وقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[1].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾[2].

قال: وأصحابه هم الّذين نازعوا في الأنفال وطلبوها لأنفسهم، حتى أنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[3].

وهم الَّذِينَ ٱلْتَوَوْا عَلَيْهِ في ٱلْحَرْب يوم بدْر، وكرهوا لقاء العدوّ حتى خِيف خذلانُهم، وذلك قبل أن تتراءى الفئتان، وأنزل فيهم: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾[4].

وهم الذين كانوا يتمنّوْن لقاء العِير دون لقاء العدوّ، حتى إنّهم ظفروا برجلين في الطريق، فسألوهما عن العِير، فقالا لا علم لنا بها، وإنّما رأينا جيشَ قريش من وراء ذلك الكثِيب، فضربوهما ورسول الله ﷺ قائم يصلّي، فلمَّا ذاقَا مسَّ الضَرْب قالا: بل العِير أمامكم فاطلبوها، فلما رفعوا الضَرْب عنهما، قالا: والله ما رأينا العِير ولا رأينا إلاّ الخيل والسلاح والجيش، فأعادوا الضَرْب عليهما مرة ثانية، فقالا وهما يُضربان: العِير أمامكم، فخلُّوا عنَّا، فانصرف رسول الله ﷺ من الصّلاة، وقال: «إذا صدقاكم ضربتموهُما، وإذا كذباكم خلّيتم عنهما!» دعوهما، فما رأيا إلاّ جيش أهل مكة، وأنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[5]. قال المفسّرون: الطّائفتان: العِير ذات اللّطيمة الواصلة إلى مكة من الشام صحبةَ أبي سفيان بن حرب، وإليها كان خروج المسلمين، والأخرى: الجيش ذو الشَّوْكة، وكان عليه السلام قد وعدهم بإحدى الطائفتين، فكرهوا الحرب، وأحبُّوا الغنيمة.

قال: وهم الذين فرّوا عنه ﷺ يوم أُحد، وأسلموه وأصعدوا في الجبل، وتركوه حتى شجَّ الأعداءُ وجهَه، وكسروا ثنِيَّتَه، وضربوه على بَيْضَتِه، حتى دخل جماجمه، ووقع في فرسه إلى الأرض بين القتلى، وهو يستصرخ بهم، ويدعوهم فلا يجيبه أحدٌ منهم إلاّ مَنْ كان جارياً مجرى نَفْسِه، وشديد الاختصاص به، وذلك قوله تعالى: ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾[6]، أي ينادي فيسمَع نداءه آخر الهاربين لا أوّلهم، لأن أوّلهم

---

(١) سورة الفتح، الآية: ١٥.
(٢) سورة الحجرات، الآية: ٤، ٥.
(٣) سورة الأنفال، الآية: ١.
(٤) سورة الأنفال، الآية: ٦.
(٥) سورة الأنفال، الآية: ٧.
(٦) سورة آل عمران، الآية: ١٥٣.

أوْغَلُوا في الفرار، وبعدوا عن أن يسمعوا صوته، وكان قصارى الأمر أن يبلُغَ صوتُه واستصراخه مَنْ كان على ساقة الهاربين منهم.

قال: ومنهم الّذين عَصَوْا أمره في ذلك اليوم، حيث أقامهم على الشِّعب في الجبَل، وهو الموضع الذي خاف أن تكرّ عليه منه خيل العدوّ من ورائه، وهم أصحاب عبد الله بن جُبير، فإنّهم خالفوا أمره وعصوْه فيما تقدّم به إليهم، ورغِبوا في الغنيمة، ففارقوا مركزَهم، حتى دخل الوَهن على الإسلام بطريقهم، لأنّ خالد بن الوليد كرّ في عِصابة من الخيل، فدخل من الشعب الذي كانوا يحرسونه فما أحسن المسلمون بهم إلا وقد غَشُوهم بالسيوف منْ خلْفهم، فكانت الهزيمة، وذلك قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾(١).

قال: وهمُ الذين عصوا أمرَه في غزاة تَبوك، بعد أن أكّد عليهم الأوامر، وخذلوه وتركوه ولم يشخصوا معه، فأنزل فيهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾(٢)، وهذه الآية خطاب مع المؤمنين لا مع المنافقين، وفيها أوضح دليل على أنّ أصحابه وأولياءه المصدّقين لدعوته كانوا يعصونه، ويخالفون أمره، وأكّد عتابهم وتقريعهم وتوبيخهم بقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾(٣).

ثم عاتب رسول الله ﷺ على كونه أذِنَ لهم في التخلّف، وإنّما أذِنَ لهم لعلمه أنهم لا يجيبونه في الخروج، فرأى أن يجعل المِنّة له عليهم في الإذن لهم، وإلاّ قعدوا عنه ولم تصل له المنّة، فقال له: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(٤)، أي هلاّ أمسكت عن الأذن لهم حتى يتبيّن لك قعود مَنْ يقعد، وخروج مَنْ يخرج، صادقهم من كاذبهم! لأنهم كانوا قد وعدوه بالخروج معه كلّهم، وكان بعضُهم ينوي الغدر، وبعضهم يعزم على أن يخيس بذلك الوعد، فلو لم يأذن لهم لعلم من يتخلّف ومن لا يتخلّف، فعرف الصادق منهم والكاذب.

ثم بيّن سبحانه وتعالى أنّ الذين يستأذنونه في التخلُّفِ خارجون من الإيمان، فقال له: ﴿لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ۝٤٤

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٥٢.
(٢) سورة التوبة، الآيتان: ٣٨، ٣٩.
(٣) سورة التوبة، الآية: ٤٢.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٤٣.

إِنَّمَا يَسْتَئْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[1].

ولا حاجة إلى التَّطويل بذكر الآياتِ المفصّلة فيما يناسب هذا المعنى، فمنْ تأمّل الكتاب العزيز علِمَ حاله صلوات الله عليه مع أصحابه كيف كانت، ولم ينقُله الله تعالى إلى جوارِه إلاّ وهو مع المنافقين له والمظهرين خلاف ما يضمرون من تصديقه في جهادٍ شديد، حتى لقد كاشفوه مراراً، فقال لهم يوم الحديبيّة: احلقوا وانحروا... مراراً، فلم يحلقوا ولم ينحروا، ولم يتحرّك أحد منهم عند قوله، وقال لهم بعضهم وهو يقسم الغنائم: «اعدل يا محمّد فإنك لم تعدل»[2].

وقالت الأنصار له مواجهة يوم حنين: أتأخذُ ما أفاء الله علينا بسيوفنا فتدفَعه إلى أقاربك من أهل مكّة! حتى أقضَي الأمر إلى أن قال لهم في مرض موته: «ائتوني بدواة وكَتِف أكتبْ لكم ما لا تضلّون بعده»[3]، فعصوه ولم يأتوه بذلك، وليتهم اقتصرُوا على عصيانه ولم يقولوا له ما قالوا، وهو يسمع!

وكان أبو جعفر رحمه الله يقول من هذا ما يطول شرحه، والقليل منه ينبيء عن الكثير، وكان يقول: إنّ الإسلام ما حلا عندهم ولا ثبت في قلوبهم إلاّ بعد موته، حين فتِحَتْ عليهم الفتوح، وجاءتهم الغنائم والأموال، وكثرت عليهم المكاسب، وذاقوا طعم الحياة، وعرفوا لذَّة الدّنيا، ولبسوا الناعم، وأكلوا الطيّب، وتمتعوا بنساء الروم، ومَلَكُوا خزائن كسرى، وتبدلوا بذلك القَشْف والشّظف والعيش الخشِن وأكْل الضِّباب والقنافذ واليرابيع ولبْس الصوف والكَرابِيس، وأكل اللَّوْزِينجات والفالوذجات ولبس الحرير والديباج، فاستدلّوا بما فتحه الله عليهم، وأتاحه لهم على صحة الدّعوة، وصدْق الرسالة، فقد كان ﷺ وعدَهم بأنّه سيفتح عليهم كنوز كسرى وقيصر، فلمّا وجدوا الأمر قد وقع بموجب ما قاله عظّموه وبجّلوه، وانقلبت تلك الشّكوك وذاك النّفاق وذلك الاستهزاء إيماناً ويقيناً وإخلاصاً، وطاب لهم العيش، وتمسّكوا بالدين، لأنه زادهم طريقاً إلى نَيْل الدنيا، فعظّموا ناموسَه، وبالغوا في إجلاله وإجلال الرّسول الذي جاء به، ثم انقرض الأسلافُ وجاء الأخلاف على عقيدة ممهّدة، وأمرٍ أخذوه تقليداً من أسلافهم الذين رُبُّوا في حجورهم، ثم انقرض ذلك القرن، وجاء مَن بعدهم كذلك، وهلمّ جرّا.

---

(١) سورة التوبة، الآيتان: ٤٤، ٤٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في المقدمة، باب: في ذكر الخوارج (١٧٢)، ونحوه البخاري في فرض الخمس (٣١٣٨)، وأحمد في «مسنده» (١٤٤٠٦).

(٣) أخرجه البخاري في «العلم» (١١٤). ومسلم في الوصية: باب: ترك الوصية لمن ليس له شيء يوصي فيه (١٦٣٧) وأحمد في «مسنده» (١٤٣١٦).

قال: ولولا الفتوح والنّصر والظّفَر الّذِي منحهم الله تعالى إياه، والدّولة التي ساقها إليهم، لا نقرض دينُ الإسلام بعد وفاة رسول الله ﷺ، وكان يذكر في التواريخ، كما تُذكر الآن بنوّة خالد بن سنان العبسي، حيث ظهر ودعا إلى الدّين. وكانَ النّاس يعجَبُون من ذلك ويتذاكرونه كما يعجَبُون ويتذاكرون أخبارَ مَنْ نبغ من الرؤساء والملوك والدُّعاة الذين انقرض أمرهم، وبقيت أخبارهم.

وكان يقول: مَنْ تأمّل حال الرَّجلين وجدهما متشابهتَيْن في جميع أمورهما أو في أكثرها، وذلك لأنّ حَرّب رسول الله ﷺ مع المشركين كانَتْ سِجَالاً، انتصر يوم بدر، وانتصر المشركون عليه يوم أحُدٍ، وكان يوم الخندق كَفافاً خرج هو وهم سواء، لا عليه ولا له، لأنهم قتلوا رئيسُ الأوْس وهو سعد بن معاذ، وقتِل منهم فارس قريش وهو عمرو بن عبدوَدّ، وانصرفوا عنه بغير حرب بعد تلك الساعة التي كانت، ثم حارب بعدها قريشاً يوم الفتح، فكان الظفر له.

وهكذا كانت حروبُ علي عليه السلام، انتصر يوم الجمل، وخرج الأمر بينه وبين معاوية على سواء، قتل من أصحابه رؤساء، ومن أصحاب معاوية رؤساء، وانصرف كلّ واحدٍ من الفريقين عن صاحبه بعد الحرب على مكانه، ثمّ حارب بعد صِفّين أهل النَّهْرَوان، فكان الظَّفَر له.

قال: ومن العَجَبِ أنّ أوّل حروب رسول الله ﷺ كانت بدراً، وكان هو المنصور فيها، وأوّل حروب عليّ عليه السلام الجمل، وكان هو المنصور فيها. ثم كان من صحيفة الصُّلْح والحكومة يوم صِفّين نظير ما كان من صحيفة الصّلح والهدنة يوم الحديبيّة. ثم دعا معاوية في آخر أيّام عليّ عليه السلام إلى نفسه وتسمّى بالخلافة، كما أنّ مسيلمة والأسود العنسيّ دَعَوَا إلى أنفسهما في آخر أيام رسول الله ﷺ وتسمّيا بالنبوّة، واشتدّ على عليّ عليه السلام ذلك، كما اشتدّ على رسول الله ﷺ أمرُ الأسود ومُسَيلمة، وأبطل الله أمرهما بعد وفاة النبي ﷺ، وكذلك أبطل أمر معاوية وبني أميّة بعد وفاة عليّ عليه السلام. ولم يحارب رسولَ الله ﷺ أحد من العرب إلا قريش ما عدا يوم حنين، ولم يحارب علياً عليه السلام من العرب أحَدٌ إلا قريش ما عدا يوم النّهروان ومات علي عليه السلام شهيداً بالسيف، ومات رسول الله ﷺ شهيداً بالسمّ. وهذا لم يتزوَّجْ عَلَى خديجة أمّ أولاده حتى ماتت، وهذا لم يتزوج على فاطمة أمّ أشرف أولاده حتى ماتت. ومات رسول الله ﷺ عن ثلاث وستين سنة، ومات عليّ عليه السلام عن مثلها.

وكان يقول: انظروا إلى أخلاقهما وخصائصهما، هذا شجاع وهذا شجاع، وهذا فصيح وهذا فصيح، وهذا سخيّ جواد وهذا سخيّ جواد، وهذا عالم بالشرائع والأمور الإلٰهية، وهذا عالم بالفقه والشريعة والأمور الإلٰهية الدقيقة الغامضة، وهذا زاهداً في الدنيا غير نهِم ولا مستكثر منها، وهذا زاهد في الدنيا تارك لها غير متمتع بلذاتها. وهذا مُذيب نفسَه في الصّلاة

والعبادة، وهذا مثله. وهذا غير محبَّب إليه شيء من الأمور العاجلة إلاّ النّساء وهذا مثله، وهذا ابن عبد المطّلب بن هاشم، وهذا في قُعْدده[١]، وأبواهما أخوان لأبٍ واحد دون غيرهما من بني عبد المطّلب، وربّي محمد ﷺ في حِجْر والد هذا وهذا أبو طالب، فكان جارياً عنده مجرى أحدِ أولاده. ثم لما شبّ ﷺ وكبر استخلصه من بني أبي طالب وهو غلام، فربّاه في حجره مكافأة لصنيع أبي طالب به، فامتزج الخلُقان، وتماثلت السجيتان، وإذا كان القرين مقتدياً بالقرين، فما ظنُّك بالتربية والتثقيف الدائر الطويل! فواجب أن تكون أخلاق محمد ﷺ كأخلاق أبي طالب، وتكون أخلاقُ عليّ عليه السلام كأخلاق أبي طالب أبيه، ومحمد عليه السلام مربيّه، وأن يكون الكلّ شيمةً واحدة وسوساً واحداً، وطينة مشتركة، ونفساً غير منقسمة ولا متجزّئة، وألاّ يكون بين بعض هؤلاء وبعض فرْق ولا فضلٌ، لولا أنّ الله تعالى اختصّ محمداً ﷺ برسالته، واصطفاه لوحيه، لما يعلَمُه من مصالح البريّة في ذلك، ومن أنّ اللطفَ به أكمل، والنفع بمكانه أتمّ وأعمّ، فامتاز رسول الله ﷺ بذلك عمّن سواه، وبَقِيَ ما عدَا الرسالة على أمر الاتحاد، وإلى هذا المعنى أشار ﷺ بقوله: «أخصِمُك بالنبوّة بعدي، وتخصِمُ للنّاس بسبع»[٢]، وقال له أيضاً: «أنت منّي بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبيّ بعدي»[٣]، فأبان نفسه منه بالنبوّة، وأثبت له ما عداها من جميع الفضائل والخصائص مشتركاً بينهما.

وكان النقيب أبو جعفر رحمه الله، غزير العلم، صحيح العقل، منصفاً في الجدال، غيرَ متعصّب للمذهب - وإن كان عَلَوِيًا - وكان يعترف بفضائل الصّحابة، ويثني على الشَّيْخَيْن. ويقول: إنهما مَهّدَا دين الإسلام، وأرسيا قواعده، ولقد كان شديد الاضطراب في حياة رسول الله ﷺ، وإنّما مهداه بما تيسّر للعرب من الفتوح والغنائم في دولتهما. وكان يقول في عثمان: إنّ الدولة في أيّامه كانت على إقبالها وعلوّ جدّها، بل كانت الفتوح في أيّامة أكثر، والغنائم أعظم، لولا أنّه لم يراع ناموسَ الشيخيْن، ولم يستطع أن يسلك مسلكهما، وكان مضعّفاً في أصل القاعدة، مغلوباً عليه، وكثير الحبّ لأهله، وأتيح له من مَرْوان وزير سوء أفسد القلوب عليه، وحَمَل النّاس على خلعه وقتله.

---

(١) القعدد: البعيد الآباء. القاموس، مادة (قعد).

(٢) أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٦٥). وذكره ابن حجر في «لسان الميزان» (٢/ ١٩)، والذهبي في «ميزان الاعتدال» (٢/ ٢٣).

(٣) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٤)، والبخاري في المناقب (٣٧٠٦). والترمذي في المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧٣٠)، وابن ماجه في المقدمة، فضل علي بن أبي طالب (١٢١).

وكان أبو جعفر رحمه الله لا يجحد الفاضل فضله، والحديث شجون.

قلت له مرّة: ما سبب حبِّ الناس لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، وعشقهم له، وتهالكهم في هواه؟ ودعْني في الجواب من حديث الشجاعة والعلم والفصاحة، وغير ذلك من الخصائص التي رزقه الله سبحانه الكثير الطيّب منها!

فضحك وقال لي: كم تجمع جراميزك عليّ!

ثم قال: ها هنا مقدّمة ينبغي أن تُعْلم، وهي أنّ أكثر النّاس موتورون من الدنيا، أمّا المستحقون فلا ريب في أنّ أكثرهم محرمون، نحو عالم يرى أنّه لاحظّ له في الدنيا، ويرى جاهلاً غيره مرزوقاً وموسّعاً عليه. وشجاعٍ قد أبلى في الحرْب، وانتُفع بموضعه، ليس له عطاء يكفيه، ويقوم بضروراته، ويرى غيره وهو جبان فشِل، يفرقُ من ظلّه، مالكاً لقُطْر عظيم من الدنيا، وقطعة وافرة من المال والرزق. وعاقلٍ سديد التدبير، صحيح العقل، قد قُدِر عليه رزقه، وهو يرى غيره أحمق مائقاً تدرّ عليه الخيرات، وتتحلّب عليه أخلاف الرزق. وذي دين قويم، وعبادة حَسَنة، وإخلاص وتوحيد، وهو محروم ضيّق الرزق ويرى غيره يهوديًا أو نصرانياً أو زنديقاً، كثيرَ المال حَسَن الحال، حتى إنّ هذه الطّبَقات المستحقّة يحتاجون في أكثر الوقت إلى الطبَقات التي لا استحقاق لها، وتدعوهم الضرورة إلى الذلّ لهم، والخضوع بين أيديهم. إمّا لدفع ضرر، أو لاستجلاب نفع، ودون هذه الطّبَقات من ذوِي الاستحقاق أيضاً، ما نشاهده عياناً من نجّار حاذق أو بنّاء عالم، أو نقّاش بارع، أو مصوّر لطيف، على غاية ما يكون من ضيق رزقهم، وقعود الوقت بهم، وقلّة الحيلة لهم، ويُرَى غيرُهم ممن ليس يجري مجراهم، ولا يلحق طبقتهم، مرزوقاً مرغوباً فيه، كثير المكْسب طيّب العيش، واسعَ الرّزق. فهذا حال ذوي الاستحقاق والاستعداد. وأمّا الذين ليسوا من أهل الفضائل، كحشْو العامة، فإنّهم أيضاً لا يخلُون من الحقْد على الدنيا والذمّ لها، والحنَق والغيظ منها لما يلحقهم من حسد أمثالهم فوق حاله.

قال: فإذا عرفت هذه المقدّمة، فمعلوم أنّ علياً عليه السلام كان مستحقاً محروماً، بل هو أميرُ المستحقِّين المحرومين، وسيّدهم وكبيرهم، ومعلومٌ أنّ الذين ينالهم الضّيمُ، وتلحقهم المذلة والهضيمة، يتعصّب بعضهم لبعض، ويكونون إلْباً ويداً واحدة على المرزوقين الذين ظفرُوا بالدنيا، ونالوا مآربهم منها، لاشتراكهم في الأمر الذي آلمهم وساءهم، وعضّهم ومضّهم، واشتراكهم في الأنَفة والحميَّة والغضب والمنافسة لمن علا عليهم، وقَهَرَهُم، وبلغ من الدّنْيا ما لم يبلغوه، فإذا كان هؤلاء - أعني المحرومين - متساوين في المنزلة والمرتبة، وتعصّب بعضهم لبعض، فما ظنّك بما إذا كان منهم رجلٌ عظيم القَدْر جليل الخطر كامل الشرف، جامع للفضائل محتوٍ على الخصائص والمناقب، وهو مع ذلك محروم محدود، وقد جرَّعتْه الدنيا

علاقمَها، وعلّته عَلَلاً بعد نَهَلٍ من صابها وصَبِرها، ولقي منها بَرْحاً بارحاً، وجهداً جهيداً، وعلا عليه مَنْ هو دونه، وحُكِّم فيه وفي بنيه وأهله ورهطه مَنْ لم يكن ما ناله من الإمرة والسلطان في حسابه، ولا دائراً في خَلَدِه، ولا خاطراً بباله، ولا كان أحدٌ من الناس يرتقب ذلك له ولا يراه له. ثمّ كان في آخر الأمر أن قتِل هذا الرجل الجليل في محرابِه، وقتِل بنوه بعدَهُ، وسُبِيَ حريمُه ونساؤه، وتُتبِّع أهلُه وبنو عمّه بالقتل والطّرد والتشريد والسجون، مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم، وانتفاع الخلْق بهم. فهل يمكن ألا يتعصب البَشَرُ كلّهم مع هذا الشخص! وهل تستطيع القلوب ألا تحبّه وتهواه، وتذوبَ فيه وتفني في عشقه، انتصاراً له، وحَمِيّةً من أجله، وأنفةً ممّا ناله، وامتعاضاً مما جرى عليه! وهذا أمرٌ مركوز في الطبائع، ومخلوق في الغرائز، كما يشاهد الناس على الجُرُف إنساناً قد وقع في الماء العميق، وهو لا يحسن السباحة، فإنّهم بالطبْع البشريّ يرِقّون عليه رقّة شديدة، وقد يُلْقِي قومٌ منهم أنفسَهم في الماء نحوه، يطلبون تخليصَه، لا يتوقّعون على ذلك مجازاةً منه بمالٍ أو شكر، ولا ثواباً في الآخرة، فقد يكون منهم مَنْ لا يعتقد أمرَ الآخرة، ولكنها رقّة بَشرِيّة، وكأنّ الواحدَ منهم يتخيّل في نفسه أنّه ذلك الغريق، فكما يطلب خلاصَ نفسه لو كان هذا الغريق، كذلك يطلب تخليصَ مَنْ هو في تلك الحال الصعبة، للمشاركة الجنسيّة. وكذلك لو أنّ ملكاً ظلم أهل بلدٍ من بلاده ظلماً عنيفاً، لكان أهلُ ذلك البلد يتعصّب بعُضهم لبعض في الانتصار من ذلك الملك، والاستعداء عليه، فلو كان مِنْ جملتهم رجلٌ عظيمُ القدْر، جليل الشّأن، قد ظلمه الملك أكثَر من ظلْمه إيّاهم، وأخذَ أموالَه وضِياعَه، وقَتل أولادَه وأهله، كان لِياذُهم به، وانضواؤهم إليه، واجتماعهم والتفافهم به أعظمَ وأعظم، لأنّ الطبيعة البشريّة تدعو إلى ذلك على سبيل الإيجاب الاضطراريّ، ولا يستطيع الإنسان منه امتناعاً.

وهذا محصول قولِ النّقيب أبي جعفر رحمه الله، قد حكيته والألفاظ لي والمعنى له، لأنّي لا أحفظ الآن ألفاظه بعينها، إلاّ أنّ هذا هو كان معنى قوله وفحواه، رحمه الله. وكان لا يعتقد في الصّحابة ما يعتقده أكثر الإماميّة فيهم، ويسفِّه رأيَ مَنْ يذهب فيهم إلى النّفاق والتّكْفير. وكان يقول: حكمُهم حُكْم مسلم مؤمن، عَصَى في بعض الأفعال وخالف الأمر، فحكمه إلى الله، إنْ شاء آخذه، وإن شاء غفر له.

قلت له مَرّة: أفتقولُ إنّهما من أهل الجنّة؟ فقال: إي والله! أعتقد ذلك، لأنّهما إمّا أن يعفوَ الله تعالى عنهما ابتداء أو بشفاعة الرسول الله صلى الله عليه وآله، أو بشفاعة عليّ عليه السلام، أو يؤاخذهما بعقاب أو عتاب، ثم ينقلهما إلى الجنّة، لا أستريب في ذلك أصلاً، ولا أشكُّ في إيمانهما برسول الله صلى الله عليه وآله وصحّةِ عقيدتهما.

فقلت له: فعثمان؟ قال: وكذلك عثمان. ثم قال: رحم الله عثمان! وهل كان إلا واحداً

منّا، وغصناً من شجرة عبد مناف! ولكنّ أهله كدّروه علينا، وأوقعوا العداوة والبغضاء بينه وبيننا.

قلت له: فيلزَمُك على ما تراه في أمرِ هؤلاء أن تجوِّزَ دخولَ معاوية الجنّة، لأنّه لم تكن منه إلا المخالفة وترك امتثال الأمر النبويّ!

فقال: كلاّ، إنّ معاوية من أهلِ النار، لا لمخالفته عليًّا، ولا بمحاربته إيّاه، ولكنّ عقيدتَه لم تكن صحيحة، ولا إيمانَه حقاً، وكان من رؤوس المنافقين هو وأبوه، ولم يسلِمْ قلبُه قطّ، وإنّما أسلم لسانه، وكان يذكُر مِنْ حديث معاوية ومن فَلَتات قوله، وما حفِظ عنه من كلامٍ يقتضي فساد العقيدة شيئاً كثيراً، ليس هذا موضعَه فأذكره.

وقال لي مرّة: حاش لله أن يُثبتَ معاوية في جَرِيدة الشيْخيْن الفاضلين أبي بكر وعمر! والله ما هما إلاّ كالذّهب الإبريز، ولا معاوية إلاّ كالدّرهم الزائف - أو قال: كالدرهم القَسّيّ[1] - ثم قال لي: فما يقول أصحابُكم فيهما؟ قلت: أمّا الذي استقرّ عليه رأيّ المعتزلة بعد اختلاف كثير بين قدمائهم في التفضيل وغيره، أنّ علياً عليه السلام أفضلُ الجماعة، وأنّهم تركُوا الأفضلَ لمصلحة رأوْها، وأنه لم يكن هناك نصٌّ يقطع العُذْر، وإنّما كانت إشارة وإيماء لا يتضمّن شيء منها صريحَ النّص، وإنّ علياً عليه السلام نازَع ثم بايع، وجَمَح ثم استجاب، ولو أقام على الامتناع لم نقلْ بصحّة البيعة ولا بلزومها، ولو جرّد السيف كما جرّده في آخِر الأمر لقلنا بفسق كلِّ مَنْ خالفه على الإطلاق كائناً مَنْ كان، ولكنّه رضِيَ بالبيعة أخيراً، ودخل في الطاعة.

وبالجملة، أصحابنا يقولون: إنّ الأمر كان له، وكان هو المستحقّ والمتعين، فإن شاء أخذه لنفسه، وإن شاء ولاّه غيرَه، فلمّا رأيناه قد وافَق على ولاية غيره، اتّبعناه ورضِينا بما رضِيَ. فقال: قد بَقيَ بيني وبينكم قليل، أنا أذهب إلى النصّ وأنتم لا تذهبون إليه!

فقلت له: إنّه لم يثبت النصّ عندنا بطريق يوجب العلم، وما تِذكرونه أنتم صريحاً فأنتم تنفردون بنقله، وما عدَا ذلك من الأخبار التي نشاركم فيها، فلها تأويلات معلومة.

فقال لي وهو ضَجِر: يا فلان، لو فتحنا باب التأويلات، لجاز أن يَتناول قولنا: «لا إله إلا الله محمد رسول الله»، دعني من التأويلات الباردة التي تعلم القلوب والنّفوس أنها غيرُ مرادة، وأنّ المتكلمين تكلفوها وتعسّفوه، فإنما أنا وأنت في الدار ولا ثالث لنا، فيستحيي أحدُنا من صاحبه أو يخافه.

فلما بلغنا إلى هذا الموضع، دخل قوم ممّن كان يخشاه، فتركنا ذلك الأسلوب من الحديث، وخضنا في غيره.

---

(١) الدرهم القسي: المزيف. القاموس، مادة (قسا).

سياسة الإمام علي عليه السلام ومعاوية

فأمّا القولُ في سياسة معاوية، وأنّ شَنَأة عليّ عليه السلام ومُبغضيه زعموا أنها خيرٌ من سياسة أمير المؤمنين، فيكفينا في الكلام على ذلك ما قاله شيخنا أبو عثمان، ونحن نحكيه بألفاظه.

قال أبو عثمان: وربّما رأيت بعضَ مَنْ يظنّ بنفسه العقل والتحصيل والفهم والتمييز - وهو من العامّة ويظنّ أنّه من الخاصّة - يزعم أن معاوية كان أبعد غَوْراً، وأصحَّ فِكْراً، وأجود رويّة، وأبعدَ غاية، وأدقّ مسلكاً، وليس الأمرُ كذلك، وسأرْمي إليك بجملة تعرف بها موضع غَلَطه والمكانَ الذي دخل عليه الخطأ من قِبَله.

كان عليّ عليه السلام لا يستعملُ في حَرْبه إلاّ ما وافق الكِتاب والسنة، وكان معاوية يستعمل خلافَ الكتاب والسنة، كما يستعمل الكتاب والسنة، ويستعمل جميعَ المكايد، حلالها وحرامها، ويسير في الحرب بسيرة مِلِك الهند إذا لاقى كِسْرى، وخاقان إذا لاقى رُتْبِيل. وعليّ عليه السلام يقول: لا تبدأوهم بالقتال حتى يبدأوكم، ولا تتبعوا مدبِراً، ولا تُجْهزوا عَلَى جريح، ولا تفتحوا باباً مغلَقاً، هذه سيرته في ذي الكَلاع، وفي أبي الأعور السُلَميّ، وفي عمرو بن العاص، وحبيب بن مَسْلَمة، وفي جميع الرؤساء، كسيرته في الحاشيَة والحشْوِ والأتباع والسَّفِلة. وأصحاب الحروب، إنْ قَدَرُوا على البَيَات بَيّتوا، وإن قَدَرُوا على رَضْخ الجميع بالجندل وهم نيام فعلوا، وإن أمكن ذلك في طَرْفة عين لم يؤخروه إلى ساعة، وإن كان الحرْق أعجَل من الغَرَق لم يقتصروا على الغَرَق ولم يؤخروا الحرْق إلى وقت الغرق، وإن أمكن الهدْم لم يتكلفوا الحِصَار، ولم يدَعوا أن ينصِبُوا المجانِيق، والعَرّادات، والنقب، والتّسريب، والدّبابات، والكَمِين، ولم يدَعُوا دسّ السّموم، ولا التضريب بين الناس بالكذب، وطرْح فكتب في عساكرهم بالسّعايات، وتوهيم الأمور، وإيحاش بعض من بعض، وقتلهم بكلّ آلةٍ وحيلة، كيف وقع القتل، وكيف دارت بهم الحال! فمن اقتصر - حفِظك الله - من التدبير على ما في الكتاب والسنة كان قد منع نفسه الطويلَ العريضَ مِن التدبير، وما لا يتناهى من المكايد. والكذب - حفظك الله - أكثرُ من الصّدق، والحرامُ أكثر عدداً من الحلال، ولو سمّي إنسانٌ إنساناً باسمه لكان قد صدق، وليس له اسم غيره، ولو قال: هو شيطان أو كلب أو حمار أو شاة أو بعير أو كلّ ما خطر على البال، لكان كاذباً في ذلك، وكذلك الإيمان والكفر، وكذلك الطاعة والمعصية، وكذلك الحقّ والباطل، وكذلك السُّقم والصحّة، وكذلك الخطأ والصواب، فعليّ عليه السلام كان ملجَماً بالوَرَع عن جميع القول إلاّ ما هو لله عزّ وجلّ رضاً، وممنوع اليدين من كلّ بطش إلا ما هو لله رضاً، ولا يَرى الرّضا إلا فيما يرضاه الله ويحبّه، ولا يرى الرّضا إلاّ فيما دلّ عليه الكتاب والسنة، دون ما يعوّل عليه أصحابُ الدّهاء والنكْراء

والمكايد والآراء، فلّما أبصرت العوامّ كثرة نوادر معاوية في المكايد، وكثْرةَ غرائبه في الخداع، وما اتفق له وتهيّأ عَلَى يده، ولم يروْ ذلك من عليّ عليه السلام، ظنُّوا - بقِصَرِ عقولهم، وقلة علُومهم - أنّ ذلك من رجحانٍ عند معاوية ونقصان عند عليّ عليه السلام. فانْظُر بعدَ هذا كله، هل يعدّ له من الخدع إلا رفع المصاحف! ثم انظر هل خَدَع بها إلا مَنْ عصى رأيَ عليٍّ عليه السلام، وخالف أمره!

فإنْ زعمَت أنه قال ما أراد من الاختلاف فقد صدقت، وليس في هذا اختلفنا، ولا عَنْ غرَارة أصحاب عليّ عليه السلام وعَجَلتهم وتسرّعهم وتنازعهم دفعنا، وإنما كان قولُنا في التميز بينهما في الدّهاء والنكراء وصحة العقل والرأي والبزلاء، عَلَى أنا لا نصفُ الصالحين بالدّهاء والنُّكراء، لا نقول: ما كان أنكرَ أبا بكر بن أبي قحافة! وما كان أنكر عمر بن الخطاب! ولا يقول أحدٌ عنده من الخيْر: كان رسول الله صلى الله عليه وآله أدهى العرب والعجم، وأنْكر قريش وأمْكر كنانة، لأنّ هذه الكلمة إنما وُضِعَتْ في مديح أصحاب الأرب ومَنْ يتعمّق في الرأي في توكيد الدنيا وزبْرجها وتشديد أركانها، فأمّا أصحابُ الآخرة الّذين يروْن الناس لا يصلحون على تدبير البشَر، وإنما يصلُحون عَلَى تدبير خالق البَشَر، فإنّ هؤلاء لا يُمْدَحون بالدّهاء والنُّكراء، ولم يمنَعوا هذا إلاّ ليُعطَوْا أفضلَ منه. الاَ ترى أنّ المغيرة بن شُعبة - وكان أحدَ الدهاة - حين ردّ على عمرو بن العاص قوله في عمر بن الخطاب - وعمرو بن العاص أحد الدهاة أيضاً: أأنت كنتَ تفعل، أو تُوهم عمر شيئاً فيلقّنه عنك! ما رايت عمَر مستخلياً بأحدٍ إلاّ رحمته كائناً مَنْ كان ذلك الرجل، كان عمر والله أعقلَ من أن يُخْدَع، وأفضلَ من أن يَخْدَع. ولم يذكرْه بالدّهاء والنُّكراء وهذا مع عجبه بإضافة الناس ذلك إليه، ولكنه قد علم أنه إذا أطلق على الأئمة الألفاظ التي لا تصلح في أهل الطهارة، كان ذلك غير مقبول منه، فهذا هذا.

وكذلك كان حُكْم قولِ معاوية للجميع: أخرِجُوا إلينا قَتَلة عثمان، ونحن لكم سِلْم. فاجْهَد كلّ جَهْدِك، واستعن بمَن شايعك إلى أن تتخلّص إلى صواب رأي في ذلك الوَقت أضله عليّ، حتى تعلم أن معاوية خادع، وأنّ عليًّا عليه السلام كان المخدوع.

فإن قلت: فقد بلغ ما أراد، ونال ما أحبّ، فهل رأيت كتابنا وُضِع إلا عَلَى أنّ علياً كان قد امتُحِن في أصحابه وفي دهره، بما لم يمتَحنْ إمام قبله من الاختلاف والمنازعة، والتّشاح من الرياسة والتسرّع والعجلة! وهل أتى عليه السلام إلا من هذا المكان! أوَ لسنا قد فرغنا من هذا الأمر، وقد علمنا أنّ ثلاثة نفر تواطئوا على قتل ثلاثة نفر، فانفرد ابنُ مُلْجَم بالتماس ذلك من عليّ عليه السلام، وانفرد البَرْك الصّريميّ بالتماس ذلك من عمرو بن العاص وانفرد الآخر - وهو عمرو بن بكر التميميّ - بالتماس ذلك من معاوية، فكان من الاتّفاق أو من الامتحان، أنْ كان عليّ من بينهم هو المقتول.

وفي قياس مذهبكم أن تزعُمُوا أنّ سلامة عمرو ومعاوية إنّما كانتْ بحزْم منهما، وأنّ قتل عليّ عليه السلام إنّما هو من تضييع منه، فإذْ قد تبيّن لكم أنّه من الابتلاء والامتحان في نفسه بخلاف الذي قد شاهدتموه في عدوّه، فكلّ شيء سوى ذلك، فإنّما هو تَبَعٌ للنفس.

هذا آخر كلام أبي عثمان في هذا الموضع، ومَنْ تأمّله بعين الإنصاف، ولم يتّبع الهوى علم صحّة جميع ما ذكره، وأنّ أمير المؤمنين دُفِع - من اختلاف أصحابه، وسوء طاعتهم له، ولزومه سنَن الشّريعة، ومنهج العدل، وخروج معاوية وعمرو بن العاص عن قاعدة الشّرع في استمالة الناس إليهم بالرّغبة والرّهبة - إلى ما لم يُدْفَع إليه غيره. فلولا أنّه عليه السلام كان عارفاً بوجوه السّياسة وتدبير أمر السلطان والخلافة، حاذقاً في ذلك، لم يجتمع عليه إلاّ القليل من النّاس، وهم أهلُ الآخرة خاصّة، الذين لا ميْلَ لهم إلى الدنيا، فلمّا وجدناه دبّر الأمر حين وَلِيَه، واجتمع عليه من العساكر والأتباع ما يتجاوز العدّ والحصر، وقاتل بهم أعداءه الذين حالُهم حالهم، فظفِر في أكثر حروبه، ووقف الأمر بينه وبين معاوية على سواء، وكان هو الأظهر والأقرب إلى الانتصار - علمنا أنّه من معرفةِ تدبير الدول والسلطان بمكان مكين.

أقوال من طعن في سياسة علي عليه السلام والرد عليها

وقد تعلّق مَنْ طَعن في سياسته بأمور:

منها قولُهم: لو كان حين بُويع له بالخلافة في المدينة أقرّ معاوية على الشام إلى أن يستقرّ الأمر له ويتوطّد، ويبايعه معاويةُ وأهلُ الشام ثم يعزله بعد ذلك، لكان قد كُفِيَ ما جرى بينهما من الحرب.

والجواب: أنّ قرائن الأحوال حينئذٍ، قد كان علم أمير المؤمنين عليه السلام منها أنّ معاوية لا يبايَع له وإن أقرّه على ولاية الشام، بل كان إقرارُه له على إمْرَةِ الشّام أقوى لحال معاوية، وآكدَ في الامتناع من البَيْعة، لأنّه لا يخلو صاحب السؤال إمّا أن يقول: كان ينبغي أن يطالبَه بالبيعة ويقرن إلى ذلك تقليده بالشام، فيكون الأمران معاً، أو يتقدّم منه عليه السلام المطالبة بالبيعة. أو يتقدّم منه إقراره على الشام وتتأخّر المطالبة بالبيعة إلى وقت ثان. فإنْ كان الأول فمن الممكن أن يقرأ معاويةُ على أهل الشام تقليده بالإمْرَة، فيؤكّد حاله عندهم ويقرّر في أنفسهم، لولا أنه أهلٌ لذلك لما اعتمده عليّ عليه السلام معه، ثم يماطله بالبيعة، ويحاجزه عنها. وإن كان الثّاني فهو الذي فعله أمير المؤمنين عليه السلام. وإن كان الثّالث فهو كالقسم الأول، بل هو آكد فيما يريده معاوية من الخلاف والعصيان. وكيف يتوهّم مَنْ يعرف السِّيَر أنّ معاوية كان يبايع له، لو أقرّه على الشام وبينه وبينه ما لا تبرك الإبلُ عليه، من التِّراث القديمة، والأحقاد، وهو الّذِي قتل حنظلة أخاه والوليد خاله، وعتبة جدّه في مقامٍ واحد، ثم ما جرى بينهما في أيّام عثمان، حتى أغلظ كلُّ واحدٍ منهما لصاحبه، وحتى تهدّده معاوية، وقال له: إنّي شاخص إلى الشام وتارك

عندك هذا الشيخ - يعني عثمان - والله لئن انحصَّت منه شعرة واحدة لأضربنّك بمائة ألف سيف. وقد ذكرنا شيئاً مما جرى بينهما فيما تقدم.

وأما قول ابن عباس له عليه السلام: ولّه شهراً واعزله دهراً، وما أشار به المغيرة بن شعبة، فإنهما ما توهّماه، وما غلب على ظنونها وخطر بقلوبهما، وعليّ عليه السلام كان أعلمَ بحاله مع معاوية، وأنّها لا تقبل العلاج والتدّبير. وكيف يخطر ببال عارف بحال معاوية ونكْره ودهائه، وما كان في نفسه من عليّ عليه السلام مِنْ قَتْل عثمان ومن قَبْل قَتْل عثمان، أنّه يقبل إقرار عليّ عليه السلام له على الشام، وينخدع بذلك، ويبايع ويعطي صَفْقة يمينه! إنّ معاوية لأدهى من أن يُكاد بذلك، وإن عليًّا عليه السلام لأعرفُ بمعاوية ممن ظنّ أنّه لو استماله بإقراره لبايع له، ولم يكن عند عليّ عليه السلام دواء لهذا المرض إلا السيف، لأن الحال إليه كانت تؤول لا محالة، فجعل الآخر أولاً.

وأنا أذكر في هذا الموضع خبراً رواه الزّبير بن بكار في «الموفقيّات» ليعلم من يقف عليه، أنّ معاوية لم يكن لينجذب إلى طاعة عليّ عليه السلام أبداً، ولا يعطيه البيعة، وأنّ مضادّته له، ومباينته إياه كمضادّة السّواد للبياض لا يجتمعان أبداً وكمباينة السّلْب للإيجاب، فإنّها مباينة لا يمكن زوالها أصلاً. قال الزبير:

حدّثني محمد بن محمد بن زكريا بن بسْطام، قال: حدثني محمد بن يعقوب بن أبي الليث، قال: حدّثني أحمد بن محمد بن الفضل بن يحيى المكّي، عن أبيه، عن جدّه الفضل بن يحيى عن الحسن بن عبد الصمد، عن قيس بن عرفجة، قال: لما حصِر عثمان أبرَد مروان بن الحكم بخبره بريدَيْن: أحدهما إلى الشام، والآخر إلى اليمن - وبها يومئذٍ يعلي بن منية - ومع كلّ واحدٍ منهما كتاب، فيه أنّ بني أمية في الناس كالشّامة الحمراء، وأنّ الناس قد قعدوا لهم برأس كلّ محجّة، وعلى كلّ طريق، فجعلوهم مرمَى العرّ والعضيهة، ومقذف القَشْبِ والأفيكة، وقد علمتم أنّها لم تأتِ عثمان إلا كرْهاً، تجبذ من ورائها. وإنّي خائف إن قتِل أن تكون من بني أمية بمناط الثريّا، إن لم نَصِرْ كرصيف الأساس المحكم، ولئن وَهي عمودُ البيت لتَتَداعَيَنَّ جدرانُه، والذي عيب عليه إطعامكما الشام واليمن، ولا شكَّ أنكما تابعاه إن لم تحذرا، وأما أنا فمساعفٌ كلّ مستشير، ومعين كلّ مستصرخ، ومجيبٌ كل داع، أتوقَّع الفرصة فأثب وثبة الفَهْد أبصرَ غفلة مقتَنصة، ولولا مخافة عَطَب البريد، وضياع الكتب، لشرحت لكما من الأمر ما لا تفزعان معه إلى أن يحدث الأمر، فجدّا في طلب ما أنتما وليّاه، وعلى ذلك فليكن العمل إن شاء الله. وكتب في آخره:

وَمَا بَلَغَتْ عُثْمانَ حَتّى تَخَطَّمَتْ ... رجالٌ ودانَتْ للصَّغار رجالُ
لقد رجعتْ عوْداً على بدء كونها ... وإن لم تجدّا فالمصيرُ زوالُ
سيبدىء مكنون الضمائر قولُهم ... ويظهر منهم بعد ذاك فعالُ

فإنْ تقعدا لا تطلبا ما ورثتما ... فليس لنا طول الحياة مقالُ

نعيش بدارِ الذلّ في كلّ بلدةٍ ... وتظهر منا كأبَةٌ وهُزالُ

فلمّا ورد الكتاب على معاوية، أذّن في الناس: الصّلاة جامعة! ثم خطبهم خطبة المستنصر المستصرخ.

وفي أثناء ذلك وورَد عليه قبل أن يكتب مرْوان بقتل عثمان، وكانت نسخته: وهب الله لك أبا عبد الرحمن قوّة العزم، وصلاحَ النيّة، ومنْ عليك بمعرفة الحقّ واتّباعه، فإنّي كتبت إليك هذا الكتاب بعد قَتْل عثمان أمير المؤمنين عليه السلام، وأيّ قِتْلةٍ قُتِل! نُحِر كما ينْحَر البعير الكبير عند اليأس من أن ينوء بِالحمْل، بعد أن نُقِبَتْ صفحتُه بطيّ المراحل وسَيْر الهجير، وإني معلِمُك من خبره غير مقصّر ولا مطيل: إنّ القوم استطالوا مدّته، واستقلّوا ناصرَه، واستضعفوه في بدنه، وأمّلُوا بقتلِه بَسْطَ أيديهم فيما كان قَبَضه عنهم، واعصوصبوا عليه، فظلّ محاصَراً، قد مُنِع من صلاة الجماعة، وردّ المظالم، والنّظر في أمور الرعيّة، حتى كأنّه هو فاعل لما فعلوه. فلما دام ذلك أشرف عليهم، فخوّفهم الله وناشدَهم، وذكّرهم مواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقوله فيه، فلم يجحدوا فضله، ولم ينكروه، ثم رمَوْه بأباطيلَ اختلقوها ليجعلوا ذلك ذريعةً إلى قتله، فوعدهم التوبة ممّا كرهوا، ووعدَهم الرّجعة إلى ما أحبُّوا. فلم يقبلوا ذلك، ونهبوا دارَه، وانتهكوا حرمتَه، ووثبوا عليه، فسفكوا دَمه، وانقشعوا عنه انقشاعَ سحابة قد أفرغَتْ ماءها، منكفئين قِبَل ابنِ أبي طالب، انكفاء الجرَاد إذَا أبصر المرعى. فأخلقْ ببني أميّة أن يكونوا من هذا الأمر بمجرى العيُوق إن لم يثأره ثائر! فإن شئت أبا عبد الرحمن أن تكونه فكنْه. والسلام.

فلما ورد الكتاب على معاوية، أمر بجمع الناس، ثمّ خطبهم خطبة أبكى منها العيون، وقلقل القلوب، حتى علت الرّنّة، وارتفع الضّجيج، وهَم النساء أن يتسلّحن، ثم كتب إلى طلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوّام، وسعيد بن العاص، وعبد الله بن عامر بن كريز، والوليد بن عُقْبة، ويعلَى بن مُنْية - وهو اسم أمّه - وإنّما اسم أبيه أميّة.

فكان كتاب طلحة: أما بعد، فإنّك أقلّ قريش في قريش وِتراً، مع صباحة وجهك وسماحة كفّك، وفصاحة لسانك. فأنت بإزاء مَنْ تقدّمك في السابقة، وخامس المبشّرين بالجنّة، ولك يوم أحُد وشرفه وفضلُه، فسارع رحمك الله إلى ما تقلّدك الرعيّة من أمرها ممّا لا يسعك التخلّف عنه، ولا يرضى الله منك إلا بالقيام به، فقد أحكمتُ لك الأمر قِبَلي، والزبير فغير متقدّم عليك بفضل، وأيكما قدّم صاحبه فالمقدّم الإمام، والأمر من بعده للمقدّم له، سلك الله بك قصد المهتدين، ووهب لك رشد الموفقين. والسلام.

وكتب إلى الزبير: أمّا بعد، فإنّك الزبير بن العوام، ابن أبي خديجة وابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريّه، وسلَفه، وصهر أبي بكر، وفارس المسلمين، وأنت الباذل في الله

مهجته بمكّة عند صيْحة الشيطان، بعثك المنبعث، فخرجت كالثّعبان المنسلِخ. بالسيف المنصلت، تخبط خَبْط الجمل الرديع، كلّ ذلك قوة إيمان، وصدق يقين، وسبقت لك من رسول الله ﷺ البشارة بالجنّة، وجعلك عمر أحد المستخلَفين على الأمّة. واعلم يا أبا عبد الله، أنّ الرعية أصبحت كالغنم المتفرّقة لغيبة الراعي، فسارع رحمك الله إلى حقن الدماء ولمّ الشعث، وجَمْع الكلمة، وصلاح ذات البين، قَبْل تفاقم الأمر وانتشار الأمّة، فقد أصبح الناس على شَفَا جُرفٍ هارٍ عمّا قليل ينهار إن لم يُرْأب. فشمّر لتأليف الأمة، وابْتَغِ إلَى ربّك سبيلاً، فقد أحكمتُ الأمر على من قِبَلي لك ولصاحبك على أنّ الأمر للمقدّم، ثمّ لصاحبه من بعده. جعلك الله من أئمة الهدى، وبُغاة الخير والتقوى. والسلام.

وكتَب إلى مرْوان بن الحكم:

أما بعد، فقد وصل إليّ كتابك بشرْح خبر أمير المؤمنين، وما ركِبُوه به، ونالوه منه، جهلاً بالله وجراءة عليه، واستخفافاً بحقّه، ولأمانيّ لوَّح الشيطانُ بها في شَرَك الباطل ليدَهْدِهَهُم[(١)] في أهْوِيَات الفتن، ووهَدات[(٢)] الضّلال، ولعمْرِي لقد صدق عليهم ظنّه، ولقد اقتنصهم بأنشوطة فخّه. فعلى رِسْلك أبا عبد الله، يمشي الهوينَى ويكون أولاً، فإذَا قرأت كتابي هذا فكنْ كالفَهْد لا يصطاد إلاّ غِيلةً، ولا يتشازر إلا عن حيلة، وكالثعلب لا يفلِتُ إلاّ روَغاناً، وأخفِ نفسَك منهم إخفاء القنفذ رأسَه عند لمس الأكفّ، وامتهن نفسَك امتهان مَنْ يَيأس القوم من نصره وانتصاره، وابحث عن أمورهم بحثَ الدّجاجة عن حَبّ الدّخن عند فقاسها، وأنْغِل[(٣)] الحجاز فإني منغل الشام. والسلام.

وكتب إلى سعيد بن العاص:

أما بعد، فإنّ كتاب مَرْوان ورد عليّ من ساعة وقعت النازلة، تُقبِلُ به البرُد بسير المطيّ الوجِيف، تتوجّس توجُّس الحيّة الذَّكر خوف ضربة الفأس، وقبضة الحاوِيَ، ومروان الرائد لا يكذِبُ أهلَه، فعلام الإفكاك يابن العاص، ولات حينَ مَناص! ذلك أنكم يا بني أميّة عمّا قليلِ تَسألون أدنى العيشِ سن أبعد المسافة، فينكركم مَنْ كان منكم عارفاً، ويصدّ عنكم مَنْ كان لكم واصلاً، متفرّقين في الشعاب تتمنّوْن لمظة المعاش. إنّ أميرالمؤمنين عُتِب عليه فيكم، وقتِل في سبيلكم، ففيمَ القُعود عن نصرته، والطلب بدمه، وأنتم بنو أبيه، ذوو رحمه وأقربوه، وطلاّب ثأره! أصبحتم متمسّكين بشظَف معاشٍ زهيد، عمّا قليل يُنزع منكم عند التخاذُل وضعف

---

(١) دَهْدَهَ الحجَرَ فَتَدَهْدَهَ: دحرجته فتدحرج. القاموس، مادة (دهده).
(٢) الوَهْدَةُ: الأرض المنخفضة، والهوّةُ في الأرض. القاموس، مادة (وهد).
(٣) النغل: الفساد. القاموس، مادة (فعل).

القوى. فإذا قرأتَ كتابي هذا فدبّ دبيب البُرْء في الجسَد النحيف، وسِرْ سَيْر النجوم تحت الغَمَام، واحشد حشد الذرّة في الصيف لانجحارها في الصَرْد(١)، فقد أيّدتكم بأسد وتَيْم.

وكتب في الكتاب:

تـالله لا يـذهـبُ شَـيْـخِـي بـاطِـلاً ... حـتـى أُبِـيـرَ مـالـكـاً وكـاهِـلا

الـقـاتِـلِـيـن الـمـلـك الـحُـلاحِـلا ... خـيـر مـعـدٍّ حـسـبـاً ونـائـلا

وكتب إلى عبد الله بن عامر:

أمّا بعد، فإنّ المنبَر مركبٌ ذلول، سهل الرّياضة، لا ينازعك اللّجام. وهيهات ذلك إلا بعد ركوب أثباج(٢) المهالك، واقتحام أمواج المعاطب. وكأنّي بكم يا بني أميّة شَعَارِيرُ كالأوارك، تقودها الحُداة، أو كرخَم الخندمة تذرق خوف العُقاب، فثب الآن رحمك الله قبل أن يستشرِيَ الفساد ونذب السّوط جديد، والجرح لمّا يندمل، ومن قبل استضراء الأسَد، والتقاء لحيَيْه على فريسته. وساوِر الأمرَ مساورة الذئب الأطلس كسيرةَ القطيع. ونازل الرأيَ، وانصب الشرَك، وارم عن تمكّن، وضع الهناء مواضَع النَّقَبِ، واجعل أكبر عدّتك الحذر، وأحدّ سلاحك التحريض. واغض عن العوراء، وسامح اللَّجوج، واستعطف الشارد، ولاين الأشْوَس، وقوّ عزم المريد، وبادر العقَبة، وازحف زَحْفَ الحيّة. واسبق قبل أن تُسبَق، وقمْ قبل أن يقام لك. واعلم أنّك غير متروك ولا مهمَل، فإني لكم ناصح أمين. والسّلام.

وكتب في أسفل الكتاب:

عَـلَـيْـكَ سَـلاَمُ آلله قـيـسَ بـن عـاصـمٍ ... ورحـمـتُـه مـا شـاءَ أنْ يـتـرحّـمـا

تـحـيّـة مَـنْ أهـدى الـسـلام لأهـلِـهِ ... إذا شَـطّ داراً عـن مـزارك سـلّـمـا

فـمـا كـان قـيـسٌ هُـلْـكه هُـلْـكَ واحـدٍ ... ولـكـنّـه بـنـيـان قـوم تـهـدّمـا

وكتب إلى الوليد بن عقبة:

يابن عقبة، كنّ الجيش، وطيب العيش أطيب من سَفْع سموم الجوزاء عند اعتدال الشمس في أفقها، إنّ عثمان أخاك أصبح بعيداً منك فاطلب لنفسكِ ظلاًّ تستكنّ به، إني أراك على التراب رَقُوداً، وكيف بالرقاد بك! لارقاد لك، فلو قد استتبّ هذا الأمر لمريده ألفِيت كشريد النعام، يفزع من ظلّ الطائر، وعن قليل تشرب الرّنق، وتستشعر الخوف. أراك فسيح الصدر، مسترخِيَ اللَّبَبِ، رِخو الحزام، قليل الاكتراث، وعن قليل يُجتثّ أصلك. والسلام.

---

(١) الصرد: البرد. القاموس، مادة (حرد).

(٢) الثَبَجُ: ما بين الكاهل إلى الظهر، ووسط الشيء. القاموس، مادة (ثبج).

وكتب في آخر الكتاب:

اخترت نومك أنْ هبّت شآميةٌ ... عند الهجير وشرباً بالعشيّاتِ

على طلابك ثأراً من بني حكَمٍ ... هَيْهَاتَ مِنْ راقِد طلاّبِ ثاراتِ

وكتب إلى يعلي بن أميّة:

حاطك الله بكلاءته، وأيّدك بتوفيقه، كتبتُ إليك صبيحة ورد عليّ كتاب مروان بخبرِ قتل أمير المؤمنين، وشرح الحال فيه. وإنَّ أميرَ المؤمنين طال به العمْرُ حتى نقصتْ قواه، وثقلتْ نهضتُه، وظهرت الرّعشة في أعضائه، فلمّا رأى ذلك أقوام لم يكونوا عنده موضعاً للإمامة والأمانة وتقليد الولاية، وثبوا به، وألّبوا عليه، فكان أعظم ما نقَموا عليه وعابوه به، ولايتك اليمن وطول مدّتك عليها. ثم ترامى بهم الأمر حالاً بعد حال، حتى ذبحوه ذبحَ النَّطيحة مبادراً بها الفَوْت، وهو مع ذلك صائم معانِقٌ المصحف، يتلُو كتابَ الله. فيه عظمت مصيبة الإسلام بصهر الرّسول، والإمام المقتول. على غير جُرْم سفكوا دمه، وانتهكوا حرمته، وأنت تعلم أنَّ بيعته في أعناقنا، وطلب ثأره لازم لنا، فلا خيرَ في دنيا تعدلُ بنا عن الحقّ، ولا في إمْرة تورِدُنا النار. وإن الله جلّ ثناؤه لا يرضى بالتعذير في دينه، فشمّر لدخول العراق.

فأما الشام فقد كفيتُك أهلها، وأحكمتُ أمرها، وقد كتبت إلى طلحة بن عبيد الله أن يلقاك بمكّة، حتى يجتمع رأيُكما على إظهار الدعوة، والطلب بدم عثمان أمير المؤمنين المظلوم، وكتبت إلى عبد الله بن عامر يمهّد لكم العراق، ويسهل لكم حُزونة عِقابها.

واعلم يا بن أميّة أن القوم قاصدُوك بادىء بدء لاستنطاف ما حوته يداك من المال، فاعلم ذلك واعمل على حَسَبِه إن شاء الله.

وكتب في أسفل الكتاب:

ظلّ الخليفة محصوراً يناشدُهُمْ ... بالله طوراً، وبالقرآن أحيانَا

وقد تألّف أقوامٌ على حَنَقٍ ... عن غير جُرْمٍ وقالوا فيه بُهْتَانَا

فقام يُذكرهم وعدَ الرّسولِ له ... وقوله فيه إسراراً وإعلانَا

فقال كُفّوا فإني معتب لكمُ ... وصارف عنكُم يَعْلَى ومَرْوانَا

فكذّبوا ذاك منه ثمّ ساوَرهُ ... من حاض لبّتَه ظلماً وعدوانَا

قال: فكتب إليه مروان جواباً عن كتابه:

أما بعد، فقد وصل كتابُك، فنعمَ كتابُ زعيم العشِيرة، وحامي الذّمار! وأخبرُك أن القوم على سَننِ استقامةٍ إلاّ شظايا شعب، شَتَّتَ بينهم مِقوَلي على غير مجابهة، حسب ما تقدّم من أمرك، وإنما كان ذلك رسيس العُصاة، ورمي أخدر من أغصان الدوحة، ولقد طويت أديمَهم على نَغَل يَحلُم منه الجِلد. كذبتْ نفس الظانّ بنا ترك المظلمة، وحبّ الهجوع، إلاّ تهويمه

الراكب العَجِل، حتى تجذّ جماجم وجماجم، جذّ العراجين المهدّلة حين إيناعها، وأنا على صحة نيتي، وقوّة عزيمتي وتحريك الرّحِم لي، وغلَيان الدم منّي، غيرُ سابقك بقولٍ، ولا متقدّمك بفعل، وأنت ابن حرب، طلاّب التِّرات، وآبي الضيم.

وكتابي إليك وأنا كحِرْباء السّبسَب في الهَجِير ترقب عين الغَزالة، وكالسّبُع المفلِت من الشَّرَك يَفرَق من صوت نفسه، منتظراً لما تصحُّ به عزيمتك، ويَرِدُ به أمرك، فيكون العمل به، والمحتذَى عليه.

وكتب في أسفل الكتاب:

أيُقتَلُ عثمانٌ وتَرْقَا دموعُنا ... ونرقدُ هذا الليلَ لا نتفزّعُ!
ونشرب بَرْد الماءِ رِيًّا وقد مَضى ... على ظمأ يتلو القُرآنَ ويركعُ
فإنّي ومَنْ حَجّ الملبُّون بيته ... وطافوا به سعياً، وذو العرش يسمَعُ
سأمنعُ نفسي كلّ ما فيه لذّةٌ ... من العَيْش حتّى لا يُرى فيه مطمعُ
وأقتلُ بالمظلوم مَنْ كان ظالماً ... وذلك حكُم الله ما عنه مَدْفَعُ

وكتب إليه عبد الله بن عامر:

أمّا بعد، فإنّ أمير المؤمنين كان لنا الجناح الحاضنة تأوي إليها فراخها تحتها، فلما أقْصَده السهم صرْنا كالنّعام الشارد. ولقد كنت مشترك الفكر، ضالّ الفهم، ألتمس دريئةً أستجنّ بها من خطأ الحوادث، حتّى وقع إليّ كتابُك، فانتبهت من غفلة طال فيها رقادي، فأنا كواجد المحجّة كان إلى جانبها حائراً، وكأني أعاين ما وصفتَ من تصرّف الأحوال.

والذي أخبرك به أنّ الناس في هذا الأمر، تسعة لك وواحد عليك. ووالله لَلموتُ في طلب العزّ أحسنُ من الحياة في الذلّة، وأنت ابنُ حَرْب فتَى الحروب، ونُضار بني عبد شمس، والهِمَم بك منوطةٌ وأنت مُنهِضها، فإذا نهضتَ فليس حينَ قعود، وأنا اليوم على خلاف ما كانتْ عليه عزيمتي من طلب العافية، وحبّ السلامة قبل قَرْعك سويداء القلب بسوط الملام، ولنعم مؤدّب العشيرة أنت! وإنّا لنرجوك بعد عثمان، وهٰأنا متوقّع ما يكون منك لأمثله، وأعمل عليه إن شاء الله. وكتب في أسفل الكتاب:

لا خيرَ في العيشِ في ذلّ ومنقصةٍ ... والموتُ أحسنُ من ضَيْم ومِنْ عَارِ
إنّا بنو عبدِ شمس معشرٌ أُنُفٌ ... غُرٌّ جَحَاجِحَةٌ طُلاّبُ أوتارِ
والله لو كانَ ذمّياً مجاورُنا ... ليطلب العزّ لم نقعدْ عن الجارِ
فكيف عثمان لم يُدفَنْ بمزْبَلَةٍ ... على القُمامة مطروحاً بها عارِ!
فازحف إليّ فإنّي زاحفٌ لهمُ ... بكلّ أبيضَ ماضي الحدّ بتّارِ

وكتب إليه الوليد بن عُقْبة:

أما بعد، فإنّك أسدُّ قريش عقلاً، وأحسنُهم فهماً، وأصوبهم رأياً، معك حسن السياسة، وأنت موضع الرّياسة، توردُ بمعرفة، وتُصْدِر عن منهل رويّ. مُنَاوئك كالمنقلب من العيُّوق يَهْوِي به عاصف الشَّمال إلى لُجَّة البحر.

كتبتَ إليّ تذكرُ طيب الخيش[1]، ولين العيش، فمَلْءُ بطني عليّ حرام إلاّ مُسْكة الرّمَق حتى أفرِيَ أوْداج قَتَلة عثمان فَرْي الأهُب بشبَاة الشّفار. وأما اللّين فهيهات إلاّ خِيفة المرتقب يرتقب غفلة الطالب، إنّا على مُداجاة، ولمّا تَبْدُ صَفَحَاتُنَا بَعْد، وليس دون الدم بالدم مزْحَل. إنّ العار منقصة، والضعف ذل. أيخبط قَتَلة عثمان زَهْرة الحياة الدنيا، ويسقَوْن بَرْد المعين، ولمّا يمتطُوا الخوف، ويستحلسوا[2] الحذَر، بعد مسافة الطرْد وامتطاء العقبة الكؤود في الرحلة! لا دعيتُ لعقبة إن كان ذلك حتى أنصب لهم حزباً تضع الحوامل لها أطفالها! قد ألوتْ بنا المسافة، ووردنا حياض المنايا، وقد عقلتُ نفسي على الموت عَقْلَ البعير، واحتسبت أنّي ثاني عثمان أو أقل قاتله! فعجّل عليّ ما يكون من رأيك، فإنّا مَنُوطون بك، متبعون عَقِبَك، ولم أحسب الحال تتراخى بك إلى هذه الغاية، لما أخافه من إحكام القوْم أمرَهم!

وكتب في أسفل الكتاب:

نومِي عليّ محرّمٌ إن لم أقم ... بدمِ ابن أمّي مِنْ بَنِي العَلاَّتِ
قامت عليّ - إذا قعدت ولم أقُمْ ... بطِلاب ذاك - مناحةُ الأمْوَاتِ
عَذُبَتْ حياضُ الموت عندي بعدما ... كانتْ كريهة مَوْرِد النَّهَلاتِ

وكتب إليه يعلَى بن أميّة:

إنّا وأنتم يا بني أميّة كالحجَر لا يُبْنَى بغير مَدَر وكالسَّيف لا يَقطع إلاّ بضاربِه.

وصل كتابُك بخبَر القوم وحالهم، فلئن كانوا ذبحوه ذبح النَّطيحة بُودِرَ بها الموت لَيُنْحَرَنّ ذابحُه نحْرَ البَدَنة وافَى بها الهدْى الأجَل! ثكلتْني مَنْ أنا ابنُها إن نمت عن طلب وِتْر عثمان، أو يقال: لم يبق فيه رَمَق! إنّي أرى العيش بعد قَتْل عثمان مرًّا، إن أدلج القوم فإنّي مدلجٌ. وأما قصدهم ما حوته يدِي من المال، فالمال أيسر مفقود إن دفعوا إلينا قتلة عثمان، وإن أبوْا ذلك أنفقنا المال على قتالهم، وإنّ لنا ولهم لمعركةً نتناحر فيها نَحْرَ القُدار النقائع، عن قليل تصل لحومها.

(١) الخيش: ثياب في نسجها رقة، وخيوطها غلاظ. القاموس، مادة (خيش).
(٢) لا يفارقونه. القاموس، مادة (حلس).
(٣) أخرجه ضامر بن شدقم المدني في الجمل: ٨٧.

وكتب في أسفل الكتاب:

لـمـثـلِ هـذا الـيـوم أوصـى الـنّـاس   لا تـعـط ضـيـمـاً أو يـخـرَّ الـراسُ

قال: فكلّ هؤلاء كتبوا إلى معاوية يحرّضونه، ويُغرونه، ويحرّكونه، ويَهيجونه، إلاّ سعيد بن العاص، فإنه كتب بخلاف ما كتب به هؤلاء، كان كتابه:

أما بعدُ، فإنّ الحزمَ في التثبّت، والخطأ في العجلة، والشؤم في البِدار، والسهمُ سهمك ما لم ينبضْ به الوَتر، ولن يردَّ الحالبُ في الضّرع اللّبن ذكرتَ حقّ أمير المؤمنين علينا، وقرابتَنا منه، وأنّه قُتِل فينا. فخصلتان ذكْرهما نقص، والثالثة تكذّب، وأمرتّنا بطلب دم عثمان، فأيّ جهة تسلك فيها أبَا عبد الرحمن! رُدِمت الفِجَاج، وأحكِم الأمرُ عليك، وولي زمامَه غيرُك، فدعْ مناوأةَ مَنْ لو كان افترش فراشَه صَدْر الأمر لم يعدَل به غيره. وقلت: كأنّا عن قليل لا نتعارف، فهل نحن إلاّ حيٌّ من قريش، إن لم تنلنا الولاية لم يضق عنّا الحقّ، إنها خلافة مَنافيّة، وبالله أقسم قسماً مبروراً، لئن صحّت عزيمتُك على ما ورد به كِتابُك، لألقيّنك بين الحالبِيْن، طليحاً. وهبني إخالُك بعد خَوْض الدماء تنال الظَّفر، هل في ذلك عوَض من ركوب المأتم ونقص الدّين!

أمّا أنا فلا عَلَى بني أميّة ولا لهم، أجعل الحزم دارِي، والبيت سجني، وأتوسَّد الإسلام، وأستشعر العافية. فاعدِل أبا عبد الرحمن زمامَ راحلتِك إلى محجّة الحق، واستوهب العافية لأهلك، واستعطف الناس على قومِك، وهيهات من قبولك ما أقول حتى يفجّر مَرْوانُ ينابيعَ الفِتَن تَأجّج في البلاد، وكأنّي بكما عند ملاقاة الأبطال تعتذران بالقَدَر، ولبئس العاقبة الندامة! وعمّا قليلٍ يَضِحُ لك الأمر. والسلام.

هذا آخرُ ما تكاتب القوم به، ومَنْ وقف عليه علم أنّ الحال لم يكن حالاً يقبل العلاج والتدبير، وأنه لم يكن بدٌّ من السيف، وأنّ علياً عليه السلام كان أعرَف بما عَمِل.

وقد أجاب ابن سنان في كتابه الذي سمّاه «العادل» عن هذا السؤال، فقال: قد علم النّاس كافّة أنه عليه السلام في قصّة الشورى عرض عليه عبدُ الرحمن بن عوف، أن يعقد له الخِلافة على أن يعمَل بكتاب الله وسنّة رسوله وسِيرة أبي بكر وعمر، فلم يستجب إلى ذلك، وقال: بلى عَلَيّ أنْ أعمل بكتاب الله وسنّة رسوله، وأجتهد رأيي.

وقد اختلَف النّاسُ في ذلك، فقالت الشّيعة: إنّما لم يدخل تحت الشَّرْط، لأنّه لم يستصوب سيرتَهما. وقال غيرهم: إنّما امتنع لأنّه مجتهد، والمجتهد لا يقلّد المجتهد، فأيّهما أقرب على القولين جميعاً إثماً، وأيسر وزراً! أن يقرّ معاوية على ولاية الشام مدّة إلى أن تتوطّد خلافته، مع ما ظهر من جَوْر معاوية وعداوته، ومدّ يَدِه إلى الأموال والدّماء أيامَ سلطانه، أو أن يعاهِد عبدَ

الرّحمن على العمل بنسيرة أبي بكر وعمر، ثم يخالف بعضَ أحكامِها إذا استقرّ الأمر له، ووقع العقد! ولا رَيْبَ أنّ أحداً لا يخفي عليه فضلُ ما بين الموضعيْن، وفضل ما بيْن الإثمين، فمن لا يجيب إلى الخلافة والاستيلاء على جميع بلاد الإسلام إذا تسمّح بلفظة يتلفّظ بها، يجوز أن يتأوّلها أو يورّي فيها، كيف يستجيب إلى إقرار الجائر، وتقوية يده مع تمكينه في سُلطانه، لتَحصُل له طاعة أهل الشام واستضافة طرَفٍ من الأطراف! وكأنّ معنى قولِ القائل: هلاّ أقرّ معاوية على الشام، هو هلاّ كان عليه السلام متهاوناً بأمرِ الدّين راغباً في تشديد أمرِ الدّنيا!

والجواب عن هذا ظاهر، وجهل السائل عنه واضحٌ.

واعلم أنّ حقيقة الجواب هو أن عليًا عليه السلام، كان لا يرى مخالفة الشرْع، لأجل السياسة، سواء أكانت تلك السياسة دينية أو دنيويّة، أما الدنيويّة فنحو أن يتوهّم الإمام في إنسان أنه يرومُ فسادَ خلافته من غير أنْ يثْبتَ ذلك عليه يقيناً، فإنّ عليًا عليه السلام لم يكن يستحِلّ قتله، ولا حبْسَه، ولا يعمل بالتوهّم وبالقول غير المحقّق، وأما الدينيّة فنحو ضرب المتّهم بالسَّرِقة، فإنَّه أيضاً لم يكن يعمل به، بل يقول: إن يثبت عليه بإقرار أو بيّنة، أقمت عليه الحدّ، وإلا لمْ أعترضه. وغيرُ عليٍّ عليه السلام قد كان منهم مَنْ يرى خلاف هذا الرّأي، ومذهب مالك بن أنس العملُ على المصالح المرسَلة، وأنه يجوز للإمام أن يقتل ثلث الأمّة لإصلاح الثلثين، ومذهب أكثر الناس أنه يجوز العمل بالرأي وبغالب الظنّ، وإذا كان مذهبه عليه السلام ما قلناه، وكان معاوية عنده فاسقاً، وقد سبق عنده مقدّمة أخرى يقينية، هي أنّ استعمال الفاسق لا يجوز ولم يكن ممّن يرى تمهيد قاعدة الخلافة بمخالفة الشريعة، فقد تعين مجاهرته بالعزل، وإنْ أفضى ذلك إلى الحرب.

فهذا هو الجواب الحقيقيّ، ولو لم يكن هذا هو الجواب الحقيقيّ، لكان لقائل أن يقول لابن سنان القولَ في عُدُوله عن الدّخول تحت شرط عبد الرحمن، كالقول في عدوله عن إقرار معاوية على الشّام، فإنّ مَنْ ذهب إلى تغليطه في أحد الموضعيْن، له أن يذهَب إلى تغليطه في الموضع الآخر.

قال ابن سنان: وجواب آخر، وهو أنّا قد علمنا أنّ أحدَ الأحداث التي نُقِمت على عثمان. وأفضت بالمسلمين إلى حِصاره وقتله، تَوْليةُ معاوية الشّام، مع ما ظهر من جَوْره وعُدوانه، ومخالفة أحكام الدين في سلطانه، وقد خوطب عثمان في ذلك، فاعتذر بأنّ عمر ولاّه قبله، فلم يقبل المسلمون عذرَه، ولا قنعوا منه إلاّ بعزله، حتى أفضى الأمرُ إلى ما أفضى، وكان عليّ عليه السلام من أكثر المسلمين لذلك كراهيّة، وأعرفهم بما فيه من الفَساد في الدّين.

فلو أنه عليه السلام افتتح عقْد الخلافة له بتوليته معاوية الشام، وإقراره فيه، أليس كان يبتدئ في أوّل أمره بما انتهى إليه عثمان في آخره، فأفضى إلى خلعه وقتله! ولو كان ذلك في حكم

الشريعة سائغاً، والوِزر فيه مأموناً، لكان غلطاً قبيحاً في السياسة، وسبباً قويًا للعصيان والمخالفة، ولم يكن يمكِنُه عليه السلام أن يقولَ للمسلمين: إنّ حقيقة رأيي عزلُ معاوية عند استقرار الأمر، وطاعة الجمهور لي، وإنّ قصدي بإقراره على الولاية مخادعته، وتعجيل طاعته، ومبايعة الأجناد الذين قبَله، ثم استأنف بعد ذلك فيه ما يستحقه من العزل، وأعمل فيه بموجب العدْل، لأنّ إظهارَه عليه السلام لهذا العزم كان يتّصل خبره بمعاوية فيفسد التدبير الذي شرع فيه وينتقض الرأي الذي عوّل عليه.

ومنها قولهم: إنّه ترك طلحةَ والزُّبير حتى خرجا إلى مكّة، وأذِنَ لهما في العُمْرة، وذهب عنه الرأي في ارتباطهما قبَله، ومنعهما من البعد عنه.

والجواب عنه، أنّه قد اختلفت الرّواة في خروج طلْحة والزبير من المدينة: هل كان بإذن عليّ عليه السلام أم لا! فمنْ قال: إنّهما خرجا عن غير إذنه ولا علمه، فسؤاله ساقطٌ، ومن قال: إنّهما استأذناه في العُمرة، وأذِنَ لهما، فقد روي أنه قال: والله ما تريدان العُمرة، وإنّما تريدان الغَدْرة! وخوّفهما بالله من التسرّع إلى الفتنة. وما كان يجوز له في الشَّرْع أن يحبسهما، ولا في السياسة، أما في الشرع فلأنّه محظور أن يعاقَب الإنسان بما لم يفعَل، وعلى ما يُظَنُّ منه، ويجوز ألاّ يقع. وأمّا في السياسة فلأنّه لو أظهر التهمة لهما - وهما من أفاضل السابقين، وجِلّة المهاجرين - لكان في ذلك من التنْفير عنه ما لا يخفى، ومن الطَّعْن عليه ما هو معلوم، بأن يقال: إنّه ليس من إمامته على ثقة، فلذلك يتّهم الرؤساء، ولا يأمن الفضلاء، لاسيّما وطلحة كانَ أوّلَ مَنْ بايعه، والزبير لم يزلْ مشهراً بنصرته، فلو حبسهما، وأظهر الشكّ فيهما لم يسكن أحدٌ إلى جهته، ولنفَر النّاس كلُّهم عن طاعته.

فإن قالوا: فهلاّ استصلحهما وولاّهما، وارتبطهما بالإجابة إلى أغراضهما؟

قيل لهم: فحوى هذا أنّكم تطلُبون من أمير المؤمنين عليه السلام أن يكون في الإمامة مغلوباً على رأيه، مفتاتاً عليه في تدبيره، فيقرّ معاوية على ولاية الشام غصباً، ويولّي طلحة والزبير مِصْر والعراق كَرْهاً، وهذا شيء ما دخَلَ تحته أحد ممنّ قبله، ولا رضوا أن يكونَ لهم من الإمامة الاسم، ومن الخلافة اللفظ، ولقد حورب عثمان وحُصِر على أن يَعْزِل بعض ولاته فلم يجِب إلى ذلك، فيكف تسومُون عليًا عليه السلام أن يفتتح أمره بهذه الدنية ويرضى بالدخول تحت هذه الخطة! وهذا ظاهر.

ومنها تعلُّقهم بتولية أميرِ المؤمنين عليه السلام محمدَ بن أبي بكر مِصْر، وعزله قيسَ بن سعد عنها، حتى قتِل محمّد بها، واستولى معاوية عليها.

والجواب أنّه ليس يمكن أن يقال: إنّ محمداً رحمه الله لم يكن بأهلٍ لولاية مصر، لأنّه كان شجاعاً زاهداً فاضلاً، صحيح العقل والرأي، وكان مع ذلك من المخلصين في محبته أمير المؤمنين عليه السلام، والمجتهدين في طاعته، وممن لا يتهَّم عليه، ولا يُرتاب بنصحه، وهو ربيبُه وخرّيجه، ويجري مجرى أحدِ أولاده عليه السلام، لتربيته له، وإشفاقه عليه.

ثمّ كان المصريون على غاية المحبة له، والإيثار لولايته، ولما حاصروا عثمانَ وطالبوه بعزل عبد الله بن سعد بن أبي سرْح عنهم، اقترحوا تأميرَ محمد بن أبي بكر عليهم. فكتب له عثمان بالعهد على مِصْر وصار مع المصريين حتى تعقبَّه كتابُ عثمان إلى عبد الله بن سَعْد في أمره وأمر المصريين بما هو معروف. فعادُوا جميعاً، وكان منْ قتل عثمان ما كان، فلم يكن ظاهرُ الرأي ووجْهُ التّدبير إلاّ توليةَ محمد بن أبي بكر على مصر، لما ظهرَ من ميل المصريين إليه، وإيثارهم له، واستحقاقه لذلك بتكامل خصال الفضل فيه، فكان الظَّنُّ قويًا باتفاق الرعيّة على طاعته، وانقيادهم إلى نصرته، واجتماعهم على محبّته، فكان من فساد الأمر واضطرابه عليه حتى كان ما كان، وليس ذلك يعيب على أمير المؤمنين عليه السلام، فإنّ الأمور إنما يعتمدها الإمامُ على حسب ما يظنّ فيها من المصلحة، ولا يعلم الغيبَ إلاّ الله تعالى. وقد ولّى رسول الله صلى الله عليه وآله في مؤتة جعفر فقتِل، وولّى زيداً فقتِل، وولّى عبد الله بن رواحة فقتل، وهزم الجيش، وعاد مَنْ عاد منهم إلى المدينة بأسوأ حال، فهل لأحدٍ أن يعيبَ رسول الله صلى الله عليه وآله بهذا، ويطعن في تدبيره!

ومنها قولهم: إنّ جماعةً من أصحابه عليه السلام فارقوه، وصاروا إلى معاوية، كعقِيل بن أبي طالب أخيه، والنَّجاشيّ شاعره، ورقَبَة بن مَصْقلة أحد الوجوه من أصحابه، ولولا أنّه كان يُوحشهم ولا يستمِيلُهم لم يفارقوه ويصيروا إلى عدوّه، وهذا يخالِفُ حكَم السياسة، وما يجب من تألُّف قلوب الأصحاب والرعيَّة.

والجواب: إنّا أولاً لا ننكر أنْ يكون كلّ من رَغب في حطام الدّنيا وزخرفها، وأحبّ العاجل من ملاذّها وزينتها يميل إلى معاوية الذي يبذُل منها كلّ مطلوب، ويسمَحُ بكلّ مأمول، ويطعِم خراج مصر عمرو بن العاص، ويضمَن لذي الكَلاع وحبيب بن مسلمة ما يوفي على الرجاء والاقتراح، وعليّ عليه السلام لا يعدل فيما هو أمينٌ عليه من مال المسلمين عن قضية الشريعة وحكم الملّة، حتى يقول خالد بن معمر السدوسي لعلباء بن الهيثم، وهو يحمله على مفارقة عليّ عليه السلام، واللحاق بمعاوية: اتّقِ الله يا علباء في عشيرتك، وانظر لنفسك ولرَحِمك، ماذا تؤمل عند رجل أردته على أن يزيدَ في عطاء الحسن والحسين دريهمات يسيرة ريثما يرأبان بها ظلَف عيشهما، فأبى وغضب فلم يفعل.

فأما عَقِيل، فالصحيح الذي اجتمع ثقاتُ الرُّواة عليه أنّه لم يجتمع مع معاوية إلاّ بعد وفاة أمير المؤمنين عليه السلام، ولكنه لازم المدينة، ولم يحضر حرب الجمل وصِفِّين، وكان ذلك بإذن أمير المؤمنين عليه السلام، وقد كتب عَقِيل إليه بعد الحكمين يستأذنه في القدوم عليه الكوفة بولده وبقية أهله، فأمره عليه السلام بالمقام، وقد رُوي في خبر مشهورٍ، أنّ معاوية وبّخ سعيد بن العاص على تأخيره عنه في صِفِّين، فقال سعيد: لو دعوتَني لوجدَتني قريباً، ولكني جلست مجلس عَقِيل وغيره من بني هاشم، ولو أوعبنا لأوعَبُوا[١].

وأما النجاشيّ، فإنه شرِبَ الخمر في شهر رمضان، فأقام عليٌّ عليه السلام الحدَّ عليه، وزاده عشرين جَلْدة فقال النَّجاشيّ: ما هذه العِلاَوة؟ قال: لجرأتك على الله في شهر رمضان. فهرب النجاشيّ إلى معاوية[٢].

وأما رَقَبة بن مَصْقَلة، فإنه ابتاع سَبْيَ بني ناجية وأعتقهم، وألَطّ بالمال وهرب إلى معاوية، فقال عليه السلام: فَعل فِعْل السادة، وأبق إباق العبيد، وليس تعطيل الحدود وإباحة حكم الدين وإضاعة مال المسلمين من التألف والسياسة لمن يريد وجه الله تعالى، والتلزّم بالدين، ولا يُظَنُّ بعليٍّ عليه السلام التساهل والتسامح في صغير من ذلك ولا كبير.

ومنها شبْهة الخوارج وهي التحكيم، وقد يحتجّ به على أنه اعتمد ما لا يجوز في الشرع، وقد يحتج: به على أنه اعتمد ما ليس بصواب في تدبير الأمر. أما الأول فقولهم: إنه حكم الرِّجال في دين الله، والله سبحانه يقول: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾[٣] وأما الثاني فقولهم: إنه كان قد لاحَ له النّصر، وظهرت أمارات الظّفر بمعاوية، ولم يبق إلاّ أن يأخذ برقبته فترك التّصميم على ذلك، وأخلد إلى التَّحكيم. وربما قالوا: إنّ تحكيمه يدلُّ على شكٍّ منه في أمره، وربّما قالوا: كيف رضيَ بحكومةِ أبي موسى وهو فاسق عنده بتثبيطه أهل الكوفة عنه في حرب البَصرة؟ وكيف رضيَ بتحكيم عمرو بن العاص وهو أفسق الفاسقين؟

والجواب: أمّا تحكيم الرجال في الدِّين فليس بمحظور، فقد أمر الله تعالى بالتحكيم بين المرأة وزوْجها، فقال: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ﴾[٤]. وقال في جزاء الصَّيد: ﴿يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾[٥].

وأمّا قولُهم: كيف ترك التصميم بعد ظهور أمارات النصر؟ فقد تواتر الخبرُ بأنّ أصحابه لما

---

(١) أوعب: جمع. القاموس، مادة (وعب).
(٢) أخرجه ابن منظور في لسان العرب: ٨/ ٤١٦، وأخرجه ابن حجر في الإصابة: ٦/ ٣٨٧.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٧.
(٤) سورة النساء، الآية: ٣٥.
(٥) سورة المائدة، الآية: ٩٥.

رفَع أهلُ الشام المصاحف عند ظهور أهل العراق عليهم، ومشارفة هلاك معاوية وأصحابه، انخدعوا برفْع المصاحف، وقالوا: لا يحلّ لنا التّصميم على حربهم، ولا يجوز لنا إلاّ وضع السّلاح ورفع الحرب والرّجوع إلى المصاحف وحكمها. فقال لهم: إنّها خديعة، وإنّها كلمة حقّ يُراد بها باطل، وأمرهم بالصّبر ولو ساعةً واحدة، فأبوْا ذلك، وقالوا أرسلْ إلى الأشتر فليعُدْ، فأرسل إليه، فقال: كيف أعود وقد لاحت أمارات النصر والظفر! فقالوا له: ابعث إليه مرّةً أخرى، فبعث إليه، فأعاد الجواب بنحو قوله الأول وسأل أن يُمهل ساعةً من النهار، فقالوا: إنَّ بينك وبينه وصيَّة ألاّ يقبل، فإن لم تبعث إليه مَنْ يعيدُه، وإلاّ قتلناك بسيوفنا كما قتلنا عثمان، أو قبضنا عليك وأسلمناك إلى معاوية فعاد الرَّسول إلى الأشتر، فقال: أتحبّ أن تظفر أنت ها هنا وتكسر جنود الشام، ويقتل أمير المؤمنين عليه السلام في مَضْرَبه! قال: أو قَدْ فعلوها! لا بارك الله فيهم! أبعد أن أخذت بمخنَق معاوية، ورأى الموتَ عياناً أرجع! ثم عاد فشتم أهلَ العراق وسبّهم، وقال لهم وقالوا له، ما هو منقول مشهور، وقد ذكرنا الكثير منه فيما تقدم.

فإذا كانت الحال وقعت هكذا، فأيّ تقصير وقع من أمير المؤمنين عليه السلام! وهل ينسَب المغلوب على أمره، المقهور على رأيه إلى تقصير أو فساد تدبير!

وبهذا نجيب عن قولهم: إنَّ التحكيم يدلّ على الشكّ في أمره، لأنّه إنّما يدلّ على ذلك لو ابتدأ هو به، فأمّا إذا دعاه إلى ذلك غيرُه، واستجاب إليه أصحابُه، فمنعهم وأمرهم أن يمرّوا على وتيرتهم وشأنهم، فلم يفعلوا، وبين لهم أنها مكيدة فلم يتبيّنوا، وخاف أن يقتَلَ أو يسْلَم إلى عدوّه، فإنه لا يدلّ تحكيمهُ على شكّه، بل يدلّ على أنه قد دفع بذلك ضرراً عظيماً عن نفسه، ورجا أن يحكم الحكمان بالكتاب، فتزولَ الشبهة عمّن طلب التحكيم من أصحابه.

وأمّا تحكيمه عمْراً مع ظهور فسقه، فإنّه لم يرض به، وإنما رضِيَ به مخالفُه، وكرهه هو فلم يقبل منه. وقد قيل: إنَّه أجابَ ابن عباس رحمه الله عن هذا، فقال للخوارج: أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ﴾[1]! أرأيتم لو كانت المرأة يهوديّة فبعثتْ حكماً من أهلها، أكنّا نسخط ذلك!

وأما أبو موسى فقد كَرِههُ أميرُ المؤمنين عليه السلام، وأراد أن يجعلَ بدله عبد الله بن عبّاس، فقال أصحابه: لا يكون الحكمان من مُضَر، فقال: فالأشتر. فقالوا: وهل أضرم النّار إلاّ الأشتر! وهل جرّ ما ترى إلاّ حكومة الأشتر! ولكن أبا موسى، فأباه فلم يقبلوا منه، وأثنَوْا عليه، وقالوا: لا نرضى إلاّ به، فحكَّمه على مضض.

ومنها قولُهم: ترك الرأي لمّا دعاه العبّاس وقتَ وفاة الرَّسول صلى الله عليه وآله إلى البيعة، وقال له:

(١) سورة النساء، الآية: ٣٥.

امْدُدْ يدَك أبايِعك، فيقول الناس: عمّ رسول الله ﷺ بايعَ ابنَ عمّه، فلا يختلف عليك اثنان، فلم يفعل، وقال: وهل يطمع فيها طامع غيري! فما راعه إلا الضوضاء واللَّغط في باب الدار، يقولون: قد بويع أبو بكر بن أبي قُحافة.

الجواب: إنّ صوابَ الرأي وفساده فيما يرجع إلى مثل هذه الوَاقعة، يستندانِ إلى ما قد كان غَلب على الظنّ، ولا ريب أنه عليه السلام لم يغلِبْ على ظنّه أنّ أحداً يستأثر عليه بالخلافة لأحوال قد كان مهدّها له رسول الله ﷺ، وما توهّم إلا أنه ينتظر ويرتقب خروجَه من البيت وحضوره، ولعلّه قد كان يخطر له أنه إمّا أن يكون هو الخليفة أو يشاوَر في الخلافة إلى مَنْ يفوض. وما كان يتوهّم أنّه يجري الأمر على ما جرى من الفلتة عند ثوران تلك الفتنة، ولا يشاوَر هو ولاَ العبّاس ولا أحدٌ من بني هاشم، وإنما كان يكون تدبيره فاسداً لو كان يحاذِرُ خروجَ الأمر عنه، ويتوهّم ذلك، ويغلِب على ظنّه إن لم يبادر تحصيله بالبيعة المعجّلة في الدار من وراء الأبواب والأغلاق، وإلاّ فاته، ثم يهمل ذلك ولا يفعله. وقد صرح هو بما عنده، فقال: وهل يطمع فيها طامعٌ غيري! ثم قال: إني أكره البيعة ها هنا وأحبّ أن أصْحِر بها، فبين أنه يستهجن أن يبايع سرًّا خلْف الحجُب والجدران، ويجب أن يبايع جَهْرةً بمحضَرٍ من الناس كما قال، حيث طلبوا منه بعد قتل عثمان أن يبايَعهم في داره، فقال: لا، بل في المسجد، ولا يعلم ولا خطر له ما في ضمير الأيّام، وما يُحدث الوقتُ من وقوع ما لا يتوهّم العقلاء وأرباب الأفكار وقوعه.

ومنها قولهم: إنّه قصّر في طلب الخلافة عند بيعة أبي بكر، وقد كان اجتمع له من بني هاشم وبني أميّة وغيرهم من أفْناء الناس مَنْ يتمكّن بهم من المنازعة وطلب الخلافة، فقصّر عن ذلك، لا جبناً، لأنه كان أشجع البَشر، ولكن قصور تدبير وضعف رأي، ولهذا أكفرته الكامليَّة وأكفرت الصحابة، فقالوا: كفرت الصحابة لتركهم بيعَته، وكفر هو بترك المنازعة لهم!

والجواب: أمّا على مذهبنا، فإنّه لم يكن عليه السلام منصوصاً عليه، وإنّما كان يدّعيها بالأفضليّة والقَرابة والسابقة والجهاد ونحو ذلك من الخصائص، فلمّا وقعت بيعةُ أبي بكر رأى هو عليّ عليه السلام أنّ الأصلح للإسلام تركُ النِّزاع، وأنه يخاف من النّزاع حدوثَ فتنة تحلّ معاقد المِلّة وتزعزع أركانها، فحضر وبايع طوعاً، ووجب علينا بعد مبايعته ورضاه أن نرضى بمنْ رضيَ هو عليه السلام، ونطيع مَنْ أطاعه؛ لأنّه القدوة، وأفضل مَنْ تركه صلّى الله عليه وآله بعده.

وأما الإمامية، فلهم عن ذلك جواب آخر معروف من قواعدهم.

ومنها قولهم: إنّه قصّر في الرأي حيث دخل في الشُّورى، لأنه جعل نفسه بدخوله فيها نظيراً

لعثمان وغيره من الخمْسة، وقد كان الله تعالى رفعه عنهم وعلى من كان قبلهم، فوهن بذلك قدرُه، وطأطأ من جلالته، ألا ترى أنّه يُستهجن ويقبُح من أبي حنيفة والشافعيّ رحمهما الله أن يجعلا أنفسهما نظراء لبعض من بدا طرقاً من الفقه، ويستهجَن ويقبح من سيبويه والأخفش أن يوازيا أنفسَهما بمن يعلم أبواباً يسيرة من النحو!

الجواب: أنّه عليه السلام وإن كان أفضلَ مِنْ أصحاب الشورى، فإنّه كان يظنّ أن وَليَ الأمر أحدهم بعد عمر، لا يسير سيرة صالحة، وأن تضطرب بعض أمور الإسلام، وقد كان يثني على سيرة عمر ويحمَدها، فواجب عليه بمقتضى ظنّه أن يدخل معهم فيما أدخله عمر فيه، توقّعاً لأنّ يفضيَ الأمرُ إليه، فيعمل بالكتاب والسنّة، ويحيي معالمَ رسول الله صلى الله عليه وآله، وليس اعتماد ما يقتضيه الشرع ممّا يوجب تقصاً في الرأي، فلا تدبير أصحّ ولا أسدّ من تدبير الشرع.

ومنها قولهم: إنه ما أصاب حيث أقامَ بالمدينة وعثمان محصور، وقد كان يجب في الرأي أن يخرج عنها بحيث لا تنوط بنو أميّة به دمَ عثمان، فإنه لو كان بعيداً عن المدينة لكان من قذفِهِمْ إياه بذلك أبعدَ، وعنه أنزَه.

والجواب: أنّه لم يكن يخطر له مع براءته من دم عثمان، أنّ أهل الفساد من بني أميّة يرمونه بأمره، والغيب لا يعلمه إلا الله، وكان يرى مقامه بالمدينة أدعى إلى انتصار عثمان على المحاصرين له، فقد حضر هو بنفسه مراراً، وطرد الناس عنه، وأنفذ إليه ولديْه وابنَ أخيه عبد الله، ولولا حضور عليّ عليه السلام بالمدينة لقتل عثمان قبل أن يقتل بمدة، وما تراخى أمره وتأخره قتله، إلا لمراقبة الناس له حيث شاهدوه ينتصر له، ويحامي عنه.

ومنها قولهم: كان يجب في مقتضى الرأي حيث قتِل عثمان، أن يغلق بابه، ويمنع النَّاس من الدخول إليه، فإنّ العرب كانت تضطرب اضطرابة ثم تؤول إليه، لأنه تعيّن للأمر بحكم الحال الحاضرة فلم يفعل، وفتح بابه، وترشَّح للأمر، وبسط له يده، فلذلك انتقضَتْ عليه العرب من أقطارها.

والجواب: إنه عليه السلام كان يرى أن القيام بالأمر يومئذٍ فرض عليه لا يجوز له الإخلال به، لعدم مَنْ يصلح في ظنّه للخلافة، فما كان يجوز له أن يغلِق بابه ويمتنع. وما الذي كان يومئذٍ أن يبايع الناسُ طلحة أو الزبير أو غيرهما ممن لا يراه أهلاً للأمر! فقد كان عبدُ الله بن الزبير يومئذٍ يزعم أن عثمان عهد إليه بالخلافة وهو محصور. وكان مروان يطمع أن ينحاز إلى طرف من الأطراف فيخطب لنفسه بالخلافة، وله من بني أميّة شيعة وأصحاب، بشبهة أنه ابنُ عمّ عثمان،

وأنَّه كان يدبر أمر الخلافة على عهده. وكان معاوية يرجو أن ينال الخلافة، لأنَّه من بني أميّة وابن عمّ عثمان، وأمير الشام عشرين سنة، وقد كان قومٌ من بني أميَّة يتعصبُّون لأولاد عثمان المقتول، ويرومون إعادة الخلافة فيهم وما كان يسوغ لعليّ عليه السلام في الدين إذا طلبه المسلمون للخلافة أن يمتنع عنها، ويعلم أنها ستصير إذا امتنع إلى هؤلاء، فلذلك فتح بابه، وامتنع امتناع مَنْ يحاول أن يعلم ما في قلوب الناس، هل لرغبتهم إليه حقيقة أم لا! فلمّا رأى منهم التصميم وافق لوجوب الموافقة عليه، وقد قال في خطبته: «لولا حضورُ الحاضر ووجوب الحجّة بوجود الناصر . . . لألقيتُ حبلَها على غاربها، ولسقيت آخرَها بكأس أولها»، وهذا تصريح بما قلناه.

ومنها قولهم: هَلا إذْ ملك شريعة الفرات على معاوية، بعد أنْ كان معاوية ملكها عليه، ومنعه وأهلَ العراق منها، مَنَع معاوية وأهل الشام منها، فكان يأخذهم قبضاً بالأيدي! فإنه لم يصبر على منعهم عن الماء، بل فسح لهم في الورود، وهذا يخالف ما يقتضيه تدبير الحرب.

الجواب، أنه عليه السلام لم يكن يستحلّ ما استحله معاوية من تعذيب البشر بالعَطَش، فإن الله تعالى ما أمر في أحد من العصاة الذين أباح دماءهم بذلك، ولا فسح فيه في نحو القصاص أو حدّ الزاني المحصن أو قتل قاطع الطريق، أو قتال البغاة والخوارج، وما كان أمير المؤمنين ممّن يترك حكم الله وشريعته، ويعتمد ما هو محرّم فيها لأجل الغَلَبة والقهر والظَفَر بالعدوّ، ولذلك لم يكن يستحلّ البيَات ولا الغَدْر والنكث. وأيضاً فمن الجائز أنْ يكونَ عليه السلام غلب على ظنّه أنّ أهلَ الشام إن مُنِعوا من الماء كان ذلك أدْعى لهم إلى الحملات الشديدة المنكَرة على عسكره، وأن يضعوا فيهم السيوف، فيأتوا عليهم ويكسِرُوهم بشدّة حَنَقِهم وقوّة داعيهم إلى ورود الماء، فإنّ ذلك من أشدَ الدّواعي إلى أن يستميت القوم ويستقتلوا. ومَنه الذي يقف بين يديّ جيش عظيم عَرَمرم حَنِقٍ قد اشتدّ بهم العطش، وهم يروْن الماء كبطون الحيّات، لا يحول بينهم وبينه إلا قوم مثلهم، بل أقل منهم عِدّة وأضعف عُدّة، ولذلك لما حال معاوية بين أهل العراق وبين الماء وقال: لأمنعنّهم وروده فأقتلهم بشِفار الظمأ، قال له عمرو بن العاص: خلِّ بين القوم وبين الماء، فليسوا ممّن يرى الماء ويصبر عنه. فقال: لا والله لا أخلّي لهم عنه. فسفّه رأيه وقال: أتظنّ أنّ ابن أبي طالب وأهل العراق يموتون بإزائك عطشاً، والماء بمَعقد الأزُر، وسيوفهم في أيديهم! فلجّ معاوية، وقال: لا أسقيهم قطرة كما قتلوا عطشاً. فلما مسَّ أهلَ العراق العطش، أشار عليٌّ عليه السلام إلى الأشعث أن احمِل، وإلى الأشتر أن احملْ، فحملا بمنْ معهما فضربا أهل الشام ضرباً أشاب الوليد، وفرّ معاوية ومَنْ رأى رأيه وتابعه على قوله عن الماء كما تفرّ الغنمُ خالطتْها السّباع، وكان قصارَى أمره، ومنتهى همّته أن يحفظ رأسه، وينجوَ بنفسه. وملك أهلُ العراق عليهم الماء ودفعوهم عنه، فصاروا في البرّ القفر، وصار

عليٌّ عليه السلام وأصحابه على شريعةِ الفرات، مالكين لها، فما الذي كان يؤمِّنُ عليًّا عليه السلام لو أعطش القومَ أن يذوق هو وأصحابه منهم مثل ما أذاقهم! وهل بعد الموت بالعطش أمرٌ يخافه الإنسان! وهل يبقى له ملجأ إلا السيف يحمل به فيضرب خصمه إلى أن يقتل أحدهما!

ومنها قولهم: أخطأ حيثُ محا اسمه بالخلافة من صحيفةِ الحكومة، فإنّ ذلك مما وهنّه عند أهل العراق، وقوّى الشبهة في نفوس أهل الشام.

والجواب، أنه عليه السلام احتذى في ذلك - لمّا دعي إليه واقترحه الخصم عليه - فعلَ رسول الله صلى الله عليه وآله في صحيفة الحديبية، حيث محا اسمه من النبوّة لمّا قال له سهيل بن عمرو: لو علمنا أنّك رسول الله صلى الله عليه وآله لما حاربْنَاك، ولا منعناك عن البيت، وقد قال له صلى الله عليه وآله وهو يومئذ كاتب تلك الصحيفة: «ستدعَى إلى مثلها فتجيب»[1]. وهذا من أعلام نبوّته صلوات الله عليه، ومن دلائل صدقه، ومثله جرى له حَذْو القُذّة بالقذّة.

ومنها قولهم: إنه كان غيرَ مصيب في ترك الاحتراس، فقد كان يعلم كثرة أعدائه، ولم يكن يحترس منهم، وكان يخرج ليلاً في قميص ورداء وحده، حتى كَمن له ابنُ مُلجم في المسجد فقتله، ولو كان احترس وحفِظَ نفسَه ولم يخرج إلاّ في جماعة. ولو خرج ليلاً كانت معه أضواء وشُرْطة، لم يوصل إليه.

والجواب، أنّ هذا إن كان قادحاً في السياسة والتدبير، فليكن قادحاً في تدبير عمر وسياسته، وهو عند الناس في الطبقة العليا في السيّاسة وصحّة التدبير، وليكن قادحاً في تدبير معاوية، فقد ضربه الخارجيّ بالسّيف ليلةَ ضرب أمير المؤمنين عليه السلام فجرحه ولم يأت على نفس، ومعاوية عند هؤلاء سديدُ التدبير، وليكن قادحاً في صحّة تدبير رسول الله صلى الله عليه وآله، فقد كان يخرج وحده في المدينة ليلاً ونهاراً مع كثرة أعدائه، وقد كان يأكل مَا دُعِيَ إليه ولا يحترس، حتى أكل من يهودية شاة مشويّة قد سمّته فيها فمرض، وخِيف عليه التلف، ولمّا برأ لم تزل تنتقض عليه حتى مات منها وقال عند موته: «إنّي ميت من تلك الأكْلة»[2]، ولم تكن العرب في ذلك الزمان تحترس، ولا تعرف الغِيلة والفَتْك، وكان ذلك عندهم قبيحاً يعيَّر به فاعله، لأن الشجاعة غير ذلك، والغِيلة فعل العَجَزة من الرجال، ولأنّ علياً عليه السلام كانت هيبته قد تمكّنت في صدور الناس، فلم يكن يظنّ أنّ أحداً يقدِم عليه غيلة أو مبارزة في حرب، فقد

(١) أخرجه العلامة المجلسي في البحار: ٢٠/ ٣٥٩.
(٢) ذكره ابن كثير في «البداية والنهاية» (٦/ ٢١١) بلفظ: «لا أزال أجد ألم ذلك السم الذي كان في تلك الأكلة»، وذكر هذه الرواية في «فتح الباري» (١٠/ ٢٤٧).

كان بلغ من الذّكر بالشجاعة مبلغاً عظيماً لم يبلغه أحد من الناس، لا مَنْ تقدّم ولا مَنْ تأخّر، حتى كانت أبطال العرب تفزعُ باسمه، ألا ترى إلى عمر بن معديكرب وهو شجاع العرب، الذي تُضرب به الأمثال، كتب إليه عمر بن الخطاب في أمرٍ أنكره عليه، وغدر تخوفه منه: أما والله لئن أقمت على ما أنت عليه، لأبعثنّ إليك رجلاً تستصغرُ معه نفسَك، يضع سيفَه على هامَتِك فيخرجه من بين فخذيك! فقال عمرو لما وقف على الكتاب: هدّدني بعليّ والله! ولهذا قال شبيب بن بجرة لابن مُلجم، لما رآه يشدّ الحرير على بطنه وصدره: ويلك! ما تريد أن تصنع! قال: أقتل علياً، قال هَبِلتْك الهبُول، لقد جئت شيئاً إدًّا! كيف تقدِر على ذلك! فاستبعد أن يتمّ لابن مُلجم ما عزم عليه، ورآه مراماً وعراً. والأمر في هذا وأمثاله مسند إلى غَلَبات الظُّنون، فمن غلبت على ظنّه السلامة مع الاسترسال لم يجب عليه الاحتراس، وإنما يجب الاحتراس على مَنْ يَغلب على ظنّه العطب إن لم يحترس.

فقد بان بما أوضحناه فسادُ قول من قال: إنّ تدبيره عليه السلام وسياسته لم تكن صالحة، وبان أنه أصح النّاس تدبيراً وأحسنهم سياسة، وإنّما الهوى والعصبية لا حيلة فيهما!

---

١٩٤ - ومن كلام له عليه السلام في الوعظ

الأصل: أَيُّهَا النَّاسُ، لاَ تَسْتَوْحِشُوا فِي طَرِيقِ ٱلْهُدَى لِقِلَّةِ أَهْلِهِ، فَإِنَّ النَّاسَ ٱجْتَمَعُوا عَلَى مَائِدَةٍ شِبَعُهَا قَصِيرٌ، وَجُوعُهَا طَوِيلٌ.

أَيُّهَا النّاسُ، إِنّمَا يَجْمَعُ النّاسَ الرِّضَا وَالسُّخْطُ، وَإِنّمَا عَقَرَ نَاقَةَ ثَمُودَ رَجُلٌ وَاحِدٌ فَعَمَّهُمُ ٱللهُ بِالْعَذَابِ لَمَّا عَمُّوهُ بِالرِّضَا، فقالَ سُبْحَانَهُ: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُواْ نَٰدِمِينَ﴾[1]، فَمَا كَانَ إِلاَّ أَنْ خَارَتْ أَرْضُهُمْ بِالخَسْفَةِ خُوَارَ السِّكَّةِ المُحْمَاةِ فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْخَوَّارَةِ.

أَيُّهَا النّاسُ، مَنْ سَلَكَ الطَّرِيقَ ٱلْوَاضِحَ وَرَدَ ٱلْمَاءَ، وَمَنْ خَالَفَ وَقَعَ فِي التِّيهِ!

الشرح: الاستيحاش: ضدّ الاستئناس، وكثيراً ما يحدِثه التوحّد وعدم الرفيق، فنهى عليه السلام عن الاستيحاش في طريق الهدى لأجل قلّة أهله، فإنّ المهتديَ ينبغي أن يأنس بالهداية، فلا وحشة مع الحقّ.

(١) سورة الشعراء، الآية: ١٥٧.

وعَنَى بالمائدة: الدّنيا، لذّتها قليلة، ونغصتها كثيرة، والوجود فيها زمان قصير جدًا، والعدم عنها زمان طويل جداً.

ثم قال: ليست العقوبة لمن اجترم ذلك الجُرْم بعينه، بل لمن اجترمه ومَنْ رضي به، وإن لم يباشره بنفسه، فإنّ عاقِر ناقة صالح إنّما كان إنساناً واحداً، فعمّ الله ثمودَ بالسخط لما كانوا راضين بذلك الفعل كلّهم، واسم «كان» مضمَر فيها، أي ما كان الانتقام منهم إلاّ كذا.

وخارتْ أرضهم بالخسْفة: صوّتت كما يخور الثور، وشبّه عَلَيْتَلِا ذلك بصوت السّكة المحمَاة في الأرض الخوّارة، وهي الليّنة، وإنّما جعلها محمَاة لتكون أبلغَ في ذهابها في الأرض. ومن كلامه عَلَيْتَلِا يوم خيبر، يقوله لرسول الله ﷺ، وقد بعثه بالرّاية: أكون في أمرِك كالسّكة المحمّاة في الأرض، أم الشاهد يرى ما لا يرى الغائب؟ فقال له: بل يرى الشّاهد ما لا يرى الغائب»[1].

وقال له أيضاً هذه اللفظة لمّا بعثه في شأن مارية القبطية، وما كانت اتُّهمت به من أمر الأسود القبطيّ، ولهذا علّة في العلم الطبيعي، وذلك أنّ السّكّة المحمَاة تخرق الأرض بشيئين: أحدهما تحدُّد رأسها، والثاني حرارته، فإنّ الجسم المحدّد الحارّ إذا اعتُمِد عليه في الأرض اقتضت الحرارة إعانة ذلك الطرف المحدّد على النفوذ بتحليلها ما تلاقي من صلابة الأرض، لأنّ شأن الحرارة التحليل، فيكون غوص ذلك الجسم المحدّد في الأرض أوحى وأسهل.

والتّيه: المفازة يتحيّر سالكها.

قصة ثمود وصالح

قال المفسّرون: إن عاداً لما أهلِكت عَمَرتْ ثمودُ بلادها، وخلَفُوهم في الأرض، وكثروا وعُمّروا أعماراً طوالاً، حتى إنّ الرّجُل كان يبني المسكن المحكم فينهدم في حياته، فنحتوا البيوت في الجبال، وكانوا في سَعة ورخاءٍ من العيش فعتوْا على الله، وأفسدوا في الأرض، وعبدوا الأوثان، فبعث الله إليهم صالحاً، وكانوا قوماً عرباً، وصالح من أوسطهم نسباً، فما آمن به إلا قليل منهم مستضعفون، فحذّرهم وأنذرهم، فسألوه آية، فقال: أية آية تريدون؟ قالوا: تخرج معنا إلى عيدنا - في يوم معلوم لهم من السّنة - فتدعُوا إلهك وندعو إلهنا، فإن استجيب لك اتّبعناك، وإن استجيب لنا اتّبعتَنا.

قال: نعم، فخرج معهم، ودعوا أوثانهم، وسألوها الاستجابة فلم تجبْ، فقال سيّدُهم

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٦٢٩) والبزار في «مسنده» (٢/ ٢٣٧)، وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ١٧٨).

جندع بن عمرو - وأشار إلى صخرة منفردة في ناحية الجبل يسمونها الكاثبة: أخرج لنا في هذه الصخرة ناقة مخترجة جوفاء وَبْراء - والمخترجة: التي شاكلت البُخت -. فإن فعلت صدّقناك أجبناك.

فأخذ عليهم المواثيق، لئن فعلتُ ذلك لتؤمنُنّ ولتصدِّقُنّ؟ قالوا: نعم، فصلّى ودعا ربّه، فتمخضت الصخرة تمخُّضَ النَّتوج بولدها، فانصدعت عن ناقة عُشَراء جَوْفاء وبَراء كما وصفوا، لا يعلم ما بين جنبيها إلا الله، وعظماؤهم ينظرون. ثم نُتِجت ولداً مثلها في العظم، فآمن به جندع ورهطٌ من قومه، ومنع أعقابَهم ناس من رؤوسهم أن يؤمنوا، فمكثت الناقة مع ولدها ترعَى الشَّجر وتشرب الماء، وكانت تردُ غِبًّا، فإذا كان يومها وضعت رأسها في البئر، فما ترفعه حتى تشرب كلّ ماء فيها ثمَ تتفجّج، فيحتلبون ما شاؤوا حتى تمتلىء أوانيهم، فيشربون ويدّخرون، فإذا وقع الحرّ تصيّفَتْ بظهر الوادي، فتهربُ منها أنعامهم، فتهبط إلى بطنه، وإذا وقع البرد تشتّت ببطن الوادي فتهرب مواشيهم إلى ظهره، فشقّ ذلك عليهم، وزيّنَتْ عَقرها لهم امرأتان: عنيزة أم غَنْم وصدقة بنت المختار، لما أضرّت به من مواشيهما، وكانتا كثيرتي المواشي، فعقروها، عَقَرها قدار الأحمر، واقتسموا لحمها وطبخوه.

فانطلق سَقْبها[1] حتى رقَى جبلاً اسمه قارة، فرغاً ثلاثاً، وكان صالح قال لهم: أدركوا الفَصِيل عسى أن يُرْفَع عنكم العذاب، فلم يقدروا عليه، وانفجّت الصخرة بعد رغائه فدخلها، فقال لهم صالح: تصبِحون غداً ووجوهكم مصفرّة، وبعد غدٍ وجوهكم محمرّة، واليوم الثالث وجوهكم مسودّة، ثم يغشاكم العذاب.

فلما رأوا العلامات طلبوا أن يقتلوه، فأنجاه الله سبحانه إلى أرض فلسطين، فلمّا كان اليوم الرابع، وارتفعت الضحوة، تحنّطوا بالصَّبِر، وتكفّنوا بالأنطاع، فأتتهم صيحة من السماء وخسف شديد وزلزال، فتقطعت قلوبهم فهلكوا.

وقد جاء في الحديث أنَّ رسول الله ﷺ مرّ بالحجْر في غزوة تَبُوك، فقال لأصحابه: «لا يدخلنّ أحدٌ منكم القرية، ولا تشربوا من مائها، ولا تدخلوا على هؤلاء المعذّبين إلاّ أن تمرُّوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم»[2].

وروى المحدّثون أن النبيّ ﷺ قال لعليّ عليه السلام: «أتدري مَنْ أشقى الأولين»؟ قال: نعم،

(١) السقب: ولد الناقة. القاموس، مادة (سقب).
(٢) أخرجه البخاري في المغازي، باب: نزول النبي الحجر (٤٤٢٠). ومسلم في الزهد والرقائق، باب «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا...» (٢٩٨٠)، وأحمد في «مسنده» (٥٣٨١).

عاقر ناقة صالح، قال: «أفتدري مَنْ أشقى الآخرين»؟ قال: الله ورسولُه أعلم، قال: «مَنْ يضربك على هذه، حتى تخضَب هذه»[١].

١٩٥ - ومن كلام له عليه السلام عند دفن السيدة فاطمة عليها السلام

الأصل: روي عنه أنه قاله عند دفن سيِّدة النساء فاطمة عليها السلام، كالمناجي به رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عند قبرِهِ.

السَّلاَمُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ الله عَنِّي، وَعَنِ ابْنَتِكَ النَّازِلَةِ فِي جِوَارِكَ، وَالسَّرِيعَةِ اللَّحاقِ بِكَ! قلَّ يا رَسُولَ ٱلله عَنْ صَفِيَّتِكَ صَبْري، وَرَقَّ عَنْهَا تَجَلُّدِي، إِلاَّ أَنَّ فِي التَّأَسِّي لِي بِعَظِيمِ فُرْقَتِكَ، وَفَادِحِ مُصِيبَتِكَ مَوْضِعَ تَعَزٍّ. فَلَقَدْ وَسَّدْتُكَ فِي مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وَفاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نَفْسُكَ، فإِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ! فَلَقَدْ اسْتُرْجِعَتِ الْوَدِيعَةُ، وَأُخِذَتِ الرَّهِينَةُ!

أَمَّا حُزْنِي فَسَرْمَدٌ، وَأَمَّا لَيْلِي فَمُسَهَّدٌ، إِلَى أَنْ يَخْتَارَ ٱلله لِي دَارَكَ الَّتِي أَنْتَ بِهَا مُقِيمٌ. وَسَتُنَبِّئُكَ ابْنَتُكَ بِتضافُرِ أُمَّتِكَ عَلَى هَضْمِهَا. فأَحْفِها السُّؤالَ، وَاسْتَخْبِرْها الحالَ، هَذَا وَلَمْ يَطُلِ الْعَهْدُ، وَلَمْ يَخلُ مِنْكَ الذِّكْرُ. وَالسَّلاَمُ عَلَيْكُما سَلاَمَ مُوَدِّعٍ، لاَ قالٍ وَلاَ سَئِمٍ، فإِنْ أَنْصَرِفْ فَلاَ عَنْ مَلاَلَةٍ، وَإِنْ أُقِمْ فَلاَ عَنْ سُوءِ ظَنٍّ بِمَا وَعَدَ ٱلله الصَّابِرِينَ!

الشرح: أما قول الرضيّ رحمه الله: «عند دفن سيدة النساء»، فلأنه قد تواتر الخبر عنه صلى الله عليه وسلم أنّه قال: «فاطمة سيدة نساء العالمين» إمَّا هذا اللفظ بعينه، أوَ لفظ يؤدّي هذا المعنى، روي أنه قال وقد رآها تبكي عند موته: «ألا ترضيْن أن تكوني سيّدة نساء هذه الأمة!»[٢] وروي أنه قال: «سادات نساء العالمين أربع: «خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية بن مزاحم، ومريم بنت عمران»[٣].

---

(١) أخرجه أبو يعلى في «مسنده» (٤٨٥) والطبراني في «الكبير» (٧٣١١)، وذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ١٣٦).

(٢) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٣/ ١٧٠)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٤/ ٢٥١)، وذكره أبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٤٠).

(٣) ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٩/ ٢٠١).

قوله عليه السلام: «وسريعة اللّحاق بك» جاء في الحديث، أنّه رآها تبكي عند موته فأسرّ إليها: «أنتِ أسرع أهلي لحُوقاً بي»، فضحكت[1].

قوله: «عن صفيّتك» أجلّه صلى الله عليه وآله عن أن يقول: «عن ابنتك»، فقال: «صفيّتك»، وهذا من لطيف عبارته، ومحاسن كنايته، يقول عليه السلام: ضَعُفَ جلدي وصَبْري عن فراقها، لكني أتأسّى بفراقي لك فأقول: كلٌّ عظيم بعد فراقك جَلَل، وكلُّ خطب بعد موتك يسير.

ثم ذكر حاله معه وقتَ انتقاله صلواتُ الله عليه إلى جوار ربّه، فقال: لقد وسَّدْتُك في ملحودة قبرك، أي في الجهة المشقوقة من قبرك، واللّحْد: الشَّقّ في جانب القبر، وجاء بضمّ اللام في لغة غير مشهورة.

قال: «وفاضتَ بين نحري وصدري نفسك»، يروى أنّه صلى الله عليه وآله قذف دماً يسيراً وقت موته. ومَنْ قال بهذا القول زعم أنّ مرضه كان ذات الجنْب، وأن القُرحة التي كانت في الغشاء المستبطن للأضلاع انفجرت في تلك الحال، وكانت فيها نفسُه صلّى الله عليه وآله. وذهبَ قومٌ إلى أنّ مرضه إنّما كان الحميّ والسّرسام الحارّ، وأنّ أهل داره ظنوا أنّ به ذاتَ الجنب فلدُّوه وهو مغمًى عليه، وكانت العرب تداوي باللّدود[2] مَنْ به ذات الجنب، فلما أفاق علم أنهم قد لدُّوه، فقال: «لم يكن الله ليسلّطها عليّ، لُدّوا كلَّ من في الدار»[3]، فجعل بعضهم يَلُدّ بعضاً.

واحتجّ الذاهبون إلى أن مرضه كان ذات الجنب بما روي من انتصابه وتعذّر الاضطجاع والنّوم عليه، قال سلْمان الفارسيّ: دخلتُ عليه صبيحةَ يوم قبل اليوم الذي مات فيه، فقال لي: يا سلْمان، ألا تسألُ عَمّا كابدتُه الليلةَ من الألم والسهر أنا وعليّ! فقلت: يا رسول الله، ألا أسهرُ اللّيلة معك بَدَله؟ فقال: لا هو أحقّ بذلك منك.

وزعم آخرون أنّ مرضه كان أثراً لأكلة السمّ التي أكلها عليه السلام، واحتجُّوا بقوله صلى الله عليه وآله: «ما زالت أكلة خَيْبر تعاودني، فهذا أوانُ قطعت أبهرَي»[4].

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب: فضائل فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وآله (٢٤٥٠). وابن ماجه في ما جاء في الجنائز، باب: ما جاء في ذكر مرض رسول الله صلى الله عليه وآله (١٦٢١)، وأحمد في «مسنده» (٢٥٨٧٤).

(٢) اللدود: ما سقي الإنسان في أحد شقي الفم. اللسان، مادة (لدد).

(٣) أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٤/ ٢٢٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (٨/ ٣٥٣).

(٤) أخرجه أبو داود في الديات، باب: فيمن سقى رجلاً سماً (٤٥١٢)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٤١٥).

ومَنْ لم يذهبْ إلى ذات الجنْب، فأوّلوا قولَ عليّ عليه السلام: «وفاضت بين نحري وصدري نفسُك» فقالوا: أراد بذلك آخر الأنفاس التي يخرجُها الميّت ولا يستطيع إدخال الهواء إلى الرئة عوضاً عنها، ولا بدّ لكل ميّت من نفخةٍ تكون آخر حركاته.

ويقول قوم: إنَّها الروح، وعبّر عليّ عليه السلام عنها بالنفس، لمّا كانت العرب لا ترى بين الرّوح والنفس فَرْقاً.

واعلم أن الأخبار مختلفة في هذا المعنى، فقد روى كثير من المحدثين عن عائشة أنها قالت: «توفّيَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بين سَحْرِي ونحْري»[1].

وروى كثير منهم هذا اللفظ عن عليّ عليه السلام، أنه قال عن نفسه، وقال في رواية أخرى: «ففاضت نفسُه في يدي، فأمررتها على وجهي».

والله أعلم بحقيقة هذه الحال، ولا يبعد عندي أن يصدُق الخبرانِ معاً، بأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت الوفاة مستنداً إلى عليّ وعائشة جميعاً، فقد وقع الاتفاق عَلَى أنه مات وهو حاضر لموته، وهو الذي كان يقلّبه بعد موته، وهو الذي كان يعلّله لياليَ مرضه، فيجوز أن يكون مستنداً إلى زوجته وابن عمّه، ومثل هذا لا يبعد وقوعه في زماننا هذا، فكيف في ذلك الزمان الذي كان النساء فيه والرجال مختلطين، لا يستتر البعض عن البعض.

فإن قلت. فكيف تعمل بآية الحجاب، وما صحّ من استتار أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الناس بعد نزولها؟

قلت: قد وقع اتّفاق المحدثين كلّهم على أن العباس كان ملازماً للرسول صلى الله عليه وسلم أيام مرضه في بيت عائشة، وهذا لا ينكره أحدٌ، فعلى القاعدة التي كان العباس ملازمه صلى الله عليه وسلم كان عليّ عليه السلام ملازمه، وذلك يكون بأحد الأمرين: إمّا بأن نساءه لا يستترن من العبّاس وعليّ لكونهما أهلَ الرجل وجزءاً منه، أو لعلّ النساء كن يختمْرن بأخمرتهنّ، ويخالطن الرجال فلا يرونَ وجوههنّ، وما كانت عائشة وحدَها في البيت عند موته، بل كان نساؤه كلّهن في البيت، وكانت ابنته فاطمة عند رأسه صلى الله عليه وسلم.

فأما حديثُ مرضه صلوات الله عليه ووفاته، فقد ذكرناه فيما تقدم.

قوله: «إنا لله» إلى آخره، أي عبيده، كما تقول: هذا الشيء لزيد، أي يملكه.

ثم عقّب الاعترافَ بالملْكية بالإقرار بالرّجْعة والبعث، وهذه الكلمة تقال عند المصيبة، كما أدّب الله تعالى خَلْقه وعباده.

---

(١) أخرجه البخاري في فرض الخمس، باب: ما جاء في بيوت أزواج النبي (٣١٠٠)، ومسلم في فضائل الصحابة (٢٤٤٣)، وأحمد في «مسنده» (٢٣٦٩٦).

والوديعة والرهينة، عبارة عن فاطمة، ومن هذا الموضع أخذ ابن ثوابة الكاتب قولَه عن قَطْر النّدى بنت خمارويه بن أحمد بن طولون، لما حمِلَتْ من مصر إلى المعتضد أحمد بن طلحة بن المتوكل: «وقد وصلت الوديعة سالمة، والله المحمود، وكيف يوصي الناظر بنوره أم كيف يحضّ القلب على حفظ سروره»!

وأخذ الصابي هذه اللفظة أيضاً، فكتب عن عزّ الدولة بختيار بن بويه، إلى عدّة الدّولة أبي تَغْلِب بن حمدان، وقد نقل إليه ابنته: «قد وجّهت الوديعة ياسيّدي، وإنما تقلب من وطن إلى سكن، ومن مغرس إلى مغرس، ومن مأوَى برٍّ وانعطاف، إلى مثوى كرامة وألطاف».

فأما الرّهينة فهي المرتهنَة، يقال للمذكّر: هذا رهين عندي على كذا، وللأنثى: هذه رهينة عندي على كذا، كأنها عليها السلام كانتْ عنده عوَضاً من رؤية رسول الله صلى الله عليه وآله، كما تكونُ الرهينة عوَضاً عن الأمر الذي أخذت رهينةً عليه.

ثم ذكر عليه السلام أنّ حزنه دائمٌ، وأنه يسهر ليله ولا ينام إلى أن يلتحِقَ برسول الله صلى الله عليه وآله ويجاوره في الدار الآخرة، وهذا من باب المبالغة، كما يبالغ الخطباء والكتّاب والشعراء في المعاني، لأنه عليه السلام ما سهر منذ ماتت فاطمة ودام سهره إلى أن قتل عليه السلام، وإنما سهر ليلة أو شهراً أو سنة، ثم استمرّ مريرُه، وارعوى رسنُه، فأمّا الحزن فإنه لم يزل حزيناً إذا ذكرت فاطمة، هكذا وردت الرواية عنه.

قوله عليه السلام: «وستنبئك ابنتُك»، أي ستعلمك.

فأحفها السؤال، أي اسْتقصِ في مسألتها، واستخبرها الحال، أحفيت إحفاءً في السؤال: استقصيت، وكذلك في الحجاج والمنازعة، قال الحارث بن حِلّزة:

إنّ إخوانـنـا الأراقـم يَـغْـلُـو ... ن علينا في قِيلِهِمْ إحفاءُ

ورجل حفيّ، أي مستقصٍ في السؤال.

واستخبِرْها الحال، أي عن الحال، فحذف الجار، كقولك: اخترت الرجال زيداً، أي من الرجال، أي سَلْها عمّا جرى بعدك من الاستبداد بعقد الأمر دون مشاورتنا، ولا يدلّ هذا على وجود النصّ، لأنه يجوز أن تكون الشكوى والتألّم من اطّراحهم وترك إدخالهم في المشاورة، فإنّ ذلك ممّا تكرهه النفوس وتتألّم منه، وهجا الشاعر قوماً، فقال:

وَيُقْضَى الأمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ ... وَلاَ يُسْتَأذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ

قوله: «هذا ولم يَطل العهد، ولم يخلُق الذّكر»، أي: لم ينس.

فإن قلت: فما هذا الأمر الذي لم ينس ولم يخلُق، إن لم يكن هناك نصّ؟

قلت: قوله ﷺ: «إنّي مخلّف فيكم الثَّقَلين»[1]، وقوله: «اللّهمّ أدِرِ الحقّ معه حيث دار»[2]، وأمثال ذلك من النصوص الدالّة على تعظيمه وتبجيله ومنزلته في الإسلام، فهو عليه السلام كان يريد أن يؤخّر عَقْد البيعة إلى أن يحضر ويُستشار، ويقع الوفاق بينه وبينهم، على أن يكون العَقْد لواحدٍ من المسلمين بموجِبه، إمّا له أو لأبي بكر، أو لغيرهما، ولم يكن ليليقَ أن يبرم الأمر وهو غير حاضر له، مع جلالته في الإسلام، وعظيم أثره، وما ورد في حقّه من وجوب موالاته والرجوع إلى قوله وفعله، فهذا هو الذي كان ينقِم عليه السلام، ومنه كان يتألّم ويُطيل الشّكوى، وكان ذلك في موضعه. وما أنكر إلاّ منكَراً. فأمّا النصّ فإنّه لم يذكره عليه السلام، ولا احتجّ به، ولما طال الزمان صَفَح عن ذلك الاستبداد الّذي وقع منهم، وحضر عندهم فبايعهم، وزال ما كان في نفسه.

فإن قلت: فهل كان يسوغُ لأبي بكر، وقد رأى وثوبَ الأنصار على الأمر أن يؤخّره إلى أن يخرج عليه السلام ويحضر المشورة؟

قلت: إنّه لم يلمْ أبا بكرٍ بعينه، وإنّما تألّم من استبداد الصحابة بالأمر دون حضوره ومشاورته. ويجوز أن يكون أكثر تألّمه وعتابه مصروفاً إلى الأنصار الذين فتحوا باب الاستبداد، والتغلّب.

كلام مصنوع لأبي حيان في حديث السقيفة

وروى القاضي أبو حامد أحمد بن بشير المروروذيّ العامريّ فيما حكاه عنه أبو حيّان التوحيديّ، قال أبو حيّان: سمرنا عند القاضي أبي حامد ليلةً ببغداد بدار ابن جيشان، في شارع الماذيان، فتَصرّف الحديث بنا كلّ متصرّف، وكان والله مِعنّا مِزيلاً مِخلطاً عزيز الرواية، لطيف الدّراية له في كلّ جو متنفَّس، وفي كل نار مقتبَس، فجرى حديث السقيفة، وتنازع القوم الخلافة، فركب كلٌّ منّا فنًّا، وقال قولاً، وعرّض بشيء ونزع إلى مذهب، فقالَ أبو حامد: هل فيكم من يحفَظ رسالة أبي بكر إلى عليّ، وجواب عليّ له ومبايعته إياه عَقِيب تلك الرسالة؟ فقالت الجماعة: لا والله، فقال: هي والله من دُرَر الحِقاق المصونة، ومخبّآت الصناديق في الخزائن المحوطة، ومنذ حفظتها ما رويتُها إلا للمهلّبي في وزارته، فكتبها عنّي في خَلوْة بيده، وقال: لا أعرف في الأرض رسالةً أعقل منها، ولا أبين، وإنّها لتدلّ على عِلْم وحُكْم، وفصاحة وفقاهة، في دين ودهاء، وبعد غَوْر، وشدّة غَوْص.

---

(١) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة، باب: من فضائل علي بن أبي طالب (٢٤٠٨)، وأحمد في «مسنده» (١٠٧٢٠) وكليهما بلفظ: «إني تارك...».
(٢) أخرجه الترمذي في المناقب، باب: مناقب علي بن أبي طالب (٣٧١٤).

فقال له واحدٌ من القوم: أيها القاضي، فلو أتممت المنّة علينا بروايتها سمعناها ورويناها عنك، فنحنُ أوْعَى لها من المهلّبيّ، وأوجب ذِماماً عليك!

فقال: هذه الرسالة رواها عيسى بن دأب، عن صالح بن كيسان، عن هشام بن عُروة، عن أبيه عُروة بن الزبير، عن أبي عبيدة بن الجراح.

قال أبو عبيدة: لما استقامت الخِلافة لأبي بكر بين المهاجرين والأنصار، ولحظ بعيْن الوقار والهيبة - بعد هَنَةٍ كادَ الشّيطان بها يُسَرّ فدفع الله شرّها، وأدحض عسرها، فركد كَيْدها، وتيّسر خيرها، وقصَم ظهر النفاق والفسق بين أهلها - بَلَغ أبا بكر عن عليّ عليه السلام تلكّؤٌ وشماس، وتهَمُهم ونِفَاس، فكرِه أن يتمادى الحال وتبدُوَ له العورة، وتنفرج ذاتُ البين، ويصيرَ ذلك دريئة لجاهل مغرور، أو عاقل ذي دَهاء، أو صاحب سلامة ضعيف القلب، خوّار العنان، دعاني في خلوة فحضرته، وعنده عمر وحدَه - وكان عمر قبساً له وظهيراً معه، يستضيء بناره، ويستملي من لسانه - فقال لي:

يا أبا عبيدة، ما أيْمَنَ ناصيتك، وأبيَن الخيرَ بين عارضيْك! لقد كنتَ مع رسول الله ﷺ بالمكان المحوط، والمحلّ المغبُوط، ولقد قال فيك في يوم مشهود: «أبو عبيدة أمين هذه الأمة»[1]، وطالما أعزّ الله الإسلام بك، وأصلح ثَلْمه على يديك، ولم تزلْ للدّين ناصراً وللمؤمنين رَوْحاً، ولأهلك ركناً، ولإخوانكَ مَردًّا! قد أردتُك لأمر لَهُ بعده، خطرُه مخوف، وصلاحه معروف، ولئن لم يندَمِل جرحُه بِمسبارك ورِفْقِك، ولم تُجَبَّ حيّته برقيتك، لقد وقع اليأس، وأعضل البأس، واحتيج بعدك إلى ما هو أمرّ من ذلك وأعلق، وأعسر منه وأغلق، والله أسأل تمامَه بك، ونظامه على يدك. فتأتّ له يا أبا عبيدة، وتلطّفْ فيه، وانصح لله ولرسوله، ولهذه العِصَابة، غير آلٍ جهداً، ولا قالٍ حمداً، والله كالئك وناصرك، وهاديك ومبصّرك.

امض إلى عليّ، واخفض جناحَك له، واغضُض من صوتك عنده، واعلم أنه سُلالة أبي طالب، ومكانه ممّن فقدناه بالأمس مكانه، وقل له: البحر مغرقة، والبرّ مفرقة، والجوّ أكْلَف، والليل أغْلَف، والسماء جلواء، والأرض صلعاء، والصّعود متعذّر، والهبوط متعسّر، والحقّ عَطوف رؤوف، والباطل نَسوف عصوف، والعُجْب مقدَحة الشّرّ، والضّغن رائد البوار، والتّعريض شِجار الفتنة، والقِحة مفتاح العداوة، والشيطان متّكيء على شماله، باسط ليمينه، نافجٌ حِضْنَيه لأهله، ينتظر الشّتات والفرقة، ويدبّ بين الأمة بالشّحناء والعداوة، عناداً لله

---

(١) أخرج نحوه البخاري في المغازي، باب: قصة أهل نجران (٤٣٨٠)، ومسلم في فضائل الصحابة، باب: فضائل أبي عبيدة بن الجراح (٢٤١٩)، والترمذي في المناقب، باب: مناقب معاذ بن جبل (٣٧٩٠).

ولرسوله ولدينه، يوسوِسُ بالفُجور، ويدلِيّ بالغرور، ويمنّي أهلَ الشرور، ويوحي إلى أوليائه بالباطل، دأباً له منذ كان على عهد أبينا آدم، وعادة منه منذ أهانه الله في سالف الدّهر، لا يُنجَى منه إلا بعضّ الناجذ على الحقّ، وغضّ الطرف عن الباطل، ووطء هامة عدوّ الله والدّين، بالأشدّ فالأشدّ، والأجدّ فالأجدّ، وإسلام النّفس لله فيما حاز رضاه، وجنّب سخطه.

ولا بدّ من قولٍ ينفع إذ قد أضرّ السكوت وخيف غِبُّه، ولقد أرشدك من أفاء ضالتَّك، وصافاك مَنْ أحيا مودّته لك بعتابك، وأراد الخيرَ بك مَنْ آثر البُقْيا معك.

ما هذا الذي تسوّل لك نفسُك، ويَدوَي به قلبُك، ويلتوي عليه رأيُك، ويتخاوص دونه طرفك، ويستشري به، ضغنك، ويترادُّ معه نَفَسُك، وتكثر لأجله صُعَداؤك، ولا يفيض به لسانُك! أعجمة بعد إفصاح، ألَبساً بعد إيضاح! أديناً غير دين الله! أخُلُقاً غير خُلق القرآن! أهَدْياً غير هدى محمد! أمثلي يُمشى له الضَّراء ويدبّ له الخمَر! أم مِثلُك يغَصّ عليه الفضاء، ويكسَف في عنيه القمر! ما هذه القَعْقعة بالشِّنان، والوَغْوعة باللِّسان! إنك لجدّ عارف باستجابتنا لله ولرسوله، وخروجنا من أوطاننا وأولادنا وأحبّتنا، هجرةً إلى الله ونُصرةً لدينه، في زمان أنت منه في كِنّ الصِّبا وخِدْر الغَرارة غافل، تُشبّب وتُربّب. لا تعِي ما يُشاد ويراد، ولا تحصِّل ما يساق ويقاد، سوى ما أنت جارٍ عليه من أخلاق الصبيان أمثالك، وسجايا الفتيان أشكالك، حتى بلغت إلى غايتك هذه التي إليها أجرِيت، وعندها حُطّ رحلك، غير مجهولِ القَدْر ولا مجحود الفضل، ونحن في أثناء ذلك نعاني أحوالاً تزيلُ الرواسي، ونقاسي أهوالاً تُشيب النواصي، خائضين غمَارها، راكبين تيّارها، نتجرّع صابها، ونُشرِجُ عِيابها، ونُحكِم آساسها، ونبرم أمراسَها، والعيون تحدّج بالحسد، والأنوف تعطس بالكِبْر، والصُّدُور تَستَعِر بالغَيْط، والأعناق تتطاول بالفخر، والأسنّة تشحذ بالمكر، والأرض تميدُ بالخوف، لا ننتظر عند المساء صباحاً، ولا عند الصباح مساء، ولا ندفع في نَحْر أمر إلاّ بعد أن نحسُوَ الموت دونه، ولا نبلغ إلى شيء إلاّ بعد تجرّع العذاب قبله، ولا نقوّم منآداً إلا بعد اليأس من الحياة عنده، فادِين في كلّ ذلك رسول الله ﷺ بالأب والأمّ، والخال والعمّ، والمال والنّشب والسّبَد واللّبَد، والهِلّة والبِلّة، بطيب أنفس وقُرّة أعين، ورُحب أعطان، وثَبات عزائم، وصحّة عُقول، وطلاقة أوْجُه، وذلاقة ألْسن. هذا إلى خبيئات أسرار، ومكنونات أخبار، كنت عنها غافلاً، ولولا سنُّك لم تكُ عن شيء منها ناكلاً. كيف وفؤادك مشْهُوم وعودك معجوم، وغيبك مخبور، والخير منك كثير! فالآن قد بلغ الله بك، وأرهصَ الخيرَ لك، وجعل مرادك بين يديك، فاسمع ما أقول لك، واقبل ما يعودُ قبوله عليك، ودع التحبّس، والتعبّس لمن لا يضلع لك إذا خطا، ولا يتزحزح عنك إذا عطا، فالأمر غضّ، وفي النفوس مَضّ، وأنت أدِيمُ هذه الأمّة فلا تَحلَم لجاجاً، وسيفها العضب فلا تنبُ اعوجاجاً، وماؤها العذب فلا تَحُلّ أجاجاً، والله لقد

سألتُ رسول الله ﷺ عن هذا لمن هو؟ فقال هو لمن يرغب عنه، لا لمن يجاحش عليه، ولمن يتضاءل له لا لمن يشمَخ إليه، وهو لمن يقال له: هو لك، لا لمن يقول: هو لي.

ولقد شاورني رسولُ الله ﷺ في الصّهر، فذكر فتياناً من قريش، فقلت له. أين أنت من عليّ! فقال: إنّي لأكره لفاطمة مَيْعة شبابه، وحِدّة سنجه. فقلت: متى كنفته يدُك، ورعتْه عينُك، حفّت بهما البركة، وأسبِغت عليهما النّعمة، مع كلام كثير خطبتُ به رغبته فيك، وما كنتُ عرفت منك في ذلك حَوْجاء ولا لوْجاء، ولكني قلت ما قلت، وأنا أرى مكان غيرك، وأجد رائحة سواك، وكنتُ لك إذْ ذاك خيراً منك الآن لي. ولئن كان عرّض بك رسول الله ﷺ في هذا الأمر، فقد كَني عن غيرك، وإن قال فيك، فما سكت عن سواك، وإن اختلج في نفسك شيء، فهلّم فالحكم مرضيّ، والصواب مسموع، والحق مُطاع.

ولقد نقل رسول الله ﷺ إلى ما عند الله وهو عن هذه العِصابة راض وعليها حَدِب، يسرّه ما سرّها، ويكيده ما كادها، ويُرضيه ما أرضاها، ويسخطه ما أسخطها. ألم تعلم أنه لم يَدَعْ أحداً من أصحابه وخلطائه، وأقاربه وسُجَرائه، إلا أبانَهُ بفضيلة، وخصّهُ بمزيّة، وأفرده بحالة، لو أصفقت الأمة عليه لأجْلِها لكان عنده إيالتها وكَفالتها.

أتظنّ أنه عليه السلام تركَ الأمة سُدًى بَدَداً، عِداً مباهلَ عباهلَ طلاحَي مفتونة بالباطل، ملويّة عن الحقّ: لا ذائد ولا رائد، ولا ضابط ولا خابط ولا رابط، ولا سافيَ ولا واقي، ولا حاديَ ولا هاديَ، كلاّ والله ما اشتاق إلى ربّه، ولا سأله المصير إلى رضوانه، إلاّ بعد أن أقام الصُّوى، وأوضح الهدى، وأمّن المهالك، وحَمَى المطارح والمبارك، وإلاّ بعد أن شَدَخَ يافوخ الشِّرْك بإذن الله، وشرم وجه النّفاق لوجه الله، وجدَع أنف الفتنة في دين الله، وتَفَل في عين الشيطان بعون الله، وصدع بملء فيه ويده بأمر الله.

وبعد، فهؤلاء المهاجرون والأنصار عندك ومعك في بقعة جامعة، ودار واحدة، إن استقادوا لك وأشاروا بك، فأنا واضع يدي في يدك، وصائر إلى رأيهم فيك، وإن تكن الأخرى، فادخل في صالح ما دخل فيه المسلمون، وكنت العونَ على مصالحهم، والفاتح لمغالِقهم، والمرشدَ لضالّهم، والرادع لغاويهم، فقد أمر الله بالتعاون على البرّ، وأهاب إلى التناصر على الحقّ. ودعنا نقضِ هذه الحياة الدنيا بصدور بريئة من الغلّ ونلقى الله بقلوب سليمة من الضّغن.

وإنما النّاس ثُمامة فارفُق بهم، واحنُ عليهم، ولِنْ لهم، ولا تسوّل لك نفسُك فرقتَهم، واختلاف كلمتهم، واترك ناجمَ الشرّ حصيداً، وطائر الحِقْد واقعاً، وباب الفتنة مغلَقاً، لا قال ولا قيل، ولا لومَ ولا تعنيف، ولا عتاب ولا تثريب، والله على ما أقول وكيل، وبما نحن عليه بصير.

قال أبو عبيدة: فلما تهيّأتُ للنهوض، قال لي عمر: كنْ على الباب هنيهةً فلي معك ذَرْوٌ من الكلام. فوقفت وما أدري ما كان بعدي، إلاّ أنه لحقني بوجه يَنْدَى تهلّلاً، وقال لي: قل لعلّي: الرّقاد محلمة، واللجاج ملحمة، والهوى مقحمة، وما منّا أحدٌ إلا له مقام معلوم، وحقٌّ مشاع أو مقسوم، وبناء ظاهر أو مكتوم، وإِنَّ أكْيَس الكَيْسَى مَنْ منح الشّارد تألُّفاً، وقارب البعيد تلطّفاً، ووزَن كلَّ أمرٍ بميزانه، ولم يجعل خبره كعِيانه، ولا قاس فتره بشبره، ديناً كان أو دنيا، وضلالاً كان أو هدى، ولا خير في علم معتمل في جهل، ولا في معرفة مشوبة بنكر.

ولسنا كجلدة رُفْغِ[1] البعير بين العِجَان وبين الذنَبْ

وكلّ صالٍ فبناره يصلَى، وكلّ سيل فإلى قراره يجري. وما كان سكوت هذه العِصابة إلى هذه الغاية لعيّ وحصَر، ولا كلامها اليوم لفرَقٍ أو حَذَر، فقد جدع الله بمحمد ﷺ أنفَ كلّ متكبِّر، وقصم به ظهرَ كلّ جبّار، وسلْ لسان كلّ كذوب، فماذا بعد الحق إلا الضلال!

ما هذه الخنزوانة التي في فِرَاش رأسك؟ وما هذا الشُّجا المعترض في مدارج أنفاسك، وما هذه الوَحَرة الّتي أكلت شَرَاسِيفَك، والقَذَاة التي أعشَتْ ناظرك؟ وما هذا الدّخس والدّس اللذان يدلاّن على ضيق الباع، وخوَر الطباع! وما هذا الذي لَبِسْت بسببه جِلْدَ النّمِر، واشتملت عليه بالشحناء والنُّكر! لشدّ ما استسعيت لها، وسريت سُرَى ابن أنقد إليها، إنّ العَوان لا تعلَّم الخِمْرة. ما أحوج الفرعاء إلى فالية، وما أفقر الصلعاء إلى حالية، ولقد قُبِضَ رسولُ الله ﷺ والأمر معبَّد مخيّسٌ، ليس لأحدٍ فيه ملمس، لم يسيّر فيك قولاً، ولم يستنزل لك قرآناً، ولم يجزم في شأنك حكماً، لسنا في كسرويَّة كِسْرى، ولا قيصرية قيصر، تأمُل إخوان فارس وأبناء الأصفر، قد جعلهم الله جَزَراً لسيوفنا، ودريئة لرماحنا، ومرمى لطعاننا! بل. نحن في نور نبوّة، وضياء رسالة، وثمرة حكمة وأثر رحمة، وعنوان نعمة، وظل عصمة، بين أمة مهديَّة بالحق والصدق، مأمونة على الرّتق والفتق، لها من الله تعالى قلب أبيّ، وساعد قويّ، ويد ناصرة، وعين ناظرة.

أتظنّ ظنًّا أنّ أبا بكر وثبَ على هذا الأمر مُفتاتاً على الأمة، خادِعاً لها، ومتسلّطاً عليها! أتراه امتلخ أحلامها، وأزاغ أبصارها، وحلّ عقودها، وأحال عقولها، واستّل من صدورها حميّتها، وانتكث رشاءها، وانتصبَ ماءها، وأضلّها عن هداها، وساقها إلى رداها، وجعل نهارها ليلاً، ووزنها كيلاً، ويقظتها رقاداً، وصلاحها فساداً! إن كان هكذا، إنّ سحره لمبين، وإن كيده لمتينٌ. كلاّ والله، بأيّ خيل ورجْل، وبأيّ سنان ونصل، وبأيّ مُنة وقوّة، وبأيّ مال وعُدّة، وبأيّ أيدٍ وشدّة وبأي عشيرة وأسرة، وبأي قدرة ومُكْنَة، وبأي تدرّع وبسطة! لقد أصبح بما وسمتَه منيع الرّقبة، رفيع العتبة. لا والله لكن سَلاَ عنها فولهتْ نحوه، وتطامن لها فالتفت

(١) رفغ البعير: أصل فخذه، القاموس، مادة (رفغ).

به، ومال عنها، فمالت إليه، واشمأزّ دونها فاشتملت عليه، حبوةٌ حباه الله بها، وغايةٌ بلّغه الله إليها، ونعمة سربله جمالها، ويدٌ لله أوجب عليه شكرها، وأمةٌ نظر الله به لها وطالما حلّقت فوقه في أيام النبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتفت لِفْتَها، ولا يرتصد وقتها، والله أعلم بخلقه، وأرأف بعباده، يختار ما كان له الخيرَة. وأنك بحيث لا يجهل موضعك من بيت النبوّة، ومعدن الرسالة، وكهف الحكمة، ولا يجحد حقك فيما آتاك ربّك من العلم، ومنحك من الفقه في الدين، هذا إلى مزايا خُصِصْتَ بها، وفضائلَ اشتملت عليها، ولكن لك مَنْ يزاحمك بمنكبٍ أضخمَ من مَنكبك، وقُربى أمسَّ مِنْ قورباك، وسنّ أعلى من سنّك، وشَيْبة أروع من شيبتك، وسيادة معروفة في الإسلام والجاهلية، ومواقف ليس لك فيها جَمَل ولا ناقة، ولا تذكَر فيها في مقدّمة ولا ساقة، ولا تضرِبُ فيها بذراعٍ ولا إصبع، ولا تعدُّ منها ببازل ولا هُبَع.

إن أبا بكر كان حبّة قلب رسول الله ﷺ وعِلاقة هَمِّه، وعيْبة سرّه ومثوى حزنه، وراحة باله، ومرْمَق طرفه، شهرته مغنية عن الدلالة عليه.

ولعمري إنك لأقرب منه إلى رسول الله ﷺ قرابة، ولكنّه أقرب منك قُرْبة، والقرابة لحم ودم، والقُرْبة روح ونفس، وهذا فَرْقٌ يعرفه المؤمنون، ولذلك صاروا إليه أجمعون.

ومهما شكَكْتَ فلا تشكّ في أنّ يدَ الله مع الجماعة، ورضوانه لأهل الطاعة، فادخل فيما هو خير لك اليوم وأنفع غداً، والْفِظْ مِن فيك ما هو متعلّق بَلهاتك، وانفُث سَخِيمة صدرك، فإن يكن في الأمد طُول، وفي الأجل فسحة، فستأكله مريئاً أو غير مريء، وستشر به هنيئاً وغير هنيء، حين لا رادّ لقولك إلا من كان آيساً منك، ولا تابع لك إلا مَنْ كان طامعاً فيك، حين يمُضّ إهابَك، ويفْرِي أديمَك، ويزرِي على هَدْيك، هناك تَقْرَع السنّ من ندم، وتشرب الماء ممزوجاً بدم، حين تأسي على ما مضَى من عمرك، وانقضى وانقرض من دارِج قومك، وتودّ أن لو سقِيت بالكأس التي سقيتَها غيرك، ورُدِدت إلى الحال التي كنت تكرهها في أمْسِك، ولله فينا وفيك أمر هو بالغه، وعاقبة هو المرجّو لسرّائها وضَرّائها، وهو الوليّ الحميد الغفور الودود.

قال أبو عبيدة: فمشيت إلى عليّ مثَبّطاً متباطئاً، كأنما أخطو على أمّ رأسي فَرَقاً من الفتنة، وإشفاقاً على الأمة، وحذراً من الفرقة، حتى وصلت إليه في خلاءٍ فأبثثته بثي كلّه، وبرئت إليه منه، ودفعته له. فلما سمعها ووعاها، وسرَت في أوصالِه حُميّاها قال: حلّت معلوّطة، وولت مخروّطة، ثم قال:

إحْدَى ليـاليـكِ فـهِيـسِي هيِـسـي   لاَ تَـنْـعَـمِـي الـلَّـيْـلَـةَ بـالـتَّـعْـرِيـسِ

يا أبا عبيدة، أهذا كلّه في أنفس القوم يستنبطونه ويضْطَغنون عليه! فقلت: لا جواب عندي، إنّما جئتُك قاضياً حقَّ الدين، وراتقاً فتْق الإسلام، وسادًا ثُلْمة الأمة؟ يعلم الله ذلك من جُلجلان قلبي، وقرارة نفسي.

فقال: ما كان قعودي في كِسْر هذا البيت قصداً لخلاف، ولا إنكاراً لمعروف، ولا زراية على مُسلم، بل لما وقَذَني به رسول الله ﷺ من فراقه، وأودعني من الحزن لفقده، فإنّي لم أشهد بعده مشهداً إلا جدّد عليّ حزناً، وذكّرني شَجَناً، وإنّ الشّوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع في غيره، وقد عكفت على عهد الله أنظر فيه، وأجمع ما تفرّق منه، رجاء ثواب معدّ لمن أخلص لله عمله، وسلّم لعلمه ومشيئته أمرَه، على أنّي أعلم أنّ التظاهر عليّ واقع، ولي عن الحق الذي سيق إليّ دافع، وإذ قد أُفعِمَ الوادي لي، وحُشِد النادي عليّ، فلا مرحباً بما ساء أحداً من المسلمين، وفي النّفس كلام لولا سابق قولٍ، وسالف عهد، لشفيتُ غيظي بخنصَري وبِنْصَرِي، وخُضتُ لُجّتَه بأخمصِي ومَفْرَقي، ولكنّي ملجَم إلى أن ألقى الله تعالى، عنده أحتسب ما نزل بي، وأنا غادٍ إن شاء الله إلى جماعتكم، ومبايع لصاحبكم، وصابر على ما ساءني وسرّكم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، وكان الله عَلَى كل شيء شهيداً.

قال أبو عبيدة: فعدت إلى أبي بكر وعمر، فقصَصْتُ القولَ عَلَى غرّه، ولم أترك شيئاً من حلوه ومُرّه، ذكرت غُدُوّه إلى المسجد، فلما كان صباح يومئذٍ وافَى عليّ فخرق الجماعة إلى أبي بكر وبايعه، وقال خيراً، ووصف جميلاً، وجلس زُمَيْناً، واستأذن للقيام ونهض، فتبعه عمر إكراماً له، وإجلالاً لموضعه، واستنباطاً لما في نفسه، وقام أبو بكر إليه فأخذ بيده، وقال: إنّ عِصابة أنت منها يا أبا الحسن لمعصومة، وإنّ أمة أنت فيها لمرحومة، ولقد أصبحت عزيزاً علينا، كريماً لدينا، تخاف الله إن سخطت، ونرجوه إذا رضيت، ولولا أني شُدِهت لما أجبت إلى ما دعيت إليه، ولكني خفت الفرقة، واستئثار الأنصار بالأمر عَلَى قريش، وأعجِلت عن حضورك ومشاورتك ولو كنتَ حاضراً لبايعتك ولم أعدل بك، ولقد حطّ الله عن ظهرك ما أثقل كاهِلي به، وما أسعد من ينظر الله إليه بالكفاية! وإنا إليك لمحتاجون، وبفضلك عالمون، وإلى رأيك وهَدْيِك في جميع الأحوال راغبون، وعَلَى حمايتك وحفيظتك معوّلون. ثم انصرف وتركه مع عمر.

فالتفت عليّ إلى عمر فقال: يا أبا حفص، والله ما قعدت عن صاحبك جزعاً عَلَى ما صار إليه، ولا أتيته خائفاً منه، ولا أقول ما أقول بعلّة، وإني لأعرف مَسْمَى طرْفي ومَخْطَيْ قدميّ، ومنزع قوسي، وموقع سهمي، ولكني تخلّفت إعذاراً إلى الله، وإلى من يعلم الأمر الذي جعله لي رسول الله، وأتيت فبايعت، حفظاً للدّين، وخوفاً من انتشار أمر الله.

فقال له عمر: يا أبا الحسن، كَفْكِف من غربك، ونَهْنِه من شرّتك، ودع العصا بلحائها، والدلو برشائها، فإنّا مِنْ خَلْفها ووراءها. إن قَدَحْنا أورينا، وإن متحنا أروينا، وإن قَرَحْنا أدمينا، وقد سمعت أمثالك التي ألغزت بها صادرة عن صدر دَوٍ، وقلب جَوٍ. زعمت أنّك قعدت في كِسِرْ بيتك لِمَا وَقَذَك به فراق رسول الله. أفراق رسول الله ﷺ، وَقَذك وحدك ولم

يقِذْ سواك! إنّ مصابه لأعزّ وأعظم من ذاك، وإنّ من حقّ مصابه ألاّ تَصدع شَمْل الجماعة بكلمة لا عصام لها، فإنّك لَتَرَى الأعراب حولَ المدينة لو تَدَاعَتْ علينا في صبح يوم لم نَلْتَقِ في ممساه. وزعمت أنّ الشّوق إلى اللّحاق به كافٍ عن الطمع في غيره، فمن الشّوق إليه نصرة دينه، وموازرة المسلمين عليه، ومعاونتهم فيه.

وزعمَت أنّك مكبٌّ على عهد الله تجمع ما تفرّق منه، فمن العكوف على عهدِه النصيحة لعباده، والرأفة على خلقه، وأن تبذل من نفسك ما يصلُحون به ويجتمعون عليه.

وزعمتَ أنّ التظاهر عليك واقع، أيّ تظاهر وقع عليك! وأيّ حقٍّ استُؤثر به دونك! لقد علمتَ ما قالت الأنصارُ أمس سرًّا وجهراً، وما تقلَّبَتْ عليه ظهراً وبطناً، فهل ذكرتْك أو أشارت بك، أو طلبت رَضاها من عندك! وهؤلاء المهاجرون، مَن الّذي قال منهم إنّك صاحبُ هذا الأمر، أو أومأ إليك، أوهمهم بك في نفسه! أتظنّ أنّ الناس ضلُّوا من أجلك، أو عادوا كُفَّاراً زهداً فيك، أو باعوا الله تعالى بهواهم بغضاً لك!

ولقد جاءني قوم من الأنصار، فقالوا: إنّ عليًّا ينتظر الإمامة، ويزعم أنّه أولَى بها من أبي بكر، فأنكَرتُ عليهم ورددتُ القول في نحورهم، حتى قالوا: إنّه ينتظر الوحيَ ويتوكّف مناجاة الملك! فقلت: ذاك أمر طواه الله بعد محمّد عليه السلام.

ومن أعجب شأنك قولك: «لولا سابق قول لشفيت غيظي بخنصري وبنصري»! وهل ترك الدّين لأحدٍ أن يشفيَ غيظه بيده أو لسانه! تلك جاهليّة استأصل الله شأفَتَها، واقتلع جرثومتها، ونوّر ليلها، وغوّر سيلها، وأبدل منها الرّوح والريحان، والهدى والبرهان!

وزعمت أنّك ملجَم، فلعمري إنّ من اتقى الله، وآثر رضاه، وطلب ما عنده، أمسك لسانه، وأطبق فاه، وغلب عقلُه ودينه على هواه.

وأما قولُك: «إنّي لأعرف منزَع قوسي»، فإذا عَرَفْتَ مَنْزَع قوسِك عرف غيرك مضرَب سيفه، ومطعَن رمحه. وأمّا ما تزعمه من الأمر الذي جعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لك، فتخلّفت إعذاراً إلى الله، وإلى العارفة به من المسلمين، فلو عرفه المسلمون لجنحُوا إليه، وأصفقوا عليه، وما كان الله ليجمَعه على العَمى، ولا ليضرِبهم بالصبا بعد الهدى، ولو كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم فيك رأي، وعليك عزم، ثم بعثه الله، فرأى اجتماع أمّته على أبي بكر، لما سفّه آراءهم، ولا ضلّل أحلامهم، ولا آثرك عليهم، ولا أرضاك بسخطهم، ولأمَرك باتّباعهم، والدخول معهم فيما ارتضوْه لدينهم.

فقال عليّ: مهلاً أبا حفص أرشدك الله! خفّض عليك، ما بذلتُ ما بذلتُ وأنا أريد عنه حِوَلاً، وإن أخسرَ النّاس صفقة عند الله مَنْ استبطن النفاق، واحتضن الشّقاق، وفي الله خَلَف

ن كلّ فائت، وعِوَضٌ من كلّ ذاهب، وسلْوة عن كلّ حادث، وعليه التّوكّل في جميع حوادث. ارجع أبا حفصٍ إلى مجلس ناقعَ القلب، مبرود الغليل، فصيح اللسان، رحب صّدر، متهلّل الوجه، فليس وراء ما سمعته منّي إلاّ ما يشدّ الأزر، ويحبط الوِزر، ويضع ضر، ويجمع الألفة، ويرفع الكلفة، إن شاء الله.

فانصرف عمر إلى مجلسه.

قال أبو عبيدة: فلم أسمع ولم أر كلاماً ولا مجلساً كان أصعبَ من ذلك الكلام والمجلس.

قلت: الذي يغلب على ظنّي أنّ هذه المراسلات والمحاورات والكلام كلّه مصنوع ضوع، وأنّهُ من كلام أبي حيان التوحيديّ، لأنه بكلامه ومذهبه في الخطابة والبلاغة أشبَه، د حفظنا كلامَ عمر ورسائله، وكلام أبي بكر وخُطبه، فلم نجدهما يذهبان هذا المذهب، ولا لكان هذا السبيل في كلامهما، وهذا كلام عليه أثر التوليد ليس يخفي، وأين أبو بكر وعمر البديع وصناعة المحدثين! ومَنْ تأمّل كلامَ أبي حيّان عرف أنّ هذا الكلام من ذلك المعدِن رج، ويدلّ عليه أنه أسنده إلى القاضي أبي حامد المرورّوذيّ، وهذه عادته في كتاب «البصائر» ند إلى القاضي أبي حامد كلّ ما يريد أن يقوله هو من تلقاء نفسه، إذا كان كارهاً لأن ينسب ه، وإنما ذكرناه نحن في هذا الكتاب، لأنّه وإن كان عندنا موضوعاً منحولاً، فإنّه صورة ما رت عليه حال القوم، فهم وإن لم ينطقوا به بلسان المقال، فقد نطقوا به بلسان الحال.

وممّا يوضّح لك أنّه مصنوع، أنّ المتكلّمين على اختلاف مقالاتهم من المعتزلة والشيعة لأشعريّة وأصحاب الحديث، وكلّ مَنْ صنّف في علم الكلام والإمامة لم يذكر أحد منهم مة واحدة من هذه الحكاية، ولقد كان المرتضى رحمه الله يلتقِطُ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام لفظة الشاذّة، والكلمة المفردة الصادرة عنه عليه السلام، في معرض التألّم والتظلّم، فيحتجّ بها، عتمِد عليها، نحو قوله: «ما زلت مظلوماً مذ قبِض رسول الله حتى يوم الناس هذا».

وقوله: «لقد ظُلِمْت عَدَد الحجر والمَدَر».

وقوله: «إنّ لنا حقًّا إن نعطَه نأخذه، وإن نُمنعه نركبْ أعجازَ الإبل، وإن طال السُّرى».

وقوله: «فصبرتُ وفي الحلْق شجاً، وفي العين قذًى».

وقوله: «اللهم إني أستعديك على قريش فإنّهم ظلموني حقّي، وغصبوني إرْثي».

وكان المرتضى إذا ظفر بكلمة من هذه، فكأنما ظفر بملْك الدنيا ويودِعها كتبَه وتصانيفه، ين كان المرتضى عن هذا الحديث! وهلا ذُكِر في كتاب «الشافي في الإمامة» كلام أمير مؤمنين عليه السلام هذا، وكذلك من قبله من الإمامية كابن النعمان، وبني نُوبخت، وبني بابويه غيرهم، وكذلك مَنْ جاء بعده متأخري متكلّمي الشيعة وأصحاب الأخبار والحديث منهم إلى

وقتنا هذا! وأين كانَ أصحابُنا عن كلام أبي بكر وعمر له عليه السلام! وهلاّ ذكره قاضي القضاة في «المغني» مع احتوائه على كلّ ما جرى بينهم، حتى إنّه يمكن أن يجمع منه تاريخ كبير مفرد في أخبار السقيفة! وهلاّ ذكره مَنْ كان قبل قاضي القضاة من مشايخنا وأصحابنا ومَنْ جاء بعده من متكلّمينا ورجالنا! وكذلك القول في متكلّمي الأشعرية وأصحاب الحديث كابن الباقلانيّ وغيره، وكان ابنُ الباقلانيّ شديداً على الشّيعة، عظيم العصبيّة عَلَى أمير المؤمنين عليه السلام، فلو ظفرَ بكلمة من كلام أبي بكر وعمر في هذا الحديث لملأت الكتب والتصانيف بها، وجعلها هِجّيراه ودَأْبه.

والأمر فيما ذكرناه من وضع هذه القصّة ظاهر لمن عنده أدنى ذوق من علم البيان، ومعرفة كلام الرجال، ولمن عنده أدنى معرفة بعلم السِّيَر، وأقلّ أنس بالتواريخ.

قوله عليه السلام: «مودّع لا قالٍ ولا مبغض ولا سئم»، أي لا ملول، سئمت من الشيء أسأم سأماً وسآماً وسآمة، سئمته إذا مللته، ورجل سؤوم.

ثم أكّد عليه السلام هذا المعنى، فقال: «إن انصرفتُ فلا عن ملالة، وإن أقمت فلا عن سوء ظنّ بما وعد الله الصابرين»، أي ليست إقامتي عَلَى قبرِك وجزعي عليك، إنكاراً مني لفضيلة الصبر والتجلّد والتعزّي والتأسّي، وما وعد الله به الصابرين من الثواب، بل أنا عالم بذلك، ولكن يغلبني بالطَّبْع البشري.

وروي أن فاطمة بنت الحسين عليها السلام ضربت فسطاطاً على قبر بعلها الحسن بن الحسن عليه السلام سنة، فلما انقضت السنة قوّضت الفسطاس راجعةً إلى بيتها، فسمعت هاتفاً يقول: هل بلغوا ما طلبوا! فأجابه هاتف آخر، بل يئسوا فانصرفوا.

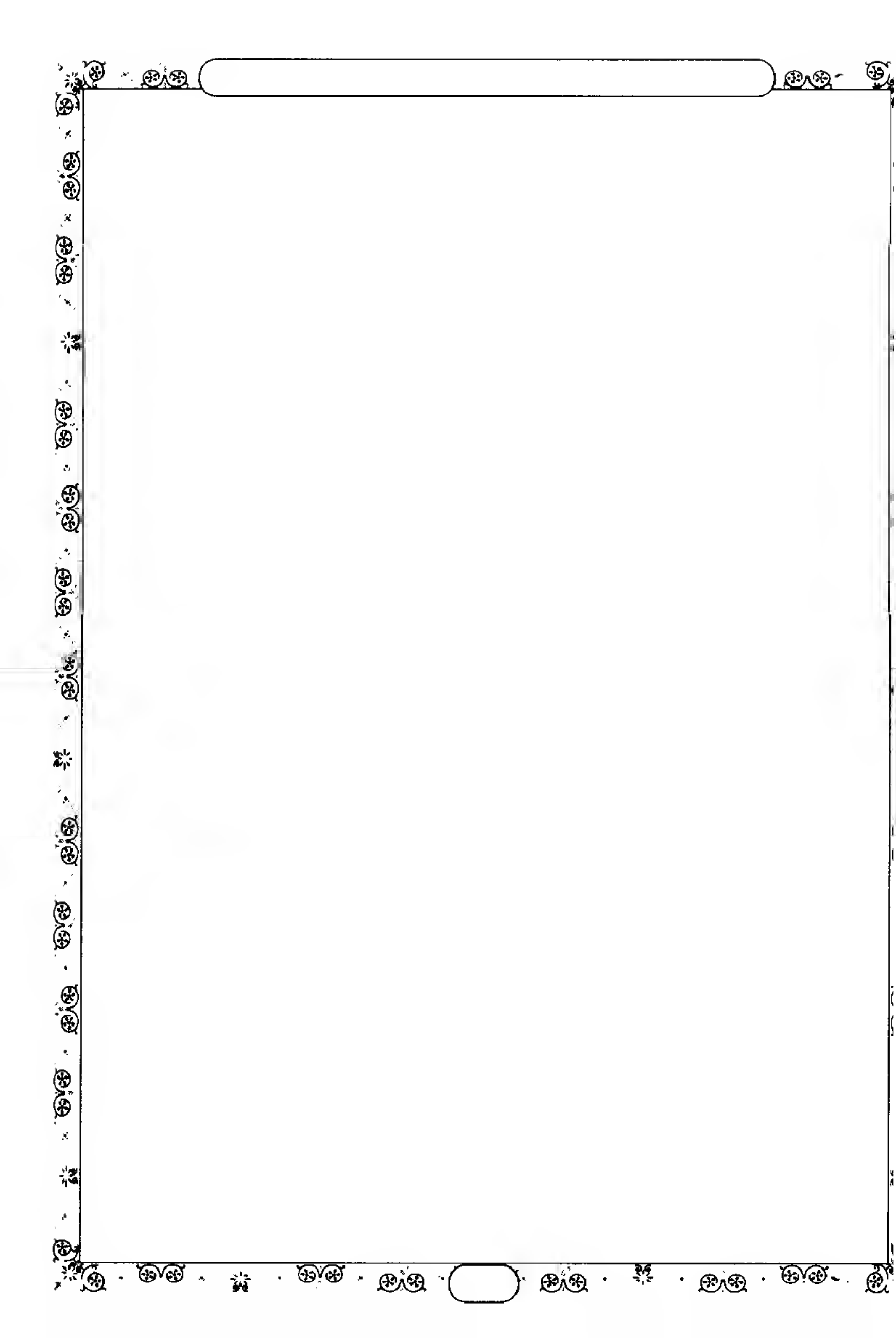
وذكر أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد في كتابه «الكامل» أن علياً عليه السلام تمثّل عند قبر فاطمة:

ذكرت أبا أرْوَى فبتّ كأنّني ... بردّ الهموم الماضيات وكيلُ
لكلّ اجتماعٍ من خليلين فرقةٌ ... وكلّ الذي دُون الفراق قليلُ
وإن افتقادي واحداً بعد واحدٍ ... دليلٌ عَلَى ألاّ يدوم خليلُ

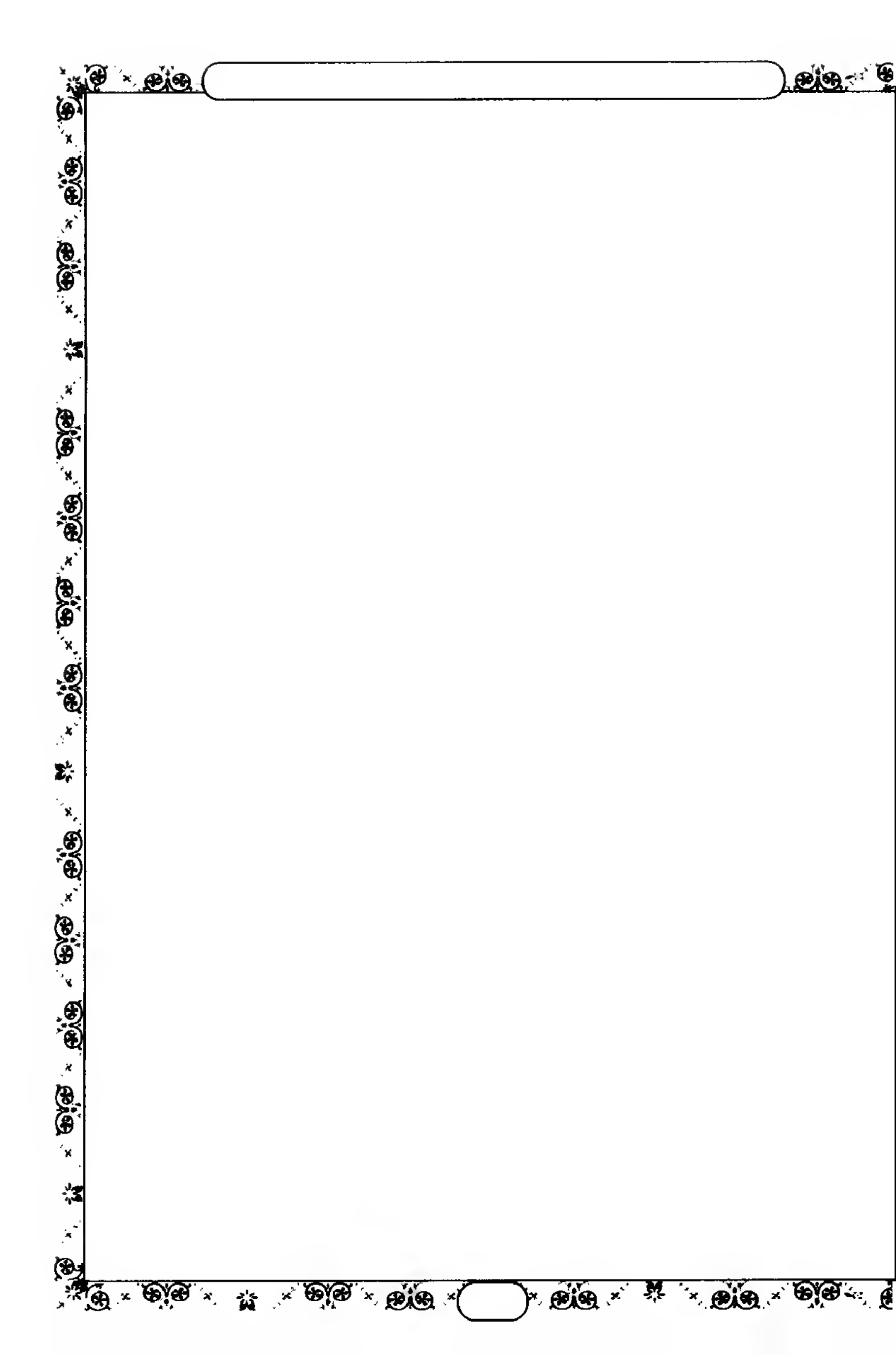
والناس يرونه:

وإن افتقادي فاطماً بعد أحمدٍ

تم الجزء العاشر من شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ويليه الجزء الحادي عشر



فهرس



الفهرس

الموضوع | الصفحة

الجزء التاسع

الجزء العاشر